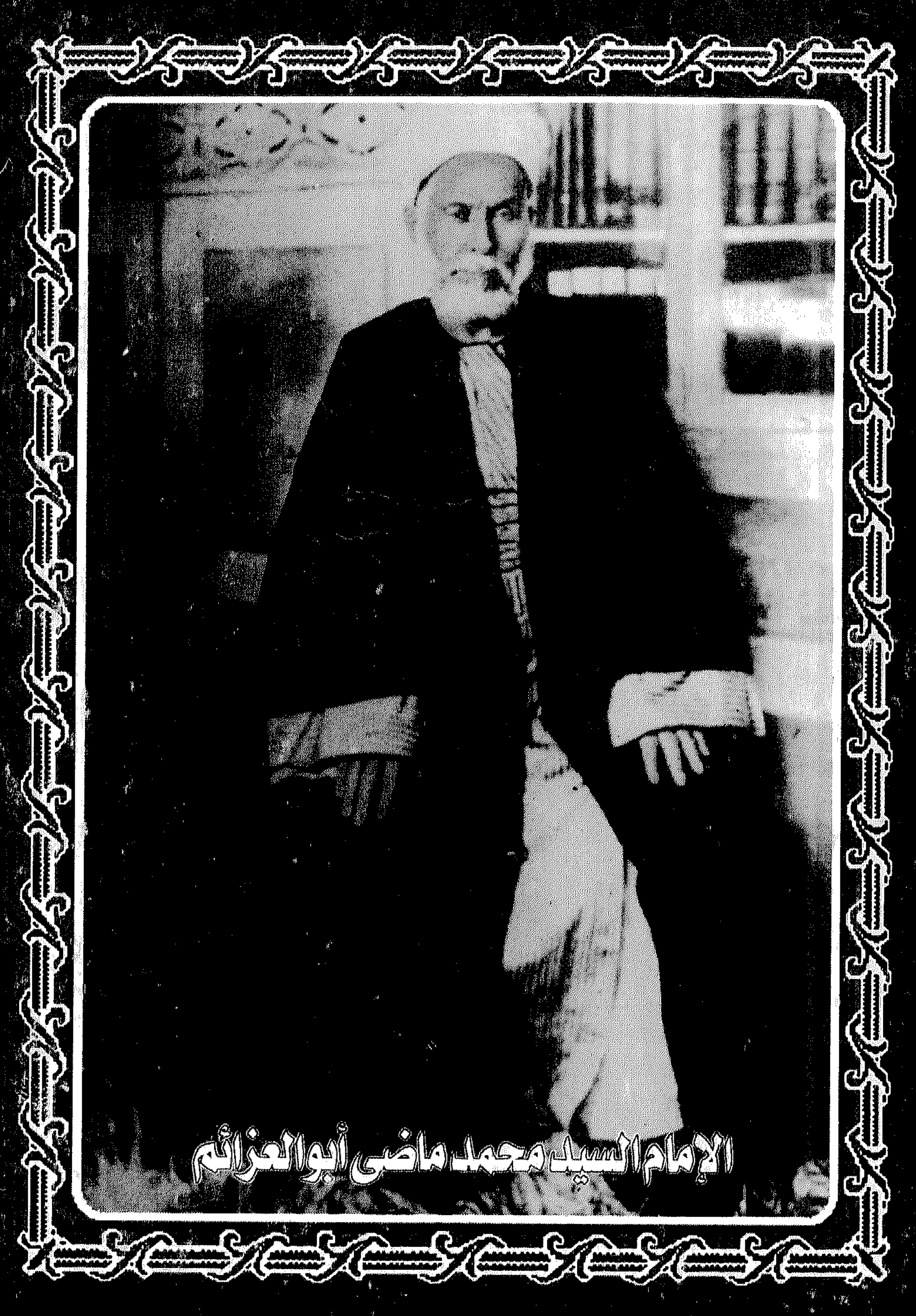
دار الكتاب الصوفي
تقدم

خاتم الوراث المحمديين



عني بطبعه

السيد علاء أبو العزائم


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

دار الكتاب الصوفى
تقـــدم



الإمام المجدد

السيد محمد ماضى أبو العزائم

أنا آية الآيات من سر الورى   أنا خاتم الورّاث من باريه

عنى بطبعه
السيد محمد علاء الدين ماضى أبو العزائم
شيخ الطريقة العزمية



الطبعة الأولى رجب ١٤١٨ هـ - نوفمبر ١٩٩٧ م

رقم الإيداع
٩٧ / ١٣٨٥٧
I. S. B. N.
977 - 5273 - 32 - 3

الإهـــــداء

إلى المجاهد الأكبر، والعقل الذى استنار بأنوار اليقين ، والقلب الذى حمل الأمانة فأدّاها ، واليد التى ما كفّت عن الإحسان يومًا ، والهمة السامية العالية التى شهد لها العدو قبل الصديق .

إلى الواصل لرحمه ، والمحسن لأهله ، والبار بأبيه وجده .

إلى سيدى ومولاى السيد عز الدين ماضى أبى العزائم رضى الله عنه وأرضاه ، أهدى هذا الكتاب الذى كان يحلم طوال حياته أن يراه خارجًا للنور .

وادعو الله تعالى أن يعيننى على الوفاء بعهده ، واستكمال مسيرته ، والقيام بحقوق تبعته ، وأوجه إليه سبحانه وجهى ، وأسند إليه جل شأنه ظهرى ، لا ملجا ولا منجى منه إلا إليه .



فاتحة الكتاب

الحمد لله الذى نظر بعين العناية لأهل الخصوصية فجملهم بحلل الهداية ، ومنحهم التوفيق والإقبال على ذاته العلية بإخلاص نية .

والصلاة والسلام على شمس الهداية ، صراط الحق المستقيم ، الدال على الله بالله ، وحصن الأمن الحصين الذى من خالفه ضل وغوى ومن اتبعه أحبه الله وهداه ، سيدنا ومولانا محمد ، عبد الله ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه وسلم ..

وبعـــد :

تقدم دار الكتاب الصوفى التابعة لمشيخة الطريقة العزمية الطبعة الأولى من هذا الكتاب الذى طال انتظاره قرابة الستين عامًا .

وإنه من الواجب وقبل كل شئ أن نحيط إخواننا الذين لم يعاصروا الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم ، وكذلك الذين لم يدركوا من زمنه إلا النذر اليسير ، والذين لم يعاصروه ، أن يتعرفوا على نشأته الأولى ، ودراسته التى حصَّل فيها العلم إلى أن عمل بالتدريس ، وجهاده فى استمرار نشر الدعوة إلى الله ورسوله ، إلى أن لقى ربه .

وهذه العناصر الرئيسية :

(١) نشأته رضى الله عنه .

(٢) دراسته وتحصيله للعلم ومناهل العرفان .

(٣) عمله بالتدريس فى البلاد المصرية وغيرها .

(٤) جهاده رضى الله عنه فى نشر الدعوة الإسلامية وتجديد ما اندرس من الدين .

هذه العناصر هى غاية ما نقصده من كتابنا هذا ، لنضع بين يدى القارئ صورة كاملة لحياة الإمام المحمدى نسبًا ومنهجًا وسلوكًا ، بعد أن لعبت السياسة دورها ، وأدت وسائل الإعلام وقتها وظيفتها فى إخفاء دوره وإسدال الستار على سيرته . وأملنا أن يتذوق القارئ رحيقًا طهورًا من صافى عناية الله بأحبابه الأطهار والمصطفين الأخيار .

ومن المعلوم أنه عندما يراد إنزال زعيم أو قائد فكر أو مصلح اجتماعى أو رجل دين منزلته ، فإنه يجب النظر إلى ما قدمه من أعمال للنهوض بالإنسانية ونفع المجتمع البشرى

والدعوة إلى الخير والسهر على ما يحقق لبنى الإنسان سعادتهم .

وإن كان الأمر كذلك ، فكيف نُنْزِل الإمام السيد محمد ماضى أبا العزائم منزلته من خلال حقبة من الزمن بلغت سبعين عامًا لا يزال تأثيرها سار حتى الآن بما خلفه رضى الله عنه وتركه من تراث فكرى ، نثرى ونظمى ، احتوى مختلف جوانب الحياة بعلومها وفنونها ، فأصبح بحق جامع وجامعة يستحق الدراسة للوقوف على جوانب العظمة فيها ، فلو تفرغ نفر من علماء الدين واللغة والأدب والسياسة والاقتصاد وعلم النفس والاجتماع والفلسفة والتاريخ ... إلخ كل فى تخصصه لدراسة جوانب الشخصية المتعددة وآثارها ، لما وسعتهم السنون ، ولما أسعفتهم الأوراق والأحبار والأقلام .

وقد أبى الله إلا أن يتم نوره ويظهره على كل الأنوار ، وتلك حكمة الله فى خلقه ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾[1]، وبعد هذا السبات الطويل قيض الله سبحانه وتعالى ولأول مرة مجموعة من باحثى الماجستير والدكتوراه ، فحاموا حول الحمى ودندنوا ثم انصرفوا ، فمنهم من قام بدراسة مواجيده القلبية (وهى قصائد الوجد) والتى تعد بالآلاف ، فما كان منه - وجزاه الله خير الجزاء - إلا أن قام هو ومشرفوه بأقصى مجهود ممكن لكنهم اهتموا بظاهر المواجيد وأرادوا قياسها بمعايير الشعر فبهروا من شدة ما لاحظوا ، ومنهم من اهتم بنثر الإمام ، فاختلفت المعايير التى يقيس بها ما لاحظ فى هذا النثر الراقى ، ومنهم من قام بدراسة الدور الفكرى والتربوى والسياسى والاجتماعى والفنى وخلافه ، فجزاهم الله خيرًا ، فإن أول الطريق الطويل خطوة .

ومن كبار الشخصيات الدينية التى تعرضت لسيرة الإمام وعلومه :

- الدكتور محمود الفحام شيخ الأزهر السابق ، فيقول عن الإمام رضى الله عنه : لقد عاصرت فى شبابى فترة من فترات حياة الإمام المجدد ، فلمست عن قرب جهاده فى إعلاء كلمة الدين ، وأسلوبه الحكيم فى معالجة الأمور بما يجب أن يكون عليه العلماء المرشدون والأئمة الصالحون .
- الدكتور عبد الحليم محمود شيخ الأزهر السابق عندما طُلب منه أن يكتب مقدمة لكتاب أسرار القرآن قال : أنا لا أستطيع أن أقدم لتفسير أسرار القرآن للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم وأتحدث عن علمه فى تفسير القرآن ، لأنه تفسير جامع وشامل ، ولا يستطيع أن يُقدِّم لهذا العمل سوى الإمام أبى العزائم نفسه ، فقد كتب رضى الله عنه مقدمة للتفسير ولا يصلح أن يقدمه بعد ذلك أحد ، وأرجو ألا تطلبوا

---

(١) سورة فاطر آية ٢ .

منى ولا من غيرى أن يقدم الإمام أبا العزائم .

- الدكتور مصطفى محمود بعد فترة من الإطلاع على الكتب والمواجيد الخاصة بالإمام أبى العزائم بدأ يكتب كتابه الشهير (السر الأعظم) ، والذى يعتمد فيه على بحث واستقصاء لآراء الأقطاب الكبار الكمل من أهل الكشف والفتوحات ممن لاشك فى مكانتهم العلمية وصدقهم ، أمثال ابن عربى والغزالى والنفرى والجيلى وابن الفارض وأبى العزائم ، يقول الدكتور مصطفى محمود عن علوم الإمام :

« والإمام أبو العزائم يقول هذا الكلام عن علم كشفى لدنى ، وهو فى نظرى كنز لم يكتشف بعد ، وقطب ينافس الفحول فكرًا وعلمًا وسلوكًا ، وشعره لا يخضع للمواصفات الفنية للشعر ، إنما هو شفرة ورموز عرفانية عالية يفهم منها كل واحد على قدر حظه . ونحن ما قدمنا من علم الرجل إلا نقطة من بحر » .

وتقديرًا لما قدمه الإمام ، فقد منحت الدولة لاسم الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم نوط الامتياز من الطبقة الأولى فى احتفال ليلة القدر مساء الخميس ٢٦ رمضان ١٤١١هـ الموافق ١٩٩١/٤/١١م ، وقد سلم السيد الرئيس محمد حسنى مبارك هذا النوط إلى سماحة السيد عز الدين ماضى أبى العزائم حفيد الإمام وشيخ الطريقة العزمية وقتذاك .

وكما أن الحياة تستحيل بدون الشمس ، إذ أن حركات الشمس وتنقلها فى بروجها إنما هى لحفظ كيان الحياة الجسمانية ، فإن حياة الرجال حتمًا هى قوت وغذاء للأرواح . وعند تعرضنا لتلك السيرة ، هنا تبرز المواهب والفضائل والمكارم والمناقب والآداب لتفرض نفسها فى مجالها ، وتربيته وعلمه وحكمته ، وغيرته فى الله ورسوله ، وتفانيه فى خدمة الإسلام والمسلمين ، ورحمته بالبؤساء والفقراء والأيتام ، ورأفته بالعصاة والمذنبين حتى أنقذهم من بؤرة الفساد ، وسياسته الحكيمة فى نهضة الوطن ، وقيادة الزعماء برأيه الصائب وفكره الثاقب .. كلها مواهب تفوق الحصر ، وكذلك خدمته للصوفية والتصوف حتى أحياها وأعادها شمسًا ساطعة بعد اندراسها وزوالها ، وقد حولها المتمصوفة من حياة تجريد إلى حياة ثريد ، ومن معرفة إلى خرافة ، ومن حياة نور إلى معيشة ظلمة ، ومن علم إلى جهالة ، مما أدى بأهل الاستنارة فى العالم الإسلامى إلى ازدراء التصوف وأهله مما شاهدوه من بدع وخرافات حيث كان مقصورًا على الدجل والشعوذة والطبول والدفوف .

إن الشخصية عظيمة ، لأنها حوت من السمو والنبل وكرم الأخلاق والعفة والنزاهة

وعزوف النفس عن النقائص ما يعرفه كل من خالطها عن كثب ، حتى أعداؤه الذين عادوه وآذوه ، فما فعلو ذلك إلا غيرة منه . إمام ضحى بكل ما يملك من نفس ونفيس ، فقد قام فى كل أدوار حياته بسلسلة من الإصلاحات العظيمة حفظها له التاريخ وسجلها بمداد من نور لا يمحى على مر العصور والدهور . وكم أُوذِىَ فى سبيل الله فصبر ، وكم حاربه الاستعمار الباطش بشتى الوسائل فصابر رابط الجأش قوى الجنان ثابت العزيمة لا يتطرق إليه الوهن ولا يعرف الضعف . ولازمه الثبات فكان فى كل مواقفه قوى الإرادة وثابت العزيمة سامى النفس مؤمنًا بحقه مؤمنًا بواجبه لا تأخذه فى الله لومة لائم ولا يعرف فى الحق هوادة ، ويقف أمام الخطوب النازلة بهذا الشرق موقف الأسد الهصور الذى يزأر دفاعًا عن العرين . وقد حباه الله من الصفات الرفيعة والأخلاق الكريمة وحسن الرعاية للمسترشدين ما حببه إلى النفوس ورغبه إلى القلوب ، حتى أن الكلمة الواحدة كانت تعمل عملها فى نفس سامعها . ولا غرابة فى ذلك ، فقد عرف أسرار الدين معرفة حقة ، فهو رجل شريعة من الطراز الأول وأستاذ لها ، تبحر فيها وتضلع ، فكانت منهجه الذى روض عليه نفسه قبل أن يقوم بتعليمه لغيره ، ثم اغترف من عين الحقيقة ، فصار عالمًا ربانيًا جمع ما بين الشريعة والحقيقة ، وكان من نتيجة ذلك أن أفاض على الناس من بحر علمه وأغدق عليهم من جزيل معرفته ، فاسترشدت به العامة وتبصرت به الخاصة ، فكانت عظاته ونصائحه تصل إلى القلوب المريضة فتشفيها ، وإلى النفوس العليلة فتنعشها وتحييها ، وإلى الطباع السقيمة فتنجاب عنها غياهب الظلام ، حتى هدى الله على يديه من الخلق وأسلم أيضًا على يديه ما لايأتى عليه الحصر ، سواء فى مصر والسودان أو فى جميع أنحاء العالم .

ولا يفوتنى أن أقدم خالص شكرى وتقديرى للشيخ نصر أحمد سعد العقاد ، وفضيلة الدكتور محمد سليمان فرج ، وفضيلة الشيخ طاهر محمد مخاريطة ، والحاج أحمد سرور ، والشيخ محمد عامر ، والأستاذ أحمد فريد جبر ، والشيخ سيف محمد أحمد ، والشيخ أحمد بيومى ، والأستاذ عبد السلام شتا ، والحاج عبد الرحمن أبو على ، والحاجة فاطمة عبد الباسط القاضى على ما أمدونا به من مواد علمية أثرت هذا الكتاب .

وكذلك أخص بالشكر الدكتور نبيل محمد فوزى على الجهد الكبير الذى بذله فى جمع مادة هذا الكتاب .

وأقدم خالص امتنانى للأخوة الأستاذ سامى قطب مهنا ، والأستاذ سميح قنديل ، وفضيلة الشيخ قنديل عبد الهادى على مراجعة مادة الكتاب .

وفى النهاية أقدم خالص شكرى وتقديرى للأخ عبد الحليم إبراهيم المنسى « العزمى » على الجهد الكبير الذى بذله فى تصحيح المادة وإعادة صياغتها وترتيبها وإخراجها فى أحسن صورة .

نفعنا الله بعلوم إمامنا وأسراره ومدده ، وجمعنا معه على سيدنا رسول الله ﷺ فى الدنيا والآخرة ، وأبتهل إلى الله تعالى أن يمدنى دائمًا بالتوفيق ويلحظ عملى بعين القبول إنه حميد مجيد .

دار الكتاب الصوفى

فى يوم الخميس

٢٧ رجب ١٤١٨ هـ

٢٧ نوفمبر ١٩٩٧م

شيخ الطريقة العزمية

السيد محمد علاء الدين ماضى أبو العزائم

تمهيد

هاجر آل بيت رسول الله ﷺ إلى أفريقيا بعد أن دام الاضطهاد لهم من الأمويين والعباسيين على السواء، وظهرت أول دولة لآل البيت فى التاريخ على مسرح إفريقيا، وفى مراكش بالذات عام ١٦٩ - ١٧٠هـ (٧٨٥ - ٧٨٦ م) تحت اسم دولة الأدارسة فى عهد خلافة الهادى بن المهدى. ففى عام ١٦٩هـ خرج الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المدينة على حكم العباسيين وأعلن أحقية بيته فى الحكم وأن العباسيين لم يستطيعوا القيام بعبء رسالة الإسلام. وخرج مع الحسين بن على من سارعوا بالاستجابة له والالتفاف حوله، فحاربوا معه والى المدينة وانتصروا عليه، ثم ساروا إلى مكة فانضم إليهم كثيرون، ولكن العباسيين تمكنوا منهم جميعًا وقتلوهم وعلقوا رءوس مائة منهم وفى مقدمتها رأس الحسين بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب ليدخل الخوف منها إلى قلوب الناس. وقد شهد هذه النهاية الحزينة للحسين: عمه إدريس، ورأى أنه لم يعد له فى الجزيرة العربية مقام، فهاجر إلى مصر حين علم أن (واضح) والى القاهرة وكان محبًا لآل البيت وينتصر لهم فى غير ضجة، ولكن واضحًا قال له: إن الحال فى مصر ليس مهيئًا لإعلان ظهوره والدعوة له، وأنه يرى من الخير أن يتوجه إلى المغرب الأقصى ليكون بعيدًا ما أمكن عن عيون الخلافة العباسية، فخرج من مصر متنكرًا ليس وراءه من أحد إلا تابع له يسمى (راشد)، وظل يواصل السير حتى استقر أخيرًا فى مدينة تسمى (دليلى) بالمغرب عام ١٧٢هـ.

لقد حظى آباء الإمام بعطف الحكام من المرابطين الذين أسسوا دولتهم بالمغرب بعد أن انتهت دولة الأدارسة، ودولة الفاطميين، ودولة زيرى الصنهاجية فى تونس وشرقى الجزائر، وكان المرابطون طلائع الفتح الإسلامى فى دول الدائرة الإفريقية الغربية حتى الاستوائية، فشعارهم جهاد النفس (الجهاد الأكبر)[(١)] لإعدادها لتحمل مشاق الجهاد الحق ﴿وجاهدوا فى الله حق جهاده﴾[(١)] لنشر الإسلام، وحمل لواء هذه الرسالة فى إقامة دولة المرابطين داعية مخلص هو عبد الله بن ياسين وكان معه رجل أو بضعة رجال، فلما كثر الأتباع بين البربر وفى الصحراء الكبرى قامت بهم دولة المرابطين وبنى عاصمة

---

(١) روى البيهقى فى الزهد من حديث جابر: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر).

(١) سورة الحج آية ٧٨.

لهم فى مدينة مراكش[٠]. وفى سبيل نشر الإسلام قسم إخوان المرابطين أنفسهم قسمين :

(١) أولهما : سار نحو الشمال بقيادة المرابط الورع يوسف بن تاشفين حيث وحد شمال المغرب الأقصى وسارع لنجدة المعتمد بن عباد وبعد سقوط طليطلة فى يد ألفونس الذى اتجه بعدها إلى أكبر ممالك الأندلس دولة العبابدة بأشبيلية ليبتلعها فينتهى الإسلام بالأندلس، فعبر يوسف بن تاشفين البحر إلى الأندلس تلبية لاستغاثة ابن عباد، وزحف بجيوش جرارة أبادت قوى الشر والشرك فى موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ وأفنى جيش ألفونس بأكمله وكان ٥٠ ألف محارب.

(٢) ثانيهما : سار على ساحل المحيط نحو الجنوب قاده أبو بكر بن عمرو فوصل إلى أحواض أنهار السنغال وجامبيا وغينيا، وبدأ ينشر الإسلام بين أهلها، وفتح الله عليهم أبواب إفريقيا الغربية والاستوائية، وتغلغلوا فى الصحراء ينشرون دين الله الخاتم ويسعدون الناس بتعاليمه السمحة بأسلوب صوفى بسيط ببناء الزوايا وجعلها منارات ومراكز دينية وتجارية يجمعهم أقطاب من الصوفية مثل سيدى أبى مدين الأندلسى أو سيدى الجزولى أو سيدى أحمد بن محمد التجانى.

وكان المرابطون يدينون بالمذهب المالكى، وهو المذهب الذى انتشر فى هذا الوقت فى المغرب العربى ونجح نجاحًا كبيرًا فى الاحتفاظ للمجتمع المغربى بوحدته وقوته، ومن أتباع هذا المذهب كانت أسرة الإمام أبى العزائم، والإمام نفسه من بعدهم كان يدين بالمذهب المالكى.

هجرة أسرة الإمام أبى العزائم إلى مصر :

عاش أجداد الإمام أبى العزائم فى مدينة فاس ثم انتقلوا منها إلى قرية عين ماضى، وقد حظوا بعطف المرابطين الذين أسسوا دولتهم بعد الأدارسة. وفى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) زالت دولة المرابطين وحل مكانها دولة الموحدين الذين اعتنقوا مذهب المعتزلة[٣] واضطهدوا العلماء من أهل السنة وحاربوا الفقهاء وحرقوا كتبهم

---

(٠) كتاب «دولة الطوائف» ص ٣٠٣ - ٣٠٨ محمد عبد الله عنان.

(٣) القول المشهور إن هذا الاسم اطلق عليهم بعد واقعة اعتزال واصل بن عطاء لمجلس الحسن البصرى فقال : اعتزلنا واصل، وقد أضافوا إلى أصول العدل والتوحيد والوعد والوعيد أصل المنزلة بين المنزلتين، وخالفوا فى حكم مرتكب الكبيرة، وتوقفوا فى تحديد الطرف المخطئ فى الصراع الذى دار بين سيدنا عثمان وخصومه، وسيدنا على وخصومه، واعتمدوا على العقل ووثقوا بحكمه فى التحسين والتقبيح دون حاجة إلى النصوص.

وشردوهم ، عندئذ هاجرت أسرة الإمام مع كثير من أهل البيت من المغرب إلى مصر التى سبقهم إليها الأئمة أبو الحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وأبو القاسم القبارى وأحمد البدوى رضوان الله عليهم أجمعين .

ووجد أهل البيت كل ترحاب من أهل مصر لأنهم جاءوا فى وقت عصيب وهو مطلع القرن السابع عشر ، فها هم التتار فى أقصى الشرق يغيرون على الوطن الإسلامى ، والصليبيون فى الغرب يكيدون للإسلام ويعدون العدة لغزو بلاد المسلمين .

وفى وسط هذا الجو الملبد بالغيوم والمليئ بالحزن والضيق من مكر الأعداء ، وجد المصريون فى العترة النبوية الطاهرة طوق النجاة فتعلقوا بأغصان هذه الشجرة المباركة يستمدون منها العون والقوة الإيمانية لمواجهة الأعداء .

استقرار أسرة الإمام بقرية محلة " أبو على " :

استقر الجد الرابع للإمام أبى العزائم (السيد ماضى) بعد أن هاجر من المغرب إلى مصر بقرية « محلة أبو على »، وهى إحدى القرى التابعة لمركز دسوق حاليًا بمحافظة كفر الشيخ (مديرية الغربية سابقًا) . وقد قوبل السيد ماضى بالحفاوة والتكريم بوصفه من الأشراف الذين ينتمون لآل البيت .

وقد اتخذت بلدة « محلة أبو على » وضعًا ممتازًا بالنسبة لإقليم الغربية كله منذ العصور الإسلامية الأولى ، فقد بُنى بها أول مسجد بعد الفتح الإسلامى مباشرة فى زمن عمرو بن العاص ، وكان هذا المسجد بمثابة أول جامعة إسلامية يؤمها الطلاب من كل حدب وصوب . وقد اشتهر علماء هذا الإقليم بغزارة العلم والتقوى والورع والزهد ، وامتلأت قلوبهم بالصفاء والرحمة على العباد ، وجملهم الله بحلل الأبدال وكمال الأقطاب ، لهم نور فى البصائر يكشف الأمور الخفية ، ولهم لسان ذاكر يُذَكِّرُ الخلق ويصلحهم دينًا ودنيا . وحول هذا المسجد أقيم كثير من المساجد . وقبل إنشاء مدينة طنطا كانت « محلة أبو على » مرسى للسفن الشراعية التى تجوب النيل محملة بحاصلات البلاد ، مما جعلها مركزًا تجاريًا واقتصاديًا هامًا .

والمعلوم من شأن بيت السيد ماضى فى تلك الفترة أن أبناءه كانوا يشتغلون بالتجارة ، وقد عرف عنهم الجد والاستقامة وصلابة العود ، الأمر الذى ازدادت بسببه مواردهم بين عام وعام . وكانوا فى أوقات فراغهم من التجارة ينشرون العلم والمعارف بين أهالى هذه القرية .

النسب الشريف للإمام

قال الإمام مقدمًا نسبه : أنا العبد الخويدم المسكين ، المنكسر القلب ، المحتاج إلى فضل الله ورحمته ، العائذ بوجهه العظيم من مخالفة سنة نبيه الكريم ، محمد ماضى أبو العزائم ، ابن عبد الله (محجوب) بن أحمد بن مصطفى بن إبراهيم بن ماضى (نسبة إلى عين ماضى بالمغرب الأقصى) ، وهو حُسينى النسب (على ما سمعته من والدى) . وإلى الحسن بن على عليه السلام من جهة والدتى ، لأنها كما أخبرتنى أن والدها وفد من بغداد على مصر وهى معه وأنه من ذرية الشيخ عبد القادر الجيلانى رضى الله عنه ، وينتهى هذا النسب إلى السيد موسى الجون شقيق السيد إدريس الأكبر .

وقدم الإمام نسبه بعد جده الرابع سيدى ماضى أنه : ابن السيد درويش بن السيد محمد ابن السيد على بن السيد محمد بن السيد إبراهيم بن السيد رمضان بن السيد أحمد بن السيد عبد الحميد بن السيد محمد بن السيد على بن السيد حسن بن السيد زيد بن السيد حسن بن السيد على الطويل بن السيد محمد بن السيد إبراهيم بن السيد محمد بن السيد عبد الله العوكلانى بن السيد أبو الحسن موسى الكاظم بن السيد جعفر الصادق بن السيد محمد الباقر بن السيد على زين العابدين بن سيدنا الإمام الحسين السبط بن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ .

ووالدته هى السيدة آمنة (وقد لقبت بـ « مهدية » لما تجملت به من البر والرحمة بالمساكين والصلاح والتقوى منذ طفولتها ، فشبت زكية الفؤاد شديدة الحياء كثيرة العبادة صلاة وصومًا وجهادًا) ، وهى العربية القرشية الهاشمية ، وهى ابنة السيد أحمد العربى الفرجانى السائح بن السيد أحمد القادرى بن السيد على بن السيد سليمان بن السيد مصطفى بن السيد زين الدين بن السيد زين العابدين بن السيد محمد درويش بن السيد حسام الدين بن السيد ولى الدين بن السيد زين الدين بن السيد شرف الدين بن السيد شمس الدين بن السيد محمد الهاتكى بن السيد عبد العزيز بن السيد عبد القادر الجيلانى ابن السيد أبى صالح موسى بن السيد عبد الله الجيلى بن السيد يحيى الزاهد بن السيد محمد (داوود) بن السيد موسى بن السيد عبد الله بن السيد موسى الجون بن السيد عبد الله المثنى بن سيدنا الإمام الحسن السبط ابن الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وابن السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ .

الإمام رضى الله عنه .. تاريخ ومعالم

- والد الإمام
- مولد الإمام فى بيت من بيوت الله
- طفولته رضى الله عنه
- حفظه للقرآن الكريم
- تلقيه العلم فى صباه
- شبابه رضى الله عنه
- تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس
- سبب انتقال الإمام من السودان نهائيًا إلى مصر
- دور الإمام رضى الله عنه فى السودان
- إقامة الإمام الدائمة بمصر
- يوم من حياة الإمام
- تلقيه رضى الله عنه عن مشايخ السادة الصوفية
- كنيته رضى الله عنه

الإمام رضى الله عنه .. تاريخ ومعالم

والد الإمام السيد عبدالله محجوب ماضى:

لقد كان السيد عبد الله محجوب ماضى ممن جمع الله لهم بين خيرى الدين والدنيا ، وكان يدير شئون ممتلكاته وتجارته بنفسه سواء فى بلدته محلة أبو على أو فى مدينة رشيد التى كان يفد إليها سنويًا ويقيم بها شهورًا ومعه أسرته لمتابعة أعماله . ومع كثرة مشاغله فقد كان من خيرة علماء عصره ، وجمعت مكتبته بين علوم الدين والعديد من فروع المعرفة كالفلك والطب والتاريخ والأدب وغيرها . وضم بيته زاوية تقام بها الصلاة ومجالس الذكر ومحلًا للضيافة وقاعة كبيرة كانت منتدى يلتقى فيه أهل العلم والأدب يتدارسون علومهم وآدابهم .

وقد تزوج بالسيدة آمنة فأنجب منها أربعة ذكور وأربع إناث كانت ولادتهم على الترتيب الآتى : هانم ، زينب ، أحمد ، محمد ، محمود ، شفيقة ، أبو الحمائل ، سيدة .. ثم تزوج بأخرى وأنجب منها إبراهيم وفاطمة الزهراء .

واهتم السيد عبد الله غاية الاهتمام بتعليم أولاده علوم الفقه والأصول وعلوم التوحيد والتفسير والحديث وسير الأئمة وتاريخ العرب والمسلمين .

مولد الإمام فى بيت من بيوت الله:

فى ليلة الاثنين السابع والعشرين من شهر رجب عام ١٢٨٦ هجرية الموافق ٣٠ أكتوبر ١٨٦٩ ميلادية .. انبثق فجر ميلاده رضى الله عنه بمسجد سيدى زغلول [(١)] بمدينة رشيد - وهو من أكبر مساجدها - حيث ولدته أمه أثناء تواجدها بصحبة زوجها وابنتها الكبرى - التى كانت تبلغ من العمر عشر سنوات وقتها - وعند زيارتهم للضريح فاجأها المخاض فى تلك الليلة المباركة - ليلة ذكرى الإسراء والمعراج - حيث وضعت وليدها داخل مقصورة الولى ، وسماه والده محمدًا تيمنًا بصاحب الذكرى ﷺ ، وذكرت أخته أنها لم تر أثرًا لدم بعد الولادة .

---

(١) أسس الجزء الغربى من هذا المسجد سيدى زغلول ، وكان مملوكًا للسيد هارون أحد الأمراء الذين عاشوا فى القرن السابع عشر الميلادى - وبداخل هذا المسجد مقبرة مدفون بها سيدى زغلول . كتاب (محافظات الجمهورية العربية المتحدة وآثارها الباقية من العصر الإسلامى) ص : ١٤١ - ١٤٢ ، تأليف الدكتورة سعاد ماهر . إصدار المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهره ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦ م .

وتعددت هبات الله وبشرياته الكريمة فى تلك الليلة بذلك المولود الذى استهل أول أنفاسه فى بيت من بيوت الله ، كشأن جده الإمام على كرم الله وجهه الذى ولدته أمه فى المسجد الحرام داخل الكعبة المشرفة لما فاجأها المخاض وهى تطوف بها .

طفولته رضى الله عنه :

تميز الإمام عن أقرانه فى طفولته بأمور منها :

(١) حرصه على التشبه بأفاضل الرجال فى السلوك والزى ، وكان محبًا لارتداء العمامة .

(٢) التجافى عما اعتاده الأطفال في مثل سنه من لعب ولهو ، فإذا أصروا على أن يشاركهم اللعب جمعهم وسار أمامهم يقول وهم يرددون خلفه :

يا إلـهى المرتجـى * يا رجا كل الرجا
نرتجى منـك النجـا

(٣) كان نظيفًا فى بدنه ، طاهرًا فى ثوبه ، يحب القرآن ، ويغشى مجالس الذكر ، عُرِفَ بالأمانة والصدق ، بدت عليه مخايل الفطنة وملامح الذكاء ، يستوقف مرآه من يراه فلا يملك إلا أن يطيل النظر إليه .

(٤) أحب المسجد فانبرى لخدمته ، والعبادة فصام أيام الإسلام المباركات تقربًا لربه وقام لياليها تعبدًا لخالقه ، وكثيرًا ما اتجه لزاوية أم إسماعيل - التى بناها أجداده - وحداثة سنه تسبقه - لا بل طهارة قلبه - إلى هذا المكان ليعطى الأمل لمشرق نجم عبادة وضياء وأخلاق وطاعة .

(٥) كثيرًا ما كان أهل البلدة يلتمسون منه الدعاء ، ويتبركون ، ويطلبون من المولى سبحانه الشفاء ، ومع اليد الطاهرة ينجاب المرض ، ومع الأنفاس المباركة يذهب العَرَض .

(٦) تميز بحسن التصرف وسرعة البديهة ، لقيه يومًا أحد الأعيان ممن اشتهر بالدعابة ، اعتاد أن يسأل الأطفال عن أسمائهم وأسماء آبائهم فيعلق ساخرًا . ولما سأل الإمام من أنت ؟ قال : محمد ، قال ابن من ؟ قال : ابن رسول الله .. فما استطاع لردٍ من سبيل .

حفظه للقرآن الكريم :

وكان يصحب شقيقته زينب وشقيقه أحمد إلى مكتب تحفيظ القرآن الكريم بالقرية وهو فى حداثة سنه ، وكثيرًا ما كان ينبههما إلى مواطن الخطأ فى تلاوتهما ، فكان ذلك

مثار العجب منهما ، فإذا سألاه قال : أنتم تحفظون القرآن أما أنا فيحفظنى القرآن .

وفى السادسة بدأ حفظ القرآن على يد الشيخ محمد القفاص ، وختمه ولمَّا يتجاوز العاشرة . وكثيرًا ما استمع الشيخ القفاص إلى تلميذه مفسرًا لبعض آيات القرآن كاشفًا الستار عن متشابهها ، لأنه رضى الله عنه كثيرًا ما كان يجالس العلماء فى منزل والده فينتقش على جوهر نفسه كل ما كان يسمعه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . وأثناء ذلك عهد به والده إلى معلم يعلمه القراءة والكتابة والحساب .

تلقيه العلم فى صباه :

لاحظ السيد عبد الله محجوب ماضى شدة رغبة ولده لطلب العلم ، فكلف عالمًا من علماء الأزهر يسمى الشيخ عبد الرحمن عبد الغفار بذلك :

(١) فحفظ رضى الله عنه من الفقه متن أقرب المسالك لمذهب الإمام مالك .

(٢) وحفظ قسم العبادات من الموطأ .

(٣) وحفظ التوحيد من متن السنوسية .

(٤) وحفظ الحديث من مختصر الإمام البخارى للزبيدى .

(٥) وحفظ من النحو الأجرومية والألفية .

وأثناء صباه رضى الله عنه ، شغف بتلاوة سير القوم وتتبع أخبارهم والتحلى بأحوالهم . وكان له مع والده فى كل يوم وقت ثابت يمضيه معه فى قراءة باب من كتاب (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالى رضى الله عنه.

واستمر الإمام فى تلقى تلك العلوم إلى أن بلغ أربعة عشر عامًا .

شبابه رضى الله عنه :

نستطيع القول إن حياته فيما بين سن الرابعة عشر إلى السادسة عشر تميزت بما يلى :

(١) تلقى على يدى الشيخ محمد الخطيب علوم الفقه ووجوه الرأى والاستنباط .

(٢) تلقى طريق السادة الصوفية ، واشتغل بذكر أسماء الله تعالى فى كل يوم وليلة وبعدد مخصوص .

(٣) كان يتوق إلى سماع سِيَر الصالحين ويتقرب منهم ويتودد إليهم ويبذل كل ما فى وسعه ليكون محبوبًا لديهم مقرَّبًا منهم .

(٤) اهتم بقراءة كتب الرجال ومعرفة أخبارهم وعلم سِيَرهم .

(٥) صاحب الشيخ محمد القفاص فترة لدراسة علوم اللسان والتوحيد .

(٦) اشتغل بعلوم الحكمة والطب والصيدلة منفردًا ، مستعينًا فى ذلك بالكتب العلمية التى بمكتبة والده .

ولما بلغ السادسة عشرة من عمره ، توجه إلى القاهرة للالتحاق بالجامع الأزهر ، وأقام بمنزل أخيه السيد أحمد بحى الباطنية خلف الأزهر الشريف ، ولم يرق له طريقة الدرس بالأزهر إذ لحظ البون الشاسع عند المقارنة بما كان يتلقاه من قبل .

وكان يصرف بعض وقته فى صحبة الشيخ حسنين الحصافى ، وتلقى منه الطريقة الشاذلية عام ١٣٠٢ هجرية .

وتصادف أن كان الشيخ حسن الطويل فى زيارة شقيق الإمام السيد أحمد ، فأخبره بعدم رغبة الإمام فى الالتحاق بالأزهر ، فاقترح الشيخ حسن الطويل دخول الإمام الامتحان المعادل لشهادة الثانوية الأزهرية الذى سيعقد بعد خمسة عشر يومًا ، وليكون رضى الله عنه مؤهلًا للتقدم لمدرسة(٢) دار العلوم الخديوية ، وخصوصًا أن المستوى العلمى للإمام فيما درسه من علوم تؤهله لاجتياز هذا الامتحان بسهولة . وعكف الإمام على دراسة علوم شهادة الثانوية الأزهرية هذه طيلة الخمسة عشر يومًا المتبقية . وقبل الامتحان بيوم حضر الشيخ حسن الطويل ليطمئن على مدى تحصيل الإمام للعلوم التى سيمتحنها ، فدهش عندما وجد الإمام قد استوعب كافة هذه العلوم التى يقضى فيها الطلاب سنوات عديدة ، فقد كان ما سبق له من دراسات طوال الفترة الماضية كافيًا له لتفتيح مدارك التحصيل . وامتحن الإمام وحصل على شهادة الثانوية الأزهرية .

وقد مالت نفس الإمام إلى الشيخ حسن الطويل فيما بعد ، فتلقى منه علوم التوحيد ، وصحبه زمنًا ، وكان يشتغل معه فى منزله بمطالعة كتب الحكمة ، وكان الشيخ الطويل عندما يذهب إلى الإمام فى منزله يتلقى منه علوم المضنون . كما تلقى من الشيخ عليش علوم الفقه .

ونستمع للإمام وهو يقول : «..... ثم كلفنى شقيقى أن أنتظم بمدرسة دار العلوم الخديوية ، فتلقيت ما هو مقرر لطلبتها . وكنت فى أغلب أوقاتى أكتب على بعض الأحاديث أو الآيات القرآنية ، وأكتب بعض أبيات فى أمور أعتبر بها مما يدل على قدرة الله تعالى أو بديع صنعه تعالى . وصار ذكرى قراءة القرآن والتدبر فى معانيه ، وكلام

---

(٢) وهى الآن كلية دار العلوم ، لأن المدرسة وقتها كانت تقبل مستوى الثانوية الأزهرية ، ولذلك تحولت اسمًا إلى كلية .

رسول الله ﷺ ، وسيرته ، وسيرة خلفائه ، وأهل الخير من السلف ، لا لقصد أو لهوى ، ولكن لميل فى النفس ورغبة . وكنت وأنا بمصر كلما سمعت بصالح أو ولى أو عالم تقى زرته وسمعت منه ، فإذا سمعت منه الحكمة أو شيئًا من علوم التوحيد أو الأخلاق أحببته ، وإن رأيت منه غير ذلك سلمت له وانصرفت عنه ، وما وجدتنى معارضًا أو منتقدًا أو مجادلًا .. اللهم إلا إذا رأيت ما يغضب الله ، فكنت أنصح وأعظ برحمة ولين . وكان لى إخوان يطلبوننى ليسمعوا منى ما كنت أكتبه عن الأمور التى أعتبر بها ».

ومن الآيات التى كتب عنها بعض ما مَنَّ الله به عليه قوله تعالى : ﴿إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما﴾[3] .. قال[4] :

« الإنسان إذا ذاق حلاوة الأنس بشهود سر ما أودع فيه من تجليات الربوبية المشهودة بعين يقين ضميره من حضرة الغيب ، مال حسه إلى أن يشهد تلك الرتبة : رتبة الربوبية ، فإذا لم يتداو بدواء سماوى عن تلك الميول الحسية انعكس نوره ظلمة ، وأنسه بالغيب وحشة ، فجَسَّمَ وأشار ، وجعل الرب ناسوتا جسمانيًا قام بلاهوت[5] حيوانى ، واستدل على ذلك بآية خارقة للعادة ، يستأنس بذلك من لم يذق أسرار الغيب ، ويميل إلى ذلك من لم يشهد نور تجلى الرب .

وقد ظهرت تلك الانفعالات النفسية من قوة الخيال إلى حضرة العيان ، أعنى به سامرى بنى إسرائيل . وعكف هو وكثيرون على عبادة ما جسَّمه بيده من الحلى ، حتى جاء سر السماء الظاهر على لسان موسى عليه السلام وعصاه ويده ، فصدع بالحق وأبطل الباطل ، وكشف حجاب الحس عن عين البصيرة ، فلمعت أنوار البصر على أولئك المارقين من حصن الأمان ، فندموا ندامة محقت أنفسهم الحسية الحيوانية بدليل ﴿فاقتلوا أنفسكم﴾[6] ، فتفضل الإله المنزه فتاب عليهم .

ثم ترجم لسان الربوبية الناطق بلسان النبوة عن حضرة الألوهية بالتنزل الفضلى قائلًا ﴿إنما إلهكم الله﴾ مشيرًا أولًا إلى رتبة الألوهية لظهورها حسًا ومعنىً لكل متدبر ، واختصاص تلك الرتبة بالذات الأحدية عن الحيطة والنسبة العلية من إدراك العقول والأوهام والخيالات ، فاندهش السامريون لقصر مداركهم وعدم تأهلهم لحضرة القدس

---

(٣) سورة طه آية ٩٨ .

(٤) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ١٣ ص ١٣ (١٦ رمضان ١٣٥٦ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧) .

(٥) الناسوت : الجسم .. اللاهوت : الروح .

(٦) سورة البقرة آية ٥٤ .

الأعلى ، لأنهم لا يمكنهم أن يخصصوا تلك الرتبة بالذات العلية قدرًا والتى العلم بها جهل والجهل بها علم ، فتنزل فضلًا منه وكرمًا وأوقفهم فى موقف الغيب عن الحس ليذوقوا حلاوة الشهود البصرى من حضرة الغيب المطلق عن التقييدات الغيبية فقال ﴿الذى لا إله إلا هو﴾ مخصصًا تلك الرتبة الإلهية على غيب الهوية ليتيقنوا أن الحق غيب لا يُشهد إلا بعين البصيرة ، وظاهر لا يُعلم إلا بكشف الحجب الكونية ، فانبعث من شمس بيان التخصيص الأول بالذات القدسية أشعة أنوار المعرفة لأهل الاختصاص بالقدس الأعلى ، ومن التخصيص الثانى الغيبة عما سواه سبحانه وتعالى ، فكانت الرتبة الأولى رتبة المتمكنين من الأنبياء والمرسلين والصديقين ، والرتبة الثانية رتبة المجذوبين للحق بالحق أهل الفناء المطلق . ثم أيد معنى اللسان الحقى المشرب الأول والثانى بكلمة هى من جوامع الكلم يذوق كل سامع منها حلاوة مشربه قائلًا ﴿وسع كل شئ علما﴾ ، فالأول شهود السعة الذاتية الماحية لكل شئ والثانى سعة الهوية الساريين فى كل شئ فثبت قدمه فى حضرة ﴿وهو معكم أين ما كنتم﴾[(٧)] ، وأشرقت أنوار بصره من حيث الوجهة ، فارتفعت ستائر الكون فى لآلئ الغيب وذاق حلاوة ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم﴾[(٨)] من حيث لا حيث بالنسبة المقيدة ، بل من حيث إطلاق الرتبة المقيدة » .

كتب الإمام ذلك وهو ابن سبعة عشر عامًا .

وقد توطدت صلة الود بين الإمام وبين على باشا مبارك وزير المعارف العمومية وقت ذاك ، فقد كان الباشا صديقًا للسيد أحمد شقيق الإمام ، وكان قد سبق وعرفه به مع بعض رجالات مصر ، وذلك بحكم عمله فى الصحافة ومعرفته بهم حيث كان أحد مُؤسّسى جريدة المؤيد الإسلامية اليومية مع الشيخ على يوسف ، وهى أول جريدة إسلامية فى مصر .

تخرج الإمام فى كلية دار العلوم عام ١٣٠٥ هـ الموافق ١٨٨٨ م ، وعمره تسعة عشر عامًا .

---

(٧) سورة الحديد آية ٤ .

(٨) سورة البقرة آية ١١٥ .

تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس

يقول رضى الله عنه : « ثم تعينت مدرسًا [1] . وانتقلت إلى مدينة المنيا فى أوائل سنة ١٣١١ هـ ، فكنت أؤدى الواجب علىَّ نهارًا ، وأصرف أكثر أوقاتى بين العامة وأهل العلم فيها لقراءة دروس مذهب مالك أو التكلم فى الأخلاق والتوحيد حتى أنست بإخوان لى يعينوننى على مواجيدى . ثم انتقلت إلى الشرقية ، وفيها ظفرت بإخوان أحسنوا الإصغاء والقبول . ثم إلى سواكن ، وفيها قرأت البخارى لعلمائها وقسم العبادات من الموطأ وصار لى إخوان يحسنون الاقتداء والفهم فى علوم الحكمة العالية . ثم انتقلت منها إلى أسوان ، وفيها قرأت الموطأ ولكنى لم أجد بها أهلًا للحكمة ولا مستعدين لتلقيها . ثم إلى حلفا ، وكان بها كثيرون يشتغلون بالملاهى فوفقهم الله تعالى للإقبال على عمل الأركان وسماع علوم الشريعة . ثم إلى أم درمان من أعمال السودان ، فقرأت الموطأ وحكم ابن عطاء الله بمسجدها ، وأهلها يحبون العلم وأهل العلم إلا أنهم يحتاجون إلى مبادئ العلوم حتى يتأهلوا لفهم روح الشريعة . ومنها إلى الخرطوم ، فقرأت بمسجدها الجامع تفسير القرآن الشريف والموطأ والبخارى وقسم العبادات من مدونة مالك بن أنس ، وأهلها يحبون أن يعملوا بما علموا ».

(١) العمل بمدرسة إدفو الإبتدائية :

توجه الإمام رضوان الله عليه إلى مدينة إدفو بصعيد مصر ليباشر مهام أول وظيفة له كمدرس لمادتى الدين واللغة العربية بمدرسة إدفو الابتدائية وذلك عام ١٣٠٦ هـ الموافق ١٨٨٩ م .

لقد كانت مدارس هذه البلدة خاوية من تلاميذها ، فقد عمد أولياء الأمور إلى إخراج أبنائهم منها حيث كانت أفكارهم مشبعة بأن المدارس تفسد أخلاق النشء وتبعدهم كذلك عن الدين ، وكذلك الآباء كانوا بعيدين عن حضور الدروس الدينية بالمساجد . وقد عمد الإمام جاهدًا على جذب أهلها للمسجد للصلاة وحضور دروسه الدينية ، وبعد فترة قصيرة إذا بالآباء مواظبون على المساجد ، والأبناء فى المدارس ، وأقبل التلاميذ على المدرسة الابتدائية حتى امتلأت ، مما اضطر ناظر المدرسة فى نصف العام أن يطلب من الوزارة توسعة الفصول لاستيعاب أعداد المتقدمين . وفى الإجازة الصيفية علم رضوان الله

---

(١) عمل الإمام مدرسًا بمدرسة إدفو الابتدائية لمدة سنة دراسية ، ثم انتقل إلى مدرسة الإبراهيمية الأولية وعمل بها مدة أربع سنوات دراسية ، ثم انتقل سماحته إلى مدينة المنيا .

عليه أن وظيفته قد انتقلت إلى مدرسة الإبراهيمية الأولية .

(٢) العمل بمدرسة الإبراهيمية :

لقد حظيت بلدة الإبراهيمية بشرف استقبال الإمام بها كمدرس بمدرسة الإبراهيمية الأولية وذلك عام ١٣٠٧ هـ الموافق ١٨٩١ م ، وكانت هذه المدرسة قد افتتحت حديثًا (٢) بهذه المنطقة .

وبلدة الإبراهيمية كانت مركزًا قبل وجود مركز كفر صقر ومركز ههيا . وكان معظم سكان هذه البلدة من الأتراك . وقد سميت البلدة بالإبراهيمية نسبة إلى إبراهيم باشا الكبير الذى أفاض عليها من الهبات والنعم والألقاب ما جعل أهلها فى بحبوحة وسعة من العز وزخرف الحياة الدنيا ، فقد وهب هذا ٥٠٠ فدان وذاك ٢٠٠ فدان وهكذا ، حتى أن محمد باشا أبا ذقن كان يمتلك وحده ١٠٠٠ فدان هبة من إبراهيم باشا ، وكان معاشهم بالكامل على نفقته لأنهم أتراك .

وهكذا دخل رضوان الله عليه بلدة الإبراهيمية . وعندما وجد الإمام كل ألوان المدنية هذه بما فيها من رفه العيش ومتع الحياة كلها ، ومن ناحية أخرى مساجد مهجورة وعدم إقبال على الآخرة بما فيها من نعيم مقيم .. اهتم كثيرًا واغتم ، وطلب العون من الله . وبدأ الإمام من بيوت الكبراء والعظماء أمثال بيت محمد باشا أبى ذقن ، وبيت محمد باشا علمى ، وسكن فى منزل من منازله ، وبدأ فى إلقاء دروسه بمسجد عبد العزيز سعد ومسجد محمد أبى ذقن ومسجد حفيظ ومسجد الشيخ صبيحى .

وفى تلك الفترة التى عمل فيها الإمام بالإبراهيمية ، صاحبه ولازمه محمد بك علمى وشقيقه أمين بك علمى . وقد أعطاهما الإمام الكثير من علوم المعرفة ، فنهلا من معينه الفياض وفازا بالعلم المضنون والمكنون . وظل بيتهما مفتوحًا للإمام وللإخوان أثناء زياراته لمصر فى إجازاته السنوية بعد أن هاجر رضوان الله عليه إلى السودان لتأخذ الدعوة شكلًا آخر من أشكالها . ولما عاد الإمام إلى مصر ثم استقر بعد ذلك بالقاهرة ، لم يطق على بك علمى صبرًا ، فهاجر من الإبراهيمية إلى القاهرة ليكون بجوار إمامه ، ولم يكن يتغذى إلا من علوم المعرفة لا بكتابة على أوراق ولكن سماعًا مباشرًا من الإمام لينتقش ذلك على جوهر نفسه ، فكان قليل الكلام إلا فيما يزيد علمًا بالله تعالى . وسكن بمنزل بحى الزيتون بالقاهرة حتى انتقل إلى جوار ربه .

---

(٢) افتتحت مدرسة الإبراهيمية فى عام ١٨٩١ م ، وأغلقت فى عام ١٨٩٦ م ، وهذا مستخرج من مرجع ضمن مكتبة مدرسة المنيا الإعدادية .

وكان الإمام يزور البلاد المجاورة فى وسط الأسبوع ، فذهب إلى ههيا . وكان من أوائل مريديه هناك الشيخ أحمد قوطايه (وكان الإمام يعطف عليه حتى أنه عندما كان يزوره فيما بعد بالقاهرة كان يشمله بعطفه وحنانه ويطعمه بنفسه من يده الكريمة) . وكان من إخوانه السابقين الأفاضل الشيوخ سيد غنيم ، وسليم طنطاوى ، وعبد الكريم العشرى ، ومحمد عبد الباقى ، وصالح الحصين ، فأصبح للإمام تلاميذ كثيرون بههيا وشرقية مباشر والحبش[٣] وطواحين الراش وبنى غياض والبجعية (منشية ناصر الآن) وخلافه .

وكان للإمام قصة[٤] معروفة مع فضيلة الشيخ محمد صبيحى من بلدة الحبش ، وهى تبعد حوالى كيلو مترين بحرى الإبراهيمية ، وكان له دكان يبيع فيه البضائع المختلفة كما كانت سمة العلماء فى ذلك العصر ، وكان يفرغ نفسه لإلقاء الدروس بالمسجد . وقد تمتع الشيخ بخصوصية حباها له الإمام وهى أنه كان يتلقى منه علومه ودروسه ومواجيده التى كان يلقيها الإمام بين مريديه وتلاميذه من السودان وهو فى مصر ، وكان يكتبها بخط يده ويجلدها فى مجلدات وصل عددها اثنى عشر مجلدًا كبيرًا ، ولا أحد يدرى أين ذهب هذا التراث ، وقد بحثت عنه كثيرًا ولكنه لم يظهر حتى الآن ، نسأل الله القادر القدير أن يظهر هذا التراث لينتفع به العالم الإسلامى أجمع .

ولما علم الشيخ صبيحى أن الإمام يقوم بالتدريس فى مسجده الذى تعود أن يدرس به ، ولعدم سابق المعرفة بينهما ، سارع إلى المسجد لعله - وهو الرجل الذى حصّل من العلوم الدينية جانبًا كبيرًا - يقف على خطأ للإمام فى اللغة العربية أو فى غيرها من الدروس التى كان يلقيها ، وكان من عادته أنه لا يسمح لأى عالم بإلقاء دروسه فى مسجده إلا إذا جاءه وأخذ منه الإذن بذلك ، وفى نفس الوقت كان قد جهز للإمام سبعة مسائل كتبها فى ورقة ووضعها فى جيبه ليسأله عنها ويحاججه بها .

وما أن دخل الشيخ صبيحى المسجد حتى نزل الإمام من على كرسى الدرس وسلم عليه وقبل يده وطلب منه اعتلاء الكرسى مخبرًا أن المكان مكانه والمقام مقامه ، فقال له الشيخ صبيحى : ارجع مكانك واستمر فى درسك فقد جئت مستمعًا إليك ، فقال الإمام : لا يحق لى أن أدرّس فى مكان شيخى فيه ، فأصر الشيخ صبيحى على طلبه .

واصل الإمام درسه من على كرسى الدرس ، ثم علا بالعبارة فقال : حضرنا الآن

---

(٣) وفيها أملى قصيدة من أمهات القصائد ذات المشاهد الغيبية العالية والتى لا يتذوقها إلا أهل الذوق العالى (عام ١٣١٣ هـ) والتى مطلعها : (ستائر الغيب فى حال الفنا كشفت * وحجب نأى لدى الإحسان قد رفعت) .

(٤) رواها الأستاذ عبد الرحمن على سلامة من ههيا شرقية .

الشيخ محمد صبيحى ومعه فى جيبه سبعة مسائل ، يسأل فى الأولى عن كذا وإجابتها كذا ، والمسألة الثانية كذا وإجابتها كذا .. حتى انتهى رضى الله عنه من عرض المسائل السبعة ، فصاح الشيخ وبكى وقال : زدنى يا سيدى ، فأعاد عليه الإمام أسئلته وأجاب عليها بلون آخر مع سموه فى العبارة عن عقول العوام والخواص ، فبكى الشيخ بكاءً شديدًا وقال : زدنى يا سيدى .. فأعاد الإمام الكرة بلون لا يفهمه إلا خاصة خاصة الخاصة .. فخر الشيخ صعقًا ، وحملوه إلى بلدته على هذه الحالة مغشيًا عليه ، واستمر الحال على ما هو عليه مدة .

وبعد أن أفاق الشيخ الصبيحى ، صمم أن يتوجه فورًا لحضور مجلس الإمام ، وما أن رآه الإمام مقبلًا عليه لسماع الدرس الذى كان يلقيه للعامة حتى سما بالعبارة عن العقول ، واقترب الشيخ رويدًا رويدًا إلى أن وصل تحت الكرسى الذى يجلس عليه الإمام فقال الإمام : إن هناك أناسًا يكرسون حياتهم للحصول على الذهب ، ويفنون فى ذلك أموالهم لعلهم يصلوا إلى السر الذى به تتحول مادة النحاس أو الحديد إلى ذهب ، وكل ما فى هذا الكون من ذهب أو متاع فإنما هى نعم من الله سبحانه وتعالى ، والمقصود من وجودنا فى هذه الحياة الدنيا ليس النعم ولكن المنعم سبحانه وتعالى ، وكل هذه النعم من ذهب أو خلافه إلى زوال ، والأولى بنا أن نولى وجهنا شطر مولى النعم . وبعد أن أشار رضى الله عنه إلى علم الكيمياء وصناعتها ودور جابر بن حيان فيها ، وكيف أن الأصول التى استنبطها جابر بن حيان قد خفيت على من بعده فلم يتمكنوا من تطبيق قواعده وقوانينه ، فهم الشيخ صبيحى من ذلك أن الإمام يعرف أسرار الكيمياء التى وضع أساسها جابر بن حيان وبالتالى يعرف سر تحويل المعادن إلى ذهب . وطلب الشيخ من الإمام بعد الصلاة أن يتلقى هذا العلم على يديه ، وأظهر الإمام الموافقة ولازمه أيامًا والإمام يريد أن يخرجه عن ذلك بالحكمة الروحانية ، ولكنه كان مصرًا على ما أراد حتى حدث له ما ثنى عزمه عن ذلك ،فقد كان الإمام يريد أن يعلمه درسًا فى الزهد يكون رائده فى طلب الله ، فقال له : عندما تفتح المحل في الصباح قل : (بسم الله الرحمن الرحيم)، فأخبره أنه يقولها كل يوم ، فقال له الإمام : أعلم ذلك ، ولكنى قد أذنتك بها الآن ، وللإذن سر لا يعلمه إلا الله .

دخل الشيخ صبيحى دكانه ، وقال : (بسم الله الرحمن الرحيم) كما أمره الإمام بالأمس ، فإذا به يجد كل أصناف البضاعة فى نظره ذهب خالص ، فكلما جاءه مشتر – والمشترى يرى الصنف طبعًا على حالته الطبيعية – فيقول له اعطنى كذا ، فيذهب الشيخ إلى الصنف فيجده ذهبًا ، فيقول له هذا الصنف غير موجود ، والمشترى يراه فيقول له :

هذا الصنف موجود وها هو ذا (مشيرًا إليه) وأنت الآن واقف أمامه، فيقول: لن أبيعه لك، ولا يزال هذا الأمر به حتى وصفه الناس بالجنون، وظل على هذا الحال مدة حتى أوصله ذلك إلى غيبوبة ظل فيها فى فراشه فاقد الوعى تمامًا، وقد ذهب بعض الإخوان إلى الإمام فسألهم عن الصبيحى فوصفوا له حاله وأنه طريح الفراش، فاستدعى الإمام تلميذًا من تلاميذه من أهل الأحوال العلية وهو الشيخ «ياقوت» ولقنه صيغة يقولها فى أذن الصبيحى اليمنى، وبعد إلقاء هذه الصيغة جاءت الفوقة فسأل: أين أبو العزائم؟ فأخبروه، فقال: هيا بنا إليه، ولما واجه الإمام، شرح له كيمياء الصالحين وقال له: يا بنى إن كيمياءنا تقوى الله عز وجل ومراقبته، ولا زال الإمام به حتى وصل إلى حال كُمَّل الأولياء فى الصدق والصفاء والطهر والنقاء وعلوم الخلوة، رضى الله عنه وأرضاه[٥].

وكان الإمام يلقى دروسًا دينية يوميًا بعد صلاة العصر بأكبر مساجد البلدة، فالتف حوله أهالى الإبراهيمية والبلاد المجاورة، وكان حال المسجد وكأنه أشبه بصلاة يوم الجمعة من كثرة رواده.

(٣) نقله إلى مدرسة المنيا الابتدائية:

توجه الإمام إلى المدرسة الابتدائية بمدينة المنيا أوائل شهر أكتوبر ١٨٩٤ الموافق أواخر شهر ربيع الأول لعام ١٣١١، ودَرَّس بها مدة عامين دراسيين، وكان عمره وقتذاك لا يتجاوز الخامسة والعشرين. وقد أعطى فيها الكثير فى المدرسة تدريسًا وفى المسجد مُدَارسة وتربية للرجال، شهد بذلك الجميع حتى مخالفوه.. رضى الله عنه وأرضاه.

وقد أثنت عليه مديرية التربية والتعليم بمحافظة المنيا فى نشرتها الدورية لعام ١٩٧٣م وذلك بمناسبة مرور مائة عام على إنشاء مدرسة المنيا الابتدائية الأميرية (١٨٦٩ - ١٩٧٣م) والتى تسرد فيها أخبار المدرسة منذ إنشائها، فأشارت على صفحة ٢٢ تحت عنوان: **زوار المدرسة من العظماء** ما يأتى: ومن أبرز مدرسيها المرحوم السيد محمد ماضى أبو العزائم شيخ الطريقة العزمية، كان مدرسًا بها سنة ١٣١٠ [٦]، ويقوم بتدريس اللغة العربية والدين، ونفاه الإنجليز مدة بالسودان [٧] لأسباب سياسية.

---

(٥) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ طاهر محمد مخاريطة.

(٦) الصحيح هو عام ١٣١١ هـ الموافق ١٨٩٤ م. ويجوز أن يكون قد صدر قرار النقل فى أواخر عام ١٣١٠ هـ بعد بداية العطلة الصيفية.

(٧) كان النفى مباشرة من السودان، وهى الجهة التى كان يعمل بها إلى جزيرة مالطا، ثم عدل النفى إلى تحديد إقامة فى بلدة المطاهرة بمحافظة المنيا.

ولاقت دعوته القبول من عامة الناس والاستجابة من كثير من الأغنياء وذوى الجاه ، منهم على باشا شعراوى وحسين باشا سرى ومحمد بك موسى عبيد وغيرهم ، واستجاب لهذه الدعوة أيضًا مدرس اللغة الفرنسية بالمدرسة وهو المسيو بلنتونى الذى أقبل هو وزوجته على الإسلام وكان له فيما بعد أثر فى إسلام الكثيرين من بلدته بفرنسا .

وفاة شقيقه الأكبر بالمنيا :

وكان المرض قد اشتد بشقيقه الأكبر السيد أحمد ، واستجابة لدعوة أخيه ونصيحة الأطباء رحل بأسرته إلى المنيا وأقام بمنزل الإمام حيث عكف على تمريضه ورعايته بنفسه مما أقعده عن ارتياد الأوساط الدينية لممارسة نشاط الدعوة ، فكان يذهب إلى المدرسة صباحًا ويكرس وقته كله بعد ذلك فى تمريضه إلى أن لقى ربه فى يوم الجمعة ٥ رجب ١٣١١ هـ (٢٤ يناير ١٨٩٤) بعد حوالى شهر من وصوله إلى المنيا .

زواج الإمام :

وبعد وفاة شقيقه الأكبر السيد أحمد تمسك الإمام ببقاء أولاد أخيه السيد محمود والسيدة هانم معه بالمنيا ليقوم برعايتهما وتربيتهما بعد وفاة والدهما ، وتمسكت جدتهما لأمهما بعودتهما مع الأم إلى القاهرة ليكونا فى حضانتها . وأمام رغبة الإمام فى رعاية أبناء شقيقه وتمسك الجدة بحضانة أمهما لهما عرضت عليه أن يتزوج أمهما لتستمر إقامتهما معه ، فتزوجها بعد أن استأذن الإمام والده فأذن له وبارك ذلك الزواج .

انتقال والده إلى جوار ربه :

انتقل والده رضى الله عنه إلى جوار ربه فى ١٥ من ذى الحجة ١٣١١ (١ يوليو ١٨٩٤) ببلدته محلة أبو على حيث سارع الإمام إليها ومكث بها أيامًا ، ولم يأخذ من تركة والده إلا مكتبته بعد أن استأذن زوجة أبيه فى ذلك فأذنت له ، ثم عاد إلى المنيا ومعه إخوته ومن وافقه على السفر معه ليقوم بشأنهم حيث بلغ عددهم خمسة عشر فردًا بين صغير وكبير ومنهم أخوه السيد أبو الحمائل وأخته السيدة شفيقة .

وبدأ الإمام رضى الله عنه فى سنة ١٣١١ هـ يدعو إلى الله تعالى ويهدى إلى الصراط المستقيم ويلقى دروسه بالمساجد ويملى مواجيده بين تلاميذه ومريديه الذين اجتمعوا حوله للتلقى منه ، فأملى عليهم آداب الطريق إلى الله تعالى وأسس السير فيه ، وأملى صيغًا فريدة فى الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل يرشد على السلوك الموصل إلى

رضوان الله ومحبته بالذكر والعبادة وتطهير القلب وتزكية النفوس ومكارم الأخلاق والحب للناس كافة ، فهيمنت علومه على جماهير المسلمين فى المنيا وما حولها ، وأطلق على جامعته التربوية الدينية اسم « جماعة آل العزائم » التى وافق توقيت الإعلان عنها ميلاد أكبر أبنائه وهو سماحة السيد أحمد ماضى أبو العزائم حيث ولد يوم الخميس ٢٣ جمادى الآخرة ١٣١٢ الموافق ٢٠ ديسمبر ١٨٩٤ بمدينة المنيا .

اختلى الإمام بزاوية سليمان محفوظ وقام على خدمته بها الشيخ محمد دياب المدرس بمدرسة المنيا الابتدائية . وفى الزاوية التقى الإمام بالشاب الصغير محمد طنطاوى الذى كان يقوم بتحفيظ القرآن الكريم ، ولعذوبة صوته طلب منه الإمام الإنشاد على الحضرة وسماه « أمير أهل الغرام » وناداه فى قصيدة مطلعها :

غن لى يا امير اهل الغرام ... فالأغانى يلذ لى فيها مُدامى
غن لى فالجميل لاح لروحى ... بالتجلى من ظاهر من سلام
اسكر الروح من جمال تراءى ... لأولى العشق فى علىّ المقام
ياآل حبى ذكر الحبيب شفانى ... حال ذكرى ارى الحبيب امامى

وأصبح للإمام إخوان كثيرون بالمنيا والبلاد المجاورة مثل : إتليدم والمطاهره وطهنشا والدير وبنى أحمد وريدة والفجاعى والخيارى وأبو قرقاص وسمالوط وشوشة وآبا الوقف وبنى عمران وتانوف وبان العلم وبنى مزار .. يطلبونه لسماع العلم والحكمة نذكر منهم السادة : رشوان حسين ، وعلى سالم ، ومحمد دياب ، ومحمود الطوبجى ، وإسماعيل الطوبجى ، ومحمد سلامة ، وعثمان بقوش ، ومحمود حسن ، وعبد السلام محمد ، ويعقوب زعويل ، ومحمد أبو السيد ، وخلف مخلوف ، وعلى الفولى ، وأبو الليل على مهدى ، ومحمد أبو شريف ، وأحمد عبده ، وأحمد رمضان ، ومحمد العوام ، وعلى أبو الليل ، ومحمد المقرحى .

وكانت دعوة الإمام تعتمد فى انتشارها فى هذه البلاد على الرجال الذين اتبعوا هذه الدعوة وقاموا كدعاة ، ومن هؤلاء الرجال السادة على سالم وأبو الليل على مهدى ومحمد أبو السيد ، وكانت قصائد الإمام يتغنى بها محمد طنطاوى ، وأحمد عبده ، وأحمد رمضان .

وكان الإمام مقيمًا بالمنيا بمنزل حسن أفندى النشرتى بجوار مسجد أوضا باشا ، ثم ضاق هذا المنزل بالإخوان ، فطلب الشيخ على أبو الليل من الإمام الإذن بأن يبنى له منزلًا

بالمطاهرة ليسع الإخوان جميعًا . وفعلًا تم البناء وأقام الإمام ومعه الأسرة كلها بالمطاهرة ، وكان يذهب إلى عمله صباحًا بعربة حنطور أهداها له حسين بك مدنى الشريعى .

ومما هو جدير بالذكر أن على بك شعراوى كان وصيًا على أولاد سلطان باشا الذين يملكون مصنعًا لصناعة السكر ، وكان يديره كوصى على القُصَّر ، وكان قد تعود عند بدء موسم القصب أن يدعو جميع أعيان المنيا وكبار الموظفين ورجال الدين إلى حفل يقيمه بداخل المصنع ، وكان الإمام رضوان الله عليه ضمن المدعوين . وقد تعود على بك شعراوى أن يقدم للمدعوين فى هذا الحفل أكواب عصير القصب ، ويمر هو بنفسه ليقدمها بيده للمدعوين . ولما وصل للمكان الذى يجلس فيه الإمام وقدم له الكوب إذ بالإمام يرفض قائلًا : أنا لا أشرب من أموال القُصَّر إلا بعد أن تستأذنهما فى ذلك ، فإن أذِنا شربتُ وإن لم يأذنا فلا أشرب . فعجب على بك شعراوى لحرص الإمام على تعاليم الإسلام إلى هذه الدرجة ، بينما كان من بين المدعوين بعض العلماء والقاضى الشرعى . ومن وقتها واظب على بك شعراوى هو وغيره من وجهاء المنيا على دروس الإمام وعلى زيارته بمنزله بالمنيا وذلك بعد أن استوعب هذا الدرس .

وفى ليلة ذكرى الإسراء والمعراج عام ١٣١٢ هـ ، وكان أتباع الإمام من الكثرة بمكان فى المنيا والبلاد المجاورة ، سار الإمام فى مشهد مهيب بملابسه البيضاء وسط إخوانه حيث مر بالمدينة كلها والإخوان ينشدون المواجيد التى أخذت بألباب الموجودين والمشاهدين . وقد انضم إلى هذه المسيرة الكثير إلى أن وصلت إلى المسجد الذى يلقى الإمام فيه دروسه ، وأقام الذكر ، ثم أحيا المناسبة بدرس عن : أن الإسراء والمعراج كان بالروح والجسم معًا ، وألقى كذلك حكمًا كثيرة ومواجيد .

ومكث الإمام عامين بالمنيا التى كانت تمثل بداية دعوته ، وكان لها وأهلها مكانة خاصة فى قلبه ، وقد خاطبها على سبيل التجريد فقال :

أَمنْيَةُ : دار الراح فيك بلا شوب	سقاه رسول الله فى حضرة القرب
اديرت على الأرواح بدءًا فاسكرت	رجالًا فهاموا فى غرام وفى حب
أَمنْيَةُ : بدءًا كنتِ حان مُدامتى	تدار على الأرواح من عالم الغيب
أَمنْيَةُ : كنت البدء للعلم والهدى	وكم سكر الأفراد فيك من الشرب
علـوم وعـرفـان وكـشـف مـؤيـد	ونور جلى قد يلوح من الرب
وكم لاح فيك النور من خير مرسل	فهيم افرادًا بكشف بلا ريب
ومنك لقد سطعت علوم عوارف	وفيك نجوم قد تضئ بلا حجب

أَمِنْيَةُ : لاانسى لياليك التى بها اشرقت شمس الحقيقة فى قلبى
أَمِنْيَةُ : لاانسى جمالًا مؤيدًا يلوح من الرحمن فضلًا بلا سلب
ولم انس ايام الصبا فى جواذب من الحق تجذبنى إلى حضرة الرب
اعد يا إلهى النور بالفضل اشرقن ضياءك فى الأرجاء فى الشرق والغرب
اعنى على الشكر الجميل وعمنى واهلى وإخوانى بفضلك يا ربى

(٤) الانتقال إلى الإبراهيمية :

بعد أن أمضى الإمام رضى الله عنه عامين بالمنيا جاءه قرار النقل مرة أخرى إلى الإبراهيمية ، ولم يمض على نقل الإمام لنفس المدرسة - التى عمل بها من قبل - أكثر من ثلاثة أشهر حتى قررت وزارة المعارف غلقها وتحويل طلبتها إلى المدارس المجاورة وذلك لقلة عدد الطلبة المقيدين بها .

ترك الإمام عائلته بالإبراهيمية وسافر إلى القاهرة ، وبعد أن صلى فى مسجد سيدنا الحسين لقيه حسين بك رشدى - وقد كان مفتشًا بالمعارف وقتذاك - وذهب به إلى الوزارة وأخبره بخلو وظيفة مدرس لمادة الدين ومادة اللغة العربية بمدرسة سواكن الابتدائية بالسودان ، وأنه هو المرشح الوحيد لتلك الوظيفة لما يعلمه فيه من حب الجمهور له أينما حل وأينما سار ، وأنه قد زيد مرتبه جنيهين مصريين لهذا الغرض . واستلم الإمام قرار التعيين لهذه الوظيفة ، ثم توجه فورًا إلى الإبراهيمية ، وأعلم صاحبه الشيخ صبيحى بما تم به الأمر فسأله الصحبة حتى ركوب القطار فأذن له . وفى يوم السفر إلى السويس ظل يجوب أطراف مدينة الإبراهيمية مودعًا ، حتى إذا فرغ من هذا الوداع كانت الشمس قد غربت ، وبين المدينة ومحطة السكة الحديد سبعة كيلو مترات تقريبًا ، ولا تستطيع العربات التى تجرها الخيول أن تسير ليلًا . ولذلك فقد استأجرا ركوبتين وسارا بهما إلى ههيا وهما على حالة استغراق فى المذاكرة فى آيات الله وعجيب صنعه . ولما أفاق الشيخ صبيحى من هذا الاستغراق كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة مساء ، والقطار الذى سيركبونه من ههيا إلى القاهرة كان المفروض أن يصل ههيا فى تمام التاسعة ، فحزن الشيخ صبيحى من ضياع الوقت على سيده المسافر ، فسرى الإمام عن خاطره ، فسخر الله لهما شخصًا فى الطريق أخذ بزمام أتانيهما[٨]، وما لبثا أن وجدا أنفسهما أمام السكة الحديد وألفيا جمهور المسافرين منتظرين وكانت الساعة وقتئذ تشارف الثانية عشرة ببضع دقائق . ودق

---

(٨) دابتا الركوب ، والأتان أنثى الحمار .

جرس المحطة معلنًا بقرب وصول القطار الذى كان قد توقف فى محطة منيا القمح لمدة ثلاث ساعات لأمر ما ، فركب الإمام ولم ير الشيخ صبيحى بدًا إلا الركوب معه حيث لم يتمكن من الاصطبار على بعده .

وصلا إلى السويس عند مطلع النهار ، وعاون الشيخ صبيحى أستاذه فى نقل المتاع إلى الباخرة ، وما أن علا صفير الباخرة مؤذنًا بالإقلاع حتى علاه النحيب لمفارقة الحبيب ، وفى آخر لحظة ومن شدة وجده صعد الباخرة ، وإذا به واقف بين يدى أستاذه بعد أن أقلعت الباخرة . وجاء الربان للتأشير على بطاقات المسافرين ، فلما أخذ تذكرة الإمام سأله : وأين التابع ؟ وتضرع إليه الشيخ صبيحى ألا يرده ، فأشار إلى الشيخ صبيحى ، وكانت المفاجأة أن وجد بالتصريح تذكرة بالدرجة الثالثة لتابع الأستاذ ، فعاوده الربان وقال : هل هذا أبوك يا شيخ ماضى ؟ سأعد له مكانًا مناسبًا حتى تكون عنى راضى ، فتهللت أسارير الشيخ صبيحى بعد أن امتقع لونه خيفة وريبة ، وحصلت له مع الربان صحبة طيبة ، وذهب مع أستاذه إلى سواكن حيث وصلاها فى ١٠ شعبان ١٣١٣ الموافق ٦ فبراير ١٨٩٥ ، وطابت له الإقامة سنة كاملة .

(٥) الانتقال إلى سواكن بالسودان :

وفى ١٠ شعبان من عام ١٣١٣ هـ (٦ فبراير ١٨٩٥) إبان الأيام الأخيرة من حكم المهدية بالسودان ، توجه الإمام رضوان الله عليه من مصر إلى بلاد السودان ليرفع لواء العلم عاليًا خفاقًا (لأن يهدى الله بك رجلًا واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت)[٩] . وقد بذل الإمام كل جهده فى تربية النشء التربية الدينية السليمة ، وهو الجيل الذى سوف يتولى القيادة ، والذى سيعول عليه فى بناء المجتمع السودانى الإسلامى المتحرر من قيود الاستعمار . وظل الإمام بالسودان حتى عام ١٩١٥ م فيما عدا عام واحد قُضِىَ فى مدينة أسوان بعد سواكن .

وكما كانت مدينة المنيا هى الأفق الأول لدعوة الإمام فى مصر ومنها أُذن بنشر الدعوة .. كذلك كانت سواكن بالنسبة لمدن السودان .

وعند دخول الإمام رضوان الله عليه ميناء سواكن ، كانت تعتبر من أكبر وأغنى مدن السودان ، يسكنها خليط من العرب والبجة[١٠] ، ويحكمها

(٩) الطبرانى فى الكبير ، والسيوطى فى الجامع الصغير .

(١٠) قبيلة سودانية .

البريطانيون باسم الخديوى[11] . وكانت سواكن تعج بالسكان الذين يعملون بالتجارة ، وازدهر عمرانها ، وأقيمت بها الوكالات التجارية ومخازن البضائع ، كما انتعشت فيها الصناعة والتجارة ، وبها العلماء والقضاة الشرعيون ومشايخ الطرق الصوفية والصناع ، واشتهرت بأنها عروس البحر الأحمر . وهى جزيرة فى خليج بالبحر الأحمر ، ويربطها بالبر - وهو ما يعرف باسم القيف - جسر ترابى ، ويقابلها بالشاطئ الشرقى للبحر الأحمر ميناء جده بالأراضى الحجازية .

وكان الجهل والأمية متفشيان فى أوساط العامة ، كما تفشت الكثير من المعتقدات والعادات التى تتنافى وروح الشريعة الإسلامية ، لا سيما تلك المعتقدات الخاصة بالطريق إلى الله ودعوى النفع والضر والحداد على الميت وتقديس الأشخاص وشرب الدخان .

وكعادة الإمام رضوان الله عليه ، فإنه لم يكتف بواجب وظيفته كأستاذ بالمدرسة الأميرية ، بل بادر إلى الدعوة لله تعالى فى المساجد والزوايا والمجتمعات العامة والخاصة والمناسبات والاحتفالات الدينية .

وفى عام ١٨٩٨ م خضعت سواكن للاحتلال الإنجليزى . وكان الناس فى شغل عن المدارس والتدريس ، فالكل خائف من عدوهم الخارجى ومن الوشايات التى يدبرها أهل البلد فيما بينهم وذلك نتيجة لوجود الحكم العسكرى فيها واستقطابه لبعض الأهالى ، فكان وجود الإمام بينهم بعلومه ألفة لقلوبهم فصاروا بنعمة الله إخوانا ، وحببهم فى العلم وفى تلقيه ، فما لبثوا أن أقبلوا عليه لتلقيه بالمدارس لأبنائهم ، وبالمساجد لأنفسهم وأرواحهم .

وقد أكرم الله تعالى أهل سواكن خواصها وعوامها وعلماءها بالإمام رضوان الله عليه ، فتلقوا منه - كل على قدر سعته - هاطل الفيض الأقدس . وقد أخبر الإمام عن ذلك فى سيرته الذاتية فقال : « ..... ثم إلى سواكن ، وفيها قرأت البخارى لعلمائها وقسم العبادات من الموطأ ، وصار لى إخوان يحسنون الاقتداء والفهم فى علوم الحكمة العالية » .

وكما ذكرنا آنفًا ، لقد تأثر جميع سكان سواكن بوجود الإمام رضى الله عنه بينهم ، لأنه كان يصرف جميع أنفاسه بعد العمل المدرسى فى الدعوة إلى الله وتعليم الناس وتربيتهم وتنوير عقولهم ، لذا كان أثره فيهم بالغًا ، ويثنى بالخير على أبطال الإسلام وينشر بطولاتهم ، حتى أنه عندما وقع الأمير عثمان أبو بكر دقنه (وهو أمير الشرق وقائد قوات

(١١) وذلك قبل انفصال السودان عن مصر .

المهدية بها) فى الأسر بعد فتح السودان عام ١٨٩٨ م بالقرب من سواكن واقتيد مكبلًا بالحديد من سواكن ومنها إلى سجن حلفا ، جعل الناس يضحكون عليه شماتة واستهزاء ، فانبرى لهم الإمام قائلًا ومنبهًا : (أتضحكون على مسلم يحارب أعداء دينه ووقع فى الأسر ؟!) .

وفى المدرسة الأميرية بسواكن أخذ الإمام يلقى على تلاميذه الدروس فى عظمة الجهاد والمجاهدين ، مبينًا مآثر الأمير عثمان دقنه وما له من فضل فى محاربته الإنجليز وأعوانهم ، مما جعل التلاميذ يتأثرون بذلك وتنمو فيهم الروح الوطنية والغيرة على الإسلام . وأثمرت هذه النفثات المباركات على تلاميذه ، ومن بينهم المؤرخ السودانى الشهير محمد صالح ضرار الذى دون تاريخ السودان عامة وتاريخ سواكن خاصة . وقد كتب هذا المؤرخ الكبير فى مقدمة كتابه « تاريخ سواكن والبحر الأحمر » قائلًا : وفى أحد أيام الدراسة ألقى علينا أستاذنا السيد محمد ماضى أبو العزائم محاضرة كلها بطولة وثناء على الأمير عثمان أبو بكر دقنه ، فتاقت نفسى منذ ذلك التاريخ للبحث عن حياته .

لقد أثمر وجود الإمام رضى الله عنه بسواكن فى تكوين رجال حملوا مشعل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة فنشروا الطريق وأقاموا المساجد والزوايا وأحيوا مُواتَ القلوب وصححوا عقائدهم وجاهدوا فى الله حق جهاده .

وكان الإمام قد أرسل أسرته من بلدة الإبراهيمية إلى المطاهرة ليقيموا بها خلال إقامته بالسودان ؛ لأنه لم يوافق على اصطحاب أسرته معه إلى سواكن بسبب المعارك التى كانت لا تزال قائمة بين رجال الدراويش بزعامة الأمير عثمان دقنه من أنصار المهدى وبين القوات المصرية وقت ذاك ، فخشى أن يعرض أسرته لويلات هذه الحرب ، فذهب بمفرده إلى سواكن ، حيث كانت القوات المصرية تعمل على تطهير جيوب رجال الدراويش الذين كانوا يحيطون بمدينة سواكن بقيادة هذا الأمير الشجاع !! .

ومن المساجد التى كان الإمام يلقى فيها دروسه : مسجد تاج السر (نسبة إلى الشيخ تاج السر شيخ الطريقة المرغنية وقتذاك بشرق السودان ، لأن الطريقة المرغنية لم تكن موجودة فى ذلك الوقت إلا بشرق السودان فقط) ، فالتف حوله جمع كثير من أبناء سواكن ، وجمع الله عليه إخوانًا يحسنون الاقتداء والفهم فى علوم الحكمة العالية ، نذكر منهم فضيلة الشيخ عبد الرحيم الحيدرى السواكنى ، فقد كان نائبًا للطريقة المرغنية بمدينة سواكن ، وكان من أكبر أثرياء البلدة ، وكان وقتئذ خليفة خلفاء الطريقة المرغنية فى شرق السودان ، وتعلق قلبه بالإمام تعلقًا شديدًا وصار من أقرب المريدين له وألصقهم بدعوته .

وكان الإمام رضى الله عنه - كعادته كلما دخل بلدة من البلاد - يرى بنور بصيرته الرجال الذين سبقت لهم من الله الحسنى والمطلوبين لرحابه ، فلما دخل سواكن سأل تلاميذه عن رجل صالح اسمه « عبد الرحيم » ، فدلوه علي الرجل إثر الرجل ولكن الإمام لا يرى فيه إمارات الرجل الذى يراه بنور بصيرته ، إلى أن كان آخر رجل يحمل هذا الاسم وقال له تلاميذه إنه شيخ الطريقة المرغنية ولا يفتر عن ذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، وعرف مكانه وتوجه إليه .

وفى أحد المساجد - ويرجح أنه مسجد تاج السر - كان اللقاء بين الإمام والشيخ عبد الرحيم الحيدرى السواكنى وكان يلقى درسه بهذا المسجد ، قرأ فيه الإمام إمارات الرجل الذى ينشد مقامه ، وستر عنه حاله ، وتودد إليه ، وعكف على خدمته يناوله وضوءه ويحمل له عصاه ويقدم له الماء ، حتى توثقت عرى المحبة بينهما .

ولما دنت ساعة الإكرام من الله وحان الوقت ليُكشف الغطاء ويزال الستار عن قلب الشيخ عبد الرحيم ليعرف الإمام وخصوصيته ، وكما فى الحكمة « إذا أراد الله أن يكرمك بصحبة رجل من الرجال ، طوى عنك بشريته وأظهر لك خصوصيته »، وكان ذلك فى ليلة النصف من شهر شعبان ، إذ أن الإمام رضى الله عنه اعتاد أن يحيى هذه الليلة - التى يفرق فيها كل أمر حكيم - بصلاة ودعاء مخصوصين وقراءة سورة يس ويفسر سورة الدخان ، وفى تلك الليلة وبعد صلاة المغرب طلب الإمام من الشيخ أن يقوم بإحيائها ، فسأله الشيخ عبد الرحيم : كيف نحييها ؟ فأجاب الإمام بكذا وكذا ، فقال له الشيخ عبد الرحيم : تقدم لإحيائها . صلى الإمام بهم ودعَّاهم وقرأ سورة يس ملاحظًا ما فى الدعاء من أسرار وأنوار ، ولما فسر لهم الإمام سورة الدخان ، انسابت المعانى من قلبه على قلب الشيخ عبد الرحيم مُجليةً حجاب الغشاوة عنه ومزيلة الرَّين ومظهرة جمال وخصوصية الرجل ومكانته .

وبالفعل لقد كانت تلك الليلة هى الفارقة الفاضلة ، فعندما انتهى الإمام من الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان ، سار الشيخ عبد الرحيم مع الإمام حتى أوصله إلى داره ثم قفل راجعًا إلى داره ، وقد استولى على قلبه حال قاهر ، وما أن وصل داره حتى رجع مرة أخرى لدار الإمام والشوق يقوده فقد اتقدت نار المحبة واستولت على فؤاده ، رحب به الإمام ، وبعد أن جلس مع الإمام وبدون أن يتكلم ، استأذن وخرج ، وما أن وصل إلى منزله حتى عاوده الحنين إلى الإمام فتوجه إليه . وتكلم الشيخ عبد الرحيم فى المرة الثالثة قائلًا : اعف عنى يا سيدى لما كنتَ تقوم به لى ، أنا أبحث عنك منذ سنين وأنت تخدمنى !! أنا منذ اللحظة خادمك .

وقد بلغ الحب بالشيخ عبد الرحيم منتهاه، فقال معربًا عن ذلك :

وإذا الجبال تزحزحت[١٢] عن ارضها ... عن حبنا فى الله لا نتحول
وحى السماء منزّل ببيوتنا ... وحقائق الآيات عنا تنقل
ولقد ورثنا المرسلين بعلمهم ... ولنا من الغيب المقدس منهل
طافت حوالينا المجالى اولا ... والحال موصول بنا لا يُفصل
سادت على كل الرجال صغارنا ... وكبارنا منها النوائب تذهل
وإذا تجلى بالجمال حبيبنا ... فى الأوليا فلنا الطراز الأول
قل للحسود اخسء فإنك جاهل ... بجنابنا يتوسل المتوسل
يا حسرة على الحساد إن قيودهم ... ثقلت عليهم خاب كل مؤول
ولو انهم تركوا السوى والغير ... من قلوبهم فازوا بكل مؤمل

وخلال فترة وجود الإمام بسواكن، ونظرًا لقربها من المنطقة الجنوبية التى تنتشر بها الوثنية، فقد كان يرسل إليها بعض أتباعه فى صورة تجار حاملين معهم الملح نظرًا لعدم وجوده عندهم. فإذا أنسوا لهم كانوا يعرضون عليهم مبادئ الإسلام فى صورة سهلة سمحة رغبت فيه الكثير، وهنا تنبه الإنجليز إلى خطر الإمام الذى أوفد أتباعه إلى تلك المنطقة التى تجوبها جيوش المبشرين، فكان ذلك من الأسباب التى أدت إلى نقل الإمام إلى مدينة أسوان.

ولما انتهت السنة الدراسية الأولى عاد الإمام إلى مصر وبصحبته الشيخ صبيحى، وكان فى استقباله بميناء السويس الأفاضل على بك علمى، وأحمد الصنفاوى، ومحمد عبد الجواد، ومحمد يوسف وغيرهم، ولبى دعوتهم وقضى بالإبراهيمية شرقية أيامًا عاد بعدها إلى المطاهرة حيث إقامة الأسرة ومعه الشيخ صبيحى. ومكث الإمام شهورًا ثلاثة متنقلًا فى ربوع مصر يزور الأولياء فى مراقدهم وكذلك والديه. وفى نهاية الإجازة نزل ضيفًا على محافظ السويس وهو والد فريد بك وجدى المؤلف الكبير فزادت بينهما صلة الود. وفى الإجازة الصيفية للعام الثالث زار الإمام مصر وعلم بأمر انتقال وظيفته إلى أسوان، فرحل بأسرته إليها.

---

(١٢) وقد ذكرت أيضًا باللفظ: «تحولت».

(٦) الانتقال إلى أسوان :

تسلم الإمام عمله الجديد بأسوان - وكان بصحبته عائلته - أواخر شهر جمادى الأولى ١٣١٦ الذى وافق ٨ أكتوبر ١٨٩٨ ، ومكث بها عامًا واحدًا .

وعلى غير ما اعتادت أسوان ، وعلى غير مثال سبق ، اكتظ الجامع الكبير بأهل البلدة لسماع دروس الإمام ، وجمع الله عليه الخلق يستمعون إليه وينصتون . وكان من بين تلاميذه الذين توثق رباطهم به : الشيخ محمود العقاد (والد الكاتب عباس محمود العقاد) ، وماهر بك (والد على باشا ماهر وأحمد بك ماهر الذين أحبوا الإمام حبًا جمًا) ، وقاضى المحكمة الشرعية وفقيهها ، وعائلة بشندى ، وأحمد أفندى إبراهيم ملاحظ شونة الملح ، والجداوى الذى تظاهر أنه من تلاميذ الإمام ومريديه رغبة فى أن يتعلم منه الاسم الأعظم ليقضى حاجاته ، وكان قاضيًا بمديرية سنار بالسودان قبل الثورة المهدية ثم فر منها راحلاً إلى أسوان حيث استقر فيها ، وحسده على تلك المنزلة التى أنزله الله ، وهاله جمع الناس على الإمام وارتباطهم به فسرت نار الحقد فى قلبه وبدأ يكيد له فى كل مكان محاولاً فض الناس من حوله ، فاستمال قلوب الضعفاء ومنهم عمدة أسوان ، وبألوان الخسة حاربوه ، وبما يندى له الجبين آذوه .

وجاءت ليلة هى خير من ألف شهر .. جاءت ليلة القدر ، اختاروها إمعانًا فى إيذائه رضوان الله عليه . إن العمدة وآخرين قد حركوا الأهالى لقذف منزل الإمام بالطوب وبالحجارة طوال الليل ، كل ذلك والإمام فى خلوته آنسًا بربه يناجيه ، قائمًا لليلة القدر إيمانًا واحتسابًا كما أمر الرسول الكريم . ولما حانت صلاة الفجر ، صلى الإمام بمن معه فى الخلوة ، ثم جلس متأثرًا بما يحدث ، وتوجه قلبه إلى مولاه ، وجعل يملى القصيدة الآتية :

نعم لرجال الله وصف الحنانة ... وإمهالهم للعز لا للمذلة

وسيفهم ماض إذا سُلَّ لحظة ... يُقَطِّعُ اعناقًا بعزم النبوة

وهمتهم فوق الجبال إذا بدت ... تدك لها من خشية بل ورهبة

وسَهْمُهُمُو إن قَوَّسُوه تَدَكْدَكَتْ ... له كل اركان الوجود برمية

وإن نظروا يومًا بغضب وحدة ... بدى سوط سخط الحق من كل وجهة

رجال لهم حال مع الله ظاهر ... وحال مع المختار فى كل لحظة

وناصرهم ذو العز والقهر والعلا ... يؤيدهم بالنصر بعد المشيئة

إذا رفعوا الأجفان يومًا لحاجة ... لهم ربهم بالفضل لبى بسرعة

ينـاديهمـو لـبيـكمـو مـا شـئـتـمـو ... يكن لكمو عندى بمحض المبرة
يـغـار عـلـينـا أن يـمـس جـنابـنـا ... اولو الفسق والبهتان حزب الضلالة
وهاهو سوط القهر صُبَّ عليهمو ... وفيهم بدت نار الشقاق الحمية
وعـامَـلَـهـم بـجـلالـه وبـقـهـره ... واحـرقـهـم بـالـنـار نـار المـذلـة
طغوا وبغوا جهلًا بقدرى ورتبتى ... ولم يرعووا حتى أُصيبوا بنقمتى
وامـهـلـتـهـم ودًا ولـطـفًـا ورحمة ... ليرتدعوا عن فعل اهل الجهالة
فـزادهـم الإمـهـال مـنـى تـعـنـتًـا ... إلى ان علاهم سيف ماضى العزيمة
ولا لـوم يـا قـوم عـلىَّ فـإنـنـى ... عـلى ثـقـة ان أُجـاب بـدعـوتـى
وهاهم رجال الله سلوا سيوفهم ... على من طغى يرموه اقبح رمية
وقاموا بامر الله للحق ينصروا ... وامـر رسـول الله خـير الـبريـة
وبالأمر قد ساروا بعزم وهمة ... لـنـصرة ديـن بـل وإحـيـاء سـنـة
وحسبى رب العرش والله ناصرى ... وطه غياثى بل ومنه معونتى
عـلـيه صـلاة الله تُجْلَى وتُجْتَـلَى ... صلاة بها احظى لنيل السعادة

وبعد ثلاث ليالٍ من هذه الواقعة ، وفى ليلة عيد الفطر المبارك ، أنزل الله بالظالمين عقوبته وكفاه الله أمرهم ، وثاب بعضهم إلى الحق فتاب وأناب .

وبعد هذه الحادثة ، ترك الإمام هذه المنطقة ، واستأجر بضاحية من ضواحى أسوان منزلًا لأحد كبار الرجال وهو بشير بك كحيال ، فأنس بالوحدة وشرح الله صدره بها ، وعكف على مناجاة ربه ، فقيض الله له من يؤنسه من الإخوان وهو صاحبه بسواكن محمود بك صفوت العياط ، الذى نقل لأسوان يوزباشى بهيئة الأركان حرب للقوات المصرية فيها ، فلازمه بقية هذه السنة ملازمة الظل لصاحبه .

وقد وجد الإمام جماعة كبيرة من الناس ملتفة حول رجل مشعوذ . ولما سأل الإمام من هذا؟ قالوا هذا شيخ ولكنه لا يلتزم بتعاليم الإسلام ، فتغير وجه الإمام حزنًا مما رآه ، وكيف أنهم يسمونه شيخًا وهو على هذا الحال . أدرك ذلك المشعوذ أن الإمام غير راض عما رآه ، وأدرك أنه سيكون خطرًا عليه ، فاحتاط لنفسه وأرسل أحد أتباعه المشعوذين بعصا ليأتى الإمام أبا العزائم ويسحره بها . ولما قرأ هذا المشعوذ على العصا بسحره ، قرأ

الإمام أيضًا قول الحق : ﴿ بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ﴾[١٣] ، فسقطت العصا من يد المشعوذ فأخذها الإمام ووضعها بجانبه ثم ألقى درسًا نافعًا ممتلئًا بالخشية من الله ، فتاب الرجل على يد الإمام وعزم على ألا يعود إلى السحر مرة أخرى ، فقال له الإمام مداعبًا : (لقد أتيت لتسحر أبا العزائم ، فسحرك أبو العزائم) ، أى سحرك بالبيان والعلم مصداقًا لقول النبى ﷺ : (إن من البيان لسحرا)[١٤] .

ولما حانت الإجازة الصيفية ، توجه الإمام فى سياحة طويلة من أدنى صعيد مصر إلى الوجه البحرى زار فيها بلادًا كثيرة وأحبابًا كثيرين . وأثناء هذه السياحة ، علم سماحته أن وظيفته قد انتقلت إلى سواكن مرة أخرى .

(٧) سواكن مرة أخرى :

ومرة أخرى عاد الإمام إلى سواكن واستقر بها عامين جَدَّدَ فيهما شباب دعوته إلى الله تعالى والتى كان قد بدأها من قبل .

وكانت القبائل تستضيفه فى سباق بينها على المدة التى يقيمها لدى كل منها أثناء زياراته للمناطق الممنوعة فى جنوب السودان ، فلم يترك بقعة به إلا زارها وترك فيها أثرًا طيبًا ، وكانت مراكز دعوته هناك أكثر من ثلاثين مركزًا يقوم عليها أبناؤه ومريدوه الأوائل وعدد من الشيوخ الذين عاصروه .

(٨) الانتقال إلى وادى حلفا :

وفى حلفا التى أصبحت محلًا لعمله ، كان الناس مشتغلين بالملاهى عاكفين على ملاذ الدنيا واحتساء الخمر ، منصرفين عن المسجد معرضين عن طلب العلم ، فاهتم بتعمير مسجدها واستكماله ، وحث الناس على المسارعة إلى الفضائل والنأى عن الرذائل ، فدبت فيهم روح اليقظة الإسلامية وتوافدت على المسجد جموعهم لسماع درسه والأخذ بتوجيهه والاستنارة برأيه .

وكان يلتقى بالناس فى مجالسهم ومنتدياتهم التى كانوا يرتعون فيها ليقيمهم من عثرتهم ويسلك بهم سبيل الرشاد . ومن ذلك أنه دخل الحانة ذات يوم واتجه إلى منضدة كان يجلس عليها كامل أفندى مدير عام السكة الحديد فى السودان فى ذلك الوقت

---

(١٣) سورة الأنبياء آية ١٨ .

(١٤) البخارى والإمام أحمد فى المسند ومالك فى الموطأ وأبو داود والترمذى والسيوطى فى الجامع الصفير .

وجلس معه ، واندهش الحاضرون ، وارتبك كامل أفندى الذى طلب للإمام فنجانًا من القهوة ، لكن الإمام طلب كأسًا من الخمر وطبقًا من الكبد الطرى وأصر على طلبه فأحضروه له ، وصب بعض الخمر على الكبد الطرى فظهرت حالة التليف واضحة فى أنسجة قطعة الكبد وانكمشت وأصبحت قطعة ضامرة ومال لونها إلى السواد ، ثم توجه الإمام إلى كامل أفندى قائلًا : هذا ما يفعله الخمر بكبدك وأنت لا تشعر .

وأخذ يشرح للحاضرين تأثير الخمر على كبد الإنسان ، وعلى عقله وهو الجوهرة التى ميز الله تعالى بها الإنسان عن غيره ، ثم خرج وخرجوا وراءه مستبدلين خمرة الشيطان بخمرة الرحمن وهو نور الإيمان والاستقامة ، وتبعه كامل أفندى الذى أصبح من خاصة تلاميذه ومريديه .

وكان أهل حلفا ودنقلة وشمال السودان يتسابقون إلى حلقات الإمام العلمية حتى ضاق بهم المسجد ، وزار بلادًا كثيرة فى شمال السودان بدعوات من مشايخ قبائلها ، وجمع الله عليه رجالًا أبرارًا أتقياء تلقوا عنه أوراده وأذكاره وسلكوا طريقه .

(٩) الانتقال إلى أم درمان :

من الثابت أن الإمام رضى الله عنه كان بمدينة أم درمان [١٥] فى العام ١٩٠٢ ، وهو العام الذى نقل فيه إلى مصلحة المعارف السودانية ، والذى افتتحت فيه كلية غردون التذكارية (جامعة الخرطوم حاليًا) ، إذ توجه الإمام من أم درمان إلى الخرطوم مع الأساتذة العاملين بمدرسة أم درمان لحضور حفل افتتاح الكلية .

جاء الإمام إلى أم درمان وهى مثقلة بالجراحات ، فقد كانت عاصمة وحاضرة الدولة المهدية والتى سقطت بمعركة كررى على مشارف شمال أم درمان ، فقد كانت خارجة لتوها من معركة أبيد فيها الكثير من سكانها أمام الجيش الإنجليزى الغازى .

وما أن مضى على قدوم سماحته شهر واحد حتى تكاثرت الطلبات للدخول بالفصل

---

(١٥) تأسست مدينة أم درمان عام ١٨٨٥م عندما ارتحل إليها محمد أحمد المهدى بجيشه وآثرها على الخرطوم والتى كانت عاصمة الحكم التركى ، فنمت أم درمان من مجموعة أكواخ إلى معسكر حربى إلى عاصمة للدولة المهدية ، وبعد سقوط الدولة المهدية فى ١٨٩٨ ، انتقلت العاصمة إلى الخرطوم ، وبقى فى أم درمان خليط من شتى المواطنين الذين ينتمون إلى مختلف القبائل السودانية . وأصبحت أم درمان مدينة سودانية بالمعنى القومى العريض لأهل السودان . لذا يطلق عليها وإلى الآن العاصمة القومية للسودان لأنها تكاد تكون خالية من العناصر الأوربية والأجنبية على العكس من الخرطوم والتى غلب عليها الطابع الأوروبى فى ذلك الوقت . ولم تعرف أم درمان التخطيط العمرانى الحديث وظلت محتفظة بكثير من ملامحها المهدية ، ولم ترتبط مع الخرطوم بكوبرى إلا فى عام ١٩٣٢ . ولذا كانت أم درمان بوتقة الوعى القومى المتنامى والذى انصهر فيها متخذًا شكل نشاط اجتماعى وثقافى ودينى .

الذى سيُدرس فيه . وقد حرص على أن يغذى عقول الطلبة بعلوم مواد السنة الأولى لدار العلوم المصرية من نحو وصرف وبيان وبديع وتفسير وحديث ، فقد أنشأت مدرسة المعلمين بأم درمان على غرار مدرسة دار العلوم المصرية التى تخرج منها الإمام . ولم يترك الإمام هذه السنة الدراسية تمر إلا وقد اختبر طلبة هذا الفصل الذين كانوا نواة مدرسة المعلمين السودانية ، فوجد جهوده صادفت تربة خصبة قد أثمرت فى رجال كانوا بحق صفوة أهل السودان وخيرة أبنائه الذين ظلوا متمسكين بمبدئه السامى فى خدمة الإسلام والمسلمين بهذا القطر الشقيق .

وكعادة الإمام رضى الله عنه ، فلم يكن يكتفى بواجب وظيفته ، بل كان يمضى جُلَّ وقته فى الدعوة إلى الله . وقد كانت له حلقة علم فى مسجدها الجامع حيث قرأ الموطأ وحكم ابن عطاء الله ، وذكر الإمام أن أهل أم درمان يحبون العلم والعلماء إلا أنهم يحتاجون إلى مبادئ العلوم حتى يتأهلوا لفهم روح الشريعة . وفى أم درمان اتصل الإمام وتعرف على كثير من الشخصيات الوطنية ذات المكانة الاجتماعية والدينية ، والذين ظلوا على محبتهم وصلتهم بالإمام حتى بعد نقله للخرطوم وكذلك بعد استقراره رضى الله عنه فى مصر ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر : الشيخ مدثر إبراهيم الحجاز حامل أختام المهدى – وهو من الشخصيات الوطنية البارزة ، وبعد دخول الإنجليز السودان عرفوا له هذه المكانة ، فكان محل احترامهم وتقديرهم ، وهو تجانى الطريقة ، ربطت بينه وبين الإمام رضى الله عنه رابطة المحبة والأخوة فى الله وفى رسول الله ﷺ – ومن بعده خليفته عبد الله التعايشى تلميذ الإمام ، والشيخ قريب الله أبى صالح الطيبى شيخ الطريقة السمانية بأم درمان ، والشيخ أحمد السيد مفتى السودان ، والشيخ عبد الرحمن محمد أحمد المهدى ، والشيخ عبد المجيد الدفارى .

وقد كان منزله أشبه بمنتدى أدبى يضم علية القوم بالسودان من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس . وكان رضى الله عنه يسعى لجامع أم درمان العام الذى كان يقع على بعد كيلو مترين من منزله عقب الغروب فيدرس به الفقه على مذهب الإمام مالك رضوان الله عليه من بعد صلاة المغرب إلى ما قبل صلاة العشاء ، ثم يدرس بعد العشاء درسًا خاصًا فى الحديث الشريف حتى ينقضى الثلث الأول من الليل ، فيعود فى موكب من طلابه إلى منزله حيث يجد كثيرًا من العلماء المصريين من أئمة القوة العسكرية قد سبقوه إليه ، وكذلك قاضى قضاة السودان الشيخ محمد شاكر ، فيتدارسون القرآن ويتجاذبون أطراف الحديث فى غوامض أسرار الصوفية ومآخذ أهل الذوق فى القرآن الكريم إلى منتصف الليل ، وبعد انصرافهم لا يبقى معه إلا نفر قليل ، فيملى عليهم ما كانوا يحتارون

فى فهمه إلى الهزيع الأخير من الليل ، حتى إذا نام الموجودون تركهم إلى مخدعه للتهجد لله تعالى فى صرصر الليل ، فلا تغمض له عين قبل صلاة الفجر ، وبعد صلاة الفجر يذهب إلى فراشه حتى مطلع الشمس أو بعد ذلك بقليل حيث موعد الدرس بالمدرسة .

وفى السنة الثانية له بأم درمان التف حوله طلابه وعارفوا فضله مرة أخرى بالجامع الكبير وفى المدرسة وبمنزله الشهير الذى أصبح قبلة أنظار أهل العلم والفضل .

وقد زار المدرسة لفيف من مفتشى المعارف المصرية مع المستشارين الإنجليز بها وحضروا درسًا للإمام وحضروا أسئلته وإجابات الطلبة فأخبروا بأن إجابات الطلبة تنبئ عن سعة فى الفهم مع استجلاء لحقائق غامضة على كثيرين فى فقه اللغة ليست مشوشة بالمعقدات فى كتب اللغة فى أسلوب عذب بسيط ، وأن ما حصله هؤلاء الطلبة يضاهى ما حصله طلاب السنة النهائية بدار العلوم بمصر إن لم يمتز عنهم فى نواحى كثيرة .

وفى الجامع الكبير ازداد إقبال الخاص والعام على هذا المنهل الروى حيث قام الإمام بشرح حكم ابن عطاء الله السكندرى لكثيرين من علماء السودان الأعلام الذين صحبوه فى هذه السنة ولازموه .

وأثناء إقامته رضوان الله عليه بأم درمان أصدر مجلة (السعادة الأبدية) لسان حال الدعوة العزمية فى وادى النيل ، والتى استمرت فى الصدور من عام ١٩٠٣ حتى ١٩١٥م .

(١٠) الانتقال إلى الخرطوم :

من الثابت أن كلية غردون التذكارية [١٦] (جامعة الخرطوم حاليًا) قد افتتحت عام ١٩٠٢م . وفى العام ١٩٠٥ - وكان عمره رضى الله عنه أنذاك ٣٦ سنة - وعندما افتتح القسم الخاص بتخريج المعلمين المؤهلين والقضاة الشرعيين بكلية غردون ، انتقل الإمام رضى الله عنه من مدينة أم درمان إلى الخرطوم أستاذًا بالكلية . وسكن الإمام أولًا بحى الخرطوم غرب حتى تم بناء منزله بمنطقة برى والتى تقع إلى الشرق من المدينة ، والكلية تبعد عن السكن بحوالى ثلاثة كيلو مترات ، ويفصلهما ثكنات الجيش . ومنطقة برى مقسمة إلى أربعة أحياء ، سكن الإمام بحى برى المحس (والمحس هى قبيلة فى شمال السودان كان أغلب سكان هذا الحى من هذه القبيلة) . والمنزل الذى سكن فيه الإمام

---

(١٦) جاءت التسمية تخليدًا لذكرى اللورد غردون آخر حاكم عام للسودان فى عهد الحكم التركى الذى سبق الحكم المهدى . وقد قتله أنصار المهدى عند فتحه للخرطوم عام ١٨٨٥ م.

يقع على مساحة تقارب ٤٠٠ مترًا مربعًا، ويحيط به الجيران من الناحية الشمالية والغربية، وإلى الجنوب زقاق ضيق، أما المدخل الرئيسى فمن الناحية الشرقية (اتجاه القبلة فى الخرطوم). بنى المنزل من الطوب الأحمر، ولا يزال المبنى كما هو حتى الآن، ومن طابق واحد كما هو الحال فى كل منازل المنطقة. وأغلب سكان منطقة برى من السودانيين الذين يعملون كحرفيين، وقليل من المصريين الذين يعملون كموظفين فى دواوين الحكومة، وخلت تمامًا من الإنجليز. وللمنزل فناء شرقى كبير (حوش) كان يعقد فيه الإمام الدرس وتقام فيه الصلوات والحضرات ويجتمع فيه مع تلاميذه ومريديه بعد العصر. كما كان بالمنزل صالون (صالة استقبال) لاستقبال الضيوف ومقيلهم نهارًا. كما كان للإمام حجرته الخاصة. سكن الإمام رضى الله عنه ببرى لمدة تقارب العشر سنوات. وكان فى الإجازة المدرسية للكلية ينزل إلى مصر مستقلاً القطار وينزل فى المحطات التى بها إخوان بناء على دعوات مسبقة منهم. التف الكثير من سكان برى ونواحيها المختلفة حول الإمام، فهدى الله على يديه الكثير ممن سبقت لهم من الله الحسنى، فكان الإمام لهم الأب الحنون والشيخ المربى والملاذ الآمن والمرشد الدال على الله تعالى، ولذلك أحبوا الإمام وتتلمذوا له، وأطلق الكثير منهم اسم الإمام وكنيته على أبنائهم تبركًا به.

وفى برى أقامت معه أسرته حيث كان يهتم غاية الاهتمام بتربيتهم وتعليمهم، ومن بينهم ابنه الأكبر سماحة السيد أحمد ماضى أبو العزائم الذى كان يعده منذ نعومة أظفاره إعدادًا خاصًا لحمل أمانة الدعوة إلى الله تعالى من بعده، حيث خلفه فيما بعد فى دعوته عقب انتقاله إلى جوار ربه.

وكما هى عادة الإمام، يذهب إلى عمله بالكلية صباحًا ممتطيًا دابته ويعود إلى بيته كذلك فى نهاية عمله اليومى، وكان بعض طلبته يرافقه فى غدوه ورواحه لزيادة تحصيل العلوم فيسألونه ويجيب.

وفى برى اجتمع على الإمام تلاميذه الذين تلقوا عنه هاطل فيض علمه وحملوا مشعل الدعوة إلى الله بعد نزوله لمصر، كما تعرف به واتصل به فى داره ببرى الكثير من الشخصيات والمريدين والأحباب، وقد تفاوتوا فى معرفتهم وقربهم من الإمام رضى الله عنه. وكان يقيم مع الإمام ويلازمه أبكار تلاميذه من الأفراد وهم الشيخ عبد الرحيم الحيدرى السواكنى، والشيخ محمد صبيحى، والشيخ أمين الأرزهلى، ولحق بهم الشيخ مفتاح زيدان، وكذلك المشايخ الأفاضل محمد نجاتى، والحناوى، وعبد الرحيم عياد، والسيد سالم، وأحمد النور عمار. وأسس الإمام فى برى زاوية آل العزائم، والموجودة

حتى الآن ، للصلاة ولتحصيل العلوم الدينية .

وكانت له دروس بداره يلقيها بعد صلاة العصر . وفى مسجد الخرطوم الكبير كان للإمام مجالس ذكر وعلم منتظمة امتدت لما يقرب من عشر سنوات كان يدرس فيها تفسيره للقرآن الكريم (أسرار القرآن) والموطأ والبخارى وقسم العبادات من مدونة مالك ابن أنس .

وكان كثير من الناس - وحتى زماننا هذا - يعتقد أن الشيخ الولى هو ذلك الرجل الصالح ذو الكرامات وخوارق العادات والبركات الذى يكثر من ذكر اللسان ويعقد حلقات الذكر مصحوبة بالنوبة والطار ، وهما من أنواع الدفوف . جاء الإمام رضى الله عنه إلى مسجد الخرطوم الكبير والحال والاعتقاد عند كثير من الناس على ما أسلفنا ، فأراد أن يجذب الناس ليعلمهم ، لأن العلم عنده سابق العمل ، وكما روى فى الحكمة عنه : (أول الطريق علم وأوسطه عمل وآخره موهبة)، وقوله : (عمل بلا علم ضلال ، وعلم بلا عمل وبال).

ومن بالغ حكمة الإمام رضى الله عنه ورأفته أن بدأ بعقد حلقة الذكر ليجذب الناس إليها بعد الصلاة ذاكرًا (الله) جهرًا ، ثم يجلس ليعلمهم أمور دينهم وفقه العبادات وتفسير القرآن الكريم ، فالذكر أولًا يجذب القلوب ويجمع الهمم ويوقظها ويهيئ الأنفس لتلقى العلوم .

وبهذه الطريقة التجديدية فى الأسلوب والأدب ، جذب الإمام الكثير من سكان الخرطوم لحلقته ، فبدأت تنمو وتكبر . وقد كان رضى الله عنه يبدأ دروسه بفقه العبادات التى لابد منها ليقيم المسلم دينه ، ثم ينقله بعد ذلك إلى علم أعلى فأعلى ، حتى إذا تأهل أفاض عليه من علوم الحكمة العالية ومشاهد التوحيد ، فقد كان هذا دأبه فى كل مجالسه ، حتى فى الدرس الواحد يبدأ متنزلًا ثم يعلو بالحديث .

ولقد حاول غير مرة بعض علماء السلطة وأدعياء التصوف الوشاية به لدى السلطات لتأليبهم ضده ، ولكن الله كان يقيض له من يدافع عنه ويكشف الأمر على حقيقته .. ومن بينهم عمدة مدينة الخرطوم فى ذلك الوقت واسمه المرضى الخضر ، وغيره ، وازداد قدم الإمام رسوخًا وازداد الناس ارتباطًا به ، ينهلون من فيض فضل الله تعالى المفاض عليه .

وقد دب الخلاف بين مجموعة من القضاة ومنهم الشيخ محمد بك الخضرى وبين الإمام على أساس أنهم يريدون فرض تدريس مذهب الإمام أبى حنفة رضى الله عنه نظرًا

لأنه المذهب الرسمي المعمول به في مصر، والإمام يرى أن تكون دراساته على مذهب الإمام مالك رضي الله عنه لأنه المذهب الوحيد بالسودان وبه يعملون.

واستقر رأى ولاة الأمور حسمًا لهذا النزاع أن تقسم الكلية إلى قسمين: أحدهما لتخريج القضاة الشرعيين يستقل به الخضرى بك، والآخر لتخريج المعلمين يتولى التدريس فيه الإمام ويعاونه الشيخ الطباخ.

وكان الإمام يؤلب الناس ضد الاحتلال البريطاني، ومن دعائه الذى كان يدعو به أن يُهْلِكَ اللهُ الظالمينَ بالظالمين والكافرين بالكافرين وأن يُخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين، وظل على ذلك إلى أن حيل بينه وبين مزاولة عمله كأستاذ لمادة الشريعة الإسلامية بكلية غردون لأسباب سنعرض لها بعد.

وقد كان الإمام حتى وهو بالخرطوم يحقد عليه الحاقدون من بعض علماء ومشايخ مصر، وقد كان الإمام فى زيارة لبلدة آبا الوقف بمصر أثناء العطلة الصيفية وأمضى بها أسبوعًا، وبعد سفره إلى السودان قام أحد العلماء بإلقاء خطبة الجمعة بمسجد سيدى إبراهيم الشلقامى بآبا الوقف وأخذ يطعن فى الإمام طعنًا شديدًا. وأثناء ذلك إذ بالإمام وهو بالسودان يملى قصيدة فى التو والحال فيقول رضوان الله عليه:

تادب فسيف القوم ماض مجرد ... يقومه شهم بطه مُؤيد
إذا ما دنا لله يومًا بطرفه ... تلبيه املاك السماء وتنجد

وإذ بخطيب المسجد هذا يقع من على المنبر ولا يستطيع الحركة بعد ذلك. إن الله غيور على أحبابه وغيور على أوليائه، ومن عادى لله وليًا فقد آذنه الله بالحرب، ولكنها أسباب تأخذ مقتضاها، وإن من أمة رسول الله محدثون - أى تحدثهم الحقائق - كما أخبر رسول الله ﷺ.

وكان رضى الله عنه يعظ ويبشر، فهدى أناسًا كثيرين مُنحوا القابل فتلقوا هذا الفيض المقدس الذى أثمر فى أرض النفوس الطاهرة، وكان يدرس فى الخلوة علوم السادة الصوفية لمن صحبوه فكان لهم الحظ الأوفر فى تزكية نفوسهم على يديه سماعًا من درره المنثورة وحكمه المضنونة وأسراره الغامضة فى تلك العلوم.

وفى إحدى حلقات دروسه بالمسجد الكبير بالخرطوم تكلم بمعانى عالية راقية أدهشت السامعين، مما دعا أحدهم إلى مقاطعته قائلًا: كلام من هذا يا مولانا؟ هل هو كلام سيدى عبد القادر الجيلانى؟ فأشار إليه بيده وقال: انتظر يا بنى - ثم واصل الحديث وأتى

ببيان أعجب مما تقدم ، فلم يتمالك الرجل نفسه وقال : كلام من هذا يا مولانا ؟ هل هو كلام سيدى محيى الدين بن عربى ؟ فقال انتظر يا بنى - ثم واصل الحديث ، وعلا بالعبارة حتى أسكر الحاضرين وأخذ بمجامع القلوب ، فما كان من الرجل إلا أن وقف منبهرًا وقال : كلام من هذا يا مولانا ؟ هل هو كلام سيدى أبو الحسن الشاذلى ؟ فقال رضوان الله عليه سائلًا : يا بنى : من الذى أعطى الشيخ عبد القادر الجيلانى ؟ قال الله ، فقال : ومن الذى أعطى سيدى محيى الدين بن عربى ؟ قال الله ، فقال : ومن الذى أعطى سيدى أبى الحسن الشاذلى ؟ قال الله ، فقال رضوان الله عليه : هل عطاء الله مقطوع أم ممدود ؟ قال ممدود ، عندئذ قال الإمام : إن الذى أعطى الجيلانى والذى أعطى ابن عربى والذى أعطى الشاذلى هو الذى أعطانى . ففهم الحاضرون أن عطاء الله لأحبابه وأوليائه لا ينقطع ما دامت السموات والأرض لأن خزائنه عز وجل لا تنفد ، وإنما ينزل منها على أحبابه وأوليائه بقدر ما يناسب عصورهم وأزمانهم وحاجة تلك الأزمان والعصور .

وفى برى حدثت حادثة مشهورة ، وهى أن الإمام رضوان الله عليه كان بمنزله يلقى درسًا خاصًا لعلماء السودان . وأثناء الدرس خرج أحدهم ثم عاد يلهث من شدة الجرى وقد اعتراه خوف وهلع شديد ، فخرج الإمام من الدرس وأخذ يهدئ من روعه ، فأخبر أنه رأى على البعد أسدًا فولى منه هاربًا فلحقه الأسد على بعد خطوات قليلة من باب المنزل . ففتح الإمام الباب والجميع يشاهدون ، وواجه الأسد فطأطأ رأسه وهز ذيله ، فقال الإمام : ألم أقل لك لا تقترب من ضيف لنا ؟؟ اذهب وسيرزقك الله .. فانصرف الأسد . وأمام دهشة الكل قال الإمام : أيها الرجل : زَيَّنْتُم ظواهركم فخِفْتُمُ الأسد ، وزينا بواطننا فخافنا الأسد .

ولعل أحدًا يتعجب من ذلك ، ولكن صدق رسول الله ﷺ حيث قال : (من خافَ الله خوَّفَ الله منه كل شئ)[١٧] .

وقد مرت أحداثٌ مثل هذه لبعض الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ، نذكر منها هذه النماذج :

(١) رُوى عن سيدنا سُفَيْنَةْ رضى الله عنه أنه لما بعثه النبى ﷺ برسالة خرج مسافرًا وسط البوادى ، فخرج عليه أسد ، فتقدم منه سيدنا سفينة وقال له : أنا مولى رسول الله ، فطأطأ الأسد رأسه وهز ذنبه وانصرف .

---

(١٧) أبو الشيخ فى كتاب « الثواب » والمنذرى فى الترغيب والترهيب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(٢) وعند فتح شمال أفريقيا بقيادة عقبة بن نافع ، فقد رُوى أنه حين وصل بالجيش إلى الشاطئ الآخر وجد الأسود والوحوش رابضة فى مكانها ، فتقدم منها وأمرها أن تنصرف بإذن الله فانصاعت لأمره ، حتى كانت اللبوءة تأخذ أولادها فى أسنانها وتهاجر إلى مكان بعيد حتى خلا المكان لجيش المسلمين ، حيث بنى مدينة القيروان التى فتح من خلالها كل شمال أفريقيا .

وغادر الإمام السودان فى عام ١٩١٥ عائدًا إلى مصر قبل أجازته السنوية بشهر ، بعد أن ربى رجالًا بالسودان جاهدوا فى الله حق جهاده ، عرفوا أنفسهم فعرَّفهم الله بصفاته العلية ، وأطلعهم عز وجل على أنواره القدسية ، وأفاض عليهم من علومه الوهبية وأسراره الحكمية ما تعجز عنه العبارة ولا تفى به الإشارة .

وكان الإمام يعلم أنه بسفره هذا لن يعود إلى السودان ، فصارح خاصة خاصته بذلك ووزع عليهم مهامهم فى الدعوة . وقد تكتم خبر عدم العودة عن العامة حيث كانوا يودعونه فى سفره وهم لا يعلمون أنهم لن يرونه مرة أخرى بالسودان .

سبب انتقال الإمام
من السودان نهائيًا إلى مصر

سلط كتاب (تاريخ السودان الحديث)[1] الأضواء على حال المسلمين فى الوقت الذى كان الإمام يعمل به فى السودان وقبلها، وكذلك نظرة المستعمر إلى الإسلام، فقال:

«اهتم البريطانيون بالإسلام اهتمامًا خاصًا نابعًا من إدراكهم لخطورته فى المجتمع. وفرق البريطانيون بين نوعين من الإسلام فى السودان: إسلام صوفى سموه الإسلام الشعبى، وإسلام سنى سموه الإسلام التقليدى. وحاربوا الإسلام الشعبى الذى يمثله الصوفية لأنهم السبب الأساسى فى الثورة المهدية حيث تمكن حفنة من الصوفية من تفجير ثورة قوضت النظام التركى، وعزى الإنجليز ذلك إلى قوة ونفوذ الصوفى أو الشيخ.

ومما ضاعف من تخوف الحكم البريطانى من الحركات الدينية أن القيادة البريطانية فى السودان كانت فى يد شخصيات ذات خلفية أمنية وتدريب أمنى، فالحاكم العام «ونجت» والمفتش العام «سلاطين» كانا فى جهاز الاستخبارات، فكان أى تحرك دينى يوضع تحت المجهر الأمنى، وكانوا يتوهمون بهاجسهم الأمنى أن المهدية يمكن أن تتكرر.

تعامل البريطانيون مع العلماء السنيين ليكونوا لهم عونًا فى تحقيق الاستقرار، كما اتجهوا إلى الطرق الصوفية التى عارضت المهدية. لذا أنشأت الإدارة البريطانية فى عام ١٩٠١م لجنة العلماء التى تكونت من علماء الإسلام الذين تلقوا دراسة أزهرية أو ما شابهها، ومن الذين لهم مكانة دينية مرموقة، وهى لجنة استشارية ترجع إليها الحكومة فى المسائل ذات الطابع الدينى، وجعلت منها الوكيل المعترف به لدى جمهرة المسلمين، وحصلت منها على تأييد بعض إجراءاتها حتى تجد قبولًا وسط أهل البلاد، فيقوى موقفها لحصولها على تأييد أعلى هيئة دينية. وعندما أصدرت الحكومة قرارًا بمنع الاجتماعات الخاصة بما فى ذلك نشاط الطرق الصوفية، أعلنت اللجنة موافقتها على القرار ووصفته بأنه يتمشى مع الإسلام. وكانت الحكومة البريطانية بالسودان كثيرًا ما تستدعى اللجنة

---

(١) (خلال الفترة ١٨٢٠ - ١٩٥٥م)، لمؤلفه محمد سعيد القدال. مطابع شركة الأمل للطباعة والنشر، الخرطوم - السودان.

للتحقيق فى نشاط رجال الصوفية الذى يحمل تهديدًا للأمن واعتمدت على تلك التحقيقات فى اتخاذ خطوات قمعية .

وعند اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م ودخول تركيا الحرب ضد بريطانيا وإعلانها الجهاد الإسلامى ، استنجدت الحكومة بالعلماء وبعض الزعماء الدينيين فأعلنوا تأييدهم للحكومة وعارضوا دعوة السلطان العثمانى وأرسلوا برقيات التأييد للحاكم العام « ونجت » والتى جمعت ونشرت فى كتاب باسم « سفر الولاء » . وعندما انتصرت بريطانيا فى الحرب كان ضمن الوفد السودانى الذى ذهب إلى إنجلترا لتهنئة الملك مجموعة من العلماء والزعماء الدينيين » .

من هذه المقدمة يتبين لنا الجو العام الذى أحاط بعودة الإمام إلى مصر نهائيًا . ومن ناحية أخرى ، فقد كشف الإمام الغطاء عن العلماء بالدنيا والجهلاء بالآخرة وكذلك أدعياء التصوف ، وهم الذين استمالهم الحكم البريطانى إليه لتنفيذ مآربه ، وهم منسوبون إلى الصوفية والتصوف ظلمًا وزورًا .

قام الإمام فى دروسه بتوعية المسلمين من شر هؤلاء ، مبينًا أنهم يُمَوِّهُون على العامة بأنهم الدعاة إلى الله الوارثون لأحوال الأقطاب وأنهم يُمْكنهم النفع والضر ، ويلفتون المسلمين عن العمل الواجب عليهم شرعًا وعقلًا من العلم والعمل للدنيا ، ومن هؤلاء من يعلن شرف انتسابه لأهل البيت . بيّن رضوان الله عليه أن من ينتسب لأهل بيت رسول الله ﷺ ويخالف سنته فليس منه ، وإنما هو دَعِيّ ينتسب إلى غير أبيه . كشف الإمام الغطاء عن هؤلاء الأدعياء ، لذا قاموا بالوشاية والكيد له عند الحكام الإنجليز وأوهموهم بأنه يعمل على تحطيم نفوذ الأئمة الدينيين والذين يعتمد عليهم الإنجليز فى قبول حكمهم لدى الأهالى ، وبلغ بهم الأمر أن اتهموه بأنه يدعى المهدية وأنه سوف يظهر كمهدى يحمل الراية السوداء ، كما جندوا بعض أتباعهم للعمل كجواسيس لدى الإنجليز لينقلوا ما يدور فى مجالس ودروس الإمام رضى الله عنه .

كان البريطانيون مدركين لدور الدين فى حياة السودانيين لاسيما وأن حكمهم فى حقيقته إنما هو احتلال صليبى استعمارى على أنقاض دولة وطنية مسلمة . فقد كتب اللورد ملنر : (إن خضوع المسلم لحاكم مسيحى يعارض روح الإسلام نفسها) ، وعبر أحد البريطانيين عن تخوفه من الحركات الدينية وإمكانية انفجارها فى السودان حيث التطرف الدينى كامن فى عمق بسيط تحت السطح . وكان الحاكم العام البريطانى ونجت باشا أكثر وضوحًا وصراحة حين قال : (يتعين علينا ألا نتراخى لحظة فى احتياطاتنا ضد

انتشار مثل هذه الحركات ، والسبيل الوحيد لتحقيق ذلك بإمكانياتنا المحدودة أن نسحقها بلا رحمة فى بدايتها) .

بهذا الفهم تعامل البريطانيون مع كل من يمثل قيادة دينية شعبية قد تُقَوىٌ الرابطة الإسلامية وتبث روح الإسلام فى النفوس كدين لا يفصل بين الدين والدولة ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الدنيا والآخرة .

والإمام رضوان الله عليه كان يبث بين طلبته وتلاميذه ومريديه روح التدين ، ويقوى ويعمق الرابطة الإسلامية بين الشعوب الإسلامية على أساس أن الإسلام هو النسب وهو الوطن وهو الدين ، ويحذر الجميع من الوقوع فى حبائل الاستعمار ، ويبين مكايده وعمله على استنزاف ثروات وعقول المسلمين .

لذا كان كثيرًا ما يصطدم بإدارة الكلية ، وقد كتب الحاكم العام « ونجت » باشا يقول عام ١٩١٥م : (إن المعلمين المصريين فى الكلية أدخلوا بين الطلبة الدعاية الوطنية ، ويرى أن أمام الإدارة الوطنية خيارين لمواجهة هذا الموقف : إما بترك الأمور كما هى وما تحمله من خطر انتشار الروح الوطنية التى يعمل البريطانيون للقضاء عليها ، وإما بجلزة التعليم أى زيادة عدد المعلمين الإنجليز وتخفيض عدد المصريين) . وأخذت الكلية بالخيار الثانى فأعيد تنظيم كلية غردون بدمج الأقسام ، كما تم تخفيض ميزانية التعليم والتى كانت ٤٪ عام ١٩١٣ فانخفضت إلى ٢,٩٥٪ عام ١٩١٥م .

ونظرة أكثر شمولية ، أنه لما اندلعت الحرب العالمية الأولى فى العام ١٩١٤م ، دخلت تركيا الحرب ضد الإنجليز ، وتركيا تمثل دولة الخلافة الإسلامية والتى أعلنت الجهاد المقدس ودعت كل المسلمين لمناصرتها والوقوف بجانبها . وفى الجانب الآخر ، دعا الحاكم البريطانى فى السودان الموظفين والأهالى الوقوف مع بريطانيا مؤكدين أن البريطانيين أصدقاء الإسلام وحماته ، واستمال البريطانيون بعض العلماء وبعض زعماء الطرق الصوفية بإغداق المنح والإعانات المالية عليهم فقاموا بتأييدهم وطمأنة الأهالى وإقناعهم بالوقوف ضد دعوة السلطان العثمانى .

وإزاء هذه الأحداث قام الإمام رضوان الله عليه بكشف الحقيقة وإبطال دعواهم ، وكان الإمام رضى الله عنه يبث روح الدين والرابطة الإسلامية وحب الوطن والأخذ بأسباب التقدم وتعلم الفنون ، وذلك من أجل النهوض بالأمة الإسلامية ، ويحارب الاستعمار لعلمه بأنه يعمل على هدم الدين فى نفوس المسلمين ، وليقينه بأن المسلمين لو تمسكوا بشريعتهم وأخذوا بالعلوم فسوف يكون لهم الشأن والعلو والمكانة فى الدنيا

والفوز فى الآخرة ، لذا كان الإمام يُربّى تلاميذه ومريديه على هذا ويبيّن لهم مغبة الوقوع فى حبائل الاستعمار وكيف أن الاستعمار يعمل على استنزاف ثروات المسلمين .

وأثناء درس من دروس الإمام ، أمسك بجوربه المصنوع من القطن سائلًا : ممَّ صُنِعَ هذا الجورب ؟ فقالوا من القطن ، فسأل : ومَنْ زرع هذا القطن ؟ فقالوا : نحن زرعناه فى بلادنا ، فسأل : ومن الذى اشتراه ؟ فقالوا : الشركات الإنجليزية ، فسأل : فأين تذهب به ؟ فقالوا : إلى مصانع لانكشاير حيث تصنعه جواربًا وغير ذلك ثم يرجع إلينا بثمن أعلى . وبهذا يكون الإمام قد وضع النقاط على الحروف ، ثم أكد فقال : هل رأيتم القطن الذى زرعناه ؟ ماذا لو صنّعناه ؟!!

وقد كثر صدور مثل ذلك فى دروس الإمام ، لذا كانت المخابرات البريطانية فى السودان تسترق السمع لدروسه سواء كانت فى الأماكن العامة كقاعات الدراسة والمساجد أو فى داره « بيرى » ، حيث كان مدير المخابرات بنفسه يسترق السمع لدروس وأحاديث الإمام .

والإمام رضى الله عنه لم تكن تأخذه فى الله لومة لائم ، ولم تلن له قناة ، ولم يغض طرفه عن أصغر الأمور ، فعندما لاحظ أن الطلاب يكتبون اسم « غردون » على الكراسات لم يقبل ذلك واستنكره ، إذ كيف تدرس الشريعة الإسلامية تحت اسم « غردون » الإنجليزى ؟ لذا طلب من طلابه أن يشطبوا اسم كلية « غوردون » ويكتبوا بدلًا منها كلية أهل الله ، وبالفعل قام الطلبة بذلك ، فاستشاط المستعمر غضبًا .

امتدت دروس الإمام رضى الله عنه بمسجد الخرطوم الكبير لفترة زمنية طويلة كما ذكرنا ، فالتف حوله الكثيرون من المتعلمين ومحبى العلم والمريدين ، وجعلت حلقة دروسه تكبر وتكبر ويكون لها الأثر الفعال فى المجتمع ، مما أثار حفيظة بعض الزعماء الدينيين ، فعملوا على إثارة الإنجليز وتأليبهم عليه . وبدأت المضايقات والعقبات توضع أمامه ، مرة بالتشويش عليه أثناء الدرس ، وتارة بإلصاق التهم عليه بدعوى المهدية ، حتى كان اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م ، فوقف الإمام رضى الله عنه مؤيدًا لدولة الخلافة الإسلامية تركيا ضد الإنجليز وحلفائهم .

لقد تحقق الإنجليز وأعوانهم من الخطر الداهم الذى يمثله بقاء الإمام بالسودان ، فاستقر الرأى على إخراجه منها بشكل أو بآخر ، واتجهت نيتهم فى البداية لنفيه إلى جزيرة مالطا أثناء سفره فى إجازته إلى مصر ، وصدر قرار النفى إلى مالطا .

ولما وصل الإمام إلى الشلال عائدًا من السودان كان ينتظره هناك الآلاف من تلاميذه ،

وعدد من محبيه ومن مريديه من خيرة رجالات مصر، وكان في الباخرة التي أقلته من حلفا إلى الشلال «ونجت» باشا، وقد تقابل مع «ونجت» تلاميذ الإمام من رجالات مصر وعلى رأسهم محمود سليمان باشا، ومحمود الشندويلي باشا، وأحمد باشا الشريعي، وحمد الباسل باشا، وكثيرون من أعلام الطب والمحاماة والعلماء والأعيان. وقد طلب هؤلاء من الحاكم العام أن يكون نفي الإمام إلى بلدة المطاهرة بالمنيا بدلًا من جزيرة مالطا، فاتصل «ونجت» لاسلكيًا بإنجلترا، وصوَّرَ لحكومته خطورة نفيه إلى مالطا فوافقوا.

وبمجرد وصوله إلى بلدته وافاه خطاب وكيل حكومة السودان بعدم سفره مرة أخرى إلى السودان. وقد تحولت بلدة المطاهرة وما حولها إلى مدارس للإمام خرجت أعلام الوطنيين وأئمة المجاهدين الذين بدأت بهم الثورة الوطنية عام ١٩١٩م، فضاقوا به ذرعًا، فتوسط له أحبابه السابقون وطلبوا إليهم أن يكون في القاهرة وتحت أعينهم، فتم ذلك.

تداعيات نفي الإمام

وقبل صدور قرار تحديد الإقامة كانت هناك بعض التداعيات التي عجلت بصدوره، ومنها:

(١) عقب إعلان الحماية البريطانية على كل من مصر والسودان في نوفمبر سنة ١٩١٤م، أقام «ونجت» باشا الحاكم العام الإنجليزي بالسودان حفلًا بهذه المناسبة، ودعا إليه بعض الشخصيات السودانية والموظفين المصريين ليتعرف على أثر ذلك في نفوسهم، وأقيم الاحتفال بسراي الحاكم العام.

حضر الإمام ذلك الاحتفال عن كُرْهٍ وبعد إلحاح تلاميذه وأصدقائه، ذهب معه أحدهم وهو الشيخ محمد واد أحمد، وجلسا في الحديقة يتجاذبان أطراف الحديث عن حالة العالم الإسلامي المحزنة.

وقُدِّمَ الطعام فقال الإمام لجليسه: واللهِ لإن آكُلَ الزَّقُّومَ في هذا اليوم خيرٌ لي من أن أُطعَم هذا الطعام. أوصل الوشاة هذا القول إلى ونجت باشا الذي جاء إلى الإمام وسأله: لماذا لم تأكل؟ فأخبره أنه صائم، فتعجب وسأله عن سبب صيامه، فقال له على سبيل التبكيت: أشكر الله تعالى على نعمة المساواة التي حدثت للمجتمع السوداني نظير فرض الحماية البريطانية حيث أصبح المصري والسوداني والبريطاني أمام القانون سواء. سأله ونجت عما يقصده، فقال له الإمام: يعني إذا ضربتك الآن - ووضع يده على خد ونجت - فسوف لا تعلق لي المشنقة لأشنق باكر، ولكن أمامي وأمامك القضاء،

والقصاص بين الندين عادل مهما كان ، وأنا أتساوى معك فى الرعوية الإنجليزية . فارتبك ونجت وقال : أنت رجل طيب كتير ، ادعو لى يا شيخ ماضى . لكن غضبه اشتد عن ذى قبل .

(٢) كشأن الاستعمار فى أى بلد يدخلها ، فإنه يبدأ بزرع بذور الفتنة والشقاق للتفريق بين أهلها ليصبحوا شيعًا وأحزابًا ، وإذا كان الدين هو المسيطر على الشعوب فإنهم يدخلون من هذا الباب للتشكيك فيه . استطاع الإنجليز تجنيد بعض أدعياء العلم بالسودان ، فأذاعوا بين الناس أن طاعة الإنجليز واجبة بصفتهم أولى الأمر ويتلون قوله تعالى : ﴿ أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر ﴾[٢] ، ولا يصلون إلى بقيتها وهى ﴿ منكم ﴾ . وشاعت تلك الأفكار الخبيثة بين المسلمين فى السودان .

خطب الإمام فى الجامع الكبير بالخرطوم مبينًا فى خطبته أن الذين قالوا ذلك من علماء السلطة خائنون لدينهم كالذين قالوا : ﴿ لا تقربوا الصلاة ﴾ ولم يكملوها بقوله تعالى : ﴿ وأنتم سكارى ﴾[٣] ، فالقرآن يقول : ﴿ وأولى الأمر منكم ﴾ أى : أولى الأمر منكم أيها المسلمون وليس أولى الأمر منكم أيها الإنجليز .

وتطورت سمة المواجهة بين الإمام من جانب والإنجليز وأعوانهم من جانب آخرٌ مما جعلهم يفكرون فى طريقة للخلاص منه .

(٣) استدعى ونجت الإمام ذات يوم محاولًا استمالته وكسب ولائه للإنجليز ، وطلب منه أن يثنى على بريطانيا ويكتب عن إصلاحاتها بالسودان مُظهرًا مساوئَ الحكم العثمانى ، فسأله الإمام : أتكتب ضد الإنجليز ؟ فقال كيف هذا وأنا رجل متعلم ؟ فرد عليه الإمام قائلًا : إذن كيف تطلب منى أن أكتب ضد وطنى وأنا مُعَلِّمٌ ؟! .. وجعل يشرح له نسب الإسلام ونظرياته فى الجنسية . وأخذ ونجت قرارًا بينه وبين نفسه بإقصائه عن السودان .

(٤) أعد ونجت حفلًا كبيرًا بنادى الضباط للتعارف بين البريطانيين والمصريين والسودانيين والتفاهم بينهم لتسيير دفة الأمور فى حكم السودان بما يتلاءم ومصلحة إنجلترا . ولما وصلت الدعوة لحضور الحفل إلى الإمام أعلن مقاطعته للحفل ، وجمع أتباعه ومريديه ، فأرسل إليه الحاكم العام يطلب إليه إعلان موقفه ، فما كان منه إلا أن توجه إلى المسجد الكبير بالخرطوم ، وبعد صلاة العصر أعلن عن مقاطعته لهذا الحفل

---

(٢) سورة النساء آية ٥٩ .

(٣) سورة النساء آية ٤٣ .

كاشفًا مؤامرات المستعمرين وسوء نواياهم مؤيدًا كلامه بآيات من القرآن الكريم يرددها ويتلوها الناس خلفه حاثًا إياهم على إكمال المسيرة وصون الأمانة .

(٥) (اللهم انصر سلطان المسلمين) .. كانت تلك من الأدعية التى يدعو بها خطيب الجمعة على المنبر . وأثناء الحرب العالمية الأولى اعتبر الحلفاء أن هذا الدعاء ضدهم حيث أن تركيا كانت تحارب ضد الحلفاء . أراد الحاكم العام للسودان تغيير صيغة ذلك الدعاء ، وحاول الاستعانة بالإمام لما له من مكانة عالية فى قلوب المسلمين . وفى مناسبة ضمت الحكام والزعماء السياسيين والدينيين حضره الإمام رضى الله عنه ، وقف الحاكم العام يلقى خطبة بالعربية كان قد أعدها من قبل ، ووجه الخطاب إلى الإمام قائلًا : إن الحرب قد طالت وأسأل الله أن يوقفها (فقال الإمام : آمين) ، إن ألمانيا دولة ظالمة نسأل الله تحطيمها (فقال الإمام إن شاء الله) ، وأن تركيا لا فكر لها والواجب عليها أن تكون مع الحلفاء لا مع ألمانيا ، أنتم فى خطبة الجمعة تقولون : اللهم انصر سلطان المسلمين ، وهو سلطان ضد المسلمين ، وبدلًا من أن تقولوا : اللهم امحق الكافرين قولوا : اللهم اهزم ألمانيا .

عند ذلك وقف الإمام قائلًا : إن الدين الإسلامى مؤسس على تعاليم سماوية يستوى فيها الصعلوك والمَلِكْ ، ولا يمكن لأى أحد تغيير شئ فيه ، أنا لا أستطيع أن أقول للمسلمين غيروا فى خطبة الجمعة أية عبارة ، أنت الحاكم العام للسودان ، وعندك القوة ، وغدًا الجمعة ، يمكنك أن تحضر مدفعًا وتضعه على باب المسجد ثم تأمُر الخطيب أن يغير لك ما تريد ، فإن لم تستطع ذلك .. فاستعمل مدفعك !!

ثم انصرف الإمام مُحاطًا بجمع كبير ومعه الضباط والجنود المصريون الحاضرون وقتها .

(٦) توجه مدير المخابرات البريطانية في السودان ومعه بعض الشخصيات الموالية للإنجليز لزيارة الإمام فى بُرّى وقال له : أنت تكرهنا ، فرد عليه الإمام : لأى سبب ؟ قال : لأننا غير مسلمين وأنت شديد التمسك بدينك ، فرد الإمام بقوله : ما جلست على هذه الأريكة التى أجلس عليها الآن إلا لأنها تريحنى ، فلو كنتم مريحين للمسلمين فكيف أكرهكم ؟ ولاسيما أنكم من البشر ، والإنسان أفضل من الجماد ، وما دمتم تُتعِبُون المسلمين فكيف أحبكم ؟ .

(٧) كان الشيخ مصطفى المراغى قاضى القضاة بالخرطوم من أشد الحاقدين على الإمام ، وكان ينتهز فرصة سفره في إجازته السنوية إلى مصر ويجلس مكانه بمسجد الخرطوم يلقي الدروس محاولًا أن يكتسب جمهورًا له ولكنهم لم يجدوا في دروسه شيئًا مما

يسمعونه من الإمام ، فأخذوا يرددون المثل القائل (مَرْعَى ولا كالسَّعْدَان) ، والمقصود أن ما يسمعونه منه كالحشائش الكثيرة التى يأكلها الحيوان ليملأ بطنه وقيمتها الغذائية منخفضة ، أما ما يسمعونه من الإمام فهو كالسعدان ذات القيمة الغذائية العالية .

إزداد حقد الشيخ المراغى وجاهر بالعداوة وذهب إلى ونجت وقال له : كيف تتركون أبا العزائم – وهو موظف عندكم – يلعن الإنجليز من على المنبر ويقول : فلعنة الله على الكافرين ؟ . استدعى ونجت الإمام وأبلغه قول المراغى ، فسأله الإمام : لو جاءك أمر ملكى أتعصاه أم تنفذه ؟ فقال أنفذه ، فقال الإمام : ولو جاءك الأمر ممن هو أعلى من الملك ؟ فقال أكون أحرص فى تنفيذه ، فقال الإمام : الله يقول : ﴿ فلعنة الله على الكافرين ﴾[4] وأنا مدرس وأمين على الدين .

ولما كان يشكله بقاء الإمام من خطورة على وضع الإنجليز فى السودان ، فقد صدر قرار إبعاد الإمام عن السودان فى أغسطس عام ١٩١٥م .

ووقف القائد الإنجليزى عند مغادرة الإمام للسودان يودعه بشماتةٍ قائلًا : أتى اليوم الذى يخضع فيه أبو العزائم للإنجليز ، وستذهب إلى مصر ولن تجد عملًا ، وستعود إلينا فتقبل يدى لأعيدك لعملك ، فرد عليه الإمام بقوله : بمشيئة الله سيأتى اليوم الذى يقبل فيه القائد الإنجليزى يد أبى العزائم وقدمه .

وعاد الإمام إلى مصر وكأنما كان لسانه ينطق بما سطره القدر ، فلقد قامت ثورة ١٩١٩ فى مصر ، وكان الإمام فى القاهرة وقتها والمظاهرات العارمة تجوب شوارعها لا ترى إنجليزيًا إلا وفتكت به . وشاء القدر أن يذهب القائد الإنجليزى ليزور ناظر مدرسة الخديوية وهو إنجليزى ، فوجد مظاهرة خارجة منها ، فلم يجد شارعًا إلا شارع سوق مِسْكَة ، فلما وصل إلى منتصفه وجد مظاهرة أخرى من ناحية مدرسة القِرَبية ومدرسة الخديوى إسماعيل ، فلم يجد إلا حارة متفرعة من هذا الشارع وهو عطفة الفريق ، فوجد بوابة كبيرة فدخلها على أمل أنها ستؤدى به إلى شارع آخر ، ولكنها كانت بوابة سراى آل العزائم الذى يقيم فيه الإمام . ولما دخل من البوابة وجد نفسه فى فناء المنزل ، وإذا بالإمام واقف أمامه ، فقبل يده وجثى على ركبتيه يقبل رجليه وقدميه ، ويستعطفه ويطلب منه النجاة . وطاش عقله لما تذكر ما كان من قبل وما رآه من أن نبوءة الإمام تحققت ، وصار يصرخ قائلًا للإمام : أنت المسيح ، أنت المسيح !! ولكن انطلق [illegible]

---

(٤) سورة البقرة آية ٨٩ .

الإمام رضوان الله عليه ، فقد أجاره وأبلغه مأمنه ، وأكرمه ، وبعد انتهاء تلك المظاهرات أمره بالخروج .

وفى المنيا التى وصل إليها الإمام وحددت فيها إقامته وصل إليه الخطاب الآتى نصه والذى احتجت فيه وكالة حكومة السودان وقتها بالإجراءات الاقتصادية لتحول دون عودة الإمام إلى السودان مرة أخرى .

وكالة حكومة السودان
بمصـــــر

التاريخ : ٣٠ أغسطس ١٩١٥

حضرة الشيخ محمد ماضى المحترم

أفيدكم أنه بداعى الإجراءات الاقتصادية التى اتخذتها مصلحة معارف حكومة السودان ، المرجو عدم سفركم إلى مقر وظيفتكم فى السودان إلا إذا أخبركم بذلك جناب مدير المعارف السودانية مباشرة .

وكيل حكومة السودان

(إمضاء مستر سيمس)

الرجا إفادتى باستلامكم هذا ، وإعادة جميع تصاريح سفركم وسفر عائلتكم إلى هذا المكتب .

وظل تلاميذ الإمام وأتباعه فى السودان على نفس المنهج الذى سار عليه وقاموا بدورهم إلى أن كشف الله الغمة وانسحبت منه القوات الإنجليزية فيما بعد .

دور الإمام رضى الله عنه فى السودان

« تركزت أبحاث المؤرخين الإنجليز الذين أرّخوا لاستعمار بريطانيا العظمى للسودان ، ذلك الاستعمار الذى جهد غلاة الاستعماريين على توطيد أركانه وتثبيت جذوره وتدعيم وجوده بِنِيةِ إبقاء السودان تحت الحكم البريطانى لقرون طويلة حتى يستطيعوا الاستفادة من مساحته الشاسعة وامتداد حدوده التى تتاخم المناطق الأفريقية حوله بربط غرب القارة وشرقها وشمالها وجنوبها ، ومنه يستطيع البريطانيون أن يحكموا قبضتهم ويعززوا سيطرتهم على القارة كلها [١] .

تركزت أبحاث هؤلاء المؤرخين الإنجليز على أن أسباب فشل جهود طواغيت الاستعمار البريطانى فى إطالة أمد استعمارهم للسودان ترجع كلها إلى مناهضة الإسلام لهم كدين تعمقت جذوره فى أفئدة المؤمنين السودانيين فهبوا فى انتفاضتين عارمتين جرفتا كل مخططات الاستعماريين فدمرتا كل آمالهم فى دوام احتلالهم للسودان المسلم .

أما الانتفاضة الأولى : فكانت الحركة المهدية .

وأما الانتفاضة الثانية : فكانت الحركة العزمية .

ولقد أسهب هؤلاء المؤرخون ، ومن بينهم جون سبنسر تريمنجهام فى كتابه (الإسلام فى السودان)[٢] على المقارنة بين الحركتين : المهدية والعزمية ، وأجمعوا على أن الحركة العزمية كانت أعظم خطرًا وأقوى تأثيرًا لأنها قامت على أفكار زرعها داعيتها الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم فى عقول الصفوة المثقفة الممتازة من أبناء السودان ، ودأب على رعايتها وتنميتها حتى أثمرت وآتت أكلها وانتشرت بواسطة تلاميذه ومريديه بين كل أفراد الشعب السودانى وطوائفه ، فتأسست على مبادئه وأيديولوجيته الجمعيات الوطنية التحررية ، وقامت صحف سياسية تلهب حماس الشعب للنضال من أجل حريته والدفاع عن كرامته .

وعندما تحدث المؤرخ الإنجليزى جون سبنسر تريمنجهام عن الحركة المهدية والعزمية قال : (.. أما العزمية فإنها أخذت طبيعة مؤسسها الأستاذ الذى مهنته التعليم والتثقيف فكان يتعامل بالفكر مع عقول رواد حلقاته وبث فيهم المبادئ الإسلامية التحررية ،

---

(١) كتابات الشيخ زاهر عزب الزغبى .

(٢) ISLAM IN THE SUDAN (1965), 2 nd Ed. By G. S. TRIMINGHAM, Frank Cass & Co. LTD, LONDON .

وأحسن عرض الشريعة الإسلامية فى محاضراته بأسلوب شيق رزين، ولذلك فإن رواد حلقاته يمكن تصنيفهم على أنهم تلاميذ لا مريدون » .

إن الإمام قد أبهر طلابه السودانيين بمحاضراته غزيرة العلم وذات الأسلوب الأدبى الشيق الجذاب فلازموه وفتح لهم بيته . لقد تركزت محاضراته على أن الإسلام ليس فقه شرائع تعبدية، بل هو أيضًا سياسة شرعية، ومن أوليات هذه المبادئ الشرعية أن لا يتولى أمور المسلمين إلا خليفة يرتضونه، وحرام عليهم أن يستكينوا لمستعمر كافر. واتسعت دائرة رواد بيته حتى غدى كعبة للمثقفين السودانيين وذوى النوازع الوطنية والتحررية، ومن ثم نشأت فى بيته حركة وطنية تحررية أدت إلى قيام أحزاب سياسية وصدور صحف تنادى بالاستقلال وطرد المستعمر.

وقد دخل السودان طورًا جديدًا من حياته وتاريخه بعد توقيع اتفاقية الحكم الثنائى ارتبط فيه ببريطانيا ارتباطًا وثيقًا فى شتى مناحى حياته . وأخذت الإدارة البريطانية تنشئ دواوينها وتنظم أعمالها وتخطط مشروعاتها الاقتصادية والثقافية وتفرض ضرائب على الناس حتى تفجرت الثورات فى الجنوب والشمال قدرت بثلاث عشرة ثورة أولها عام ١٩٠٢ م وآخرها عام ١٩٣٤ ، وكان أهمها جميعًا ثورة ١٩٢١ ، ١٩٢٤ م وذلك لظهور طبقة المثقفين الذين تربوا على أيدى الإمام، وقد استطاعوا أن يوصلوا إلى قلوب أبناء السودان صدق الإرادة وقوة العزيمة التى تحلى بها الشعب المصرى فى ثورة ١٩١٩م، فقام الضباط السودانيون بثورة مسلحة ضد الإدارة الاستعمارية فى نوفمبر ١٩٢٤م، وكانت الشرارة التى أشعلت الثورة قرار الحكومة البريطانية بتسريح الجيش المصرى من السودان وطرد قيادته إلى مصر. وكان من أهم أسباب ثورة السودان أن الإدارة الاستعمارية لم تخف سياستها بل أوضحتها فى المذكرة التى قدمتها للجنة ملنر التى حضرت إلى مصر فى أعقاب ثورة ١٩١٩م ومؤداها فصل جنوب السودان عن شماله وإبعاده عن أى أثر إسلامى وضمه لشرق أواسط أفريقيا، وتنفيذًا لذلك صدر قانون المناطق المقفولة عام ١٩٢٢م وأعطى الحاكم العام البريطانى سلطة منع أى مواطن سودانى أو غيره من الدخول أو البقاء فيها .

ومما تجدر الإشارة إليه أن عناصر الثورات الوطنية فى السودان كان أغلبها من تلاميذ الإمام الذين تربوا على يديه ونهجوا نهجه فى الجهاد، فكان زعيم جمعية « اللواء الأبيض » على عبد اللطيف تلميذًا للإمام أبى العزائم منذ حداثة سنه، كما كان زملاؤه كلهم ممن تخرجوا على يديه فى كلية غردون وفى مقدمتهم حسن فضل المولى وثابت عبد الرحيم وعبد الفضل ألماظ، وقد حوكموا جميعًا أما محاكم خاصة، وكانت

محاكمة على عبد اللطيف وأقواله أمام الهيئة نموذجًا صادقًا لما تتسم به التربية الإسلامية التى تنمى الشعور بالوطنية الحقة. كما جاءت أقواله دليلًا حيًا لما يمكن أن تؤثر فيه شخصية الزعيم الدينى فى تلاميذه. ولمَّا وجد المستعمرون أن المحاكمة تحولت إلى مظاهرة وطنية ودينية، اتهمته بالجنون وأودعته مستشفى الأمراض العقلية. وقد شهد الدكتور بهمان بأن على عبد اللطيف مثلًا للاستقامة والنزاهة ورجاحة العقل. وقد حرص الإمام أن يزور تلميذه بالمستشفى على فترات متقاربة ويجلس إليه الساعات فى جلسات روحية عالية إلى أن انتقل رضى الله عنه إلى جوار ربه. وظل الإمام أبو العزائم يستنهض عزائم طلابه ومريديه من أبناء السودان ضد الاستعمار الإنجليزى حتى أدرك الإنجليز خطورته عليهم فقرروا أن ينهوا دوره فيه.

وقد كان للإمام طريقة خاصة فى إلقاء دروسه، فكان للقصة دور كبير بحيث تبقى فى الذهن ولا تُنْسَى، وبأسلوب روائى تمثيلى أكثر منه نظرى تلقينى، فقد كان يمثِّل عمليًا العلوم التى تتعلق بالأفعال، ويسوق الأمثال للنظرى منها لتقريب الحقائق، ويصور الحقائق المجردة ويجسدها فى أسلوب قصصى حتى ترسخ المعلومات فى ذهن الطالب ويتمثلها معالم بين عينيه وتنتقش فى نفسه. لذا عندما عرَّف الإمام رضى الله عنه العلم قال: هو تصور النفس رسوم المعلوم.

وقد روى أنه رضى الله عنه كان يلقى درسًا بمسجد الخرطوم الكبير فى شمائل النبى ﷺ. وفى أثناء الدرس وقف الإمام قائلًا: أرأيتم كيف كان يمشى النبى ﷺ؟ والناس فى شوق ليروا ذلك، فأصلح الإمام من هندامه ثم رفع رجله اليمنى، وقبل أن يضعها على الأرض فإذا بالحاضرين ينفعلون قائلين (الله) بالمد الطويل، فكأنما مثل لهم الصورة مشرقة فى مرآتها. فرجع الإمام إلى مكانه وجلس، وبعد برهة، وعندما أفاق الناس من الجمال الذى أحسوه وعاشوا فيه، قال لهم: كنت أريد أن أريكم كيف يمشى النبى ﷺ، فإذا كان محمد ماضى أراد أن يمثل لكم فلم تتحملوا، فكيف إذا رأيتم رسول الله ﷺ؟.

وكان رضى الله عنه لكى يعلم الجمهور وضوء رسول الله ﷺ كان يجلس على كرسى فى صحن المسجد ويطلب طستًا وإبريقًا، ثم يكلف واحدًا بأن يصب له الماء فيتوضأ أمام القوم، فيستوعب الوضوء مبينًا الفرائض والسنن، ثم يطلب أحد الجالسين ليجلس مكانه ويقول له علمنا الوضوء كما رأيت، وقد يكون أضعف الجالسين عقلًا وتفكيرًا، فلا يقوم من مجلسه إلا وهو عالم بكيفية الوضوء على حال يجهلها بعض من تلقوه تلقينًا.

ولقد أبهر الإمام طلابه أيضًا فى المدارس عندما كان يدرس لهم منهج النحو ، وهو مادة من أصعب المواد عند غيره من المدرسين ، ولكنه ابتكر طريقة روائية حديثة فى تدريسها لا يمكن أن ينساها التلاميذ ، وهى أفضل من طريقة تحفيظ القاعدة عند غيره من المدرسين ، ولذلك كانت ترسخ فى أذهان التلاميذ .

كان الإمام يمثل للطلبة حكاية طريفة على دخول كان وأخواتها على المبتدأ والخبر ودخول إن وأخواتها عليهما .. فيمثل أن زيدًا وعَمْرًا من الناس وهما المبتدأ والخبر جاءتهما عمتهما زائرة يومًا وهى تحمل على رأسها أخواتها الصغار وهم كيت وكيت وكيت ، ثم تستأذن عليهما فى دارهما وهما جالسان فيه ، فيقوم المبتدأ مرتفعًا فوق درج الباب لفتحه ، ثم يهم أخوه وهو الخبر منتصبًا احترامًا لها وإجلالًا ، وهكذا يدلل على تأثير كان فى المبتدأ والخبر بطريقة روائية . ويزيد الإمام تطبيقًا على ذلك فيجعل أحد التلاميذ يهم مرتفعًا ، كما يعين خبرًا يقف منتصبًا حتى ترتسخ القاعدة فى مخيلة الطلبة ، ثم يسأل كل واحد ماذا صنعت كان وأخواتها ؟ فيروى كل واحد هذه الحكاية التى تترك أثرًا لا يُنسى ، ثم يطالب التلاميذ بالأمثال ، فما أسرع ما تنهال عليه رضى الله عنه هذه المثل مثل غيرها فى الكتاب الذى قلما أن يُفتح أو يُقرأ .. وهكذا دواليك عند كل قاعدة نحوية أو صرفية .

ولم يكن ليكتفى بالإلقاء والتلقين فقط ، وتلك هى السنة عن رسول الله ﷺ كما فى قوله ﷺ : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) . وقد رُوى أن الإمام كان يذهب إلى القسم الابتدائى بالكلية ويجمع الطلاب ويتباسط معهم ويتنزل لهم قائلًا : كيف تصلون ؟ كيف تتوضئون ؟ ويفعل ذلك عمليًا أمامهم حيث يأتى بإبريق الماء ويكلف أحد الطلاب بصب الماء فيتوضأ أمامهم ، مبينًا الفرائض والسنن ، ثم يفرش جبته على الأرض ليريهم كيف يصلون لأن الرسول ﷺ يقول : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) . فهو رضى الله عنه يمثل حضرة الرسول ﷺ فى علومه وحِكَمِهِ لهذا العصر ، ويقول لهم عبارة يذوقها أهل المعرفة : « يا أولادى خير لكم أن تتعلموا منى ، فبعد أبوكم الشيخ لن تجدوا من يعلمكم » .

وكما تميز الإمام بأسلوبه فى التدريس وآدابه عند إلقاء الدرس ، فإنه كذلك تميز وتفرد فى طريقته لجذب الناس لحلقة العلم ليفقههم فى أمور دينهم .

حتى فى حياة الإمام العادية كان يعطى الدروس والعبر والإشارات بطريقة غير مقصودة ولا تُنسى أبدًا . ففى يوم كان متوجهًا من بُرى المحس إلى كلية غردون . وكان

قد أعطى ريالًا مجيديًا للشيخ أحمد النور ليركب به ويلقاه بالكلية ، حيث أن الإمام سيركب دابته ، فآثر الشيخ أحمد النور أن يسير وراء الإمام . حتى إذا جاوزا منطقة بُرى إلى الفضاء الواسع الذى يفصل بُرى عن الكلية - وبها خط سكة حديد على مرتفع بسيط من الأرض - وجّهَ الإمام دابته لتسير بين القضيبين . وبعد مسافة تحكم الإمام فى لجام الدابة ليوجهها بعيدًا عن هذا الطريق فنزلت من هذا المرتفع ، ثم ترك لها العنان لتسير كيفما تريد ، فصعدت المرتفع لتسير بين القضيبين ، وكلما نحاها عن ذلك عادت ، والشيخ أحمد النور ملاحظ ذلك . قال له الإمام : أتلاحظ ذلك يا ولدى أحمد؟ هذه دابة أريد أن أنحيها عن الطريق المعتدل إلى طريق متعب فإذا بها ترجع إلى طريقها المعتدل ، والإنسان نريد له أن يسلك الطريق المعتدل المستقيم ولكنه يتركه للطريق المعوج !! .

إقامة الإمام الدائمة بمصر

وعاد الإمام المجدد إلى مصر بعد هجرته إلى السودان وقد سَعَّرَتْ فيه تجربته روح التحدى بالإضافة إلى علمه الغزير، فاتسعت آفاق نضاله فى كل بقعة من بقاع الوطن الإسلامى، فكل بلاد المسلمين وطن لكل المسلمين. وكل مسلم مواطن تجب عليه الحماية وواجبة له الرعاية، والأخوة الإسلامية لها قيوميتها ومقتضياتها، فهى حق وواجب، حق لكل ضعيف وواجب على كل قوى. واليد العليا فيها خير من اليد السفلى، والبذل فى إطارها سخاء وتزكية يتناسبان مع سعة المسلم وطاقته، فالغنى يسخو بماله على المعوز الفقير، والقوى يأخذ بيد الضعيف ويساعده، والمبصر يقود الأعمى ويجنبه شر العثرات والمزالق، أما العالم فسخاؤه بعلمه يبذله ولا يكتمه.

وهكذا عاد الإمام إلى الوطن عالمًا لا يضن بعلمه على من هو فى حاجة إليه، فهو معلم سجيته أن يعلم، وعلمه متاح لا لمن يسعى إلى طلبه فحسب بل إنه كان يسعى هو إلى من يتوسم أنهم فى حاجة إليه، فكانت ساعاته موزعة بالقسطاس بين من يفدون إليه فى مقره طلبًا لعلمه وبين السعى فى زيارات - حتى للمواقع النائية، إلى من يرى ببصيرته أنهم فى حاجة إلى هذا العلم. فصار مقره فى القاهرة كعبة يقصدها طلاب العلم، كما صارت النوادى الثقافية والمنتديات العلمية فى كل مدن مصر والمساجد فى كل مدينة أو قرية مزارًا له تتضوع فيها أفكاره، وتتلألأ فى أجوائها فريدات مبادئ دينه، وتلمع فى جنباتها ومضات علمه.

ومن ثم أصبح النشاط العزمى فى مصر امتدادًا للنشاط العزمى فى السودان، وكان الإمام المجدد من ذوى النفوس الكبار، ومن شأن كبار النفوس هؤلاء أنهم يستعذبون الآلام لتحقيق الآمال، وقليل ما هم، ولكنهم وحدهم الذين دفعوا بالإنسانية قفزات إلى الأمام فى طريق التطور إلى الحياة الأفضل.

ومن البديهى أن يستنتج القارئ أن الاستعمار البريطانى فى مصر كانت مناهضته هدفًا استراتيجيًا للإمام أبى العزائم كما كان الحال فى السودان، ومع تضافر الجهود الوطنية فى مصر ضد الاحتلال قامت ثورة ١٩١٩م، وكان الإمام المجدد من أوائل الذين قبضت عليهم السلطات البريطانية وأودع السجن فى محاولة منها لوأد هذه الثورة فى مهدها، وكان معه ولده الأكبر السيد أحمد محمد ماضى أبو العزائم الذى كان ملازمًا لوالده ملازمة كاملة، ليس له طلب فى الدنيا إلا أن يشارك أباه نضاله ويشد أزره وينظم له

برامج تنقلاته ويرعى شئونه الشخصية وينشر دعوته ويردد عنه أفكاره ومبادئه ، فأصبح خليفته الأول بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى .

ومن كانت طبيعته العطاء فإن عطاءه لا يتوقف ، ولذلك كان الإمام فى السجن كما كان خارجه كالبحر الزاخر الهادر لا توقفه سدود ولا تحده قيود ، فلم يلبث إلا أن صار مجتمع السجن كله - مساجين وحراسًا وضباطًا - من أتباعه والمتحمسين لدعوته ومبادئه . وانتقلت أنباء النشاط العزمى إلى مسامع طغاة الاحتلال البريطانى ، فذهب أحد طواغيتهم ليتحقق من واقع الأمور بنفسه ، وكان هذا الطاغوت هو رسل باشا الذى كان يشغل حكمدار القاهرة ولكن نفوذه وسلطاته الغاشمة تتعدى حدود منصبه إلى جميع أنحاء القطر المصرى بسائر مدنه ودساكره وقراه .

فماذا رأى رسل باشا ؟؟ لقد وصل إلى السجن وقت صلاة الظهر ، فرأى أن جميع المسجونين ومعهم جميع جنود الحراسة بالسجن ومن بينهم ضباطهم قد اكتظ بهم الفناء الأكبر للسجن صفوفًا يؤدون الصلاة خلف الإمام المجدد الذى ختم الصلاة وانبرى إلى المأمومين يدعو بأن يخلص الله الوطن من الاستعمار اللعين وأعوانه ، والمصلون من خلفه يؤمّنون . وكان صوت الإمام يهدر بالدعاء عميقًا جهوريًا ، وصوت المصلين بالتأمين يعلو ليصل إلى عنان السماء قويًا راسخًا ثابتًا ، مما جعل رسل باشا يرتعب وترتعد فرائصه مما أدى به إلى أن يكتشف أن هذا الإمام فى سجنه يشكل خطورة أكبر من خطورته خارجه ، فنفاه من السجن بأن أمر بالإفراج عنه مع ابنه فورًا .

فخرج يستأنف سعيه ونشاطه ، وكان مناط دعوة الإمام المجدد هو الإيمان بالعقيدة الإسلامية ، وتعميق هذا الإيمان كان ركيزة أساسية فى استراتيجيته وتكتيكاته ، لأن الإيمان بالله إذا تعدى مرحلة التصديق المجرد وازداد عمقه فى أفئدة المسلمين فإن تضحياتهم بالنفس والمال تسهل عليهم ، وعطاؤهم فى سبيل الله يزداد ، وكلما تعمق الإيمان فى نفس المسلم رق الحجاب بينه وبين خالقه واستشعر لذة القرب ، فصفت روحه ، وتزكت نفسه ، وترقق وجدانه وتذوق لذة الحقيقة التى لم يكن يدركها بمجرد عقله ، فَجَهِدَ مُمعِنًا فى التزام الطاعات ، وانكب على ذكر الله ، واشتدت فى فرائصه تقوى الخالق وسيطرت على كل كيانه ليتأكد قربه من الله ويزداد ، والله قد وعد هؤلاء المتقربين بإخلاص إليه أن يكون أقرب إليهم من حبل الوريد ، ووعْدُ الله مُنْجَزٌ حقًا لا محالة .

ومن ثم فإن حلقات العلم وندوات الثقافة والفكر التى تأسست على نشاط الإمام

العالم بالشريعة قد تحولت تلقائيًا إلى مجامع تسودها التقوى والتقرب إلى الله بدوام ذكره والإمعان فى طاعته. ومن ثم أيضًا تحولت جماعة آل العزائم إلى الطريقة العزمية التى ما فتئت حتى اليوم تغذى العقل بعلوم الشريعة الحقة وتزكى النفس بإيصالها - بطريق مأمون - إلى تذوق الحقيقة التى يهبها الله لمن يقمعون الغرائز ويزهدون فى بهرج الحياة ويجتهدون فى طاعته وتقواه. وبذلك كانت الطريقة العزمية النموذج الأمثل للتصوف الطاهر الزاهد الواعى الخالى من كل شوائب الرياء والارتزاق والبدع وابتزاز المريدين والأتباع. فهى طريق إلى الله ليس لها من هدف سوى الاستغراق فى مرضاة الله وطاعته وتقواه [١].

كيف استقر به المقام فى مصر:

إن الإمام قد أمضى الفترة ما بين عامى ١٩١٥ - ١٩١٧م بالمطاهرة بمحافظة المنيا عندما عاد من الخرطوم مُحَدَّدَة إقامته نظير حربه الشعواء، سواء بالفكر أو الدين أو تحفيز الهمم على الجهاد والثورة على الاستعمار الغاشم وتربية جيل فى السودان يحمل أمانة الدعوة فى تحرير الأرض المحتلة. وقد جاء إلى مصر ليقيم إقامة دائمة بها ويستمر دوره الجهادى امتدادًا لما أقامه بالسودان، فقام بإصدار مجلة الفاتح من عام ١٩١٥ حتى ١٩٢٠م. ومع أن إقامة الإمام كانت محددة فى منزله بالمطاهرة إلا أنه كان يتجول فى القرى والبلاد المجاورة وذلك عن طريق وساطة محبيه، فقد توسط رئيس الوزراء - وكان محبًا وتلميذًا للإمام منذ فترة طويلة - فى تيسير انتشار الإمام فى دائرة أوسع وهذا مما سيتيح فرصة أكبر للسلطة الإنجليزية بالبلاد فى معرفة حركات ومخططات ونوايا الإمام !! فوجد هذا الرأى استحسانًا كبيرًا !!. وأمام هذا التسهيل كان الإمام يجتمع برجال ثورة ١٩١٩م !!.

وأمام هذه المسئولية الجديدة للإمام، طلب الأحباب أيضًا نقل الإمام للإقامة فى القاهرة عاصمة مصر. وفعلًا تمت الإقامة الجديدة، وكان منزله تحت الرقابة الشديدة من قبل الإنجليز ورجال السلطة المصرية. وكان الإمام إذا عمل احتفالًا دينيًا لمناسبة معينة تتطلب تجمعات بشرية، فقد كانت القوات البريطانية تقوم بالتفتيش المستمر فى هذا اليوم لجميع أنحاء المنزل بحثًا عن وجود أسلحة أو منشورات أو أشخاص مشتبه فيهم أو خلافه.

---

(١) كتاب الشيخ زاهر الزغبى.

وأول ما سكن الإمام فى القاهرة كان فى منطقة تسمى جنينة ناميش بمنطقة الخليج المصرى[٢]، ثم استأجر سراى الحنفى[٣] بعطفة الفريق بسوق مسكة من وزارة الأوقاف، وهى قصر فسيح كان لأحد القواد الترك تبلغ مساحة مبانيه فدانًا تقريبًا. وكانت عبارة عن عدة مبان يتوسطها ميدان فسيح، وكان باب القصر ضخمًا مثل أبواب مصر الكبيرة المبنية بالأحجار العالية، وكانت سيارات النقل الضخمة تدخل منها وتسير فى الساحة الكبيرة. وقد بنى بها زاوية صارت ضريحًا له بعد انتقاله وألحقت بمسجده الآن. والدار مقسمة إلى أقسام كثيرة: قسم لسكنى العائلة وهى لم تشغل ثلث الدار، والثلثان الآخران لطلاب العلم والعبادة، وبها قسم لراحة الأغراب من الشعوب النائية والوافدين من جميع البلدان لا فرق فى هذه الدار بين المقيم القاطن والغريب النازل، تُغلَقُ مساجد القاهرة وبابها لا يغلق إلا بعد الثانية صباحًا وهذا حسب أمر الإمام رضوان الله عليه، ولا تجد عند دخولك فى أى وقت مهما كان متأخرًا من الليل من يمنعك، ولا تجد بوابًا يوقفك عند الدخول على حسب عادة المنازل، وكأنها قسم من المصالح العامة.

وبعد دخول الإمام هذا القصر مباشرة أراد أن يجعل فى الحديقة أو الحوش مكانًا للوضوء قرب مكان الصلاة، فطلب من الإخوان أن يقوموا بحفر بئر ثم يدقوا طلمبة لإخراج ماء الوضوء، وقد نفذ الإخوان ذلك. وبعد صلاة الفجر أقيمت الحضرة، وبعد انتهائها دخل الإمام ليستريح ومعه السيد أحمد نجله والشيخ العقاد، وبقى من الإخوان الشيخ خلف والشيخ قطب من آبا الوقف وإخوان المنيا يحفرون حتى وصلوا إلى مكان وجدوا فيه كنزًا من الذهب، فقام أحدهم يجرى حتى وصل إلى الإمام وقال له لقد أكرمنا الله وأسعدنا وأغنانا من فضله، لقد وجدنا كنزًا. غضب الإمام غضبًا شديدًا ثم توجه إلى الله قائلًا: يا ربى.. أغَضِبْتَ علىَّ وعلى أولادى حتى تبتلينى؟؟ اللهم ارفع مقتك وغضبك عنى، اللهم إنى لا أرجوها.. يا أبنائى: لا يوجد ذهب ولا غيره. ثم سبق الإخوان ونزل رضوان الله عليه فى المكان الذى يدَّعون أن فيه كنزًا وقال: والله يا إخوانى ما هذا إلا تراب. ثم أخذ بيد السيد أحمد نجله الأكبر وبيد الشيخ العقاد ورفعهما وقال: والله لو أعطانى ربى الدنيا لوهبتها لليهود لا أن أهبها لكم ولا أرضاها لكم، إن أغنى أغنياء الدنيا هم اليهود، وأنتم أغنياء بالله ورسوله. وما أن سُرِّىَ عنه إلا واطمأن واستبشر أن الله سبحانه وتعالى كشف عنه البلاء، لأنه خشى أن يتحول حب

---

(٢) شارع بور سعيد حاليًا.

(٣) استأجرها الإمام فى أول ربيع الأول ١٣٣٥ هـ الموافق ١٩١٧/١/١ م، واشتراها فى ٣٠ شوال ١٣٤٣ هـ الموافق ١٩٢٥/٥/٢٣ م من وزارة الأوقاف.

الله ورسوله فى قلوب تلاميذه إلى حب الدنيا [٤] .

وبعد أن دخل الإمام قصر الحنفى هذا ، اكتشف الإخوان وجود امرأة تدعى (الدمياطية) وأولادها تسكن فى جناح من أجنحة القصر ، ورفضت الخروج فأبقاها الإمام رحمة منه . وقد تبين بعد ذلك أنها كانت تفعل ما ينافى الآداب ، وتتجر فى المخدرات . ولما أصبح البيت مقصدًا للإخوان وللزوار وفى أى وقت ، فلم تستطيع أن تفعل ما كانت تفعله ، وبدأت تؤذى الإمام أشد الأذى ، وتعمل حفلات رقص وصخب للتشويش وقت الذكر والعلم ، والإمام يدعو أن يصلح الله حالها . وكانت تدخل على الإمام وهو يلقى الدرس وتشتمه وتتهمه فى أشياء منافية للآداب وبأقذر الألفاظ رغبة فى أن يترك الإمام لها المكان ويبحث عن غيره ، والإخوان يريدون ضربها وطردها فيقول لهم : احمدوا الله أن أباكم الشيخ لم يُحْرَم من صورة حمالة الحطب فى هذا الزمان ، أرسلوا لها أكلها وأكل أولادها وأعطوها نقودًا لتخرج ، وهى يزداد إصرارها على الرفض . ولما اشتد ضيقها من الإمام ، وهو صاحب البيت ، ظلت تجمع من مخلفات دورة المياه ، وألقت به على الإمام حتى غطى العمامة والملابس كلها وهو خارج لصلاة الجمعة ، عندئذ تحرك قلبه إلى الله ، ورجع إلى غرفته حامدًا ربه وشاكرًا فضله واغتسل مرة أخرى وغير ملابسه ونزل للمسجد وسط إخوانه مهللين مكبرين ومنشدين وعلى مرأى منها . وزاد غضب المرأة وقررت أن تفعل شيئًا نهائيًا يشفى غليلها لعل الإمام يخرج من القصر ويتركه لها فتكون لها اليد الطولى فيه وعندئذ تفعل ما تريد والعياذ بالله .

لقد تحرك قلب الإمام إلى ربه ، وكانت إرادة الله عز وجل سابقة فى أن تخرج هذه المرأة من القصر بعد أن تشاهد بنفسها أن هذا الإمام من الذين أعطاهم الله الكلمة الصادقة والدعوة المستجابة . لقد أشعلت النار فى مخزن كان يخص السيد محمد أبا الحسن ابن الإمام ، فكان يدخل المزادات ويشترى البضائع ويخزنها فى هذا المخزن لحين بيعها ، وكان هذا المخزن فى البدروم الكائن تحت سكن الإمام مباشرة . وارتفعت ألسنة النار حتى وصلت إلى الحجرة التى ينام بها الإمام ، فتوجه الإمام ناحية النار ثم تفل عليها قائلًا الله أكبر فانطفأت جميع النار مرة واحدة ، والمرأة تشاهد هذا الموقف ، فأدخل الله الرعب فى قلبها مما رأته ، فما كان منها إلا أن أخذت أمتعتها ورحلت هى وأولادها وهى خائفة إلى غير رجعة ، وأراحت الإمام وكذلك الإخوان من شرها ، وقال الإمام للإخوان : بصبركم عليها يا أولادى ربنا أخلى لكم المكان . لم يواجهها الإمام إلا بالحسنة والصبر ، فكان يقدم لها الطعام والمال وتحمل أذيتها ، وكلما تزيد هذه المرأة فى أذيتها

---

(٤) روى هذه القصة الشيخ نصر أحمد سعد العقاد من الفيوم سماعًا من والده .

كلما واجهها الإمام بالعطاء المتزايد ، تأسيًا برسول الله ﷺ الذى كان يتحمل إيذاء اليهودى يوميًا وهو يضع أمام البيت ما يؤذى النبى عند خروجه فكان يرفع ما وضعه اليهودى وينظف المكان ، وفى النهاية أسلم اليهودى .

كان منزله بمصر كعبة وفود الأمم الإسلامية من مختلف الأجناس ، ومحط أنظار سفراء الممالك الإسلامية وعظماء مصر ممن لم يحجبهم حجاب المعاصرة والمجانسة ، فكان رضوان الله عليه - ولا تأخذه فى الحق لومة لائم - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أيًا من كان .

واتسع أمامه مجال الدعوة إلى الله تعالى فأسس مجلة (المدينة المنورة) - التى بدأ صدورها عام ١٩٢٠م واستمرت لسنوات طوال بعد انتقاله إلى جوار ربه - حاملة لواء العلم الصحيح ، ينشر بها الدين وتعاليمه وأخبار الصحابة فى هذا العصر المظلم ، حتى أراد الله أن يتم مقصده فأقبل عليه من أراد الله أن يجعل لهم نورًا يسعون به ومنهم الذين ينطقون وينشرون فضله فى هذه المجلة .

لقد دافع عن حرمة الدين كما بث روح الغيرة على الوطن الإسلامى بين المسلمين ، فالوطنية المصرية إنما تدين له بإذكاء نارها وتأجج إزارها بين الشباب المتعلم الذين قذف بهم للعمل فى خلاص الوطن من رتقة الاستعباد ، مبينًا لهم فى داره فضل الجهاد وما فيه من مزية وأجر قد لا يحلم به العباد . ثم لم يقف به الحد عند هذه الدائرة الضيقة بالديار المصرية فحسب بل هب لتنبيه المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بالنذر الكتابية وبالكتب التى كان يمليها على أهل خاصته ثم يوزعها بلا مقابل فى الهند وجاوه والصين واليمن والحجاز والترك وبلاد العجم ، كل ذلك كان ابتغاء رضوان الله تعالى . لقد كان يبتدأ الكتاب الصغير صبيحة الجمعة ثم يفرغ منه إنشاءً فجر الاثنين الذى يليه ثم يطبعه ويجهد أهل بيته وخاصته فى إدارة المطبعة فلا راحة للكل حتى يطبع ويوزع ، لا رغبة فى المال .. فقد كان متوفرًا لديه .

أعيى الإنجليز أمره فى السودان وفكروا فى الخلاص منه ، فكان جذوة تركها بين أبنائه الناشئين فى ذلك القطر الشقيق ، وجاء مصر فألهبها غيرة وحماسة فى التفكير للخلاص من هذا الداء الوبيل والكابوس الثقيل حتى قامت الثورة فكان سعد زغلول علمها الظاهر وكان الإمام المحرك لأفراد الأمة إلى هذا العمل الباهر .

وكانت للدروس التى ألقاها بالقاهرة فضل كبير فى إيقاظ الشعور بين طبقات الأمة السودانية ، فما من حرٍ أبي رفع رأسه فى النهضات الإسلامية الوطنية منذ أن رحل الإمام

أبو العزائم عن السودان سنة ١٩١٥م إلا وهو يدين بهذا الشعور وهذه الروح القوية التى تسوقه سوقًا إلى ميادين الجهاد وتشعل النار فى قلوب السودانيين حقدًا على الغاصبين. وقد كان حين عمَّ هذا الوعى الإسلامى فى بلاد السودان سنة ١٩٢٤م حين ثارت فصيلة على عبد اللطيف وبعض إخوانه على جيش الإنجليز المدجج بالسلاح والعتاد وكادت الدائرة تدور عليه لولا خيانة أعداء الحرية من أرباب السلطة فى ذلك الحين الذين اتخذهم الإنجليز مخلب القط فسلم الجيش المصرى تسليمًا مخزيًا لأعدائه الإنجليز.

إن البطل على عبد اللطيف حين سأله القاضى الإنجليزى أبان محاكمته: من أين لك هذه الروح القوية الوطنية؟ فأجابه على الفور: من شيخ مصرى يدعى محمد ماضى أبو العزائم كان يخصنا بها فى دروسه بالكلية وعظاته بمسجد الخرطوم التى ألهب بها قلوبنا حين كان يقول: إن الإسلام وطن وإن ذلك الوطن يجب أن يحرر وإن كل قاعد عن ذلك التحرير هو مشرك بالله لن ينال رضاه وإن صلى وصام وحج البيت وإن الجهاد فريضة على كل مسلم حر قادر كسائر الفرائض.

مصاعب نشر الدعوة:

وقد لقى الإمام من المصاعب الكثير فى سبيل نشر الدعوة، وكان ربه يكرمه بالمكاشفات اليقينية عما يدور بخلد المريد، وهو روح الدعوة وسر نجاحها، قال تعالى: ﴿وقل لهم فى أنفسهم قولًا بليغا﴾(٥)، وكان دائمًا ما يقول: «المرشد: من لا يحجبه عن أولاده شبر من تراب».

ومما رُوى عن كلاءة الله تعالى للإمام وحفظه له من شر الأشرار وكيد الفجار، أن جماعة من المعاندين اتفقوا فيما بينهم أن يحدثوا ضجيجًا أثناء إلقاء الإمام لخطبة الجمعة، حتى لا يسمع أحد من المصلين شيئًا من الخطبة. وكان الشيخ مفتاح ضمن من هم مع الإمام. وفى الوقت المناسب فاجأ الإمام الشيخ مفتاح بأن طلب منه أن يخطب الجمعة، فصعد المنبر، وجعل يخطب والناس ينصتون فى خشوع وأدب، وبذلك فاتت الفرصة على هؤلاء المعاندين بأن يضايقوا الإمام، ولكن واحدًا منهم لم يهن عليه هذا الموقف فبدأ فى السعال المصطنع، وظل كذلك إلى أن صار السعال حقيقيًا، وظل كذلك حتى مات فى المسجد.

ومما رُوى أن جماعة اتفقوا على سبيل السخرية أن يأتى أحدهم الإمام وهو على جنابة

---

(٥) سورة النساء آية ٦٣.

ويطلب منه البيعة فقال له : اذهب إلى أمك التي ضربتها وأخذت منها الريال ، ثم بعد أن ترضيها وتصفح عنك تذهب لتتطهر ثم تأتينا لأخذ البيعة . تعجب الرجل كيف أن الإمام كاشفه بالحقيقة ، ففعل ما أوصاه الإمام به ، ثم رجع إليه يطلب البيعة بصدق ، فمد له الإمام يده .

مما روى أيضًا أن الإمام كان يلقى درسًا فى أحد مساجد السويس ، وكان من الحاضرين متعالم اسمه الشعشاعى جلس يستمع للإمام لاصطياد خطأ فى كلامه ، ولما لم يجد سأل سؤالًا يتعلق بالقضاء والقدر ، وهو بعيد عن موضوع الدرس ، وذكر قول القائل :

القاه فى اليم مكتوفًا وقال له ... إياك إياك أن تبتل بالماء

وكأنه يريد أن يقول : قدّر الله عليّ المعاصى وألقانى فيها وقال إياك أن تعصنى .

وأصابت الحيرة بعض الجالسين ، فرد الإمام بقوله : اسمع يا شعشاعى ، أيها أشد ؟ النار أم الماء ؟ قال : النار ، قال الإمام : ما تقول فى أن الله عز وجل أوقع الخليل إبراهيم فى النار بإرادته وأنجاه بقدرته ؟ ﴿ قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم ﴾[٦] ، ألم يقع إبراهيم فى النار وأنجاه الله منها ؟ وهكذا أزال بإجابته الشبهة ببيان إسناد الإرادة والقدرة لله تعالى يفعل ما يشاء .

---

(٦) سورة ص آية ٥٨ .

يوم فى حياة الإمام

مخطوطة بخط يد سماحة السيد
أحمد ماضى أبو العزائم ابن الإمام الأكبر
الذى لازمه فى أوقات خلواته وجلواته
والخليفة الأول لوالده

قبل آذان الفجر، كان الإمام يقف فى نافذة حجرته وهو ينادى الإخوان للصلاة بقوله: يا غراس الجنة: الصلاة، وفى أحيان أخرى كان يقول: يا آل العزائم هيا إلى الغنائم، ويكرر النداء. ثم يخرج من حجرته وينزل من سكنه الخاص مناديًا الإخوان بما سبق، ويمر على الغرف التى ينام بها الإخوان قائلًا هذا القول وطارقًا بعصاه باب كل غرفة ليوقظ من لم يستيقظ منهم، ثم يتوجه إلى زاوية آل العزائم.

ثم يصلى الرغيبة فى جماعة، ثم يجلس على هيئة الصلاة مستغفرًا ربه بقوله: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم أستغفر الله. ثم يصلى الصبح فى أول الوقت مع الخشوع وحضور الروح، ثم يختم صلاة الصبح بالأدعية الواردة [(١)]، ثم يلقى درسًا على الإخوان حتى شروق الشمس، ثم يخرج للرياضة حتى مسجد السيدة زينب أو أقرب مكان إلى البيت، ثم يتناول طعام الإفطار مع الإخوان، ثم يأخذ قسطًا بسيطًا جدًا من النوم.

وبعد أن يستيقظ، يأمر بإحضار القلم والقرطاس ليملى على الكاتب بعض العلوم بما يتناسب مع الوقت: فيملى فى تفسير القرآن ثم فى الحالة الحاضرة ووسائل إصلاحها ثم يكتب أو يرد على المراسلات التى تصله من أبنائه وتلاميذه ومحبيه من الأقطار الإسلامية ومصر، مزودًا كل هؤلاء بالنصائح التى يدعو فيها إلى الرابطة الإسلامية.

ويصلى الإمام الضحى، وقد يطلب أن يُسمعوه مما أملى من قصائد الأمس، فيصحح لهم الأخطاء التى قد وقع فيها الكتبة [(٢)]. ويستقبل الزائرين حتى تحين صلاة الظهر.

---

(١) فى كتاب نيل الخيرات بملازمة الصلوات للإمام أبى العزائم.

(٢) ذات مرة قرأ الشيخ مفتاح زيدان على مسامع الإمام قصيدةً مطلعها: (يا رجالًا فِروا إلى الجنات) فقال الإمام: ارفع يا مفتاح - هُمَّا لسه ها يفروا؟ (أى فَروا بدلًا من فِروا).

ويصلى الإمام الظهر، ثم يصعد للراحة، وقد لا يصعد للراحة فيلقى درسًا . وعند صعوده إلى داره ينصح النساء بإقامة الصلاة وطاعة الزوج . ثم ينزل من سكنه قبل صلاة العصر لتأدية الصلاة، ثم يطلب المصحف ويقرأ الآيات، وقد يبدأ فى إملاء تفسير القرآن ويشرح الغامض منه ويبين أسرار ما خفي، وكان يؤكد على الإخوان مداومة قراءة القرآن فله الأولـوية على أى ورد من الأوراد، مع استحضار رابطة المرشد، أو إملاء بعض الكتب، أو إملاء مقالات لتنشر بالجرائد أو الرد على ما ورد ببعض الجرائد من مقالات .

ثم يخرج الإمام بسيارته إلى كوبرى قصر النيل[٣] أو خلافه، وفى أثناء ذلك أحيانًا ما كان يملى قصائد حسب الواردات، ثم يعود من الرياضة قبل صلاة المغرب أو يؤديها فى الجهة التى كان يتريض فيها إن كان معه مجموعة كبيرة من الإخوان .

وبعد أداء صلاة المغرب يبدأ الإمام بإلقاء بعض الدروس إذا أتت وفود لزيارته، أو يُملى بعض القصائد، أو يبدأ بقراءة الصلوات على رسول الله ﷺ .

وبعد صلاة العشاء يقرأ الإمام الصلوات إذا لم تكن قد قُرِئتْ بعد صلاة المغرب (من المهم أن يقرأها الإمام مع الإخوان مرة كل يوم)، أو أن يلقى بعض الدروس . ثم يعقب ذلك الحضرة بما فيها من ذكر جهرى وسرى وقصيدة الحضرة ثم قراءة ما تيسر من آيات القرآن، ثم الدرس .

وبعد الدرس يغادر الإمام الجلسة للراحة أو أن يدعو أهل الفهم من خاصة تلاميذه للخلوة، وهم أفراد مخصوصين من الإخوان مثل الشيخ أحمد سعد العقاد والشيخ مفتاح زيدان والشيخ حسن القليني والشيخ محمد شحاته والشيخ عبد الباسط القاضى والشيخ أحمد السبكى والشيخ عرفات الجمال إن وُجِدَ بالقاهرة والشيخ يوسف عبد المعبود والأخ نبيه سلامه وغيرهم .

يبدأ الإمام الخلوة بإلقاء قصيدة لها معانٍ سامية يضن بها الإمام على العامة، ثم يشرح بعض معانى هذه القصيدة على الإخوان الحاضرين، فتتجلى لهم من المعانى الخفية والإمدادات والإشراقات العلوية والمعارف والإلهامات من المكنون المضنون به . وكان الشرح لهذه القصائد (قصائد الخلوة) أحيانًا يأتى على نظام الحِكَم (مما هو وارد فى كتاب جوامع الكلم)، وتنتهى الخلوة فى ساعة متأخرة من الليل . ثم يصلى الإمام سنن العشاء، ويُبْقِى الوتر لخلوته منفردًا، ثم يستريح قليلًا . بعد ذلك يقوم للوضوء والتهجد

---

(٣) كوبرى التحرير حاليًا .

ومناجاة الذات العلية حتى صلاة الفجر ، وقد يكون معه بعض من إخوان الخلوة يكتبون عنه هذه المناجاة سواء نثرًا أم نظمًا .

ويصف أحد تلاميذه آداب وقته ، فيقول :

كان كل وقت عنده رضوان الله عليه يعمره بما يقتضيه واجبه ، فكان له وارد فى السحر وآخر فى بياض النهار وغيره فى صرصر اليوم وآخر فى خلوته ليلًا ، ولكل مقام مقال . وأن الإمام رضوان الله عليه فى شهر رمضان كانت له دُررٌ غالية ينثرها قُبَيل الفجر بعد تناول طعام السُحُور ، وربما كان ذلك وهو يتناول الطعام .

ويقول الشيخ مفتاح زيدان سكرتير الإمام : وكان سحورنا قبله لنتفرغ لتلقى هذه الأسرار العالية والحكم الغالية ، لأننا إن لم نحافظ على هذه الآنات عنده لتقييد الوارد ضاع منا ، لأنه لا ينتظر الكاتب ، فإن حضر اغترف من البحر فملأ وعاءه ودفاتره ، وإن فاته الوارد رجع بخفى حنين وفاته الخير الكثير . لذا كنت أحرص على تلقى هذا الوارد ولو فاتنى طعام السحور فى بعض الليالى مُذ أكرمنى الله بصحبته رضوان الله عليه وملازمته سفرًا أو حضرًا داخل القطر وخارجه مدة ثلاثين عامًا وأكثر(٤) .

ومما رواه أحد تلاميذه عنه :

ومن العجائب أن الأستاذ كان ينزل قبل الفجر للصلاة فيصلى السنن فى جماعة عمومية ، ثم تقام الصلاة ويصلى الصبح فى أول الوقت مع الخشوع وحضور الأرواح ، ثم يختم الصلاة بالأذكار فتشرق الأنوار الإلهية ، ومن حضر فاز صدره بالانشراح ، فإن أشرقت الشمس أمر بإحضار الطعام وأكل مع الإخوان بالسوية ، ويتعهد الجميع ويحييهم بالكلمات الملاح ، ثم يأمر بإحضار القلم والقرطاس فيملى ما يناسب الوقت من الأدوية العلمية ، فيكتب فى التفسير ثم فى الحالة الحاضرة وقصده الإصلاح ، ثم يكتب البريد إلى الأقطار الإسلامية مزودًا بالنصائح يدعو فيها إلى الرابطة وهى أساس النجاح ، ثم يصلى صلاة الضحى ويستريح وبجانبه من يتلو له فى المصحف الآيات القرآنية ، أو أحاديث سيد المرسلين أو كلام الصالحين أهل السماح .

فإذا جاء الظهر صلى السنن القبلية ، ثم تقام الصلاة ويصلى الفرض والسنة البعدية والإخوان فى انشراح . ثم تُختَمُ الصلاة ويدخل حجرته الخصوصية ، فينصح السيدات

---

(٤) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ١٣ ص ٢٧ (١٦ رمضان ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧ م) .

بإقامة الصلاة وطاعة الزوج فإن نتيجة ذلك الرضا والأفراح ، فإذا جاء وقت العصر صلى بالإخوان السنة القبلية ، ثم يصلى العصر ويختم الصلاة ويجلس كالكعبة التى تطوف حولها الأرواح ، ويدعو بالمصحف الشريف فيتلو الآيات ويشرح الغامض منها ويبين الأسرار الخفية حتى كأننا بالحرم وفى كل قلب مصباح .

وكان يُؤكد على الإخوان فى المداومة على قراءة القرآن مع الآداب الكلية ، ويقول استحضروا أنكم تسمعون منى القرآن أو تقرؤونه علىّ فالاستحضار هو المفتاح ، ثم يأمر بإحضار العشاء فيجلس مع الإخوان وهم حوله فى المسرات القلبية ، وينادى حضروا فلانًا وفلانًا ويمكث حتى يحضر الكل بكل ارتياح ، ثم يصلى المغرب والسنة فى جماعة كلية ، ويختم الصلاة ويأمر بقراءة الصلوات التى طيبها قد فاح ، ثم يصلى العشاء ويختم الصلاة ويُبقى الوتر لخلوته الفردية ، ثم يبدأ الدرس ببيان الأحكام والأحاديث الصحاح ، ثم يقوم للذكر فى نشاط وهمة كلية ، ويقول فى الذكر ما يفيضه مولاه من كنوز الفتاح ، ثم يدخل الخلوة ويدعو أهل الفهم والأذواق الخصوصية ، ويملى ما ينجلى له من المعانى التى تعجز عن وصفها الشُرّاح ، فإذا ذهب نصف الليل دخل منزله الخاص لصلاة الوتر ومناجاة الذات العلية ، ولا يزال فى شوقه وغرامه إلى طلوع الصباح .

اللهم اجعلنا من المحبوبين لأهل الحضرة العلية ، الفائزين بالنجاح والفلاح[٥] .

---

(٥) كتاب (المواهب الإلهية) للشيخ أحمد سعد العقاد .

تلقيه رضى الله عنه
عن مشايخ طرق السادة الصوفية

لقد تلقى الإمام عن مشايخ الطرق ، ليُشهِدَ الكلَ أن الطريق إلى الله تعالى واحد ، وأن الكل على خير طالما يدعون إلى الخير ، والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها التقطها .

تعلم الإمام من الكل فأفاض الله عليه من علمه اللدنى ببركة تواضعه وحبه الكبير وحرصه العظيم على كل واردة وشاردة فى العلم . إن الرجل الكامل هو الذى لا يَحْقِرُ رجلًا ولا يضيره أن يأخذ ممن هو أقل منه علمًا .

إن الطريق إلى الله واحد والداعون إليه كثير ، فأكد الإمام هذا المعنى حتى نكون أخوة متحابين لأنها مشارب وأذواق .

ومما قاله الإمام رضوان الله عليه عن السند المتصل الذى أخذ عنه الطريق إلى الله تعالى[1] :

الحمد لله الذى نظر بعين العناية لأهل الخصوصية فجملهم بحلل الهداية ، ومنحهم التوفيق والإقبال على ذاته العلية بإخلاص ، والصلاة والسلام على شمس الهداية ، صراط الحق المستقيم ، الدال على الله بالله ، وحصن الأمن الحصين الذى من خالفه ضل وغوى ومن اتبعه أحبه الله وهداه ، سيدنا محمد ، عبد الله ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وورثته وسلم .. وبعد :

فإنى والحمد لله على نعمائه وإحسانه قد أكرمنى الله تعالى بصحبة رجال من أهل العلم والعمل والحكمة والحال ، وتلقيت عنهم بعد أن تلقيت العلم الشريف بالأزهر ومدرسة دار العلوم ببلاد مصر ، فتلقيت بالأزهر الشريف الفقه على مذهب الإمام مالك ، والعقائد على أصول أهل السنة ، والأخلاق على طريقة الإمام الغزالى ، وتفسير القرآن الشريف وعلم الحديث رواية ودراية ، ثم تلقيت عن أئمة الطريق شرح مقامات اليقين وشرح الأوراد والأذكار الواردة عن أئمة الصوفية ، وأجازنى بذلك أكثر مشايخى .

---

(١) كتاب (نيل الخيرات بملازمة الأدعية والصلوات على الحبيب المختار ﷺ) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم . الطبعة الخامسة (١٣٤١ هـ) ص ٧٧ ، مطبعة المدينة المنورة .

(١) وقد أجازنى بطريق السادة القادرية :

سيدى السائح الزاهد الصوفى بير محمد البخارى بمدينة المنيا سنة ١٣١٢هـ، وهو تلقاها عن شيخه السيد على القادرى، عن أبيه وشيخه السيد عبد القادر القادرى، عن أبيه وشيخه السيد أبى بكر، عن أبيه وشيخه السيد إسماعيل، عن أبيه وشيخه السيد عبد الوهاب، عن أبيه وشيخه السيد نور الدين، عن أبيه وشيخه السيد درويش، عن أبيه وشيخه السيد حسام الدين، عن شيخه وابن عمه السيد أبى بكر، عن أبيه وشيخه السيد يحيى، عن أبيه وشيخه السيد نور الدين، عن أبيه وشيخه السيد ولى الدين، عن أبيه وشيخه السيد زين الدين، عن أبيه وشيخه السيد شرف الدين، عن أبيه وشيخه السيد شمس الدين، عن أبيه وشيخه السيد محمد الهتاكى، عن أبيه وشيخه السيد عبد العزيز، عن أبيه وشيخه السيد قطب العارفين ومرشد السالكين السيد عبد القادر قدس الله سره، عن شيخه أبى سعيد المبارك المخزومى، عن شيخه العكاوى، عن شيخه أبى فرج الطرطوسى، عن شيخه عبد الواحد التميمى، عن شيخه أبى بكر الشبلى، عن شيخه أبى القاسم الجنيد البغدادى، عن شيخه السرى السقطى، عن شيخه معروف الكرخى، عن شيخه أبى المحاسن على بن موسى الرضا، قال حدثنا الإمام موسى الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه على زين العابدين عن أبيه سيد شباب أهل الجنة وقرة أهل السنة الإمام الحسين عن أبيه أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه، قال: حدثنى حبيبى وقرة عينى رسول الله ﷺ، قال: حدثنى جبرائيل عليه السلام، قال: سمعتُ رب العزة جل جلاله يقول: لا إله إلا الله حصنى فمن قالها دخل حصنى ومن دخل حصنى أمن من عذابى. وبالسند المتقدم إلى الشيخ معروف الكرخى عن شيخه داوود الطائى عن شيخه حبيب العجمى عن شيخه حسن البصرى عن شيخه الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ عن جبرائيل عليه السلام عن رب العزة جل جلاله.

(٢) وتلقيت الطريقة النقشبندية :

من عدة فروع كلها ترجع إلى الإمام سلمان الفارسى عن الإمام أبى بكر الصديق رضى الله عنه أو إلى الإمام أمير المؤمنين على عليه السلام. ولما كان المراد إثبات رجال السلسلة، أحببت أن أختصر على سند الرجال المتصل بسند الإمام سيدنا على عليه السلام. ولما كانت آداب السلسلة النقشبندية أن يبتدئوا بالسلسلة من أعلاها - ورعاية الآداب واجبة فى طريق الله تعالى - لزمنى أن أقتدى بأئمة الطريق فيما وضعوه لحفظ

سند العلم والطريق :

السند : اللهم أنت ذو الفضل العظيم ، فأسألك بحبيبك ومصطفاك سيدنا ومولانا محمد ﷺ أن تلحقنا بنسبه الروحانى ، وأن تنظمنا فى عقد معيته المحمدية التى بينْتَ أهلها بصفاتهم فى آخر الفتح ، وبجاه لسان حكمته وترجمان علمه أمير المؤمنين سيدنا على عليه السلام ، وبعلوم وارث تلك الأسرار الإمام الحسن البصرى رضى الله عنه ، وبإخلاص سيدنا حبيب العجمى رضى الله عنه ، وبصدق سيدنا داود الطائى رضى الله عنه ، وبجذبة سيدنا معروف الكرخى رضى الله عنه ، وبصفاء الإمام سيدنا سرى السقطى رضى الله عنه ، وبأنوار سيد الطائفة الشيخ جنيد القواريرى البغدادى رضى الله عنه ، وبمحبة سيدنا الشيخ أبى على الروزبارى رضى الله عنه ، وبحرمة سيدنا الشيخ أبى على الكاتب رضى الله عنه ، وبوفاء سيدنا الشيخ عثمان المغربى رضى الله عنه ، وبمقام سيدنا الشيخ أبو القاسم الجرجانى رضى الله عنه ، وبحق سيدنا الشيخ أبى بكر النساج رضى الله عنه ، وبسيدنا الشيخ أحمد الغزالى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ أبى النجيب عبد القادر السهروردى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ عمار بن ياسر رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ روز بهان البقلى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ أبى الجناب عمر بن محمد نجم الدين الكبرى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ مجد الدين رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ على لالا القرنوى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ جمال الدين أحمد الجورفانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ عبد الله العربى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ علاء الدولة السمنانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ شرف الدين محمود مزدفانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ أمير سيد على همدانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ اسحق الختلانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ عبد الله البزرش أبادى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ رشيد الدين محمد البيداوازى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ الحاجى محمد الخيوشانى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ كمال الدين حسين خوارزمى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ يعقوب الصيرفى رضى الله عنه ، وسيدنا إمام الألف الثانى الشيخ أحمد الفاروق السهرندى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ محمد سعيد السهرندى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ محمد عابد السنامى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ شمس الدين حبيب الله مرزا مظهر جان جانان الشهيد الدهلوى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ عبد الله الدهلوى رضى الله عنه ، وسيدنا الشيخ أبى سعيد المجددى رضى الله عنه ، عن شيخى وأستاذى الشيخ الغريب محمد الخوقندى السائح : تلقيت عنه هذا الطريق الشريف وأنا على الباخرة بين السويس وجدة سنة ١٣١٤هـ وأنا مسافر لشرق السودان ، وكان نفعنا

الله بعلومه مهاجرًا إلى المجاورة إلى حرم الله تعالى ، صحبته أسبوعًا ، وكان معى أخى فى الله الشيخ محمد الصبيحى .

وقد تلقيت هذا الطريق الشريف بسند آخر من حافظ عثمان الموصلى بمقام الشيخ إبراهيم الدسوقى الولى الشهير ببلاد مصر ، ثم توجهت إلى أسوان من بلاد مصر مهاجرًا إليها ، وصحبنى فى أسوان شهورًا . وتلقيتها قبل بلوغى من سيدى ووالدى السيد عبد الله محجوب ماضى بالسند المتصل بسيدنا ومولانا سلمان الفارسى رضى الله عنه وعنا وعن الصديق الأكبر سيدنا أبى بكر رضى الله عنه .

وصحبت كثيرًا فى سياحتى وتلقيت عنهم اللطائف والتوجهات ومراقبات الطريق بأسانيد متعددة ، وتلقيت عنهم كشف غوامض من أسرار العلم الربانى ثَبَّتَ الله به فؤادى .

وأنا الخويدم المسكين الخائف من ذنوبى ، الطامع في الله تعالى ، المتوسل إلى الله تعالى بحبيبه ومصطفاه ﷺ وآله وأصحابه وأئمة الهدى ، أن يغفر لى ذنوبى ويتوفانى مسلمًا ويلحقنى بالصالحين ، وأن يجعل لى وأهلى وأحبابى وإخوانى قسطًا وافرًا من ميراث رسول الله ﷺ ، وأعظم حظ من أسرار أئمة الهدى من السلف الصالح ، وأن يجدد بنا سنن رسول الله ﷺ ، ويعلى بنا كلمته ويجعلنا أنصارًا للحق بالحق ، ويعيد لنا مجد سلفنا الصالح تمكينًا فى الأرض بالحق وقيامًا للحق وشهادة للحق ولو على أنفسنا .. وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

(٣) وقد أجازنى بالطريقة التيجانية :

سيدى السيد مسعود الحسنى الإدريسى الفاسى عن نجله الأستاذ عن الأستاذ رضى الله عنه فى أواخر سنة ١٣١٣هـ بسواكن .

(٤) وأجازنى بطريق السيد أحمد بن إدريس :

القطب الشيخ محمد أحمد الدرناوى بالمنيا سنة ١٣١١هـ .

(٥) كما أجازنى بالطريقة الرفاعية :

سيدى غانم الخشاب سنة ١٢٩٧هـ .

(٦) وأجازنى بالطريقة الأحمدية :

سيدى الشيخ أحمد الضرير سنة ١٣١٢هـ .

(٧) وتلقيت الطريقة الخلوتية :

عن سيدى السيد يوسف الشرنوبى وسيدى الشيخ إبراهيم الخانكى وسيدى الشيخ محمد عبد الجواد .

(٨) وأجازنى بطريق الإمام الغزالى :

سيدى الغريب محمد الخوقندى نزيل مكة المشرفة سنة ١٣١٥هـ .

(٩) وتلقيت شرح بعض الأحوال المشهورة لأكابر الأئمة عن والدى رحمه الله تعالى

(١٠) وأجازنى بالطريقة الشاذلية :

سيدى الإمام العالم الفاضل : حسنين حسن الحصافى بسنده عن الإمام سيدى الشيخ عليش مفتى المالكية بالأزهر الشريف ، عن الإمام الأمير الصغير ، عن الإمام الأمير الكبير ، عن الشيخ أحمد الجوهرى الخالدى ، عن الشيخ عبد الله بن محمد القصرى الكنكى المغربى ، عن سيدى عبد الله بن إبراهيم الشريف العلمى ، عن سيدى على بن أحمد الأنجيرى ، عن سيدى ابن مهدى عيسى بن أبى محمد محمد الحسن بن عيسى المصباحى ، عن سيدى أبى عبد الله محمد الطالب ، عن سيدى أبى محمد عبد الله القزوانى ، عن سيدى أبى محمد عبد العزيز التباع ، عن سيدى أبى عبد الله محمد الجزولى صاحب دلائل الخيرات ، عن سيدى محمد أمغار ، عن سيدى أبى عثمان سعيد الهنتانى ، عن سيدى عبد الرحمن الرجراجى عن الشيخ أبى الفضل الهندى ، عن الشيخ عينوس البدوى راعى الإبل أويس زمانه ، عن شيخ الإسلام الإمام القرافى ، عن سيدى أبى عبد الله المغربى السائح دفين دمنهور البحيرة ، وهو عن قدوة الصالحين ومجمع طرق السالكين وخلاصة صفوة العصابة الهاشمية وذروة عزة شجرة ثمرة الشجرة النبوية تاج العارفين وإمام الواصلين أبى الأقطاب الذى أطلعه الله تعالى على جميع أتباعه وهم فى الأصلاب الفرد الغوث الجامع سيدى أبى الحسن الشاذلى على بن عبد الله بن عبد الجبار ابن إبراهيم الشريف الإدريسى الحسنى الفاطمى العلوى صاحب الطريق ومظهر لواء التحقيق ، ولد رضى الله عنه بالمغرب الأقصى سنة ٥٩٣ هجريه وتوفى بصحراء عيداب

جهة صعيد مصر وهو قاصد الحج فى شوال سنة ٦٥٦ هجريه ، وهو أخذ عن أبى محمد عبد الرحمن بن الحسين الشريف الحسنى العطار المدنى نسبة لمدينة الرسول ﷺ المشهور بالزيات لمسكنه بحارة الزياتين بالمدينة ، وهو عن سيدى عبد الله السامرى ، عن الأستاذ أبى بكر الشبلى دلف بن جحدد ، وهكذا روى فى سند الأشياخ وفيه مقال ، وهو عن سيد الطائفة أبى القاسم الجنيد محمد القواريرى البغدادى توفى سنة ٢٧٧ هجرية ، وهو عن خاله أبى الحسن السرى السقطى مات ودفن بالشونيزية عام ٢٥٣ هجرية ، وهو أخذ عن أبى محفوظ معروف بن فيروز الكرخى مات ببغداد سنة ٢٠٠ هجرية ، وهو عن أبى سلمان داود بن نصير الطائى مات بالكوفة سنة ١٦٦ هجرية ، وهو عن سيدى حبيب العجمى ، وهو أخذ عن السيد الجليل أبى سعيد الحسن البصرى التابعى ، وهو عن سيدنا ومولانا السبط الشهيد سيدنا الحسن عليه السلام ، وهو عن والده سيدنا ومولانا أبى تراب على بن أبى طالب عليه السلام وكرّم الله وجهه ، وهو عن سيد الكائنات سيدنا ومولانا محمد ﷺ .

كنية الإمام رضى الله عنه

إن لفظة (أبو العزائم) كنية خاصة بالإمام استنبطها مشايخه من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح وكنُّوه بها، ولم يسبق لأحد من أفراد أسرته أو أقاربه أن كنى بهذه الكنية. واحتفظ رضوان الله عليه بها لنفسه ولأولاده من صلبه من بعده، وذلك كما يتضح من خطاب الإمام بتاريخ ١١ رمضان ١٣٥١هـ لسماحة السيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وقتذاك، ونذكر من الخطاب ما يخص هذا الموضوع:

...... وإنى ألفت نظر سماحتكم أن لفظة (أبى العزائم) كنيتى خاصة، ولم يسبق لأفراد أسرتى أن يكون واحد منهم مُكنى بهذه الكنية إلا أنا. وإنى أحتفظ بها فلا أبيح لأحد أن يكنى بها إلا أولادى[1]، ولا أرضى أن يكون اسمًا من معنى الكنية لغير طريقى هذا الذى استنبطته مشايخى من كتاب الله وسنة رسوله وآثار السلف الصالح وكنونى به خصوصًا فى هذا العصر الذى كثرت فيه البدع وانتشرت فيه الفتن واندرست فيه معالم الكتاب والسنة.

وأحتفظ بكامل حقوقى أمام سماحتكم.. واللهَ أسألُ أن يزيل بكم البدع المضلة، ويحيى بكم السنن التى دُرست، ويساعدكم على نصرة الدين وإعطاء كل ذى حق حقه إنه مجيب الدعاء.

خُدَيِّم الفقراء

محمد ماضى أبو العزائم

---

(١) أولاد الإمام من صلبه.

أولاد الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه

(١) السيد أحمد محمد ماضى أبو العزائم[٢] .... الخليفة الأول للإمام

١ - السيد عز الدين رضى الله عنه .... الخليفة الثانى

٢ - السيد عصام الدين رحمة الله عليه

- السيد أحمد

- السيد محمد

٣ - السيد محمد علاء الدين .... الخليفة الثالث (القائم)

- السيد أحمد

(٢) السيد محمد الحسن محمد ماضى أبو العزائم رحمة الله عليه

١ - السيد صلاح رحمة الله عليه

٢ - السيد نصر رحمة الله عليه

- السيد أيمن

٣ - السيد محمد رحمة الله عليه

(٣) السيد عبد الله محمد ماضى أبو العزائم رحمة الله عليه

١ - السيد ممدوح رحمة الله عليه

- السيد محمد

- السيد عصام

٢ - السيد محمد الشهير بيسرى

- السيد أشرف

٣ - السيد كمال

- السيد محمد

(٤) السيد مختار محمد ماضى أبو العزائم

١ - السيد خالد

٢ - السيد طارق

---

(٢) الابن الأكبر للإمام والفرع الذى امتدت فيه خلافة الإمام .

الدعوة الإسلامية للإمام المجدد
السيد محمد ماضى أبى العزائم

- الإذن ببدء الدعوة التجديدية
- تلقى الإمام بالتلقين دعاء غوث العصر
- إسلام عدد من الرهبان على يديه
- زيارته لمسجد الشلقامى بآبا الوقف
- بداية املاء الإمام لمواجيده
- تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها
- مشروعية ذكر الله تعالى
- الأسس التى ربى السالكيَن عليها
- الدستور النظمى للطريق
- تأسيس الطريقة العزمية
- دستور فقراء آل العزائم

الإذن ببدء الدعوة التجديدية

بدأ الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم دعوته الدينية بمدينة المنيا أثناء عمله مدرسًا هناك (١٣١١ - ١٣١٣ هـ، ١٨٩٣ - ١٨٩٥ م)، ومن المنيا انتشرت دعوته إلى قراها ونجوعها والبلاد التى حولها فى وقت قصير جدًا، وقد تنزلت على قلبه رضوان الله عليه من سماء الفيض الإلهى صِيَغٌ مختلفة فى الصلاة على الحبيب المصطفى ﷺ وسيلٌ منهمرٌ من مواجيده الروحانية التى جذبت قلوب من سبقت لهم من الله الحسنى وكان عندهم القابل النورانى لتلقيها وتذوق ما فيها، فعم صيته مدن صعيد مصر. وقد كانت مواجيده فى أقصى ما يكون ذراها كمًا وكيفًا فى بداية الدعوة وكذلك خلال فترة عمله ببلاد السودان.

تلقى الإمام بالتلقين دعاء غوث العصر

كان من عادة الإمام عندما يريد النوم أن يقرأ القرآن أو يقرأه على مسامعه أحد الإخوان أو أهل بيته، وأثناء قراءته رضوان الله عليه لبعض آيات من الذكر الحكيم عقب الانتهاء من احتفال كبير بمناسبة ذكرى المولد النبوى الشريف، قهره النوم، فجاءه سيدنا رسول الله ﷺ وأقعده، وتناول كلتا يديه، ولقنه مشاهد وأذواق قرآنية وصيغًا جديدة فى الصلاة والسلام على ذاته الشريفة تبين مقامات النبوة والرسالة منذ نشأة الخليقة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ثم لقنه دعاء الغوث لهذا العصر وأمره بأن يلقنه للمسلمين وأن يجعل الأمة تردده قائلًا: **اللهم باسمك العظيم الأعظم، وبجاه المصطفى ﷺ، وبسر أسمائك الحسنى ما علمنا منها وما لم نعلم، أن تعجل بالانتقام ممن ظلم، وأن توقع الظالمين فى الظالمين والكافرين فى الكافرين، وأن تخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين يا رب العالمين.**

وبدأت الفيوضات الربانية والمنح النبوية تفاض على قلب الإمام، فبدأ يملى أورادًا وأحزابًا واستغاثات وتفاسير قرآنية ومشاهد فى أحاديث نبوية غير مسبوقة بمثل ما كتب فيها أو شاهد عنها أو ذاق منها، حتى أن الإمام قال حامدًا وشاكرًا فضل الله سبحانه وتعالى عليه: « ومنها أن محبة رسول الله ﷺ بلغت منى مبلغًا حتى كاشفنى الله تعالى ببعض معانيه ﷺ الباطنة والظاهرة، وألهمنى سبحانه جملًا فى الصلاة عليه ﷺ ».

إسلام عدد من الرهبان على يديه :

وكان الإمام مسافرًا لنشر الدعوة مع بعض أتباعه بالقرب من سمالوط وأدركهم وقت صلاة العشاء بالقرب من الدير الشهير هناك ، فطلب من أحد مريديه أن يؤذن ، وطلب من الباقين تجهيز المكان لأداء الصلاة ، وكان بجوار هذا المكان بعض الرهبان ، وأثناء الصلاة أحس الرهبان بدافع عجيب يدفعهم لمشاهدة هذا الشيخ المسلم وأتباعه ، ولما انتهت الصلاة بدأ الإمام فى شرح بعض الآيات القرآنية التى تتحدث عن سيدنا عيسى والسيدة مريم عليهما السلام فما كان منهم إلا أن أخذوا يقتربون رويدًا رويدًا حتى انضموا إلى الحلقة المحيطة بالإمام ، وظل هذا المجلس لساعات وهم يستمعون إليه ، بعدها طلبوا استضافته فى الدير ، وقضى معهم الليل بالدير حتى مطلع الفجر ، وقد انتهت تلك الليلة بإسلامهم جميعًا وتغيير أسمائهم إلى أسماء إسلامية لهم . ولما خرج من عندهم أخبر عما حدث فقال رضى الله عنه :

حبيبى قد شرح صدرى ... وآنسنى إلى الفجر
واطلعنى على معنى ... من الإحسان والسر
وناولنى كئوس الراح ... صرفًا من يد البدر
واشهدنى تجليه ... واوصلنى إلى الدير
ورقانى إلى اعلى ... مقام القرب والسر
سمعت حنين رهبان ... لدى نظرى إلى الزهر
وعند شهودهم حسنى ... تمنوا يقتفوا اثرى
فكنت إمامهم لما ... دعانى ليلة القدر
ادرت الراح من يدى ... ودار الشرب من بحرى
ونادانى الإمام هيا ... اتاك الوصل بالبشر
فقم للدين يا ماضى ... فإنى قد صدر امرى
تملى بى وشاهدنى ... ومل عندى عن الغير
وانبئ من يُرد قربى ... بحسنى حيث لا يدرى

زيارته لمسجد الشلقامى بآبا الوقف :

إن الإمام قد عرف مقامه فعرف ربه ، وما مقام الإمام إلا مقام الأدب لأنه من مكارم

الأخلاق . ولا يتسنى لأحد أن يرفع راية الدعوة إلا إذا أُذن له بذلك . وعندما أُمِرَ إمامنا أن يقوم داعيًا إلى الله تعالى : (فقم للدين يا ماضى فإنى قد صدر أمرى) ، فقد رأى أن أقوى روح وأجلى رجل قبله دعا بهذه الدعوة هو السيد إبراهيم بن عمران الشلقامى رضى الله عنه ، لذلك بدأ من عنده ، وليبين أيضًا مقامه .

توجه الإمام من سمالوط ودخل بلدة آبا الوقف القرية من مغاغة بمحافظة المنيا ليزور الشلقامى رضى الله عنه ، ولما سمع خدم المسجد بهذه الزيارة أسرعوا بغلق أبواب المسجد واختفوا ، لكن الولى الحى عند ربه استقبل الإمام الذى أتى لزيارته وفُتِحَ باب المسجد بقدرة الله تعالى ، وأنشد الإمام واصفًا هذا الاستقبال فى حينه ، وخدم المسجد واقفون ينظرون مذهولين إلى الباب الذى أوصدوه وقد فُتِح :

لحماك بحر النور وافى ناشرا ... للواء سنة احمد ومبشرا
فلقيته يا ايها البطل الهمام بهمة ... تدنو اليه مهللًا ومكبرا
ولبستَ حلة وُده متسربلًا ... بجمال حِبٍ ليلةُ قد اقمرا
هرولتَ لاستقبال وفدٍ مقبل ... يدعو بروض بالحقائق ازهرا
ورفعتَ إبراهيم رايتنا على ... اعلى مقامك هاديًا مستبشرا
ورايتُ منك ايا ابن عمران الوفا ... والصدق للداعى وها هو اخبرا
ها قد شهدتُ انك القطبَ الذى ... ذاق العلوم وللطريقة اظهرا
احييتَ شلقامى الطريقة بعد ان ... دُرِسَتْ وها هو بدرها قد نوّرا
لك ايها القطب المودة دائمًا ... ولك الصفا فى مهجتى قد اثمرا
ولقد علمتُ مقامك السامى الذى ... مَنْ أمّهُ لاشك من ان يُجبرا
ورايتُ رتبتَكَ العلية بعد ان ... عاينتُ كل الأولياء بلا مِرا
وعلمتُ صدقك للطريق واهلها ... فرغبتُ ان اكُ فى حماك مبشرا
فانظر لإخوان بحبك اشرقت ... انوارهم وتناولوا من فضل طه ابحرا
وتولهم بصداقةٍ عاينتُها ... عند الزيارة بل لهم كن ناصرا
ومحمدُ ماضى بحبك مخلص ... وبقلبه لك رتبة لن تُنكرا

كرامة أظهرها الله فى ذلك المشهد وفى تلك القصيدة ، وهى معلقة حتى الآن فى إطار على الحائط بداخل الغرفة التى يوجد فيها مقام سيدى إبراهيم بن عمران الشلقامى .

بداية إملاء الإمام لمواجيده

وكان ابتداء إلقاء الإمام لمواجيده قصة : بعد أن تلقى دعاء الغوث ، اعتكف الإمام بالخلوة فى مسجد أوضا باشا بالمنيا ومعه إخوان له من محبيه وعشاق علمه ، وقد اعتمد فى ذكره بالخلوة على أسماء الله الحسنى وحزب سيدى إبراهيم الدرديرى ، وأراد أن يقيم حلقة ذكر بالمسجد ، فأوفد أحد مريديه إلى نائب إحدى الطرق الصوفية ليرسل المنشد ، فرفضوا إرساله إلا إذا حضر الإمام بنفسه وبايع شيخهم ، ولما علم الإمام بذلك أتم الحضرة كما هو معتاد ، وقبيل دخول وقت صلاة الصبح ، اعتلى الإمام المئذنة وأنشد هذه القصيدة ، رافعًا أمره لله ومعلنًا توكله واعتماده عليه لا على أحد من البشر ، ثم أخذ يناجيه حتى دخل الوقت فأذن لصلاة الفجر .

للطيف الخبير ارفع امرى ... وبه فى الوجود يرفع قدرى
وعليه توكلى واعتمادى ... فى حياتى وبعد سكناى قبرى
كيف يرجو عبد من العبد عونا ... والكريم الحليم عونى وذخرى
حاش قلبى يميل يومًا لغير ... او يرى الشك بالرضا وهو يدرى
ويقينى بالله اضحى قويًا ... بفؤادى وظاهرى وبسرى
بك يا سيدى بطه التهامى ... وبكل الكرام من آل بدر
جئتُ مستشفعًا فكن لى مجيبًا ... يا إلهى واشرح بحبك صدرى
واجرنى من عظم ذنبى وسامح ... فالعُبَيْدُ الذليل امسى بضر
يا الهى من الذنوب اجرنى ... ومن النفس والهوى قلّ صبرى
فازل بالقرب منك همومى ... واشتغالى يا رب عنك بغير
يا مجيب المضطر سرى وجهرى ... انت ادرى به وها هو عذرى
ليس لى مطلب وهل لى مراد ... عند ربى وهو المدبر امرى ؟
فمرادى نسيته وهو اولى ... بى منى فاقبل بحقك عذرى

فكانت هذه أول قصيدة تغنى بها الإمام وكانت من على مئذنة المسجد .

ومما قاله أيضًا :

من خمر نور جمالك ... ومن رحيق وصالك

شربت صرفًا فهِمْتُ   وهام اهل كمالك
واصبح القلب نورًا   والقلب قد كان حالك
ومبشرى قد قال هيا   قم فالحمى لك سالك
فسرتُ وهو إمامى   حتى وصلتُ هنالك
وقلتُ يا ليت قومى   قد يعلمون بذلك

وبدأ السيل المنهمر من المواجيد ، وكان أكثر ما يكون فى بداية الدعوة وأثناء تواجده فى السودان .

تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها

أطلق الإمام على جماعته اسم (جماعة آل العزائم) وأعلن تأسيسها عام ١٣١١ هـ - ١٨٩٣ م.

وانتشرت دعوة الإمام فى جميع أنحاء بلاد المنيا مثل: إتليدم، والمطاهرة، وطهنشا، والدير، وبنى أحمد، وريده، والفجاعى، والخيارى، وأبو قرقاص، وسمالوط، وشوشة، وآبا الوقف، وبنى عمران، وتانوف، وبان العلم، وبنى مزار، وغيرها...

واتخذ الإمام مسجدًا كان يمضى فيه معظم أوقاته لمدارسة العلم والمذاكرة والذكر والعبادة وتطهير القلب وتزكية النفوس ومكارم الأخلاق وخدمة المجتمع والحب للناس كافة، وفى أكثر الليالى كان يبيت فى هذا المسجد ولذا سمى بمسجد الشيخ ماضى أو مسجد أبو العزائم «من باب تسمية الشئ باسم لازمه» وقد تجلت روحانية الإمام فنطق بلسان العبارة المصون بحصون الوراثة المحمدية فقال:

بسم الله اكبر ... بسم الله اكبر
روض انسى صار ازهر ... وصفا ليلى واقمر
وتجلت شمس قربِ ... وشهودى كل مصدر
ودنا منى حبيبى ... صفوة الكنز المجوهر
وسقانى الراح صرفا ... بعد ان حيا وكبّر
فبذلت الروح لما ... ان اتى الداعى وبشر
وقليل بذل روحى ... للمليك وفيه اعذر
يا مدير الراح ناول ... بالبحار عساى اسكر
فغرامى فى التهامى ... قد علانى وهو مضمر
ضاع صبرى وحلى لى ... من شديد الشوق اقبر
يا غياث الكون رفقًا ... بفتى فى الحى يُذكر
بخضوع جاء يسعى ... للحمى فعساه يُنصر
ومناه منك وصل ... ورسول الله اخبر
يا ضياء الكنز يا من ... فى ظلام الليل اقمر
قد وفانى السعد لما ... صار عشقى فيك يُشهر

وكثيرًا ما كان يخصص يومى الخميس والجمعة يتوجه فيهما ومعه عدد من تلاميذه إلى إحدى القرى أو المدن المجاورة ومعه زاده، ويتوجه إلى بيت من بيوت الله يعلم الناس أمر دينهم ويشرح ما تيسر من القرآن وفقه السنة الشريفة، ويبيت بالمسجد ويؤذن للفجر ويصلى بالناس ويخطب الجمعة ويصليها ويعود إلى منزله.

وقد جعل الإمام للمريد أورادًا يومية فى كتاب نيل الخيرات بملازمة الصلوات:

١ - قراءة جزء من القرآن على الأقل كل يوم، ويحسن أن يكون بعد صلاة العصر، ثم بعد ذلك يقول المريد: يا حى يا قيوم يا باسط يا ودود يا تواب يا كريم يا الله ١٠٠ مرة.

٢ - ختم لكل صلاة مفروضة.

٣ - قراءة الورد القولى الآتى مائة مرة بالنهار ومائة مرة بالليل، وكل النهار أو الليل وقت له، ويقرأ على وضوء أو على غير وضوء:

١ - أستغفر الله إن الله غفور رحيم.

٢ - لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير.

٣ - اللهم صلِّ على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم، صلاة تُحَلُّ بها العقد، وتفرج بها الكرب، وتزيل بها الضرر، وتهون بها الأمور الصعاب، وترضيك وترضيه، وترضى بها عنا يا رب العالمين.

ولما كان الذكر على ثلاثة أحوال: ذكر اللسان، وذكر القلب، وذكر القلب واللسان، فإن الإمام سمى هذا الورد بالورد القولى، أى ذكر باللسان، حتى لا يُحرمَ المريد - وهو المبتدأ فى الطريق - من أن ينال أجره من قوله هذا إن لم يحضر قلبه، ومع تكرار هذا القول فقد يرق القلب ويحضر فيكون هذا الورد باللسان وحضور القلب معًا فينال المريد البغية المنشودة من هذا القول.

٤ - قراءة الصلوات ليلة الاثنين والخميس من كل أسبوع فى مجلس جماعى متبوعة بالذكر ودرس العلم إن أمكن، إلى أن يتمكن المريد فيقرأها فى اليوم مرتين: مرة بعد صلاة الفجر ومرة بعد صلاة المغرب إن لم يكن هناك درس علم، وإلا فبعده، ويحسن أن يكون ذلك فى جماعة.

٥ - عند اصفرار الشمس يتوضأ المريد ويدعو بهذا الدعاء: اللهم أمسى ظلمى مستجيرًا بعفوك، وأمست ذنوبى مستجيرة بمغفرتك، وأمسى خوفى مستجيرًا بأمانك، وأمسى ذلى مستجيرًا بعزك، وأمسى فقرى مستجيرًا بغناك، وأمسى وجهى البالى

الفانى مستجيرًا بوجهك الدائم الباقى ، اللهم ألبسنى عافيتك ، وأحللنى أمانك ، وقنى شر خلقك من الجن والإنس يا الله يا أرحم الراحمين .

والمقصود بالحضرة عند آل العزائم كما يلى :

١ - **الصلاة على رسول الله :** ويبدأ مجلس الصلوات بقراءة الأدعية القرآنية ، ثم فتوحات الصلاة على سيدنا رسول الله وهى أربعة ، ثم قراءة حزب الحصن الحصين ، وبعدها استغاثة التوجه الروحانى .

٢ - **حلقة الذكر :** ويبدأ الذكر بقول الله الله بالجهر ، وكان الإمام شخصيًا يفتتح الذكر الجهرى بقول الله سبحانه : ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾[١] . والذكر يكون فى حلقة وهيئته مثل ركوع غير كامل والرفع منه ، وتكرار ذلك بدون ميل يمنة ويسرة مع الاستمرار فى قول الله الله ، فاللسان ينطق بها والقلب يستحضر أسماء الله الحسنى اسمًا بعد اسم . ويتوالى هذا الذكر إلى أن يفتتح الإمام ذكر السر تاليا قول الله عز وجل : ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[٢] ، أو ﴿واذكر ربك فى نفسك﴾[٣] . وبعد ابتداء هذا الذكر فى السر ، يبدأ الإمام فى إنشاد قصيدة ، وكان الإمام يلقى البيت الأول من القصيدة فيكتبه الكتبة[٤] فورًا فيتغنى به المنشدون[٥] فور سماعه ، ثم يملى الإمام البيت الثانى وهكذا إلى أن ينتهى إملاء القصيدة ، وهذه القصائد تسمى قصائد الذكر . وبعد ذلك يذكر الإمام عدة مرات بقوله :

- الله الله ربى .. الله الله حسبى .
- الله الله وليى . الله الله وكيلى .
- الله كريم تواب .. الله حليم وهاب .

ثم يختم الإمام الذكر بقوله رضى الله عنه (لا إله إلا الله) بالمد الطويل ثلاث مرات ثم قوله (سيدنا محمد رسول الله ﷺ) مرة واحدة .

٣ - **قراءة القرآن :** وبعد اختتام الذكر ، يطلب الإمام من الإخوان الجلوس فى هدوء

---

(١) سورة الأنعام آية ٩١ .

(٢) سورة الرعد آية ٢٨ .

(٣) سورة الأعراف آية ٢٠٥ .

(٤) الشيخ مفتاح أو الشيخ نبيه سلامة أو الشيخ يوسف عبد المعبود .

(٥) الشيخ أحمد رمضان والشيخ أحمد عبده والشيخ على شوغى والشيخ طنطاوى .

وخشوع ، ثم يقرأ أحد الحاضرين ما تيسر من آيات الذكر الحكيم .

٤ - **درس العلم :** ثم يلقى الإمام درسًا فى شرح الآية التى تليت من قبل[٦] ، وبذلك تكون الحضرة قد أقيمت .

مشروعية الذكر فى الكتاب :

الذكر هو من أفضل العبادات ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا ﴾[٧] ، وقال تعالى : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾[٨]، وقال جل ثناؤه : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[٩] . ومن خصائص الذكر أنه غير مؤقت بل هو مطلوب فى عموم الأوقات وجميع الاحوال : إما على جهة الفريضة ، وإما على جهة النفلية .. قال الله تعالى : ﴿ الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ﴾[١٠] .

أما حلقة الذكر فقد جاءت فى كتاب الله تعالى والسنة المطهرة أما الكتاب العزيز ففى قوله تعالى : ﴿ والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات ﴾[١١] بطريق الجمع فى كل الآى كما يؤخذ من بيان حضرة من أسند الله تعالى إلى حضرته البيان والتبيين ، فمن شاهد آثار صفات الحق سبحانه وتعالى ذكره سبحانه وورد اسمه تعالى على لسانه وقلبه كما وصفه تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم ﴾[١٢] .

إن الذكر الذى يبدو عادة سهلة هينة ، يفضل كل أعمال الإسلام الأخرى ، لأن فى آيات القرآن ما يدل على أكثر من ذلك .. يقول الحق تعالى : ﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا ﴾[١٣] .

---

(٦) الدعاة من أبناء الطريقة يقومون بإلقاء دروس العلم بحسب ما تيسر .

(٧) سورة الاحزاب آية ٤١ .

(٨) سورة البقرة آية ١٥٢ .

(٩) سورة العنكبوت آية ٤٥ .

(١٠) سورة آل عمران آية ١٩١ .

(١١) سورة الأحزاب آية ٣٥ .

(١٢) سورة الأنفال آية ٢ - ٤ .

(١٣) سورة الفرقان آية ٦٢ .

فقوله تعالى : ﴿جعل﴾ يتضمن حكمة إيجاد الليل والنهار ، وأن تخالفهما أى تعاقبهما لإحداث الذكر أو الشكر أو كليهما .

والآية إما أن تعنى الحصر ، بمعنى أن تخالف الليل والنهار إنما جعله الله تعالى للذكر والشكر وليس لشئ آخر .

وإما أن تعنى أنه تعالى جعل فى هذا التخالف بين الليل والنهار الطريق إليه سبحانه بالذكر والفكر .

إن ما تشير به الآيات من أن الذكر هو أفضل العبادات لا عجب فيه ، فإن من الآيات ما يشير إلى أكثر من ذلك بكثير ، إن الذكر هو مقصود العبادة ، مثل قوله تعالى : ﴿وأقم الصلاة لذكرى﴾(١٤).

ويقول ابن القيم الجوزية ، بخصوص « اللام » فى قوله تعالى : ﴿لذكرى﴾ الغالب أنها لام التعليل ، أى : أقم الصلاة لتذكرنى بها .

إن الذكر أيضًا أرفع هذه الأعمال درجة عند رب العزة تبارك وتعالى ، هذا إما أن يعنى عظمة العمل وعلو مقامه ، وإما أن يعنى عظمة الثواب .

وهذا المعنى يبعث فى النفس التساؤل عن حقيقة معنى « الذكر » واستعمالات هذه الكلمة حتى أنه تعالى سمى كلامه الأزلى - القرآن الكريم - الذكر .. قال تعالى : ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾(١٥) .

حجية الذكر فى السنة :

يفهم من الأحاديث الآتية أن الذكر ليس فقط عنصرًا أو جانبًا من المأمورات ، ولا هو فقط قاسم مشترك فيها ، وإنما قد يكون أفضلها .

ومن الأحاديث التى ذكرت ذلك صراحة :

١ - عن أبى سعيد الخدرى قال : سُئل رسول الله ﷺ عن العباد فقال : (أفضل العباد درجة عند الله يوم القيامة الذاكرون الله كثيرًا ، قيل : ومِنَ الغازى فى سبيل الله ؟

---

(١٤) سورة طه آية ١٤ .

(١٥) سورة الحجر آية ٩ .

قال : لو ضرب بسيفه فى الكفار والمشركين حتى ينكسر ويختضب دمًا لكان الذاكرون أفضل منه درجة)[١٦] .

٢ - سُئل النبى ﷺ أى المجاهدين أعظم أجرًا وأى الصائمين أعظم أجرًا ؟ وكذلك عن الصلاة والزكاة والحج والصدقة ، فقال ﷺ : (أكثرهم لله ذكرًا ، فقال الصديق أبو بكر رضى الله عنه : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال ﷺ : أجل ، وفى رواية أخرى : أجل ألم تسمع قوله تعالى : ﴿ ولذكر الله أكبر ﴾[١٧]) .

٣ - عن أبى هريرة رضى الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : (ذهب أهل الدثور بالدرجات العلا والنعيم المقيم يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون ، فقال : ألا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .. قال : تسبحون وتحمدون وتكبرون ، فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله فقالوا : سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله ﷺ : ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء)[١٨] .

وهذا الحديث تظهر منه عدة أمور :

الأول : قيام الذكر عوضًا عن الحج والعمرة والصدقة والجهاد ، ويقول ابن القيم فى ذلك ، تعليقًا على الحديث : فجعل الذكر عوضًا لهم عما فاتهم من الحج والعمرة والجهاد وأخبر أنهم يسبقونهم بهذا الذكر .. هذا قول ابن القيم « الوابل الصيب ، المرجع ٤١ ص ٦٩» .

الثانى : إن ذكر الله بذاته يسبب سبق الذاكرين على غير الذاكرين ، ولا يكون أحدًا أبدًا أفضل من الذاكرين ، إلا من فعل فعلهم .

وهذا تأكيد للأفضلية والأسبقية المطلقة ، كما يتبين من نهاية الحديث ، حيث لم يخبرهم صلوات الله وسلامه عليه بأمر جديد يعوض لهم قيام الأغنياء بالذكر لما سمعوا

(١٦) رواه مسلم والترمذى وأحمد والزبيدى فى إتحاف السادة المتقين والمنذرى فى الترغيب والترهيب والبغوى فى شرح السنة والسيوطى فى الدر المنثور وأبو يعلى وابن شاهين والتبريزى فى مشكاة المصابيح والسيوطى فى حاوى الفتاوى وفى الأذكار النووية .

(١٧) رواه أحمد والهيثمى فى مجمع الزوائد والمنذرى فى الترغيب والترهيب وابن كثير فى تفسيره وابن مبارك فى الزهد والسيوطى فى الدر المنثور والمتقى الهندى فى كنز العمال والطبرانى .

(١٨) رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن ماجة والدارمى وأحمد .

بعظيم قدر الذكر والذاكرين.

٤ - عن أبى الدرداء رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا: بلى يا رسول الله ﷺ، قال: ذكر الله تعالى) رواه الترمذى وقال حسن صحيح، والحاكم فى المستدرك وقال إسناده صحيح وصححه السيوطى، وصحح الذهبى إسناده فى تلخيص المستدرك، كما أخرجه الإمام أحمد فى المسند ومالك فى الموطأ وابن ماجة والطبرانى فى الكبير والبيهقى فى شعب الإيمان، وأخرجه الإمام أحمد من حديث معاذ أيضًا، وقال المنذرى إسناده جيد، وإسناده حسن عند أبى الدرداء، وكذلك قال الهيثمى، واختاره ابن تيمية فى الكلم الطيب، وصححه الشوكانى فى تحفة الذاكرين وعلق عليه باستشكال بعض أهل العلم فى تفضيل الذكر على الجهاد.

من فوائد الذكر:

إن الذكر وإن تحرك به اللسان الذى هو أداة القول، فإن هذا عند أهل المعرفة يشمل الجوارح الظاهرة والحقائق الباطنة، لأن العبد الذاكر إذا استغرق فى الاسم الإلهى ليكون فى حال ذكره مذكورًا من الغنى رب العالمين، والناس بعيون الحس يرون أهل الذكر فى ذكرهم فى صور مادية تهتز وتتحرك، ولكن الحق لا يُشهدهم الأنوار التى يُكرم بها الذاكرين، كما لا يدخلهم الحق دائرة الذكر الأكبر التى يتجلى سبحانه فيها بصلاته على الذاكرين، وصلاة الملائكة، وإخراج الذاكرين بفضله من الظلمات إلى النور.

ويكفى الذاكر أن يكون على بينة وأن يعقد القلب على اليقين الحقى بأن الذكر فى الجماعة فيه رفعة للدرجات وإعلاء للمنزلة وسمو للمقام، فيه تصفية وتنقية وفيه مواجهة حقية للحقائق الباطنة التى لا ترى بعين الحس ولا يسمع ما فيها بأذن الحس، فكذلك ما يتراءى لها من مواجهات حقية، لأنها وهى فى عالم الباطن تُوَاجَهُ بأنوار الباطن عز وجل الذى قال ليجلى لنا الحقيقة: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[١٩].

إن مطالب الأبدان مطالب يومية مستمرة ولابد فيها من حركة الأبدان ﴿فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور﴾[٢٠]، فالإنسان مطالب - لكى يتم كل ذلك -

---

(١٩) سورة الرعد آية ٢٨.

(٢٠) سورة الملك آية ١٥.

بطهارة القلب لمراقبة الرب بعدد الأنفاس، ولا يطهر القلب سوى الذكر الذى قال فيه ﷺ: (إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد وجلاؤها ذكر الله تعالى)[٢١].

وهناك ذكر خاص يردده صاحبه فى الخلوة، وهناك ذكر مع الجماعة، والاثنان مأمور بهما المسلم بنص الحديث القدسى: (فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير من ملئه ..)[٢٢]، وإن وسعة القلوب تقتضى التفاوت من إنسان لآخر، فقد نرزق فى حلقة الذكر بصاحب قلب منكسر يتجلى له ربه فنكرم من أجله - مثل ما يُجلّى له من مشاهد أثناء صلاة الجماعة فتكرم الجماعة به - فإنه من القوم الذين لا يشقى جليسهم.

وإذا قال اللسان الله وكرر الاسم، امتلأ مكان الذكر بالملائكة، وحضور الملائكة فيه مواجهة للملكوت الباطن فى الذاكر، لأن الملكوت يواجه الملكوت، فالعقل والفكر والنفس والقلب الروحانى والروح ... كلها حقائق روحانية تواجهها الملائكة، فتكرم كل تلك الحقائق بالنور الملكوتى، والذاكر لا يشعر شعورًا ماديًا بما حدث له، فحال الذكر يواجهه الملك، وقد يصافحه وقد يضمه إليه .. كما يحدث فى ليلة القدر.

ولله ملائكة يمرون على الذاكرين بأشربة مختلفة تُسقَى بقدْر وقدَر، فقد يكون الشراب من التسنيم، أو من السلسبيل، أو من الزنجبيل، أو من الرحيق المختوم، وقد يكون من دائرة ﴿وسقاهم ربهم شرابًا طهورًا﴾[٢٣] وقد يكون فى دائرة ﴿عينًا يشرب بها عباد الله﴾[٢٤]، والشراب على قدر سعة القلوب.

والذاكر يجب أن يكون على يقين أنه إذا ذكر الاسم فى الذكر تجلى له المذكور، وفى تجليه رفعة ونعمة، فيُحدث التجلى أثره لأن عين الحس لا ترى المتجلى، ولكنها ترى أثر تجليه فى طمأنينة القلب وانشراح الصدر تغييرًا فى الداخل، وبمجرد أن تكرم تلك الحقائق - وهذا يحدث بالنور الملكوتى - فإن الأنوار تشرق على نوافذ الهيكل لتنير نوافذ العين والأذن واللسان، ومتى استنارت فأنارت فإن الشيطان لا يدخل من هذه النوافذ.

---

(٢١) الحكيم الترمذى وابن عدى والطبرانى فى الأصغر والسيوطى فى الجامع الصغير بلفظ وجلاؤها الاستغفار.

(٢٢) البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجة والإمام أحمد فى المسند والمنذرى فى الترغيب والترهيب.

(٢٣) سورة الإنسان آية ٢١.

(٢٤) سورة الإنسان آية ٦.

الأسس التى ربى عليها الإمام السالكين فى طريق آل العزائم

أولًا : المحبة

ذكر الإمام أن الأساس الأول فى طريق آل العزائم هو المحبة ، ولا ينال الإنسان المحبة إلا بعد العلم بثلاثة أصول[1] :

١ - العلم بصفات المحبوب .
٢ - العلم بأخلاقه .
٣ - العلم بما يحبه .

١ - أما العلم بصفات المحبوب فلابد أن ينال من عارف ربانى أمين على سر الربوبية ، عالم بجواهر النفوس وأمراضها وقواها القابلة .

٢ - وأما العلم بأخلاق المحبوب فينال بتحصيل سير الرسل عليهم الصلاة والسلام مع أممهم ، ومعرفة حكمة العالم علوا وسفلًا وجعله إمدادًا للإنسان بعد إيجاده ، وسر صوغ الإنسان بيديه ، وجعل نشأته الأولى من طين ، وحكمة نفخ الروح فيه ، ومعنى سجود الملائكة له وإباء إبليس ، ورجوعه إلى الجنة ، ومعصيته فيها ، ورده منها ، حتى إذا تحقق من كل تلك المعانى أمكنه أن يصير مع الله تعالى بالمحبة ، فإن من جهل أخلاق محبوبه انقلبت المحبة بالبغضاء . وهذا العلم لا يحصل عليه المسلم إلا بصحبة الربانيين أهل الخشية من الله تعالى والآداب معه ، قال ﷺ : (العلم بالتعلم)[2].

٣ - وأما العلم بما يحبه المحبوب فتحصيله يكون بتلقى معرفة النفس ، وبمعرفتها يعرف المسلم ربه ويعرف مراده جل جلاله فى إيجاد الإنسان وهو أن يكون عبدًا لمولاه سبحانه متجملًا له سبحانه بالجمال الذى يحبه هو من عبيده ، ولديها يكون ابن وقته ، فإذا اقتضى الوقت محبوبًا له ومحبوبًا لله قهر نفسه على أن تفعل ما يحبه الله مهما ناله من الضرر والبلاء فى سبيل ذلك ، وليس من تقرب إلى الله بأكمل القربات بمحب لله ، فإن الطاعة يعلمها البار والعاصى ، وإنما دليل محبة الله البعد عما نهى الله عنه ، وهذا أمر دقيق جدًا ، فكم من عابد يوالى عدو الله تعالى أو

---

(١) مجلة المدينة المنورة : السنة ١١ العدد ١٢ ص ٩ (١١ رمضان ١٣٥٧ الموافق ٦ نوفمبر ١٩٣٨) .

(٢) الحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح فى ثواب العمل الصالح والطبرانى فى الكبير وابن أبى الدنيا .

يفعل ما يكرهه الله مما نهاه عنه ويحتقر هذا العمل.

هذا الأساس وهو المحبة، هو الأصل الذى أسس عليه الدين، ولولاه ما صبر رسولٌ فى الدعوة إلى الله، ولا بذل الأنصار والمهاجرون نفوسهم وأموالهم وأوطانهم فى سبيل محبةٍ، ولا صبر عبدٌ على صلاةٍ ولا صيام ولا حج ولا بر ولا صدقة ولا جهاد. ومن لم يذق صافى شراب المحبة وملأ بطاح الأرض وصفاح السماء بالعبادة فإنما هو أجير سوء. وما أثنى الله سبحانه فى كتاب على أصحاب رسول الله ﷺ إلا بالأعمال التى أنتجتها المحبة، فلم يقل يصلون ولا يصومون ولا يحجون فى مقام الثناء، ولكنه قال: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[3]، وقال: ﴿يحبون من هاجر إليهم﴾[4]، وقال: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلًا﴾[5]. ولقد وردت أحاديث كثيرة فى الثناء على رجال من الصحابة بما قاموا به من الأحوال الدالة على كمال المحبة.

فكل رجل من رجال آل العزائم ينبغى أولًا أن يُحَصِّلَ المحبة. ومتى عقد القلب على قدر حبه من المحبة جذبته العناية إلى الله تعالى فأحبه سبحانه. والمحب كيف يخالف محبوبه؟ فمن فعل مكروهًا أو ترك مندوبًا من أحكام الشريعة وادعى أنه سالك فى طريق آل العزائم فدعواه تحتاج إلى حجة. وكثير من الإخوان يدَّعون المحبة وتلوح عليهم أشرف علاماتها حتى يكونوا كالراح والريحان لغيرهم.. تعتريهم فترة فلا يزورون المرشد، ويزيدون على ذلك الاعتذار، والعاشق لا يعتذر.

ثانيًا: المجــاهــــدات

يقول الإمام رضوان الله عليه[6]:

والأساس الثانى هو المجاهدات. والجهاد بذل ما فى الوسع لدفع العدو أو قهره حتى يخضع، وهو الأساس الذى تقوم به الحجة على قوة الإيمان، والركن الذى تتضح به المحجة للسير إلى الفوز بالرضوان، وبدونه كل أعمال المؤمن دعوى تحتاج إلى دليل. والمجاهد يجاهد المملكة الفردية وهى مجاهدة السالك نفسه فى ذات الله تعالى، وهذا هو الجهاد الأكبر الذى لا يصبر عليه إلا آل العزائم مِنْ كُمَّل الصديقين.

(٣) سورة الحشر آية ٩.

(٤) سورة الحشر آية ٩.

(٥) سورة الأحزاب آية ٢٣.

(٦) مجلة المدينة المنورة: السنه ١١ العدد ١٢ ص ٩ (١١ رمضان ١٣٥٧ الموافق ٦ نوفمبر ١٩٣٨).

والسالك بين جيشين عظيمين : جيش الحق وجيش الباطل ، والجيشان فى ميدان المنافسة للظفر بالملك ، وجيش الباطل فى الإنسان أقوى وأكثر من جيش الحق ، فإن ما يجاهد عليه جيش الباطل ليناله محسوس ملائم للنفس وما يجاهد عليه جيش الحق غيبٌ يُنالُ غدًا ، وما كان محسوسًا كان أقوى فى الإغراء والرغبة فيه . لذلك يجب على السالك فى طريق آل العزائم ألا يتهاون فى أمر جهاد هذا العدو صابرًا مصابرًا مرابطًا ، وأن تكون يقظته أتم عند قهر هذا العدو وعند الهدنة ، فإن للشيطان والحظ والهوى دسائس خفية قد تظهر فى فضائل ومحاسن .

وقد يلتبس على السالك بحسب دسائس العدو العادة بالعبادة ، والطمع بالمحبة ، والرياسة بظن تجديد السنة ، فيكون هاويًا فى مهاوى الضلال معتقدًا أنه من عمال الله ، لذلك لزم أن يهتم فى حال المجاهدة بتخليص النوايا والقصود ، فقد تكون المجاهدة بابًا من أبواب الشيطان لجهل السالك بدسائس النفوس - كما يحصل لمن يحب الخلوة من الغرور - ووسوسة العدو وما يتولد فى قلبه من حب الشهرة والسؤدد بذلك ، أو نيل الكشف والمشاهدة وعلم الضمائر واستخدام الأرواح لجلب الخير ودفع الضرر ، أو الزهو بالنفس وكرامتها من التدنس بالاجتماع على العامة ، وتلك أمراض خفية . أما العلل الباعثة التى يقصدها أهل الغرور ، فصاحبها ليس بسالك فى طريقنا هذا .

وأنواع المجاهدة ثلاثة :

(١) مجاهدة الحس والنفس والعقل والجسم فى التسليم لرسول الله ﷺ تسليمًا يكون السالك به أشبه الناس برسول الله ﷺ فى جميع شئونه .

(٢) ثم مراقبة السالك نفسه على نيل الكمالات التى لا تلائمها من مراقبة الله فى كل أحوالها حتى يستحى أن يعصى الله فى خلوة .

(٣) ثم الرضا عن الله بالقليل من الضروريات ، وهذا النوع يجب أن يكون المجاهد فيه محافظًا على أيدى الأئمة الهادين المرشدين فلا يستظهر عليهم ، حفظًا على الوسط . وكفى المجاهد شرفًا أن يكون منهم أو معهم ، لأن هذا النوع مزالق أقدام السالكين ، فقد يتجاوز آدابهم فلا يستطيع فينقلب والعياذ بالله ، يقول الله تعالى : ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾[٧] .

---

(٧) سورة البقرة آية ١٤٣ .

ثالثًا : علوم الرسالة الخمسة

وهو أساس شامل لعلوم كثيرة . ولما كان من وظيفة الرسالة أن يقوم المصطفى ﷺ بتعليم خمسة أسس لأمته عناها ربنا تعالى بقوله : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[٨] ، فهذا يعنى أن هناك علومًا خمسة هى :

١ - علم الآيات .
٢ - علم تزكية النفوس .
٣ - علم الكتاب .
٤ - علم الحكمة .
٥ - العلم اللدنى .

ولما كان العلماء ورثة الأنبياء كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ ، وهؤلاء العلماء كثيرون فى كل عصر ، وكلّ يرث على قدر ما عونه من الأنبياء والرسل ، فإن الوارث الفرد الكامل - شأنه شأن أئمة العصور التى سبقته - يجب أن تكون وراثته من المصطفى ﷺ بالذات ، لأنه الرسول الخاتم للأمة ، وهى الوراثة الكاملة لهذه العلوم الخمسة . فإن تحققت فيه بالكامل ، فهو الفرد الوارث الجامع لجميع أنواع الورثة ، وهو إمام العصر ، وهو قرة عين المؤمنين وكعبة أرواح السالكين وطريق رب العالمين ، رؤيته عين المزيد وعين اليقين وحقه . إن النبوة مقام ، والرسالة وظيفة ، وإن الوراثة هى حمل أمانة الوظيفة .

وقد طلب الإمام من مريديه والمنتسبين لطريق آل العزائم ضرورة تعلم هذه العلوم . وهنا يتحتم علينا أن نقف قليلًا لنوجز وبقدر الإمكان فى شرح علوم الرسالة الخمسة التى يرثها الوارث الفرد الكامل من رسول الله ﷺ ، ومنهج الإمام التربوى فيها :

١ - علم الآيـــات :

وهذا هو العلم الأول الذى ربى الإمام تلاميذه عليه . وقد بين الإمام أن هذا العلم لا يعنى آيات وسور القرآن الكريم ، ولكنه يعنى : آيات الكيان ، وآيات الإنسان ، ففى آيات الكيان يقول عز وجل : ﴿إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق

---

(٨) سورة البقرة آية ١٥١ .

السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار﴾[9] ، ﴿وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾[10] ، وفى آيات الإنسان يقول تعالى : ﴿فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾[11] ، ﴿وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى﴾[12] ، ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾[13] . ودفعًا للتخبط الفكرى أو الشطط الفلسفى أو الإنكار الترددى فقد ربط الخالق سبحانه مظاهر بعث الأكوان ببعث الإنسان فيقول : ﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنّا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلًا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يُرَدُّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئًا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾[14] .

والإمام أبو العزائم يلفتنا إلى ما فى الآيات من ذكر ثم فكر ثم شهود ، ويتكلم بإسهاب عن : آيات السماع ، آيات العقل ، آيات الفكر ، آيات الفقه ، آيات التدبر ، والآيات الخاصة بأولى الألباب ، وبأولى الأبصار ، وبأولى النهى ، آيات وآيات يعجز العقل عن حصرها . كل هذا سواء فى دروسه أو فى كتبه ، والضنائن به فى مواجيده ، وهذه المواجيد التى تبين الآيات تُكَوِّنُ منهجًا كاملًا من مناهج علم الإمام ، وفسر آيات الآفاق والأنفس عندما جاء ذكرها عند تفسيره للقرآن الكريم - وكم فى الكتاب منها - تفسيرًا عصريًا كاملًا ، كل هذا ليدرب المسلم والمؤمن والمحسن والموقن وكلٌ حسب مقامه ، وليدرب المريد والسالك والواصل ، وكلٌ على قدر ما عونه ، ورسم له الطريق ليسير على أرض الطاعة وعلى أرض العبادة متزودًا بزاد المتقين ومراقبًا عظمة الرب جل جلاله ليشهد الآثار المحيطة به بعينى القدرة والحكمة فينتقل من رؤية أثر إلى رؤية الآية

---

(٩) سورة آل عمران آية ١٩٠ - ١٩١ .

(١٠) سورة يوسف آية ١٠٥ - ١٠٦ .

(١١) سورة الطارق آية ٥ - ٧ .

(١٢) سورة النجم آية ٤٥ - ٤٦ .

(١٣) سورة الروم آية ٢٠ .

(١٤) سورة الحج آية ٥ - ٧ .

التى بثها الله فى هذا الأثر ، فعين الرأس واقعة على الأثر وتراه أثرًا وعين القلب تشهد بجوار ذلك الآية فى الأثر . وبإشراق نور الآية فى الأثر ينتقل العبد إلى أنوار التجليات ثم إلى الأسماء والصفات ثم إلى أنوار مجلى الذات .

ويطلب الإمام من السالك أن يطلب الخبير الذى يكشف له الغطاء عن الآيات التى أودعها الله فى الآفاق وفى الأنفس ﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[١٥] ، ويبين الإمام أن قول الله سبحانه وتعالى : ﴿واذكر ربك فى نفسك﴾[١٦] يقصد ربنا به أن يكون الذكر فى مملكة النفس التى جعله الله بها إنسانًا ، لا فى السر ، فينكشف الغطاء عما بالإنسان من أسرار باريه ، حتى يعرف نفسه فيعرف ربه . وإذا ما تراءت فى الإنسان أسرار ربه التى أودعها فيه وأشرقت عليه أنوار باريه ذكر ربه فى نفسه ، هنا يتحقق الذكر الحقيقى فى الآفاق وبعدها فى النفس ، وبهما يكون الذكر الأكبر .

إن علم الآيات علم عزيز ، إذا تدرب عليه السالك تغير حاله من سئ إلى حسن ومن حسن إلى أحسن وهكذا . ومن سار فى درب هذا العلم فإنه لا يغيب عن مولاه نفسًا ، وكيف يغيب ؟ وهو إذا نظر إلى الماء ذكر الحى ، وإذا نظر إلى السماء ذكر الرافع ، لأن المرفوع قد اختفى رغم وقوع عين الرأس عليه لتظهر أنوار الرافع ، وإذا نظر إلى الأرض ذكر الباسط ، وإذا نظر إلى سريع يسرع كقطار أو طائرة أو أى لون من ألوان السرعة ذكر السريع ، وإذا نظر إلى الجبال ذكر القوى المتين ، وإذا نظر إلى حاكم يحكم ذكر الحكم الحاكم العدل ، وإذا نظر إلى إنسان ذكر السميع والبصير والمتكلم ، وإذا نظر إلى عالم ذكر العالم والعليم والحكيم ، وإذا وقعت عينه على أى كائن تغيب المبانى وتسطع المعانى ، والإمام يقول :

وإن نظرت عينى إلى اى كائن ... تغيب المبانى والمعانى سواطع
لأن المعانى الشمس والكل انجم ... إذا اشرقت فالنجم بالشمس طالع

٢ - علم تزكية النفوس :

وهذه هى المرتبة الثانية فى منهج الإمام لعلوم الرسالة الخمسة بعد تَعَلُّم علم الآيات ثم التدريب العملى عليها ، والإمام يقول : « إذا زكت النفوس أشرقتَ عليها شموس

(١٥) سورة الذاريات آية ٢٠ - ٢١ .

(١٦) سورة الأعراف آية ٢٠٥ .

القدوس ، وتزكية النفوس قبل تلقى الدروس ». والنفس إذا تزكت زكت ، وإذا زكت أفلحت ، والفلاح هو الفوز بجميع المقاصد الدنيوية والأخروية ، قال تعالى : ﴿ قد أفلح من تزكى ﴾[١٧] ، وقال سبحانه : ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾[١٨] .

لقد تكلم الكثير والكثير من العلماء بالله فى عصورهم عن النفس وأمراضها وطرق تزكيتها ، وذلك من باب أمر رسول الله ﷺ عندما عاد من غزوةٍ من غزواته وقال : (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر : جهاد النفس)[١٩] . وقد سار الإمام على نهج من قبله ، ولكنه بسط الأمر على أهل عصره واختصر لهم الطريق . وما من كتاب من كتبه إلا وتكلم فيه عن النفوس وتزكيتها ، وفى كل كتاب لون مخالف لما سبقه ، وأفرد لذلك المقالات العديدة التى تحث على ذلك ، ولم يترك مريدَ الحق بدون أن يُوجدَ له العلاجَ وفى دائرة التحصين بحصون الأمن والأمان ، ووضع مفاهيم جديدة لهذا العلمَ متمثلة فى كتاب : « محكمة الصلح الكبرى »، تلك الجامعة الكبيرة والحديثة التى تمثل منهج الإمام التربوى فى علوم النفس ، وتوج هذا العمل بمناهج السير والسلوك التى بثها فى مواجيده المتعددة ، وهى ما تعرف بمواجيد السير والسلوك .

بسَّط الإمام الأمر ، وأراد أن يختصر الكلام الصعب ، وكذلك أن يخرج من دائرة الفلسفات التى لا تغني ولا تسمن من جوع ، فشرح للمريد النفس وتطورها وترديها ليكون على بينة من الأمر ، فبين أن الإنسان مثنوى من حيث تركيبه ، فهو مكون من : جسم ظاهر بجوارح ، وحقيقة باطنة وهى ما تسمى بالحقيقة الروحانية . والحقيقة الروحانية أيضًا لها ظاهر وباطن ، وهى ما يطلق عليها بالنفس ، إذ أن المثنوية لا تفارق الإنسان حتى ولو كان فى الجنة حتى ينفرد الله بالأحدية .

والجسم وهو الظاهر ، مدته محدودة فى الدنيا ، وعند نداء الحقيقة الروحانية للخروج من الدنيا فإنها تترك الجسم وتعود . وقد يسر الله لعباده هذا الفهم فى الدنيا عن طريق الرؤيا ، فعند الاستغراق فى النوم يبقى الهيكل أو الجسم فى مكانه وتنطلق الحقيقة الروحانية وتتجول ، فلا تتقيد بالجسم ، بل تكون فى حالة إطلاق كامل ومبهر ، فقد تتواجد فى أماكن مختلفة وبعيدة عن بعضها فى لحظات ، وقد تطير فى الهواء ، وقد تمشى على الماء ، وقد تلتقى بالأحياء والأموات ، وقد يكون من تلتقى بهم نائمين أو

---

(١٧) سورة الأعلى آية ١٤ .

(١٨) سورة الشمس آية ٩ .

(١٩) البيهقى فى الزهد والخطيب البغدادى فى تاريخه .

أيقاظًا ، فهذا كله لا يختلف ، والله سبحانه يقول : ﴿ الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى ﴾[٢٠] ، ورسول الله ﷺ يقول عند نومه ويعلمنا أن ندعو بهذا الدعاء قبل النوم : (باسمك ربى وضعت جنبى « عند النوم » وبك أرفعه « عند الاستيقاظ » ، إن أمسكتَ نفسى « أى أمتها أثناء النوم » فارحمها « أى فى البرزخ »، وإن أرسلتها « أى أعدتها إلى هيكلها ليستيقظ » فاحفظها « فى الدنيا » بما تحفظ به عبادك الصالحين)[٢١] .

ويبين الإمام أن الحقيقة الروحانية كانت قبل خلق جسم آدم فى عالم الإطلاق سابحة فى الملأ الأعلى . وقد شاهدت هذه الحقيقة جمال ربها وسمعت لذيذ كلامه فى يوم ألستُ بربكم أو يوم الذر ، فقد تجلى لها الحق ، فشهدت وسمعت ، وعُوهِدَتْ وَوُثِّقَتْ وقالت : ﴿ بلى شهدنا ﴾ مصداقًا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾[٢٢] إلى آخر الآية . ولما أراد الله إبراز كل حقيقة بحسب ظهورها على مسرح الحياة الدنيا لازمت كل حقيقة روحانية هيكلها فى عالم الأرحام واستترت به ، فأصبح الهيكل برقعًا وستارًا لها ، وهذا اليوم هو ما يعبر عنه بيوم بطن الأم من ضمن أيام الله ﴿ وذكرهم بأيام الله ﴾[٢٣] .

ويبين الإمام أن النفس ظلت (وهى اللطيفة النورانية الربانية) فى صفائها وفى طهرها ، إذ أن أصلها صفاء فى صفاء وطهر فى طهر ، إلى أن اتصلت بالهيكل العنصرى الترابى . وبعد أن امتزجت به اختلف أمرها ، فقد تهادت من عليائها ونزلت إلى أرض المادة واتصلت بهيكل مادى لتظهر على مسرح الدنيا من خلاله . وهذا الهيكل المادى ظلمانى بطبيعته ويميل إلى أسفل ، فما هو من الأرض فهو أرض ، فحجب الهيكلُ الحقيقة الروحانية بظلمته ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾[٢٤] .

ويوضح الإمام أنه بطول المدة ، نسيت الحقيقة الروحانية عالمها الروحانى باختلاطها بالمادة والتراب فاحتاجت لمذكر ، وهذا هو سر إرسال الرسل وبعث الأنبياء ، قال تعالى

---

(٢٠) سورة الزمر آية ٤٢ .

(٢١) البخارى ومسلم والنووى فى رياض الصالحين .

(٢٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢٣) سورة إبراهيم آية ٥ .

(٢٤) سورة التين آية ٤ - ٦ .

لحبيبه المصطفى ﷺ : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٢٥] ، وقال جل شأنه : ﴿سيذكر من يخشى﴾[٢٦] ، وقال تعالى : ﴿وذكرهم بأيام الله إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾[٢٧] . وعندما يذكِّرُ المذكِّرُ تتذكر الحقيقة الروحانية عالمها الروحى ، وتتذكر يوم ألست بما فيه من عهود ومواثيق ، وما فيه من جمال وجلال وكمال ، وما كانت عليه الحقائق فى صفاء وطهر وعفاف .

ولما كانت كل نفس بعد الحياة الدنيا ستعود لأصلها فى يوم البرزخ وترجع إلى العالم التى قدمت منه والذى سترجع إليه ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾[٢٨] ﴿وإليه يُرجَعُ الأمر كله﴾[٢٩] ﴿وإلى الله تُرجع الأمور﴾[٣٠] ﴿يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحًا فملاقيه﴾[٣١] ﴿كما بدأكم تعودون﴾[٣٢] ﴿كما بدأنا أول خلق نعيده ...﴾ ، وأول خلق فى الوجود هو المصطفى ﷺ ، وأول خلق فى الإنسان هو حقيقته الروحانية ﴿... وعدًا علينا إنا كنا فاعلين﴾[٣٣] .. واحتاج الإنسان للمذكر فى الحياة الدنيا ، واحتاجت النفس لداع يدعوها للإيمان ، فهى مؤمنة أصلًا ولكنها نسيت عهدها وميثاقها بسبب ملابستها لهذا الهيكل الطينى والذى له مستلزمات ومتطلبات تختلف بالكلية عما تحتاجه الحقيقة الروحانية ، ليبين لها طريق المجاهدة حتى تصفو وتعود إلى أصل فطرتها النورانية الصفائية وهى هنا فى الدنيا ، بعد أن أتاها ما عكر صفوها .

والنفس واحدة وقواها كثيرة ، ولكن كل صفة من صفاتها تأخذ معانٍ كثيرة ، والمطلوب أن تكون هذه القوى فى دائرة الخير . وهذه الصفات غير تنوع النفوس إلى نفس أمارة ولوامة ومطمئنة وراضية ومرضية . ومثال لذلك أن إنسانًا دخل المدرسة الابتدائية وحصل على شهادتها فزادت معلوماته وتغيرت الصور الداخلية فيه حسب المعلومات التى وصل إليها ، وهو واحد . ثم ترقى هذا الإنسان معنويًا بحصوله على

---

(٢٥) سورة الذاريات آية ٥٥ .

(٢٦) سورة الأعلى آية ١٠ .

(٢٧) سورة إبراهيم آية ٥ .

(٢٨) سورة البقره آية ١٥٦ .

(٢٩) سورة هود آية ١٢٣ .

(٣٠) سورة فاطر آية ٤ .

(٣١) سورة الانشقاق آية ٦ .

(٣٢) سورة الأعراف آية ٢٩ .

(٣٣) سورة الأنبياء آية ١٠٤ .

الشهادة الإعدادية ، وزاد ترقيه عندما أنهى المرحلة الثانوية ، وازداد ذلك بحصوله على البكالوريوس أو الليسانس ، ثم الماجستير والدكتوراه . إن الحقائق التى ترقت فى هذا الإنسان داخلية وليست خارجية ، وقد أصبحت هذه القيم المعنوية العليا مجالاً فى ارتقاء حقيقته الباطنة . وقد تكون هذه القيم المعنوية من علوم ظاهر الحياة الدنيا التى يشترك فيها المسلم وغير المسلم ، وقد تكون بالإضافة لهذه العلوم علوم أهل الله وهى علوم الكتاب والسنة ، وبعض العلوم الخاصة ولكنها خاصة لمخصوصين لا يُكرَمُ بها إلا الصفوة من عباد الله ولا يذوق أذواقهم فيما علموه إلا من هو منهم من أهل الاستجابة .

(١) فالنفس التى تميل إلى القهر وحب الانتقام وحب الغلبة هى النفس السبعية . فإذا ظهرت هذه الرعونات على النفس فتكون النفس المتصفة بالصفات السبعية هى المستولية والمستعلية على الصفات الأخرى بالرغم من وجودها .

(٢) نفس تميل إلى الحرص والبخل والشح يقال : إنها نفس نباتية .

(٣) إذا زادت على ذلك تصبح نفسًا بهيمية وهى حب الشح وحب البخل والادخار المزرى .

فالصفات تختلف من حال إلى حال فتكون نفسًا جمادية فى وقت ما ، وفى بعض الأحيان تكون نفسًا نباتية ، وفى أحيان أخرى بهيمية وسبعية . فإذا ما صفت هذه النفس بالتزكية تصبح نفسًا مَلَكِية . والنفس الملكية مع صفائها تعتريها الرعونات والنوازع فى كثير من الأحيان إذا غلب الحال ، وكان المحيطون بصاحب النفس الملكية قرناءَ للسوءِ فلا يرَى ولا يسمَعُ منهم إلا الشر . وهذه الأحوال السيئة المحيطة قد تنعكس فى لحظة ما بظلمتها على صاحب النفس الملكية فتعتريها رعونة . وقد تأتى الرعونة عن طريق رد شتمة وسباب أو الزيادة عليها ، و (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[٣٤] ، والأمثلة فى هذا المجال كثيرة . ولذلك فلو جالس الإنسان أهل الصدق ، انعكس أنوار صدقهم على جوهر النفس فتزداد صفاءً ورقيًا وعروجًا ، وهذا هو سر توجيه ربنا سبحانه لنا فى قوله : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾[٣٥] ، وقوله تعالى : ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾[٣٦] .

والنفس تميل إلى الرياسة لأنها تحس بأصلها ، والإمام يبين ذلك فيقول :

---

(٣٤) رواه مسلم والبخارى والنسائى وأبوداود .

(٣٥) سورة التوبة آية ١١٩ .

(٣٦) سورة الأنعام آية ٦٨ .

والنفس داعية الرياسة فاحذرن فرعونها تنجو من الداء الدفين

والمثال هنا أن الإنسان عندما يكون أبوه أو جده ذا أصل عريق أو مرموق في المجتمع حتى ولو لم يكن يملك شيئًا ولكنه يحس بنفسه أنه على صورة أبيه أو صورة أجداده . ولكن الصورة التى أسجد الله لها ملائكته تحس أنها الكل فى الكل ، والحديث النبوى الشريف يقول : (خلق الله آدم على صورة الرحمن)(٣٧) وفى حديث آخر (خلق الله آدم على صورته)(٣٨) وكذلك الصور التى خرجت منها ، ولكن ليس الكل قد خلق على الصورة ولكن النفس التى زكت وصفت واستقامت هى التى خلقت على الصورة ، لأنها استنارت واتحدت بأصلها فوصلت واتصلت وأشرق عليها نور الأصل فظهرت من خلالها الأنوار وسمعت منها الأسرار ، وما جاز لأبينا آدم يجوز لكل نفس زكاها ربنا .

وعلى ذلك ، فإن الإمام يقرر أن التزكية معناها أن يستحضر العبد العود للبدء الذى جاء منه وهو هنا فى عالم الدنيا حتى يحين موعد انتقاله إلى برزخه . فإذا عاد للبدء بالعلم النافع والإشراق والحكمة الصادقة سار فى الدنيا كما سار أئمة السلف بالحق واليقين وبالإقبال والتمكين وبالقبول من حضرة رب العالمين . ويستمر العبد فى طلب التزكية طوال فترة حياته ، ولذلك يقول الإمام :

مقتضى بشريتى طور الجهاد لا يفارقنى إلى طور المعاد
مقتضى بشريتى السفل الدنى وهو حجب الروح عن نور المراد

وقد بيَّن رسول الله ﷺ من خلال حديث شريف ثلاث علامات لقبول التزكى :

(١) التجافى عن دار الغرور : أى التجافى عن الدنيا ، قال تعالى : ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾(٣٩) ، وقال تعالى : ﴿وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾(٤٠) ، وقال تعالى : ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور﴾(٤١) أى عدم الركون إلى الدنيا وعدم التمسك بأهدابها .

---

(٣٧) القسطلانى فى شرحه للبخارى جـ ٥ ص ٣٢١ .

(٣٨) البخارى ومسلم والإمام أحمد فى المسند والسيوطى فى الجامع الصغير .

(٣٩) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(٤٠) سورة الرعد آية ٢٦ .

(٤١) سورة لقمان آية ٣٣ .

(٢) والإنابة لدار الخلود : أى يعمل كل واحد للدنيا على قدر المكث فيها وللآخرة على قدر المقام فيها ، والآخرة سرمدٌ وأبد ، ولا مقارنة أبدًا بين عالم النهاية وعالم اللانهاية .

(٣) والاستعداد للموت قبل نزوله .. بالعمل الصالح(٤٢) .

ثم حدد الإمام ثلاث مراتب فى التزكية :

(١) مراقبٌ ليومه : وهو المقتنع أن مدته فى الدنيا اليوم فقط لأن النبى ﷺ قال : (من أصبح آمنًا فى سربه معافًا فى بدنه عنده قوت يومه فكأنما حُيِّزَتْ له الدنيا)(٤٣) .
فهو لا يحمل هم الغد لأن الله لا يحاسبه على عمل الغد ولذلك فإن العبد لا يطالبه برزق الغد قبل ورود الغد ، وهذا لا يمنع وجود رزق أو شراء رزق فى الغد لعدة أيام .
وإذا ترقى هذا العبد فإنه يصبح :

(٢) مراقبٌ لساعته : فله الساعة التى هو فيها ، قال تعالى : ﴿ساعة من نهار بلاغ﴾(٤٤) ، وصاحب هذه الساعة لا يضمن ساعة أخرى ولا يعمل أى تدبير بالنسبة لنفسه ، ولكن للصالح العام والمجتمع الإنسانى فإنه يجب أن يخطط . فإذا ارتقى صاحب الساعة فإنه يصبح :

(٣) مراقبٌ لنَفَسِه : وهى المرتبة الكبرى ، لأن مراعاة الأنفاس أمر دقيق للغاية ، وفيها جاء الأثر : (حياة المرء بين نفسين نفس يدخل وقد لا يخرج ونفس يخرج وقد لا يدخل) . إن النفَسَ دليل وجود نفْس ، فإذا انقطع حبل النفَس كان هذا دليلًا على خروج النفْس ، وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها ...﴾(٤٥) الآية . إن هؤلاء عمارة الأنفاس عندهم هى رأس المال ، وإن أنفاسهم الداخلة تكون بعلم وحكمة وإشراق ، وأنفاسهم الخارجة تكون بذكر وفكر وتسبيح ، ويتقلبون بين أنفاس هى هى عين المعارج يعرجون بها إلى أعلى الدرجات وأسمى المقامات لأن النفَسَ عندهم أغلى من النفْس وأعز من النفيس .

إن التطبيق العملى على ما سبق صعب جدًا إلا إذا أعان الله ويسّر له . وهذا الكلام

---

(٤٢) رواه الحاكم البيهقى عن ابن مسعود بلفظ : [إن النور إذا قذف فى القلب انشرح له الصدر وانفسح ، قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله] .

(٤٣) الترمذى وابن ماجة والبخارى فى الأدب المفرد .

(٤٤) سورة الأحقاف آية ٣٥ .

(٤٥) سورة الزمر آية ٤٢ .

السابق بفرعياته له علومه المستفيضة عند الإمام .

أما الروح فإنها سر تحريك العالم الظاهر والعالم الباطن ، وهى سر من أسرار الحى القيوم ، ولا طول لها ولا عرض ولا عمق ، ولا تحيز ولا تحدد ، ولا تحس ولا تجس ولا تمس . إن الروح تمثل عالم الأمر الكامل ﴿قل الروح من أمر ربى ...﴾ وعند هذا الحد : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾[٤٦] .

إن تزكية النفس هى طهار القلب . وقد كان الشاذلى رضوان الله عليه يبحث عن إمام ، فكان يسافر ويتنقل من بلد إلى أخرى متكبدًا فى ذلك مخاطر الطريق والمشقة البالغة فى البر والبحر . وفى يوم من الأيام وصل إلى مسجد فسمع عالمًا يلقى درسًا ولكنه بذوقه أدرك أن هذا الكلام ليس عاديًا فتقرب فى مجلسه منه حتى دنا منه وهو لا يدرى أنه الآن أمامَ من يبحث عنه . نظر إليه الإمام عبد السلام بن مشيش وقال له : يا على قم فتطهر !! أثرت هذه الكلمة جدًا فى الشاذلى بعد أن ناداه باسمه ، فقام واغتسل وغير ملابسه وتوجه إلى حضرته ، فكرر عليه ما قاله سابقًا ، فقام واغتسل ، وتكرر ذلك مرة ثالثة . ولما جلس أمامه قال له يا على قم فتطهر من علمك وحكمتك وحولك وطولك ومادتك وزينة الدنيا التى فى قلبك . وأخذ يكلمه فى الطهارة المطلوبة منه وأنها ليست الطهارة الحسية وأنها طهارة معنوية للحقائق الباطنة .

ونفذت كلمات الإمام فى قلبه فطهر وهو فى مجلسه ، فنظر إليه نظرة نبوية من باب الوراثة ، بعدها قال له : قم فأنت أبا الحسن . نظرة من الإمام له أصبح الشيخ الجليل أبو الحسن الشاذلى مربى الرجال ومربى الأفراد ، مربى أبو العباس المرسى ، الذى ربى ابن عطاء الله السكندرى ، الذى ربى ياقوت العرش .

٣ ، ٤ - علم الكتاب والحكمة :

إن رسول الله ﷺ قد علم أصحابه علم الآيات فى الآفاق وفى الأنفس ، ثم علمهم علوم تزكية النفوس ، ثم فتح لهم علوم الكتاب والحكمة . وقد تأخر علم الكتاب والحكمة عن علم تلاوة الآيات وعلم تزكية الأنفس ، فقد قال أبو هريرة رضى الله عنه : كنا نتعلم الإيمان من رسول الله ﷺ قبل أن نتعلم القرآن ، حتى إذا ما تلى علينا القرآن ازددنا إيمانًا على إيماننا . وهذا المنهج هو المنهج الذى أخذ به رسول الله ﷺ أصحابه وفيه يقول تعالى : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته

---

(٤٦) سورة الإسراء آية ٨٥ .

زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون أولئك هم المؤمنون حقًا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم﴾(٤٧) .

ولما تُليت الآيات وزكت النفوس أصبحت القلوب مهيئة لتلقى العلم النافع وهو علم الكتاب والحكمة . لقد انجلى القلب وأشرقت أنوار القدس الأعلى على أرض النفس وتأهل صاحب القلب السليم والنفس الزكية لتلقى العلم الذى سيطبقه عملًا . وفى الكتاب علم الأحكام الشرعية ، وهذه العلوم لها بداية ولها نهاية وإن طال مدى الطلب فى دائرتها . وكتاب الأحكام الشرعية يكلف به المسلم لتصح عباداته الكثيرة .

وإذا ما جعل الإنسان قلبه مهبطًا لتنزل آيات القرآن ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾(٤٨) فإن الله يتجلى عليه بعلوم العلم الخامس وهو العلم اللدنى ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾(٤٩) ليدخل فى دائرة الذكر الأكبر ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾(٥٠) ، فيفقه الإنسان ما يقال وإن كان صعبًا لأن مقدمة علوم الآخرة موجودة هنا فى الدنيا ، فإذا تعرض لها هنا كان مؤهلًا للتلقى هناك . وبعد علوم الأحكام الشرعية تصح الصلاة وتصح الزكاة ويصح الحج ويصح الصوم ، ويدخل الإنسان فى دائرة حكمة الحكم ، ورسول الله ﷺ يقول : (من أخلص لله أربعين صباحًا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)(٥١) ، والإخلاص سر بين الرب وعبده ، فيعلمه ربه ما لم يكن يعلم .

إن قراءة القرآن شئ والتدبر فى معانيه شئ آخر ، والنبى ﷺ يحض على التفكر فى آلاء الله ، ويحض كذلك على التدبر فى كلام الله . إن كلام الله صفة قديمة أزلية لا تنتهى معانيها ﴿ولو أنما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾(٥٢) ، وأوجد الله فينا ما يسمى بالقابل النورانى وهو الاستعداد الروحى لفهم كلامه والاندماج فيما قاله رسول الله ﷺ . وإذا ما أكرم الله العبد بالقابل النورانى وأكرمه كذلك بالعالم العامل أو المرشد الكامل انفعل قلبه ، وتلقى بسر القابل من

---

(٤٧) سورة الأنفال آية ٢ - ٤ .

(٤٨) سورة الإسراء آية ٨٢ .

(٤٩) سورة البقرة آية ١٥١ .

(٥٠) سورة البقرة آية ١٥٢ .

(٥١) أبو نعيم فى حلية الأولياء والسيوطى فى الجامع الصغير .

(٥٢) سورة لقمان آية ٢٧ .

رب العالمين ، وفقه عن سيد المرسلين .

وقال الإمام رضى الله عنه : « إنما رمز الرجال كنوز أسرارهم لأن الحكمة جلّت أن يباح بها إلا لأهلها ، وهى قوت الأرواح ، فيجب أن تظهر وأن تنكر حتى يلتقطها أهلها من لسان العارف أو من المسطر على الأوراق من العوارف ». قال ﷺ : (رُبَّ مبلغ أوعى من سامع)[٥٣] . إذا لم تتضح لك الحكمة عند مطالعة الرموز فهاجر إلى الرجل أين كان ، فإن فقدته فلا تفقد رياضة نفسك وتهذيبها .

٥ - العلم اللدنى :

ولا نهاية لهذا الميدان فهو علم الأسرار ، وقد أعطانا ربنا الإشارة عنه مُخبرًا عن خضر موسى عليهما السلام : ﴿ فوجدا عبدًا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما ﴾[٥٤] . وهذا العلم اللدنى لا يكون نتيجة للتقوى فقط ، لأن التقوى سبب وفيها مجاهدة ينتجان طهارة للنفس وسلامة للقلب واتصالاً للروح بأصلها وعالمها ، أما العلم اللدنى فإنه هبة خالصة لا شأن لها باستقامة أو سير وسلوك أو مجاهدة للنفس وإن كان هذا كله مطلوب ، إنما هى فضلٌ محضٌ على من يشاء الله من عباده المتقين بلا علة عمل ، يقول الإمام رضوان الله عليه مبينًا ذلك :

كم عامل فى ظلمة لا يشهدن	إلا وساوس نفسه بخيال
والفضل فضل الله يعطى منّة	بالحب فى طه العزيز الغالى
من لحظة فى الحب تشهد وجهه	وتفوز منه بسره والحال
تعطى العلوم وتشهدن فتترجمن	بلسان اهل القرب والأبدال

وهذا العلم يشير المصطفى ﷺ إليه بقوله : (إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا ذكروه أنكره أهل الغرة بالله تعالى)[٥٥] . وهو علم لكن عند أهله وهم أهل القرآن ظهرًا وبطنًا وحدًا ومطلعًا ، وهم أهل الله وخاصته حسب حديث المصطفى ﷺ : (أهل القرآن هم أهل الله وخاصته)[٥٦] .

---

(٥٣) أبو داود والترمذى وابن حبان والمنذرى فى الترغيب والترهيب .

(٥٤) سورة الكهف آية ٦٥ .

(٥٥) أبو منصور الديلمى فى المسند وأبو عبد الله السلمى فى الأربعين والمنذرى فى الترغيب والترهيب .

(٥٦) النسائى وابن ماجة والحاكم والمنذرى فى الترغيب والترهيب وأبو القاسم بن حيدر فى مشيخته والسيوطى فى الجامع الصغير .

وإذا كان القارئ للقرآن من أهل الصدق فى القراءة ومن أهل الإقبال فى التلاوة ، صقل الله بأنوار التلاوة مرآة قلبه ، فظهرت فيها صور التجليات الإلهية التى لا حصر لها والتى لا تنتهى ألوانها ، فتظهر آثار التجليات على الجوارح الظاهرة .

إن رسول الله ﷺ قد علَّمهُ ربه علوم الأولين والآخرين وآتاه جوامع الكلم ، فسيدنا عيسى كلمة من كلمات الله ، والنبى ﷺ يمثل جوامع الكلم ، والكلم إطلاق يفيد اللانهائية ، وبالرغم من ذلك يقول له ربه تبارك وتعالى : ﴿وقل ربِّ زدنى علما﴾[٥٧] مع أنه علمه وكاشفه وجمع له الأزل والأبد فى آن واحد ، وكان وهو فى حجراته يجتمع بعالمى الإنس والجن ، والملائكة والأرواح العالية ، لا تحجبه مادة ولا تمنعه سماء ، ولا يحجب سمعه ببعد مسافة ، وكان يرى من خلفه كما يرى من أمامه ، ويبيت عند ربه فيطعمه ويسقيه ، ويسمع ما فى السماوات ومن فى السماوات ويراهم ، ويسمع أطيط السماء ويرى ازدحام الملائكة فيها .. ومع كل هذا فربه يقول له : ﴿وقل ربِّ زدنى علما﴾ . ولكن ما هو العلم الذى يطلب الزيادة منه رسول الله ﷺ ؟ أهو علوم الآيات وتزكية النفوس والكتاب والحكمة ؟ أهو العلم اللدنى ؟ والعلم اللدنى على قدرنا نحن لا على قدره هو؟ إنها علوم غيبية ذاتية تتعلق بذات الأحد تعالى ، وعلوم الغيب المصون هى علوم السر المكنون ، ويشير إلى ذلك ﷺ بقوله : (ألا إنى أوتيتُ القرآن ومثله معه)[٥٨] ويرددها ثلاث مرات . ومِثْل القرآن هنا سرّ انطوى عليه قلب رسول الله ﷺ كان لا يكاشف به إلا أهل سابقة الحسنى ، ولا يفاتح بأسراره إلا أهل المحبة الصادقة والتسليم الكامل .

إن هذه العلوم الخمسة كاملة قد ورثها الإمام رضوان الله عليه عن رسول الله ﷺ بالفضل فيما أقيم فيه ، وعلمها لأحبابه ، فهو صورة الذكر الأكبر . والسعيد السعيد حقًا من أكرم بمعرفته وخطط له قدره مقابلته أو مقابلة من قابله أو الأخذ ممن أخذ منه أو عمن أخذ ممن أخذ منه وهكذا .

ويقول الإمام شارحًا هذه الأسرار[٥٩] :

هذه الأسرار لا تفهم بميزان العقول ، ولا تدرك بضوابط الفهوم ، ولا تنال بمدارسة العلوم ، وإنما هى صورة المعلوم تنقش على جوهر النفس بعد التسليم الكامل ، وتزكية

---

(٥٧) سورة طه آية ١١٤ .

(٥٨) النسائى وأحمد فى المسند والحاكم فى المستدرك .

(٥٩) مجلة المدينة المنورة : السنه ١٠ العدد ١٣ ص ٩ (١٦ رمضان ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩ نوفمبر ١٩٣٧).

النفس بالمسارعة إلى العبادات ، وتطهيرها من قاذورات البشرية ورعونات الإنسانية ، وإطفاء نار الأطماع والحظوظ والآمال التى اقتضتها القوى الجسمانية ، كل ذلك لا ليدرك الأسرار ولا ليتحصل على مشاهدة الأنوار .. بل قيامًا بما أمر الله سبحانه واقتداء برسول الله ﷺ ، حتى يجاهد نفسه فى ذات الله حق الجهاد خالصًا مخلصًا ، وعندها يورثه الله تعالى ذوق هذه الأسرار وينشله سبحانه وتعالى من ظلمات الشك والشرك والظلومية والجهولية إلى أن يعيده كما بدأه ، مشاهدًا لجمال ربه سامعًا لكلامه سبحانه منه كما شهد وسمع يوم ألست .. قال الله تعالى : ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾[٦٠] ، وقال سبحانه وتعالى : ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾[٦١] . فمن أخرجه الله سبحانه من الظلمات إلى النور فشهد ما لم يشهده غيره فتغيرت أخلاقه وعاداته وصفاته حتى صار غريبًا بين أهله ولام عليه من هو فى الظلمات ، أيحب أن يعود إليها بعد أن أخرجه الله منها ؟ إنما ذلك يكون لمن لم يشهد تلك المشاهد العلية ولم يذق من تلك الأسرار الربانية ما يجعله يسارع إلى محاب الله ورضوانه ، قال العاشق :

اعد ذكر من اهوى ولو بملامى فإن احاديث الحبيب مُدامى

وتلك المواهب اللدنية يقول فيها الإمام من مضنون علوم الخلوة[٦٢] :

العلم بالله عن شهود ووجود ، لا عن فهم للقول وعقل للمعانى .. إذ الفهم لا يكون إلا للعلم بأوامر الله تعالى ، والعقل إنما يستعمل فى إدراك آياته سبحانه وتعالى وفهم أوامره وإدراك آياته جلت قدرته وتقدست أسماؤه ، فالهبات اللدنية :

مبدؤها يقين عن ذوق وتدبر وعلم بالأصول ، أصول الكتاب العزيز والسنة المطهرة ، يقوى حتى يساوى المشاهدة لتمكن الموقن بما ذاقه من فهم الكتاب العزيز والسنة المطهرة تمكنًا عن وجد وشوق وصدق وإخلاص .

ووسطها مراقبة استحضارية لمشاهدة ما تيقنه من عوالم الملكوت الأعلى ليزداد علمًا ويكمل يقينًا ، وتقوى لطائف القلب الذى هو محل نظر الحق سبحانه قوة تقهر بها عوالم النفوس الحيوانية والقوى الإنسانية والصفات المجبول عليها الإنسان حتى تكون

---

(٦٠) سورة التين آية ٤ - ٥ .

(٦١) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(٦٢) مجلة المدينة المنورة : السنة ٢٠ العدد ٦ ص ١٤ (٢٧ شوال ١٣٦٦ الموافق ١٢ سبتمبر ١٩٤٧) .

أنوار الملأ الأعلى تسطع على لطائف القلب بأنوار الأسرار وأسرار الغيوب الملكوتية، وبهذه المراقبة يكون كأنه ملك مقرب لمشاهدة عوالم الملائكة بنور البصيرة وعيون السريرة.

وكمالها باصطياد الآيات العالية من حظيرة القدس الأعلى وفراغ قلبه مما سوى الحق وآياته وقدوم الأنوار، وتتوالى عليه فترقق عوالم عناصره السفلية وتقوى عوالم ملكيته حتى تتفتق عين بصيرته وتقوى أنوارها، فتشرق على عوالمه المادية فيرى بعيون البصيرة أسرار الغيوب، ويلوح من شدة الأنوار عليه ودوام التوجه منه أنه يرى بقواه الظاهرة محسوسًا مشاهدًا، وهو الغريب فى عشيرته وإن كانوا أهله وجيرانه، العدو فى قومه وإن كانوا أرحامه و (طوبى للغرباء)[٦٣]، وهذا نهاية الكشف والمشاهدة، وهو مقام عين اليقين وحق اليقين ورتبة الصبغة الإلهية ومنزلة الرجل الربانى وحال العناية الصمدانية، يُرَى وَلِهًا ولا ولهَ عنده، مُهيمًا ولا هيام به، مجنونًا ولا جنون يعتريه، وإنما انكشفت له الآيات انكشافًا أشهده فى الآفاق وفى نفسه ما به قام كل شئ بقيومية الحى القيوم وقدرة القادر الحكيم وتدبير المريد البديع، فصار شاهدًا مشهودًا، ولمقامه عند ربه أقسم به ﴿ وشاهد ومشهود ﴾[٦٤]. ولدى هذا الكشف تظهر له سيما العالم وتنعكس عليه ظلماتهم سواءً بإقبال عليه أو إنكار، فإن كان ممن اطمأنت قلوبهم بذكر شهد الحق وغاب عن سيماه الخلق واطمأن قلبه واسأنس بالله تعالى فى الحالين ونطق بالحكمة لا يغيره إقبالٌ ولا إدبار، لا يؤثر عليه تسليم ولا إنكار، وهو الرجل المؤهل للوراثة المحمدية الذى ينتقل لحق اليقين واليقين الحق، مقامه لو رفع الحجاب ما ازداد يقينًا، وهذا المقام الإشارة فيه عبارة والعبارة فيه عماء وظلمة، والمتمكن فيه فرد الوجود فى عصره، إليه الإشادة ومنه الاستمداد وبه الفيوضات والأسرار، وهو قلب العالم الذى ينظر الله تعالى إلى العوالم فيه.

رابعًا: الإسلام دين ووطن ونسب

بيَّن الإمام أساسًا آخر من أسس السلوك إلى الله ورسوله وهو أن:

(١) الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها.

(٢) الإسلام وطنٌ والمسلمون جميعًا أهله.

(٣) الإسلام نسبٌ يوصل إلى رسول الله ﷺ.

---

(٦٣) الإمام أحمد فى المسند.

(٦٤) سورة البروج آية ٣.

قال رضوان الله عليه:

إنى كتبتُ كتابَ (الإسلامُ وطن) وكتاب (الإسلام نسب) وكتاب (الإسلام دين) وكأنى أستمد من الغيب المصون المنبئ بأن الله سبحانه وتعالى يعيد مجد الإسلام كما كان في السلف الصالح، ويظهر آياته الكبرى لتنجيز ما وعد به بقوله تعالى: ﴿ فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾[٦٥]. وكنت أكتب وكلى رجاء فى الله تعالى أن يجمع قلوب جماعة المسلمين ويؤيدنا بروح منه سبحانه ويمدنا بنصره العزيز حتى تشرق الشمس من مشرقها.

وأكتب هذه الكتب فى السنة السادسة والعشرين بعد الألف والثلاثمائة، محاطًا بما يُيَئِسُ أهل الجهالة بالله ويسارع بالمغرورين إلى القنوط من رحمة الله بما يرونه من القوة والصناعات عند أعداء الله تعالى، وبذلك مالوا إليهم وتولوهم. فكنت أكتب طامعًا وكأنى تشرق علىّ العناية من الله تعالى بأمة حبيبه ومصطفاه ﷺ. واشتد الأمر حتى صار المسلمون فى أكثر البلاد يساعدون الأعداء على البقية الباقية لهم، فلم أزدد فى الله إلا رجاءً، وفى الله تعالى إلا ثقة، وبتصديق وعده العزيز إلا طمأنينة. ومكثت أكثر من عشر سنين وأنا بين فرح بوعد الله، حزين مما أراه، فأحببت أن أطبع هذه الكتب كتابًا كتابًا، ولكن سواطع أنوار تصديق وعد الله وعبير طيب عناية الله أظهرت عجائب خَفِىّ لطفِهِ بأمة حبيبه ومصطفاه، فسرت روح معونة الله، فحركت القلوب والأبدان، وأحيت العقول والأفكار، وأيقظت من أنامتهم الغفلة وأرقدتهم الجهالة، وكم لله من لطف خفى.

وقال أيضًا: حيث إن الإسلام دين، يجب أن نعمل به عمل المؤمن الكامل التصديق الذى يتيقن أن العمل به: سعادة فى الدنيا، وتخفيف عند الموت بالبشائر التى تتوالى على المسلم عند قبض روحه، وراحة فى القبر بما تشهده النفس بعد مفارقة الجسم مما أعده لها ربها سبحانه وتعالى وللجسم فى النشأة الآخرة. ولا يخفى أن للنفس بعد مفارقتها للجسم فى هذا الكون اتصالاً نسبيًا بالجسم كاتصال الشمس وهى فى السماء الرابعة بقاع البئر العميق وقت السمت (أى عندما تكون الشمس فى وسط السماء). فكما أن الشمس ترتسم في الماء الذى فى قاع البئر العميق وتؤثر عليه وتنوره وتجعله منيرًا ويزول منه العفونات والأبخرة الفاسدة، فكذلك النفس إذا كانت فى عالم الملكوت اتصلت

---

(٦٥) سورة المائدة آية ٥٤.

بالجسم فأكسبته إشراقًا ، وحفظه الله بهذا الإشراق فى حصن منيع . كما نرى ذلك محسوسًا فى الأماكن التى يدفن فيها أهل التقوى والصلاح من العلماء العاملين الذين نفعوا العامة بعلومهم وعملهم ، فإن الله يكرمهم فيجعل أماكن قبورهم محل تنزل رحمته وعناية لعباده بزيارتهم والاعتبار بهم فى أعمالهم ونيل النعيم المقيم يوم القيامة ، وذلك لأن العامل بأحكام الإسلام المحافظ على أركانه وَعَدَهُ الله بالنعيم الأبدى والفوز العظيم فى دار رضوانه وبساتين فردوسه ، فيكون المؤمن العامل بوصايا الإسلام وشرائعه سعيدًا فى الدنيا لما شرح الله صدره له من العمل فى الدنيا لله تعالى ، فيكون غنيًا بالله عن شرار الخلق ، فرحًا مستبشرًا عند الموت ، مستريحًا آمنًا فى قبره ، منعمًا مجملًا بأكمل المشتهيات وأشهى الملاذ عند يوم القيامة . وتارك العمل بوصايا الإسلام ذليل فى الدنيا ، لأنه بتركه العمل بالقرآن والسنة صار عبدًا لشهواته وحظه .

ولما كان الإسلام وطنًا لكل مسلم ، فالواجب على كل مسلم بذل النفس والنفيس فى حفظ هذا الوطن العزيز والذود عنه بكل ما فى الوسع ، حتى يكون وطننا العزيز أغلى عندنا من أنفسنا ومن آبائنا ومن الدنيا ومن أولادنا وأموالنا وتجارتنا وزراعتنا ، حتى تظهر جمالاته الحقيقية علنًا ، وخيراته الجميلة جلية ، وفوائده الحقيقية مشهودة . وكذلك نعتنى بوطننا العزيز ونحفظه ، والعمل له والسهر والتعب فى اختراع ما به رفعة شأنه وإعلاء كلمته وقوة سلطانه وثروة أهله وخير بنيه بالعلم والعمل لا بالتمنى والأمل . وبذلك يكون كل فرد من أهل وطننا العزيز عزيزًا غنيًا شريفًا كريمًا إمامًا متبوعًا إن لم يكن أميرًا أو وزيرًا أو قائدًا ، كل ذلك يكون ببذل ما فى الوسع لإعزاز وطننا وجلب الخير له ودفع عدوه عنه والغيرة عليه والعصبية له ، حتى يكون كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور هذا الوطن العزيز بحفظه من عدوه وبجلب الخير لإخوته أهل الوطن .

وكل واحد من المسلمين فى أى أرض كان وعلى أى حال وفى أى شأن كان يجعل مهمته العظمى وغايته القصوى حفظ ثغره الذى هو عليه .. ولو أهمل الواقفون على الثغور ، فإن هذا الوطن العزيز الذى هو الإسلام محاط بعناية الله ومعونته ، قال الله تعالى : ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾(٦٦) ، وقال تعالى : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾(٦٧) وقال تعالى : ﴿وكان حقًا علينا نصر المؤمنين﴾(٦٨)

(٦٦) سورة الحجر آية ٩ .

(٦٧) سورة محمد آية ٧ .

(٦٨) سورة الروم آية ٤٧ .

وقال تعالى : ﴿أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون﴾[٦٩] وقال تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[٧٠] وقال ﷺ : (احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك)[٧١] . وإن هذا الوطن العزيز الذى هو الإسلام كان الواقف على جميع ثغوره سيد خلق الله وإمام رسل الله سيدنا ومولانا محمد ﷺ منفردًا ليس معه إلا الله فأيده الله ونصره . وهكذا لو أن واحدًا منفردًا من المسلمين قام محافظًا على ثغره - ولو أهمل جميع من على الثغور - فإن الله تعالى ينصره ويحمى به بقية الثغور ويمده بالملائكة والمؤمنين ، سر قوله ﷺ : (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام ، فإذا تهاون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك)[٧٢] ، بالمحافظة على وطننا العزيز وببذل أنفسنا وأموالنا فى الذود عنه وبالمسارعة فى العمل له ، يصبح من فى الأرض جميعًا إما عبيدًا لنا أو أتباعًا أهل ذمة أو إخوانًا لنا يعملون لوطننا كما نعمل نحن لهم ، وبذلك يمنحنا الله العزة الحقيقية التى تلمس بالجوارح وتشعرها القلوب ، فيشهد المسلم العالم كله يدينون له ذلًا وصغارًا إذلالًا لأنفسهم وإعزازًا لنا وإكبارًا ، أو يدينون بديننا الحق ، فيكونون للمسلمين إخوانًا .

فيا إخوتى المؤمنين : باقتدائكم بسلفنا الصالح ، ورجوعكم إلى ما كانوا عليه ، واتخاذ الإسلام هو الوطن العزيز الذى يفدى بالأنفس والأموال .. تفتح لنا يا إخوتى كنوز الأرض بالعلوم والمخترعات ، وتفتح لنا مدائن الأرض بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله ، وتنشرح صدورنا بما يجدده الله لنا ويفيضه علينا فى كل نفس من الخير والفضل العظيم ، وبما نناله من الخير على يد أبنائنا وجيراننا وأهل بلدنا المسلمين الذين يبذل كل واحد منهم ما فى وسعه ليدخل السرور على قلب أخيه كما قال الله تعالى : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[٧٣] ، وبذلك يكون كل مسلم وهو فى كون الفساد ودار الفناء كأنه فى الجنة لانشراح صدره وتيسير أمره وعمله بما يرضى ربه عنه .

وكفى بذلك يا أخوتى سعادة وعزًا فى الدنيا ، مع أن هذه اللذة والنعمة فى الدنيا بالنسبة لملاذ الآخرة ونعيمها كآلام المرض فى جانب ملاذ العافية .. وهناك فوق ذلك ملاذ ونعم وخيرات لا يمكن أن تتصورها العقول ، قال الله تعالى : ﴿فلا تعلم نفس ما

---

(٦٩) سورة المجادلة آية ٢٢ .

(٧٠) سورة النحل آية ١٢٨ .

(٧١) الترمذى والإمام أحمد فى المسند وأبو الفرج الجوزى فى صيد الخاطر .

(٧٢) أبوداود وابن ماجة والدارمى ومالك فى الموطأ .

(٧٣) سورة المائدة آية ٢ .

أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[٧٤] ، وليس بإنسان بل ولا حيوان أعجمى من يجعل له وطنًا آخر غير الإسلام يتعصب له ويدافع عنه ويقوم عاملًا بالباطل بعد علمه حق العلم أنه بمحافظته على وطنه العزيز الذى هو الإسلام يكون ملكا « بكسر اللام » عزيزًا فى الدنيا ، ومَلَكًا « بفتح اللام » مقربًا متمتعًا بمشاهد القدس الأعلى يوم القيامة .

هذا ومتى قام عامل بالباطل ولجح فى عمله ، أو متى قام مجتمع من الناس يعملون عملهم ولم يكن الله معهم ولجحوا فى عملهم ، فإنهم ولو نالوا ما يقصدون من حظوظ عاجلة وملاذ فانية لا تدوم لهم ، إلا ريثما يفارقونها إلى الهاوية بالموت أو تفارقهم قبل الموت ، فيرجعون إلى الذل والهوان ، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ، قال تعالى : ﴿يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[٧٥] .

فيا إخوتى المسلمين : ليس بينكم وبين المجد الذى كان لأسلافنا رضى الله عنهم إلا كما بينكم وبينهم من أنهم اتخذوا الإسلام وطنًا فعملوا له وحفظوه ودفعوا عنه أعداءه وجلبوا له كل الخيرات ، وأنتم اتخذتم أرضًا تسكنونها وطنًا وتركتم الإسلام وعملتم للأرض ، فالتفت الله عن الذين لم يتخذوا الإسلام وطنًا ، فجاء أعداؤهم وملكوا الأرض منهم وأذلوهم فى عقر بيوتهم ، وما أذل الله قومًا بعد أن أعزهم إلا بترك ما به كان عزهم ، قال تعالى : ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مرد له﴾[٧٦] .

فيا إخوتى المسلمين : الأمر سهل ، والله قريب مجيب تواب غفور ، فهلموا بنا نتوب إلى الله تعالى ونندم ، ونعاهد الله تعالى فيما بيننا وبينه سبحانه على أن نتشبه بسلفنا الصالح ، ونجاهد أنفسنا على الاقتداء بهم ، ونقوم بإخلاص لله رب العامين فى تجديد سنن نبينا ﷺ والعمل بكتاب الله تعالى ، ونجعل الحق سبحانه هو الحكم العدل ، أمره فوق شهوتنا وحظنا ولذتنا وأملنا ، ونعرف الخلق بالحق لا نعرف الحق بالخلق ، فإن بعضنا من جهالته بلغ به الجهل إلى أن بالغ فى مدح أعداء الله وأعدائنا حتى رفعهم إلى أن جعلهم خلفاء ربنا وأن الله يحبهم ويبغض المؤمنين .

وقد تغالى غيرهم من المسلمين فجعل قومًا يعتقدون أن الله لامس امرأة فحملت منه

---

(٧٤) سورة السجدة آية ١٧ .

(٧٥) سورة الشعراء آية ٨٨ ، ٨٩ .

(٧٦) سورة الرعد آية ١١ .

ووضعت ولدًا هو ابن الله ، عقيدة تبين أن معتقدها ليس له عقل يزن به ولا فكر يفكر به ولا قوة إدراك يدرك بها . جعلوهم أئمة يهتدون بهم مع قلة عقولهم ، وقادة يقتدون بهم مع ضعف مداركهم ، وجعلوهم رجال الرحمة ومبعث الخير وهم لا يسمعون ولا يعقلون ، ولو أنهم كانوا يسمعون لسمعوا الأدلة الناصعة على تنزيه الله عن الولد والوالد وتقديسه عن الشبيه والنظير . ولو أنهم كانوا يعقلون لما اعتقدوا تلك العقيدة التى لا يعتقدها حيوان ، لأن الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيوانًا مثله فى الشكل أو فى العمل ابن إنسان ولو تفوق عليه فى الطرق التى يجلب بها الخير لنفسه ويدفع بها الشر عن نفسه . فإذا كان الحيوان الأعجم لا يعتقد أن حيوانًا منه ابنُ إنسان يجب أن ينقاد له كما ينقاد لأبيه لأن أباه ملك الحيوان ، فكيف يعتقد الإنسان العاقل أن الله العلى العظيم يطأ امرأة يأتى منها بولد يكون هو الرب أو ابنُ الرب ؟ .

ولو تأمل أهل الجهالة فى الحمل والولادة فإن كل تأويل تأولوه يخجِلُ وجهَ حيوان أعجم إذا تصوره ، ويتبرأ منه القرد والنسناس فضلًا عن الإنسان ، فقومٌ لم يجعل الله لهم نورًا يميزون به بين جمال الروح الإنسانى وجمال الجسم الحيوانى وافتخروا باستخدام المادة وتنويعها كما يعمل العنكبوت فى المادة لتحصيل قوته وكما يعمل النحل فى تنويع المادة لنفعه ، فهم آلات لخدمة المادة للنفع بها .. فهل يكون أمثال الحيوانات أئمة للمتقين أو قادة للحكماء الذين كبرت نفوسهم وكملت عقولهم أو خلفاء ربنا من أئمة الهدى والمتقين؟ اللهم رحماك بالمسلمين .

يا إخوتى المسلمين : وطنكم العزيز الإسلام ، وقد أمرنا بالعمل فى الدنيا للدفع عنه والمحافظة عليه وإعزاز جانبه ، قال تعالى : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾(٧٧) ، وقال تعالى : ﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾(٧٨) .. وإنى أبشر إخوتى المسلمين أننا فى زمان لو أننا عملنا بجزءٍ من عشرة أجزاءٍ من وصايا الإسلام منحنا الله العناية الإلهية وأذل أعدائنا وجعل لنا السلطان ووفقنا للعمل بكل وصايا الإسلام ، فكنا ونحن فى القرن الرابع عشر كأننا فى القرن الأول لقوله تعالى : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾(٧٩) فى أى زمان كانوا وفى أى مكان ، ولا نزال فى معية رسول الله ما دمنا نعمل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وذلك لأن الله تعالى يقول : ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم

(٧٧) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٧٨) سورة التوبة آية ١٠٥ .

(٧٩) سورة النحل آية ١٢٨ .

محسنون ﴾ .

ولا تحصل التقوى والإحسان اللذان ينتجان الشرف العظيم الذى يكون الله تعالى به معنا إلا بعد أن نكون مع رسول الله ﷺ بالتجمل بالصفات التى أثنى بها على أهل معيته ﷺ فى آخر الفتح ، قال سبحانه : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماءُ بينهم ﴾[80] . وكل مسلم يحب أن يكون مع رسول الله ﷺ ، ما عليه إلا أنه يجاهد نفسه أن يتشبه بأصحابه الكرام ، ثم يبشر نفسه بأنه ممن اشتاق إليهم رسول الله ﷺ . ولا يشتاق رسول الله ﷺ إلا إلى أحبابه فى قوله : (وا شوقاه إلى إخوانى الذين لمَّا يأتوا بعد)[81] .

حقًا أقول إن المسلم فى هذا الزمان يمكنه بتوفيق الله وعنايته أن يكون مع رسول الله ويكون الله معه ويكون محبوبًا لرسول الله محبوبًا لله بلفتة قلبه وحركة جسمه . وإن مسلمًا يوضع له المعراج ليسمو إلى جبروت القدس الأعلى ، تهوى به شهوته إلى أسفل سافلين الحطمة ، والذل لغير مسلم ، والإسلام برئ منه ، لأن يعمل بغير شرائع القرآن ، قال تعالى : ﴿ ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا ﴾[82] . ومن يؤثر حظًا فانيًا يتوهم أن يناله قد لا يناله ولو ناله على سعادة أبدية ونعيم مقيم ورضوان من الله أكبر ، هذا فى نظر الحكماء أضل من الأنعام وأشقى من الشياطين وأدنى من الجماد وإن كانت صورته صورة إنسان .

ومن كان يترك الكمالات النفسانية والتجمل بالفضائل القرآنية والتحلى بحلل الرجال العاملين لله يترك كل ذلك للذة مطعم يأول أن يكون كالمرحاض للبول فقد أبدل النعيم الدائم بالشقاء الأبدى ، والخير الحقيقى بالضرر الذى لا يزول . فالإسلام هو الوطن والعمل له به عز فى الدنيا وسعادة فى الآخرة . وعلى ذلك فالمسلم بجزائر المحيط الأطلنطى يدافع عن وطنه الإسلام وعن أهل وطنه المسلمين بنفسه وماله وهم فى جبال القوقاز ، يبذل ماله إن لم يتمكن من بذل نفسه لهم ، ويقوم حاثًا أهل وطنه فى بلده أن يدافعوا عن مواطنيهم فى الإسلام وعن وطنهم الإسلام بأنفسهم وأموالهم ، فإذا انفصل المسلمون وهم فى رأس الرجاء الصالح عن المسلمين وهم فى جبال القوقاز كان كفصل الرجل عن الرأس ، وبفصل الرجل عن الرأس لا يخفى ما يحصل من ضعف الجسد

---

(٨٠) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٨١) الترمذى فى العلم ، وابن ماجة فى المقدمة وابن رزين فى تيسير الأصول .

(٨٢) آية النساء آية ١١٥ .

وعطلة آلاته وأدواته .

ولقائل أن يقول كيف أدافع عن وطنى وأهل وطنى وقد حال بينى وبينهم العدو الساعى فى محو القرآن والسنة بالضلال والكفر؟ أقول لك يا أخى : إن عجزتَ عن العمل بيدك فاعمل بلسانك ، فإن العمل باللسان مفتاح العمل باليد ، وإن عجزت عن العمل بلسانك فاعمل بقلبك بأن توجه قلبك إلى ربك سبحانه وتسأله أن يحفظ وطنك وأهل وطنك ، وأن يجدد المجد لك ولأهل وطنك بالعمل لوطنك العزيز الذى هو الإسلام ، فإنك بذلك لا تُحْرَمُ يا أخى من عناية الله بك ومعونته لك ، وإكرامًا منه يجمع عليك إخوتك الصادقين الذين يمكنك أن تعمل معهم بلسانك ثم يكون الله معكم فتعملون بأيديكم ، قال الله تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾(٨٣) ، وقال تعالى : ﴿الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾(٨٤) .

فإذا عملت بقلبك ولسانك وجمع الله عليك إخوتك المخلصين وهم القليلون فى كل زمان خصوصًا عند قوة سلطان أعداء الله ، فإنكم يا أخى بتوجهكم إلى الله سبحانه وتعالى بوجوهكم رغبة نيل رضاه الأكبر يلقى العداوة والبغضاء بين أعدائكم ويشغلهم بأنفسهم عنكم حتى يوقد نار الحرب بينهم فيمحقهم بعضهم محقًا ، كل ذلك إكرام من الله لبقيته الباقية من حزبه .

كن على ثقة أيها الأخ أن أكبر الجهاد جهادك نفسك فى ذات الله ، فلا تشتغل بجهاد غيرك إلا بعد أن تجاهد نفسك جهادًا يجعلها سهلة القياد متلذذة بالآلام فى طاعة الله فتفرح بإعلاء كلمة الله تعالى وتجديد سنة رسول الله ﷺ ولو أدى ذلك إلى تحمل ما لا يطاق من المصاعب وارتكاب ما لا يتحمل من الشدائد ، فإن أنستَ من نفسك بتلك الصفات فتحققت أنها لا غرض لها فى مال ولا جاه ولا فى منصب ولا لذة فى الدنيا ولا شهوة فى الآخرة ، فكن واثقًا أن الله معك وناصرك .

واحذر أن تدعى أن نفسك تزكت من غير برهان يطمئن به قلبك ، فإن للنفوس أمراضًا خفية تخفى على أحذق حكماء العارفين . ومن ادعى هذا المقام بلا حجة لا يكون مع الله ، ومن لم يكن مع الله كيف يكون الله معه ، قال الله تعالى : ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾(٨٥) . اجتهد يا أخى أن تجعل همتك أولًا فى دعوة نفسك حتى تستجيب لله

---

(٨٣) سورة الحج آية ٣٨ .

(٨٤) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(٨٥) سورة آل عمران آية ١٢٦ .

رب العالمين بحال يرضيك رضاء حقيقيًا ، فإنك أعلم بنفسك من غيرك ، وإن كنتَ تجهل أمراضها فإن حظوظها التى تبعثها على العمل لا تخفى على العامل ، والله سبحانه وتعالى ينصر من ينصره ، قال سبحانه : ﴿ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ من ينصرُهُ إن الله لقوى عزيز﴾[(٨٦)] [(٨٧)].

---

(٨٦) الحج : ٤٠ .

(٨٧) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٢ العدد ١٩ ، ٢٠ (١٦ ، ٢٣ ذى الحجة ١٣٥٨ الموافق ١/٢٦ - ٢/٢/ ١٩٤٠) .

الدستور النظمى للطريق

وضع الإمام قواعد وضوابط كثيرة فى كتبه ومقالاته ودروسه ، وأجمل دعوته إلى الله ورسوله فى دستور نظمى يبين آداب السلوك فى طريق الله تعالى ، ويعتبر ميزانًا لتصحيح الأحوال والأعمال والأقوال والأخلاق ، وأملى قصيدة طويلة عام ١٣٢٤ هـ واسمها : نصائح الأصل ، لتكون نبراسًا يضئ السبيل لطالب الوصول ، ودواءً ناجعًا وعلاجًا نافعًا لتطهير الأخلاق وتزكية النفوس . وذيَّلَ الإمام بتلك القصيدة رسالة كتبها لتلميذه الشيخ صبيحى ، ومن أبياتها :

ايا رفقتى ياخُلتى يااحبتى ... على العروة الوثقى فسيروا ورافقوا

الا فاجتماعًا بالقلوب والفة ... وعونًا على عمل المكارم تلحقوا

وإياكمو اخلاق إبليس إنها ... لقد ابعدته وهو طاووس رامق

دعوا الكبر والحسد القبيحين سادتى ... دعوا طمعًا فيما يزول وسابقوا

وسترًا لعوارت الأحبة كلهم ... وعفوًا عن الزلات فالعفو ارفق

وغضوا عن المكروه اعين عفة ... وجودوا ببشر فالسماحة رونق

واياكمو وعدوكم خبث طبعكم ... وطمعًا وحب الجاه فهو يفرق

وكفوا عن التنفير واسعوا لجمعكم ... على الله فالدنيا متاع مفارق

الا من يكن فى قلبه بعض ذرة ... من الكبر والأحقاد ماهو ذائق

الا طهر الأخلاق والنفس زكها ... وإلا فسهم البعد يرمى فيفتق

الا ياأخى بالذل ترقى وترفعن ... وبالزهد تعطى ماله تتشوق

تخلق باخلاق الإله وحافظن ... على منهج المختار فى العقد تنسق

ودع عنك ميلًا للحضيض وزينة ... بها اشتغل اللاهون عنه ونافقوا

وقم داعيًا لله بالحكمة التى ... بها قد حباك الله وهو الموفق

ولا تسع للتفريق واجمع به له ... عليه اولى التسليم إذ انت واثق

الا اسرعوا احيوا لسنة احمد ... ففتنة هذا العصر كالنار تحرق

الا اطفنوها باليقين تجردوا ... عن الحظ والأهواء فالحظ مفرق

وجدوا وجودوا بالنفس تحَفُّظًا ... على السنة الغراء فالله خالق

الا بعتمو لله مالًا وانفسًا … بمدلول إن الله[1] والذكر ينطق
وعلمًا بان الدين حسن عقيدةٍ … وانوار اخلاق بها الكشف يشرق
الا خلصوا الأرواح من سجن نأيها … وجدوا لتزكية النفوس وسابقوا
الا جاهدوا تلك النفوس بهمة … تفوزوا برضوان من الله تعتقوا
على سنة المختار سيروا بهمة … عسى الله يحيينا به ويوفق
ويمحو بنا البدع التى عم نشرها … لتشرق شمس الدين والشرق مشرق
الا فابغضوا من اكد الله بغضه … احبوا بحب الله والحظ فارقوا
الا فاحفظوا الأركان اركان ديننا … صلاة صيامًا ثم حجًا تصدقوا
اديموا لذكر الله فالذكر نوره … لأهل الهدى والغى لا شك فارقوا
الا عظموا لشعائر الله تعظموا … بها وتسودوا فى القيامة تسبقوا
إلهى على طه الحبيب محمد … افض غيث إحسان به القلب يشرق
وآل واصحاب كرام ائمة … ومن تابعوا المختار بالحال صدقوا

وذكر الإمام عن تربية المريدين فى كتبه ومواجيده الكثير نذكر منها :

هذّب النفس إذا رُمتَ الوصول … غير هذا عندنا عين الفضول
حصل العلم بعزم صادق … لا تكن فى العلم كسلانًا ملول
علمٌ النفس بتوحيد العلى … من بيان الآل عن فرد قؤول
حصل الأحكام بالقدر الذى … يقتضيه الوقت لا قال يقول
حسّن النيات وانهج نهج من … صح بالإسناد تحظى بالقبول
صاحبن اهل التقى والزمهمو … واتبع نور الهدى مُثُلَ الرسول
وادخلن حصن الشريعة واهجرن … كل مفتون ومغرور جهول
واصطف الرءوف الرحيم اسعَ إلى … من يُزَكِّ النفس .. عنه لا تحول
سلمن للمرشد الفرد الذى … يحفظ الآداب حفظًا للوصول
واتل للقرآن وافقه آيةُ … وافهمن سر الإشارة والفضول
آثر الأخرى على الدنيا عسى … يقبل الله فتحظى بالوصول

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ......﴾ الآية .

وازهدن فيما يزول مسارعًا للذى يبقى باحوال الفحول
اخلصن لله قلبًا قالبًا واسألنه الفضل منه والقبول
بر اصليكَ القريبين ارضَ عن كل فرع منهما عند المحول

تأسيس الطريقة العزمية

عندما وجد الإمام أن الوقت قد حان لإعلان طريقته العزمية ، أرسل إلى السيد عبد الحميد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية فى ذلك الوقت خطابًا يطلعه فيه على استكماله لشروط شيخ الطريقة واستكمال الشروط الأخرى التى تتيح له إنشاء طريقة صوفية جديدة .. قائلًا :

صاحب السماحة الحسيب النسيب شيخ المشيخة المنيفة والنقابة الشريفة السيد عبد الحميد البكرى .. جدد الله بسماحته معالم الطريق وأيد بسيادته رجال العلم والدين .. آمين .

مولاى .. رافعه لسيادتكم العبد المسكين محمد ماضى أبو العزائم .

يشرفنى يا مولاى بعد أن تلقيت علوم الشريعة الغراء بالأزهر الشريف ، وتلقيت علوم الحكمة والأخلاق وتربية النفوس على أيدى أئمة من أهل الفرقان والولاية ، وأبواب التوحيد والأخلاق من كتاب إحياء علوم الدين ، وتلقيت كتاب قوت القلوب فى علوم أسرار الطريق ، وبيان أحوال الرجال من أستاذى ومرشدى الغريب محمد السائح الخوقندي بسنده المتصل إلى سيدى عبد القادر الجيلانى ، وتلقيت منه أسرار الطريق وأذننى بتلقين ما تلقيته عنه ، وتلقيت الرسالة القشيرية وحكم ابن عطاء الله السكندرى على أستاذى المرشد السيد حسنين الحصافى بسنده المتصل إلى الإمام أبى الحسن الشاذلى رضى الله عنه ، وتلقيت علوم أحوال الرجال ومواجيدهم على سيدى العز محمد نزيل مكة المكرمة .. بعد خدمة الطريق وعلم مآخذها .

وقد مَنَّ الله علىَّ بأن أرشدت كثيرين ، وألفت كتبًا طبع منها تسعة كتب فى علوم الشريعة المطهرة والأخلاق وأسرار السادة الصوفية .

وبما أن الله مَنَّ على بإرشاد كثيرين يزيدون عن العشرة آلاف فى أنحاء بلاد مصر ، وهم ملتمسون من سماحة مولانا تعيينى شيخًا لهم أسوة بمشايخ الطرق .

وبما أن طريقة السادة الشاذلية متفرعة إلى فروع كثيرة .. فألتمس من سماحتكم انضمامى بمشيخة السادة الصوفية أنا وأولادى وأهل طريقنا (بالعزمية الشاذلية) .

وخطاب آخر كتبه الإمام إلى السيد عبد الحميد البكرى أيضًا ، هذا جزء منه :

الحمد لله الذى أنزل على حبيبه سيدنا محمد ﷺ : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾[1] ، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالحق بشيرًا ونذيرًا .. وبعد .

فمن محمد ماضى أبى العزائم إلى حضرة صاحب السماحة الحسيب النسيب السيد عبد الحميد البكرى .. جدد الله به مناهج السلف الصالح :

تعلمون أنى بعد أن حصَّلت العلوم الشرعية بالأزهر الشريف رغبت فى تحصيل علوم السلف الصالح التى تتلقى بمعرفة النفس وعلوم القلوب وفهم الحكمة وفقه كلام الله تعالى بطرقها المشروعة بالتلقى من أهل القلوب والسماع من أهل الأسرار ، حتى أجازنى فى علوم السنة والكتاب بالسند المتصل أفراد هذا العصر الذين هاجرت إليهم من بلاد مصر إلى بلادهم لتحصيل تلك العلوم ، فمكثت نيفًا وثلاثين سنة وأنا أواصل الهجرة حيث مكان هذا العلم .

ولما أذنت بالبيان بعد جهاد نفسى بينت لإخوانى المؤمنين من منحهم الله القابل لهذا الفيض النورانى ، فبينت لأهل الخصوصية ما لا يُباح به إلا لمن حَصَّل علوم الشريعة وذاق حلاوة المعرفة وميز بين التنزيه والتشبيه ، وألقيت دروسًا فى كل بلاد هاجرت إليها بينت لهم فيها أحكام الشريعة وآدابها حتى منَّ الله علىّ بأوراد وأدعية وصلوات على النبى ﷺ كاشفة لمقاماته الأحمدية ومراتبه المحمدية . ثم تحققت أن صوتى لا يُسمع إلا مَنْ حولى ، فكتبت كتبًا كثيرة بالعلم بالله والعلم بآياته سبحانه وكتبًا فى العلم بأحكامه ورسائل فى العلم بحكمة أحكامه ، ثم وجدت واجب الوقت يدعونى لأن أقف موقفًا أدفع به أهل البدع المضلة والآراء الفاسدة من الشاطحين الغافلين والمنحرفين والذين قدموا على مصر بعلوم أوروبا الفلسفية الباطلة ، فكتبت فى ذلك رسائل ، ونَشَرْتُ مقالات فى الجرائد السيارة ، وفى كل تلك الأطوار لم أكن ألفت نظرى إلى التشرف بانتظامى فى عقد من يتشرفون برياستكم لاستغراق أنفاسى فيما أنا مول بوجهى إليه حتى ألجأتنى الضرورة للإقامة فى بلاد مصر فى ١٣٣٣ هـ لأحداث ليس هذا موضع بيانها (.........)[2] .

وإنى يا سماحة السيد قد اشتدت رغبتى فى أن تقرروا طريقى هذا وأن أكون شيخًا له ، لأن ذلك حق صوفى نهج عليه الصوفيون من أيام الحسن البصرى ، فإن الأمة رضيته

---

(١) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٢) صفحة من الخطاب مفقودة .

شيخًا لها ، وكان مولى رضى الله عنه فلم يمنعه الرق من أن يسود أهل عصره علمًا وورعًا .

وإني ألفت نظر سماحتكم إلى أن لفظة (أبو العزائم) هى كنيتى خاصة ولم يسبق لأفراد أسرتى أن يكون واحد منهم مكنى بهذه الكنية إلا أنا ، وإنى أحتفظ بها فلا أبيح لأحد أن يكنى بها إلا أولادى[٣] ، ولا أرضى أن يكون اسم من معنى الكنية لغير طريقى هذا الذى استنبطه مشايخنا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وآثار السلف الصالح وكنونى به خصوصًا فى هذا العصر الذى كثرت فيه البدع وانتشرت فيه الفتن واندرست فيه معالم الكتاب والسنة ، وأحتفظ بكامل حقوقى أمام سماحتكم ، والله أسأل أن يزيل بكم البدع المضلة ويحيى بكم السنن التى درست ، ويساعدكم على نصرة الدين وإعطاء كل ذى حق حقه إنه مجيب الدعاء .

خُدَيْم الفُقراء : محمد ماضى أبو العزائم

---

(٣) أولاده من صلبه .

دستور فقراء آل العزائم

وبين الإمام في كلمة فاتحة لدستور فقراء[1] آل العزائم بين فيها أصول الطريق مجملة ، فقال[2] :

أبين أساس طريقى هذا الذى كان عليه أئمة الصحابة والتابعين رضى الله عنهم ، وأساسه الأول المحبة لله ولرسوله ﷺ وفيهما ، ثم الإيثار فالغيرة لله ولرسوله فالمجاهدة فى سبيل الله .

يتعين على فقراء هذا الطريق أن يكون كل رجلٍ منهم متعلمًا ممن فوقه فى العلم ، ومعلمًا لغيره ، فإن من فهم مسألة من العلم صار عالمًا بها . والمتعين على كل رجل :

(١) أن يبدأ بنفسه حتى تُسَلِّمَ تسليمًا حقًا لله تعالى فى حكمه الشرعى وحكمه القدرى .

(٢) أن يدعو والديه وأهله وأولاده بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن ذلك واجب عليه كما يجب عليه السعى فى معاشهم .

(٣) أن يدعو جيرانه وعشراءه إلى الحق بالحكمة واللين ، والدعوة بالعمل فوق الدعوة بالقول .

(٤) يجب أن يحرص على صحة الإخوان الروحانية بالتواضع وحفظ غيبتهم وستر عوراتهم وإيثارهم على نفسه ، حتى يكون جسد فقراء آل العزائم صحيحًا سالمًا من الأمراض .

(٥) يجب على كل طالب لله فى طريقنا أن ينافس فى تحصيل العلم فى أعمال يعملها فى خلوته من صلاة بالليل وصيام وتلاوة للقرآن وصلاة على النبى ﷺ .

(٦) يتعين على آل العزائم من الأفراد أن يكون لكل فرد منهم سياحة روحانية يفتتحها :

---

(١) الفقير : جوال الفكر ، جوهرى الذكر ، جميل المنازعة ، قريب المراجعة ، لا يطلب من الحق إلا الحق ، ولا يتمذهب إلا بالصدق ، وهو أوسع الناس صدرًا ، وأذل الناس نفسًا ، ضحكه تبسم ، واستفهامه تعلم ، مذكر للغافل ، معلم للجاهل ، لا يؤذى من يؤذيه ، ولا يخوض فيما لا يعنيه ، كثير العطاء ، قليل الأذى ، ورع عن المحرمات ، متوقف على الشبهات ، غوث للغريب ، أب لليتيم ، قلبه مشغول بفكره ، مسرور بفقره ، لا يكشف سرًا ، ولا يهتك سترًا ، حليم إذا جهل عليه ، صبور على من أساء إليه ، حركاته أدب ، وكلامه عجب ، وقور ، صبور ، رضى ، شكور ، قليل الكلام ، كثير الصلاة والصيام ، له لسان مخزون ، وقلب محزون ، وقول موزون ، وفكر يجول فيما كان وما يكون .

(٢) مجلة السعادة الأبدية : السنه ٨ العدد ٧ ص ٢١٤ (٢٥ شوال ١٣٣٩ هـ) .

أ - بالفكر فى آلاء الله .

ب - فى حكمة الأحكام الشرعية أو القدرية .

ج - باستحضار رابطة المرشد .

حتى يحصل له التجريد وترد عليه الواردات الرحمانية أو يقتبس قبسًا من نور المشكاة المحمدى .

(٧) ليعلم كل راغب فى رضوان الله ومبتغ فضله ورضوانه أن أكمل علامة لقبول الله تعالى وإقباله سبحانه : هى ما يجمل الله به المريد من الأخلاق الروحانية والأعمال السنية والصفات الملكوتية حتى يكون المريد صورة كاملة للمرشد الدال على الله تعالى ، وقد بيّنت تفصيل هذا المجمل فى مؤلفات طبعت وأخرى تطبع إن شاء الله .

هذا وإنى موقن أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، ومطمئن القلب أن الله سبحانه يهب لهذه الأمة قسطًا عظيمًا مما وهبه لأولها معجزة لرسول الله ، ونحن فى زمان اشتاق إلينا رسول الله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام : (وا شوقاه لإخوانى الذين لمَّا يأتوا بعد ...) فى الحديث الطويل الذى رواه مالك بن أنس فى الموطأ .

أخلاق الإمام وسيرته وتراثه رضى الله عنه

- مقدمة فى الأخلاق
- ما منَّ به الله من نعم على الإمام
- جملة من أخلاق الإمام
  - بره بوالديه ووصله للأرحام ..
  رحمته ، صفحه ، كرمه ، تواضعه ، زهده
- سيرة الإمام فى مصيفه ببرج البرلس
- الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين
- الكرامة والاستقامة
- التراث العلمى للإمام (النثرى - النظمى)
- انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى

مقدمـــة فى الأخلاق

قال ﷺ : (إن لله تسعًا وتسعين خلقًا من تخلق باحدها دخل الجنة . فقال أبو بكر : أفيَّ صفة منها يا رسول الله . قال : بل فيك كلها يا أبا بكر)[١] ، أى إن سيدنا أبا بكر تخلق بأسماء الجمال الإلهى ، وبأسماء الجلال الإلهى عند المقتضى ، فأكرمه ربه فتعلق بأسماء الكمال الإلهى .

ولا مجال أصلًا للمقارنة بين مقام الرسالة ومقام الصديقية ، ولما كان سيدنا أبو بكر الصديق رضوان الله عليه قال عنه رسول الله فيما يتعلق بأخلاق الله : (بل فيك كلها يا أبا بكر) ، فما هو مقام رسول الله ؟! إن شميم المقام تعجز عن أن تحوم حول حماه الأرواح فى صفائها ، وقد قال مخبرًا : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)[٢] وقال : (إنما بُعِثتُ لأتمم مكارم الأخلاق)[٣] ولا تمام إلا بعد الكمال ، وأخبرت عنه السيدة عائشة رضوان الله عليها أنه : (كان خلقه القرآن)[٤] .

والجميع مطالبون فى نص حديث رسول الله بالتخلق بأخلاق الله ليجزينا الله الجزاء الأوفى . وإن الورثة بأنواعهم كلٌ قد ورث من المصطفى ﷺ على قدر سعة ماعونه وما أهله الله له ، أما الوارث الفرد الجامع وهو فرد وقته وإمام زمانه المبعوث على رأس كل مائة عام ليجدد للأمة أمر دينها . فقد سار على نهج حبيبه المصطفى كوراثة أكملية يهدى بالتى هى أحسن بأمر الله .

ويذكر لنا الإمام رضى الله عنه ما ينتظر العبد الذى سار على هذا الدرب فأكرمه سبحانه فى أن كبح جماح نفسه ، وعرف نفسه فعرف ربه ، ففتح له تعالى باب الأنس والمشاهدات ، فيقول مبينًا ذلك[٥] :

---

(١) أخرج ابن أبى الدنيا فى مكارم الأخلاق وابن عساكر وابن حجر الهيتمى فى الصواعق المحرقة بلفظ : [خصال الخير ثلاثمائة وستون خصلة إذا أراد الله بعبد خيرًا ، جعل فيه خصلة منها بها يدخل الجنة . فقال أبو بكر : يا رسول الله أفيَّ شئ منها ، قال : نعم جميعها من كل] وأورد أبو يعلى وأبو داود عن سيدنا عثمان بلفظ : [إن لله مائة خلق وسبعة عشر خلقًا من أتى الله بخلق واحد منها دخل الجنة] .

(٢) هذا الحديث روى عن الإمام علىّ بن أبى طالب ، وجزم به ابن الأثير فى مقدمة النهاية ، وقال ابن حجر : إنه غريب ولكن معناه صحيح ، وذكره ابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود ، والسيوطى فى الجامع الصغير .

(٣) البخارى ومسلم ومالك فى ا لموطأ

(٤) الإمام أحمد فى مسنده ، وابن جرير وعبد الرزاق ومسلم وأبو داود والنسائى .

(٥) مجلة (المدينة المنورة) السنه ٢٣ العدد ٧ ص ٢ (١٤ صفر ١٣٧٠ - ٢٤ نوفمبر ١٩٥٠) .

إن الله لا يحب من خَلْقِهِ إلا من كان على خُلُقِه ، ولا يُدخِلُ في جنته إلا من تحصن بجنته ، ولا يخص بوداده إلا من جعله رحمة لعباده ، ولا يرى ملكوته الأعلى إلا لمن بالشفقة تحلى ، ولا يتجلى ظاهرًا للمراد إلا إذا سلم من شره العباد ، ولا تظهر أنواره سبحانه في القلوب إذا تأثرت من خلقه بالعيوب ، وكيف تتجمل بالأنوار وقد خلعت عنها حلة الغفور الستار؟

حظيرة القدس لا تُنال بالرياضيات والأعمال ، لأنها نُزُلُ المقربين والأبدال ، وإنما تُقَرِّبُ القريبَ بأخلاق من تقربَ إليه ، وإنما يكون بدله إذا جمَّله بمعانيه ووصله ، وليس استحقاق الميراث بالعناء والإتعاب .. ولكنه بالمشابهة والانتساب ، فأرح بدنك من الوصب ، وعليك بالنفس تتحلى بالحب ، وانظر بعين بصيرتك حقيقة رتبتك ، فأصلك إما طين أو ماء مهين ، ومن تحقق مبدأه اشتغل بشكر الله على ما أولاه .

وقال رضى الله عنه : « عاشروا الناس معاشرة إن عشتم حنوا إليكم وإن متم بكوا عليكم ».

والأخلاق الحسنة الحميدة وصفها الإمام بأنها إما أن تكون على الفطرة والسجية إلا من بعض الرعونات التى يستغفر منها العبد ويتوب فتكون سببًا لرفعة درجته عند الله ، وإما أن تكتسب بالجهاد وبالتواجد . يبين الإمام رضوان الله عليه ذلك فيقول [٦] :

الأخلاق الحسنة إما فطرية أو تكليفية :

(١) الفطرية منها : تحصل لصفاء جوهر النفس ، لأن جوهر النفس إذا كان نورانيًا يقبل الخير ويرد الشر ، ويكون مجملًا بالرحمة والرأفة والعواطف والبر والإحسان ، فينشأ الإنسان محبًا للخير وأهله معاديًا للشر وأهله ، شكورًا فى الرخاء صبورًا فى البلاء ، يعفو ويصفح ، ويؤثر أخاه على نفسه ، ويجازى السيئة بالحسنة .. فيحبه الله والناس أجمعون ، ويعيش الناس منه فى سلامة وهو منهم فى أمان إلا حسود للنعمة أو شيطان النزعة . وهذا المفطور على جميل الأخلاق : إن أعانه الله بمرشد كامل ورث أحوال الأنبياء ومنحه الله التخلق بأخلاقه العلية ، وإن عاش فى مجتمع فاسد الأخلاق حفظه الله من شرورهم وإن أفسدوا عليه حياته لمخالفتهم إياه فى المعاملة ، وهذا أشبه بسراج بين العميان .

(٢) أما المتخلق : فإما أن يكون تخلق خوفًا أو طمعًا :

---

(٦) مجلة (الفاتح والمدينة المنورة) السنة ٣ العدد ٥ ص ٣٨ (شهر ذى الحجة ١٣٤٩) .

أ - فالذى يخاف من السوط ويطمع فى الدنيا فهذا قد يترك دينه خوفًا أو طمعًا، فيرتكب من الدنايا والسفاسف ما يتبرأ منه الحيوان الأعجم، فإن الحيوان لا يبالى أن يرفع صوته الدال على نوعه أمام أشرف الحيوانات، ولكن هذا المتكلف قد يترك دينه الحق إذا خاف أو طمع، وقد يرتكب أكبر المنكرات إذا أمن جانب الخلق، وقد يضر أمة بأسرها إذا نال خيرًا ولو من أعدى عدو لأمته، وهذا يراه الناس إنسانًا مسلمًا وهو فى الحقيقة شيطان منافق. وعلاج هذا المرض سهل إذا يسره الله تعالى. قال سبحانه وتعالى: ﴿قل إن الهدى هدى الله﴾(٧).

ب - أما الذى يخاف من الله فهو من الذين آمنوا بالآخرة فطمعوا فى الجنة وخافوا من النار، فيسارعون إلى الطاعات للنعيم المقيم، ويتباعدون عن المعاصى خوفًا من الجحيم. وقد كلف الله العلماء أن يبينوا للناس طرق الخير وموارد السعادة، لأنه سبحانه وتعالى أرسل الرسل مبشرين ومنذرين ليحصل الطمع والخوف. وأهل النفوس الزكية يعلمون الأخلاق الحسنة لأنفسهم من الناس، فإذا أحبوا شيئًا من أعمال ومعاملات وأخلاق الناس عملوا بها، وإذا كرهوا شيئًا من ذلك تركوه.

والمجتمع الإنسانى مدرسة الصديقين، وكل إنسان يحب الفضائل والكمال الإنسانى والعمل بها. وخير ما يتقرب به العبد خلق حسن يعامل به غيره، وفى الحديث الشريف (ألا أخبركم بأحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجالسَ يومَ القيامة؟ أحاسنكم أخلاقًا، الموطئون أكنافًا(٨)، الذين يألفون ويؤلفون. ألا أخبركم بأبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة؟ الثرثارون المتفيقهون الذين لا يألفون ولا يُألَفون)(٩).

والأخلاق الجميلة هى أخلاق رسول الله، وغيره هى أخلاق الشيطان. وكل مسلم يحب رسول الله ﷺ يجتهد أن يتخلق بأخلاقه ولو تكلف ليكون من أهل معيته ﷺ.

تربى الإمام على ملازمة الاستغفار، فقد روى عنه(١٠) أنه كان كثير الاستغفار فى صباه، وكان يحب العزلة والعبادة والاستذكار، فطلب العلم النافع وهو فى سن مبكرة، وكان متواضعًا لمعلميه فأحبوه، فأعطاه الله علم ما لم يكن يعلم. فطره الله منذ طفولته

---

(٧) سورة آل عمران آية ٧٣.

(٨) اللينة جوانبهم.

(٩) الطبرانى والخطيب البغدادى والترمذى وأحمد وابن حبان.

(١٠) روت ذلك السيدة زينب الأخت الكبرى للإمام.

على الأخلاق الحميدة ، فشهد له الكل بحسن الأدب ، فكان من منن الله عليه أن فطره الله على صفاء جوهر نفسه ، وفطرها أيضًا على الاستعداد للتلقى والمزيد ، وأفاض الله عليه من مننه التى لا تعد ولا تحصى .

ولما بلغ أربعين عامًا من عمره وكان وقتها فى الخرطوم بالسودان ، قال :(١١)

وانـاب المـحـبـوب لله يـبـغـى ... ان يرى الوجهَ حيث ولّى جهارا

ذاك سر الـتـجـديد خمر طـهـور ... قـد يـراه أهـل الـقـلـوب مُـدارا

انـتِ يـا نـفسُ ارجـعـى وانـيـبى ... واسـالى المـنـعـم الـعـلى الـغـفـارا

قـد بـلـغـتِ اشـدكِ(١٢) فـهـلـمـى ... فـعـسـاه فـضـلًا يـقـيـل الـعـثـارا

قـد مـضـت ثَمَّ اربـعـون انـيـبى ... رب اوزع عـبـدًا لـيـعـطـى الجوارا

واجـرنـى مـن ذلـتـى وذنـوبـى ... اعـطـنـى الـفـضـل والـرضـا المدرارا

ورضا عنك بعد ان ترضى عنى ... وامـح عـنـى يـا سـيدى الأوزارا

واعـف عـنـى وعـافـنـى يا إلهى ... اعـطـنـى الخير ربـى والأنـوارا

وافتحن لى الكنوزَ فى كل آن ... واجـعـلـنـه فـتـحًـا لـنـا وانـتـصـارا

جددن لى العطا وبالشرع احى ... مـنـهـج الـفـرد واخـذل الـكـفـارا

---

(١١) جزء من قصيدة أملاها رضى الله عنه فى ٢٤ ذى الحجة ١٣٢٦ هـ .

(١٢) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ﴾ الأحقاف آية ١٥ .

ما منّ به الله من نعم على الإمام

ولما بلغ ثلاثًا وأربعين عامًا أملى كتابًا اسمه (أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ) بدأه بمقدمة ذكر فيها المنن التى أنعم الله بها عليه فيما مضى من حياته ، فحدث عنها من باب قوله تعالى : ﴿وأما بنعمة ربك فحدث﴾[1] ، فهذه هى صفاته ، وأخلاقه ، وسيره وسلوكه إلى الله عز وجل متخلقًا بأخلاقه وأخلاق نبيه الكريم ، فقال :

مما منَّ الله به علىَّ أن جعلنى الله فى طفولتى محبوبًا لوالدىَّ وأهلى جميعًا ، وأدام علىَّ هذه النعمة إلى وقتنا هذا ، فأشكره وأسأله المزيد .

ومنها أنه حفظنى من أن أخاصم أحدًا أو يخاصمنى أحد ، أو أن أسئ جليسى وإن أساءنى ، وأن أخطئه وإن أخطأ أو أكذبه وإن كذب ، أو أواجهه بقبض وإن واجهنى بحدة ، ولكننى والحمد لله أنتهز فرصة صفائه ثم أعظ بالمعروف أو ألوِّح مع الاحتياط .

ومنها أنى أحب الخير لأهلى جميعًا وأقدمهم على نفسى مما هو خير فى الدنيا ، وأحب الخير لكل مسلم ولو كان مذنبًا ، وأتألف العصاة وأشوقهم إلى الله تعالى وأحببهم إلى رسول الله ﷺ ، وأتمنى لكل كافر أن يكون مسلمًا ، وأبذل فى ذلك مالى وجاهى .

ومنها حب أصحاب رسول الله ﷺ ، والاعتقاد أنهم أئمة حقًا وأن أعمالهم عن اجتهاد فى دين الله وإخلاص فى ذاته سبحانه وإعلاءً لكلمته ، وخصوصًا الأئمة الهداة من الخلفاء وبقية العشرة وأهل الصُّفَّةِ وبيعة الرضوان وبدر وأحدٍ وكل من رأى وجه رسول الله ﷺ مسلمًا . وأحب أهل بيت رسول الله ﷺ وهم فى أرفع المراتب من قلبى بعد رسول الله ﷺ ، وأحب التابعين وكل السلف الصالح ، ثم أحب كل مسلم لله تعالى ولرسوله ﷺ ما دام قلبه معقودًا على التوحيد ، وأكره أعماله التى تخالف سنة رسول الله ﷺ مع حسن الظن بالله تعالى أن يغفر لكل من مات لا يشرك به شيئًا .

ومنها أن محبة رسول الله ﷺ بلغت منى مبلغًا حتى كاشفنى الله تعالى ببعض معانيه ﷺ الباطنة والظاهرة ، وألهمنى سبحانه جملًا فى الصلاة عليه ﷺ .

ومنها أنه سبحانه منحنى الغيرة على السنة وتفضل علىَّ بجمال الحكمة ، حتى كانت الغيرة لا تخرجنى عن الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة وتشويق عباد الله إلى القيام بأحكام الله بترغيبهم فى عفو الله ورحمة الله وكشف ما أنعم الله به عليهم .

---

(١) سورة الضحى آية ١١ .

ومنها أنه سبحانه وتعالى منَّ عليَّ بمعانى حقيقتى التى هى كمال العبودة ، وألهمنى بذلك حسن تملق وابتهال وتضرع بعبارات ألهمنيها من أدعية وأحزاب واستغاثات من مكاشفتى رتبتى من الذل والفاقة والاضطرار والمسكنة .

ومنها أنه سبحانه وتعالى حببنى فى الفقراء وجعلنى ذليلًا لهم محبًا لمجالسهم ، نفورًا من مجالس أهل الدنيا والأمراء والرؤساء .

ومنها أن تفضل الله عليَّ بأن جعلني محبوبًا عند أحبابه الطالبين لجنابه العليّ ، مألوفًا للعباد العاشقين للعلوم النافعة .

ومنها أنه سبحانه منَّ عليَّ من بأن كثيرًا من أهل المعرفة يقتدون بى فى قولى وحالى وعملى ، ورفع ذكرى بين كثير من عباده وأنا الجاهل الفقير الضعيف .

ومنها أن الله تعالى منحنى الفقه فى كلامه العزيز وكلام نبيه الكريم ، وعِلمًا بطرق الأئمة ومعرفة النفوس .

ومنها أنه سبحانه منَّ عليَّ بمواجيد عن عين اليقين فى علوم اليقين من غوامض علوم التوحيد وروح حكمة التشريع ، ومنَّ عليَّ سبحانه بالمعونة فى أن أبين تلك المواجيد بالعبارة وأضبطها بالكتابة ، ومنَّ عليَّ سبحانه بأن أنعم عليّ بالمحبين له سبحانه ولرسوله ﷺ فتلقوا عنى تلك المواجيد وهم كثير مع قلتهم .

ومنَّ عليَّ بشقيقى السيد محمود ، ومنَّ عليَّ بأبى الحمائل وولدى محمود [٢] وإخوته [٣] ، وقد تفضل فمنَّ عليَّ سبحانه بأن حفظنى وحفظ أهلى وإخوانى من شرور الأشرار ومن فتن الحساد ومن أذية الفجار ، مما كان لا قبل لى به .

ومنها أنه سبحانه جعلنى من الذين يألفون ويُؤلفون ، وحفظ عليَّ أوقاتى بأن تُصرف إلا فى عمل فى الدنيا لكفاف أو عمل يعيننى عليه بتوفيق أظن أنه فيما يرضيه .

ومنها أن نفسى كلما تاقت إلى معصية صغيرة أو كبيرة منعنى الله تعالى عنها وحفظنى منها بهداية منه وتوفيق .

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها والله ذو الفضل العظيم﴾ [٤] .. أشكره على منن

---

(٢) ربيب الإمام وابن أخيه السيد أحمد .

(٣) أولاد الإمام من صلبه : السيد أحمد ماضى أبو العزائم ، والسيد عبد الله ماضى أبو العزائم ، والسيد محمد الحسن ماضى أبو العزائم .

(٤) سورة النحل آية ١٨ .

لا تفى بها العبارة ولا تعينها الإشارة مما هو له أهل ولست له أهل إلا بفضل الله ورحمته .

وأسأل الله تعالى أن يجازى عنا نعمته الكبرى علينا وفضله العظيم لنا : سيدنا ومولانا محمدًا ﷺ خير الجزاء بصلاة ذاتية وتحيات ذاتية وتسليمات ذاتية ، وعلى آله وصحبه وورثته وسلم .. والله أعلم .

ومن وصايا الإمام التى نتعلم منها منهجًا خاصًا بالأخلاق والتخلق بأخلاق الله وأخلاق رسول الله ﷺ ، ينصح الأمة ويوصى فيقول[٥] :

أصحاب رسول الله هم الأئمة الذين بالتشبه بهم تكون النجاة ونيل الفلاح والرضوان الأكبر فى الدنيا والآخرة . ومعلوم ما كانوا عليه قبل بعثته ﷺ من قساوة القلب وسوء الأخلاق وشح النفوس وعبادة الحظ والهوى واتباع خطوات الشيطان ، مما كان راسخًا فى طباعهم منقوشًا على قلوبهم ، يقتل الرجل منهم ليحافظ على أرذل رذيلة ، وقد تأخذه حمية الجاهلية لكلمة يسمعها فيقتل أكثر القبيلة ، حتى أكرمهم الله تعالى بإشراق تلك الشمس المحمدية ، فبدلت تلك الرذائل بالفضائل ، فتخلقوا بأخلاق رسول الله ﷺ ، وتشبهوا به صلوات الله وسلامه عليه تشبهًا جعل كل واحد منهم صورة كاملة طبق الأصل ، حتى كان الرجل منهم رضى الله عنهم يسأل عن أعماله ﷺ الخصوصية فى خلوته وقضاء حاجته ونومه وكيفية ذلك مما لم يتمكنوا من شهوده . وبلغت بهم المحافظة على التشبه به ﷺ مبلغًا به يرون من يخالفه ﷺ ولو فى حركة الجسم أو فى كيفية الأكل والشرب واللباس منافقًا - وهو مشهد أهل العزائم - ومأخذهم فى ذلك قوله تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم﴾[٦] . وقد طالبنا الله تعالى بما طالب به رسله عليهم الصلاة والسلام فى كتابه ، فيرون عمله ﷺ بحسب مراتب السنة والتشبه به ﷺ واجبًا أو كالواجب .

لا تسأل كيف بدل الله تلك السيئات بالحسنات ، وكيف رقاهم إلى أن صاروا مع رسل الله وأنبياء الله .. تَفَهَّمْ يا أخى قدر مجاهدتهم لأنفسهم وقهرهم لها على الممارسة إلى التشبه برسول الله ﷺ وبذلهم النفس والنفيس فى نيل هذا المقام العلى ، حتى اقتطعهم الله لذاته العلية ، وأشرف بهم على قدس عزته وجبروته ، وأشهدهم ملكوت السماوات والأرض مشهدًا جعل الدنيا فى أنفسهم كجناح البعوضة أو أقل ، وكذلك

---

(٥) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٩ العدد ١٢ ، ١٣ (٢١ ، ٢٨ شعبان ١٣٥٥ هـ الموافق ١٦ ، ٢٣ نوفمبر ١٩٣٦).

(٦) سورة آل عمران آية ٣١ .

أهل العناية من الله تعالى السالكون سبيله سبحانه وتعالى الراغبون فيما عنده ، يهب الله لهم مواهب فضله العظيم ويوردهم الله موارده الهنية ، فتتجلى لهم حقيقة الدنيا الدنية ، فيقهرون أنفسهم قهرًا على التشبه بأصحاب رسول الله ﷺ بوجد صادق وعزيمة ماضية وهمة إسلامية ، حتى يبدل الله سيئاتهم حسنات ، فيكونون أبدال أنبياء الله عليهم السلام وورثة لرسل الله على نبينا وعليهم أفضل الصلاة والسلام ، ويبلغ به حرصهم على التخلق بأخلاق الله تعالى والتشبه بأصحاب رسول الله ﷺ مبلغًا يكون السقوط فى النار عند أحدهم أحب إليه من مخالفة الله سبحانه ومخالفة رسوله ﷺ .

لا تظن يا أخى أن الإنسان يفارق بشريته أو يخرج من حظه وهواه ، فإن الهوى والشح والرأى لا تفارق الإنسان مهما كمل فى نوعه وأقبل بالإخلاص على ربه .. إنما هى مشاهد قدسية من عين اليقين أو علم اليقين تجعل المؤمن لا يطيع شحه (وإن دعاه موجب قاهر) ولا يتبع هواه (وإن بعثه عليه مقتضى دافع) ولا يعجب برأيه (وإن عظم فى نفسه وعند غيره) . والعبد المؤمن لا ينفك جهادُهُ نفسَه فى ذات الله ، لأنها أعدى عدوه ولها دسائس أخفى من دبيب النمل على الصخرة الصماء فى الليلة السوداء ، ويسعر نار طبعها العدو إبليس بلمته عليه لعنة الله ، ولا يزال يجاهد غيره فى الله تعالى وفى رسول الله ﷺ لأنه مطالب بهذا الحق لكل مسلم أمام ربه جل جلاله الذى يكون قاضيًا ، وأمام رسول الله ﷺ الذى يكون شاهدًا ، فإن أهمل فى ذلك كان تحت رحمة الله إن شاء رحم وغفر وهو الغفور الرحيم .

ومن ظن أنه تجاوز مقام المجاهدة لنفسه ظن شرًا ، ولا تنتهى مجاهدة المسلم نفسه إلا عند الغرغرة (الوقت الذى لا ينفع فيه عمل) أو إذا سُلِبَ العقلُ الذى به التكليف . قال تعالى : ﴿فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون﴾[7] ، فدواعى الشح والهوى والرأى سور من حديد محاط بكل إنسان يكاد يمزق أعضاء الإنسان إن لم ينفذ مقتضاه لولا عصمة الله تعالى للمسلم لهوى به شحه وهواه ورأيه إلى الحطمة . قال الله تعالى : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم﴾[8] ، وقال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا﴾[9] ، وقال الله تعالى : ﴿ومن يُوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[10] ، فالرأى والهوى والشح لوازم الإنسان ، إنما القبيح فيها أن ترى شحًا

---

(٧) سورة الأعراف آية ٩٩ .

(٨) سورة آل عمران آية ١٠١ .

(٩) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(١٠) سورة التغابن آية ١٦ .

مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذى رأى برأيه ، فإذا رأيت ذلك يا أخى فى الناس فجاهد نفسك أعانك الله كل المجاهدة أن تفارقهم وإن كنتَ معاشرهم وأن تخالفهم وإن كنت فى الظاهر توافقهم مداراة عن عرضك ونفسك .

واحذر يا أخى أيدنى الله وإياك أن تتخذ هواك إلهًا يُعْبَدَ من دون الله ، أو تجعل رأيك تعمل به دون سنة رسول الله ﷺ ، أو تطيع شح نفسك مخالفًا لوصايا الله سبحانه ووصايا رسوله ﷺ ، فإن ذلك هو النفاق العلمى العملى نعوذ بالله من النفاق . واعلم يا أخى ودنى الله وإياك بوده أن مراد الحق منك هو عين السعادة الحقيقية لك ، وبه نيل رضوانه الأكبر إذا وفقك للقيام به فضلًا منه وكرمًا ، وإن لم يوفق الله الإنسان - نعوذ بالله من حرمان التوفيق - وعمل بهواه وشحه ورأيه ، كان ذلك دليل غضب الله على الإنسان .. أعوذ بوجهه الجميل من غضبه .

فابحث يا أخى - هدانى الله وإياك صراطه المستقيم - عن آثار أصحاب رسول الله ﷺ وأخلاقهم وأحوالهم وأعمالهم ، وجاهد نفسك كل المجاهدة أن تتشبه بهم حتى تكون صورة كاملة ينظر الله تعالى إليك ، ويقبلك رسول الله ﷺ ، وتكون من أهل معيته الذين وصفهم الله وأثنى عليهم فى آخر الفتح .

وإياك يا أخى أن تقلد غير أصحاب رسول الله ﷺ ، وما رأيته يا أخى من بعض الرجال الذين أكرمهم الله فى كل عصر بعد أصحاب رسول الله ﷺ فاعتقد أنه فضل من الله خاص بمن تفضل الله به عليه ، وأن العبد الصالح الذى اقتطعه الله إليه فأفناه عن نفسه وحسه حتى سلب القوة التى بها التكليف ليس إمامًا للمتقين ولا قدوة للسالكين ، ولكنها مشاهد روحانية قد تمزق غلاف القلب ، فأكرم من رأيتهم بهذا الحال ، وسل الله لك ولهم الكمال ولا تقلدهم فإن تقليدهم كفر . وقد عمت المصيبة حتى صار بعض السالكين يقلدون من غلبت محبته حتى محقت مكانته البشرية فى نظره هو وحجبت حقيقته الآدمية فصار لا يميز بين تعسه وشرف وفقر وغنى ، حتى استوى فى نظره المؤلم والملذ لاستغراقه فى شهود الملكوت ، وتقليد هذا مع التمييز والإدراك اتباع لخطوات الشيطان وبعد عن موارد الإحسان ومخالفة لسنة النبى المختار ﷺ .

فعليك يا أخى - منحنى الله وإياك المسارعة إلى مغفرة من الله ورضوان - أن تبذل ما فى وسعك فى البحث عن الرجل الدال على الله ، الموصل إلى حظيرة القدس ، المبين لسبل الله ، الممد من روحانية رسول الله ، العارف الربانى الإنسان الكامل فى ظاهره وباطنه ، الذى هو محل نظر الله من خلق الله .. فإذا ظفرت به فاحرص على التشبه به

بقدر استطاعتك ، وتجسس يا أخى بكل ما فى وسعك عنه فى سر وعلانية ، وتحسس عنه يا أخى فى جلوته وخلوته ، ونافس يا أخى فى أن تكون صورة كاملة له ، فإن منَّ الله عليك بعظيم فضله وسقاك طهوره المقدس فى الوادى المقدس فى مقام تكون معه ويكون سبحانه معك ، فجاهد نفسك أكبر المجاهدة فى ذات الله لتكون أنت حقيقة الرجل حتى تفنى فيه فناء تكون أنت هو ، ولديها يا أخى تكون كوكبًا مضيئًا فى سبيل الدلالة ونورًا مشرقًا فى سبيل الهداية .

وقبل أن تصل إلى هذا المقام ، فاجعل كل همتك فى مجاهدة نفسك ، فإنها واللهِ يا أخى أعدى عدوك وأكبر خصومك ، فإذا تخلقت بأخلاق الله وتشبهت برسول الله ﷺ فجاهدها كل المجاهدة على شكر نُعْمَى الله التى لا تحصى . وأكثر من السجود فى جوف الليل ومن المسارعة إلى نفع إخوتك المؤمنين بنفسك ومالك وجاهك إن استطعت وأعانك الله أو بفضلها على قدر استطاعتك أعاننى الله وإياك يا أخى بروح منه .

ومتى تخلقت بأخلاق الله وتجملت بالتشبه برسول الله ﷺ كنت مع الله وكان الله معك فجبر كسر قلبك وجعله بيتًا معمورًا به سبحانه ، فتشرق أنواره القدسية من منافذ هيكل ذاتك الإنسانى ، فيجعل الله لك يا أخى نورًا فى لسانك وفى عينيك وفى أذنيك وفى يديك وفى رجليك وفى أنفك وفى بطنك وفى فرجك ، ثم يجعلك كلك نورًا ، فتكون كما قال الله تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾(١١) وكما قال سبحانه وتعالى : ﴿الله نور السموات والأرض ... إلى أن قال : نور على نور﴾(١٢) ، فيواجه النور الإلهى الحقى النور العبدى الحقى كما قال تعالى : ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾(١٣) ، وفى هذا المقام تقوم قيامة العبد المؤمن وهو حى يمشى فى الناس كما قال تعالى : ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس﴾(١٤) ، وكيف لا والعبد تخلق بأخلاق ربه وتجمل بجمال التشبه بحبيبه ومصطفاه ﷺ .. هذا العبد والله هو الشمس التى تضئ ملكوت الله الأعلى ، والنور الذى تستمد منه الملائكة الكرام ، وصورة الرحمن وآية البيان . فسارع يا أخى إلى تلك المقامات العلية ولا تحجبك عنها حظوظ نفسك الدنية وزينة تلك الدار الفانية ، فإنها هى الحجب الظلمانية ، عصمنى الله وإياك يا أخى من الناس ، وأعاذنى وإياك من الوسواس الخناس ، وفتح لى ولك أبواب

---

(١١) سورة البقرة آية ١١٥ .

(١٢) سورة النور آية ٣٥ .

(١٣) سورة القيامة آية ٢٢ - ٢٣ .

(١٤) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

فضله العظيم ، وأعاذنى وإياك بوجهه الكريم ومن موجب النقم .. إنه مجيب الدعاء .

إن الإنسان قابل لأن تنوع أخلاقه ، وبينت ذلك فى كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول) وكتاب (معارج المقربين) وكتاب (النور المبين) وغيرها ، وأقمت الحجة على ذلك فلا حاجة لإعادتها .

ولما كانت الأخلاق تتغير من سيئة إلى حسنة ، ومن قبيحة إلى جميلة ، ومن رذيلة إلى فضيلة .. كل ذلك بمجاهدة النفس وقهرها على أنواع التزكية وتناول الأدوية المزيلة لأمراضها من يد الطبيب الروحانى العارف الربانى العالم بأمراض النفوس وأسقامها وعللها ، الذى منحه الله حكمة الشريعة وأسرار أحكامها ، وجعل له بصرًا يبصر به فكان من المتوسمين ، فإذا أراد الله بعبد خيرًا منَّ عليه بهذا العارف الربانى ومنحه التسليم له فأورده موارد الصفا وسلك به مسالك القرب وعلمه مما علمه الله رشدًا حتى يعرف نفسه فيعرف ربه ، ومتى عرف نفسه وعرف ربه شهد من نعم الله التى لا تحصى ومنته التى لا تستقصى ما يجذبه بكليته إلى ربه فيحب الله حبًا يشغله عن كل ما سواه ومن سواه ، ويسارع إلى محاب الله ومراضيه فيظهر له أن الله سبحانه وتعالى يحب أخلاقه القدسية وصفاته العلية التى بها القرب منه سبحانه والوصول إليه جل جلاله ، فيسارع بحول من الله وقوة لأنه عرف نفسه أنه من طين لازب وأن ما زاد على الطين فهو فضل الله ونعماه ، فيقف عند حده معتقدًا أنه من طينة أو ماء مهين ويشهد بقية الجمال الذى جمَّله الله به من الله ولله ، ثم يشهد ما حوله من نعم أحاطت به وأنواع سخرت له من أرض وسماوات ومعادن ونباتات وحيوانات وما بين ذلك من ملائكة وجنات ونعيم وخيرات ، كل ذلك مسخر له من الله فضلًا منه وكرمًا لا لعمل عمله إذ لا حول ولا قوة إلا بالله . وهل للماء المهين فى القرار المكين حولٌ أو قوة ؟ تنزه ذو الجلال والإكرام عن أن يكون لأحدٍ عملٌ سواه ، أو يكون لأحد نعمة أو مِنَّة غير الله تعالى المنعم المتفضل الوهاب الكريم ، فيحب العبد المؤمن أخلاق الله تعالى ، ويجاهد نفسه وهواه مجاهدة قاهرة على أن يتخلق بتلك الأخلاق المحبوبة لحبيبه ومولاه ، الذى من طينة أنشأه وسواه ، ومن ماء مهين صوَّره سبحانه ، وبفضله العظيم والاه . وتقوى عوامل محبته حتى تقهر بشريته وتضعف شهوته ، ولديها يمكنه أن يتخلق بالأخلاق الربانية ، ويتشبه بحبيب الله ومصطفاه ، ويكون من أهل معيته المحمدية الذين أثنى الله عليهم .

ليس الأمر بصعب على من يسر الله له الخير ، فإن الله جل جلاله له أخلاق جمالية يعامل بها سبحانه من يحب ، وأخلاق جلالية يعامل بها من يكره ، سبحانه الرءوف الرحيم الحليم الكريم المنعم المتفضل القريب المجيب الحنان المنان ، وهى الأخلاق التى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعامل بها جميع خلقه فى الدنيا . قال تعالى : ﴿ ومن كفر فأمتعه قليلا ﴾[١٥] ، ثم يختص المؤمن بهذا الفضل العظيم يوم القيامة ، فاشتراك المؤمن والكافر فى رحمة الله فى الدنيا لتكون له الحجة على جميع خلقه يوم القيامة وليظهر سر قوله تعالى : ﴿ ورحمتى وسعت كل شئ ﴾[١٦] فى الدنيا لأنها سبقت غضبه ، وقد خصصها للمؤمنين يوم القيامة بدليل قوله تعالى : ﴿ فسأكتبها للذين يتقون ... الآية ﴾[١٧] ، وهو سبحانه القهار المنتقم شديد البطش القوى المذل المانع الضار ، وهى الأخلاق التى يعامل بها من يكره . فالمؤمن المتخلق بأخلاق الله يجمله الله بالرأفة والرحمة والعفو والسماح والشجاعة والكرم والعفة والحنان والعطف والود والفضل والعلم والحلم والشفقة ، فيعامل بها أحباب الله أهل الحق معاملة لله ، ويجمله الله بأن يجعله متصفًا بالقهر والجبروت والقوة والانتقام ، يعامل بها أعداء الله معاملة لله ، فيضع كل خُلُقٍ من أخلاق الله فى موضعه ، فيكون ذليلًا متواضعًا مسكينًا لأهل الحق مع الرأفة والرحمة والشفقة ، وبذل ما فى يده معاملة لله ، ويكون قويًا شجاعًا شديدًا مع أعداء الله حبًا فى الله وتخلقًا بأخلاق الله .. وبذلك يكون العبد متخلقًا بالأخلاق الربانية محبًا لله محبوبًا لله . فإذا رأيت فى نفسك هذا فاشكر الله تعالى ، واعلم أن الله أورد عليك من مواهبه العلية ما لا قبل لك أن تناله ولو عمرتَ الدهرَ وصَرَفتَ أنفاسك وحركاتك فى قربات ، وشتان بين ما يورده الله عليك وما توردده أنت على الله ، ومَنْ أنتَ يا مسكين وما عملك ؟ وإنما الوارد ما يرد من الله عليك لا ما توردده أنت على مولاك ، فأنت يا مسكين إن شهدتَ عملك أشركتَ بربك وكفرت بوحدة الأفعال ، وإن عملك الذى تعمله يجب أن تشهده واردًا من الله ، فإنه سبحانه إن أراد أن يوقفك أمامه مواجهًا له فى صلاتك أقامك وواجهك ، وإن أحب أن تترك شهوتك له بالصوم وفقك ، وإن أراد أن يجعل لسانك رطبًا بذكره وقلبك مشرقًا بنوره أعانك ووهب لك ، فاحذر أيها السالك أن يكون فرحك بعملك أو اعتمادك على عملك ، فإن ذلك حجاب سميك حجب السالكين وأوردهم موارد البعد عن رب العالمين . واحذر يا أخى أن تعمل عملًا لتنال حظًا عاجلًا أو نعيمًا آجلًا فإن هؤلاء عُبّادُ الأكوان ، ومكون الأكوان هو المقصود للمقربين وخير للأبرار من أهل اليمين .

إن للعبادة يا أخى آيات تظهر للعباد وأسرار تلوح لهم فيقفون عندها فتكون عبادتهم حجة عليهم ويوم القيامة يقول الله لهم : إنَّا خلقناكم لا لعلة ، ورزقتكم لا لعلة ولا

---

(١٥) سورة البقرة آية ١٢٦ .

(١٦) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

(١٧) سورة الأعراف آية ١٥٦ .

لغرض ، وصورتكم من ماء مهين وقبل ذلك أنشأتكم من الطين ، وسخرت لكم ما فى السموات وما فى الأرض فضلًا منى وإحسانًا عليكم ، فَلِمَ جعلتم علة لعبادتى ولم تخلصوا لذاتى ؟ أفى حاجة أنا إلى عبادتكم إياى ؟ أما سمعتم قولى الذى أنزلته على حبيبى ﴿ألا لله الدين الخالص﴾(١٨) ؟ أنا الغنى عنكم المتفضل عليكم ، أخلصت لكم فضلى بلا علة ، ووهبت لكم نعمتى بلا غرض ، وأنتم الفقراء المضطرون إلى جنابى ، كيف تشركون بى غيرى فى طاعتى وعبادتى ؟.. لديها واللهِ تذوب القلوب ويتمنى الانسان أن يكون ترابًا لولا عواطف رحمة الرءوف الرحيم وواسع مغفرة التواب الكريم . فأخلص يا أخى العبادة لوجه الله ، واعلم بعد ذلك أنك لو سألته لبّاك ولو ناديته لاستجاب لك وأعطاك ، هو اللطيف الخبير الكريم الفاعل المختار لما يحب ويشاء ويريد ، لا يُسئل عما يفعل وهم يُسألون . إهـ

إن الذى أقنع الناس بإمامة أبى العزائم ، وأنه الحجة وأنه الوارث الكامل لهذا العصر ، وأنه الرجل الذى كان ينتظره الرجال ليتكملوا على يديه .. ما تخلق به من الأخلاق النبوية . إنه نعمة كبرى أنعم الله بها على أهل هذا العصر ، ولذلك فإن الحديث عنه هو أيضًا حديث عن الدين ، به علمنا الأخلاق المحمدية ، وبقيت عندنا نغماته العذبة التى كان يشدو بها .

ومثال الرجال الذين تكملوا على يديه وتعلموا منه الأخلاق المحمدية الشيخ محمود أبو على وكان من رجال الليل وقطاع الطريق ، ولكن الإمام انتشله من كمينه وتاب على يديه فى نفس اللحظة . يحكى الشيخ عن نفسه فيقول : نمت هذه الليلة وأنا هائم فى حب الإمام ، تلك الصورة التى أغرقتنى فى بحار النور ، ولا زالت رائحة الإمام الطيبة أشمها وأنا نائم ، فرأيت أننى أسير من خلفه إلا أن خطوته طويلة وأنا أجرى وراءه بسرعة لألحق به ، فكنت أسير على مدى الرائحة الطيبة التى عرفتها فيه إلى أن وجدت أنه اتجه إلى شاطئ بحر وأنا بعيد عنه ، فصرت أسرع المسير إلى أن وصلت إلى الشاطئ فلم أجده ، ووجدت شخصًا وقورًا واقفًا فقلت له يا سيدى أين أبو العزائم ؟ فقال لى : ومن أنت حتى تسأل عنه ؟ قلتُ لقد كنتُ معه الليلة وبايعنى وأحبنى ، فقال : يا ولدى كلنا وقفنا عند هذا المقام ولا يدرى مقام أبو العزائم إلا أبا العزائم .. أنا عبد القادر الجيلانى .

فإذا كان سيدى عبد القادر الجيلانى الذى اجتمع فى درسه أكثر من ثلاثمائة شخص فى بغداد ، وكان يتحدث بصوت رخيم فيسمعه الكل ، فعطس مرة ، فلما شمَّته الكل اهتزت بغداد ، فاستيقظ أمير المؤمنين وقال : ماذا حدث ؟ قالوا : عبد القادر الجيلانى

(١٨) سورة الزمر آية ٣ .

عطس فشمّته أولاده ، فقال أمير المؤمنين : فماذا لوغضب ؟ . ولا نزكى أحدًا على الله ، فهو أحد كبار الأقطاب وأحد كبار الأولياء وأحد أصحاب الفضل على الطريق ، والإمام أبو العزائم أعطاه الله من النعمة ما فاق الجيلانى ، فالإمام مقامه فوق البحر وما دونه على الساحل[١٩].

وقد وصف الإخوان الإمام وعددوا مناقبه فى كثير من القصائد ، وكانوا يلقونها على مسامعه فى المناسبات والاحتفالات الدينية ، أو يرسلونها إليه بالبريد ، وهى ملأى بالمديح وإظهار الشمائل ، وبعد انتقاله رضى الله عنه قال فيه الإخوان قصائد كثيرة . ومن الأوصاف التى وصف بها الإمام ما كتبه الشيخ أحمد سعد العقاد مقدمة لكتاب عن الإمام :

اعلم أن المتحدث عن أبى العزائم إنما يتحدث على قدره لا على قدر إمامه ، وكما ورد فى الأثر أنه لا يعرف الولى إلا الولى ولا يعرف النبى إلا النبى وما عرف الله إلا الله .

شمس تضئ لعاشق وموالى تهدى المريد إلى سبيل كمال
كنز ثمين للسعادة والتقى للراغبين وخيرة الأبدال
لكن على قدرى اقول موضحًا ما لاح لى من ظاهر الأحوال

اللهم لك الحمد ، حمدًا يوافى نعمك ويكافئ مزيدك ، سبحانك لا نحصى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك ، أشرقت أنوار شمس وجودك على الممكنات ، فظهر كل منها فى مرتبة من مراتب المكونات على حسب استعداده لقبول تجلى الذات ، والأسماء ، والصفات . ونسألك اللهم أن تفيض أكمل رحماتك وأفضل صلواتك وأزكى تسليماتك على عرش تجلياتك أول التعيينات : العقل الأول ، الحقيقة المحمدية ، نور الأنوار ، معدن الأسرار ، باب أبوابك ، وعلى آله وأصحابه الناهجين نهجه المتبعين سبيله وسلم تسليمًا كثيرًا ، وبعد ..

فأستاذنا الفاضل العالم العامل ، الإنسان الكامل ، مربى المريدين ، مرشد السالكين ، إمام المهتدين ، قدوة المقربين ، تاج الواصلين ، مقوى دعائم الدين ، مجدد آداب السلف الصالحين ، فاتح أقفال غوامض معانى إشارات المحققين ، كاشف أستار أنوار أخبار العارفين ، موضح مشكلات رموز عبارات أهل التمكين ، واسطة تمام نظام عقد أهل اليقين ، ريحانة طريق هداية السالكين ، ذروة سنام علا مجد المتقين ، مسك ختام سير

---

(١٩) رواها الشيخ نصر العقاد سماعًا من الشيخ محمود أبو على .

أهل اليقين ، حيلة الخائفين ، زينة الخاشعين ، ثمرة المتواضعين ، لب المراقبين ، مركز دوران رحى المجد ، قطب فلك سماء الوفاء بالعهد ، نور شمس معالى الوقوف عند الحد ، ضياء قمر سير السلف ، نجم هداية سلوك طريق الخلف الذى أقامته العناية الربانية متبعًا للكتاب العزيز والسنة النبوية ، صاحب الأخلاق المحمدية ، المنعوت بالأوصاف الأحمدية ، المعروف بالشمائل المصطفوية ، حاوى الفضائل الملكية ، جامع الأخلاق والأفعال المرضية ، مظهر الأسرار اللاهوتية ، مجرى فيوضات الأنوار القدسية ، مهبط تنزلات النفحات العلية ، منبع العلوم اللدنية ، معدن واردات الإلهامات الودودية ، كنز التحقيقات بدقائق الأفهام الذوقية ، تيار بحر عوالى المكاشفات الجلية ، كهف غوالى علوم الحقائق بالوراثة النبوية ، سر نجاح السادة العزمية ، خاتمة دولة ولاية الأكابر الصوفية ، محمدى البشارة والنذارة العمومية ، عيسوى الانجذابات بالانعطافات الربانية ، موسوى التجليات بطور المناجاة القلبية ، يوسفى المكافئات بالمقابلات الإحسانية ، يعقوبى الثبات عند الاختبارات الجبروتية ، أيوبى الاصطبار على بليات المظاهر الجلالية ، إبراهيمى التسليم للتقديرات الأزلية ، يونسى الحمايات بالعنايات الرحمانية ، خضرى الاختصاصات بالهبات الإلهية ، صديقى النصائح وصفاء الطوية ، عمرى التفريق بين الحق والباطل فى الأمور الدينية ، عثمانى المراقبة والحياء من رب البرية ، علوى الهمة فى مقاتلة كفار الأغيار والشهوات النفسية ، مالكى المذهب تأدبًا مع بلوغه الدرجة الاجتهادية ، خارق سفينة حسه ، قاتل غلام نفسه ، مقيم جدار كنوز قدسه ، ناصب الأقدام ليلًا والناس نيام لإدراك أنسه ، مرآة النجاح ، مرقاة الفلاح ، طبيب الأرواح ، مزيل الأتراح ، مدير القداح ، ساقى صافى الراح ، صاحب الكرامات العديدة والعلوم المفيدة والآراء السديدة والإشارات الرشيدة ، السيد الشريف الحسينى الحسنى حسبًا ونسبًا ، سيدى محمد ماضى أبو العزائم .

وفى قصيدة ميمية اسمها الدرة البهية ، نهج : بردة خير البرية ، قال تحت عنوان :

أكبر نعمة فى الزمان وجود العارف المتخلق بالقرآن

الله اكبر .. فضل الله اسعدنا ... بواصل كامل فى الذات والشيم

طبيبنا وإمام العصر حجتنا : ... ماضى العزائم بدر لاح فى الظلم

يا من يعانى جهاد النفس فى شغف ... إلى الحبيب بجرح غير ملتئم

ابشر وبشر وبادر صادقًا لترى ... وراثة المصطفى لاحت على علم

كلامه سلسبيل قد تفجر من ... عين الحياة بفيض غير منفصم

شفاء نفس .. صفاء القلب بهجته غذاء روح .. دواء الجسم من سقم
دع التعصب وانظر فى مواهبه وفر من عقبات النفس واقتحم
واخلع نعال الهوى بالله معتصمًا فحزب ربك يعلو غير منهزم

وقد قيل يومًا لسماحة السيد أحمد ماضى أبو العزائم فى عهد خلافته للطريق : « بارك الله لنا فيك يا سيدى ». فقال : « بارك الله لنا فى أبى العزائم ».

إنها كلمة طيبة نرددها ونذكرها ، بل ويذكرها كل المسلمين فى أنحاء المعمورة ، فما من مسلم يصلى إلا ويقول : وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، إن البركة قائمة وموجودة وظاهرة وواضحة فى الإمام أبى العزائم فرع العترة الزكية وسليل أهل البيت ، وسرت فى ذريته بارك الله فيهم أجمعين ، لأن الحديث القدسى يقول : [إنى إذا أطعت رضيت ، وإذا رضيت باركت ، وبركتى لا نهاية لها ، وإنى إذا عُصيت غضبت ، وإذا غضبت لعنت ، ولعنتى تصل إلى السابع من الولد] ، فلما كان الإمام من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه ، حلت البركة فيه ، وسرت هذه البركة حتى عمّت أولاده بل وكل محبيه .. بل وكل من رآه ، وكيف لا .. وعين رأت رسول الله ﷺ لا تمسها النار ، قال الإمام رضى الله عنه : يد صافحت يدى لا تخيب[٢٠] ، لأنها صافحت يد الصورة الكاملة المبشرة المذكرة المحيية لنور رسول الله ﷺ فى هذا الزمان .

وقال فيه أحد مريديه :

قدست مملكة البيان وحطها[٢١] بسياج شرع للكتاب مؤيد
فجرت ينبوع المعارف للذى لولا دعاؤك بالتى[٢٢] لم تهتدِ
واعدت نهج الصالحين ذوى التقوى فى عصر جهل للعلوم ملبد
وفتحت كنزًا كان سرًا غامضًا قبل التلقى من علومك سيدى
تنقلت كالشمس فى معراجها يهدى سناها للسبيل الأرشد
فالزم حمى القطب وكن متادبًا وارع العهود ووالــه وتـودد
وتلقن العلم اللدنى الذى ما زال يفتح كل باب موصد

(٢٠) أى سلمت سلام التسليم .

(٢١) أى وحولها .

(٢٢) الآية : ﴿ادفع بالتى هى أحسن﴾ .

من حضرة قد فاح طيب عبيرها   فإذا ظفرت به ، فطف وتعبّد

ولما سئل سيدنا عليّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه عن أوصاف الولى ، أسهب فى ذلك ومما قاله فى صفات الولى وأخلاقه :

الخوف مقامه ، والذل حليته ، والرهبة باطنه ، والرغبة ظاهره ، والحيرة رداؤه ، والصبر أنيسه ، والرضا رفيقه ، والشكر زاده ، والثقة كنزه ، والفكر طريقه ، والتسليم مذهبه ، والتواضع رفعته ، والفقه منهجه ، والصدق ضالته ، والإخلاص مراده ، والسيد ﷺ مقصوده ، والله سبحانه معبوده ، والشكر ذكره ، والدعاء عمله ، وما يقرب إلى النار عدوه ، وما يقرب إلى الجنة أليفه ، وبر الوالدين سروره ، وصلة الرحم حبوره ، وإدخال السرور على عباد الله وصوله ، والرحمة بخلق الله تعالى حظوته ، والقرآن الكريم خلوته ، والحضور بقلبه مع الحق سبحانه جلوته .

وقد اتصف بها الإمام ، ومنح المزيد من ربه ، فأخلاقه هى انعكاس من أخلاق رسول الله ﷺ على مرآة قلبه وجوهر نفسه ، وهكذا يكون كل ماض أومن يحب ماضيًا .

وسوف نحوم هنا حول بعض هذه الأخلاق ، لأن أخلاقه الطاهرة لا تنكشف إلا لذوى الأرواح القدسية ، كان رضى الله عنه مجبولًا على الأخلاق الكريمة فى أصل خلقته الزكية النقية ، ولم يحصل له ذلك برياضة نفس بل بجود إلهى ، وأصل هذه الخصال الحميدة كمال العقل ، لأن به تقتبس الفضائل وتجتنب الرذائل ، والعقل أمر روحانى به تدرك النفس العلوم الضرورية والنظرية .

جملة من أخلاق الإمام

برُّ الإمام بوالديه ووصله للرحم

إن الأرحام هم أقرب طريق إلى الجنة ، بل إن الله عز وجل يغلق أبواب الرحمة أمام قاطع الرحم .

جلس سيدنا أبو هريرة رضى الله عنه يحكى للصحابة عن الأحاديث التى سمعها من رسول الله ﷺ ، وكان الجالسون أكابر الصحابة والتابعين وكثير من شبابهم ، فالتفت وقال : ليخرج من جلستنا قاطع الرحم ، فقام شاب وقال كيف عرفت ذلك ؟ فقال رسول الله ﷺ : (لا تنزل الرحمة فى مجلس فيه قاطع)[1] قال الشاب : صدق رسول الله ، والله لقد أغضبت أمى اليوم ، فذهب فصالح أمه ثم عاد للمجلس ، فجاء الفيض من عند الله عز وجل .

ولقد كان الإمام بارًا بوالديه إلى أن لقيا ربهما ولم ينقطع ذلك بعد وفاتهما .

ولما توفى والد الإمام ، أرضى زوجة أبيه بكافة الطرق ، وترك لها كل شئ ، بل ومنحها الزيادة ، ولم يأخذ من بيت أبيه إلا مكتبته الخاصة وبعد أن استأذنها فرضيت ، كذلك لما مات أخوه فإنه آثر مصلحة أولاد أخيه وتزوج أمهم برًا بأخيه وأولاده ليقوم بتربيتهم ويكونوا تحت رعايته .

وبعد أن عاد الإمام من السودان ، كان يتوجه رضى الله عنه لزيارة بلدته محلة أبو على مرة كل عام لزيارة روضة والديه ، ولزيارة أهله وأقاربه وأصحابه ، ويتودد إليهم ويغدق عليهم مما آتاه الله من فضله لكل بحسب حاله ، وكانوا يصحبونه لزيارة روضة والديه حيث يجلس هناك ، فيتمثل حاله وهو فى المهد صبيًا مع والدته وحالها معه من الحنو والعطف والرحمة والشفقة وكذا الوالد ، فيترجم لسانه من شهوده ، وإليك بعض ما قاله رضى الله عنه عند زياته لهما :

اعنى ابر والدى يا ربى	فإنهما اصلاى مذ كنت فى الغيب
بررتهما حيَّين هب لى عناية	ابرهما فى القبر بالجسم والقلب
ايا رب واجعلنى لكل قرابتى	وصولًا بإخلاص لوجهك فى جذب

---

(١) الطبرانى والهيثمى فى مجمع الزوائد .

ومواجيد الإمام فى زياراته لروضة والديه كثيرة، فهو يترجم مظهرًا مدى إحساسه بفضلهما عليه فى حياتهما وبعد انتقالهما، فيقول رضى الله عنه:

لدى روض عبد الله محجوب والدى ... وآمنة مهدية كنز تالدى
وقفت بقلب خاشعًا ارتجى الرضا ... ونظرة ود تصفو منها مواردى
وقفت ولى قلب يذوب ولوعة ... تذكرنى عهد الصبا والتواجد
انادى عطوفًا منعمًا متفضلًا ... سوابغ نعماه وإحسان ماجد
الا رحمة يا واسع الفضل والعطا ... وواسع رضوان وخير مشاهد
وقفت وقد واجهت بالروح مشهدًا ... شهدت بها الفردوس نزلًا لوالدى
ووالدتى واجهتها بعواطف ... بها صح إقبالى وصح تواجدى
وجدت وقد كنت الغريب لفرقتى ... فصرت ببشرى الفضل فى صفو واجد
واحمد جدى قد شهدت مواجهًا ... يبشرنى منه بنيل الفوائد
كانى فى الملكوت اسبح رافلًا ... اشاهد فضل الله، خير التوادد
شكرت إلهى حامدًا متبتلًا ... اعنى على شكر العطا والمحامد
سلام من الرحمن يتلى عليكمو ... ومنى تحيات لأمى ووالدى
امرغ خدى فوق ذا التراب رحمة ... حنانًا لأستجدى جميع العوائد
افوز برضوان واحظى بنظرة ... بها احظ بالزلفى واهنى الموارد
وصل على غوث الوجود محمد ... صلاة بها نحظى بخير المشاهد

وعندما كان الإمام بالفيوم أخبروه أن ابنة أخته[٢] قد وضعت، فسر سرورًا كبيرًا وتلقى التهانى وسمّاه نصر، وخرج الإمام فى طريقه للقاهرة، ولما وصل إلى مشارف الجيزة قال لصهيب سائقه الخاص: ارجع للفيوم فإنى قد نسيتُ شيئًا مهمًا، فعرض عليه صهيب أنه سيحضر له ما نسى إحضاره، فقال له: لا أستطيع أن أتخلى عنه يا صهيب، ولا تستطيع أنت عمله بدلًا منى، وفوجئ أهل بيته بدخوله وهو مستند على من معه من فرط إعياء السفر، وكان عمره آنذاك اثنين وستون عامًا، ولما سألوه عن سبب العودة، قال: إننى لم أسلم على ابنة أختى رحمى بعد أن ولدت ولم أهنئها بعد، فرجعت إليها لأدخل على قلبها الفرحة والسرور.

---

(٢) السيدة شفيقة ابنة السيدة زينب.

اخلاقه جذبت اهل القلوب له   لين وبشر وعطف عم بالكرم

ومن الأحداث التي تؤكد رسوخ قدمه رضى الله عنه أنه لم يستغل حب أولاده ومريديه له لما كانوا يقدمونه على حب آبائهم وأمهاتهم ، بل كان يأمرهم دائمًا بمحبة والديهم وطاعتهم ، وزيارتهم كثيرًا ، وكان بعض خاصة الإخوان يأتى من بلده ، قريبة كانت أم بعيدة ، ويمكث شهرًا أو أكثر ، فكان الإمام يقول له : سافر لوالديك فإن لهما عليك حقًا ، مذكرًا إياه بالواجب عليه لهما .

ولقد انطبعت صورة بره بأبويه فى أبنائه ، خاصة ابنه الأكبر السيد أحمد ماضى أبو العزائم رضى الله عنه ، حيث جلس الإمام ذات مرة يلقى درسه وهو يعانى من المرض والضعف ، فوقعت عينه على ابنه الأكبر السيد أحمد ، وجاشت فى قلبه عاطفة الأبوة واشتد تأثره بها ، لكنه كره أن يستحوذ أحد على قلبه إلا ربه ، وبعد أن انتهى من إلقاء درسه وجد ابنه السيد أحمد واقفًا بجوار الباب فى انتظار خروج سيده وأستاذه ووالده ، فما كان من الإمام إلا أن ضربه على كتفه على غير عادته ضربة شديدة وعلى مرأى من الجميع ، فاتجهت الأنظار إلى السيد أحمد لمطالعة ما يحدث ، فإذا به يخرج مسرعًا ، ويغيب قليلًا ، ويعود فرحًا مسرورًا متهلل الوجه وهو يحمل ثلاثة صناديق مياه غازية ، وأعطى منها والده والحاضرين جميعًا . ولما سُئل عما حدى به إلى فعل ذلك بعد أن ضربه أبوه ، فإذا به يقول : لقد كنت حزينًا لما رأيت من اعتلال صحة أبى ، لكنه لما ضربنى وأوجعنى أدركت أن صحته على ما يرام وقد عافاه الله مما ألمّ به من مرض ، فسارعت لعمل ما ترون شكرًا لله تعالى أن منَّ على أبى بالشفاء .

وكان دائمًا ما يوجه الإخوان إلى البر بالوالدين ، فقد توجه أحد الإخوان إلى مصيف الإمام ببرج البرلس ، وكان الإمام يلقى درسًا . وبعد انتهاء الدرس قام جميع الحاضرين لمصافحة الإمام قبل الانصراف ، ولما جاء دور هذا الأخ للمصافحة ، إذ بالإمام يشد على يده بقوة شعر الأخ عندها رغم فتوته وشبابه أن يده تكاد تتقطع .

وكان هذا الأخ قد طلب من أمه أن تصنع له شبكة ليصطاد بها السمك ، ولما ذهب للصيد وجد أن فتحات وثقوب هذه الشبكة يتسرب منها السمك بعد صيده ، وما كان منه عند عودته إلى المنزل إلا أن قذف بها فى وجه أمه وسبها ، ولما جاء دوره فى السلام على الإمام كما سبق وذكرنا إذ بالإمام يقول له : إذا كنت تكفر بمن قامت بتربيتك وتنشأتك وسهرت على خدمتك ورعايتك حتى صرت شيئًا مذكورًا فتسبها ، فكيف تؤمن بالغيب المصون يا بنى ؟! اذهب واطلب منها الصفح والمغفرة ، فإذا سامحتك فلتأتى

إلىّ ، وقبّل يديها قبل أن تقبّل يدى .

من وصايا الإمام فى صلة الأرحام من كتاب « الإسلام نسب »:

يا أبنائى : صلة الأرحام تطيل الأعمار وترضى الرحمن وتكثر الأنصار وتجعل الرجل سيدًا عظيمًا فى عشيرته ، وهى من صفات رسول الله ﷺ ، وصلة الرحم صلة للرحيم[٣]. هذا فضلًا عما يشعر به المرء المسلم من الشفقة والرحمة والعاطفة على أقاربه ، فلو لم تكن صلة الرحم شرعًا وعقلًا لكانت فطرة وسجية ، وقاطع الرحم كأنه يقول : أنا لست إنسانًا ولكن وحش ، لأن الإنسان ولو ابن زنا يعطف على أبناء أمه وأقاربها ويتعصب لها .

احفظوا يا أبنائى أرحامكم ، وصلوهم وإن قطعوكم ، وأحسنوا إليهم وإن أساءوا إليكم ، فإن الصلة واجبة عليكم بحكم الله وبسنة رسول الله ﷺ لأنها أرحامكم لا لأنهم أحسنوا إليكم ، فهم وإن أساءوا لا تسقط حقوقهم عندكم[٤] ، لأنكم يا أبنائى لو أنكم قطعتم أرحامكم بسبب إساءتهم إليكم تكونون قد حكمتم بغير ما أنزل الله ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾[٥]. صلوا أرحامكم صلة لله ورسوله ، فإن الذى لا يصل من أرحامه إلا من أحسن إليه فليس بواصل ولكنه مكافئ ، وإنما الواصل لرحمه بل والقائم بما فرضه الله عليه من وصل أرحامه لله تعالى ولو قطعوه ، وأحسن إليهم وإن أساءوا إليه غير ناظر إلى عملهم ، فإن نظر إلى عملهم وحكم عليهم بما حكموا به عليهم كان من الأخسرين أعمالًا .

يا أبنائى : إن الرجل تكون له الزوجة ، والزوجة تبغض أقارب الرجل لأنهم يشاركونها فى نعمته ، وهم يبغضونها لأنها استقلت بنعمة قريبهم وتصرفت فى ماله إلا من حفظ الله ، والمرأة ألصق بقلب الرجل ، فقد تخلو بهم وترميهم بالبهتان فيقوم الرجل بقطع أرحامه ويحارب أقاربه ويؤذى من أمره الله بالإحسان إليهم ، فتكون المرأة فى مثل هذا أشر من الشيطان وأضر من النار ، وإذا قدم الرجل لشهوته البهيمية المرأة الأجنبية على أرحام له أمر الله بصلتهم ، فإنه يكون كالبهيم بل أقل .

أبنائى : إياكم أن يحب أحدكم نفسه فيطمع فى قليل يفنى ويحرم كثيرًا يدوم ، فإن أحدكم إذا أحب نفسه فطمع فى الدنيا ونافس فيها إخوته فقد فتح على نفسه أبواب

---

(٣) روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : (إن الله ليعمر بالقوم الديار ويثمر لهم الأموال ، وما نظر إليهم منذ خلقهم بغضًا لهم ، قيل كيف ذلك يا رسول الله ؟ قال : بصلتهم أرحامهم) رواه الطبرانى فى الكبير .

(٤) قال رسول الله ﷺ : (ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها) رواه البخارى .

(٥) سورة المائدة آية ٤٥ .

شر :

الأول : بغض أقاربه الذين هم أولى الناس به ، ومتى كره أقاربه قرّب أهل الجهالة من شياطين الإنس الذين يعينون على قطيعة الأرحام وأحبهم واستعملهم فى إساءة أقاربه ، فينفق ماله فى غضب الله على شياطين الإنس وفى إساءة أقاربه .

الثانى : يبغضه عقلاء الناس لأنهم بمعاداته لأقاربه يعتقدون فيه الجهالة ومخالفة السنة ومعصية الله ، ويسيئون منه لأنه يصير عندهم لا خير فيه .

الثالث : يفرق الجماعة ، فإن كل واحد من أقاربه له شيعة يشايعونه وأحباب ينصرونه ، فإذا أحب الرجل نفسه ابتلى بعداوة تلك الشيع المختلفة فكثر همه وقلت راحته ، واشتغل عن الله واشتدت الخصومة عليه ، فبذل ما فى يده من المال فى خلاص نفسه وأذية أقاربه ، فكان حبه لنفسه سببًا فى زوال النعمة وفقدان اللذة وحرمان الراحة .

وفى مقام بر الوالدين والآداب لهما يقول الإمام رضى الله عنه :

لستُ فى مقام تقرير حقيقة خفية ، ولكنها ثابتة شرعًا وعقلًا وجلية ، وتؤثر على القلوب والحواس تأثيرًا يؤدى إلى الانفعال النفسانى والجسمانى بالعواطف والاعتقاد والانقياد ، وبالغيرة والحمية . ما لى وللتكلم فى واجب فطرت على مراعاته النفوس الكريمة !! وجبلت على القيام به العقول السليمة ؟! حتى صارت من المقرر عقلًا وعادة ، أن الولد إذا لم يقم لوالديه فيما من شأنه أن يقوم به أهل العواطف ظلم أمه .

والوالد والوالدة هما مظهر الشفقة والرحمة والحنان والبر والإمداد والإيجاد الإلهى ، لذلك فقد أوجب الله الشكر لهما ، وجعل رسول الله ﷺ الجنة تحت أقدام الأمهات ، وجعل الوالد على باب الجنة . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا﴾[٦] وقال الله تعالى : ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم أن لا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا﴾[٧] وقال تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا﴾[٨] وقال تعالى : ﴿ووصينا الانسان بوالديه حملته أمه وهنًا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىَّ المصير﴾[٩] .

---

(٦) سورة النساء آية ٣٦ .

(٧) سورة الأنعام آية ١٥١ .

(٨) سورة الإسراء آية ٢٣ .

(٩) سورة لقمان آية ٣١ .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : (قال رجل يا رسول الله من أحق بحسن صحابتى أو صحبتى . قال : أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك)[١٠] ، وقال ﷺ : (رغم أنفه رغم أنفه . قيل من يا رسول الله ؟. قال : من أدرك والديه عنده الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة)[١١] .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما أنها قالت : (قدمت علىَّ أمى وهى مشركة فى عهد قريش فقلت : يا رسول الله إن أمى قدمت علىَّ وهى راغبة أفأصلها ؟ . قال : صليها)[١٢] .

وفى الحديث الحسن عن رسول الله ﷺ أنه قال : (رضا الرب فى رضا الوالد وسخط الرب فى سخط الوالد)[١٣] ، وعن أبى الدرداء رضى الله عنه أن قال : سمعت النبى ﷺ يقول : (الوالد أوسط أبواب الجنة ، فإن شئت فحافظ على الباب أو ضيع)[١٤] ، وقال ﷺ : (من أصبح مرضيًا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى الجنة ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحدًا فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما ، ومن أصبح مسخطًا لأبويه أصبح له بابان مفتوحان إلى النار ومن أمسى فمثل ذلك وإن كان واحدًا فواحد وإن ظلما وإن ظلما وإن ظلما)[١٥] ، وقال ﷺ : (إن الجنة يوجد ريحها من مسيرة خمسمائة عام ولا يجد ريحها عاق ولا قاطع رحم)[١٦] .

هذه الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة قد بينت لنا حقوق الوالدين وشرحت لنا مقدار السعادة التى ينالها الولد ببرهما ، والشقاء الذى يناله العاق .

ومن الآداب للوالدين :

أن تبذل مالك وتحفظ مالهما ، وتأكل بعد أكلهما ، وتنام بعد نومهما ، وتلبس بعد

---

(١٠) متفق عليه .

(١١) مسلم وأحمد فى مسنده .

(١٢) البخار ومسلم وأبو داود وأحمد فى مسنده .

(١٣) الترمذى والمنذرى فى الترغيب والترهيب .

(١٤) الترمذى وابن ماجة وأحمد فى مسنده .

(١٥) ابن عساكر عن ابن عباس والسيوطى فى الجامع الصغير .

(١٦) الطبرانى فى الأصغر والمنذرى فى الترغيب والترهيب بلفظ : [يراح ريح الجنة فى مسيرة خمسمائة عام ولا يجدر ريحها منّان بعمله ولا عاق ولا مدمن خمر] وذكره الإمام أحمد والبخارى ومسلم بلفظ : [لا يدخل الجنة قاطع] أى قاطع رحم .

لبسهما ، وتجتهد أن تعمل ما يسرهما ولو كانا كافرين ، وعليك أن لا تخالفهما إلا إن جاهداك على أن تشرك بالله ما ليس لك به علم فالواجب عليك أن لا تطيعهما كما قال تعالى : ﴿ وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب إليّ ﴾[17] . وإياك أن يدفعك الطمع فتوفر مالك وتنفق من مالهما ، أو تأخذ من مالهما شيئًا تدخره لنفسك أو أولادك ، أو تجمل امرأتك بشئ لم تجمل به والدتك فإن ذلك عقوق تعذب به يوم القيامة وتعاقب به في الدنيا بعقوق أولادك لك . وكن على يقين أن برك لوالديك سعادة لك في الدنيا بالعافية في بدنك والنسيئة في عمرك والوسعة في رزقك ونجابة أولادك وسرورك بهم ، ولو تحققت ذلك يا أخي لبذلت النفس والنفيس في إدخال السرور على والديك فإنك لا تدرى متى يفارقانك .

وأكمل الآداب أن الصغير لا يطلب من والديه شيئًا إلا إذا احتاج إليه وعجز عن نيله بنفسه ، فإن أعطى له ما طلب شكر وفرح ، وإن أعطى له دون ما طلب قبل بدون أن يظهر ما لا يرضى من علامات الحزن أو الكلام . وعليه أن يسارع في بذل ما في يده لإخوته ليرضى والديه وأن يحفظ لإخوته ما معهم . وعليه أن يسارع إلى طاعة الوالدين وخدمتهما وتنفيذ أوامرهما والعمل بوصاياهما ، ويجتهد ألا يأكل إلا بعد أكلهما ، ولا ينام إلا بعد نومهما ، ويستيقظ قبل قيامهما ليتولى خدمتهما ، ويمشى أمامهما ليلًا ليقيهما ، ووراءهما نهارًا تواضعًا ، وأن يعادى عدوهما ويواصل حبيبهما ما لم يكن آثمًا ، ويجعل أوقات فراغه كلها في مراقبتهما حتى ينال بذلك صالح الدعاء منهما بالحب الخالص ليكون ذلك رقيًا له عند الله وفوزًا وسعادة .

ومن الآداب ألا يكون سببًا في تكدير صفو والديه بعمل ما يكرهانه في المنزل وخارجه ، وإن كان الوالد له زوجة أخرى فإن حقه لا يسقط عن الولد بزواجه غير أمه ، فيجب عليه ألا يدعوه غضبه لأمه أن يسقط الحق الواجب عليه لوالده ، فإن رضاء الوالدة في غضب والده مما يوجب مقت الله تعالى ، بل يلاحظ حقوق والدته وزوال ما في نفسها من الحزن ويقوم لوالده بحقوقه مختفيًا عن والدته حتى لا يغير قلب واحد منهما عليه ، وهذه من الكمالات النفسية .

إذا قصّر الوالد في القيام بشئون ولده فمن الأدب أن يرجع الولد باللوم على نفسه وأن يتجمل لوالده بما يعيد له الرحمة الأولى ، فإن رحمة الوالدين لا تنكر ولا يسلبها من القلب إلا عمل قبيح يحصل من الولد ربما لجهله يراه حسنًا منه .

---

(١٧) سورة لقمان آية ١٥ .

قد يكون الوالد سخيًا وصالًا لأقاربه فيكره ابنه ذلك ويظاهره فتنزع رحمة الوالد من قلبه ، وقد يكون الوالد ميالًا للزواج فيكره الولد منه ذلك لجهالته ، والأدب يقضى على الولد أن يتجمل لوالده بكل أنواع الجمال ويطيعه إلا إذا أمره بإثم فإنه يعتذر إليه .

أيها الولد الذى جعل الرحمة تنزع من قلب والده وتبدل بقسوة وجفوه : لابد أن يكون من عملك فى ذات والدك أو سوء معاملةٍ لزوجته أو من يحب . أنا أعتقد أن النساء يبغضن أولاد الرجال ويسعين لكيدهن ، ولكن الحكيم العاقل البار يتجمل بأنواع الجمالات لوالده ولزوجة والده ولأحباب والده من التواضع والخدمة والمسارعة إلى عمل ما يَسُر وإظهار الإخلاص وذكر ما قل من أعمال البر ونسيان ما عظم من أعمال الشر . ولا أشك أن من تخلق بتلك الأخلاق ألفته الوحوش فضلًا عن الوالد وزوجته .

يا بنى : لا خلاص لك من شرور الدنيا وعذاب الآخرة إلا بتحمل أصعب الصعوبات وأشد الشدائد فى نيل رضاء والديك والتأدب لهما بما يليق بهما . وإن نفسًا واحدًا ترى نفسك لا تتحمل تلك الشدائد فتعادى والديك يكون من فعل ذلك سجل على نفسه الشقاء .

لو تصورتَ يا أخى كيف كانا يفرحان بك صغيرًا ويبذلان نفائس أموالهما لسرورك ، وكيف تحملت والدتك فى حملك ورضاعك وفى تمريضك وما تحمله والدك فى تربيتك .. لبذلت وسعك لتسرهما وتكرمهما ليموتا راضيين عنك داعيين لك وتعيش بعدهما مطمئن القلب بأنك ستنال الخير ببركة دعائهما والذرية الصالحة البارة ببركة رضاهما مع ما يحصل لك من البهجة والسرور عندما تتذكر أنك أحسنت إلى والديك وأن الله سبحانه وتعالى سيدخلك الجنة مع الأبرار البارين ، تلك البهجة يا أخى خير من الدنيا وما فيها .

وأظنك تقول يا أخى : أبنائى وزوجتى . أنت مسكين لا تعلم أرزقت بهم ليكونوا لك خيرًا فى الدنيا والآخرة أو شقاء لوالديهما فى الدنيا والآخرة ؟ فكيف يا أخى تترك الأمر الجلى البينة سعادته ، وهو بر والديك الذين أحسنا إليك ؟ . وأوجب الله عليك أن تقوم لهما بالإحسان وتجتهد فى الأمر المشكوك فيه الذى لا تعلم عاقبته وهو أن تدخر لأبنائك وتهمل الحقوق الواجبة لوالديك - أعاذنا الله وإياك يا أخى مما يوجب المقت والسخط . ولو أنك ادخرت لأبنائك نفسًا عالية ترفعهم عن سفاسف الأمور ، وعقلًا ذكيًا يعقلهم عن مهاوى المقت ، وخلقًا جميلًا حسنًا تحسن بهم معاشرتهم لأرحامهم وأقاربهم وكنزًا من الدين يمنحهم الله به من السعادة فى الدنيا والآخرة لكان خيرًا من نفائس الأموال

وكنوز الذهب والفضة .

ومن بر الوالدين بعد موتهما : الاستغفار لهما ، والصلاة عليهما ، وصلة الأرحام التى تدلى إليهما ، وإنفاذ عهدهما من بعدهما ، وإكرام صديقهما . قال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله إذ جاءه رجل من بنى سلمة فقال : يا رسول الله هل بقى عليَّ من بر أبويَّ شئ أبرهما به بعد وفاتهما ؟ قال : (نعم .. الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما وإكرام صديقهما وصلة الرحم التى لا توصل إلا بهما)[١٨].

ومن إكرامهما فى حياتهما أن تبر يمينهما ، فترى الفاسق الغوى إذا مات والداه أو أحدهما دعاه الطمع الأشعبى والغرور بالدنيا ونسيان يوم الحساب أن يقوم فيحارب إخوته وأخواته ويعتقد أنه لا عدو له فى الأرض إلا أبناء والديه ، ما ذلك إلا لأن الجهل أنزل المال عنده منزلة الإله المعبود الذى يأمره فيطيعه ، ومن الضلال من يسلك الناس على إخوته الأشقاء أو أبناء العلات ليستريح من منافستهم له فى هذا العرض الزائل . ولعمرى إن هذا العمل لا يعمله رجل من أهل الجنة ولا من ذاق حلاوة الإيمان .

كن يا أخى على يقين أنك إن بررت والديك بعد موتهما بصلة أرحامهما أن الله تعالى يبارك لك بركة تدوم لك حتى تكون فى الفردوس الأعلى . ومن اعتز بمال يفنى ، وملك يزول ، ورياسة تتحول ، ورياش يبلى ، واستعان بأهل الزور والبهتان فقطع أرحامه ليكثر ماله فرحًا بالمال والسيادة والرياسة .. كان كمن عرَّض نفسه لشقاء الدنيا ، فإن قطيعة الرحم تعجل عقوبتها فى الدنيا خصوصًا وأن قطيعة الرحم عقوق للوالدين ، وعقوق الوالدين موجب لسوء الخاتمة والعياذ بالله .

والأرحام فى الأصل كل من لك به قرابة توصلها بك أمك نسبة للرحم ، ولكن العرف الشرعى أطلق اللفظ وجعلها عامة لكل من لك به قرابة تدلى إلى أمك وأبيك . وجعل قرابة الأم أولى بحسن العاطفة وإن كان للعصبة تأثير على النعرة بالنسب والحمية للقرابة . فابدأ أيها الأخ أيدك الله بالتوفيق بصلة أرحامك معتقدًا أن ذلك سعادة لك فى الدنيا والآخرة ، وليكن ذلك بقدر استطاعتك ، وابدأ بنفسك ثم بمن تعول .

ومن يدفعه الأمل إلى الطمع فيقصر فى حقوق الصلة فيحتال فى سلب ما فى أيديهم فيكون قد ارتكب جريمتين : جريمة التلصص وجريمة قطيعة الرحم ، واللص الذى يتلصص على الأجنبى أقل وزرًا منه . كيف يكون سرورك أيها الأخ إذا أنت أكرمت إخوتك وأقاربك وتحققت أن الله تعالى يكرمك فى الدنيا بأن يجعل فى قلوب أبنائك الرحمة

---

(١٨) رواه أبو داود والترمذى فى رياض الصالحين .

والعاطفة بعضهم لبعض وشهدت ذلك فى حياتك، وانتقلت إلى الدار الآخرة شاكرًا ربك على ما وهب لهم من التعاطف والتواصل والتآلف والمساعدة والمسارعة إلى جلب الخير لبعضهم ودفع الضر عن بعضهم، وانتقلت إلى البرزخ فوجدت قبرك روضة من رياض الجنة فكمل سرورك وتمت بهجتك ؟ ثم انظر يا أخى للعاق لوالديه القاطع لرحمه كيف تصب عليه البلايا فى الدنيا صبا بكثرة القضايا والخصومات، ثم يجعل الله له أبناء فجرة يبددون ما جمع فى حياته وينغصون عيشته بما يقع بينهم من الخصومات والعداوة وما يناله من قبيح أعمالهم من الناس حتى يتمنى أنه لم يكن تزوج. وأنه يوجد فى الدنيا فيعيش طول عمره فى شقاء وكبائر حتى يفارق الدنيا فينتقل من آلام بدنية فكرية إلى حفرة من حفر النار - نعوذ بالله من قطيعة الأرحام - ولا يصبر أبناؤه حتى يواروه فى التراب بل تقع بينهم المنازعات والمخاصمات، وربما تلاكموا وتضاربوا بالعصى وتزاحموا على تفتيش الحجرة التى هو فيها وربما وطئوه بالنعال وهو ملقى بينهم وهم الذين كان يسهر ليجمع لهم ويخاصم أقاربه ليجدد لهم.. انظر يا أخى بعينك عاقبة هذا الأمل ونتائج هذا الطمع.

صل رحمك يا أخى ليرحمك الرحمن، وأكرم أقاربك ليقربك القريب، وبر والديك ليبرك البر الودود. قال تعالى: ﴿وبالوالدين إحسانا وبذى القربى﴾(١٩) وقال سبحانه: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم﴾(٢٠) وقال ﷺ: (من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى عمره فليصل رحمه)(٢١).

ومن الآداب الواجبة عليك لوالديك أن تبر أهل ود أبيك ممن كان يودهم ويحبهم. ولا تتشبه يا أخى بمن أبعدهم الله عن أعمال الخير الذين إن تمكنوا أساءوا أهل ود والديهم، لأنه قد يكون للرجل ولد سئ الأدب ويكون والده متزوجًا امرأة غير أمه وتكون محظية عنده محبوبة لديه ولم ترزق من أبيه بأولاد، فإذا مات أبوه قام فجعلها أعدى أعدائه وشر ألدّائه ولم يراع حقوق والده. وقد يكون للوالد عامل مخلص فى عمله محافظ على أمواله، ويكون الولد مسرفًا فيشدد عليه العامل وهو صادق أمين، فإذا تمكن المسرف من المال أو الميراث حارب العامل الصدوق الأمين وطرده من عمله ولم يراع حقوق والده.

وقد ورد عن سيدنا عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه كان راكبًا على جمل فمر به

(١٩) سورة النساء آية ٣٦ .

(٢٠) سورة محمد آية ٢٢ .

(٢١) البخارى ومسلم وأبو داود .

أعرابى ، فنزل عن الجمل وقابله وحيّاه ، ثم أخذ بزمام الجمل وأعطاه إيّاه وانصرف ، فقيل له ما هذا ؟ قال : هذا الرجل كان يُضحك والدى كلما رآه ، فأحببت أن أبر والدى بإكرام من كان يَضحك والدى لرؤيته .. وهكذا فليكن البر ، ومن هذا الإمام يؤخذ . فقم يا أخى بإكرام أهل ود أبيك لتكون بارًا ، وكن على يقين أنك تفوز بالمسرات فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، والله يمنحنى وإياك التوفيق لما يحب ويرضى .

نصيحة للأبناء : يا بنى لا تجهل من أنت ، وما لا يجب عليك ، ولا ما يجب لك . لعلك يا بنى تظن أنك بما تجده من عواطف أمك وأبيك ومن حرصهما على سرورك وخيرك ، ومن بذل نفائس أموالهما فيما فيه راحة بدنك وزيادة صحتك ، أن ذلك واجبٌ عليهما أو حق لازم عليهما لك ، فتجهل قدرك وتنسى قدر النعمة عليك من ربك ، فتقوم مطالبًا بحقوق توهمتها لم يوجبها الشرع ولم يستحسنها العقل ، فتكلف والدتك بخدمتك أو تغضب عليها إن تهاونت بشأنك أو تأبى أن تلبس أو تأكل ما قُدم لك أو تستقل ما أكرماك به ، فتكون كالفراش الذى يطوف حول النار لا يرضى بضوئها وحرارتها حتى يسقط فى لهيبها .

أسرع بأن تعلم منزلتك وأنب إلى ربك تائبًا وإلى والديك متذللًا متملقًا . لم يبذلا لك ما بذلا من المال والنفس لواجب عليهما ، بل لأنك شجرتهما ومرآة حقيقتهما . فإن نظرتَ بنظر الإبن للوالدين نظر تعظيم وإطاعة لأمرهما وحب لهما ورغبة فى نيل رضاهما مَنَّ الله عليك بأن جعل عاطفتهما عليك فى مزيد ، وجعلك لهما ظهيرًا ونصيرًا بعد كبرك ، فتكون لهما والدًا شفيقًا ويكونا لك كوالدين رحيمين ، وتكون قد قمتَ بالواجب عليك لله ولرسوله ﷺ وللوالدين .

إذا مَنَّ الله عليك بأن جعلك غنيًا عن شرار خلقه عالمًا ، فكن رجلًا خارج المنزل ، فإذا دخلتَ على والديك فكن طفلًا كما كنتَ أولًا ، عبدًا كما كنتَ سابقًا تُملَك ولا تَملِك ، واجعلهما يدبران لك شأن داخليتك وإن أخطئا ، وحسن شأن خارجيتك ، فإنك لا تدرى متى يأتيهما الموت .

لعلك يا أخى إذا تزوجت صارت زوجتك أحب إليك من أبيك وأمك وإخوتك ، وهى إنما رضيت بك لأنك قوىّ سوىّ غنىّ ، ولو ذهبت صفة من تلك الصفات ذهبت معها وكانت حربًا على زوجها . فاصحب زوجتك على حذر منها ، وكن عبد الله مطيعًا لوالديك .

يا بنى : بعض الضالين الذين حرموا الكمالات الإنسانية يتهاون بشأن والديه ويعتنى

بشأن زوجته - أعوذ بالله أن أكون منهم أو تكونَ منهم - فإنهم عبيدٌ لشهواتهم ، وعباد الدراهم والدنانير أقرب للبهيمة منهم إلى الإنسانية . انظر إلى والديك تراك غصن شجرتهما وصورة حقيقتهما وخلاصة حياتهما فلا تعبد يا بنى شهوتك وتكفر بربك سبحانه وتعق والديك ، واجعل والديك فى أعلى المراتب من قلبك ، وقم لزوجتك بما فرض الله تعالى عليك وبما سنه رسول الله ﷺ ، ولا تنس الفضل بينك وبينها ، ولا تجعلها سببًا فى عقوق والديك وقطيعة رحمك ، فإن الإنسان لا يدرى لعله يجمع المال ويحرم منه أرحامه ثم تحوزه الزوجة وتنفقه على زوج أجنبى .

أحب يا بنى زوجة أبيك وإن كانت كدرًا لوالدتك برًا بوالدك إلا أن توفيت والدتك فاجعلها فى منزلتها وأحب إخوتك منها كحبك لإخوتك ، واجعلهم لك أنصارًا وأعوانًا وكنوزًا وجمالًا لتكون كثيرًا بهم .

اجتهد يا بنى إن كان ورَّثك والدك مجدًا وشرفًا أن تحافظ على ميراث والدك وأن تجتهد فى أن تزيده وتنميه ليحيا والدك . واعلم يا بنى أن بعض أهل الغواية الأنذال المفسدين الذين هم مرضٌ فى جسم الأسر يتمنى الخبيث منهم أن يموت والده ليرث ماله ، فإذا مات والده قام ببذل المال فى شهواته وحظوظه حتى إذا لم يبق فى يده ما يستعين به ندم - ولات حين مندم - فتمنى إن والده عاش له بعد أن أحوجته الضرورة إلى خدمة من كان خادمًا عنده أو ارتكب ما به يحشر إلى السجون .

وإلى هنا أقول لك : أيها الولد البار : اجتهد فى صحبة العلماء العاملين ، وداوم على مجالسة الأتقياء الصالحين ، وتعلم منهم وتشبه بهم ، والله يتولانى وإياك .. إنه ولىُّ المؤمنين [٢٢] .

رحمتـــــه

لقد وصف ربنا نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله عز وجل : ﴿ فبما رحمة من الله لِنْتَ لهم ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾[٢٣] .

الرحمة مفاضة من الرحيم ، والرءوف الرحيم هو رب العالمين ، وقد وصف الله نبيه ﷺ فقال تعالى : ﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾[٢٤] ، وورثها أهل الخشية منه ﷺ .

(٢٢) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٩ العدد ٢٠ ص ١٢ (٢٥ شوال ١٣٥٥ هـ الموافق ٨ يناير ١٩٣٧ م) .

(٢٣) سورة آل عمران آية ١٥٩ .

(٢٤) سورة التوبة آية ١٢٨ .

إن اقتربت من الإمام وكنت مريضًا وجدتَ طبيبًا ، وإن كنتَ جاهلًا وجدت عالمًا ، وإن كنت تشكو من سيطرة الشيطان والنفس والهوى وجدتَ طبيبًا معالجًا يَنتشِلُ العِلّة من قلب العبد بحكمة .

كان من رحمته أن يأتيه الأخ المريض ليدعو له ويتبرك به ، فيسأله الإمام عن سبب شكواه ، ولما كان الإمام له معرفة كبيرة بعلوم الطب فكان يسأل عن سبب الشكوى ، ويوجه المريض إلى الطبيب المختص . وكان الإمام دائمًا لا يترك الأخذ بأسباب العلاج عملًا بقول رسول الله ﷺ : (إن الله خلق الداء وخلق الدواء ، فتداووا يا عباد الله)[٢٥] .

وقد سأل الإمام يومًا من معه فقال : (أتدرون ماذا يدعو رجالُ الغيب ؟؟ يقولون ما من هَم أو غَمٍ أو مرضٍ أو ألمٍ أردتَ به أمة محمد فخُصّنا به ونَجِّ أمة محمد واجعلنا فداءً لهم) .

ومن رحمته رضى الله عنه أنه كان بالبيت رجل يخدم اسمه مصطفى ، وكان فظًا ، وقد خرج ليأتى بإفطار أهل المنزل وتأخر كثيرًا ، فعاتبته زوجة الإمام ، فرمى عليها إناء الطعام الساخن قائلًا : أنا مش عبد أبوكم ، فدخلت تبكى للإمام وقصت عليه ما حدث ، فطيّب خاطرها وقال لها : والله لقد صدق فهو ليس عبدًا لى .

لقد تحمل الإمام الكثير والكثير من أعداء الدعوة ، وتحمل أيضًا الكثير والكثير من أصحاب السلطان وقتذاك ، ومن الإنجليز - المندوب السامى البريطانى - ومن القصر ، ومن الرئاسات الفاسدة ، ومن أصحاب الضمائر الخربة ، وقد جند هؤلاء بعض الكتبة ليكتبوا ضد الإمام على صفحات الجرائد والمجلات مقالات شديدة اللهجة ويغدقون عليهم الأموال ، ومن بينهم بعض العلماء ، وكان من تلاميذ الإمام صحفى مشهور أراد أن يتصدى لهؤلاء ولكن الإمام منعه ، لكنه ظل يلح فى ذلك إلى أن قال له الإمام : اكتب عنى فقط بيت شعر واحد ، يقول لكم أبو العزائم :

كل شئ منكم عليكم دليل وضح الحق واستبان الدليل

وكان أحد المشايخ الذين يهاجمونه حقدًا عليه قد استيقظ ضميره ، فذهب إلى الإمام فى داره وقدم نفسه إليه أنه محام شرعى اسمه عباس طه - وكان المعروف عنه من مقالاته أنه متمكن جدًا فى اللغة والبيان والحجة والإقناع ، وفى نفس الوقت كان سليط اللسان

---

(٢٥) الإمام أحمد وابن حبان والحاكم والسيوطى فى الجامع الصغير .

بذئ الألفاظ - واعتذر للإمام عما فعله ، وأخبره أنه رجل فقير وفى شدة الاحتياج لما يدفعونه له من مال ، ومن رحمة الإمام أنه قال له : استمر فى سبك لى وهجومك علىّ طالما أن هذا هو رزق لك ، فما كان من هذا الرجل أمام هذا الصفح والعفو وهذه السماحة والرحمة إلا أن كان يكتب مقالاته الهجومية التى يقبض عليها أجره ، وهو هو نفسه يكتب مقالة بعدها مباشرة دفاعًا عن الإمام ومفندًا كل ما هاجمه به تحت اسم آخر .

وكان رحيمًا جدًا بإخوانه ، فإذا أحس منهم الإرهاق وهم فى مجلسه فى الساعات المتأخرة من الليل طلب منهم أن ينصرفوا ليناموا ، ومرة قال لهم :

الا رحمة بالجسم يا عشاق   فالروح دومًا للعلا تشتاق
إن عاينت وجه الجميل تفر من   تلك القيود وطبعها الإشفاق
فالروح عالمها العلوى ودائمًا   تخشى يكون بذى القيود فراق
رفقًا على تلك الجسوم لأنها   مرآة نور الحق والإشراق
سيروا على قدر الجسوم فإنها   تجلى بها الأنوار والإطلاق
اخشى تطير الروح عند شهودها   فتفارق الأجسام وهو شقاق
رفقًا على تلك الجسوم ورحمة   فالرفق أوصانا به الخلاق

ولكن يعز عليهم أن يقوموا للنوم ويتركوا مجلس الإمام بما فيه من جمالات ، فيغادر الإمام مجلسه ويدخل حجرته ، وبعد فترة يخرج ليتفقد أحوالهم ، حتى إذا اطمأن عليهم عاد لخلوته .

وفى آنات آخرى كان يحث إخوانه على السهر والجد والاجتهاد فى ذكر الله .. أطال الإمام السهر ليلة ومعه تلاميذه حتى داعب النوم أجفانهم ، لكنه نهض وأمرهم بمتابعته ، وساروا فى الطريق إلى مسجد سيدنا الحسين ، وفى الطريق مروا بنادٍ للهو والخلاعة ، فنظر الإمام إلى إخوانه قائلًا : ما أنشط هؤلاء وهم فيما تعلمون ، وما أبطأكم عن المسارعة لنيل ما تحبون ، كيف ينام طالب الجنة ويسهر الملقى بنفسه فى الهاوية ؟؟ فقال أحد الإخوان : إنا نحب أن ينام سيدنا شفقة عليه من هذا العناء ، فقال الإمام : اسمع وافهم

انام وداعى المجد يجذبنى قهرًا   فيسلب نومى قائلًا كن فتى حرًا
ونفسك ايقظها وإن نام جسمها   فللجسم نوم قد يحل به قسرًا
وكيف تنام النفس جهلًا وغفلة   ويسهر جسمى عاملًا عملًا نكرا

لعمرك إن المجد سهل على الفتى ... إذا هم للعلياء مدرعًا صبرا
وما هى إلى جولة الفكر ساعة ... تحرك اهل العقل ترفعهم قدرا
يسود بها الداعى إلى الخير والهدى ... يراه جميع المسلمين لهم ذخرا
ومن كان ذا عمر قصير ومطلب ... عظيم ينام الليل او يامن الدهرا؟
ينام نعم جسمى اضطرارا بطبعه ... ونفسى بملكوت السما تلحظ السرا
ومن يك ذا نفس تنام عن الهدى ... يُرد إلى النيران مرتديًا خسرا
وكل فتى قد جاهد النفس مخلصًا ... ليطعمها ذكرًا ويلبسها شكرا
يفر من العمل القبيح وفعله ... إلى الرشد فى الدنيا إلى المجد فى الأخرى

وفى احتفال من احتفالات ذكرى مولد المصطفى ﷺ ، وكان العدد كبيرًا يفوق الحد ، مر الإمام ليتفقد الإخوان أثناء نومهم لعل أحدًا منهم يريد شيئًا ، فوجد البعض نائمًا بدون غطاء لعدم توفره ، فأيقظ خدام المنزل وأمرهم بإحضار جميع الأغطية بالمنزل ثم غطى هؤلاء الإخوة بيديه الكريمتين قائلًا : هؤلاء ضيوف رسول الله ﷺ نقدمهم على العيال .

وكان رضى الله عنه يعطف عطفًا كبيرًا على أهل المعصية ويستميل قلوبهم إلى ساحة الطاعة بتنوع أساليب بيانه ، وكان من رحمته أن يحرص على زيارة المرضى من المسلمين فى المستشفيات ، وكان يخص بالزيارة من لا يجد حول سريره زائرًا فيجلس على سريره بجواره يعطف عليه ويصله ويدعو له ثم ينتقل منه إلى غيره وغيره ، فهذا كان حاله مع مرضى الأبدان ، وكان هذا هو نفس الحال أيضًا مع مرضى القلوب والأفئدة والنفوس ، فإن أكثر الناس يعتبرهم محتقرين ممقوتين .. لكن الإمام يقول :

محمد ماضى أبو العزائم لا يرى مسلمًا مرتكبًا كبيرة إلا نظر له بعين الشريعة رحمة له ، ويعظه بالحسنى نيابة عن صاحب الشريعة ، ونظر إليه بعين الحق فأول حاله قائلًا : لعله من أهل الخصوصية الإلهية وستره الله تعالى بفضله ، فإنى أعتقد أن القضاء لا يمنع الإعطاء من فضل الله تعالى ، فأعظمه فى قلبى وأخافه فى نفسى تعظيمًا لسر الله الذى ورد على قلبى ، لأن الله تعالى لا يعطى فضله لعلة عمل ، ونصحته بلسانى حبًا له وتعظيمًا للشرع ، فأكون معظمًا لله تعالى فى الحالتين .

إخوانى : اتقوا الله فى عباده ، وعليكم أنفسكم ، واجلوا مرآة قلوبكم بعمل القلوب ، واشتغلوا بذنوبكم فإنكم محاسبون عليها لا على ذنوب غيركم ، وارحموا عباد الله تعالى ، ذكروهم بالحسنى ، عظوهم باللين ، أعينوهم بفضل أموالكم ، وجميل كلامكم ،

وأحبوا لهم ما أحببتم لأنفسكم ، والله ولى المؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد الرءوف الرحيم وعلى آله وصحبه وسلم .

صفحه

كانت الإساءة على الإمام تأتيه من القريب ومن البعيد ، فلا يقابلها إلا بالصفح ، بل وربما قابلها بالبر والإحسان .

* وأثناء عمل الإمام بالخرطوم حقد عليه بعض العلماء لما وجدوا الإقبال المتزايد من الناس واتباعهم له ومدى حبهم والتزامهم بمجلسه لقراءة صلواته على الرسول ﷺ ، أزمع الحاقدون على قتله وأوكلوا هذا الأمر إلى أحد أتباعهم بعد أن أوغروا صدره وأوعزوا له أن الإمام ما جاء إلا ليشوش على شيخه فقرر قتله(٢٦).

وبينما كان الإمام يتهجد فى حديقة منزله تسور الرجل سور الحديقة ، وبعد أن فرغ الإمام من صلاته قال له الرجل ، يا أبا العزائم لقد تعديت على أسيادك ، أتريد أن تعمل شيخًا وأسيادك هم شيوخ البلاد ؟ فقال له الإمام : لم يحدث ذلك ولكننى أدعو إلى الله ونحن جميعًا إخوان فى الله ، لم يصدق الرجل ، واستل سيفه واندفع ليضربه به ، ولكن الإمام ظل يراوغه إلى أن تعب وتمكن منه الرجل ووضع السيف على رقبته .

وفى نفس الوقت هب الحاكم المصرى للسودان من نومه منزعجًا - وكان محبًا للإمام ومن عشاق علمه - وطفق يجرى ميممًا وجهه شطر بيت الإمام والحرس من ورائه يتبعونه حتى وصل إلى منزل الإمام ، وأبصر الرجل ينكب على الإمام وقد تمكن منه بسيفه فصاح فيه قائلًا : قم يا كلب ، فرمى السيف ووقف مرتعدًا ، وقبضوا عليه .

عند ذلك قال الإمام للحاكم : دعه ، قال : لماذا ؟ قال الإمام : لقد أمرتنا الشريعة أن نتعلم السباحة والرماية وركوب الخيل وفنون القتال(٢٧)، لقد كان يعلمنى كيف يستطيع الإنسان أن يقهر عدوه ويتفادى خطر خصمه ، فأطلق الحاكم سراحه ، فاعترف الرجل بحقيقة أمره واعترف بذنبه وأعلن توبته إلى الله وأحب الإمام ، إنها سابقة حسنى ، قال

---

(٢٦) أخبرنا بها الشيخ نصر أحمد سعد العقاد سماعًا من والده .

(٢٧) وكان الإمام متدربًا على الفروسية حتى لقد شهد له الكل بفروسيته الماهرة عندما يهم بركوب الحصان فى حركة واحدة رغمًا عن ملابسه العادية ، وكان الإمام متدربًا أيضًا على المبارزة والسباحة والرماية عملًا بسنة النبى ﷺ .

الإمام رضى الله عنه لمن شاهدوا هذه الحادثة : لا تقصوا هذه القصة إلا بعد أن أموت(٢٨).

* اعتاد أحد خدم البيت على سرقة ما استطاعت أن تصل إليه يده ، ولم يستثن من ذلك رواد البيت وضيوفه حيث كان يتحين الفرص لاقتناص ما بحوزتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلًا ، إلى أن وصل به الأمر أن سرق كيس النقود الخاص بالإمام وبه عدد كبير من الجنيهات الذهبية كان قد تركه على كرسى الدرس ، وأعطى السارق النقود لأحد التجار ليتجرا معًا فيها ، لكن الأمر انكشف لتلاميذ الإمام فانهال البعض عليه ضربًا لكن الإمام كفهم عنه .

ويشاء المقدر سبحانه أن يصاب التاجر بالشلل ، وتوجه ذووه إلى الإمام وأعادوا إليه حافظة نقوده بما فيها ، ثم يأمر الإمام بإخراج المسروقات التى خبأها السارق فى مكان بالمنزل غير مطروق وأمر بإعادتها إلى أصحابها محددًا إياهم ، وأحضر السارق بين يدى الإمام وصفح عنه ، ولما همَّ أن يغادر المنزل استبقاه الإمام قائلًا له : إنك أمين جدًا ولكن شيطانك هو اللص ، وبقى بالمنزل يزاول عمله فيه .

ولما تساءل بعض الإخوان عن أمره عرفهم الإمام أنه كان يحاول إصلاحه ما استطاع ، وحاول أن يستره مع علمه بما يقوم به من سرقات إلى أن كشفه الله تعالى ليقى الناس من شره(٢٩).

* فى يوم سرقت حافظة نقود الإمام ، واكتشف أن أحد الخدم هو الذى سرقها ، وشاع ذلك الأمر بين أتباعه ، فجمعهم واستشارهم فى أمر السارق .

قال أحدهم : نقوده إلى الشرطة .

وقال آخر : نحبسه عقابًا له .

---

(٢٨) قال نفس هذه العبارة من قبل سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه بعد أن حدثت له حادثة ، فقد كان سائرًا فى الطريق فخرجت عليه حية بيضاء ناصعة البياض ، ثم مالت إلى جانب الطريق وسكنت وماتت ، فأخذ قميصًا من قمصانه وكفنها ودفنها لشئ لا يعرف سره ولكنه اندفع إليه ، ولما عاد لمنزله قص القصة على أحد رواه أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ فقال له : إنك لسيد التابعين !! ولقد أخبر عنك النبى ﷺ فقال : (تخرج فلانة من الجن المؤمنة المصدقة برسول الله على قارعة الطريق فتموت فيكفنها سيد التابعين بقميصه) فقال سيدنا عمر بن العزيز : لا تخبر عنى إلا بعد أن أموت .. موجود فى كتاب : الإصابة فى ترتيب الصحابة - كتاب كرامة الأولياء - تاريخ الصحابة لمحمد غياث الباكستانى ، وهذا دليل كمال الولاية لأن هؤلاء فى غنى عن أن يمدحهم الناس أو يثنى عليهم الخلق .

(٢٩) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ طاهر محمد مخاريطة .

وقال غيره : نضربه ونبعده عنا ولا يدخل دارنا .

وقال غيره : لا قول لى مع ما تراه فانظر ماذا ترى ؟.

قال الإمام : لقد عفوت عنه ابتغاء وجه الله ، ابحثوا عنه وأعيدوه إلى عمله .

فقال أحدهم : إنه لص تعدى عليك يا سيدى وسرق مالك .

فرد الإمام بقوله : إن تركته فعل هذا مع غيرى ممن لا يرضى به ولا يتحمله كما أتحمله ، وأعيد الخادم إلى عمله وقال له الإمام : لقد عفوت عنك وسامحتك ، فندم وبكى وتاب إلى الله واستقام ، وتغير حاله فصار من خير الناس .

كـرمـــه

لقد شهد القاصى والدانى مدى كرم الإمام رضى الله عنه لضيوفه ومريديه ، وظهر ذلك فى حسن استقباله لهم بالبشر والترحاب وإكرام وفادتهم والسهر على راحتهم وقضاء حوائجهم ومساعدتهم ، وكم أقيمت فى بيته العامر مآدب الكرم وبسطت أكف العطاء لكل طالب تقام بكل رضا وحب وفرح وسرور لضيوف الله ، وإذا بسطت المائدة للزائرين ، فإن الإمام يرغبهم فى الطعام ، وكان من حبه للبر بالإطعام والتزاور أن يأمر بذلك أصحابه .

* ويحكى أنه رضى الله عنه كان عائدًا من جامعة الخرطوم إلى منزله راكبًا دابته ، وكان ذلك أول الشهر وقد تقاضى راتبه ووضعه فى صرة ، فاستوقفه محتاج وقال له : لله ، فانتفض الإمام من فوق دابته ونزل مسارعًا احترامًا للاسم واحترامًا لمن أرسل هذا المحتاج إليه وقال له : ماذا تقول ؟ فقال : لله ، فما كان من الإمام إلا أن أخرج راتبه الذى استلمه فى نفس اليوم ، وقال له : مادام قد أرسلك إلىّ فالمال كله له سبحانه .

ولم يكن بالبيت ما يقوم بحاجة أهله وزوّاره وضيوفه ، فما كانت إلا ساعات وأتت عربات تحمل المواد الغذائية بأنواعها المختلفة وكذلك المواد التخزينية قادمة للإمام من أحد محبيه بدون سابق طلب أو عادة منه على فعل ذلك من قبل ، فقال الإمام لأهل بيته : لقد أحضر الله لكم كل ما تحتاجونه بغير نصب ولا تعب وكأنه يعاملكم معاملة أهل الجنة[٣٠].

(٣٠) من التسجيلات الصوتية لدروس الشيخ طاهر محمد مخاريطة .

* ويأتى للإمام وفد من الفيوم مشيًا على الأقدام لزيارته ورؤيته ، وتأثر الإمام تأثرًا بالغًا لما علم أنهم أتوا إليه مشاة ، فأحسن رضى الله عنه ضيافتهم وأكرم وفادتهم ، وعند سفرهم زودهم بزادهم ونفقة سفرهم وزاد فى العطاء[٣١].

* وكان رضى الله عنه أثناء عمله بالسودان يوفر من معاشه حتى يكون معه عائد كبير يُرضى به المحتاجين عند نزوله مصر فى إجازته السنوية ، وكذلك ليصل بها رحمه ، حتى أخواته بالرغم من أنهن متزوجات وكان أزواجهم أغنياء .

* وكان الإمام رضى الله عنه يلقى دروسه بالجامع الكبير الذى يتوسط مدينة الخرطوم ، وتقع على جانبيه الأسواق ، ومن حوله محطات المواصلات العامة ، ولذلك فإن المارة والباعة الجائلين يتجمعون حوله من كل مكان ، وكذلك ذوو الحاجات ، ويتجمع حوله وإلى يومنا هذا الفقراء والمساكين وذوو العاهات ممن أقعدهم المرض ، وهم يسكنون حول سور المسجد الكبير لا يكادون يفارقونه ، وكان الإمام رضى الله عنه يحنو عليهم ويجلهم أيما إجلال ويواسيهم بماله وجهده وينبه المسلمين لمكانتهم من الله تعالى ، وقد تواتر عنه أنه كان يأمر أهل بيته بتجهيز الولائم وإعداد الطعام الشهى لأنه سوف يدعو بعض علية القوم من ذوى المكانة لتناول الطعام معه ، وعند عودته رضى الله عنه إذا بصحبته جمع غفير من هؤلاء الفقراء وذوى العاهات فى ثيابهم الرثة وهيئتهم التى تنفر منها النفوس ، ويرحب بهم الإمام ويمد لهم موائد الطعام الشهى ويبالغ فى إكرامهم ، وعندما كان يتعجب أهل بيته ويقولون : هل هؤلاء هم الوجهاء ذوى المكانة ؟ يقول لهم : إن هؤلاء هم الأمراء وأصحاب الجاه والمكانة يوم القيامة ولهم الدولة هناك ، يقول سيدى أبو مدين رضى الله عنه فى ذلك :

ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

* وكان من الإخوان من يود دعوة الإمام فى بيته ولكنه لا يستطيع لضيق ذات اليد ، وكان من حرص الإمام على إدخال السرور فى قلوب هؤلاء الأحباب الذين تفيض أعينهم من الدمع لعدم الاستطاعة ، يعطى بعض خواصه مبلغًا من المال لشراء ما يحتاجه الأخ لضيافة الإمام وإخوانه .

ومن وصايا الإمام لأبنائه يقول :

يا أبنائى : أكرموا جيرانكم يدم لكم الصفاء والهناء وتزد نعمكم ، لأن إكرام الجار

(٣١) أخبرنا بها الشيخ نصر أحمد سعد العقاد سماعًا من والده .

يرضى الله تعالى ويرضى رسول الله ﷺ ، ويجعل لك جارك خادمًا لك يطيعك ، يلبيك إن ناديته ، ويسرك إن قابلته ، فإن أنت لم تكرمه كان كالهم الملازم والغريم المطالب ولا غنى لك عنه ، والعاقل لا يجعل له سبعًا وحشًا مفترسًا مطلقًا من القيود قريبًا من بابه ، ولإن عجزت عن إكرامه وتأليفه فتب إلى الله واسأله المعونة ، وافرض أن جارك بعيد عنك فلا تذكره إلا بخير ، وانس إساءته يهده الله أو يريحك منه .

وبيانًا لحقيقة الكرم قال الإمام رضى الله عنه : ليس الكرم أن تخرج للناس طعامك وشرابك ، إنما الكرم أن تقدم لهم الحكمة التى تنفع ، ومن هذا نستطيع القول إن حياة الإمام مثلت الكرم بعينه فى جميع مجالاتها ، وحقيقة الإنفاق بينها الإمام عندما فسر الآية : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾(٣٢) فقال فى كتاب « أسرار القرآن » : والإنفاق هو العمل المالى الذى تقوم به الحجة على أن المؤمن آثر ما عند الله تعالى على ما عند نفسه مما به تطيب حياته فى الدنيا ، وهو الحجة على كمال إيمانه بالغيب ، لأن يوم القيامة من الغيب ، وبذل المال لنيل السعادة فيه كمال التصديق بها .

وعندى أن قول : ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ يدل بصراحة على أن المؤمن واجب عليه أن ينفق من كل نوع من الأنواع التى تفضل الله تعالى بها عليه من العافية والعلم والجاه والعصبة والمنصب والحكمة والصناعات والفنون ، فإن كل ذلك رزق من رزق الله للعبد ، ومن حصرها فى المال لاحظ أن كل ما ينفق خرج من ملك المنفق ، والعلم ينمو بالنفقة ، فتسمية ما عدا المال بالنفقة تسامح ، وردًا على هذا نقول إن الله وعد المنفق من الحلال الطيب فى الحلال الطيب بعشر أمثال ما ينفق ، وبسبعمائة ، وبأضعاف ذلك ، والله ذو الفضل العظيم .

وبين الإمام أيضًا حقيقة الإنفاق والبر والكرم عند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وما تنفقوا من شئ فإن الله به عليم ﴾(٣٣) فقال : معلوم أن المال عند أكثر الناس أعز من الروح ، فإنا نرى الناس يقتلون دون أموالهم ، وقد يعادى الإنسان والديه وأولاده حرصًا على المال ، وقد ينسى الإنسان أن المال وسيلة إلى نيل الضروريات والكماليات فيجعله مقصودًا لذاته يضحى فى سبيل جمعه ونموه بكل رخيص وغال من صحة وقرابة ودين ، لذلك كان البرهان على كمال الإيمان بالله وحسن التوكل عليه : بذله فى وجوه الخير ، فحصر الله البر فى منح المؤمن بعض ما يحبه منه لأقاربه وأهل

(٣٢) سورة البقرة آية ٣ .

(٣٣) سورة النساء آية ٩٢ .

الحاجة إيثارًا لهم على نفسه كما قال سبحانه : ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾(٣٤).

وإن تأولنا قوله تعالى : ﴿حتى تنفقوا مما تحبون﴾ على وجه الإطلاق ، يكون الذى ينفقه المؤمن مما يحب عامًا من علم ومال وحياة وشرف وترف وعفو عن المسئ وصلة للقاطع وإعطاء لمن حرمه وإيثارًا للمؤمن على نفسه ، وبذلك يكون قد جمع أنواع البر حتى ينال بر الله تعالى له فيؤثره الله تعالى بتفريده لذاته لقوله تعالى : ﴿تالله لقد آثرك الله علينا﴾(٣٥) ويكون البر جماع الخير كله .

تـــواضـعـــــه

كان الإمام رضى الله عنه متواضعًا ، وكان يعلم تلاميذه خلق التواضع بعد أن يضرب بنفسه المثل أولًا .

* فعندما توجه إلى الفيوم فى أول زيارة له ، ذهب إلى مسجد سيدى الروبى ليصلى الجمعة ، وعلم إمام المسجد وهو الشيخ سعد العقاد شيخ الطريقة الشاذلية العقادية بحضور الإمام فطلب منه أن يخطب الجمعة ، ولكن الإمام اعتذر فى تواضع ، فلما أصر إمام المسجد طلب منه الإمام أن يحضر ديوانًا ليخطب منه ، وقف الإمام ليخطب والديوان بيده ولكن الله فتح له أبواب المعرفة والبيان فتكلم بغير ما هو مكتوب مما أدهش الحاضرين وجذب القلوب إليه ، فقال له الشيخ سعد العقاد بعد الخطبة : أقسم أنك كنت تقرأ من الغيب وليس من هذا الكتاب .

* وكان أسلوب الإمام رضى الله عنه فى إلقاء دروسه متميزًا ، وكذلك كانت له آداب خاصة إذا أراد أن يفسر القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو أى متن من متون الفقه ، فقد كان رضى الله عنه جميل الهيئة حسن الهندام يلبس زى العلماء ويجلس على كرسى خاص توقيرًا للعلم ، فإذا أراد أن يبدأ الدرس أمسك بالمصحف الشريف أو المتن الذى يريد القراءة منه أو يمسك بأى كراسة حتى وإن لم تكن هى المتن الذى يقرأ منه ، تقيدًا بالسبب ومحافظة على مرتبة الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ ، وهذا هو حال أهل العلم بالله تواضعًا معه ﷺ .

---

(٣٤) سورة الحشر آية ٩ .

(٣٥) سورة يوسف آية ٩١ .

* ولما سافر الإمام إلى عزبة البرج لأول مرة وكان معه عدد من الإخوان، وجد فيها رجلًا متمصوفًا يحتكر الوعظ والإرشاد لأهلها على غير علم ، وله أربعة أولاد أعطى لكل ابن منهم خلافة علقها تحت إبطه فى علبة من الصفيح وعلمًا كبيرًا . توجه الإمام وقبَّل يد هذا الرجل وقال له أنا ضيفك ، ففرح بالإمام جدًا وقال له اجلس واسمع منى يا أبا العزايم ، وأنصت له الإمام والحاضرون ، وتبين له رضى الله عنه أن الرجل يتكلم بغير علم حتى أنه قال إن سيدنا أبا بكر الصديق كان مالكى المذهب ، وبعد أن انتهى قال للإمام : سمحت لك يا أبا العزايم أن تتكلم . وهنا ألقى الإمام درسًا مبينًا للحاضرين ما هم بحاجة إليه بأسلوب حكيم ، حتى إذا فرغ من درسه خلع الأولاد خلافتهم وأعطوها لأبيهم وخرجوا معه رضوان الله عليه ينشدون علمه ويتلقون عنه الحكمة .

* ومن تواضعه أنه وهو فى أوج المعرفة وقمة العلم كان إذا وُجه إليه سؤال فقهى ومعه علماء لا يبدأ بالرد بل يستأنس بآرائهم تكرمة لهم وتواضعًا منه .

* وقد ربَّى الإمام تلاميذه على التواضع ، وها هو الشيخ محمد الطوبجى من كبار تجار القطن فى المنيا وفى مصر يحس أنه صغير جدًا أمام إخوانه ويخدمهم . وفى إحدى ليالى ذكرى المولد النبوى الشريف ، زار النبيل عباس باشا حليم الإمام رضوان الله عليه ، فقد كان من أحبابه ، جلس الأمير مع الإمام . وأقيمت حلقة الذكر وطلب الإمام من الشيخ محمد الطوبجى أن ينشد على الذكر من مواجيده ، فأنشد بجمال صوته وشدة حاله الذى أثر فى الأمير ، فأضمر النية أن يمنحه مبلغًا من المال وطلب من الإمام مقابلته . وقبل انصراف المجلس سأل الإمام عن المنشد فلم يجده . ولما حضر دخل على الإمام معتذرًا فقال له الإمام : أين كنت ؟ أفى ليلة جدك رسول الله تغيب ؟ فقال سامحنى يا سيدى فقد شُغِلتُ رغم إرادتى ، فقد كان اليوم موعد تسليم القطن ، فذهبت لأبدأ العمل وتركته لغيرى لأكون بجوارك ، ثم سأله الإمام : وكم مقدار هذا الذى شغلك اليوم ؟ فرد على سماحته قائلًا : آلاف مؤلفة يا سيدى ، فانتبه النبيل عباس باشا حليم وقال : لا ينبغى أن يقول هذا إلا محمد الطوبجى ، فقال الإمام : هذا هو محمد الطوبجى الذى أثَّرَ فيك أثناء الإنشاد ، وما جاء فى هذا اليوم رغم مشاغله إلا حبًا فى رسول الله ، دع مالك فى جيبك يا نبيل ، إن الذى ينشد أناشيد مولد رسول الله ويحيى مولده هو من أغنى أغنياء مصر ، وما جاء إلا فى حب رسول الله .

زهـــده

إن الإمام لو أراد الدنيا كلها لأتته من أقرب الأسباب ، لكنه رضى الله عنه تعفف عن طلبها لعلمه بحقيقتها وأنها لا تساوى عند الله جناح بعوضة ، بل إنه كان حريصًا على أن يكشف لأتباعه ومريديه حقارة الدنيا لتسموَ هممهم من الاقتصار على طلبها وبذل الهمم لنوالها .

* وذات مرة ضرب مثلًا عمليًا على مائدة طعام كان قد أقامها له الشيخ العقاد ، فاجتمعت القطط حولها ، فأخذ الإمام قطعة من اللحم وألقاها للقطط ، فتضاربت وعض بعضها بعضًا وارتفعت أصواتها ، فقال الإمام : كانت هذه القطط تعيش فى صفاء وحب ، إن هذه الكبيرة هى أمٌ لهذه الصغيرة ، والصغيرة هذه أخت لهذه ، تلك أسرة واحدة كانت تعيش فى هدوء قبل أن تدخل الدنيا بينها ممثلة فى قطعة اللحم ، فلما دخلت الدنيا تقاتلوا .. وهكذا الدنيا .

* كان الإمام يدرس فى الكعبة والإخوان حوله ، فجاءت أميرة هندية ومرت على المجلس فلاحظت أن الجالس للدرس ليس عالمًا عاديًا ، فأرسلَتْ فأحضروا لها أكياسًا مملوءة بالنقود الفضية . ألقت الأميرة أولًا أكياسًا أمام الإمام ثم لإخوانه الجالسين ، فلم يرفع الإمام رأسه ولا الإخوان . نادى الإمام وقال ائتونى بشيخ المسجد ، فلما جاءه قال : اجمع هذا المال ووزعه على العمال بالمسجد فإننا ضيوف رب العالمين .

* كان توفيق باشا جلال من كبار أغنياء الصعيد ، وقد وجه الدعوة للإمام ، وأقام عنده مدة الضيافة ثم بعد ذلك استأذن للعودة ، وكان معه ابنه السيد عبد الله محمد ماضى أبو العزائم فى سن الثانية عشرة . وقد أوصل الباشا الإمامَ إلى القطار ، وبعد أن مشى القطار قليلًا قال السيد عبد الله لوالده وهو فى حالة من السرور : إن الله قد أكرمنا وكتب لك الباشا هذه الحجة مائة فدان باسمك واستحيَى أن يعطيها لك وطلب ذلك منى ، وقدم إليه الحُجة . غضب الإمام غضبًا شديدًا وقال : أنا أدله على الله وهو يدلنى على الدنيا ! وقال لابنه لِمَ لَمْ تخبرنى قبل ركوب القطار ؟ وأمره أن ينزل فى المحطة القادمة لرد هذه الحجة للباشا ، فقال الإخوان يا سيدى إذا نزل فسوف يدخل عليه المغرب ويبيت فى الطريق فقال : يبيت فى الطريق ويُرْجِعَ الورقة لصاحبها . ونزل السيد عبد الله وبصحبته بعض الإخوان وأعاد الورقة .

* وفى أول رحلة حج للإمام [٣٦] عام ١٣٤٠ هـ (١٩٢٢ م)، وكان معه نجله السيد محمد الحسن وعدد من خاصة تلاميذه، وأثناء نزوله فى منزل أحد الإخوان بجدة، جاءه مندوب من طرف الشريف حسين أمير مكة يحمل له برقية يذكر فيها: «الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم بجدة. الأقطار الحجازية تتشرف بقدومكم. فى خدمتكم رئيس البلدية بجدة حتى تشرفوا مكة. حسين بن على» فتوجه الإمام إلى رئيس بلدية جدة ومعه البرقية، فقال له: إن الأراضى المقدسة ترحب بقدومكم، فرد الإمام قائلًا: «نسأل الله أن يعيد للإسلام مجده»، ثم قرأ رئيس البلدية البرقية التى وصلته من أمير مكة وهذا نصها: «كونوا فى خدمة الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم ومريديه حتى يشرفنا بمكة. إمضاء حسين بن على»، ثم قال مخاطبًا الإمام: لقد أعددنا لفضيلتكم وجميع المريدين وسائل الراحة والانتقال حتى تشريفكم مكة وذلك تلبية لرغبة سيدنا وسيد الجميع.

وهنا ابتسم الإمام وقال له: (أما إنه سيدك يا بنى فلك أن تسيد من شئت على نفسك، وأما إنه سيد الجميع فمن يقول بذلك غيرك؟ إن سيد الجميع هو الواحد الأحد). ثم استطرد الإمام موجهًا الحديث لرئيس البلدية: (أنا يا بنى لا أستحق هذه العناية من الشريف، وهذا ردائى كما تراه بسيطًا، وقد سبق أن عمل إخوانى لراحة إخوانهم فترة وجودنا بجدة)، ثم كرر الرجاء لرئيس البلدية، وكرر الشكر والاعتذار وانصرف. وما كاد الإمام يصل إلى بحرة «قرية بين جدة ومكة يستريح بها الحجاج» حتى كان فى انتظاره مندوب من قبل أمير مكة، ومعه بعيرين أحدهما يحمل ماء زمزم وماء عين زبيدة، والآخر يحمل أقفاص الفاكهة المتنوعة، وقدمهما هدية من الشريف حسين بن على للإمام، وعلل ذلك بأن ماء الشرب فى بحرة غير صحى إذ هو ماء الأمطار المخزون فى حفر تحت الأرض، وثمن الشربة منها خمسة قروش.. فاستدعى الإمام شيخ قرية بحرة وقدم له ما وصله من أمير مكة مخبرًا إياه أن أهالى بحرة أولى بهذه الهدية منه.

ولما وصل الإمام مكة زاره وزيران للشريف حسين أحدهما اسمه الغزاوى وهو وزير البريد والبرق يدعوان الإمام لزيارة الشريف فى داره، لكن الإمام أخبرهما أن أمير مكة قد أغضب رسول الله ﷺ بقتله إخوانه الأتراك المسلمين، والتشنيع بجثثهم بأسلحة الكفار الإنجليز، ولا أستطيع أن أمد يدى فى يد رجل هذا شأنه، فاشتد تأثرهما من هذا الفعل.

وفى اليوم التالى وبعد طواف القدوم ونزول الإمام فى منزل بأجياد (بمكة) حضر وزير

(٣٦) بعد بلوغه سن الحلم لأنه سبق أن حج قبل ذلك مع والده، وعمره ١٢ عامًا.

خارجية الشريف حسين واسمه فؤاد الخطيب وهو سورى الجنسية وكان يعمل قبل ذلك مدرسًا للغة العربية بالخرطوم وكان على علاقة طيبة بالإمام. وعندما سلم على الإمام سأله: أين أنت يا فؤاد؟ فقال مشغولون، فقال الإمام: كان الله عونًا ومعينًا، فقال الوزير صاحب الجلالة الهاشمية فى انتظارك، فقال الإمام متعجبًا: فى انتظارى أنا؟ أنا مُتعَب من السفر، فأخبره أن الحاضرين معه مبروك باشا قائد المحمل والأمير شوكت على والأمير محمد على - من الهند - وهم أحبابك، فاعتذر الإمام كثيرًا عن عدم الذهاب ثم قال: أنت تعرفنى منذ زمن، إننى أبعد الناس عن زيارة الملوك والأمراء، ولقد أحرمنا من بيوتنا وتجردنا لزيارة رب البيت لا لزيارة الملوك، فإن كان ولابد، سأرسل معك بعض أولادى، أما أنا فلا يمكن. وأرسل معه نجله السيد محمد الحسن والشيخ أحمد السبكى والسيد عبد الحليم خفاجى وبعض الإخوان، ولما قابلوا شريف مكة أخبره السيد محمد الحسن أنهم حضروا نيابة عن الإمام أبى العزائم، وأنه لا يستطيع الحضور لعدم استطاعته وضع يده فى يد قاتل الأتراك المسلمين الذين لاذوا بأستار الكعبة، فقال له حسين بن على: والله لولا أنك شاب وسيم ومسلم ومن العلماء وأتيت لحج بيت الله ما علمت أين تمضى من مجلسنا، ولما عادوا وأخبروا الإمام قال: (كذب والله) وكررها ثلاثًا ثم قال: (إنه لا يملك أن يفعل شيئًا فالله معنا وحافظنا).

وفى اليوم التالى جاء الغزاوى وزير البرق والبريد وأبلغ الشيخ أحمد السبكى أن شريف مكة سيرسل مرة أخرى مندوبًا من قبله لدعوة الإمام أبى العزائم وبدار أخيه فى اليوم الذى يلى الدعوة، وأمام حب الغزاوى للإمام أكد على عدم تلبية الإمام لهذه الدعوة لسابق معرفته أن الشريف قد دبر هذه المكيدة للفتك بالإمام وبمن معه، وفعلًا جاء مندوبه بعد ذلك بساعات وأخبر الإمام بالدعوة وحدد موعد اللقاء ووصف المكان.

توجه الإمام وأصحابه إلى المكان المحدد فى الوقت المحدد رغمًا عن نصيحة الإخوان بعدم الذهاب، ولكن الإمام أخبر أنه كله ثقة بالله بالحفظ والرعاية. ووصل الإمام ومن معه إلى المكان المحدد فلم يجدوا إلّا العبيد الذين أوصدوا عليهم الأبواب بعد دخولهم، فما كان من الإمام إلّا أن توجه بالدعاء إلى ربه قائلًا: (اللهم إن هذا الطاغية قتل إخواننا المسلمين بأسلحة الكفار وأنت الفاعل المختار، فانتقم يا منتقم، اللهم طهر الحرم الشريف من أمثاله) علا بكاء الإخوان ومعهم هؤلاء العبيد الذين كانوا يؤمنون على الدعاء، واعتذروا للإمام عن سوء استقبالهم وما كانوا ينوون فعله من قتلٍ كما أمرهم الشريف حسين بن على أمير مكة.

وتوجه الإمام بعد ذلك إلى منى وجلس بين محبيه يلقى درسًا، وأثناء ذلك دخل عليه

أحد مرافقيه منزعجًا باكيًا مخبرًا إياه أن سارقًا اقتحم خيمة الإمام وسرق منها جميع النقود - وكان الإخوان قد استودعوا أموالهم وأماناتهم عنده للإنفاق منها - فاستبشر الإمام وسجد لله شكرًا، وطمأن أصحابه أن الله لن يضيعهم، وأنشأ رضى الله عنه يملى هذه القصيدة:

بِخِيفِ مِنى عَرِّجْ بلغت الأمانيا ... ومرِّغ على تُرْبِ البقيع خدوديا

وناد ربوعًا نوَّرَ البدر افقها ... الا رحمة ارجو كشف مابيا

وفى طيبة طب فالوصال بطيبة ... تطيب وفيه نور قدس بدى ليا

إذا وصل العشاق بالروح للعلا ... وتنظر هذا البدر للقوم ساقيا

إذا جن ليلى صرت والبدر قدوتى ... عَلا نوره حتى انال مراديا

فيا ايها العشاق هيا وشمروا ... إلى منزل فيه الهداة الموااليا

* وعندما كان الإمام يعمل بالتدريس فى مدينة أم درمان بالسودان، كان تلاميذه يتنافسون فى محبته وخدمته نظرًا لشدة تأثرهم به ومحبتهم له. وكانت إدارة الكلية قد نشرت لتوها كشفًا بترقيات المعلمين بها، فوجد أحد تلاميذه أن للإمام زيادة فى راتبه الشهرى تستحق التهنئة، فأسرع ليبشر أستاذه، وكان رضى الله عنه ممتطيًا دابته وعلى وشك الخروج من باب الكلية، فاستوقفه قائلًا: يا مولانا السيد أبشرك، فقال الإمام: أتبشرنى يا بنى؟ بشَّرك الله بالخير (قالها ثلاث مرات)، ثم قال: بماذا تبشرنى يا بنى؟ فقال له: لقد رُقِّيتَ إلى درجةٍ وظيفيةٍ أعلى، وهناك زيادة فى الراتب الشهرى. فما كان من الإمام إلا أن قال: أتبشرنى بالدنيا يا بنى، ثم أردف قائلًا: ما آتانى الله خيرًا مما آتاكم، قالها ثلاثًا. ثم أدخل الإمام يده فى جيبه وأخرج ريالًا مجيديًا وأعطاه لتلميذه ومضى إلى وجهته.

* كان الإمام فى بداية عمله ببلدة الإبراهيمية يحب الجلوس تحت الأشجار ويأنس بالخلوات بعيدًا عن دنيا الناس. وفى يوم، مر عليه علمى بك وهو ممتطيًا فرسه - وكان من الأعيان وذوى الجاه العريض ومن الأتراك ذوى النفوذ - وقال له: السلام عليك يا ماضى، السلام عليك يا أبا العزائم. ولما رد الإمام عليه السلام نظر إليه فوجد حب الدنيا والعظمة قد تمكنا من قلبه، فأراد أن ينزل ذلك منه وذلك بفضل سابقة الحسنى الأولية له. قال الإمام له: يا علمى بك إن الذى تمتطيه من ركائب الذهب هو التراب الذى يسير عليه أبو العزائم. ضع هذه الركائب على الأرض وقل بسم الله الرحمن

الرحيم ثم انظر إليها ، ففعل فإذا بها تراب ، ثم قال له خذها وقل بسم الله الرحمن الرحيم ، ففعل فعادت إلى ما كانت عليه . ذهل علمى بك ثم تفكر فيما حدث له وهو فى مواجهة الإمام . ومن يومها خلع ما كان عليه من حلل الدنيا وارتدى ملابس الزهد وسار خلف الإمام خادمًا له طوال حياته ، وفتح له بيته وكان سببًا مباشرًا فى انتشار الدعوة في الإبراهيمية حيث جمع عليه أهل البلد فى بيته . وعلمى بك وأمثاله ممن عشقوا فهاموا عددهم كثير .. قال فيهم الإمام :

ولا فخر .. ملوك العشق خضعوا ... على بابى .. وقد طلبوا وصالى
انا الساقى مداما سلسبيلا ... لأهل معيتى اهل الكمال
وابدالى هم الأقطاب حقا ... وافرادى مفاتيحُ لحالى

والإمام يعلم علم اليقين حقيقة الدنيا وما ورد عنها فى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، لذلك يقول فى بعض حكمه معلمًا ومذكرًا :

* لم تُخلقْ الدنيا لتنظر إليها ، وإنما خلقت لتنظر بها إلى الآخرة .
* من عرف الدنيا زهد فيها ، ومن عرف الآخرة رغب فيها ، ومن عرف الله آثر رضاه ، ومن لم يعرف نفسه فهو من دينه فى غرور .
* الدار الدنيا فانٍ نعيمُها ، فى عناءٍ سليمها ، وفى شقاء سقيمها ، وفى كدر غنيها ، وفى كرب فقيرها ، لا يصفو عيشها لذى بال ، ولا يصفو صفوها من شوب الوبال .
* إذا اشتغل الإنسان بالدنيا نسى الآخرة ، وإذا اشتغل بهما نسى الله تعالى .
* من قنع من الدنيا باليسير ، هان عليه كل عسير .
* الدنيا خمر الشيطان ، من شربها لم يفق إلا بين عساكر الموت نادمًا بين الخاسرين ، قد ترك لغيره منها ما جمع ، وتعلق بحبل غرورها فانقطع ، وقدم على من يحاسبه على النقير والفتيل والقطمير .

وعن حقيقة الزهد وفضل الزاهدين يقول رضى الله عنه فى كتاب (أصول الوصول لمعية الرسول) :

معرفة الزهد متوقفة على معرفة الدنيا أىُّ شئ هى ، فقد قال الناس فى الزهد أشياء كثيرة ، ونحن غير محتاجين إلى ذكر أقوالهم بما بين الله تعالى وأغنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى ، وقد قال رسول الله ﷺ : (هو الحبل المتين والصراط المستقيم ، من

طلب الهدى فى غيره أضله الله)[٣٧] ، وقال سبحانه : ﴿وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه إلى الله﴾[٣٨] ، وقال عز وجل : ﴿فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه﴾[٣٩] . فقد ذكر الله جل اسمه فى كتابه :

(١) أن الدنيا سبعة أشياء وهو قوله تعالى : ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث﴾ ثم قال تعالى فى آخرها : ﴿ذلك متاع الحياة الدنيا﴾[٤٠] . فحصل من تدبر الخطاب أن هذه السبعة جملة الدنيا ، وأن هذه الدنيا هذه الأوصاف السبعة ، وما تفرع من الشهوات رد إلى أصل من هذه الجمل ، فمن أحب جميعها فقد أحب جملة الدنيا نهاية الحب ، ومن أحب أصلًا منها أو فرعًا من أصل فقد أحب بعض الدنيا ، فعلمنا بنص الكلام أن الشهوة دنيا ، وفهمنا من دليله أن الحاجات ليست بدنيا لأنها تقع ضرورات ، فإذا لم تكن الحاجة دنيا دل أنها لا تسمى شهوة ، وإن كانت قد تشتهى لأن الشهوة دنيا .
واستند ذلك لخبر عن الله تعالى فى الإسرائيليات (أن إبراهيم عليه السلام أصابته حاجة ، فذهب إلى صديق يستقرض منه شيئًا فلم يقرضه ، فرجع مغمومًا ، فأوحى الله إليه : لو سألت خليلك لأعطاك ، فقال : يارب عرفت مقتك للدنيا فخشيت أن أسألك منها فتمقتنى ، فأوحى الله تعالى إليه : ليس الحاجة من الدنيا) .

(٢) وَرَدَّ سبحانه وتعالى فى آية أخرى السبعة أوصاف المتقدمة إلى خمسة بقوله جل وعلا : ﴿اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر﴾[٤١] ، فهذه الخمسة هى وصف من أحب تلك السبعة .

(٣) ثم اختصر سبحانه الخمسة فى معنيين هما جامعان للسبعة فقال : ﴿إنما الحياة الدنيا لعب ولهو﴾[٤٢] .

(٤) وقد رد الجميع إلى وصف واحد بقوله : ﴿ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى﴾[٤٣] فصارت الدنيا طاعة النفس للهوى بدليل قوله تعالى : ﴿فأما من طغى

---

(٣٧) ذكره السيوطى فى الجامع الكبير .

(٣٨) سورة الشورى آية ١٠ .

(٣٩) سورة البقرة آية ٢١٣ .

(٤٠) سورة آل عمران آية ١٤ .

(٤١) سورة الحديد آية ٢٠ .

(٤٢) سورة محمد آية ٣٦ .

(٤٣) سورة النازعات آية ٤٠ ، ٤١ .

وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى﴾[٤٤] ، فلما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا ، لأن النهى عنه ضد الإيثار له . فمن نهى نفسه عن الهوى فإنه لم يؤثر الدنيا ، وإذا لم يؤثر الدنيا فهو الزاهد وكانت له الجنة التى هى ضد الجحيم ، فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وإيثاره فى كل شئ .

فينبغى أن يكون الزهد مخالفة الهوى فى كل شئ ، فمن زهد فى الحياة الفانية وفى ماله المجموع بالجهاد للنفس والإنفاق فى سبيل الله فقد زهد فى الدنيا ، ومن زهد فى الدنيا أحبه الله تعالى كما قال رسول الله ﷺ ، ولذلك صار الجهاد أفضل الأعمال لأنه حقيقة الزهد فى الدنيا ولأن الله تعالى يحب من زهد فى الدنيا . ثم كانت مخالفة الهوى من أفضل الجهاد لأنه هو حقيقة الرغبة فى الدنيا ، وقد عبر رسول الله ﷺ عن الزهد فى الدنيا فقال : (ازهد فى الدنيا يحبك الله تعالى)[٤٥] .

فالزاهد فى الدنيا حبيب ربه تعالى ، والراغب فى حب البقاء لنفسه منافق فى دين ربه تعالى ، ومنه الخبر الذى جاء : (من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق)[٤٦] ، وبه كشف الله تعالى الكاذبين ووصفهم بمرض القلوب فقال سبحانه وتعالى : ﴿ فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض﴾ يعنى نفاقًا ﴿ ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم﴾ تهديد ووعيد أى وليهم العذاب وقرب منهم ، ثم قال : ﴿ طاعة وقول معروف ﴾ أى يظهر منهم طاعة وقول معروف ﴿ فإذا عزم الأمر﴾ وحققت الحقائق كذبوا ونكثوا ﴿ فلو صدقوا الله﴾ فى الوفاء ﴿ لكان خيرًا لهم﴾[٤٧] .

ولما حقق الله الزهد بغنى النفس وإخراج المال فى ذكر المبيع والمشترى فى قوله : ﴿ يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويُقتلون ﴾[٤٨] ، وكان الزهد هو ترك طاعة الهوى وبيع النفس بنهيها عنه من المولى ، وكان العوض من ذلك الجنة .. كان الزاهد هو الخائف مقام ربه البائع نفسه طوعًا قبل أن يُخرج نفسه إليه كرهًا ، وكان الله تبارك وتعالى هو المحبوب له القريب منه ، فصار العبد محبًا له فجعله من المقربين عنده تعالى . وإذا كانت الدنيا هى طاعة الهوى وحب الحياة الدنيئة لمتعة النفس الشهوانية ، كان الراغب فى ذلك آمنًا لمكر

---

(٤٤) سورة النازعات آية ٣٧ - ٣٩ .

(٤٥) أخرجه ابن ماجة من حديث سهل بن سعد .

(٤٦) رواه مسلم وأبو داود والنسائى عن أبى هريرة .

(٤٧) سورة محمد آية ٢٠ ، ٢١ .

(٤٨) سورة التوبة آية ١١١ .

الله تعالى ، مشتريًا للحياة الدنيا ، بائعًا بذلك الحياة العليا فلم يكن محبًا له ، وكان من المبعدين عنه بسوء اختياره ، وحُقَّ عليه الخسران والجحيم فى الآخرة ، لأنه ضد الزاهد المقرب الظافر بدار القرب فى جوار الحبيب القريب .

تفصيل حقيقة الزهد :

(١) إذا كان الشئ موجودًا عندك وأنت ممسكه لنفسك ثم توهمت أنك زاهد فيه لخواطر الإرادة أو لإرادة الزهد فقد كذبت على نفسك بتسميتك إياها زاهدًا ، وكذبتك نفسك بوجوده جهلًا منها بالعلم بتسميتها لك زاهدًا ، أو كذبك وَجْدُكَ على العلم جهلًا منك بربك عز وجل ، أو موهت على نفس غيرك ممن لا يعرف الزهد ، وهذا زهد منك فى الزهد ، ورغبة منك أيضًا فى الدنيا حتى يخرج الشئ الذى تظن أنك زهدت فيه وتعتاض منه محبة إليه تعالى وطلب مرضاته تبارك وتعالى أو ما عنده من ثوابه ، فحينئذ يصح زهدك فيه على العلم وعند العلماء فتكون صادقًا ، فهناك وصفك الزاهد بالزهد وسماك الزاهدون زاهدًا .

(٢) أما إذا لم يكن الشئ موجودًا لك ، فإن زهدك فيما لا تملك لا يصح . والزهد فى معلوم باطل من قِبَل أن تصرفك لا يصح فيما لا تملك ، فكذلك لا يصح زهدك فيه ، ولعله لو كان موجودًا تغير قلبك به وتقلب فيه إذ ليس الخبر كالمعاينة ، لأن الخبر قد يشتبه ويوهم ، والمعاينة تكشف الحقيقة وتحكم على الخلقة ، ولأن النفس ذات بدوات لِما طبعت عليه من حب المتعة بالرفاهية ، فكذلك لا يجعل ظنًا معدومًا كيقين موجود ، إذ لو كان - كيف يكون الأمر؟

ولكن قد يكون لك مقام من المعدود فى المعدوم بقيامك بشرطه وهو أن لا تحب وجود الشئ ولا تأس على فقده ، أو تكون مغتبطًا بعدمك مسرورًا بفقرك ، يعلم الله ذلك من غيبك ويطلع على سرك أنك لا تفرح بوجوده لو وجدته وتخرجه إن دخل عليك ، وأن قلبك قانع بالله سبحانه ، راض عن الله سبحانه وتعالى بحالك التى هى العدم من الدنيا ، غير محب للاستبدال بها من الغنى بصدق يقينك بفضيلة الزهد.. فإذا كنتَ بهذا الوصف حسب لك جميع ذلك زهدًا ، وكان لك بأحد هذه المعانى ثواب الزاهدين وإن لم تكن للدنيا واجدًا .

وصف الزاهد وفضله :

قوة الزهد الذى لابد منه وبه تظهر صفة الزاهد - وينفصل به عن الراغب هو :

١ - أن لا يفرح بعاجل موجود من حظ النفس .
٢ - لا يحزن على مفقود من ذلك .
٣ - أن يأخذ الحاجة من كل شئ عند الحاجة إلى الشئ .
٤ - لا يتناول عند الحاجة إلا سد الفاقة .
٥ - لا يطلب الشئ قبل الحاجة .

أول الزهـــــد

دخول غم الآخرة فى القلب ، ثم وجود حلاوة المعاملة لله تعالى . ولا يدخل غم الآخرة إلا بعد خروج هم الدنيا ، ولا تدخل حلاوة المعاملة حتى تخرج حلاوة الهوى . وكل من تاب من ذنب ولم يجد حلاوة الطاعة لم يؤمن عليه الرجوع فيه ، ومن ترك الدنيا ولم يذق حلاوة الزهد رجع فى الدنيا ، ولا يذوق حلاوة المعاملة حتى يخرج حلاوة الهوى .

خالــص الزهـــــد

هو إخراج الموجود من القلب ، ثم إخراج ما خرج من القلب عن اليد ، وهو عدم الموجود على الاستصغار له ، والاحتقار والتقالل لهوان الدنيا عنده وصغرها فى عينه ، فبهذا يتم الزهد . ثم ينسى زهده فى زهده ، فيكون حينئذ زاهدًا فى زهده لرغبته فى مزهده ، وبهذا يكمل الزهد .

لبــه وحقيقتــه

وهو أعز الأحوال فى مقامات اليقين ، وهو الزهد فى النفس لا الزهد لأجل النفس ، ولا للرغبة فى الزهد للزهد ، وهذه مشاهدة الصديقين وزهد المقربين عن وجد عين اليقين . ودون هذا مقامات إخراج المرغوب فيه عن اليد مع نظرته إليه ، وعلى مجاهدة النفس فيه وهو زهد المؤمنين ، وذلك العمل بالزهد عقد وعمل إذا كان الزهد عن الإيمان ، والإيمان قول وعمل ، وكذلك الزهد عقد وعمل ، فالعقد خروج حب الدنيا من القلب بدخول حب الآخرة فى القلب ، والفعل بالزهد إخراج المحبوب من اليد فى سبيل الله معتاضًا منه ما عنده سبحانه وتعالى من وجهه الكريم جل وتعالى أو قرب جواره فى داره . وقد روينا عن رسول الله ﷺ : (أن الله تعالى يعطى الدنيا من يحب ومن لا يحب ،

ولا يعطى الدين إلا من يحب)[49] ، والذى يحبه الله تعالى ممن أعطاه الدنيا لا يخالف حبيبه إلى هواه ، ولا يؤثر نفسه على محبة مولاه تبارك وتعالى ، إذ قد تولاه فيما أعطاه .

وتحدث رضى الله عنه مبينًا رؤية أهل الله للدنيا ، وأنها لا تُذمُّ لذاتها ، وأنها محمودة عند الأبرار ، وهى الموطن الثانى للأخيار ، لا يلههم آثارها عن أنوار تجليات الحق سبحانه فيها .. فقال :

هى الوطن المحبوب للأبرار ... وقبل (الست) موطن الأخيار

إليه حنين العارفين وشوقهم ... ولم يحجبن عنهم بذى الآثار

و (كن) مطلب الزهاد جدوا لنيلها ... و (كان) مراد الفرد للمختار

وكون الفنا للغافلين تهيموا ... بزهرته حتى رُموا فى النار

راوه لهم وطنًا فجدوا لنيلها ... فحجبوا عن الآيات والأنوار

واهل الصفاء القدسُ لهم مطية ... فساروا به لحقيقة الأسرار

ابَوا ان يروه منزلًا فتجردوا ... عن الحظ فى طلب العلى البارى

إلى الله ساروا والكيان مطية ... وقد واصلوا الآصال بالأسحار

راوا زينة الدنيا وبهجة اهلها ... سرابًا ، وليست عندهم بقرار

اقاموا بها غرباء والحق آنسهم ... على الشرع بين الفكر والأذكار

بارواحهم فى حضرة القدس مُتعوا ... وابدانهم فى الكون والآثار

تكشفت الدنيا لهم عن مآلها ... فلجاوا الى التواب والغفار

راوها غرورًا زائلًا فتجنبوا ... معاملة الجهلاء والفجار

نعم عاملوا مولاهمو بقلوبهم ... وسلكوا سبل مناهج الأخيار

فصافاهمو مولاهمو واصطفاهمو ... لحضرته وحباهمو بفخار

به انسوا فى كل ماهو ظاهر ... من الآى والآثار والأطوار

فهم معه فى كل حال وهم به ... شموس هدىً فى افقه للسارى

وهم انجم من وراث طه تلألات ... بهم وُجَهُ التشريع كالأقمار

ومن يده شربوا طهور شرابه ... مواجهة فضلًا بلا استار

عليه صلاة الله فى كل لحظة ... صلاة بها نحظى بكل فخار

---

(٤٩) رواه الحاكم والبيهقى من حديث ابن مسعود .

وآل واصحاب كرام ائمة ومن ورثوا الأحوال بالأنوار

ثم يخاطب رضى الله عنه الدنيا فيقول :

آه يادار الفنا فيكِ البقا ورضا الله وفوز باللقا
فيكِ نور الله مُحكمُ آيهِ وصراط مستقيم للتقى
فيكِ منهاج الحبيب المصطفى سُلّم للوصل سهل المرتقى
انتِ روض الشهود مجمل قد يراه بالصفا من يُنتقى
فيكِ أنوار التجلى اشرقت والطهور بحانه من استقى
فيكِ آيات واسرار بها حظوة الزلفى نعيم لا شقا

سيرة الإمام فى مصيفه ببرج البرلس[1]

تنقل رضى الله عنه فى كثير من البلاد لدعوة الناس إلى الله تعالى إحياء لشريعة النبى ﷺ ، ومن بين تلك البلاد التى نالت قسطًا وافرًا من دعوته قرية (برج البرلس بمحافظة كفر الشيخ) .

وأهالى هذه القرية يعيشون على صيد الأسماك ، وكانت أوقات فراغهم عبارة عن لعب ولهو وجلسات سمر ، حتى إن الإمام قال عنها فيما بعد عندما باشر نور الإيمان قلوب أهلها فى قصيدة طويلة مطلعها :

حيرت فكرى فى الآثار محصورة   اسكرت روحى بالآيات منشورة

إلى أن قال :

يا بحر حيرتنى مما ابحت به   وَىْ والبرلس كانت قبلُ معذورة[2]

* وكان الإمام قد التقى بأحد أبنائها وهو الشيخ كامل شمس بمدينة الإسكندرية فى مسجد سيدى ياقوت العرش وأحب الإمام وتلقى منه علومًا نافعة أراد أن ينشرها بين أهل قريته ، وبدأ فى الدعوة إليها فتعرف عليه الشيخ حسن عبد الوهاب القلفاط وغيره من الذين كونوا وفدًا زار الإمام بالقاهرة ليجمعوا بين السماع وشهود العيان ، فرحب بهم رضى الله عنه وأكرم وفادتهم وجالسوه يستمعون إليه ينهلون من فيض فضل الله المفاض عليه ، وعادوا يحدثون بما طالعوه ويرغبونهم فى التلقى عن الإمام ويشوقونهم إلى رؤيته ، فاستجاب العديد منهم ، وتشوقت أرواحهم ولانت قلوبهم وتاقت لرؤياه نفوسهم ، ومن بين هؤلاء : الشيخ عرفات الجمال الذى سبق أن رأى الإمام فى رؤيا منامية مبشرًا إياه بخير عميم ، فما لبث أن توجه مع الشيخ حسن والشيخ كامل إلى مدينة الإسكندرية التى كان الإمام قد توجه إليها ، وطلبوا منه زيارة بلدهم ليعم النفع به ، فاستجاب لهذه الدعوة .

* وعلى مدى خمس سنوات متتالية وهى من عام ١٣٤٩ وحتى ١٣٥٣ هـ دأب الإمام على زيارتها فى موسم الصيف من تلك الأعوام ، وكان يمكث فيها فى كل مرة ما بين الشهر والشهرين تصاحبه أسرته حيث أقام أهل القرية مقرًا له أمام البحر مباشرة

(١) رواها الشيخ أحمد سرور من برج البرلس .

(٢) أى أنها لم ينكشف فيها نور الإيمان بعد .

يجتمعون فيه حوله يتلقون منه أسرار الحكمة وغرائب العلوم والمعارف . وأحبهم رضى الله عنه حبًا جمًا ، وكان مما أنشأ وهو بين ظهرانيهم :

هل راح ارواح المحبة دارا ... فى الذكر حتى اشهد الأنوارا ؟
إن اشرق المذكور اسكر انفسًا ... حتى راينا فى ذكره الأسرارا
إن ناول الراح الطهور حبيبنا ... حتى راينا المصطفى المختارا
يا خير خلق الله انت حبيبنا ... اشهد عيون القلب منك منارا
إنا نحبك فاسقنا خمر الصفا ... حتى نرى الوجه الجميل جهارا
قلبى لديك وبالبرلس هيكلى ... اوصل إليك الفرع اعل منارا
خذنى بكلى يا حبيبى اوصلن ... فرعى باصلى اشهد الأسرارا
لكن قلوب العاشقين دعت ... إلى ان اقيم بدارهم مختارا

* وكان قلبه رضى الله عنه يسوح فى آيات الله وفى مكوناته ، فيترجم بلسان العبارة عما كوشف به من أسرار تلك الآيات فى قصيدة مطلعها[٣].

الكون حان وفيه الراح للصادى ... لما تجلى لنا قد قدس الوادى
ثغر البرلس فيه البحر يتبعه ... بحيرة ماؤها ملح لقصاد
وارضها الرمل : لا زرع ولا ضرع ... لكنها تجذب الأرواح للهادى
فيها البساتين مَنْ اشجارها إنس ... قد جملوا بالهدى من روح إرشاد
مولاى ابدلتهم بالزرع روح هدى ... وبالثمار باسرار وإمداد
منعتهم ما به الأهواء والحجب ... واوردتهم منهلًا من خير إيراد
انت الكريم جواد مانع معط ... هبنا العناية يا ربى بإسعاد

وصف الإمام أهلها بأنهم أشجار فى أرض جرداء لا زرع ولا ضرع فيها ، وهم مع بعضهم يمثلون البساتين والجنان ، مقتديًا بما وصف به ربنا المؤمنين فى كتابه العزيز بأنهم أشجار الحق سبحانه فقال : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء * تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال

(٣) قصيدة من خمسة عشر بيتًا قالها رضى الله عنه يوم الجمعة ٥ ربيع الآخر ١٣٥٢ أثناء رياضته على شاطئ البرلس عندما رأى الهلال . « ديوان ضياء القلوب من فضل علّام الغيوب »، قصيدة رقم ٤٣٣ ص ٤٥٣ ، دار الكتاب الصوفى ١٩٩٢ .

للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت..﴾[٤] فقال الله : ﴿يثبت الله الذين آمنوا﴾ ولم يقل : (يثبت الله الأشجار) .. إذ أن الذين آمنوا هم أشجار الحق وأصحاب الكلم الطيب وأنها تؤتى أكلها كل حين وهى ثمارها .

* وقال أيضًا[٥]:

يا إخوتى اهل البرلس	سر الأئمة من قديم زمان
احببتمو المختار فزتم بالرضا	حتى بلغتم حظوة المنان
يا إخوتى الحب اعظم نعمة	تعطى لأهل الصفو والإيقان
انتم رجال العصر فضل محمد	بشرى لكم فى مولد العدنان
قد صرتمو نورًا لعصر مظلم	والله جملكم بنور حنان
شكرًا لربٍ منعم وهب الصفا	اعطى المحبة منه بالإحسان

* وجاء بعض الآباء يومًا يشكون للإمام أبناءهم الذين يطيلون تواجدهم معه ومجالستهم إياه ، متخوفين أن يؤثر ذلك على أعمالهم وسعيهم لجلب أرزاقهم ، فتوجه الإمام يستفسر من أبنائهم عن حقيقة ذلك فأخبروه أنهم يجتهدون فى القيام بأعمالهم وقضاء حوائجهم ، وأن قلوبهم لا تطيق بعدًا عنه فيهرعون بعد إنجاز أعمالهم للسماع منه والتلقى عنه ، ولا طاقة لهم على غير ذلك ، فأنشأ رضى الله عنه قائلًا[٦]:

نهار الفتى المحبوب فى السعى والفكر	وليل الفتى المطلوب فى جذبة الذكر
عجيب مجاهدة الرجال نفوسهم	لتطهيرها من ظلمة البعد والكفر
شباب مقامهم المعاصى وغفلة	يوفقهم للقرب ربى وللخير
ففى الليل رهبان بذكر إلههم	نهارهمو سعى إلى طلب البر
نعم هم رجال فى محبة ربهم	لقد خصهم منه بساطعة السر

---

(٤) سورة إبراهيم آية ٢٤ - ٢٧ .

(٥) الجزء الأول من قصيدة تتكون من سبعة عشر بيتًا أولها « أهل العزائم خمرهم قرآنى » أملاها رضى الله عنه بالحضرة ليلة السبت ٥ ربيع الأول ١٣٥١ هـ بمصيفه ببرج البرلس ، « ديوان ضياء القلوب من فضل علّام الغيوب »، قصيدة رقم ١٣١ ص ١٣٦ دار الكتاب الصوفى ١٩٩٢ .

(٦) ديوان ضياء القلوب من فضل علام الغيوب ، الجزء الأول ، قصيدة ١٤٨ ص ١٥٢ ، دار الكتاب الصوفى ١٩٩١ .

احبهمو حتى احبوه هيموا ... ايا روح لله العلى الا فرى
تراءى لهم وجه الجميل فحيروا ... وفروا من الأكوان فى البر والبحر
فاسهدهم ما فيهمو من جماله ... فغابوا به عشقًا على الصدق فى السير
فلم يلههم حظ ولا شهوة ولا ... علو وتمكين من الأهل والغير
يقودهمو القرآن ينبئهم بما ... ينالهمو من ربهم من ضيا الفخر
تراهم سكارى طول ليلهمو بما ... راوه من الأنوار فى ليلة القدر
لياليهمو قدر وايامهم ضيا ... تجلى لهم مولاهمو ساعة الفجر
على سنة المختار ساروا وفارقوا ... حظوظًا واهواء تدل على الشر
قلوبهمو قد عمرت بحقائق ... والسنة الأفراد تنبئ بالسر
تراهم نهارًا كالسباع شهامة ... كما امر الرحمن بالسعى فى السير
وفى الليل موتى من غرام حبيبهم ... سكارى حيارى فى شهود وفى ذكر
لقد تركوا آباءهم امهاتهم وقد ... جاهدوا بالحال فى السر والجهر
وقد اعجزوا بالعلم كل معلم ... لأنهم منحوا الحقائق فى الصدر
من الله والإحسان فى كل موطن ... علومهمو نور يضئ بلا حصر
مجالسهم ذكر وفكر تادب ... بآداب خير الرسل من محكم الذكر

فاطمأنت الآباء وسكنت نفوسهم .

* وتوجه رضى الله عنه يومًا لنزول البحر ومعه تلاميذه فأنشأ يقول قصيدة هذا جزء منها :

اعبروا بالبحر كى يجلى الجميل ... كى ارى فى البحر نورًا لا مثيل
اعبروا بالبحر إنى واجد ... وجد مشتاق الى بدء العليل
شمت فى ارض البرلس غامضًا ... من علوم لاح لى منها الدليل
راح موسى قد اديرت بعدها ... راح عيسى وهو استاذ نبيل

وبعد نزوله أنشأ يخاطب البحر فى قصيدة طويلة منها :

طهر يا ماء كلى ... جسمى وحسى وظلى
طهر حبيبى روحى ... بنور وجهك حولى

يا بحر انت جمال محوت عنى جهلى
تجلى فيك حبيبى انلنا كل الطول
يا بحر اشهدت قلبى والعرش فوقك سؤلى

ثم رأى موجة شديدة ستجئ إليه فقال :

والموج وافى سريعًا حتى اقوم اصلى

فوصلت إليه شديدة وانتشر الماء على وجهه ورأسه فأكمل قائلاً :

وجهى وراسى علاها موج عن الحق يملى
يملى حديث شهودى عن باطن الغيب مجلى

فأسرع الإخوان برفع كرسيه جهة الشاطئ لشدة الموج ، فأكمل فى لهجة سريعة جدًا قائلاً :

وفى البرلس صحب نالوا الرضا بالسهل

ولما استمع مرة إلى خطيب الجمعة بمسجد سيدى غانم ، يشرح قول رسول الله ﷺ : (العلماء ورثة الأنبياء)[٧]، وبعد انتهاء صلاة الجمعة أقام الإمام بالمسجد حلقة الذكر فأنشأ قائلاً :

نور الوراثة لاح للأبصار وضيا الفتوة لاح للأسرار
شهد الرجال حقائقًا لم تشهدن إلا لأهل الكشف والأخيار
فاز الكرام بوسعة فى نعمة من منعم معط ومن غفار
ما قد مضى قد عاد نورًا مشرقًا من سادة الأفراد والأبرار
علم وحال .. حجة نبوية

وهنا ضرب الإمام بشدة على فخذه ، ثم أخذ عدة خطوات للأمام - وكان الإمام وقتها قليل الحركة لمرضه - فخرَّ بعض الذاكرين مغشيًا عليه لما رأى ما اعترى الإمام من حال - بدلت ما به من بأساء إلى عافية وقوة - ومن بينهم الشيخ حسن القلينى ، ثم

(٧) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والبيهقى والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

أكمل الإمام قصيدة الذكر قائلًا :

راح طهور دار بالمدرار
قد اسكر الأرواح راح محمد ... طه الحبيب المصطفى المختار

فشاء الله أن تكون الخطبة لشرح الحديث ، والحضرة للفهم والمشاهدة ، وأحس الكتبة وهم من كانوا حول الإمام بإجهاده الشديد ، فحملوه إلى السيارة لتذهب به إلى سكنه بالمصيف وبقى الكل يتغنون بالقصيدة فى الذكر ، وأقيم الدرس حتى صلى الكل صلاة العصر ، وقد أقبل على الإمام كل من عاداه .

* وقد رد يومًا وهو فى برج البرلس على بعض العلماء الذين ينكرون الحال على الصوفية فقال :

الحال حجة دعوى سالك فانى ... والحال جذبة محبوب لديان
الحال ينكره اهل الجهالة بل ... اهل الضلالة من خِبٍ وشيطان
لكن اهل الصفا يخفون حالهمو ... عن كل مبتدع عن جاهل جانى
العلم بالله نور لا يراه سوى ... فرد مشوق الى روح وريحان
خل الإشارة لا تبدى غوامضها ... إلا لفان لدى محبوبه دانى
إن انكر الحال اهل الجهل فاعذرهم ... فالعلم بالله من اسرار إيقان
اخفوا علومكمو صونًا لها عمن ... مالوا الى الحظ من زور وبهتان
تستروا عنهم فالغيب لا يجلى ... إلا لأهل الصفا من خير إخوان
وادعوا إلى الله بالحسنى لترتفعوا ... عنكم بجذبة وهاب وحنان
سيروا على منهج المختار واجتهدوا ... ان تجمعوا الخلق للحسنى بقرآن
إخفوا عن الخلق ما لا يعلمون فكم ... خصم اتى طائعًا فى حالة الفانى
والله اسال ان يهدى بنا يعطى ... رضوانه والعطا فضلًا بإحسان

* لقد أحب الإمام أبناء البرلس حبًا جمًا ، وكان المعروف عنهم أنهم فقراء الجيوب أغنياء القلوب ، وقد شهد الإمام لهم أنهم رجال وقال فيهم :

لا ببيت مزخرف او بمال ... بل بفقه فى محكم القرآن

والكلام فى شأن الإمام مع برج البرلس يطول ، فقد اختصها بالذكر فى العديد من مواجيده وأثنى على أهلها وأحبهم بقلبه ، فأثمرت أشجان تلك المحبة ثمارًا طيبة تنشر نور الله فى أرضه .

الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين

الأولياء هم صفوة خلق الله وخواص أهل السنة المحافظون على الطريقة « الشريعة » السابحون الغارقون فى بحار أنوار الحقيقة ، حبسوا أنفاسهم مع الله وأعرضوا عن كل شئ سواه ، تولوا الله من عبادة لحضرته ، فتولاهم الله ﴿وهو يتولى الصالحين﴾[1] ويغدق عليهم من إنعامه وينشر عليهم رحمته ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2]، وهم فى كل عصر لا ينقصون عددًا ولا يمنعون مددًا ، هم الذين نعتهم رسول الله ﷺ بقوله : (العلماء ورثة الأنبياء)[3] ، دعوتهم إلى الله على بصيرة على قدر ميراثهم ، يقول ابن عطاء الله السكندرى : (إن الأنوار الظاهرة فى أولياء الله تعالى إنما هى من إشراق أنوار النبوة عليهم ، فمثل الحقيقة المحمدية كالشمس وأنوار قلوب الأولياء كالأقمار ، وإنما أضاء القمر لظهور نور الشمس فيه ، فإذا الشمس مضيئة نهارًا ، مضيئة ليلًا لظهور نورها فى القمر الممدود منها ، فإذا هى لا غروب لها ، فقد فهمت من هذا أنه يجب دوام أنوار الأولياء لدوام ظهور نور رسول الله ﷺ فى الأكوان .

وزيارة روضات الأولياء والعلماء العاملين لها فضل عظيم إذ هم ورثة النبى ﷺ ، ولها آداب منها : أن يكون الباعث على زيارتهم امتثال أمر الشارع ، قال ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها)[4] ، والجزم بفضلهم وطهارتهم والانتفاع بسرهم والتماس بركتهم لاسيما أهل البيت منهم أصحاب السيادة ومحل الكرم ومهبط الرحمة ومفاتيح السعادة ، وأن ينوى بزيارتهم مودة النبى ﷺ عملًا بقوله تعالى : ﴿قل لا أسألكم عليه أجرًا إلا المودة فى القربى﴾[5] يقول الشيخ ابن عربى رضى الله عنه :

ارى حب اهل البيت عندى فريضة	على رغم اهل البعد يورثنى القربا
فما اختار خير الخلق منا جزاءه	على هديه إلا المودة فى القربى

والإمداد على قدر الاستعداد ، ومن دخل بيت كريم لا يرجع مغبون أو يخرج بغير

(١) سورة الأعراف آية ١٩٦ .

(٢) سورة يونس آية ٦٢ .

(٣) سبق تخريجه .

(٤) رواه مسلم والنووى فى رياض الصالحين .

(٥) سورة الشورى آية ٢٣ .

مدد – قال تعالى : ﴿رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾[٦].

يقول سيدى على الخوّاص رضى الله عنه : ولاشك فى قبول الدعاء عندهم لأن رحمة الله لا تفارقهم ؛ فمن التجأ إليهم لفَّته الرحمة ، ومن انتمى إليهم غمرته النعمة .

وفى تحفة المحبين ، أن الله تعالى وكّل بقبور الصالحين ملائكة يقضون حوائج الزائرين ، وبعضهم صرفه إلى حظائر قدسه ويقضى حوائج الزائرين بنفسه ، وهذا لاشك هو ود الله لأوليائه سر قوله تعالى : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا﴾[٧].

والإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم لم يترك وليًا لله إلا زاره عملًا بالسنة ، وتوسل رضى الله عنه بهم ودعا الله سبحانه بجوارهم اقتداء واتباعًا ، وقد أخرج البيهقى وبطريقه أخرجه التقى السبكى فى « شفاء السقام » وابن حجر العسقلانى فى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » من حديث مالك بن دينار فى استسقاء بلال بن الحارث المزنى رضى الله عنه فى عهد خلافة عمر رضى الله عنه بالنبى ﷺ فقال : أصاب الناس قحط فى زمان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فجاء رجل إلى قبر النبى ﷺ فقال : يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا ، فأتاه رسول الله ﷺ فى النوم وقال له : (ائت عمر فأقرئه السلام وأخبره إنهم مسقون) ولم ينكر هذا أحد الصحابة .

والآثار الثابتة أيضًا ما ذكره العلامة ابن حجر فى كتابه « الخيرات الحسان » ملخصًا : إن الأمام الشافعى رضى الله عنه كان يجئ إلى ضريح أبى حنيفة يزوره ، فيسلم عليه ، ثم يتوسل إلى الله تعالى به فى قضاء حاجاته ، يقول الشيخ العلامة حبيب الله الشنقيطى :

إن حنيفة الإمام التابعى به توسل الإمام الشافعى
وبالإمام مالك توسلا ائمة العرب فيما اعضلا

وكان الإمام أحمد رضى الله عنه يتوسل إلى الله تعالى بالإمام الشافعى رضى الله عنه حتى تعجب منه ابنه عبد الله فقال له : إن الشافعى كالشمس للناس وكالعافية للبدن ، وفى « الصواعق المحرقة فى الرد على أهل البدع والزندقة » لابن حجر الهيتمى : كان الإمام الشافعى يزور أهل بيت النبى ﷺ ويتوسل بهم كثيرًا ويقول :

آل النبى ذريعتى وهمو إليه وسيلتى

(٦) سورة هود آية ٧٣ .

(٧) سورة مريم آية ٩٦ .

ارجـو بهم اعـطـى غـدًا بـيدى الـيمـين صـحـيـفـتـى

وكان سيدى أحمد البدوى رضى الله عنه يزور الإمام الشافعى رضى الله عنه ويتوسل به ويقول :

يـا إمـامًـا يُـرجـى لـكـل مـلـم وهمامًـا يـرد بـاس الـقـوى
وحـسـيبًـا إنـا عـليك حـسـبـنـا ودخـلـنـا فى كـهـفـك المـحـمـى
وبـظـل الجـنـاب مـنـك اتـقـيـنـا مـن عـدو وحـاسـد وبـغـى
قـد اتيناك زائـريـن مـقـامًـا وضريحًا عـلـيه نـور الـنـبـى

وللإمام أبى العزائم قصيدة جامعة فى التوسل وحكمه شرعًا يقول فيها :

ايا نفس هل فى الشريعة برهان يقوم على ان التوسل إيمان ؟
وإنى لأستفتيك يا قلب حيث قد امرنا بفتوى القلب والعبد حيران [(٨)]
اعاد رسول الله اهل التقى إلى سـؤال قـلـوب مـلـؤهـا الإيـقـان
الا اصغ إلى حكم به سر كلمة وفـيه شـفـاء للـنـهـى وامـان
لقد وضع الأسباب ربك حكمة لـيشـهـد فيها، يظـهـر التـبيان
فمن شهد الأسباب تفعل فهو فى ضـلال مـبـين قـالـه الـقـرآن
ومن شهد الأسباب تنبى بانها اواسط .. فيها الفضل والإحسان
وهـذا شـهـود الـعـارفـين بـربهم لقد خصهم فضلًا به الرحمن
فكن بين بينٍ تفقه الحكم ان من تـطـرف يهوى ، حظه الـنـيران
تـوسـل اسـلاف كـرام لـربهم بـاهـل الـتـقـى : لـباهمو المنان
ولم ينكرن هذا التوسل عالم وكيف ؟ وقد وافى به قرآن [(٩)]
وإن كان اهل الجهل لم يتوسلوا بـمـيت ولـكـن مـا لـهم بـرهـان
توسل بمحبوب إلى الله موقنًا بـنـيـل الـعـطـايا يـمـنـح الحـنـان
ولا تـلـتـفـت للمـنـكـريـن إذا ادعـوا عـلـيك بـشرك فـالهوى خـسران

---

(٨) يشير إلى قوله ﷺ : (استفت قلبك ولو أفتاك وأفتوك المفتون) .

(٩) يشير إلى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة ﴾ .

يلبيك رب العرش عند سؤاله ... بصفوته والمنعم الديان
إذا كان جبريل الأمين بحجة ... دعا المصطفى .. فى قوله البرهان
الا انزل على قبر الكليم وصل يا ... ضيا الأنبيا ، والأمر فيه بيان
وفى بيت لحم فانزلن صل داعيًا ... وهل بعد هذا حجة برهان؟!
يقول لسانى ضارعًا متبتلًا ... وقلبى توسل ، صدّق الفرقان
دعا اهل بدر بل وفاروق قد دعا ... توسل بالعباس .. صح بيان
توسلت بالمختار والقلب موقن ... إذا قال .. وافى الفضل والإحسان

وعند زيارته لروضة السيدة لبيبة[10] فى يوم الاثنين ١٥ شعبان ١٣٤١ هـ، أملى سماحته قصيدتين : بيّن فى الأولى مشروعية الزيارة فقال :

الهيكلى التذكار حال حضورى ... ام ذا لروحى حالة التصوير؟
وهل الزيارة للقبور لأنها ... رمز المشاهد حالة التذكير
والروح تشهد غيب غيب غامض ... فى الكائنات بسرها التقدير
امر الحبيب المصطفى بزيارة ... تلك القبور بضحوةٍ وبكور[11]
هل للحضور مشاهدًا ومراقبًا ... ام للتاسى بالولى المقبور؟
واجهت حال زيارتى ما لا يرى ... للغافلين من الصفا والنور
ايقنت ان السر فى الأمر الجلى ... لم يدركن ببيانه التعبيرى
جسمى يخاف الموت عند زيارتى ... فيتوب من داعى الجفا وغرور
والقلب يعقل فى الزيارة حكمة ... وهى الرجوع لمنعم وغفور
والروح تشهد فى الزيارة مشهدًا ... فيه البقا لمدبر وقدير
والنفخة العليا ترى الاسم العلى ... يجلى لها بجماله الماثور
سر الزيارة غامض من ذاقه ... تجلى له الأسماء حال حضور

وفى القصيدة الأخرى بيّن رضى الله عنه أسرار الحياة البرزخية فقال :

---

(١٠) زوجة الإمام وأم السيد الشفيع الذى توفى جنينًا .

(١١) يشير إلى قوله ﷺ : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها) رواه مسلم .

اف برزخى روحى لها مشهد يجلى — فتانس حال القرب بالمشهد الأعلى ؟
وهل تشهد الأرواح روحًا تزورها ؟ — نعم .. وترى الأشباح فضلًا من المولى
وتانس ارواح المرادين بهجة — لمن لهمو يشتاق من هم بها اولى
تراهم بإطلاق شهودًا بلا خفا — واهل الصفا فى الله فى العالم الأعلى
ومن عشقوا فى الله دام صفاؤهم — من العالم الدنيا إلى حظوة المجلى
وارواح اهل الحب فى البسط والرضا — ومحبوب رب العرش يعطى فلا يقلى
لهم هيمان فى البرازخ دائم — يحنون للمحبوب حتى لهم يجلى
لقد عشقوا فى الله عشقًا مطهرًا — عليهم إله العرش حال الصفا صلى

وهذه القصائد من بعض زياراته رضى الله عنه لأهل البيت والأولياء الصالحين :

الإمام الحسين

انت نورٌ من سيد الأنبياء — انت فرعُ البتولِ والأصفياءِ
انت ياسيدى الحسينُ وصىٌّ — من وصىٍّ من دُرَّةٍ فى الصفاء
قد شهدتُ الغيوب بدءًا وختما — فشهيدٌ من خيرةِ الشهداء
من جمال المختار نصُّ حديثٍ — بل ومنك المختارُ فى الأنبياء
صاغك الله من جمالٍ وتَقْوَى — انت عيسى الشهيدُ فى الاقتداء
انت جَدُّ الشهيدُ وابنُ شهيدٍ — وابنُ سرِّ الوجود كنزُ الضياء
بالإمام الحسينِ جُدْ لى بقُربٍ — وانتسابى إليه خيرُ ارتقاء
درةُ الكنز رفعةٌ وبهاءٌ — بل وشمسٌ تضىءُ فى الأرجاء
انت نورٌ فى كلِّ ارضٍ حبيبى — بل ونورٌ من فوق كُلِّ سماء
انت للعالم العلىِّ شُهودٌ — ذكرُ ربِّى الحسينَ خيرُ اجتباء
انت يابن البتولِ ذخرٌ لراجٍ — بل ونورٌ لراغب الاهتداء
ياحبيبى فرعُ توسَّلَ يرجو — نورَ جَدِّى فى الليلةِ الظلماء
لى قربٍ منك يابن خيرٍ وَصِىٍّ — مُنَّ لِى بالقرى وخير العطاء
انت مولى للمؤمنينَ ابنُ مَوْلَى — فاسالِ الله ان انالَ شِفَائى

فاعتقادى انتَ الوسيلةُ تُرَجَى ... للفروعِ الرَّاجِينَ خيرَ القراء
ياضياءً من شمس طه تراءى ... لأولى الحُبِّ بعد كشفِ الغِطاء
سيدى نظرةً لفرعٍ مريض ... قد دعانى حِبّى لكنزِ ابتدائى
إنّنِى الفرعُ انت اصلٌ الح لى ... نور علمٍ من غيب اهل العباء
لى عيالٌ هم الفروعُ اسال الله ... العطاء العميم بالاجتباء
ياضياءً فى مصر لاحَ مشيرًا ... للحبيب المختار للأمناء
إننى سيدى يُحِبُّكَ قلبى ... للحبيب المختار فى الاصطفاء
اشهدنّى فى ليلة الأنسِ وجهًا ... قد رآهُ العالون فى الإسراء
كى اهنّى ياسيدى باتصالٍ ... فى مقامٍ يدوم فى الاجتلاء
روح حىٍّ الحسين، منه تنالى ... علم غيب الآيات والأسماء
واسالى الله إن شهدتيه فضلًا ... لى وآلى، والخير للأبناء

☆ ☆ ☆

سرُّ (مِنّى حسينُ) غيبٌ مصونُ ... سرُّ (مِنهُ انا) به مضنُون
تفقهُ الروحُ من غوامضِ هذا ... سرُّ بدءٍ بدا به التكوين
من حسينٍ إن شئت تفهمُ معنى ... قول طه وقولهُ مضنون
ساطعٌ لاح مشرقًا فى مقام ... غامضٍ قد تراهُ فيه العُيون
لامعٌ من ظهور غيب التجلّى ... حيثُ كان الميثاقُ وهو الدِّين
من حسينٍ تمثيلُهُ فى مُثُولٍ ... بل حسينٌ منهُ بدا التّمكين
مثلتهُ الرسلُ الكرامُ ابتداءً ... شبهتهُ الأنباءُ ربى مُعين
اشهديه ياروحُ مرآةَ طه ... فى حسينٍ وهو الوفىُّ الأمين
ياحُسينُ المحبوبُ فيكَ تراءى ... نورُ خيرِ الوجودِ صَحَّ اليقين

☆ ☆ ☆

إلى الإمامِ الحسينِ الوارث الفرد ... يقودُنِى الشوقُ فى جذبٍ وفى وجد
سبطٌ شهيدٌ إمامٌ مُفردٌ علمٌ ... وكوكبٌ نورُه قد لاحَ للوفد
نوّرت فى مصر آفاقًا واودية ... عمّرت ياسيدى الألباب بالود
ياابن البتول اتى المنسوبُ مشتاقًا ... رضاك ياسبط طه غايةُ القصد

استحضرُ الأصل قلبى تشهدنهُ بلا — ظِلُّ الكيانِ بنور المطلِعَ الحد
وفى الحضور تُمَثِّلُهُ ترى المعنى — معنى النبوةِ من اصلى الى جدى
جداهُ فى مصر استجدى قراك وَلِي — يقينُ حقٌ بما عُودتَ من رفد
وسيلتى انت للوهاب استجدى — عفوا خلاصى من ذنبى ومن قيدى
ازورُ روضةَ مولانا الحسين ولى — حال الزيارةِ اشواقٌ الى العود
فى الروض اسالُ ربى العفو والحسنى — خير العطايا هُدًى للحقِّ للرّشد
هب لى الرضا اغِنِنى مولاى جددلِى — خيرَ الصّلاتِ وفضلا منك للعبد

☆ ☆ ☆

نسبةُ الروحِ نسبةُ التعيينِ — ياحبيبى ونسبتِى فى الطين
ياشهيدَ الجهادِ فى اللهِ نَصْرًا — فى سبيل المعبود فى التمكين
ياإمامَ الأبدالِ مصرُ اضاءَت — من ضياء المختارِ طه الأمين
قائدُ العارفين افضلُ سبطٍ — قدّمَ الروحَ فى سبيلِ اليقين
ياإمامَ الأسباطِ جاهدتَ حتى — قلّدَتكَ الأفرادُ فى كلِّ حين
انت ياسيدى سراجُ منيرُ — فى رُبا مصرَ بين اهلِ الدِّين
انت نورٌ للمسلمين جميعًا — فى افتتاحِ الوجودِ فى التعيين

السيدة زينب أخت الإمام الحسين

الا استحضرى يا روح فى الصفو افرادا — همو صفوة الرحمن حبًا وامدادا
وان اشرقت انوارهم لك فاضرعى — الى الله تعطى منه قربًا وإمدادا
همو جوهر الكنز الثمين سلالة — لقد طهروا فى محكم الذكر إيرادا
وان لحظت عيناك يا روح نورهم — يلوح بالاستحضار فضلًا واسعادا
لديها اشهدى انوار آل محمد — تضئ الأراضى سهلها ووهادا
وتظهر ملكوت السماء لمن راى — إذا شاهدت عيناك نلت ودادا
الا يا بنى الزهراء انتم وسائلى — وقد ذبت حبا فيكمو وسهادا
وانتم كنوز المسلمين ائمة — ومنكم ننال هداية ورشادا
الى زينب بنت البتول اتت بنا — دواع ونيل الفضل كان مرادا

وردنا على بنت البتول فاشرقت ... لنا شمس حق تمنح القصادا
منحنا الذى نرجوه من فضل ربنا ... قبولًا وخيرًا دائمًا إمدادا
على زينب بنت البتول تحية ... ننال بها الزلفى عطا ووادا

☆ ☆ ☆

لدرة كنز من جمال النبوة ... وياقوتة الأسرار فى كل وجهة
وبضعة انوار الرسالة والهدى ... ونور التجلى عن كمال النزاهة
وشمس يقين الحق عن اصله الذى ... اضاءت به الأنوار فى كل حضرة
ولؤلؤة فى تاج حسين معظم ... افاضت بحارا للهدى والحقيقة
لسيدة عمت بحار عطائها ... عوالمنا العليا وكل الخليقة
لزينب نور الاصطفا مصدر الوفا ... بتول تسامت فى علو المكانة

ثم قال :

وها انا فى هذا الحمى خاضع ... ولى مقام بمحض الفضل بل والمبرة
صفونى اجدادى باسرار حسنهم ... وإحسانهم رتب العلا والسعادة
وانفاسهم جلت عن العد سادتى ... وإحسانهم لا احصه بالعبارة
بمحض اياديهم رفعت إلى العلا ... وبالفضل منهم صرت شمس الهداية
ولا عجب إن عم ماضى نوالهم ... فماض لهم نجل وهم هم ابوتى
وقد كشفوا لى عن بديع جمالهم ... فشاهدت حتى صرت نور الهداية
وصرت بحان القرب اسقى مدامهم ... فبشرى لمن شرب المدام الشهية
وعلى عترة النور المطلسم دائمًا ... صلاة من الرحمن فى كل لحظة

☆ ☆ ☆

ازور المصونة بنت بنت المصطفى ... لأشهد انوار النبوة والصفا
واشهد سر الاصطناع وآيه ... تدل على الإقبال غيب الاصطفا
إلى زينب بنت البتول التى بها ... تشعشعت الأنوار فى الجهر والخفا
يزورك فرع فى اشتياق إلى القِرى ... قِراه اتصال النسبتين لدى الوفا
ولى يا ابنة المولى الإمام بنوة ... إلى النسبة الأولى وذا الخير ما انتفى

نعم انتمو الطهر الميامين والضيا — وابناء خير الرسل التمس الشفا
سلام على بنت الإمام وآلها — بها يحفظ الرحمن قلبى من الجفا
ايا درة المختار فى مصر إن لى — وقوفًا على باب العناية والصفا
وقوفًا اناجى فيه ربى ضارعًا — الا وهب لى الرضوان كن لى مسعفًا

السيد إبراهيم الدسوقى بدسوق

على الفرد إبراهيم ذى العرفان — فتى نوّل الراح الطهور بريحان
ابوه به نال الولاية والصفا — له الحال ممنوحًا رضا الرحمن
فتى جاهد النفس الأبية فارتوى — من الراح راح العلم والقرآن
نعم ترك الدنيا فرارًا إلى الهدى — ومات فاحياه الولى بإحسان
مشى بضياء الفضل فى الكون كله — فمت مثله تحيا بإحسان ديان
نعم انت إبراهيم سر سميه — بارض دسوق فى علىّ مكان
ازورك ذكرى لى لأعلا فإننى — لديك انادى الله بالإيقان
وفى آى يحيى خمرة تسكر النهى — لدى مريم قد صح فى التبيان
دعا ربه اعطاه يحيى وزاده — فايده بالروح والفرقان
وعند ابى العينين اسال ضارعًا — إلهى انلنى نعمة الرضوان
وكن لى واولادى وكل احبتى — وليا معينًا من عواطف حنّان
فإنى رايت الفضل اغدقته على — فتى بدسوق واسع العرفان
فايقنت بالفضل العظيم تفضلا — من الله بالخيرات والغفران

☆ ☆ ☆

سقاك رسول الله راحًا روية — سكرت بها قد فزت بالإيصال
لقد مت إبراهيم حبًا وصرت فى — مقامات تفصيل لدى الإجمال
حباك رسول الله منه بحظوة — فترجمتَ بالأسرار والأقوال
فكنتَ إمام العصر فردًا مؤيدًا — بروح من الرحمن من متعال
عليك سلام الله منى مكررًا — ومن حضرة المختار بل والآل

☆ ☆ ☆

الى الفرد إبراهيم شيخ الطريقة ... وذا القدم العالى بسر الشريعة
إليك ابا العينين يا فرد عصره ... ومن فك رمزًا فى علوم الحقيقة
اشرتَ إشارات علت عن تعقل ... فكنتَ إمام العصر من غير فرية
سقاك إله العرش خمرًا طهورة ... فشاهدتَ بالعينين فى كل حضرة

☆ ☆ ☆

ابا العينين يا قطب الرجال ... اتى المشتاق يرجو خير حال
ابا العينين يا نجمًا مضيئًا ... بلغت القرب فى حلل الجمال
ابا العينين يا شمسًا اضاءت ... لأهل الحب بالعلم الموالى
سقيت السالكين طهور راح ... من التوحيد فى رتب المعالى
ابا العينين منسوب مشوق ... وانت البحر فامنحنى وصالى
وخال سيدى غوث شهير ... ابو الحسن المربى للرجال
بارض دسوق نورك قد علانى ... وابراهيم قطب بل وعالى
ابا العينين ودًا منك وصلا ... فإنى فى اشتياق لإيصالى

السيد أحمد البدوى بطنطا

عبدت الرب بالحال العلية ... ايا بدوى لقد نلتَ العطية
عبدت الرب بالعلم اللدنى ... فنيتَ عن الأيادى والمزية
وهبت الحال بعد الكشف حتى ... رايتَ الكون بالذات العلية
حباك المصطفى منه بحال ... سقاها من مدام عيسوية
فغبت عن الوجود بنور طه ... وكنت قبله فى المثنوية
شربت مدام عيسى نلت صفوا ... وكم تشرب شرابًا احمديا
فقهت مقام اهل الكشف جذبا ... جذبت فنلت اسرارًا علية
ازورك احمد البدوى شوقًا ... لنيل الفضل من رب البرية
فانت الجامع الفانى يقينا ... سريت على المراقى الزخرفية
احيى روح فرد إذ تراءت ... لروحى فى مقامات علية
واسال منعمًا ربًا مجيبًا ... ينيل العبد إسباغ العطية

وصحبته بحلى وارتحالى … وعفوًا عن معاصى الدنية
شفا يمحو سقامى فى مشيبى … وتبديلًا باحوال سنية
وخيرًا فى ضيا القرآن اعط به … نيل الرضا فى السرمدية
غنى بالله عن شرار خلق … واحسانًا يعم به بنية
من الأولاد من اهلى وصحبى … وشرب الراح بالعين الروية
بجذب عناية تعلى مقامًا … بمقعد صدق فى الآخرية
جوار المصطفى خير البرايا … بكشف الغيب سر الأولية
على البدوى احمد فى مثولى … سلام عاطر يعطى هدية
احبك فى رسول الله حبًا … رايت لديك انوارًا جلية

☆ ☆ ☆

على طنطدا [١٢] مر القطار بنا يجرى … وفيها ابو فراج العاشق البرى
فتى جاهد النفس الأبية مخلصًا … على الله بالإحسان فى صحة السير
ايا هاشمى الأصل نلت مكانة … من القرب قد شاهدت من باطن الأمر
ايا احمد البدوى فى ارض طنطدا … جاهك ارجو الله يشرح لى صدرى
فانت فتى اولاك ربك منة … إلى الكهف كهف العلم والحال والصبر
وقد كنت فى الدنيا خمولًا محقرًا … زخارفها حتى وصلت إلى البر
شهدت جمال الآى فى الكون ظاهرًا … وقلت ايا روحى إلى الاصطفا فرى
فررت من الدنيا إلى الله راغبًا … فهب سيدى خير العطايا لمضطر

☆ ☆ ☆

فى طنطدا احمد البدوى قد ينبى … عن حاله مغرم عن صولة الجذب
افناك يا احمد البدوى عنك وعن … كل السوى خطفة تجلى من الرب
غيبت يا احمد البدوى من برق … قد لاح لامعه فى الجانب الغربى
حيرت من رشفة فى الجانب الشرقى … من روح عيسى بلا ام ولا اب
ازور روضتك الفيحاء مقتبسًا … حيث المثول اراني حاله صوبى
رآك من جهلوا المجنون ويحهمو … فررت منهم إلى الرضوان والشرب

---

(١٢) الاسم الأصلى لمدينة طنطا .

سقيت خمرة عيسى احمد البدوى ... من البداية فى جمع بلا شوب
صحوت بعد تلقى الآى متصلًا ... بنور قرآنه صحوًا بلا جذب
بلغت حق يقين حقر الدنيا ... حتى شهدت المعانى فى ضيا الغيب
امام روضتك الفيحاء اسال من ... اولاك إحسانه بالفضل لا الكسب
يا رب انت كريم محسن هب لى ... خير المواهب من جود ومن حب

سيدى أبو العباس المرسى بالأسكندرية

بروض ابى العباس والعارف المرسى ... وفدت مشوقًا فى هيام إلى الأنس
احبك حبًا فى الحبيب محمدٍ ... وقد وفدت شوقًا إلى روضه نفسى
اتيتُ ابا العباس والشوقُ جاذبى ... إليكَ فلاح النورُ من افق الشمس
تراءى ضياءُ الوجه منك مُشاهدا ... وانوارُ علم الله بالحب لا الحدْس
يا نجم اهل الحب علمًا وحكمة ... شهدتَ جمال الله فى العرش والكرسى
صحبتَ ابا الحسن المسمى بشاذلى ... سقاك طهورَ الحب من غير ما كاس
ورثتَ من الأحوال والعلم والهدى ... فشاهدتَ غيبَ الآى بالعين فى الراس
وخضتَ بحارَ العارفينَ مجاهدا ... رسيتَ على بحر الحقيقة يا مرسى
وربيتَ افرادًا كرامًا ائمة ... على منهج القرآن بالمأخذ القدسى
قُتِلتَ بسيف الحب احياك ربنا ... حياة يقين بانمحا الريب واللبس
احب الفتى المرسى لله راجيًا ... جوار رسول الله فى روض فردوس
وحبك يا مرسى فى الله حجة ... بها نيلُ ما ترجوه من ربها نفسى
احبُ مُحِبٌ الله فى الله راغبًا ... جوار رسول الله فى حُظوة الأنس
اجاور خير الرسل فى طيبةٍ بها ... افوزُ بنيل الاتصال بلا باس
اهنى بطيبة بالوصال مؤيّدًا ... بروح رسول الله من قبس الشمس

سيدى ياقوت العرش بالأسكندرية

إذا سبقَتْ حسناك جمّلتِ التُربا ... يصيرُ لك المصباحُ نورًا ولا شوبا
له تسجد الأملاك طوعًا وقربة ... يعلمهم اسماءه يُشهِدُ الغيبا

ومـا آدمُ لـولا ضـيا نـفـخـةٍ بها
لقد سخر الأكوانَ يجذبها جذبا

إذا سبقت حسناك ترفعُ سافلًا
وتجعلُ تربَ الأرض للعالم القطبا

ازورُ بهذا الثغر ياقوتَ من رقى
وكان ذليلًا قارف الجهدَ والكربا

يذكرنى فردًا بلالا صهيبَ بل
وحارثة نالوا من المصطفى الحُبا

سلامٌ على ياقوتَ فى الثغر إننى
لديها سالتُ اللهَ من فضله القربا

لقد جئتَ يا حبشىُ فى الغلِّ كادحًا
وفى الثغر اوليتَ العناية والشربا

إذا سبقتْ حسناك يا ربُّ اظهَرَتْ
عجائب اسرار اضاتَ بها القلبا

تجل لنا باسم المجيب عناية
لتَمنح ما اوليته الرق والتربا

يُذكرنى ياقوتُ إحسانَ ربِّنا
ايا ربّ فرحنى الح لى بك الغيبا

تذكرتَ يا ياقوتُ ايامَكَ الألى
وقد كنتَ فى غل تقاسى به الصعبا

وما نلتَ يا ياقوتُ فى الثغر منّة
ادارَ ابو العباس من بحرهِ شربًا

سقاه على الشاذلىُ مُدامة
بها تَسكرُ الأرواحُ قد شاهَدَتْ غيبا

ايا ربُّ بالحسنى التى قد وهبتَها
لياقوتَ او لقمانَ عَمِّرْ بك القلبا

إلى آخر القصيدة

سيدى الروبى بالفيوم

بمسجد ربِّى عند روض الروبى
صفا القلب فى حال احتسا مشروبى

لديها سالت الله جل جلاله
تنزله بالفضل والتقريب

بروض الفتى الروبى من جاء راغبًا
مهاجرة لله فى ترغيب

من الغرب وافى وهو فى حال جذبة
من الله فى خوفٍ وفى ترهيب

إلى ارض فيوم فكان مقامه
فاكرمه مولاه بالموهوب

هو الفردُ إدريس نسبته التى
إلى الحسن الأعلى إلى المنسوب

ايا نسل سبط المصطفى فزت بالصفا
رُفِعْتَ إلى اعلى مقام حبيب

لديك سالتُ الله فضلًا عناية
رضًا منه غفرانًا لكل ذنوبى

لديك سؤالى .. سنة نبوية
وفى ليلة الإسرا يقين قلوب

وعـنـد كـلـيم الله صح تـواتـر لقد سال المختار خير نصيب
ايا ربُّ إنى مذنب فاعف وارض عن عُبَيْدَكَ وامنحنى جمال مجيب
وكن لى فى حلى وفى كل رحلتى معينًا وانزلنى مقام منيب
ايا رب اولادى واهلى واحبتى تنزل لنا بالفضل والتحبيب
وسيلتنا خير النبيين من اتى بقرآن ذاتٍ فى بيان غيوب

الإمام الشافعى بالقاهرة

امام الإمام الفردِ فى فقه قرآن هو الشافعىُّ المُجتبى الروحانى
ومن بيّنَ الأحكامَ شرعًا وحكمة وبحرًا افاض العلم كل مكان
اتيتُ ازورُ الفردَ والشوقُ قاندى وانت الوسيلة للمراد الفانى
إلى الشافعى الفردِ قد جئتُ قاصدًا لأسألَ ربى واسع الغفران
ايا شمسَ مصرَ قد اضاتِ ربُوعها بنور وتبيان من الرحمن
حباك رسول الله منه بحظوةٍ فاشرقتَ شمسا فى سما الإيمان
زهدتَ فنلتَ القربَ يا غوثُ راقيًا تورعتَ عن كون وروض جنان
فررتَ إلى مولاك يا فردُ فانيًا وربك يعطى القربَ فردًا فان
ايا من منحتَ الفردَ خيرَ عطيةٍ تفضل علينا منك بالإحسان
فجبريلُ فى الإسرا دعا الفردَ قائلًا هنا بيتُ لحمٍ للفتى الروحانى
هنا قبرُ موسى فاسأل الله سيدى وصلٍّ عليه فى مقام تدان
هنا قبرُ فردٍ بالقرآن مؤيدٌ تنزّلْ انلنا صفوة الحنّان

☆ ☆ ☆

ملأتَ بقاع الأرض علمًا وعرفانًا ايا شافعى اوتيتَ حُكمًا وفرقانا
بشارة خير الرسل فيك تحققت لانك قرشىُّ يقينًا وبرهانا
محمدُ يا ابنَ إدريسَ مَدّكَ ربنا بنور من الفاروق علمًا وإيقانا
فتحت كنوز الشرع فصّلتَ مُجملًا وبينتَ مُبهمةً فصح بيانا
على الله قد اقبلتَ بالقلب مُخلصًا لِتُظهِرَ نورَ الشرع هديًا وتبيانا
وردتَ على حوض النبى محمدٍ رُويتَ فارْوَيْتَ العطاشى بيانا

مِدادُك يا ابن إدريسَ يُوزنُ فى غدٍ ... فيمنحك الرحمنُ روْحًا وريحانا

إلى آخر القصيدة

الشيخ حسنين الحصافى بدمنهور

بأرض دمنهور ازورُ فتىً له ... مشاهدُ توحيدٍ ينال بها الخيرا

ازورُ بها المولى الحُصافى مُجدِّدًا ... عهودًا بها قد صدّقَ الخبَرَ والخُبْرا [١٣]

سلامٌ على ألمولى الحُصافى تحية ... وشوق لأيام خلت جَددتْ ذكرا

وحقك لم انس عهودًا وثيقة ... وقلبى لسانى فى الصفا سيدى يقرا

سُقِيتَ بآداب الطريق لطيفة ... شرابًا وكنتَ الشيخَ قد تقبلُ العذرا

وبينتَ آدابَ الشريعة ناهجًا ... على منهج الأفراد كنتَ لنا بدرا

حسنيْن إنى والذى فلقَ النوى ... على العهد باق فى هواك . ولا هَجْرا

اجاهدُ نفسى ان تكونَ على الذى ... تحبُ وربى يمنحُ الرشد والبرا

يوفقنى ربى لِما قد تحبه ... ويُسعِدُنى مولاىَ شهرىَ والدهرا

اموتُ على الإسلام فى بهجة الرضا ... بمقعد صدق قد افوزُ بها قدرا

ارى الخير فى الأولادِ والأهل خلتى ... ننالُ الرضا والخيرَ والعفوَ والفخرا

إلهى بمجلى الذات افضل مُرسل ... ايا ربٌ سخر لى به البر والبحرا

سيدى جلال الدين المحلى برشيد

بأرض رشيدٍ عندَ خادم قرآن ... علىٌ المحلى فى جنان ورضوان

بمسجدِ ربى جلّ ناديتُ سائلًا ... اغثنى إلهى منك بالإحسان

ايا خادم القرآن فسرتَ نصفه ... رُفِعْتَ مقامًا فى رياض جنان [١٤]

لقد فَسّرَ القرآنَ رغبة نوره ... فنوّرَه الرحمنُ بالقرآن

---

(١٣) كان الشيخ حسنين الحصافى قد أجاز الإمام أبى العزائم بالطريقة الشاذلية .

(١٤) فسر نصف القرآن الكريم حتى سُورة الإسراء وأتمه الإمام جلال الدين السيوطى وسمى هذا التفسير بـ (الجلالين) نسبة إلى أسميهما .

بارض رشيدٍ ياعلىُّ زيارتى ... لروحك لا للقبر والجثمان
ازورُك لاستحضار روحِكَ إنها ... لقد جُمِّلَتْ بالعلم والتبيان
علىُّ المحلَّى انت فردٌ مُجَمَّلٌ ... بعلم واسرار وبالبرهان
سبقتَ إلى الخيراتِ انتَ فنلت ما ... تريدُ من الرضوان والغفران
ازورُك استجلى بروحِكَ ساطعًا ... من العلم والتفسير والإيمان
لديك سألتُ اللهَ فضلًا ورحمة ... وكشفَ يقين فى سواطع عرفان
وفى بيتِ ربى اسألُ اللهَ وُسعة ... من العلم والأرزاق والإحسان
ازورُ جلالَ الدين عالِمَ عصره ... ومن فسر القرآن فى اطمئنان

سيدى البوصيرى بالأسكندرية

مَدْحُ طه من بعد مدح القرآن ... راحُ قدس لواجدٍ روحانى
مَدَحَ اللهُ بل واثنى واعلى ... قدرَ محبوبِهِ بآى البيان
ما مديحى وما مديحُ البوصيرى ... بعدَ مدحٍ من حضرة الرحمن ؟
غير انى بقدر ما نلتُ منه ... قدرَ نَفَسٍ من نعمة الإيمان
اتغنى بقدر رشف طهور ... من معانى حقيقة الإيقان
غنِّ ياروحُ لحنَ مدح نبيٍ ... جمَّلَ الروحَ بالهدى والتدانى
اسعدينى يانفخة القدس حتى ... اتغنى بمدحِهِ الإنسانى
لِنْ ايا عقلُ كى اصوغ مديحًا ... فى عقودِ الأنوار لا المُرجان
فمديحُ المختار فوق عقول ... كيف اقوى اصوغ غيبَ المعانى
غير ان الغرامُ مَثَّلَ صوبى ... صورة المصطفى بهذا الكيان
كنتَ فى البدءِ مصطفى اللهِ حِبى ... قبلَ عرشٍ وقبلَ كل مكان
انت اصلُ الوجودِ عُلوًّا وسفلًا ... قبضة النور كنتَ نورًا ثان
من جمال اللاهوتِ صغتَ انفرادًا ... منك صاغ الأعلِينَ كشفَ الفانى
منك صاغ الأرواحَ صورة ربى ... انت نورُ الهدى وحصنُ الأمان
لمديح المختار يابوصيرى ... قد دعانى إليكَ شوقُ جنانى

إلى أن قال :

قد مدحتَ المختارَ يا بوصيرى بعقودٍ من ظاهر الأكوان
ومديح المختار جاءَ صريحًا فى الكتاب العزيز نصُّ القرآن
فزتَ بالفضل قد حييتَ مُهنىً بمديح المختار فى كل آن
كلُّ عصر لهم رجالٌ حباهم باصطلام من جذبة التبيان

إلى آخر القصيدة

☆ ☆ ☆

على قدر بوصيرى كان مديحُه وفى محكم القرآن مدحُ جوّاد [(١٥)]
وهل بعد مدح الله مدحٌ لغيره ولكنها الأشواق جذبة إرشاد
مُدحتَ رسولَ الله فى الآى احكِمَتْ ومدحُكَ مدحٌ لى ونيلُ مرادى
ومادح خيرِ المرسلين ينال ما تمنى من الخيرات والإيجاد
على قدر تمثيل المقام مَدَحْتُهُ ومِثلىَ فى عَجْزٍ وفى تَرداد
ولكن الهانيتى [(١٦)] تجذبُ النهى إلى مدحه العالى بلا استعداد
ايا فردَ ذات الله ياخيرَ مُرسَل ويا رحمة الرحمن للـوُرّاد
مرادٌ لذات الله انت وفردُه رؤوف رحيم حجة الأوتاد
خُلِقْتَ لذات الله والكل سيدى لقد خُلِقوا للمصطفى طولَ آباد
وفى بيعة الرضوان مدحُكَ سيدى لقد اعجزَ الشراحَ كلَّ تلاد [(١٧)]
يدُ الله عن خير النبيين بايعت ومن يطع المختارَ فازَ بإمداد
اتى الفرعُ ياخير النبيين يرتجى من الله إحسانًا بهذا الوادى
وانت الوسيلة للفروع وحسبنا قرابَتُنا حال الصفا للهادى
تشفعتُ بالمختار لله ربّنا تقبّلْ متابى وامحُ كلَّ بُعاد

إلى آخر القصيدة

☆ ☆ ☆

---

(١٥) مطلع القصيدة : لدى روض بوصيرى مَنْ مدح الهادى تمثلت من منه تجدد إمدادى

(١٦) التأله : هو الشوق مع الخشوع والذل والمحبة .

(١٧) يشير إلى قوله تعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم﴾ .

إلى تُرجمان شمائل المختار — منافس كعبٍ فى مديح فخار[18]

وفدتُ مشوقًا للفتى لشهوده — لأنى احب معاهد الأخيار

مُنِحْتَ مديحَ المصطفى واجدتَه — نسجتَ له بُرْدًا من الأشعار

فاولاك خيرُ الرسل منه مواهبًا — فكنتَ بها نجمَ الهدى للسارى

محمدُ بوصيرى وفدتُ مهاجرًا — إليكَ لِما اوتيتَ من اسرار

وقد كافا المختارُ كعبًا ببردة — وكوفئتَ بالإحسان والأنوار

إلى الفرد مداح النبى محمدٍ — فتىً فاز بالحسنى من الغفار

إمامٌ رأى نورَ النبى مُشاهَدا — حباه رسول الله بالمدرار

له عِقدُ مدح صِيغَ من دُر لفظِهِ — يفوقُ النجومَ الزُّهْرَ فى الإسفار

بقدرك قد صُغْتَ المديح وكيف لا — وقد مُدِحَ المختارُ فى الأسفار

حباك رسول الله منه بنظرة — فشاهدتَه منها بغير ستار

حُبيتَ بحب المصطفى فلك الصفا — رُفِعْتَ مقامًا فوق كل منار

وفى محكم القرآن آياتُ مدحِه — يرتلها جبريل للأطهار

بقدر الفتى البوصيرى عِقدُ مديحه — به نال إحسانًا وخيرَ فخار

ومدحُ رسول الله فوق عقولِنا — وفوق الملائك لا يفى مقدارى

وفى بيعة الرضوان عِقدُ مديحه — (يد الله) فيها مِنْحَة المختار

يذكِّرُنى مدحُ الفتى خيرَ مرسل — فتجذبنى الأنوار بالأسرار

فيخشع قلبى رهبة عند ذكره — وامدحُه شوقًا على مقدارى

ايا شمسَ حق اشرقَتْ بالهدى لنا — ويا رحمة الرحمن والستار

توسلتُ يا مولاى لله خالقى — بجاهك عند الله والأنصار

ليمنحَنى الفضلَ العظيمَ رضاءَهُ — يُجدِّدُ بى المنهاجَ للأبرار

ويصحبَنى فى رحلتى وإقامتى — بإحسانِه وبفضلِه المدرار

---

(١٨) لما أنشد كعب بن زهير قصيدته (بانت سعاد) خلع النبى ﷺ بردته الشريفة وأعطاها له، وتيمنًا به أطلق البوصيرى على قصيدته التى مدح فيها النبى ﷺ اسم (نهج البردة) بعد أن رأى النبى ﷺ فى رؤيا منامية وقد خلع بردته الشريفة وأعطاها للبوصيرى .

سيدى عمر بن الفارض
سلطان العاشقين

ياعمر ياابن الفارض المشتاق … قد امّك الأبدال والعشاق
الشوق ينطق والمحبة اصمتت … من بادَهَتْهم بالهوى الأشواق [١٩]
انت الفتى شوقًا وحالك ظاهر … قد اشرقت بضيائك الآفاق
ياعمر ياسلطان عشاق البها … بالاقتدا بك تظهر الأخلاق
احوالك العليا تشير إلى الجوى … فيها الإشارة دونها الأذواق
احببتَ ياابن الفارض الأحوال فى … ارجاء مصر فعايَنَتْ آماق
نار المحبة ازعجتكَ بنورها … والشوق فى قلب الفتى إحراق
انت القتيلُ بسيف حب خالص … احياك بالحسنى الولىٌ الخلاق
حبٌ لقد سلب النهى بجواذبٍ … جذبتك للزلفى فصح وفاق
اولادك ياعمرُ القريبُ وَلاية … اعطاك رؤية وجهه الرزاق
ياعمرُ ياسلطان من عشقوا ومن … خافوا المقام وحالهم إشفاق
وافيتُ مشتاقًا لأهل الشوق فى … وَلهٍ ودمعٍ للجوى مُهراق
قد الهَتْ روحى إلى الغيب العلى … سر المكانةَ وجهه الإطلاق
ياعمرُ فى انفاسك النور الجلى … بل خمرة قد ذاقها العشاق
ياعمر احياك الذى فى حبه … صرتَ القتيلَ وحبه سبّاق
تنبى إشارتك العلية بالذى … اولتيَهُ والمُجتبى لحّاق
يامن لأهل العشق اوليتَ الصفا … كرمًا فهب لى الفضل يارزاق
هب لى الرضا والفضل ربى عممن … جدواك حتى يظهرَ الإشراق
صل الهى دائمًا ابدًا على … من فيه منه العشق والعشاق

وفى معرض إجابته رضى الله عنه عن سؤال [٢٠] عن أحد الأولياء بمدينة فاقوس شرقية قال [٢١] :

(١٩) يقول الإمام أبو العزائم فى حكمة من جوامع كلمه : (الحب يُصمت والشوق يُزعج والعشق يُحرق) .

(٢٠) هل صاحب هذه الروضة هو عبد الله بن سلام الصحابى ؟ وما رأى مولانا فيما يحدث من الخيالات عنده ؟ .

(٢١) مجلة (السعادة الأبدية) السنة ٧ ، العدد ١٣ ، ص ٣٥٦ (شوال ١٣٣٨ هـ) .

توفى عبد الله بن سلام بالمدينة ودفن بها فى خلافة معاوية سنة ثلاث وأربعين رحمة الله عليه ، أما الولي الموجود بهذا البلد فليس هو الإمام الصحابى الجليل ، وإنما سمى بعبد الله بن سلام تبركًا .

أما ما يحصل من الخيالات فى ضريحه فليس من الدين فى شئ ، ولكن الخيال الإنسانى قد يقوى حتى تنطبع فيه الصور التى تتمثل له وذلك من قوة العقيدة وصفاء الخيال . ومن حصل له الصفاء بالرياضة أو بالعقيدة أو بالفطرة يمكنه أن يستحضر الأرواح فيرتسم على خياله صورها ، ولا فرق فى ذلك بين الطائع والعاصى والمؤمن وغيره فإنها خصوصية للإنسان مطلقًا .

والأوْلىَ أن يتعلم العامة زيارة القبور وأدب زيارة أولياء الله تعالى أحياءً وأمواتًا ، وقد بينت السنة أدب زيارة القبور وبينت أدب زيارة مشاهد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ومشاهد أولياء الله رضى الله عنهم ، فقد نزل رسول الله عند قبر موسى عليه السلام ودعا . فالسنة عند زيارة تلك المشاهد الدعاء بالخير. وقد أفسد كثيرون من المشعبذين أخلاق البسطاء بعمل ما يسمونه مندلًا بوضع زيت فى فنجان وأمر صبى بالنظر فيه ويوهم بأنه ظهر له عفاريت وأشخاص فيظهر ، وكل ذلك من المضر. فعلى أمثال حضرة الأستاذ السائل من نوابغ الأزهر أن يجودوا ببعض أنفاسهم لتأديب العامة بالآداب الشرعية بالأساليب المناسبة لعقولهم ، والله الموفق .

وفى معرض إجابته رضى الله عنه عن سؤال أثناء زيارته لمسجد سيدى الروبى بالفيوم وأنهم يقولون إن اسمه حنا الرومى ، وأسلم ، وأن هذا المكان كان كنيسة فحولها إلى مسجد :

توجه الإمام إلى المقصورة وأطرق قليلًا ثم عاد إليهم وقال ما معناه (٢٢) :

يا أولادى إن الروبى من أولياء الله القدامى (عام ٨٠٠ ميلادية) ، وقد تضاربت الناس فى أقوالها عنه ، ولم تكن هناك مصادر معلومات تاريخية لكى نعلم أنه من الأولياء. إن الروبى من ذرية الإمام الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو أحد الذين آلت إليهم الخلافة فى الدولة العباسية ، ولكنه زهد الخلافة وفر من بغداد إلى المغرب ومكث بها . وما أن كاد حاله ينكشف ويعلموا عنه أنه حفيد أمير المؤمنين المعتصم إلاّ أن هرب من المغرب لأنه كان لا يريد خلافة فى الدنيا ، وظل يتنقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى الفيوم ،

---

(٢٢) رواها الشيخ نصر العقاد سماعًا من أبيه الذى كان مع الإمام وقتها .

فنزل فى إحدى قراها وهى الروبيّات (وهى موجودة إلى وقتنا هذا) وظل بها مدة .

ولما نزل الفيوم التقى بحاكمها فسأله عن بلده فقال الروبيات ، فقال له أنت روبى وسماه الروبى . وكانت هناك قطعة أرض مهجورة عليها أنقاض وأكوام من تراب يقال إنه أنقاض كنيسة فسكن بها . وبعد فترة ذهب إلى حاكم الفيوم وأخبره أن يبلغ والى مصر بسلامه وأن جماعة ستحاول اغتياله ولكن الله سينجيه ، فاحتاط حاكم الفيوم فسجنه . وبعد قليل جاءت الأخبار تفيد بما أخبر به الروبى وأن والى مصر عاد إلى حكمه بعد يوم واحد من محاولة الانقلاب ، فتوجه سنجق الفيوم إلى السلطان وأبلغة بذلك وأقرأه السلام من الروبى . وأعلن السلطان أنه سيأتى للفيوم لزيارة الروبى ، فلما وصل وجده قد مات ، فأمر بدفنه فى هذا المكان وبناء مسجد . ثم أملى الإمام القصيدة السابقة الموجودة فى هذا الفصل .

الغريب بالسويس

تضرعت ارجو الله عفوًا وغفرانا ... بتتلت .مضطرًا سالت حنانا

ووجهت وجهى سائلًا نيل فضله ... وخير قبول منه نعمى ورضوانا

ايارب طهر لى الجوارح كلها ... واشهدنى الغيب المصون عيانا

فشيخوختى سقمى تفضل والنيِ ... وجمّلنى مولاى علمًا وايقانا

بروض غريب جئت فى يوم جمعة ... ازور فتى السودان نلت امانا

لانى غريب مثلُهُ من بلاده ... وارجو الهى افهم القرآنا

تجلّ مجيبًا قابل التوب غافرًا ... وعمّم لنا ياسيدى الإحسانا

وآنسنى فى الحل فى كل رحلة ... لأشهد توابًا غفورًا ورحمانا

وكان الإمام رضى الله عنه إذا زار سيدى الغريب بالسويس لا يقف عند روضته بل يقف فى مكان غير الروضة ويخاطب صاحبها ، وقد تعجب بعض المريدين من ذلك ، وظهرت الحكمة عندما أرادوا أن يوسعوا مسجد الغريب ويعدوا روضة جديدة له ، فحفروا فى مكان الضريح فلم يجدوا شيئًا ، وهنا تهلل وجه الحاقدين شماتة وفرحًا بأنه لا يوجد ولىّ فى هذا المسجد ، إلا أن أحد تلاميذ الإمام رضى الله عنه قال لهم : احفروا فى هذا المكان - الذى كان يقف عنده الإمام أبو العزائم - فحفروا ووجدوا جثمان الغريب تفوح منه أطيب رائحة فهللوا وكبروا ؛ فقال تلميذ الإمام : إن الإمام أبا العزائم كان يزور أفرادًا لا أضرحة .

الكرامة والاستقامة

قبل أن نتحدث عن كرامات الإمام المجدد السيد محمد ماضي أبى العزائم رضى الله عنه ، نوجز القول فى بيان الفرق بين المعجزة والكرامة وتعريف كل منهما حتى تصبح الأمور جلية لا لبس فيها ، ويزداد الذين اهتدوْا هدىً ويزيدهم الله من فضله .

المعجـــزة :

هى فعل خارق للعادة يظهره الله جل جلاله على يد مدعى النبوة على وفق مراده واختياره للتدليل على صدق دعواه أنه نبى مع عجز جميع الخلائق على الإتيان بمثله .

وفى شرح (فريدة الدردير فى التوحيد) قال : خرج بقولنا (خارق للعادة) السحر والشعوذة وغرائب المخترعات ، فليست خارقة للعادة بل معتادة ، وتعرف بالتعليم ، ولها قواعد يعرفها بعض الناس ويحس بها الكثير منهم إلا أنها غريبة لمن يجهل قواعدها . وخرج بقولنا (يظهره الله على يد مدعى النبوة) الإرهاص والكرامة والمعونة والاستدراج ، فهى ليست بمعجزات وإن كانت خارقة للعادة لعدم ظهورها على يد مدعى النبوة .

المعرفـــة :

وهى أمر خارق للعادة يظهر لشخص مستور الحال كاستجابة دعوة أو تيسير فى أمر من أمور حياته أو قضاء مصلحة من حيث لا يتوقع أو تخليص له من شدة بأيسر سبيل ، يقول ابن عطاء الله السكندرى : ربما رزق الكرامة من لم تكمل له الاستقامة ، ويقول أيضًا : ليس من ثبت تخصيصه كمل تخليصه .

والمعرفة إما أن تكون تعريفًا لصاحبها وبداية لما بعدها من الكرامة إذا أسند العبد الفضل فيها إلى صاحبه وشكره عليه ، وإما أن يكون استدراج وقطيعة إذا عقل صاحبها عن الذى أبداها له وظن أنه أوتيها بعمله ونسى المتفضل الأول عليه .

الكرامـــة :

فعل خارق للعادة يظهره الله على يد ولى من أوليائه . والكرامة للولى معجزة للنبى وتصديقًا لدعوته وبرهانًا لا ينقطع على رسالته . يقول اليافعى رحمه الله : ظهور الكرامات على الأولياء جائز عقلًا وواقع نقلًا ، فإنه ليس بمستحيل فى قدرة الله عز وجل - بل إنه من قبيل الممكنات ، كظهور معجزات الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم ،

وهو مذهب أهل السنة من المشايخ العارفين والنظار الأصوليين والفقهاء المحدثين . ويقول الإمام النووى - رحمه الله - فى (بستان العارفين) : اعلم أن مذهب أهل الحق إثبات الكرامات وأنها واقعة موجودة مستمرة فى الأعصار ، ويدل عليها دلائل العقل ، فهى أمر يمكن حدوثه ولا يؤدى وقوعه إلى رفع أصل من أصول الدين ، فيجب وصف الله تعالى بالقدرة عليه ، وما كان مقدورًا كان جائز الوقوع ، وأما المنقول فآيات القرآن وأحاديثه مستفيضة . ويقول الشيخ إبراهيم اللقانى فى كتاب (جوهرة التوحيد) :

واثبتن للأولياء الكرامة ... ومن نفاها فانبذن كلامه

وقال ابن عربى رحمه الله :

سر الكرامة واجب متحقق ... عند الرجال فلا تكن مخذولا

وظهوره فى المرسلين فريضة ... وبها تنزل وحيه تنزيلا

والكرامة لا تظهر فى ولى إلا لانطوائه فى جاه نبى وقيامه بعد الاتباع ، فلا تنظر إلى قدر التابع ولكن انظر إلى قدر المتبوع وعظيم قدره عند ربه ، ولا تنظر إلى ضعف العبد ولكن انظر إلى قدرة سيده جل وعلا .

وقد تواتر وقوع الكرامات من الصحابة والتابعين ، ومَنْ بعدهم من الصديقين والأولياء والصالحين فى كل زمان . ومثال ذلك ما ورد أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه قال لابنته السيدة عائشة رضى الله عنها وهو فى مرض موته وزوجته حامل (إنما هما أخَواك وأختاك دون بطن خارجة أراها جارية) ، فأخبر أن فى بطن امرأته جارية وكان كما قال رضى الله عنه . وقول سيدنا على كرّم الله وجهه حين أُخبر بالكوفة أن معاوية قد مات فقال : (والله ما مات ولن يموت حتى يملك تحت قدميَّ هاتينْ وإنما أراد من هذا أن يشيع ذلك حتى يستر علمى فيه) ، ومن يومئذ كاتب أهل الكوفة معاوية وعلموا أن الأمر صائر إليه . ومن ذلك ما رواه الرافعى فى (الآمال) أن ابن عمر رضى الله عنهما قال للأسد الذى منع الناس الطريق : تنحَّ ، فبصبص بذنبه وذهب ، فمشى الناس ، فقال ابن عمر رضى الله عنهما صدق رسول الله ﷺ القائل : (من خاف الله خوَّفَ الله منه كل شئ)[1] . ومما رواه أبو نعيم فى (الحلية) : تسبيح القصعة التى أكل منها سلمان الفارسى وأبو الدرداء . ومن ذلك حديث البخارى فى قصة حبيب حين كان أسيرًا موثقًا بالحديد وكانوا يجدون عنده العنب وما بأرض مكة حينئذ عنب .

---

(١) أبو الشيخ فى كتاب الثواب والمنذرى فى الترغيب والترهيب .

وكرامة الإيمان هى أعز وأفضل ما أكرم الله به عبده ، وما أكرم الله عبدًا إلا نوَّرَ قلبه وأفاض عليه من أسرار القدر وعجائب التصريف نورًا يسمع به ما لايسمعه غيره ويبصر ما لا يبصره غيره ، قال رسول الله ﷺ : (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)[٢] وقال الله تعالى فى الحديث القدسى : (فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ولسانه الذى ينطق به ...)[٣] . ومن شهد له الرسول أنه ينظر بنور الله وأفاض الحق عليه فكان سمعه وبصره ولسانه فلا يستحال أو يستغرب أن تُخرق له العادات أو أن يرى ما عمى عنه غيره أو أن يعلم ما لم يفهمه ويعلمه غيره . فالإيمان كرامة عظمى والنور والفتح فرعا الإيمان بالله تعالى ، وما فى الجنة من دور وقصور وثمار وأنهار هى من نتائج الإيمان .

ويعرِّف الإمام أبو العزائم رضى الله عنه الكرامة فيقول :

« الكرامة هى تكريم الله العبد بما يقربه به إليه ، أو إظهار خوارق العادات على يد العبد ليهدى به غيره من غير قصد ، فإذا قصد السالك أن تظهر له آية لينال الشهرة أو ليحصل لنفسه مالًا أو جاهًا كان مضلًا ، لأن الله أخذ المواثيق على الرسل أن يظهروا المعجزة ليخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، وأخذ العهود من الأولياء أن يحفظوا الكرامة ، فإذا أظهرها سبحانه ليكرم غيرهم بالهداية والتوبة فذلك فضله تعالى . وأفضل إكرام يكرم الله به أولياءه هى الاستقامة ، والاستقامة عند العلماء خير من ألف كرامة ، والكرامات التى يدعيها المشعبذون أهل الجهالة ليوهموا الناس أنهم على تقوى من الله .. والله سبحانه وتعالى لا يصلح عمل المفسدين . ومن أجل ذلك أنكر العلماء الكرامة من غير المستقيمين ، ولم ينكر العلماء إكرام الله لأهل الاستقامة كما أكرم مريم ابنة عمران بالطعام والفاكهة ، وأكرم والدة الرسول ﷺ ليلة ميلاده بما هو معلوم ، وأكرم كثيرًا من أوليائه بالنجاة من الوحوش والظلَمَة ، وأكرم بهم ذريتهم كما فى حادثة موسى عليه السلام والخضر من رفع الجدار ، ولا ينكر إكرام الله لأهل الإيمان عند التجائهم إليه سبحانه أحد من المسلمين ، ولكننا ننكر على أهل البدع المضلة المخالفين للكتاب والسنة ، وكم أكرمنا ربنا وأغاثنا فى كل أحوالنا بما لا نستحق ، فله الحمد وله الشكر .

ومن ظن أن الكرامة غير الاستقامة فليس بمؤمن على بصيرة ، وكم خدع هؤلاء المشعبذون جهلاء فأضلوهم عن الصراط المستقيم ، وإنى أعيذ إخوانى من هؤلاء

---

(٢) البخارى فى التاريخ والترمذى فى التفسير .

(٣) رواه البخارى وأحمد فى مسنده .

الضلال، وقد التبست الكرامة بأعمال هؤلاء الضلال فاعتقد فيهم أهل الجهالة اعتقادًا جعلهم يطيعونهم حتى فى ترك الصلاة والصيام وفى إباحة المحرمات ظنًا منهم أن هذا هو الدين.

ومسلم يعتقد أن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء بصريح القرآن ويقرأ الكتاب والسنة، ويأتيه شيطان ضال مضل يهدم أركان الإسلام ويبيح ما حرمه القرآن ويبيح الأعراض ويقبل منه .. لا يكون مسلمًا أبدًا، وكيف لا؟ والله تعالى يقول: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾(٤) ويقول: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾(٥) ثم يقبل منهم بعد ذلك من يدعى الإسلام محاربة القرآن والسنة .. نعوذ بالله من غضب الله ومن الكفر بعد الإيمان.

الكرامة أن يكرم الله المؤمنين بالاعتصام بالكتاب والسنة ويعصمهم من الفتن المضلة والأهواء المذلة».

كان الإمام رضوان الله عليه لا يحب إظهار الكرامة أبدًا، وإذا ظهرت وسمع الإخوان تتكلم عنها كان يحذرهم حتى لا يفتتن المريدون بالكرامة ويشتغلوا بها عن الاستقامة. اهـ

لقد علَّمَ الإمام رضى الله عنه تلاميذه أن خرق عوائد النفس بترك المألوف بالإرشاد الصحيح وإحياء موات القلوب بالعلم المؤيد بنور الحق أفضل عند الله ورسوله من ألف كرامة.

وقال رضى الله عنه موضحًا الاستقامة التى هى أفضل من الكرامة:

الاستقامة:

خروج عن المعهود، ومفارقة الرسوم والعادات، والقيام بين يدى الله تعالى على حقيقة الصدق. والاستقامة فى الوقت: أن تشهد قيامه، والاستقامة فى الأقوال: بترك الغيبة، وفى الأفعال: بنفى البدعة، وفى الأعمال: بنفى الفترة، وفى الأحوال: بنفى الحجبة.

والاستقامة:

طلب الإقامة فى محبة الله ومراضيه، ولا يتحقق بها إلا من تحقق بخالص التوحيد وتناول صافى شراب الموحدين، لأن التمكين فى مقام التوحيد تتميز به الحضرتان وتنجلى

(٤) سورة البقرة آية ٤٣.

(٥) سورة آل عمران آية ٩٧.

به المكانتان ، فيتحقق العبد برتبته الحقيقية أمام ربه البديع القادر الحكيم . ولا بد للعبيد من لبسة يلبسونها ومعان يتكلمون بها ليتحققوا بكمال العبودية أمام السيد العظيم والولى الكبير المتعال ، لأن السيد الكبير المتعال جل جلاله غنى عن الخلق أجمعين ، وكلهم فقراء إليه ، فهو تنزه وتعالى لا يجانسهم ولا يشاكلهم ولا يمازجهم لأنه سبحانه وتعالى لا جنس له فيتجنس به ولا شكل له فيتشكل به ، ولا تتصوره العقول ولا تتخيله الأفكار ولا تحوم حول قدس عزته وجبروته العقول والأوهام ، ظهرت معانى صفاته فى أحكام ما أمر لأنه الآمر القادر ، ونهى لأنه الحكيم القاهر ، وكلف لأنه الملك القوى ، وبين سبله إقامة لحجته على عباده ، وهو القاهر فوق عباده ، يريد الشئ إرادة تكوين فيقدره سبحانه وتعالى ، وينهى عنه ابتلاء منه وهو المبلى جل جلاله ، ويحب الشئ ويأمر به ولا يقدره سبحانه على من لم يشأ أن يهديه وهو العزيز المنتقم ، لا حجة لعبد عليه لأنه الملك المتصرف فى ملكه بما يشاء ، ولا ظلم ينسب إليه سبحانه لأنه خلق من شاء لما شاء ، قال تعالى : ﴿إن الله يضل من يشاء ويهدى إليه من أناب﴾[6] . فلا العلم بخالص التوحيد يجعل العبد مهملًا ، لأن العليم بخالص التوحيد هو الحكيم القادر الناهى ، ولا اليقين بحقيقة التقدير يجعل لعبد حجة عليه جل جلاله إذا نسب الله تعالى القبيح إلى العبد وعاقبه عليه ، لأنه جل جلاله أرسل الرسل بالبينات وصدقهم فيما جاءوا به من قبله بالمعجزات حتى ثبت للخلق أجمعين أن أحدًا لا يعمل هذا العمل إلا رب العالمين ، ولا يجريه إظهارًا إلا على يد صادق أمين ، إذ لو كانوا كاذبين فيما جاءوا لما صدقهم سبحانه بالمعجزة الخارقة للعادة .. وهب لعباده العقول التى تميز بين المعجزة والكهانة ، حتى قامت الحجة القاصمة أن غير المستقيم ولى الشيطان الرجيم ولو بلغ من العلم نهايته ومن الكشف غايته ، لأن العلم يجرى مجراه والحكم يجب العمل بمقتضاه ، فلا العالم - مهما بلغ - تكون له الحجة على الله ، وعالم لا يخشى الله هو الجاهل حقًا .. قال تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[7] .

والاستقامة :

مراد الله تعالى المحبوب لحضرته العلية والسير بسير العلم المطلوب للعبد ، وشتان بين مراد الله تعالى من العبد ومراد العبد من نفسه ، فالعبد يطلب الكرامة والله سبحانه وتعالى يطلب الاستقامة . ومن قدم مراده على مراد ربه كان جاهلًا عند العلماء بالله وإن ظن أنه

---

(٦) سورة الرعد آية ٢٧ .

(٧) سورة فاطر آية ٢٨ .

عالم – قال الله تعالى : ﴿قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم ، قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[8] .

والسعيد حقًا من سبقت له الحسنى فوفقه الله للاستقامة وأعانه ، والمحجوب حقًا من ظن أنه يحسن عملًا فطلب الكرامة ، قال تعالى : ﴿هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾[9] .

والعالم حقًا من هجم به علمه على عين اليقين فانتشله الله من أوحال التوحيد فكان حاله فى مزيد ، جاء فى الأثر : (من لم يكن فى زيادة فهو فى نقصان ، ومن كان فى نقصان فالنار أولى به) ، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ : (وقل رب زدنى علمًا)[10] . وعلم بمحو الآثار والآيات عندنا هو علم الأطفال ، فمن لم يكن فى مزيد من العلم حتى يثبت ما أثبته الله ويسارع إلى مرضاته ومحابه فهو فى جهل ، قال الله تعالى : ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلًا﴾[11] . فيجب علينا أن نسارع إلى الاستقامة عملًا بعلم الله وإن جهلنا الحكمة ، فإنما نحن مكلفون لنطيع الأمر – فقهنا الحكمة أو جهلناها ، وكل علم ينتج شهودًا يخالف الاستقامة هو جهالة وضلالة . وكيف لا يكون كذلك وصاحبه يحكم بعلمه على علم ربه ويخالف شهوده حكم ربه جل جلاله وهو الخسران المبين ؟ إلا من صال عليه الحق صولة فسلب منه ما وهب ، ولديه يسقط عنه ما أوجب ، وهم الموتى وإن كانت أجسامهم تتحرك ، الذين اقتطعتهم المحبة من غير سكينة فصيرتهم أرواحًا بلا أشباح ، لا يتألمون مما يتألم به الناس ولا يتلذذون بما يتلذذ الناس به ، وهم أهل الاصطلام بمشاهدة التوحيد بالتوحيد ، لا يشهدون لأنفسهم وجودًا .. فكيف يشهدون مقتضيات الوجود ؟! تجلت لهم الأسماء والصفات فحجبت أنوارها الكائنات فغابوا عن أنفسهم بمنفسهم ، وعن مقتضيات قلوبهم بمقلبها ، وليست دعوى يدعيها السالك ولا تكلفًا يتكلفه مريد الحق ، وإنما هى حال قاهرة عن سجية صادقة بعد تزكية النفوس وشوقها إلى القريب القدوس ، وليس هؤلاء أئمة للمتقين ولا هداة للأمة ، لأن القوة التى بها التكليف سلبت والحقيقة التى بها التعريف قويت ، خرست ألسنتهم لاستغراقهم فى شهود الواحد ، وصمّت آذانهم عن غيره ، وحجبت أبصارهم عن سواه سر قوله تعالى :

---

(٨) سورة آل عمران آية ٧٣ ، ٧٤ .

(٩) سورة الزمر آية ٩ .

(١٠) سورة طه آية ١١٤ .

(١١) سورة الإسراء آية ٨٥ .

﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾(١٢) وقوله تعالى : ﴿ ففروا إلى الله ﴾(١٣) . والفار إلى الله من نفسه ، المستوحش من وجوده ، كيف يأنس بغيره أو يرى وجودًا لسواه ؟! فإذا رد إلى الخلق وأنس بهم وفارقته الاستقامة كان داعيًا إلى الضلالة ناهجًا سبيل الغواية ، نعوذ بالله منهم . ومحبوب الله تعالى إذا رده إلى خلقه جمَّله بحلل حبيبه ومصطفاه وسلك به على الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، فكان صورة محمدية كاملة ، يمثله ﷺ ظاهرًا وباطنًا ، مشكاة لمصباح أشرق زيته وصفت زجاجته ، عمله السنة ، وقوله الحكمة ، وحاله المحبة ، والتوكل على الله ، والتفويض لله ، والشكر بكلام الله ، والفرار إلى الله ، والمسارعة إلى مراضى الله ومحابه ، وهو الإمام الذى يظهره الله ، فترى جسمه فى الأرض بين الناس وقلبه معلق بالملأ الأعلى ، أنفاسه ريحان ملائكة الله وأعماله زينة الفردوس الأعلى ، توحدت همومه فصارت همًا واحدًا فى الله ، لو غاب رسول الله ﷺ عنه نفسًا لعد نفسه مشركًا ، وهو الفرد الذى لا تفارقه الاستقامة وإن كانت أحواله توجب الملامة ، حصّن الله شهوده بالسنة بحقيقة ما تفضل به عليه من المنة ، خفيت إشارته لأنها من غوامض أسرار التوحيد ، ووضحت عبارته لأنها بيان المبدئ المعيد - قال تعالى : ﴿ الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ﴾(١٤) . عبارته شفاء للقلوب ، وأحواله التنويع للنفوس ، وإشاراته تلويح عن الغيوب ، لا يقهره حاله لأنه مقهور بقهر الحكيم القادر ، محصن فى حصن حكم اللطيف الخبير العليم ، تجلت له صفات أهل معية رسول الله ﷺ حتى لو همت نفسه بمخالفة فى صغيرة أو كبيرة تداركته عناية الولى القريب سر قوله تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾(١٥) ، إذا أظهره الله فى الوجود فتح به عيون القلوب وأطلق به الألسنة بالحكم وأسرار الغيوب ، نوع به النفوس وزكاها وطهرها من لبسها ، وبالأخلاق الطاهرة والاستقامة حلاها ، سر قول رسول الله ﷺ : (العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتى وورثة الأنبياء)(١٦) .

* وقد جاء بعض الإخوان الجدد إلى الإمام يسألونه إظهار كرامة ويقولون له : يا سيدى إننا لم نشاهد منك كرامة ، فقال لهم الإمام : يا أولادى إكرام الله للعبد فوق الكرامة ، لأن

---

(١٢) سورة البقرة آية ١١٥ .

(١٣) سورة الذاريات آية ٥٠ .

(١٤) سورة الرحمن آية ١ - ٤ .

(١٥) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

(١٦) رواه ابن عدى ، وقال المناوى هو صحيح ، والعجلونى فى كشف الخفاء حديث ١٧١٥ ، والسيوطى فى جامع الأحاديث .

كلمة كن لله ، فإذا أعطاها للعبد يجب عليه أن يحفظها ولا يتلاعب بها ويكرهها كما يكره الندامة ، لأن الاستقامة عنده خير من ألف كرامة . وضرب الإمام لهم مثلًا أن فلانًا ضيف على فلان ، فيقول الأول أن فلانًا ضيفى أقضى له حاجته من غسيل ثياب وأكل وشرب ، فهل يجوز للضيف بعد ذلك أن يطلب ما ليس له حق فيه ؟ طبعًا يا أولادى هذه إساءة أدب مع صاحب البيت ، وهكذا المثل .

* وقال لهم الإمام أيضًا : من إكرام الله لى أنى كنت فى رحلة سياحة بالسفينة ، وكان بها مسجد صغير أقيم الصلاة فيه على وقتها مع إخوان لى ، فقال أهل الغى فيها : إن هذا الرجل جاء فى هذه الرحلة ليعكر صفونا بصلاته ودروسه وعلمه وعبادته ، أما كان عنده المساجد فى القاهرة ليصلى فيها ويدعنا هنا وشأننا ؟ لا بد أن ندبر له مكيدة حتى يخلو لنا الجو لصفونا . وفعلًا دبروا لى خطة فى أن يطلبوننى من حجرتى بغرض إقامة صلاة العشاء على أن أخرج من الحجرة ليُدخِلوا امرأة عاهرة إلى غرفتى ، حتى إذا عدتُ دخلوا علىَّ ووجدوها معى فى حجرة واحدة وشهَّروا بى (١٧) .

وجاء بعض منهم وطرقوا باب الحجرة وأخبرونى أنهم ينتظروننى لصلاة العشاء ، فخرجت معهم متجهين إلى الزاوية وأدخلوا المرأة . وبعد الصلاة أوصلونى إلى حجرتى وتركونى ، ثم عادوا إلىَّ بعد ساعات ليشهدوا منى ما يريدون . ولما كنت أصلى صلاة التهجد بعد وصولى مباشرة إلى الغرفة وكان صوتى مرتفعًا فى الصلاة ، فقد اعتقدوا أننى أكلمها ، فطرقوا الباب فخرجت إليهم فنظروا إلى الداخل فلم يروا المرأة . ثم عادوا فطلبونى لصلاة الفجر ونظروا بالداخل فلم يروها ، ولما أدخلونى المسجد لصلاة الفجر عادوا هم إلى الحجرة فوجدها نائمة تحت السرير فأيقظوها وقالوا لها ماذا فعلتِ ؟ فأرجعت لهم نقودهم وقالت : إنها لم تدر شيئًا من الدنيا عندما أدخلوها حجرتى ، فَعَلِمَتْ أننى رجل من رجال الله .

وقال الإمام : لما عرف هذه القصة رجل أجنبى ، أحبنى جدًا لأنه علم مدى صلاحى ، فوضع لى ساعة مرصعة بالجواهر فى جيبى كهدية وبدون أن أعرف . فلما وصلت إلى المنطقة الجمركية فتشوا الجميع وفتشونى فوجدوا هذه الساعة فى جيبى ، ولما سألونى عنها قلت لهم : إنها ليست لى ولا أعلم عنها شيئًا ، فاقتادونى إلى الحجز واتهمونى بالسرقة .

وكان هذا الرجل الأجنبى الذى أهدانى الساعة له أخ يعمل فى الجمرك ، فلما حضر ليسهل له الإجراءات رآنى وعلم بالتهمة الموجهة لى ، فأخبر الأجنبى أخاه أنه هو الذى

(١٧) أخبرنا بها الشيخ أحمد سرور من برج البرلس سماعًا من الشيخ عرفات الجمال .

وضع الساعة فى جيبى وقال لأخيه : إننى شيخ صالح وقص له ما حدث على الباخرة ، فردوا لى الساعة واعتذروا لى اعتذارًا شديدًا وأخرجونى معززًا مكرمًا بعد أن قدموا لى مشروبًا . ثم قال الإمام لزواره من الإخوان : أليس هذا يعتبر إكرام من الله تعالى لى ؟ وأن هذا أفضل من الكرامة ؟

* وحدث أن وجَّهَ أحد الباشاوات الدعوة للإمام ، وبعد العشاء قص عليه قصة مرضه وعجْز الأطباء سواء بالداخل أو بالخارج ، وأراد الإمام أن يعطى درسًا عمليًا فى الاستجابة لدعاء الله فسأله الإمام عن عدد بيوت القرية فأجابه الباشا ، فطلب منه أن يشترى ذبيحة وتُعْمَل أنصبة بعدد بيوت القرية ، ومع كل نصيب قرطاس من الأرز وقرطاس من المكرونة ، وأن يمر بنفسه بعد العشاء على بيوت القرية ويعطى كل بيت نصيبه ، فوجد الكل يقابلوه بالدعاء بأن يعجل الله بشفائه ، فما كانت إلا أيام قليلة وشفى الباشا بفضل دعاء أهل القرية له نظير هذه الصدقات فاستجاب الله لهم ، كما قال رسول الله ﷺ : (داووا مرضاكم بالصدقة)[١٨] .

* وكان بالفيوم رجل من أعيان البلد اسمه محمد الحلوانى ولكنه كان مُبتلىً بالنساء ، وكان كارهًا لهذا الأمر لكنه أصبح مرضًا عنده . فلما علم بوصول الإمام جاء إليه بصدق نية وبايعه وعاهده أنه لا يقوم بهذا العمل وأنه تائب إلى الله تعالى ، ودعا له الإمام وأعطاه بعض الأوراد التى يقولها بالليل . ولما نام رأى أنه يواقع امرأة من الغانيات المعروفات لديه ، فذهب للإمام وحكى له أنه زنى فى نومه وقال كنت أظن أنى خرجت من هذا الأمر وأن الله سبحانه وتعالى تاب علىّ ولكنى مازلت غارقًا فى الشر حتى فى النوم . فقال الإمام له : يا بنى هذا كان قدرًا عليك سينفذ ، ولكن بصدق نيتك وبحبك فى رسول الله ﷺ خفف الله عنك ولطف بك فوقع القدر ولكن بغير حساب عليك ولا مسئولية حيث إنه وقع فى النوم . وهذا يبين لنا سر الدعاء المأثور : اللهم إنى لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه .

* وقد ركب الإمام البحر مرة فى طريقه من سواكن بالسودان إلى السويس . وصعد لأعلى ليتنسم النسيم ، فإذا به يجد طاقم ضباط السفينة يلعبون القمار ، فلم يغضب ولكنه جلس معهم ، وبهدوء أقنعهم أن هذا لا يستوى ، فقال الذى ربح للإمام أنه يلعب لا لحاجة للمال ولكنها للتسلية ، فقال لهم الإمام : أنتم تقولون إنكم استعمرتم الشعوب لكى تعلموهم الأخلاق وهذا ليس من الأخلاق فى شئ ، والعمال على هذه

(١٨) رواه الطبرانى وأبو نعيم والعسكرى والقضاعى والبيهقى فى الشعب بلفظ : [حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة ، واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء] .

السفينة يتعلمون منكم ويقلدونكم وسيبيعون لوازمهم ليلعبوا مثلكم .

فقدموا الربح للإمام لكنه رفض ، وقال : اعطوها لعمالكم على الباخرة . وسأل القبطان الإمام لماذا نعطيها للعمال ؟ فقال له تدفع عنك البلاء ، فقال القبطان أعطنى مثالاً ، فقال تنجيك وتنجي أولادك ، فاستدعى رئيس العمال وأعطاه هذا المال . وكان ولد صغير من أبناء هذا القبطان بالسفينة يلعب وراءهم فإذا به يسقط فى البحر فى هذه اللحظة ومعه كلبه ، فسبح الكلب مع الطفل وسحبه بأسنانه ، وأطلقوا صفارة الإنذار وأنزلوا معدات النجاة وأنقذوا الولد وكلبه . هذا القبطان البريطانى اعتز بالإمام وربط بين ما قاله من دفع البلاء وما حصل لولده ، ثم صار يوالى إكرام الإمام وتكريمه كلما ركب البحر معه .

* ومما يُذكر أن أخ من الإخوان ، وهو صاحب تجارة مالية ، جاء من بلدته ليزور الإمام ويتمتع بدروسه العلمية ثم يعود فى نفس اليوم . وبعد أن تحقق المراد ، اتبع الآداب واستأذن من الإمام ، ولكن الإمام طلب منه أن يبيت عنده ويسافر فى الصباح . ولمسئوليات هذا الأخ الكثيرة فى أعماله التجارية أعاد طلب الإذن فرفض الإمام وبات الأخ فى سراى آل العزائم ، ولما جاء وقت الضحى أذن له الإمام ودعى له بالحفظ والسلامة . ولما وصل الرجل إلى بلدته وجد فيها جريمة قتل وأنه متهم بها ، وهنا أدرك فى الحال أن الله قد أكرمه بتأخير الإمام له فى وصوله إلى بلدته . وفى التحقيق نفى عن نفسه هذه التهمة بحجة أنه كان فى سراى آل العزائم بالقاهرة عند أستاذه وشيخه السيد محمد ماضى أبو العزائم وكان معنا (وحدد أسماء من كانوا معه كشهود) . ولما تحرت النيابة فى هذا الأمر وجدته صادقًا فى كل من قاله .

التراث العلمى للإمام

أولًا : التراث النثرى

١ - الكتب :

لقد ترك الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم تراثًا نثريًا ضخمًا يحتوى على مصنفات علمية كثيرة شملت شتى نواحى العلم بفروعه المختلفة فى العبادات والعقيدة والتوحيد والتصوف والتفسير ومقارنة الأديان والسيرة النبوية الشريفة ، وقد طبعت معظم هذه المؤلفات فى حياته الدنيوية فى مطبعته بالقاهرة ، ثم تابعت مشيخة الطريقة العزمية إصدار ما لم يطبع من هذه المؤلفات ، وحتى الآن هناك بعض المؤلفات لا تزال مخطوطة ولم تخرج بعد إلى عالم الإصدارات .

ويتميز أسلوب الإمام أبى العزائم فى كتبه بالسهولة واليسر واستخدام الحجج وذلك تأكيدًا للمنهج السلفى الذى سار عليه رضى الله عنه فى مؤلفاته ، كما تتصف مؤلفات الإمام بالتنوع والشمول ، وذلك يدل على قدرة الإمام على تطويع اللغة حسبما تقتضيه الفكرة التى يجنح إليها ، وفيه من الدلالة على رسوخ قدمه فى اللغة وفروعها .

ويمكن تصنيف كتب الإمام النثرية والتى تمكن من نشرها وقام خلفاؤه على دعوته من بعده بطبعها ونشرها وكذلك التى لم تطبع بعد ومعها المجموعة النظمية فى البند رقم ١٢ إلى المجموعات الآتية :

	الطبعة الأولى هجرى - ميلادى	العهد[1]	آخر طبعة هجرى - ميلادى	رقمها

(١) فى جانب التفسير القرآنى :

١ - أسرار القرآن :

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
الجزء الأول	١٣٦٩ - ١٩٥٠	٢	١٤١٣ - ١٩٩٢	٣
« الثانى	١٤٠١ - ١٩٨١	٣	١٤١٤ - ١٩٩٣	٢

(١) نشر الكتب فى عهد الإمام يعنى رقم (١)، وفى عهد خليفة الإمام الأول السيد أحمد ماضى أبو العزائم (٢)، وفى عهد خليفة الإمام الثانى السيد عز الدين ماضى أبو العزائم (٣)، وفى عهد خليفة الإمام الثالث السيد محمد علاء الدين ماضى أبو العزائم (٤) .

	الطبعة الأولى هجرى - ميلادى	العهد	آخر طبعة هجرى - ميلادى	رقمها
الجزء الثالث	١٤٠٣ - ١٩٨٣	٣		١
« الرابع	١٤٠٤ - ١٩٨٤	٣		١
« الخامس	١٤٠٦ - ١٩٨٦	٣		١
« السادس	١٤١٠ - ١٩٩٠	٤		١
« السابع	١٤١٥ - ١٩٩٤	٤		١
٢ - الجمعيات	(تحت النشر)			

(٢) فى جانب العقيدة :

١ - عقيدة النجاة	١٣٢٣ - ١٩٠٥	١	١٤٠٣ - ١٩٨٣	٤
٢ - الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها	١٣٤٠ - ١٩٢١	١	١٤١٣ - ١٩٩٢	٣

(٣) فى جانب العلوم الفقهية :

١ - أصول الوصول لمعية الرسول	١٣٢٩ - ١٩١١	١	١٤٠٦ - ١٩٨٦	٤
٢ - هداية السالك إلى علم المناسك	١٣٤٠ - ١٩٢٢	١	١٤٠٦ - ١٩٨٦	٤
٣ - صيام أهل المدينة المنورة	١٣٤٣ - ١٩٢٥	١	١٤٠٨ - ١٩٨٨	٥
٤ - الجهاد	١٣٨٧ - ١٩٦٧	٢	١٤٠٩ - ١٩٨٩	٢

(٤) فى جانب الأخوة الإسلامية :

١ - الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ	١٣٣٨ - ١٩٢٠	١	١٤١٣ - ١٩٩٢	٣
٢ - الإسلام وطن والمسلمون جميعًا أهله	١٣٣٨ - ١٩٢٠	١	١٤١٤ - ١٩٩٣	٣
٣ - وسائل نيل المجد الإسلامى	١٤١٦ - ١٩٩٥	٤		١

	الطبعة الأولى هجرى - ميلادى	العهد	آخر طبعة هجرى - ميلادى	رقمها
(٥) فى جانب المناسبات الدينية :				
١ - السراج الوهاج فى الإسراء والمعراج	١٣٣٠ - ١٩١٢	١	١٤٠٨ - ١٩٨٨	٦
٢ - بشائر الأخيار فى مولد المختار	١٣٤٠ - ١٩٢١	١	١٤١٧ - ١٩٩٦	٥
٣ - معجزات وفضائل سيد المرسلين	١٣٥٠ - ١٩٣١	١	١٤١٢ - ١٩٩٢	٣
٤ - أدعية الغفران فى شهر القرآن	١٣٩٣ - ١٩٧٣	٣	١٤٠٣ - ١٩٨٣	٢
٥ - مشارق البيان فى فضائل شهر شعبان	١٣٩٤ - ١٩٧٤	٣	١٤٠٦ - ١٩٨٦	٢
٦ - لبيك اللهم لبيك (أدعية الحج)	١٣٩٥ - ١٩٧٥	٣	١٤٠٧ - ١٩٨٧	٥
٧ - غزوة بدر الكبرى	١٤١٥ - ١٩٩٥	٤		١
٨ - الهجرة	(تحت النشر)			
(٦) فى جانب القصة والمسرحية الإسلامية :				
١ - محكمة الصلح الكبرى	١٣٣٧ - ١٩١٩	١	١٤١٢ - ١٩٩٢	٥
٢ - دروس فى قصص	١٣١٤ - ١٩٩٣	٣		١
(٧) فى جانب السيرة النبوية والرد على المستشرقين :				
١ - وسائل إظهار الحق	١٣٣٢ - ١٩١٤	١	١٤١٣ - ١٩٩٢	٥
٢ - سيرة النبى ﷺ	(تحت النشر)			
(٨) فى جانب ما يجب أن يعرفه المسلم :				
١- النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين	١٣٣٢ - ١٩١٤	١	١٤٠٣ - ١٩٨٣	٢
٢ - الشفاء من مرض التفرقة	١٣٢٤ - ١٩١٥	١	١٤٠٨ - ١٩٨٨	٣
٣ - تفصيل النشأة الثانية	١٣٣٣ - ١٩١٥	١	١٣٩٨ - ١٩٧٨	٢

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
	هجرى - ميلادى		هجرى - ميلادى	
٤ - الوسيلة وما اختلف فيه من السنة والبدعة	١٣٥٢ - ١٩٣٤	١	١٤١٢ - ١٩٩٢	٣
٥ - الجفر	١٣٧٦ - ١٩٥٧	٢	١٤١١ - ١٩٩٠	٣
٦ - وصية إلى الرجل المسلم	١٤١٠ - ١٩٩٠	٣		١
٧ - وصية إلى المرأة المسلمة	١٤١٠ - ١٩٩٠	٣		١
٨ - الخمر رجس من عمل الشيطان	١٤١٣ - ١٩٩٢	٣		١
٩ - إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين[٢]	١٤١٤ - ١٩٩٣	٣		١
١٠ - نعيم القبر وجمالات الآخرة	١٤١٧ - ١٩٩٦	٤		١
١١ - يمحق الله الربا ويربى الصدقات	(تحت النشر)			

(٩) فى جانب التصوف :

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
١ - شراب الأرواح من فضل الفتاح	١٣٢٩ - ١٩١٢	١	١٤٠٧ - ١٩٨٧	٣
٢ - مذكرة المرشدين والمسترشدين	١٣٣٠ - ١٩١٢	١	١٤٠٣ - ١٩٨٣	٢
٣ - معارج المقربين	١٣٣١ - ١٩١٣	١	١٤١٤ - ١٩٩٣	٣
٤ - الطهور المدار علي قلوب الأبرار	١٣٤٨ - ١٩٣٠	١	١٤١٢ - ١٩٩٢	٣
٥ - جوامع الكلم	١٣٨٢ - ١٩٦٢	٢	١٤٠٨ - ١٩٨٧	٣
٦ - من جوامع الكلم[٣]	١٤١٦ - ١٩٩٥	٤		١
٧ - الطريق إلى الله تعالى	١٣٩٩ - ١٩٧٩	٣	١٤٠٥ - ١٩٨٤	٢
٨ - الفرقة الناجية (الجزء الأول)	١٣٥٢ - ١٩٣٣	١	١٤١٣ - ١٩٩٢	٣
٩ - « « (« الثانى)	(تحت النشر)			
١٠ - دستور السالكين طريق رب العالمين	١٣٥١ - ١٩٣٣	١	١٤١٧ - ١٩٩٦	٤

---

(٢) اسم الكتاب بالكامل : إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين (ردًا على نظرية داروين) .

(٣) وهو عبارة عن الحِكَم التى نشرت فى كتاب جوامع الكلم ، وأضيف إليها حِكم أخرى للإمام رضى الله عنه .

	الطبعة الأولى هجرى - ميلادى	العهد	آخر طبعة هجرى - ميلادى	رقمها
١١ - دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك	١٣٤١ - ١٩٢٣	١	١٤١٢ - ١٩٩٢	٣
١٢ - حديث الجمعة	١٤٠٢ - ١٩٨٢	٣		١
١٣ - مصطلحات الصوفية	(تحت النشر)			
١٤ - آداب الصوفية	(تحت النشر)			
١٥ - الصوفية والتصوف	(تحت النشر)			
١٦ - مقامات الصوفية والتصوف	(تحت النشر)			
١٧ - دروس تزكية النفس	(تحت النشر)			
١٨ - موارد أهل الصفا	(تحت النشر)			
١٩ - قبس من المضنون	(تحت النشر)			

(١٠) فى جانب الصلوات على سيدنا رسول الله ﷺ :

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
١ - نيل الخيرات بملازمة الصلوات	١٣١٥ - ١٨٩٧	١	١٤١٥ - ١٩٩٥	٢٦
٢ - الفتوحات الربانية[٤]	١٣٦١ - ١٩٤٢	٢	١٤١٠ - ١٩٨٩	٤
٣ - أكمل الصلوات علي سيد الكائنات	١٣٦١ - ١٩٤٢	٢	١٤١٠ - ١٩٨٩	٢

(١١) فى جانب الأدعية والاستغاثات :

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
١ - إلهى إلهى إلهى	١٤١٠ - ١٩٩٠	٣	١٤١٧ - ١٩٩٦	٢
٢ - ادعونى أستجب لكم	١٤١٤ - ١٩٩٤	٣		١

(١٢) فى جانب المواجيد :

	الطبعة الأولى	العهد	آخر طبعة	رقمها
١ - ديوان ضياء القلوب من فضل علّام الغيوب				
الجزء الأول	١٤١١ - ١٩٩١	٣		١

---

(٤) اسم الكتاب بالكامل : الفتوحات الربانية والمنح النبوية فى الصلاة على خير البرية .

	الطبعة الأولى هجرى - ميلادى	العهد	آخر طبعة هجرى - ميلادى	رقمها
الجزء الثانى	١٤١٢ - ١٩٩٢	٣		١
« الثالث	١٤١٣ - ١٩٩٣	٣		١
« الرابع	١٤١٤ - ١٩٩٤	٣		١
« الخامس	١٤١٧ - ١٩٩٦	٤		١
٢ - المواجيد العزمية فى مواجهة الروضة الحسينية	١٣٥٥ - ١٩٣٦	١	١٤٠٨ - ١٩٨٧	٢

٢ - الصلوات على سيدنا رسول الله ﷺ :

كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ يصلون عليه بصيغ يفتح الله بها عليهم ، قال الإمام علىّ كرّم الله وجهه : لولا أن الله فرض علىّ فرائض لما تنفست نفسًا إلا فى الصلاة على رسول الله ﷺ ، ومن صلواته على النبى ﷺ : صلوات الله وملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد وعليه وعليهم السلام ورحمة الله وبركاته .

ومن صلاة السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها على النبى ﷺ قولها : اللهم صلّ على من روحه محراب الأرواح والملائكة والكون ، اللهم صلّ وسلم على من هو إمام الأنبياء والمرسلين ، اللهم صلّ على من هو إمام أهل الجنة عباد الله المؤمنين .

ومن صلاة سيدنا عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قوله : اللهم يا دائم الفضل على البرية ، يا باسط اليدين بالعطية ، يا صاحب المواهب السنية ، صلّ على محمد خير الورى سجية ، واغفر لنا يا ذا العلا فى هذه العشية .

وقد أدرك الأئمة والعلماء والعارفون بالله تلك الحقيقة فأكثروا من الصلاة على النبى ﷺ لما لها من الفضل العظيم ، ففتح الله عليهم بمواهب علية نذكر على سبيل المثال :

١ - صلاة الإمام الشافعى رضى الله عنه : صلى الله على محمد كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ، وصلى الله فى الأولين والآخرين أفضل وأكثر وأزكى ما صلى على أحد من خلقه ، وزكانا بالصلاة عليه أفضل ما زكى أحدًا من أمته بصلاته عليه والسلام عليه ورحمة الله وبركاته وجزاه الله عنا ما جزى رسولًا عمن

أرسل إليه فإنه أنقذنا به من الهلكة وجعلنا فى خير أمة أخرجت للناس .

٢ - وصلاة الإمام عبد القادر الجيلانى : اللهم صلّ وسلم على سيدنا ومولانا محمد بحر أنوارك ومعدن أسرارك ولسان حجتك وعروس مملكتك وإمام حضرتك وطراز ملكك وخزائن رحمتك وطريق شريعتك المتلذذ بمشاهدتك .

٣ - وصلاة الإمام أبى الحسن الشاذلى : اللهم اجعل أفضل الصلوات وأسمى البركات وأزكى التحيات فى جميع الأوقات على أشرف المخلوقات سيدنا ومولانا محمد أكمل أهل الأرض والسموات ، وسلم عليه يا ربنا أزكى التحيات فى جميع الحضرات واللحظات .

٤ - وصلى الإمام عبد السلام بن مشيش على رسول الله ﷺ بصيغة تدل على أنه منح منحًا محمديًا فقال : اللهم صلّ وسلم على من منه انشقت الأسرار وانفلقت الأنوار ... إلى آخر الصيغة .

٥ - وصلاة سيدى إبراهيم الدسوقى : اللهم صلّ وسلم على الذات المحمدية اللطيفة الأحدية شمس سماء الأسرار .. إلى آخر الصيغة .

٦ - وصلاة سيدى أحمد البدوى : اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا ومولانا محمد شجرة الأصل النورانية ولمعة القبضة الرحمانية .. إلى آخر الصيغة .

٧ - وصلاة سيدى محيى الدين بن عربى : اللهم صلّ وسلم على الذات المطلسم والغيث المطمطم لاهوت الجمال ناسوت الوصال .. إلى آخر الصيغة .

وهكذا لكل عارف ممنوح صيغ تدل على مقدار قربه من الحضرة المحمدية ، وإن أستاذنا السيد محمد ماضى أبا العزائم رضى الله عنه له فتوحات كثيرة تفوق المئات فيها كنوز ثمينة .

صيغ من صلوات الإمام أبى العزائم على سيدنا رسول الله ﷺ

ومن إكرام الله عز وجل للإمام أن شرح صدره فصاغ صلوات على الحبيب المصطفى ﷺ يشير فيها إلى المقامات التى نالها المصطفى من ربه والتى تحتاج منا إلى ذوق راق لإدراك معانيها ، وكل عارف ينال منها على قدر استعداده لشهود هذه المقامات ، ونسوق هنا بعضًا من صيغ الصلوات التى أملاها رضى الله عنه فى الصلاة على النبى ﷺ :

١ - اللهم صلّ وسلم على العقل الأول الذى أضاء بنور أوليته عوالم الأرواح النورانية ، واللون الذاتى الذى تزينت بمحاسن صفاته جميع الآثار الكونية ، والمظهر الحقى

الذى أفاض على العوالم كلها أسرار التجليات الرحمانية ، المتحقق فى المظهرين الحقى والخلقى فى الآخرية .

٢ - اللهم صلّ وسلم على مدينة المجالى الذاتية ، وحوض التجليات الصفاتية ، وكوثر الفيوضات الأسمائية الذى سطعت من شمس حقيقته جميع الأنوار الملكية والملكوتية ، اللهم صلِّ وسلم على الجامع لحقيقات العوالم العلوية ، والمفيض لجميع إمداداتها الروحانية ، اللهم صل وسلم على محيط الجمال والكمال ، المتفرع من بحار معارفه أنوار الهدايات الربانية .

٣ - اللهم صلّ وسلم على حيطة هوية الوحدانية ، الذى أعجز الكل فى فهم ما ظهر من صفاته الآدمية .

٤ - اللهم صلّ وسلم صلاة تامة مباركة دائمة على سماء الرفعة القريب فى علوه ، ونور القدس المتدلى فى سموه ، وشمس الرحموت الباطن فى ظهوره .

والصلوات التى صاغها الإمام على سيدنا رسول الله هى عبارة عن فتوحات يبلغ عددها أكثر من مائة وخمسين فتحًا نشر منها حتى الآن سبعون ، والفتح الواحد يتضمن صيغًا عديدة من الصلوات التى تظهر مقامات الرسول الأعظم قد أفيضت على قلب الإمام رضى الله عنه ، وقد طبعت بعض صيغ من هذه الصلوات فى كتاب « نيل الخيرات بملازمة الصلوات » وتتضمن الفتوحات الأربعة الأولى مسبوقة بأدعية قرآنية ومختتمة باستغاثة التوجه الروحانى ، ولا يزال هناك الكثير من الفتوحات لم تنشر بعد مثل الصلاة الذاتية على الرسول ﷺ والتى أفيضت على قلب الإمام وهى خاصة بصفوة أحبابه الكمّل الذين عشقوا المصطفى ﷺ ، وهى تقرأ كل يوم ٦٦ مرة على وضوء فيقول رضى الله عنه :

الصلاة والسلام عليك يا روح الهياكل النورانية ، ونور الأرواح الهائمة فى جلال الإلهية ، وسر غيب معانى الجمع المحفوظ ببرزخ المواجهات ، أنت مجمع الحقائق وشمس اللطائف التى أشرقت من مبنى سدرتك الأنوار ، فجملنى يا مرادى بحقيقة الجمعية على أسرار الاتحاد ، حتى أكون معك مجملًا وبك مؤيدًا ولك محبوبًا وعندك مقبولًا ، فأفننى عنى بجمالك حتى تظهر لى وأغيب عنى بك ، حتى تخفى معالمى بنور مواجهتك عيانًا ، وتصفو لطيفتى بمشاهدتك كشفًا عيانًا ، وأفوز بفضل الله ورضوانه .. آمين .

وتتلى صيغة الذكر هذه بعدها مباشرة ٦٦ مرة : يا حى يا قيوم يا أحد ، تجلّ لى بمعانى جمال الربوبية ولاية ، وبنور سواطع الإلهية كشفًا ، حتى أتحقق بمكانة العبد فى الرغبة

والرهبة يا أحد يا الله .

٣ - الأحزاب والأدعية والاستغاثات :

الحزب هو دعاء له خصوصية معينة ، وبه يتوجه العبد ضارعًا إلى ربه متبتلًا ذليلًا إليه سبحانه ، أى إذا حزب الإنسان شئ ، أى أهمه أو شغله ، فإنه يتوجه به إلى ربه ليكشف عنه ما نزل به بسر هذا الدعاء ، وأغلب الأحزاب التى صاغها الإمام تتضمن التبتل والتضرع إلى الله تعالى ، وتشتمل على أدعية قرآنية مشفوعة ببعض المواجيد النظمية التى يبتهل فيها رضى الله عنه إلى الله تعالى ابتغاء رضائه .

وأشهر الأحزاب عند الإمام حزب الحصن الحصين :

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ﴾[٥]، يا جبار يا قهار يا منتقم يا شديد البطش يا حى يا قيوم يا على يا عظيم ، ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين ، إن وليى الله الذى نزّل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، الله أكبر (٥مرات) كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها الله (٥ مرات) يا سلام يا حافظ يا قريب يا مجيب يا رؤوف يا حفيظ ، احفظنا من أهل الشر كلهم ومن شرهم واربط على قلوبهم وألسنتهم وأبصارهم وأسماعهم (واجعلهم خاضعين لنا يا عزيز - ٣ مرات) لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكان الإمام رضى الله عنه فى بعض الأحيان يملى حزبًا ثم يعبر عنه بقصيدة وراءه مباشرة بحيث يشتركان فى معانٍ كثيرة ، وكذلك جمع الإمام بين الأحزاب والفتوحات ، وقد جمع حتى الآن ٥١٩ حزبًا ، والأغلب أنها أكثر من ذلك بكثير ، وكلما مر الزمان سيظهر تراث آخر للإمام فى خزائن تلاميذه ليس متوفرًا لدينا الآن .

وهذا حزب من الأحزاب قاله الإمام فى غرة محرم ١٣٢٥ هـ :

اللهم يا أبدى يا أزلى يا سرمدى ، يا دهر يا ديهود يا كان يا كينون ، يا من بيده

---

(٥) سورة يوسف آية ٣١ .

ملكوت السموات والأرض، وتحت تصريف إرادته وقدرته ومشيئه كل كائن فى العوالم كلها، تنزهت يا أحد عن الشبيه ، وتعاليت يا صمد عن النظير والمثيل ، مقاليد الأمور بيدك ، ومقادير الأشياء محصورة بعلمك ، سبحانك لا يعزب عن علمك مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، ولا يحيط علمًا بما أبدعته من جميل صنعك ، وأظهرته من جليل قدرتك ، وما خلقت من عوالم علوية ومكونات ملكية ، أكمل مقرب من الكروبين ، ولا أسمى عقل من عقول المقربين ، إلا إذا أحسنت فكشفت لمن شئت عما شئت من معالم دالة على عظمة ذاتك ، وآيات منبئة بكمال نزاهتها ، فمن يعجز عن أن يحيط علمه بمكونات - مع أن حضرة العلم أوسع من قيود المكاشفات - كيف يمكن أن يحوم حول أفيئة سبحات طلاسم العظمة السبوحية أو يدنو عقله ولو ارتقى إلى ميادين حجب العزة الربانية ؟ فسبحانك من على عظيم عن أن يصل عقل أو يشاهد فكر غيب جلال قهر بظهوره الآثار، وخفى جمال كمل بسره العوالم بجلى الأنوار، جلت قدرتك يا قادر، أسالك يا إلهى نور تسليم ، ومكاشفة يقين ، ومناجاة تمكين ، ونظرة حب ، وولاية ود ، وحفظ قرب ، وسلامة عناية ، وأمان هداية ، وسابق إحسان .

إلهى ثبت قلبى باليقين الكامل على دينك ، ونور عينى وأذنى ولسانى وقلبى وجميع جسدى بالتحقيق والمعرفة ، واشرح صدرى بصدق الثقة والتوكل عليك ، ويسر أمرى بدوام العطايا بالجمال والإحسان .

إلهى أيدنى بتأييدك ، وأيدنى بسنة نبيك ﷺ ، واجعلنى هاديًا مهديًا ، راضيًا مرضيًا ، وألِّف بى قلوب عبادك المؤمنين .

إلهى احفظنى من الفتن ومن الضلال ، ومن المعصية ومن الاستدراج ، ومن حظى وهواى ، يا مجيب الدعاء .

إلهى توفنى مسلمًا وألحقنى بالصالحين ، وعاملنى بالحسنى والإحسان فى دينى ودنياى وآخرتى ، وأكرمنى فى أولادى وإخوتى وإخوانى وأصحابى والمسلمين ، وسرنى بهم فى الدنيا والآخرة ، واجعل محبتنا خالصة لوجهك ، واحفظنا من التفرقة ومن المخالفة ومن شتات الرأى ، ومن كل فتنة ومن كل بلاء وعناء ومرض وفقر .. يا رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين ، وصلى على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .. آمين يا رب العالمين .

٤ - المقالات بالمجلات المختلفة :

وللإمام مقالات عديدة بمجلات (السعادة الأبدية) و (المدينة المنورة) و (الفاتح) وهى المجلات التى كانت تصدر عن الطريقة العزمية وكذلك مقالات فى الجرائد اليومية، وهذه المقالات كان يمليها الإمام وتشكل موضوعات متكاملة، وسوف نشير إلى بعض منها فى هذا الكتاب عند الحديث عن جهاد الإمام السياسى والدينى.

٥ - خطب الجمعة :

إن خطب الإمام لصلاة الجمعة كان يدونها الكتبة بقدر المستطاع أثناء إلقائها، وقد نشر بعضها بالمجلات الأسبوعية للإمام، ولا يزال الكثير منها بحوزة البعض، وكان الإمام لا يزيد فيها عن ربع الساعة، ونعرض للقارئ نموذجًا لما تيسر جمعه من خطبة جمعة[٦] :

الحمد لله الذى ظهر للأرواح بغيبه المصون فشوقها إلى لقاء حضرته، وظهر للعقول بآياته الجلية الظاهرة فى الكائنات فأسجدها لجلاله وعزته، وظهر للأشباح بآلائه الوافرة وأياديه المتوالية فألزمها الشكر والعبادة الخالصة لذاته، سبحانه .. حيّر العقول فيما أظهر من غرائب قدرته وعجائب حكمته، ترى كونًا متنسقًا منظومًا خلقه عناية للإنسان، فما من حقيقة فى الكون إلا وهى مخلوقة مسخرة لك أيها الإنسان، خلق الهواء والماء، خلق الأرض والسماء، والزرع والنبات، بل وخلق يوم القيامة، وما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فاشكر ربك أيها الإنسان وسارع لنيل رضوانه الأكبر يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى بقلب سليم.

الحمد لله الذى جعل باب التوبة مفتوحًا أبدًا، وأحب التوابين ورغبهم فى التوبة علمًا منه أن الإنسان محل السهو والجهل والنسيان، فنحن ننساه ليل نهار وهو ينادينا بلسان الرحمة : توبوا أقبلكم، وتوجهوا إلىّ أواجهكم بوجهى، وأقبلوا علىّ أقبل عليكم بنعمتى وفضلى.

والصلاة والسلام على من صاغه من نور جماله وجعله رحمة لعباده، رحم عوالم عالين ليلة إسراه ﷺ حيث أشهدهم فيه ما أشهد ملائكة السموات السبع فى آدم، فهو ﷺ مظهر جمال الله وكماله الذى أنست به أرواح عالين وأعلى عليين ليلة إسرائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبد سمعها من الصادق فقبلها وانعقد عليها، وأشهد أن سيدنا ومولانا وحبيبنا محمدًا ﷺ عبده حقًا وفرد ذاته صدقًا

---

(٦) مجلة «المدينة المنورة» العدد الصادر فى ١٠ صفر ١٣٦٦ الموافق ٧ يناير ١٩٤٧.

المخلوق لذاته ، المصطفى قبل وجود العالم ، من واثق الله له الرسل الكرام بنص القرآن .

أما بعد .. فيا إخوانى : إن للأرواح مشاهد علية ، وإن للقلوب مناظر جلية ، وإن للأشباح آلاء تواليها وفية ، فإذا أسبغ الله علينا نعمة الأبدان وجب علينا السعى لأن نغذى أرواحنا وقلوبنا بنعمة العرفان ، إخوانى : إنَّا إذا اشتغلنا بتلك الدار الدنيا بملاذها وحظوظها وأهوائها وانصرفنا عن الله تعالى فى طلب ما يقوّم به أبداننا ويلذذها وتركنا الواجب علينا نحو ربنا نكون أقل من البهائم الراتعة ، لأن البهائم لو علمت أن لها يومًا تقوم فيه بين يدى الله تحاسب على النقير والقطمير ما أكلنا منها لحمًا سمينًا .

إخوانى : إن الموت مجهول وقته خفى آنه ، وإنَّا فى تلك الدار معرضون له فى كل نفس ، فمن لم يتذكره ويلاحظه ويحاسب نفسه راح نادمًا وأقبل على الله خائفًا ، فطمئنوا قلوبكم باتباع حبيبه ﷺ .

إخوانى : إن إبليس كان أعبد الخلق أجمعين ، وكان أعلم الخلق أجمعين ، مكث سبعين ألف سنة يعبد الله وكل ذلك لم ينفعه بشئ ، بل طرده الله من رحمته لأن الله يحب أخلاقه الجميلة ، فمن صلى الفرض فقط وصام الفرض فقط كان من أهل عليين بل من أعلين ، قال الله تعالى : ﴿ وأنتم الأعلون ﴾[7]، إذا تقرر هذا فأخلاق إبليس لا تجهل وأخلاق الله لا تنكر ، وها هى أخلاق الله تمثلت فى أخلاقه وصفاته ﷺ ، فإذا عزمت على عمل ما يكرهه ربك فتذكر إبليس وما جرى له وجاهد نفسك فى سبيله ، وإذا عزمت على عمل يرضى ربك ومنعك مانع من لذة وشهوة فسارع إلى تنفيذه غير هيّاب ولا وَجِلْ ، فإن الأخلاق الطاهرة الزكية تجذب العبد إلى الله جذبة عالية ، قال ﷺ : (إن لله تسعًا وتسعين خلقًا من تخلق بواحدة منها دخل الجنة ؛ فقال أبو بكر : أفىَّ واحدة منها ؟ قال ﷺ : فيك كلها يا أبا بكر)[8].

إخوانى : ليس بعد الأخلاق إلا شهود رب العزة ، من تخلق بأخلاق الله كاشفه الله بما لديه ، إن العبادة ليست هى عبادة الأشباح إنما هى عبادة القلوب والأرواح ، ذلك لأننا نتوضأ غافلين ونصلى ساهين ونصوم جاهلين لأن القلب لم يعمل ، والله لا ينظر إلى الأشباح وإنما ينظر إلى القلوب والأرواح ، فجملوا النوايا والمقاصد والاعتقاد ينفعكم الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، قال ﷺ : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ،

---

(٧) سورة محمد آية ٣٥ .

(٨) سبق تخريجه .

ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه)[٩].

الخطبة الثانية :

الحمد لله القريب من كل عبد قرَّبه واجتباه ، والملبى لكل من دعاه ، المجيب لمن ناداه ، خصوصًا من ناداه تائبًا مقبلًا عليه مجيبًا ، هو القريب فلا يبعد ، والظاهر فلا يحجب ، وإنما المحجوب نحن لأن قلوبنا شغلت عن الله فلم تشهد براهينه وآياته الظاهرة فى الكائنات .

والصلاة والسلام على طب القلوب وشفاء النفوس والسر السارى فى الآيات ورحمة الله العظمى لأهل الأرض والسموات ، ورضوان الله عمن أخبرنا أنه رضى الله عنهم وخصوصًا العشرة الكرام الذين بذلوا أنفسهم وأوطانهم وأولادهم فى سبيل نصرة الله وإحياء سنة رسول الله ، ورضى الله تبارك وتعالى على القائمين بإحياء السنة المجاهدين فى سبيل كشف الغمة .

اللهم إنك جعلت النيل بركة لمصر فبارك لنا فى النيل واحفظه من الذين يقسمونه بيننا ويتحكمون فينا ، اللهم انفع زرعنا وضرعنا ووسع رزقنا ، اللهم إن القلوب اختلفت بينها ، والألسنة انحرفت فأصلحها ، اللهم أظهر أفرادًا من أحبابك ولهم أمورنا واجمع بهم كلمتنا وجدد بهم ما اندرس من معالم الدين ، اللهم إنا فقراء فأغننا ، جهلاء فعلمنا ، مرضى فاشفنا ، أذلاء فأعزنا ، وأغننا بك عن شرار خلقك ، اللهم غيّر ما بأنفسنا حتى تصلحنا ، اللهم اصلح الراعى والرعية واجمعنا جامعة إسلامية ، اللهم أهلك الكافرين وشتت جموعهم ومزق شملهم وأعدهم عبيدًا يباعون فى أسواقنا إنك مجيب الدعاء .

٦ - الخطابات والرسائل :

احتوى تراث الإمام أبى العزائم على كم هائل من الرسائل التى تتميز فى مضمونها بالأسلوب الصوفى الحكيم ، والعبارة العذبة الرفيعة ، والصفاء الروحى الذى ينم عن مكانة عالية ودرجة سامية من القرب والمعرفة الإلهية ، وتعددت الأغراض : فمنها الرسائل الإخوانية ، والرسائل العامة للمشايخ ، ورسائل للرؤساء والزعماء وغيرها ، وقد نشرنا بعضًا من الخطابات التى كان الإمام يرسلها إلى زعماء وملوك ورؤساء الدول الإسلامية حسب ما تقتضيه الضرورة فى أبواب متفرقة من هذا الكتاب .

---

(٩) متفق عليه .

الرسائل الإخوانية :

كان للإمام رسائل يرسلها إلى بعض الخاصة من مريديه وإخوانه ناصحًا لهم ، أومصلحًا ذات بينهم عند المقتضى ، وتعتبر تلك الرسائل ثروة علمية عالية بما احتوته من مقدمات وصيغ من الصلوات صاغها على سيدنا رسول الله ﷺ ، وما تضمنته من علوم دينية ونثرية ومواجيد نظمية تستحق الدراسة والتأمل لتكون زادًا روحيًا عاليًا يتزود به السعيد فى رحلة سيره وسلوكه إلى ربه .

كتب الإمام يومًا إلى تلميذه الشيخ محمد الصبيحى وهو من خاصة تلاميذه قائلًا :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله عظمة وقدرًا .. القريب رحمة وفضلًا .. الواسع حيطة وعلمًا .. حمدًا من المقام الأزلى للحقيقة الأحدية ، مكانة التنزيل والعلو والعظمة والأكبرية ، ومن تنزلات الكمالات حمدًا من مقتضيات المجد الإلهى والعزة الصمدانية ، ومن آلاء تلك المقتضيات حمدًا من مظاهر الأسماء جمالًا وجلالًا ، كل تلك الصيغ لا باللفظ بل بحقيقة المقتضى من تلك المراتب ﴿وعنت الوجوه للحى القيوم﴾[10] ، وحمدًا بكل جارحة وعضو وجزء من عالم الكون وملكه وملكوته ، رتبة التقيد بحيطة رفرف الروح الكلى إلى هيكل الجسد الجزئى شهودًا ووجودًا لا حالًا واعتبارًا ، وشكرًا يقتضى الإذعان والخنوع والتحلى بحلل المكانة العبدية مقام اختص به أهل الزلفى ﴿وقليل من عبادى الشكور﴾[11] به تحقق الحقيقة بمكانتها فى عين الفرد المتحقق بعين يقين مكانة (من عرف نفسه فقد عرف ربه)[12] .

وصلاة الأحدية بكمالاتها النسبية فى عين الشهود بعد التحقق بالوجود ، إذ لا يقال لوصفها كمال لها ، وكيف لا ؟ والكل ممحوّ فى عين المراد ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾[13] ، نسب يترقى بها العنصر حتى يزدوج بالروح الكلية ، وحلل تتحلى بها الروح الملكية حتى تشرق عليها أنوار شمس الروح القدسى « ما تقول فى اثنين الله ثالثهما » ، ولديها تنمحى المحاسن الاعتبارية والكمالات النسبية ، ويكون الحسن المعتبر بعد

---

(١٠) سورة طه آية ١١١ .

(١١) سورة سبأ آية ١٣ .

(١٢) ذكر الإمام محى الدين بن عربى فى الرسالة الوجودية أنه حديث لرسول الله ﷺ ، وقال المحدث عبد الله الصديق الغمارى هو من كلام يحيى بن معاذ الرازى .

(١٣) سورة الأنعام آية ٩١ .

ذلك قبحًا إذا كان بالنسبة لعنصرك وبالإضافة لجوهرك ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾[١٤].

وصلاة الأحدية لواحده المراد من جميع العوالم، مصطفى الحق ومجتباه، حقيقة أخباره الربانية جمالًا وجلالًا، وشمس هدايته المشرقة بنور مراده لعباده جمالًا وكمالًا، آية الجمالات ومحيط الرأفة والرحمة والحرص، المفيض كمالاته من الهداية والدلالة والعلم والسعادة على كل العوالم العلوية والكونية، صلاة نذوق بها حلاوة فهم مقامه ومعرفة أسراره، ونتحلى بها بحلل الوراثة الحقة والعزيمة الصادقة، وعلى آله وورثته والتابعين .. وبعد.

فمن عبد الله / محمد ماضى أبى العزائم لأخى وحبيبى المخلص المطلوب والواجد المحبوب ولدى محمد الصبيحى، منحنى الله وإياك اليقين الكامل بعين يقين المكانتين وحق يقين الوراثة والخلافة محمديًا حقيًا .. آمين .. ولدى :

دعانى إلى التحرير[١٥] بالقلم الثانى[١٦] ... فحرر ناسوتى[١٧] بكشف بيانى
كتبت وقد قيدت روحى بهيكلى ... ليكشف ما ارجوه قول لسانى
وخاطبت نفسى بالتحرر عندما ... تشوق ناسوتى لأنسى بإخوانى
فللروح انس دائم بشهودها ... ولكن ذا الناسوت مظهر ثانى
ايا أيها الجزء المتمم صورتى ... ويا كل فى التمثيل كشف عيان
ويا بعض هذا الكل فى عين غافل ... ويا كله فى عين من هو فانى
ويا عدمًا عند الكمال وظاهرًا ... تجمع اضداد بصورة إنسان
ويا طينة فى سافلين قد ارتقت ... ويا سيدًا فى مقعد الصدق رحمانى
إليك صبيحى نفثة حال نشوتى ... تشير بانك دائم الجمع روحانى
ايا ولدى[١٨] شمس الحقيقة يهتدى ... بنور سناها المخلصون ذووا الشان
وشرع الهدى غـايـة كـل وارد ... ليطهر من ادران حظ وشيطان
ايا ولدى عنى اليقين وحقه ... يفاض لمن وصلوا مقامات إحسان

---

(١٤) سورة الزمر آية ٦٧ .

(١٥) فى نسخة وجدناها (التسطير) .

(١٦) لسان الجسم هو القلم الثانى، أما القلم الأول فليس فى احتياج لسطور ولا أوراق ولا كتب ولا دفاتر، فهو شراب القلب للقلب وخطاب الفؤاد للفؤاد .

(١٧) جسمى .

(١٨) يقصد الشيخ محمد الصبيحى .

فكن يا صبيحى عن محمد داعيًا ... وبلغ تحياتى لأفراد إخوانى
وبلغ اخاك الفرد والصادق[١٩] الذى ... تحقق وجدًا بقبول وعرفان
خليلك والمحبوب احمد[٢٠] من له ... مقام وحال صادق بعنيان
الا قل له وسطًا[٢١] فكن ناهجًا على ... رياضة ناسوت لدنيا وديان
كذا انت اهل الله جعلوك خادمًا ... لدنيا ودين صادق العزم إنسان
تشاهد بالروح العلية قدسه ... وتعمل للدنيا بمحكم قرآن
وبلغه عنى بل وعن الكم هنا ... تحية اشواق ودعوة رضوان
وبلغ اخى علمى دعائى مكررًا ... لأهليه والأنجال بل والإخوان
وذا الجد والإقدام سيد بلغن ... ومقبل وياقوت وسائر إخوانى
وعبد الرحيم الفرد خيرى فبلغن ... وعبد الحليم المخلص الواجد الفانى
فنب يا صبيحى عن محمد بشرن ... سليمًا وإخوانى جميعًا بتحياتى
وقل للشهيد مرحبًا بك قم إذا ... وبلغ تحياتى بغير توان
لإخوان صدق والمحبين كلهم ... وكن ماضيًا للعزم فى سر وإعلان
وضع الفة تجمع اعضاء هيكل ... لشخص واحد إنسانى
الا يا صبيحى الفة وتجمعًا ... بقلب وجسم صادق الإيمان
الا يا صبيحى سورة الروم وضحت ... سيغلب جمعهمو بكل مكان
إذا الكوكب القدسى[٢٢] اشرق ظاهرًا ... تحف به الأقمار[٢٣] من كيوان
على قلب صديق النبى جميعهم ... ووجهتهم للواحد الديان
فدعنى صبيحى والحقائق عن غد ... وبلغ تحياتى الى إخوانى

محمد ماضى أبو العزائم

---

(١٩) هو الشيخ أحمد سعد العقاد من الفيوم ، وقد آخى الإمام بينه وبين الشيخ الصبيحى لصفات كثيرة جمعت بينهما ، وكان الإمام يقول عنهما : الصبيحى بالفيوم والعقاد بحبش .

(٢٠) يقصد أحمد سعد العقاد .

(٢١) كان غارقًا فى بحار التجليات ناسيًا كل مظاهر الدنيا حتى ضعفت صحته وقل طعامه ، ويطالبه الإمام بالتوسط فى كل شئ .

(٢٢) الوارث المحمدى .

(٢٣) الأفراد .

وخطاب آخر إلى بعض إخوانه وأحبابه يقول فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الظاهر الجلى لكل مصطنع وولى ، الباطن بكماله العلى ، فلا يدركه ملك روحانى ولا نبى ، قرب تنزلًا وعلا نزاهة آخرًا وأولًا ، فهو القريب الذى لا يحجبه عن عيون أهل محبته ظل الآثار فى الكائنات ، ولا جلى الأنوار فى الآيات ، والصلاة والسلام على حقيقة التعيين ، وسر التمكين قبل التلوين ، روح الحياة السارية فى العالم ، ﷺ وآله وبعد :

فمن محمد ماضى أبى العزائم إلى الأخ الذى هو أنا قصدًا أو ميولًا ، وسيرًا أو وصولًا ، وإلى الأخ المتحد بحقيقة الشوق علمًا ووجدًا ، مطلقًا وحدًا ، ذى النفس الصافية التى جذبت عوالم الهيكل الإنسانى مع ما فطر عليه ، وجُبل للمشاهد الملكوتية والتخلق بأخلاق الروحانيين [٢٤]... واجهه الله بوجهه الجميل مواجهة يجمله بها بحلل قوله تعالى : ﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾[٢٥].

السلام عليكم وعلى أهل الوفاء والصفاء ، وعلى رجل الفضيلة المحب الشيخ موسى غازى ، وعلى المقبل على الله بقلبه وقالبه السيد حسانين محمد نجم ، وعلى البار بوالديه الشيخ سيد نجم .

تناولت كتابكم الذى سرت منه روح الشوق وروح الأنس ، فذكرت الله على ما تفضل به من شوق ينطق وأنس ينمو به الهيمان ، ولا غرابة فقد صاغ الله نفسك من جواهر نفوس المقربين ، وصفى عناصر هيكلك الإنسانى من مقتضيات الميل إلى أسفل أو سافلين ، قال تعالى : ﴿ الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾[٢٦] فلله الحمد والشكر على أن جعل لى أخًا مثلك هو أنا إلا أنه شخص آخر .

وهنا أحب أن يكون للأستاذ مواجهة خاصة ، إن لم تكن بكل الحقائق الإنسانية فبلطائف القلب ، وتلك المعانى تنبعث منها نفثات الشوق إلى الله تعالى فتسرى فى قلوب أهلت ، وتشرق فى آفاق هياكل طهرت ، فيسرنى وحقك أن يكون لأهل الأفق الذى أنت به نور إشراق يعمهم ، أو وميض شروق يسرهم ، حتى تنجذب تلك القلوب إلى علام الغيوب ، وتسكن تلك النفوس إلى الملك القدوس ، وذلك يا أخى أيدنى الله وإياك

---

(٢٤) لم يشر عند النشر إلى اسم الذى وجه الإمام الخطاب إليه .

(٢٥) سورة البقرة آية ١١٥ .

(٢٦) سورة البقرة آية ٢٥٧ .

بروحانية رسول الله ﷺ هو الطهور الذى يسقيه الرب عز وجل فى مقام الصفا بعد الوفا ، والأنس بعد الخوف ، ومواجهة المعروف بعد العرفان ، والفناء عن المواجهة بالمواجه جل جلاله ، قال الله تعالى : ﴿ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا﴾(٢٧)، جعلك الله يا أخى ممن منحهم أعظم قسط وأوفر حظ من الحكمة حتى يفرح بنا رسول الله ﷺ فى هذا الزمان .

هذا وإنى يسرنى أن تجعل لى حظًا من المحبة فى قلب من يسرنى أن يكونوا أنجمًا مشرقة فى أفق الدلالة والوصول ، وأقبل منى توجه قلبى وصالح دعائى وشوقى ، إلى أن يكون بعينى رأسى قسط من الأنس بك ، والله أسأل أن يجعل إظهاره إيانا ظهورًا له بالفناء عنا به ، وبقاء لنا به ، حتى يكون هو الظاهر الذى يستر ظاهره الظهور والمظاهر .. آمين .

محمد ماضى أبو العزائم

وكان يوجه النصح فى خطاباته إلى الإخوان فيقول على نظام الحِكم :

نور المواجهة فضل من الله تعالى ، إذا أشرف أشهد الخلق غيب من منه النور ، فجاهد نفسك أن تكون بفضل الله صورة لحضرة الحبيب ﷺ بأن تجاهد كل عضو أن يتشبه به ، حتى كأنه يكون مواجهًا لك ويكون الحق معالم بين عينيك .

ليس كل أخ فى الطريق معك فى منزلتك لأنهم درجات ، فعلى المريد أن يصطفى له من إخوانه أخًا يعلو بمجالسته حاله ، وتزكو بمخاطبته نفسه ، ويعامل جميع إخوانه بحسب مراتبهم ليكون روحًا لهم معينة على ما هم فيه ، فيمتدح المبتدئ على حسن عمله ، والسالك على جميل خلقه ، والواصل على علىّ حاله ، ويتنزل لكل أخ بقدره حتى تألف القلوب وتنشرح الصدور بتألف الجسد كاملًا لكل عضو منه وظيفة يقوم بها ، وبذلك تدوم الألفة وتزداد المحبة ويطيب لكل وقته ويصفو حاله ويطمئن قلبه(٢٨) .

وخطاب آخر :

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الأحد الصمد ، حمدًا من حضرة الذات للذات ،

(٢٧) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

(٢٨) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٣٠ ص ٣٢ (١٣ محرم ١٣٥٦ الموافق ٢٦ مارس ١٩٣٧) .

ومن حضرة الأسماء والصفات لحضرة الذات ، إذ لا يقدر حق الله إلا الله ، سبحانه .. نعمه لا تحصى وتفضلاته لا تستقصى ، سبحانه وتعالى عما يصفه الواصفون وعما يتخيله المتفكرون ، ظهر سبحانه وهو الباطن ، فكان ظهوره هو عين البطون ، شئونه دلت على كمالاته العلية ، وآياته دلت على كبريائه وعظيم جلاله ، لا تدركه الأبصار ولا تحيزه البصائر ، تقرب لمن أحبهم بلوامع سنا الأنوار القدسية وهو القريب ، فهيم قلوبهم وتيم أرواحهم ، فهم بجماله مهيمون وبشرابه غابوا عن الآثار لما ظهرت أسرارها ، وهاموا فى الآفاق عندما أشرقت أنوارها فتبين لهم الحق ووضحت سبله ، وظهرت لهم سر الخلوة ، وفكت طلاسمه حتى تميزت الحضرتان وظهر الرشاد بعد الغى ، أرادهم فوفقهم ، وأحبهم فمكنهم ، ونظروا إليه فآنسهم ، فهم أهله وأحبابه المقربون للوقوف على أبوابه ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة﴾[٢٩] .

والصلاة والسلام على سر الظهور ونور البطون ، الكوكب الدرى الساطع نوره المضئ على العوالم كلها ، زيت المكانة المحمدية ، السيد الأكمل والحبيب الأكرم سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وورثته وسلم .

ولدى .. للروح حضرة إطلاق بالوسعة الروحانية ، وفى الحضرة التى بها الاستشراف على عوالم الملكوت ، والتمتع بالنظر لحضرات الأفق الأعلى ، والتنعم برياض الأنس وأسرار التجليات فى لحظات الجلوات .

ولست وإن كنت بعيدًا بهذا الجسد عن كشف ما بك من الوجد الصادق - وبقدر صفاء لطيفتك - تود بنور الشوق وحالًا بالتلذذ بذكر المحبوب وتارة بالإقبال بالمجاهدة ، فكن على ما أنت عليه ، فليس كل ذلك لغيرك ، والله سبحانه إذا أحب عبدًا جمع همه فى واحد حتى يترقى إلى أن يفنى فى الواحد ويتدلى عبدًا للأحد سبحانه .

ولدى .. الشوق معراجهم ، والصدق براقهم ، والإخلاص حصنهم ، ويقظة القلب منهم إذا كانت فيهم ، فاجعل الحق سبحانه معبودًا لك لا تشرك به شيئًا ، والحبيب الأكبر مقصودًا ، وأحب فيه من يقربك إليه .

ولدى .. إن للقلوب أبوابًا للخير يفتحها الله فتتلقى بملك الإلهام .

يا ولدى .. داوم الحضور بقلبك ، واجعل الدنيا وأهلها ومن يشغلك كنعل يقيك الأقذار تستعمله عند اللزوم لهذا الغرض ، وكن مع إخوانك كأنك مع نفسك إلا ما يأمرك الله بحفظه عن غيرك ، واصحب من يقوى حالك ويزيد رغبتك ، وإياك وأهل

---

(٢٩) سورة الأنبياء آية ١٠٣ .

الحظ الذين حجبهم الله بأهوائهم وأبعدهم عن أن يشهدهم أسراره ، واكتم مجدك واحفظ أسرارك عن أهل الضلال المحجوبين تكن من الفائزين ، وتقبل دعواتى الصالحة .

محمد ماضى أبو العزائم

٧ - الحكم العزمية :

من خوالد حكم الإمام أبى العزائم تلك الحكم التى سكنت قلوب المؤمنين ، وغدت لعشاق البيان إمامًا وهاديًا ، وصدق الله تعالى إذ يقول : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرًا كثيرًا ﴾[٣٠] فتجده بروحانيته ينقل تقوى قلبه إلى قلبك ، وترى نور الإيمان يترك فى قلبك آثارًا ، وعطايا الحق سبحانه تتوالى عليك مدرارًا .

وعن الحكيم يقول رضى الله عنه :

الذى أوتى الحكمة الروحانية وأدرك حقائق العلوم الربانية ، إنسان وسط متمكن ، أمكن من جميع العلوم الكونية وغيرها تمكنًا جعله يداوى كل وارد بدواء يناسبه حتى يكون مألوفًا لكل إنسان ، وسطًا لم يتطرف عن الجادة السمحاء .

ويتحدث رضى الله عنه عن الحكمة فيقول :

ليس المراد من الحكمة عبارات متسعة المبانى بالغة حدها فى سمو اللفظ وانتظام التركيب ، ومراعاة مقتضى الحال المكتسب من مزاولة علوم الفلسفة والمنطق والرياضيات ، واستعمال النظائر والقضايا والأقيسة والأشكال والنكات البلاغية ، فإن هذا بعيد عن الحكمة بمراحل ، لأنا نرى كثيرًا من الكفار وأهل المعاصى لهم اللسان المعبر والقلم المبين بحالة تحير العقول ، وقد جعل الله حظهم منه لسانهم وحرمهم من نور الحضور معه ولذة الاستمداد منه .

ويقول أيضًا : الحكمة الإلهية لا تكون بالمدارسة والاكتساب العلمى ، لأن الاكتساب العلمى كالتجربة التى يكون الحكم بها ظنيًا ، ولكن الحكمة أن يكشف الله للعبد المراد ، مراده من كل شئ أنزله أو خلقه ، حتى يعبر هذا الحكيم عن حقيقة ما انكشف له انكشافًا حقيقيًا ، فتكون حكمته حكمة يقين صادق ، ولكن تتفاوت النفوس فى الانتفاع بالحكمة : فمن النفوس نفوس الصديقين الذين يشم أحدهم ريح الحكمة تطيب نفوسهم

---

(٣٠) سورة البقرة آية ٢٦٩ .

وتطمئن قلوبهم ، ولا يجعلون لها كفؤا يشغلهم عنها ، وهؤلاء هم الذين سبقت لهم الحسنى ، ويلحقهم فى هذا أهل النفوس التى تطهرت وتصفت بالجهاد الصادق ، وأما نفوس أهل البعد فإذا قابلت الحكمة صرفتها بغير ما قصد بها من العلم والعمل ، ونوال الحظوة لدى الحق سبحانه وتعالى والتخلق بأخلاق الملائكة المقربين والأنبياء المرسلين .

وقد افتتح الإمام رضى الله عنه كتاب « شراب الأرواح » بمجموعة من الحكم الغالية والدرر النفيسة ، نذكر منها :

□ نسب إليك الأعمال عندما شهدت نفسك فى أوج الكمال ، وقيدك بالتكاليف لتعلم أن هذا الشهود مخيف ، زينك بجميل الصفات لتنكشف لك بها الآيات ، أنبأك ببيناته لتتدبر فى أسرار آياته ، وعدك وأوعدك ليقربك ويبعدك ، جعلك خليفة فى الأرض لتحظى بخطابه يوم العرض ، فتح لك باب الرحمة والقبول ليسهل عليك الوصول ، وشدد عليك الحساب ليهديك إلى الصواب ، فأنت مطلوب لحضرته ومقاد بعوامل حكمته ، إنما يخفى عند شهودك وإثبات وجودك ، ويظهر عند فقدان أنيتك وانعدام غيريتك ، جعلك أشد العوالم احتياجًا إليه ليدلك على التوكل عليه . أوجد لك فى معظم أعمالك غير مرادك لتعلم أنه المريد المختار لجميع ذلك ، ولينبهك إلى تفويض الأمور لإرادته ، وتسليم ما لك لمشيئته ، إنما حجبك عن شهود أنك لست منه ، وأظهره لك تحققك بأصلك .

□ ليس كل إقبال موجبًا للقبول ، ولا كل من تمسك بالصالحات مؤدٍّ إلى الوصول ، وإنما تصل إلى مولاك بنسبك ، وتقبل لديه بأخلاقه التى تتجمل بها ، فنسبك له عبد مفتقر مضطر ، ونسبته إليك رب ممدك بالإيجاد والإمداد . ليس الوصول تلذذًا بالأعمال وتجملًا بالأحوال ، إنما الوصول معرفتك نفسك وعلمك مرتبتك ، وتحققك بفاقتك واضطرارك له ، فكم عامل بالكتاب والسنة هو أشر على المسلمين من الجِنة ، وكم من متظاهر بزى المساكين وهو أضر عليهم من الشياطين ، فجمل باطنك لمولاك يدوم لك رقيك وعلاك . متى تتجمل بالعبودية وأنت ترى نفسك خيرًا من سواك ؟ أو أولى بفضل مولاك ؟ عجبًا لك !! أوتقسم رحمة ربك ؟ ﴿إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء﴾(٣١).

□ المقبلون كثيرون والمقبولون قليلون ، وعلامات الإقبال تفريد الحق بالقصد دون غيره ، ومن لم يتمرن على التفريد فى بدايته قلّ أن يفرده فى نهايته ، وفاتحة التفريد تفريد

---

(٣١) سورة آل عمران آية ٧٣ .

المرشد بالقصد بأن يجعل كل شئ وسيلة ليدخل فى قلبه ليفوز بحبه . بين أهل الصفا وأهل الوفا برزخ المجاهدة ، فأهل الوفا يجاهدون أنفسهم ليتكملوا ، وأهل الصفا يجاهدون أرواحهم لترحم بقية قواهم ، فأهل الوفا يجاهدون العدو ، وأهل الصفا يجاهدون الحبيب ، فالمجاهدة لا بد منها . إذا أقبل عليك فرغ قلبك له ، فإن التفتَّ إلى غيره أدّبك فيه ، واحذر أن تلتفت - ولا إلى كن - فإن الحبيب غيور وأنواره سفور ، والالتفات إلى سواه غرور .. أعاذنا الله بوجهه الكريم من الالتفات إلى غيره آمين .

□ طلبك له عين طلبه لك ، ولولا طلبه لك ما طلبته ، فأنت مطلوب به ومطلوب له ، ولا أثر لك فى طلبك له ، إنما أنت به مطلوب وبه طالب ، وإلا فمن وفق الطالبين حتى يطلبوا ؟ وهل للطالب فعل أو أثر حتى ينسب الطلب لنفسه ؟ حاشا .. إنما ينسب الطلب لنفسه من لم يوحد مطلوبه ، والواصل لا يشهد غيرًا ، ولا تميل نفسه إلى سوى ، فهو فانٍ به فيه عن شهود الأعمال والعبادات ، ومتى شهد لنفسه عملًا وتيقن أنه طالب له بعبادته وبطاعته فهو محجوب عن الحقائق الإلهية ، وإلا فمتى يوحد من شهد نفسه أو أثبت له عملًا وليس فى الكون أثر لغيره : ﴿وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه﴾[٣٢] . فالوصول هو إضافة الأعمال والآثار والمظاهر كلها إلى الواحد المنزه عن الشريك والمعين ، حتى يغنى عن المشاهدات والمشهودات ، والنسبة إلى نفسه ، والنظر إلى إضافة الأعمال والتوفيقات إلى نفسه ، أو إلى غير الواحد الأحد ، تنزه عن أن ينسب إليه ما لا يليق بجنابه السامى من التبجيل والتعظيم ، وتقدس عن أن تكون نعمته معللة بسبب ، مرتبطة بعمل ، وهو المعطى الوهاب : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون﴾[٣٣] .

□ إذا حججت قلبه لترى آثار أنبيائه ، فكن فى مقام خليله جسمًا أو روحًا ثم حج بقلبك لترى آثار ربك ، وليس من هاجر ليرى آثار الأنبياء كمن ساح ليرى آثار الرب جل وعلا : ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله﴾[٣٤] . زن نفسك بقدر نيتك لا بقدر عملك ، فإن الأعمال لا توزن عند الله ، وإنما توزن القصود والهمم ، واعلم أن أعمال القلوب وارد علام الغيوب ، وأعمال الجوارح قد تكون لداعى الحظ أو لباعث الشهود ، وهمّ آل العزائم القبول ، وإنما الإقبال سبب لا علة ، وكم من مدبر مقبول ، وكم من مقبل

---

(٣٢) سورة الزمر آية ٦٧ .

(٣٣) سورة يس آية ٨٢ .

(٣٤) سورة النحل آية ٥٣ .

مفصول ، حكم الأزل منفذ أبدًا وإن تغيرت مقتضياته ، فإذا شهدت سر القدر حفظك الله من الحد ، وإنما الإقبال إقبال القلوب ، وإنما الجوارح آلاتها ، والشأن كل الشأن تصحيح النية ، ومعراج الأعمال الإخلاص ، وكمال الإخلاص الفناء عنه مع التحقق به .

□ كن واجدًا لا متكلفًا ، وعارفًا لا متعرفًا ، فإن التكليف سير والسير غير ، والوجد قربة تثبت حبه ، والتعرف سلوك ، والعارف واصل ، وبين المتعرف والعارف كما بين السالك وملك الملوك ، فاعط لكل مقام حقه حتى يرفعك الله فوقه [٣٥] ، فتفوز بالرقى وتحظى بالمنزل الصديقى ، قال تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ﴾[٣٦]، وقال تعالى : ﴿ إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ﴾[٣٧]، وقال تعالى : ﴿ إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ﴾[٣٨] . وشتان يا أخى بين من هداه لسبيله ، ومن هو معه ، ومن جعله عنده .

وهذه بعض الحكم القصيرة :

□ لابد للإنسان من اثنين للرقى : قلب مخلص ، وجسم مقتد برسول الله ﷺ .

□ من أعطى الكل أخذ الكل .

□ من دلك على الدنيا قطعك ، ومن دلك على الآخرة حجبك ، ومن دلك على العمل أتعبك ، ومن دلك على الله أراحك .

□ ليس الرجل من جعل الحجر ذهبًا ، إنما الرجل من جعل البعيد قريبًا من الله .

□ إنما ميزان الرجال بأخلاقهم .

□ من شغلته الشمائل عن الذات أحاطت به البليات .

□ أصل المحبة المعرفة ، وأصل الطاعة التصديق ، وأصل الخوف المراقبة ، وأصل المعاصى طول الأمل ، وحب الرياسة أصل كل موبقة .

□ علم بلا عمل وبال ، وعمل بلا علم ضلال .

وقام خلفاء الإمام رضى الله عنه بجمع الكثير من هذه الحكم فى كتاب خاص تم طبعه

---

(٣٥) أى فوق المقام .

(٣٦) سورة العنكبوت آية ٦٩ .

(٣٧) سورة النحل آية ١٢٨ .

(٣٨) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .

وفيه من الحكم العزمية الكثير.

٨ - القصص :

قص الإمام على مريديه قصصًا كثيرة كان يعالج بها أمورًا شتى هى قضايا الساعة فيها العلاج وفيها الشفاء، ويمكن تأويل كل قصة منها على معانٍ شتى، ففيها العبارة وفيها الإشارة وفيها الرمز، ولا تزال الأحداث فى كل جيل مر ويمر بنا تحتاج إلى الأخذ بعبرتها.

ويصور لنا الإمام محادثة بين الدين وإبليس ليصور لنا الواقع الذى كانت تعيشه مصر فى عصره من حيث إباحة البغاء رسميًا بأمر الدولة، ووقوف العلماء على باب السلاطين، وشرب الخمر وانتشار الربا، وأمثلة أخرى، وذلك بأسلوب مؤثر يأخذ بالألباب، ثم يضع رضى الله عنه سبيل العلاج، فيقول مفتتحًا مقالته تحت عنوان (محادثة الدين)[٣٩]:

مضى الدين فلقى إبليس فقال له إبليس: مر معى حتى أريك أعمالى، فإنى أفرغت جهدى فيما يشفى آلامى. ومر الدين معه فوجد جنوده فى استعداد تام كأنهم فى ميدان القتال، وقال إبليس للدين: سلهم عن عملهم، فدنا الدين وسأل الجند: ما عملكم؟ فقال جندى له: نحن حرس على النساء الفواحش حتى يأمنَّ على أنفسهنَّ من أذية أقاربهنَّ، ويأمن الزانى على نفسه من المتعصبين الذين ليسوا عصريين. فقال له الدين: يا بنى، أنت أزلتَ الكفر بسيفك، ومحوت الظلم برمحك، وأزلت الرذائل بشجاعتك، وأقمت حدود الله بغيرتك، ودفعت الباطل ليظهر الحق.. ما لى أراك وقفتَ بعد أن كنتَ على ثغر تحمى الأمة من أعدائها أو فى ميدان لتفتح مملكة للإسلام أو ممتطيًا جوادك لصد أعداء الله المهاجمين!! بلغ بك الذل أن تقف بسيفك ورمحك لتحفظ باغية وتحرس زانية، أين تلك الغيرة الإسلامية؟ وأين هذا الدم الإيمانى الحار؟ وأين الأنفة والعزة التى كانت للمؤمنين؟ أترضى أن يكون سيفك لمحو الحق وظهور الباطل؟.. فنظر له إبليس وقال له: إنى فتحت عليهم باب تقليد أعداء الله وأعداء رسول الله فاستحسنوا أعمالهم ونسوا ما كان عليه سلفهم الصالح ليغضب الله عليهم فأكون قد انتقمت لنفسى منهم.

ومر الدين فوجد رجلًا مجملًا بزى النساك وحواليه رجال، فقال إبليس للدين: سله،

---

(٣٩) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٢ ص ١١ (٢٠ جمادى الآخرة ١٣٥٦ الموافق ٢٧ أغسطس ١٩٣٧).

فسأله إلى أين أنت متوجه ؟ فقال : دعانى وزير كبير فعلمتُ أنها السعادة فأسرعتُ إليه لأنال الحظوة لديه وأنفذ به أغراضى وأنتقم به من أعدائى ، فنظر إليه الدين وقال : أنت موسوم بسمة العلم والتنسك ، وأنت السراج الذى يستضيء بك العامة ، والإمام الذى يقتدى بك الخاصة ، وقد صرَّح القرآنُ بأن لا نتخذ لنا وليًا إلا من المؤمنين ، وأمرنا ألا نوالى أعداء الله تعالى ولا نسارع فيهم ، وقد نهانا ﷺ عن الوقوف على أبواب الملوك من خلفاء المسلمين ، وقد كنتَ فيما سبق تَعْظُم نفسُكَ عليك أن تزور أمير المؤمنين ، وأخبار فضيل بن عياض ومالك بن أنس وغيرهما برهان ، فكيف رضيت بولاية أعداء الله وموالاتهم ؟ أترضى أن تحمل أوزارك وأوزار من يقتدون بك إلى يوم القيامة ؟ هذا عمل من نسى الآخرة ونسى ذكر الله فأنساه نفسه ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[٤٠] ؟ ما الذى حدث ؟ أأنزل قرآن نسخ ما أنزل الله على حبيبه ومصطفاه ﷺ ؟ أو بُعِثَ رسول بعد خاتم الأنبياء ؟ إنى لأعجب من أن أرى رجلًا عليه سيما النساك ولبسة العلماء يسارع إلى الوقوف على أبواب من نهانا الله عن موالاتهم واتخاذهم أولياء . فنظر إليه إبليس وقال : لقد أفرغتُ جهدى حتى أفسدتُ قلوبَ العلماء والنساك وأبدلتُ محبة الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة بمحبة المال والنساء والسيادة ، وأبدلت من قلوبهم محبة القرآن والسنة بتقليد أعداء الله والرأى والهوى ، وهذا الناسك العالم الذى تراه ناهز السبعين من عمره وسافر أقصى الأرض ولم يحج إلى بيت الله ظاهره ظاهر الناسك ولباسه لباس العلماء والقطوب قلوب الشياطين ، فقال الدين لإبليس : كل ذلك بسعيك ؟ قال : إنى طلبت من الله تعالى أن يُنظِرَنى إلى يوم يبعثون ، وأن أقعدَ لهم الصراط المستقيم حتى لا يَجِدُ أكثرهم شاكرين .

ثم مر الدين مع إبليس فرأى رجلًا حوله الشرطة ، فقال إبليس : سله ، فقال ما ذنبك ؟ قال : شربتُ خمرًا بعشرة دنانير فنما المال علىّ بالربا حتى صار مائة دينار ، ورُفِعَ الأمرُ فحكم علىّ القاضى بسجن سنة لأنى غررتُ بصاحب المال ، فعجب الدين وبكى بكاءً شديدًا وقال : مسلمٌ يشربُ الخمرَ ويستعملُ الربا ويقضى عليه فى بلاد المسلمين ؟ ثم سأله : ومن الذى قضى عليك بهذا ؟ فقال : كافر بالله تعالى ، فقال الدين : كافر يجلس على كرسى القضاء فى بلاد المسلمين ؟ فضحك إبليس وتمايل عجبًا وقال : لتعلمَ مقدارَ [illegible] إلى وجهة الدعاء قائلًا : اللهم يا من أنت الله الذى لا إله إلا أنت ، يا من وعدك الحق ودينك الحق ، أسألك أن تأتى بقوم تحبهم ويحبونك تذل بهم إبليس

(٤٠) سورة المائدة آية ٥١ .

وجنوده، كما قلتَ سبحانكَ ﴿إن كيد الشيطان كان ضعيفًا﴾[٤١]، يا من قلتَ ﴿إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى﴾[٤٢]، أغث دينك وأظهره بإحسانك.

ثم انصرف الدين فجذبه إبليس وقال: سر معى حتى ترى القضاة فى محاكمهم وبم يحكمون، والعلماء فى معاهدهم وبم يعلمون، والتجار فى حوانيتهم وبم يتعاملون، والنساء متبرجات وكيف يغازلن الرجال متفضحات، ثم تنظر إلى المساجد زخرفت بالفراش والرياش وأغلقت أبوابها، فبكى الدين وتخلص منه مبتهلًا إلى الله ضارعًا متوسلًا برسول الله، فلباه الله وأجابه ﴿سيجعل الله بعد عسر يسرا﴾[٤٣].

ويضرب الإمام أمثالًا فى أسلوب شيق يعطى أمثلة فى صورة قصصية جميلة حتى لا تنسى، وهذه قصة منها قالها رضى الله عنه **فى درس من دروسه:**

أراد رجل من أهل العراق أن يحج، فركب البحر مع رفقة له قاموا بالخدمة طيلة أيام سفره. ولما أوغل فى الإقيانوس[٤٤] الهندى عصفت الريح بالسفين، فلم تبق عليها شيئًا، وضل الربان الطريق، وتجهم الزمان واكفهر جو المكان وتلبدت الغيوم، فارتطمت السفين بالصخور، فغرقت السفين وهلك كل من فيها إلا هذا العراقى الذى كانت له دراية فى السباحة وقدرة على مقاومة الموج بالصبر الجميل.

وقذفته أمواج البحر العجاج اللجاج على شاطئ جزيرة وجد عليه أقوامًا فرحين مهللين مكبرين، ثم جاءوا معهم بالطبول والمزامير والعيش الكثير والهوادج ذات الأثاث الوثير.

خرج الرجل من البحر عريانًا فلا رداء عليه وجوعانًا لا يقوى على المشى، فما أسرع أن ألبسوه قميصًا مُوَشى بالذهب الإبريز وجُبّة فى أحسن تطريز، وجئ بأخزنة من الطعام عليها ما لذ وطاب، فأكل وشرب ونام، فاستيقظ والقوم بين تهليل وتكبير وفرح ومرح ما له من مزيد، حتى كان اليوم السابع لقدومه عليهم فتجمع حوله القوم وألبسوه تاجًا مُوشى بأغلى الجواهر الحسان واللآلى فوق الجمان، ونادوا به ملكًا على هذه الجزيرة، الأمر الذى كان لا يحلم به فى سالف العصر والزمان.

---

(٤١) سورة النساء آية ٧٦ .

(٤٢) سورة طه آية ١٤ .

(٤٣) سورة الطلاق آية ٧ .

(٤٤) أى المحيط الهندى .

وفكر الرجل وقدّر فيما آتاه الله من هذا الحظ الكثير والملك الكبير، فاستوزر لديه بعض الحكماء من رجالات القوم المعدود برأيهم بعد أن مكث طويلًا فى تعلم لغتهم، فلما تم له تعلم هذا اللسان، وأمكنه أن يخاطبهم بما فى الجنان، جمعهم ذات يوم وسألهم عن هذا الحال الذى لاقاه والحظ الذى وافاه وهم يكتمون عنه أمرهم فيه وحرصهم على أن يوافيه، ولكن لما تودد إليهم ووجدوا أنه فضله دائمًا واصل إليهم، وأنه أغرقهم بنعماه، واستطابوا العيش معه قالوا له: أيها الملك العزيز والذهب الإبريز، إننا كل عام نقود ملك هذه الجزيرة إلى الهاوية، قال: وما الهاوية؟ قالوا: بئر أعددناه لأمثالك سحيقة القاع سيئة المتاع بها فى كل مكان منها شواظ من الصلب مسنونة، إذا هوى فيها إنسان لا يصل إلى القاع حتى يتبعثر جسمه فى كل مكان، ثم بعد أن نفرغ من هذا العمل الوبيل نسرع إلى الشاطئ فى فرح ومرح لنستقبل من يلقيه البحر إلينا ليكون ذلك الملك الجليل.

فلما أخبروه الخبر، وأراد أن يكون منه على حذر، قال لهم: وكيف إذن المفر؟ فقال له أكبرهم سنًا، وأعظمهم قدرًا: أرى أنه إذا طابت نفس المليك للبقاء مما عليه إلا أن يأمر بإصلاح هذه البلقاء، قال: وما هذه البلقاء؟ قال: جزيرة تبعد عنا مسيرة يومين، فليعمرها ويستثمرها فتكون له مأوى أمين، وحصن حصين بعيدًا عن غوغاء هذه الجزيرة، وهوجاء هذه الفئة الشريرة التى لا تعرف قدر الملوك.

وصحت عزيمة هذا الملك على استصلاح هذه الجزيرة، فأرسل إليها العمال والبناة فشيدوا له قصرًا عظيمًا، وأرصد لهذا العمل الجليل أموال الدولة، فما أن قرب انتهاء العام حتى هرول إلى هذه الجزيرة فالفاها جنة عالية قطوفها دانية تجرى من تحتها الأنهار تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها العزيز الغفار.

ثم قال الإمام رضى الله عنه: فمن يكون إذًا هذا الإنسان؟؟ وبماذا ينطق هذا المثل يا أهل العرفان؟؟. قال رضى الله عنه بعد أن سكت الجميع:

إن هذا المثل يصور لكم حياة الإنسان فى دائرة هذا الإمكان، فالسفينة: بطن الأم، وتحطيمها على الشاطئ: حالة الوضع، والملك: المولود الجديد، ألا ترى النساء يزغردن ويضربن بالدفوف والرجال من ورائهن يرقبون البشرى وعلى قدم الاشتياق إلى سماعها فى صفوف، ثم يخرج الطفل عريانًا فيكسونه بكل نفيس وغالٍ ويطعمونه أشهى ما يكون من الرزق الحلال، ثم ما زالوا يكرمونه حتى يبلغ الرشد ويتم له حسن الحال، فإن كان شريرًا ألقته ذنوبه وآثامه فى الهاوية، وإن شب مفطورًا على الخير أنجاه الله من

هذه الداهية فعمر آخرته بعمل صالح فى دنياه ليطيب له العيش فيها !! ولا ينفك طول وقته ذاكرًا شاكرًا لله الذى لا يسأله غير رضاه وحسن لقاه [٤٥].

وقصة أخرى على شكل مناظرة تبين حقيقة العلم :[٤٦]

جاهد طالب نفسه جهادًا أكبر لينال بغيته من العلم ، فتحصل على ما مالت نفسه إليه ، وناظر شيوخه وأساتذته حتى ظهرت له المساواة . وكان يعتقد أن أهل العلم لهم درجة عالية بنص قوله سبحانه : ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾[٤٧] ، فلم يجد له درجة لنفسه فوق ما كان عليه قبل التعلم ، ووجد الذى كان عليه فى دار أبيه من الصلاة والصيام والزكاة لم يزد وربما حصل التساهل فى تأديتها ، فعجب وقال ما الذى اكتسبته من التعلم ؟ وابتهل إلى الله تعالى أن يكشف له الستار عن الحقيقة وأن يبين له أقرب الطرق الموصلة إليه وأصفى الموارد المقربة منه سبحانه وتعالى ، وجلس متوجهًا إلى الله بقلبه .

وفى هذا التوجه حضر قلبه فرأى أنه فى مجتمع من أهل الصفا رمع الله تعالى وكأنهم فى مجلس علم ، وكأن العلم يبين لهم حقيقته ، فأصغى بأذن قلبه متجردًا من هيكله الإنسانى ولوازمه ، مقبلًا بكليته على التلقى ، فسمع العلم يقول :

إنما يُحتاجُ إلىَّ عند غيبة الحقيقة لأرسمها على جوهرة النفس بمقدار قابلية النفوس لا بقدر الحقيقة على ما هى عليه . فإذا صفا جوهر النفس ورسمت عليه صورة الحقيقة ، تاقت النفس إلى جلية الأمر وكليته ، فارتقت من العلم إلى الذوق ومن الذوق إلى الشهود وَجْدًا ، ومن الشهود إلى العيان وُجُودًا .

ومن تلقى العلم ، فظن أنه بلغ الغاية بالعلم ، حرم الرعاية وهى العمل بالعلم ، فإن كمال العلم العمل به ، لأن العمل به دليل على حصول علم الرعاية للعالم ، ومن حرم الرعاية حرم العلم أى لازمه . وأنا وإن كنتُ مَقصِدًا عظيمًا لمن رغبوا فى السعادة ، إلا أنى بعد تحصيلى أكون وسيلة لمقصد عظيم . وكل علم لم يكن معلومُهُ اللهَ ورسولَهُ فهو فى غايته تحصيل ما به حفظ الصحة وبقاء الحياة فى كون الفساد .

سأله أحد أهل الصفا الجالسين قائلًا : يا أخى ولو نال علم أحكام الله تعالى ؟ قال :

---

(٤٥) مجلة (المدينة المنورة) السنة ١٠ العدد ٤٤ (٢٣ جمادى الأولى ١٣٥٧ هـ الموافق ١٩٣٨/٧/٢ م) .

(٤٦) مجلة (المدينة المنورة) السنة ١٠ العدد ٦ (١٨ رجب ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩٣٧/٩/٢٤ م) .

(٤٧) سورة المجادلة آية ١١ .

نعم، فإن من تعلم الأحكام قبل العلم بالحاكم هلك وأهلك. انظر إلى العلماء من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يكرهون الولاية كسيدنا على بن أبى طالب عليه السلام حين ولاه رسول الله ﷺ المدينة فى غزوة تبوك، وكمعاذ بن جبل حين ولاه رسول الله ﷺ اليمن، حرصًا على دوام مواجهة رسول الله ﷺ، وكأبى حنيفة الذى ضرب على الولاية فأباها، وابن أبى ليلى وابن جريح ومالك بن أنس الذى ضرب وأوذى - رضى الله عنهم - وذلك لأنهم تعلموا الإيمان ثم تعلموا القرآن ثم الأحكام.

وسأله آخر قائلًا: يا سيدى، إن أكثر العلماء الآن يهتمون بتحصيل علم الأحكام والأخبار والأقاصيص، فقال: أما الذين يتعلمون الأخبار فإنهم أهل الشهرة لأنهم يحفظون الأحاديث باختلاف الروايات ويعلمون التجريح والتعديل حتى يكون لهم المنزلة العليا، وأما الذين يتعلمون الأقاصيص فهم الذين يحبون أن يكونوا شيوخًا على العامة لينالوا حظهم.

أما العلم الذى هو علم يطلبه أهل الصفا والوفا من خيرة عباد الله فهو: العلم بالله، والعلم بأيام الله، والعلم بآداب سلوك طريق الله تعالى، وهذا لا يقبل عليه إلا من سبقت لهم الحسنى من الله تعالى لأنها رعاية أزلية تجذب النفوس إلى ما خُلِقَتْ له، قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا وسبحوه بكرةً وأصيلا﴾[٤٨] وقال تعالى: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾[٤٩] وقال ﷺ: (اعملوا فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلق له)[٥٠]. وليس تحصيل الأحكام بعلم يقرب من الله تعالى، ولكنه يقرب من الملوك. ومن حصل العلم بالأحكام ولم يحصل العلم بالحاكم كان كمن لم يجعل الله لهم نورًا.

ولم تحصل التفرقة بين جماعة المسلمين والخلاف بينهم إلا ممن حصلوا العلم بالأحكام ولم يهبهم الله تعالى العلم به سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ﴾[٥١] - بأى علم؟ قال: العلماء بالله تعالى. ولكن العلماء بالأحكام لا خشية فى قلوبهم من الله تعالى، وكيف تكون فى قلوبهم الخشية وهم أسرع الناس منافسة فى الوظائف، والتقرب من الملوك والأمراء، والخوف من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ومجاراة أهل الأهواء لا للمداراة ولكن للمداهنة. ولو أن الخشية من الله تعالى فى قلوبهم لرخصت الدنيا فى أعينهم، بل رخصت دماؤهم غيرة للحق.

---

(٤٨) سورة الأحزاب آية ٤٢ .

(٤٩) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

(٥٠) البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى .

(٥١) سورة فاطر آية ٢٨ .

وإن نفسًا واحدًا فى تحصيل العلم بالله تعالى يقوى به اليقين قوة تُبْذلُ به الحياة العزيزة غيرة للحق كما فعل سحرة فرعون الذين قالوا له : ﴿ فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا ﴾(٥٢) بعد أن ظهر لهم آية من عجائب قدرة القادر سبحانه وتعالى . وهذا درس لم يتجاوز أنفاسًا ، كيف أنتجَ بذلَ الحياة محافظة على الأدب مع الله سبحانه وتعالى ؟ .

وقد فعل أكثر من ذلك أصحاب رسول الله ﷺ ، فقد عُذِّبَ بلال وياسر وزوجته وابنه عمار فى الله تعالى حتى قُتِلت أم عمار طعنًا بالحربة فى فرجها غيرة لرسول الله ﷺ أن تسمع فيه ما تكره ، ومات سيدنا ياسر وهو مولى من فادح العذاب وكان ينجيه أن يدارى قريشًا . وكم عُذبَ فى الله رجالٌ حتى فارقوا أوطانهم وأعراضهم وأموالهم ، وأبت خشية الله التى فى قلوبهم أن يداروا .

فإذا كان العلم بأحكام الله تعالى يُنتج الخشية من الله تعالى ، لما رضى العلماء أن يتنافسوا فى خدمة الملوك والأمراء على ما هم عليه من البدع المضلة والأهواء المضرة ، وكيف يرضى العالم الذى يخشى الله تعالى أن يشترى بآيات الله ثمنًا قليلًا ؟ ويبيع الآخرة بالدنيا ؟ ويرى معالم الله قد انتهكت وحدود الله قد عطلت وشعائر الله قد استُهين بها ؟ وهو متلذذ بطعام شهى وثوب بهى وفرش وطِى وخدم وحشم !! يداهن الأمراء ويرضيهم فى غضب الله تعالى ؟ وكيف يكون عالمًا من يجعل العلم آلة لجمع الدنيا أو يتعلم ليتولى رياسة أو ولاية ؟

(٥٢) سورة طه آية ٧٢ .

ثانيًا : التراث النظمى
(وهو ما يعرف بالمواجيد)

قال رضى الله عنه فى باب المنن التى منَّ الله سبحانه وتعالى بها عليه : (ومنها أنه سبحانه منَّ علىَّ بمواجيد عن عين اليقين فى علوم اليقين من غوامض علوم التوحيد وروح حكمة التشريع ، ومنَّ علىَّ سبحانه بالمعونة فى أن أبين تلك المواجيد بالعبارة وأضبطها بالكتابة ، ومنَّ علىَّ سبحانه بأن أنعم علىَّ بالمحبين له سبحانه ولرسوله ﷺ فتلقوا عنى تلك المواجيد .. وهم كثير مع قلتهم) .

وقال رضى الله عنه أيضًا مقدمًا لبعض مواجيده عند نشرها :

« إنى والحمد لله لما عرفت أن الله جل جلاله حاضر لا يغيب ، وظاهرٌ لا يُحْجَب ، ومُنَزهٌ عن الحد بالبصر فلا يُدرَك ، وأنه ظهر بأسمائه وصفاته وآياته فى كل كائناته .. تلمَّسْتُ غيبَهُ فى مكنوناته حتى انبلج لى سر الأسرار ونور الأنوار ، فأحببتُ أن أنفع إخوانى بما أودعه الله تعالى فى كونه وزمانه من سر عجيب وغيب غريب ، حتى يُنْتَفَعَ بتلك المواجيد من بعدى ، ممن ذاقوا حلاوة القرب من الله تعالى وصحبونى ، وتجعل القارئَ لها حاضرًا مع الله تعالى ذائقًا معانيها الروحانية مبتهلًا بقلبه وقالبه ، والله يحيى من يشاء بالعلم والذوق والشهود ويبارك لمن يشاء بالدعاء والابتهال والتضرع فى آنات الإجابة والقبول .. والله تعالى أسأل أن يمن علينا بالإنابة إليه والتوبة والرجوع له والوفاة على الإيمان ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم » .

وقد امتدت الدهشة إلى العلماء والباحثين فى أيامنا هذه فبحثت عقولهم ونقبت أقلامهم عن مواجيد الإمام أبى العزائم وما تميزت به عن غيرها نرى ذلك جليًّا فى تلك الدراسة التى قدمها الأستاذ/ سرى محمد حسن هاشم الشريف بعنوان : (آثار الإمام أبو العزائم الشعرية - دراسة فنية) للحصول على درجة الماجستير بقسم اللغة العربية - كلية الآداب جامعة سوهاج عام ١٩٩٢ م حيث يقول فى رسالته :

أولًا : إن مصادر القصائد عند الإمام أبى العزائم هى :

١ - القرآن الكريم ٢ - السنة الشريفة ٣ - المصدر الإلهامى والوجدانى

٤ - أحداث العصر وقضايا المجتمع ٥ - تجاربه الصوفية .

ويقول عن المصدر الأول :

إن من يطّلع على قصائد الإمام المجدد أبى العزائم يجد معظمها مقتبس من القرآن الكريم ، ومن يمعن النظر فى قصائده يجد أيضًا الكثير منها اعتمد اعتمادًا كليًا على كتاب الله سواء باقتباس بعض ألفاظه ، أو بالإشارة إلى معنى من المعانى الكريمة ، ثم يوضح أن سبب ذلك هو حرص الإمام على التمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ونزعته ونشأته الدينية والصوفية الخالصة وحفظه للقرآن الكريم منذ طفولته وعمله فى المجال الدينى ، ثم يضرب أمثلة من مواجيد الإمام ليؤكد ما يقول :

بين نفس وبين نفس شئون ... تتجلى حتى تراها العيون

ومع العسر إن تدبرت يسرًا ... ولدى الصبر كل كرب يهون

فهو بذلك يشير إلى قوله تعالى : ﴿فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا﴾[1] .

وقول الإمام المجدد :

الا بعتموا لله مالًا وانفسًا ... بمدلول ﴿إن الله﴾ والذكر ينطق

مشيرًا إلى قوله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة﴾[2] .

وقوله رضى الله عنه :

لن كان ذنبى عظيما ... فعفو ربى اعظم

مشيرًا إلى قوله تعالى : ﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا﴾[3] .

وقوله رضى الله عنه :

لم يلههم عن ربهم فقر ولا ... يشغلهم عنه غنى ورضاء

مشيرًا إلى قوله تعالى : ﴿رجال لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيع عن ذكر الله﴾[4] .

وغير ذلك كثير جدًا فى مواجيده رضى الله عنه مما لا يتسع المجال إلى ذكره .

---

(١) سورة الشرح آية ٥ ، ٦ .

(٢) سورة التوبة آية ١١١ .

(٣) سورة الزمر آية ٥٣ .

(٤) سورة النور آية ٣٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأما المصدر الثاني :

فقد يضمن الإمام مواجيده إشارة إلى الأحاديث النبوية ذاكرًا معناها أو ناصحًا بالتمسك بها . كقوله رضى الله عنه :

حديث صحيح قاله المصطفى لنا توسلت للرحمن منكسر القلب
(انا منه) برهان جلى لمؤمن (حسين نعم منى) يقينًا بلا ريب

مشيرًا إلى حديث المصطفى ﷺ : (حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا)(٥) .

وقوله رضى الله عنه ناصحًا لإخوانه بالتمسك بالسنة المحمدية :

الا سارعوا احيوا لسنة احمد ففتنة هذا العصر كالنار تحرق

وقوله رضى الله عنه :

من لدن آدم الى يوم عيسى وهو شمس ومصدر الأنوار
انت شمس للرسل منك تحلوا بالأيادى فى محكم الأسفار

مشيرًا إلى قوله ﷺ : (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)(٦) .

وقوله رضى الله عنه :

يا قلب حال الصفا تبدو معانيه تكون عرش استواء عن تجليه
تكون يا قلب معمورًا ومبتهجًا بما تنزل نورًا من اياديه

مشيرًا رضى الله عنه إلى قوله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)(٧) .

وأما المصدر الثالث وهو المصدر الإلهامى والوجدانى .. يقول الباحث :

كانت مشاعر الإمام المجدد ووجدانه مصدرًا هامًا لقصائده ومواجيده ، فعندما يسيطر على وجدانه الحب العميق لسيدنا رسول الله ﷺ ينشد قائلًا :

حبيب قلبى محمد بالحسن والنور مفرد

(٥) رواه الترمذى وابن ماجة والبخارى فى الأدب المفرد .

(٦) رواه أبو داود وابن ماجة وأحمد فى مسنده .

(٧) رواه مسلم وابن ماجة .

كلامه نور روحى ... منه العطا يتجدد
خذنى بكلى حبيبى ... الى المدينة أشهد
مولاى اسعد بوصلك ... حتى ارى نور احمد
انس مشوقًا بوصل ... عساه بالوصل يسعد

وهذا الفيض الإلهى يمثل كمًا هائلًا من المواجيد التى خلفها الإمام فى تراثه النظمى .

أما أحداث العصر وقضايا المجتمع :

فكانت هى الأخرى مصدرًا هامًا من مصادر قصائده رضى الله عنه حيث شارك الإمام المجدد فى أحداث عصره وقضايا مجتمعه وأدلى فيها بدلوه ، يقول الباحث وها هى أمثلة مختصرة توضح ذلك :

قول الإمام المجدد رضى الله عنه :

يا بريطانيا قد ظلمت ولكن ... شق ظلم العباد منك المرارة
يا فرنسا نشرت كفرًا وزورًا ... بين اهل التوحيد بئس التجارة
والقوى القهار امهل حتى ... احرق الكل من لهيب الشرارة
بشرق الشرق باتحاد وحب ... بين اهل التوحيد معنى الإشارة
يظهر الله دينه بإمام ... حقق الله بالقرآن انتصاره

فيشير فى هذه الأبيات إلى ظلم الاحتلال الأجنبى والدول المعادية للإسلام ثم يؤكد أن الله تعالى سوف ينصر دينه ويهلك الأعداء الظالمين .

وقد تضمن كتابه « الجفر » الكثير من هذه الأمثلة وكذلك ابتهالاته واستغاثاته النظمية فراجعها إن شئت .

أما عن تجارب الإمام الصوفية :

فيقول الباحث : إن قصائد الإمام المجدد تتسم بعدة سمات وهى :

أ - اختلاف هذه القصائد عن عامة الشعر ، فهى تعد بمثابة مواجيد نظمية وإلهامات عرفانية ، ولعل ذلك هو الذى جعل الدكتور مصطفى محمود يقول فى كتابه « السر الأعظم » : والإمام أبو العزائم يقول هذا الكلام عن علم كشفى لدنى ، وليس عن اجتهاد برأى .

ولذلك فلا تعد قصائده الصوفية شعرًا بل يعدها بمثابة خمر طهور، فنراه يقول :

ليس شعرًا ما قلت حال شهودى … بل هو الخمر يحتسى فى الوجود
راح قدس قصائد من قصود … وهى إشراق علمه التوحيدى
بينت قصد آلهٍ ومشوق … يسكر الروح فى خفاء الوجود
يحتسيها الأفراد حال صفاء … بعد نيل القبول حفظ العهود
اظهرت غيب العلوم عيانًا … تشهد الصب غامض التوحيد
مقتضى نشوتى بحال الست … حين واجهت وجهه فى سعود
توقظ النائمين منها بمعنى … تجذب الروح لا بكد الجهود
نور فضل يجلى الحقائق كشفًا … للمراد المحبوب سر المزيد
ليس شعرًا ما صيغ بل هو سر … لاح للعارفين بعد الشهود
بل هو الذكر تسبح الروح فيه … فى على الملكوت حال الورود
وهو ذكرى للمؤمنين حضورًا … يكشف الحجب للمحب المريد

ب - إن هذه القصائد جميعها إملائية ، فلقد كان الإمام المجدد يمليها على تلاميذه فنراه يقول :

عنى اسمعوا ما تعقلون من الكلام … فالعلم بالرحمن من صافى المدام
والعلم بالله العلى غوامض … لم يفقهن إلا الصب فى اصطلام
خذ ما صفا لك من إشارة عارف … فالعارفون كلامهم يشفى السقام

ونراه يقول:

خذوا من عباراتى بقدر مبانيها … وخلوا لأهل الذوق سر معانيها
ففيها من الأسرار ما ليس يكشفن … وقد خفيت أسرارها ومباديها
يذوق عباراتى مراد لحضرتى … ويشهد أسرارها فتى فنى فيها
وليس لسانى ناطقًا بعبارتى … ولكنها نور يفاض بباريها

ثانيًا : ويذكر الباحث أنه يمكن تقسيم قصائد الإمام المجدد من ناحية أحجامها إلى خمسة أنواع هى :

١ - الأبيات المتفرقة : مثل قول الإمام :

اما ومجلى كمال الذات فى القدس وعزة عظموت وسعة الكرسى
لو ان جرمى ضاق الكون اجمعه عنه لما ينست من عفوكم نفسى

٢ - المقطوعات القصيرة : ويتراوح حجمها بين ثلاثة أبيات إلى ستة أبيات ومن أمثلتها :

للطيف الخبير ارفع امرى وبه فى الوجود يرفع قدرى
كيف يرجو عبد من العبد عونا والكريم الحليم عونى وذخرى
ويقينى بالله اضحى قويًا بفؤادى وظاهرى وبسرى

٣ - القصائد القصيرة : ويتراوح عدد أبياتها بين سبعة إلى عشرين بيتًا وهذا أكثر قصائد الإمام .

٤ - القصائد المتوسطة : ويتراوح حجمها من عشرين بيتًا إلى أربعين ، ويأتى هذا الحجم فى المرتبة الثانية من حيث انتشاره فى قصائده .

٥ - القصائد الطويلة : والتى تزيد عن أربعين بيتًا وتصل إلى أكثر من مائة بيت وكان الإمام لا يميل إليها كثيرًا ومن أمثلتها قصيدة :

الهى بمجلى الذات سر الحقيقة وغيب التجلى من كنوز الهوية

ومثل قصيدة :

كن اضاءت بشمسها الواحدية عن معانى تقدست ازلية

ثالثًا : أما عن أغراض القصائد عند الإمام أبى العزائم رضى الله عنه **فيقول الباحث :**

إذا نظرنا إلى قصائد الإمام المجدد نجدها تنقسم إلى أغراض كثيرة هى : المدح ، والفخر ، والهجاء ، والرثاء ، والغزل ، والطبيعة ، والعتاب ، والشعر الوطنى .

أما المـدح :

لم يمدح الإمام فى قصائده حاكمًا أو وزيرًا أو صاحب سلطان أو جاه وانحصر مدحه فى ثلاثة أنواع :

١ - المدح البشرى ٢ - مدح المكان ٣ - مدح الزمان

* والمدح البشرى عند الإمام يقتصر على أربعة أنواع هى : المدح النبوى ، ومدح أهل

البيت ، ومدح أهل التقوى والصلاح ، ومدح تلاميذه وأتباعه السائرين على نهج النبى ﷺ .

* أما فى مدح المكان فقد مدح الأماكن المقدسة مثل الروضات الطاهرة ، والمقامات المقدسة ، كمدحه فى مقام إبراهيم عليه السلام وحجر إسماعيل عليه السلام ، وزمزم والحطيم وغيرها .

* ومدح الزمان كمدح الإمام المجدد لليلة القدر ، وشهر رمضان ، وليلة نصف شعبان ، فقال فى ليلة القدر :

سبع وعشرون فيها ليلة القدر   إنزال قرآن ذات المنعم البر

وقال فى شهر رمضان :

يا شهر رمضان نور الوجه يشرق لى   اتلو به آية القرآن إشهادًا

ولقد اتسم مدحه رضى الله عنه بخصائص الصدق والواقعية وانطلاقه من مبادئ إسلامية ترمى إلى رضا الله تعالى ورسوله ﷺ .

وعن الفخر :

يقول الباحث : إن الفخر فى قصائد الإمام أبى العزائم يختلف اختلافًا كليًا عن الفخر عند الشعراء السابقين ، فلقد جدد الإمام كثيرًا فى غرض الفخر فى قصائده ، حيث إنه رأى فى صفات الفخر عند السابقين أنها صفات فانية زائلة لا تستحق الفخر ، فالشجاعة والقوة والسلطان كلها صفات لا تدوم ، بيد أنه وجد أن الصفات التى تستحق الفخر هى التقوى والإيمان والقرب إلى الله ورسوله ، لقد كان الفخر عند الإمام أبى العزائم منطلقًا من قوله تعالى : ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[8] فمن ثم يظهر الاختلاف بين الفخر عند أبى العزائم ، والفخر عند السابقين ، حيث أنه لم يفتخر فى قصائده بقوته أو بعلمه أو بشجاعته بل افتخر بقربه من الله تعالى ورسوله ﷺ فنراه يقول :

سقانى رسول الله كاسًا مزمزمًا   وصيرنى طه إمامًا مقدما

ونراه يقول :

سقانى رسول الله راح ودادہ   وصيرنى بالفضل باب شهوده

---

(٨) سورة الحجرات آية ١٣ .

ونراه يفخر طورًا آخر بعبوديته لله تعالى فيقول :

ايقنت قدرى مقامى   اتى الرغام قوامى
عبد لرب قد يسر   بر محيط سلام

ونراه يفتخر بانتسابه لرسول الله ﷺ قائلًا :

كيف اخشى او اخاف ولى بكم   نسبة صحت لدى انسابكم
او ارى ضيمًا وجدى احمد   قد ورثت المجد عن احسابكم

أما فى الرثاء :

لقد استطاع الإمام أبو العزائم أن يجدد فى رثائه بالدعاء لمن يرثيه بالمغفرة والرحمة والدرجات العالية والفوز بالجنة ، وكان رضى الله عنه يتحلى بصفات الإيمان فى رثائه ، لقد رثى الإمام والديه فقال :

اعنى ابر الوالدين ايا ربى   فإنهما اصلاى مذ كنت فى الغيب
بررتهما حيين هب لى عناية   ابرهما فى القبر بالجسم والقلب

وقال أيضًا رضى الله عنه فى رثاء تلميذه محمد عبد الخالق :

محمد يا ابن عبد الخالق   ازورك مشتاقًا لخل وصادق
ولى طمع فى الله جل جلاله   انالك غفرانًا من فضل رازق
لقد كنت صدّيقًا لك الوجه مشهد   وكنت كبير القلب فى حال خافق

وعن الهجاء :

يقول الباحث : إن الإمام أبا العزائم ما ساقه إلى الهجاء إلا غيرته الشديدة على دينه ووطنه ، وكراهيته للاستعمار والحاكم المفسد ، فدوافعه للهجاء تعد دوافع من أجل المصلحة والمنفعة العامة ، لا المصلحة الشخصية الذاتية كسائر الشعراء .

ومن أمثلة هجائه رضى الله عنه لموسولينى وجورج الخامس يقول :

يا وحش روما تادب   فلست كسرى او قيصر

وطعنة القهر تأتى وانت كالثوب تنشر
كبير لندن فاحذر فالله ربك اكبر
وطعنة القهر تأتى من حيث لا تتصور

وقد هجا الإمام الغرب وروسيا والموالين للأعداء والمتخاذلين فى الأمة ، وأهم السمات التى سيطرت على قصائد الهجاء عند الإمام المجدد أبى العزائم هى : الصدق والتهذيب ، والوعيد ، والدعاء والبساطة .

أما قصائد العتاب عند الإمام:

فقد اتخذت اتجاهين : أحدها عتاب خاص ويخص فيه مجموعة من تلاميذه وإخوانه فيعاتبهم نتيجة حدوث مواقف معينة منهم وهو عتاب قليل لا يذكر ، وثانيها : عتاب عام يوجهه إلى عامة الأمة الإسلامية لمن يتجاهل نعم الله عليه أو يوالى أعداء الله ، وسبب قلة قصائد العتاب عند الإمام قلة المواقف التى تستدعى اللوم ، وطبيعة الإمام المتسامحة ، وانشغاله رضى الله عنه بمصلحة الدين والوطن جعله لا ينظر إلى مواقف العتاب بأهمية كبيرة .

وعن الغـــزل :

استطاع الإمام أبو العزائم أن يجعل كل حبه فى قصائده موجهًا إلى الله تعالى وحده فلم نجد فى قصائده أى غزل بشرى ، لأن الحب الإلهى سيطر عليها بكثرة .

وقصائد الطبيعة :

عند الإمام أبى العزائم كثيرة متنوعة تناول فيها بديع صنع الله وقدرته ، ويخاطب فيها الكائنات كالشمس والبحر والغمام والنيل والصحراء ، وغيرها .. من أمثلة ذلك يقول فى ماء البحر :

طهرت بالماء كلى جسمى وروحى وظلى
طهر حبيبى روحى بنور وجهك حولى
يا بحر انت جمال محوت عنى جهلى

وقد أراد الإمام من خلال مواجيده عن الطبيعة أن يزيد من إيمان المسلمين بربهم ، وأن

يعبر عن جمال الله الذى استودعه آيات الكون مذكرًا بنعم الله الكثيرة علينا ومتوجهًا بالدعاء والشكر على ذلك .

أما القصائد الوطنية :

فتنقسم إلى نوعين : قصائد تتعلق بحبه لمصر ومخاطبة أهلها وحثهم على التضامن والألفة والقوة ، وقصائد تتعلق بالأمة الإسلامية والعربية يتنبأ فيها الإمام المجدد بالخير والنصر كقوله :

يـا امـة الهادى اسـمـعـوا	نـبـا الـصـحـابـة والهداة الأولـين

وقوله أيضًا :

بـربـكـم وطـنـى الإسـلام افـديـه	بـالـنفـس والمـال والـرحمن يـعـلـيه
والمسلمون همو نفسى وحبهمو	فرض علىّ بصدق القول اروبه

* والنوع الأخير من قصائد الإمام هو القصائد الإسلامية وهى كثيرة جدًا ومتنوعة ، فمنها قصائد الدعاء والحكمة والنصح والإرشاد وقصائد العبادات والمناسبات الدينية والقصائد الصوفية ونظرًا لكثرة هذه القصائد وانتشارها مع كافة الإخوان وتلاميذ الإمام يصعب حصرها وجمعها إلا أن خلفاء الإمام المجدد من بعده جمعوا منها عددًا كبيرًا صدر فى خمسة أجزاء حتي الآن تحت العنوان الذى اختاره الإمام لقصائده وهو « ديوان ضياء القلوب من فضل علّام الغيوب » .. وبه نماذج متعددة لمواجيده وقصائده رضى الله عنه مصنفة ومرتبة .

مقتطفات
من مواجيد الإمام المجدد
سماحة السيد محمد ماضى أبو العزائم
قدّس الله سره

وقد أفيضت على قلبه رضى الله عنه إلهامًا عن وجد وحال حيث أملاها على أصفيائه وأحبائه فى الخلوة والجلوة، وكان إملاؤه لها أسرع من قلم الكاتب الذى سأله يومًا أن يملى عليه رويدًا، فقال مخاطبًا له ولمن معه :

اكتبوا لا تكرروا اقوالى ... فلدى الحال لا يعاد خطابى
واسمعوا لى بالروح لا بعيون ... فى مقام الأخفى يصح غيابى
حيث طلعت على القلوب شموس ... مشرقات من بعد رفع الحجاب
يتهنى بها مراد قريب ... لا تُرَى للمريد والطلاب

وهذه المواجيد تأخذ نظم الشعر من حيث الوزن والقافية، لكنها فى حقيقة الأمر ليست بشعر، فهى وعاء لحقائق علوية ومشاهدات قدسية مما عجز الآخرون عن إملائها نثرًا، ومع هذا كان يمليها نظمًا وبسرعة البرق الخاطف، وكأنه يغترف من بحر لا ساحل له، لأنها من لوامع القدس الأعلى، وفوق ذلك فإنها لا حصر لها ولا عد، لأنها تعبر عن سياحته الكبرى مع الله منذ بدء نشأته حتى لقائه لربه، وما يقوله اليوم لا يقوله غدًا، فسبحان الله الفتاح العليم ذى الفضل والعطاء الواسع العميم.

ولقد أدهش الإمام علماء عصره بحاله، فكانوا يعجبون من استرسال الإمام فى مواجيده النظمية وبغير توقف.

ومواجيده رضى الله عنه هى روح القدس الأعلى، ولا دخل للتأليف فيها، ولا لإملاء الفكر ولا لجولة العقل، لأنه كان يغيب غيبةً هى عين الحضور لأنه كان أحيانًا ما يكتب ويسطر فى الأوراق إذا لم يجد من يكتب له ما يقول. كما أنه كان ضرَّابًا على فخذه، بمعنى أنه عندما كان يعتريه الحال لإملاء قصيدة سواءً كانت أثناء إلقاء درس أو حديث عادى أو فى حالة صمت وتأمل، فكان يضرب بكفه الأيمن على فخذه الأيمن مع ذكر لفظ الجلالة قولًا وبالمد الطويل بقدر الاستطاعة حتى ينتهى النفس، فكان ذلك إشارة انتباه يُعْلَمُ منها الإخوان أن الإمام سيملى قصيدة. وفورًا تخرج الأقلام والأوراق من عند

الكتبة لتدون ما سيلقيه الإمام.

وسيجد المتصفح لمواجيد الإمام والحاذق للشعر وضروبه بعض الأبيات التى خرجت عن الوزن الشعرى، وهذا ليس عن خطأ وقع فيه الإمام أو ضرورة اضطر إليها، ولكن وقع هذا عن عمد ليخرج به عن قواعد الشعر المعروفة وإن كان قد جاء به على هيئة الوزن الشعرى. وفرق بين هذا الشعر والشعر الموزون المقفى ذى التفاعلات والبحور المعروفة المخبر عنه بقوله: (أعذب الشعر أكذبه) الرامى إلى الخيال الآخذ بالهوى، وبين النوع الذى بين أيدينا الذى جرى على ألسنة العلماء كنوع من الحكمة جاءت على وزن الشعر، فكونه على تلك الكيفية لا يدخله فى الشعر وخيالاته، وإنما كما قلنا نوع من الحكمة جاءت على وزن الشعر، فلا ريب حينئذ أن يتعمد فيه الأئمة كسر الوزن لأنهم لا يرضون بالشعر وقرضه.

وقد أملى الإمام بعض القصائد التى تنتهى بالشطرة الأولى فقط من البيت الأخير، وكان هذا شئ محير جدًا لدرجة أن الشيخ مفتاح زيدان سكرتير الإمام وهو فى مبدأ عهده بالطريق قد تعرض لإحدى القصائد فأكمل البيت الأخير ظنًا منه أن الإمام ربما قد نسى إكمالها، أو أنه لم يتمكن من ذلك تحت أى ظرف من الظروف، وكان ملتحيًا، فوجد فى إحدى شقى الوجه التهابًا شديدًا مما اضطره إلى حلق جانب اللحية جهة الالتهاب. وقد غطى وجهه وذهب للإمام الذى سأله عن سبب ذلك، وكاشفه الإمام أنه من السهل عليه جدًا أن يكمل الشطرة الأخرى ولكنها مقتضى الأمانة فيما أملى عليه (وما أنا عنه يا قوم إلاّ راويا).

وكان الإمام يتحدث فى بعض المواجيد عن بعض الأحوال والمقامات والمشاهدات والمواجهات والتى لا يباح ذكرها نثرًا ولكن تحفظ معانيها فى المواجيد لأنها قابلة للاستعارة وقابلة للكناية لمن يوفقه الله أن يفهم. وكان الإمام أحيانًا بعد إلقاء هذا النوع من المواجيد يقول: أسمعونى ماذا قلت، وبعد أن يستمع يقول: ما قلت هذا الكلام.. فإنها ما كانت إلا معانى مسجلة فى قلبى فنطق بها لسانى، لأنه كان فى حالة غياب واستغراق فى مشاهداته ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[1].

وكان يقوم من نومه رغم قصر فترته ويستدعى من يكتب عنه. ونوم أهل الله عامة ليس كنومنا لأن ما ينام فى الإنسان كثافاته، فإذا تخفف الإنسان من الدنيا أصبحت الأشياء التى تطلب الراحة فى الجسم قليلة فيتغلب الصفاء على ظلمة البدن فيصبح

---

(١) سورة الأنفال آية ١٧.

نورانيًا . ولذلك ثبت من معجزات رسول الله أنه ليس له ظل ، وقد ذكر المفسرون أنه احترامًا لظل الرسول حتى لا يقع على الأرض وعلى النجاسة ، ولكن الإمام قال غير ذلك : وهو أن الله عز وجل جعل جسمه بللوريًا شفافًا نقيًا فلا يكون له ظل . فكان نوم هؤلاء كصمت العلماء .. (أن يكون نطقى ذكرًا وصمتى فكرًا) .. صمتهم عند الهدوء ليس بنوم ولكن تفكير فى مستقبل الأمة وفى الإخوان وفى أقرب الطرق لعلاج الأمراض التى تعترى الأمة ، فقد يلهمه رب العزة علاجًا أو ظهور معنى يريد إبلاغه لأولاده ؛ فيقوم الإمام من نومه ليملى عليهم لأن هذه معانى تظهر فى لحظتها .

وهذه المواجيد تتناول فى الإنسان جوانب متعددة ، ففيها تزكية النفس ، وتربية الروح ، وعقد القلب على كمال التوحيد والحب الخالص لله عز وجل الذى يصل به إلى عين اليقين وحق اليقين ، والسعادة كل السعادة لمن نهل من هذا المعين فاحتسى طهوره حتى اختلط بدمه وعظمه ولحمه ، وغيبه عن الأغيار وأوصله بالعزيز الغفار ﴿والله يختص برحمته من يشاء﴾[2] .

يقول رضى الله عنه مخاطبًا للنفس :

يا نفس هيا صالحى مولاك	فهو البديع بفضله سواك
يا نفس هيا من سواه تجردى	وتخلصى من حظك وهواك
يا نفس للمولى العلى تضرعى	فعساك تحظى بالرضا فعساك
يا نفس فيك لو تبصرت لحظة	هو ظاهر بصفاته رقاك
يا نفس لبى إن اردت نواله	فهو الولىُّ بنوره حلاَّك
يا نفس طيعى امر من هو قادر	بالفضل والإكرام قد رباك
يا نفس هيا فاحذرى ان تشركى	بالله هيا نزهى مولاك
يا نفس قسمًا بالنبى وآله	لبى عطوفًا للقا ناداك
يا نفس مالك لا تحنى وتعشقى	جمال الذى من نوره حلاَّك
يا نفس دَوْمًا للمعاصى ترغبى	وتنسى حليمًا حاشا ان ينساك

ويتساءل تارة أخرى عن حقيقة النفس ويجيب قائلًا :

يا نفس ما انت نور انت ام عرض	ام كوكب مشرق بضياء مبناه

(٢) سورة البقرة آية ١٠٥ .

وهل بك الجسم قد قامت معالمه ... ام قمت فيه فهذا السر اهواه

حيرت افكار اهل العقل لم يصلوا ... إلى يـقـين وفـيك ضَـلَّ اهـداه

العقل يعقل محسوسًا ونسبته ... لا يـدركـن رتـبـتـى والـمـنـعـم الله

سرى خفىٌ عن الألباب يحجبه ... عـنـه نـظـائـره فـيه واشـبـاه

من امر ربى ومن يطلبه يعرفه ... فـيعـرف الله رب الـعـرش مـولاه

ونـفـخـةٌ مـنـه تُجْلَى للمـراد لـه ... فـيشـهـد الـوجـه بـالـتـنـزيـه عيـناه

من كان يعرفنى بالفضل يعرفه ... انـــا الـمـثـــال لـــه افـــق لـمـرآه

ثم هو رضى الله عنه يكشف عما فى النفس من النوازع الدنية والكنوز العلية فيقول :

هى النفس للدانى تحن وترغب ... وللعاجل الفانى تميل وتطلب

هى النفس تهوى حظها لو انها ... اضاء لها التحقيق من ذاك تهرب

يا نفس لو تدرين عاقبة الذى ... ترومينه جهلًا لصح التجنب

فـزهـرة دنـياك الـغـرورة بهجـة ... ولـكـنـهـا سُـمٌّ يـذاب ويـشرب

تـغـر رجـالًا جـاهـلـين بـقـدرهـم ... وتخدعـهـم بـجـمـالها ثم تـسـلـب

ايا نفس إن تصفى وتزكى وتطهرى ... تلوح لك الأنوار يصفو التقرب

وتشرق شمس الحق من كل وجهة ... عليك وهذا الوهم بالحق يغرب

ايا نفس ياكنز الجمالات كلها ... ويـا مـطـلـع الأسرار ربـى اقـرب

فلو نَفَسًا طُهرتِ من رَين مبعد ... لك الراح فى روض المعية يوهب

عى عنك زهرة عاجل وتحققى ... وللحق اوبى تصفو ثَمَّ المشارب

لى سنة المختار طه إمامنا ... الا فـانهـجـى فـالمـسـتـقـيم محبب

ويتكلم رضى الله عنه فى مقام العلم وما فيه من معانى الخشية من الله ، سر قوله تعالى : ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾[3] حيث حصر الحق سبحانه الخشية فى العلم . فيقول :

العلم يجعلنى اخشى من الرب ... اراقـب الله بـالأعـضـاء والـقـلـب

إن لم اكن اخشى من ربى فمن جهلى ... ولو علمت علوم الكشف والغيب

(٣) سورة فاطر آية ٢٨ .

ولو تحصلت من علم ومن نقه … مثل الجبال الرواسى لم يزل حَجْبى
العلم معراج اهل الحب والحسنى … مهواة اهل الجفا والبعد والريب
العلم يهدى إلى المعلوم يُشهِدُنا … ما غاب عنا من الأنوار والشرب
جَذبُ القلوب به بالحال والعشق … به افر لمعطى الخير والتوب
فِخلِى بِعِلمِىَ تحقيق لما ابغى … نيل الرضا والصفا من عالم الغيب
العلم موهبة من منعم مُغطٍ … فى (واتقوا الله) سر العلم والجذب[٤]
من يخشى بالعلم مولاه ومبدعه … يرقى إلى حظوة الزلفى بلا صعب
إنى تحققت ان العلم لا يجدى … إن لم انل خشية من قابل التوب
لجات لله مضطرًا فايدنى … بالعين عين يقين منك فى حب
انسى علومى وآتى كل معصية … بها ابتعادى وآى الذكر قد تنبى
فاحفظ إلهى بحفظٍ منك مضطرًا … فالذنب اوقعنى فى السهو والعيب
وجئت مستغفرًا فاغفر وتب واستر … لأشهد الوجه يُجْلَى بالضيا صوبى
مولاى واجهنى بالوجه آنسنى … بما به ارتقى لمراتب الصحب
حصن بشرع رسول الله يا ربى … عبدًا دعاك لطهر الجسم والقلب
واعصم من الناس مضطرًا لخالقه … هب لى العبودة يا غوثى ويا حسبى
وسخرن لىَ كل الكون عاليه … وكل من هو فى سفل على الترب
اعن على الشكر والأسرار اشهدنى … جمال وجه بلا لوم ولا عتب

ويقارن رضى الله عنه بين مقام العلم ومقام اليقين، مبينًا أن اليقين هو مراد العبد السالك إلى ربه، وأن العلم وسيله إلى العليم جل جلاله، وكان ذلك فى ٦ محرم سنة ١٣٥١هـ، فيقول متسائلًا :

العلم هل فهمه يكفى لتقريبى … إلى مقام التدانى نور محبوبى
إن كان هذا فمالى قد اميل إلى … داعى الهوى بعد فهمى بعد تاديبى
العلم كالمال برهان على نفسى … انى تطهرت ام انى كمكلوب
اما اليقين فبرهان على قربى … صححت حالى لتاييدى وترغيبى
ذق باليقين مقام الفرد واستجلى … سر الحقيقة منه غير مكذوب

(٤) يشير إلى قوله تعالى : ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ البقرة آية ٢٨٢ .

كم عالم تائه يهوى إلى سفل ... مسارع للهوى فى كل منسوب
لو كان علمى جذاب الى الأعلى ... لما رمانى الهوى فى سفل تغريبى
العلم عند بنى الإفرنج اوقعهم ... فى هوة الظلم فى كفر وتعذيب
علم اللسان وعلم الكون هاويتا ... شرك لكل امرئ للعلم مقلوب
العلم بالله حصن الأمن يطلبه ... فرد يقول ايا نفسى الهوى غيبى
العلم بالله طهر النفس ظاهره ... سير الى الله فى امن وترحيب
وباطن العلم كشف الغيب بعد هدى ... كشف الحقائق نيلى كل مطلوب
فى فجر سادس يوم للمحرم لى ... شوق شديد الى فوزى وتقريبى
الله اسال إحسانًا ومغفرة ... فضلًا من الله اعطى خير مشروب
فى حظوة الاجتلا اعطى الرضا الحسنى ... بالوصل احظى وبالزلفى وبالطيب
مولاى شبت فوفقنى لما ترضى ... يا نفسى بعد مشيبى سارعى توبى
شيخوختى تقتضى جذبى الى ربى ... حتى اهنى برضوان وترحيب
يارب هب لى العطايا منك واسعة ... فالفضل منك إله العرش مرغوب
اكرم بنىّ واهلى منك بالنعمى ... إخوان صدق واكرم كل مجذوب
فى دار دنيا فهبنا الخير واحفظنا ... فى دار اخرى فهبنا خير موهوب

وفى مقام المعرفة يبين رضى الله عنه أن له عينان : عين تشهد الآيات فى النفس والآفاق ، وعين تنفذ إلى الحقائق والأسرار ، وأن سبيل المعرفة أن يموت الإنسان عن حظه ونفسه فيحييه المولى سبحانه حياة العلم والإرشاد فيقول :

عيناى عين قد رات آياتى ... فتمتعت بحقيقتى وصفاتى
والعين عين القدس تشهد ظاهرًا ... متنزهًا عن حيطة الحيطات
تراه فى كل الوجود مقدسًا ... وهو العلى فلا يرى بحياتى
بالموت اشهده بعين اشرقت ... بضياء زيت حقيقة المشكاة
ولدى شهودى نوره من نوره ... ينفك رمز حقيقة المشكاة
ويكون نور الحق يشهد نوره ... وحقيقة الأسما لنور الذات
وابوح بعد شهادتى بمشاهدى ... قهرًا لأنى صرت فى الأموات
والميت احييناه نص كتابه ... والنور ياتيه من الحضرات

واكون نورًا فى زجاجة حسنه ... بل زيت مشكاة بغير فوات
ترى حالتى اهل القلوب وتشهدن ... حسنى قلوب جُمِّلَتْ بصفاتى

ويبين رضى الله عنه أحوال العارفين بالله فيقول :

العارفون لهم ظهرت حقيقتهم ... فجملتهم بعلم الحق خشيتهم
بعلمهم نفسهم علموا مقام علا ... فاوقفتهم على الآداب رهبتهم
عرفوا نفوسهم ذلًا ومسكنة ... وقد حباهم فدامت فيه رغبتهم
عكفوا عليه بإخلاص فواجههم ... بالوجه فانبلجت من ذاك نشوتهم
سكروا فطابوا به انسوا فانزلهم ... منازل القرب فاتضحت محبتهم
فروا إليه به والوجه مقصدهم ... والعلو والسفل لا تحويه فكرتهم
الله معبودهم وهو المراد لهم ... وقد رات نوره علنًا بصيرتهم
وجنة الخلد لو ظهرت بطلعتها ... لفارقت حسنها بالزهد همتهم
لا كفؤ لله يحجبهم فيبعدهم ... احد تنزه تعلمه سريرتهم
هو الولى تولاهم فحصنهم ... عن العوالم قد رفعت مكانتهم
العرش والفرش والكرسى خلفهم ... وجنة الخلد والفردوس حيطتهم
لا يخطر الملك والملكوت فى نفسٍ ... على قلوبهم والخوف شيمتهم
حصن الجلال وسر الكبرياء بدًا ... فحصنوا فيه واتضحت هدايتهم
قد قُرِّبُوا لجناب القدس منزلةً ... رفعت بها بين اهل القرب نسبتهم
فى غيب غيبٍ عن الأكوان قد رفعوا ... عن الشئون وقد وافتك حالتهم
الذل عزهم والجهل علمهم ... وخشية الله بهجتهم ولذتهم
رضوا عن الله فى الدنيا فجملهم ... منه بحق يقين فيه نعمتهم
انسوا بما استوحش الجهال منه وقد ... صحت بدايتهم طابت نهايتهم
لم تستفزهم الدنيا وبهجتها ... والوجه مشهدهم والكون آيتهم
تدرعوا باليقين الحق واتشحوا ... بالصدق حتى به دامت معيتهم
ما حيطة الملك والملكوت عندهم ... إلا منازل سفرآن اوبتهم
ومرجع الكل لله العلى على ... حق اليقين وقد وضحت طريقتهم

لم يلتفت احد منهم لعاجلة — والكل لله قد خلصت سريرتهم
شربوا من الراح راح الذكر خمرتهم — وهَذىً طه على التحقيق سيرتهم
يا رب صلى على طه وعترته وآله — مَنْ به رفعت مكانتهم

وقال مبينًا لأحوال العارفين، بما أفاضه الله على قلبه من المزيد :

لأهل الله اسرار خفيه — واحوال ترى فيهم عليه
وانوار ترى فيهم جهارًا — يرون بها حقائقهم جليه
وعلم غامض يعطى بفضل — لانهموا تهنوا بالمعيه
معية ربهم حال التجلى — بافئدة من الدنيا خليه
صفوا لله من ميل وحظ — فكان القرب منه لهم عطيه
حباهم بالشهود وقد سقاهم — وناولهم من الراح الشهيه
صفت البابهم فسموا ونالوا — مقام القرب من رب البريه
راوه باعين ملئت يقينًا — عيون بصيرة صارت مضيه
بلا كيف ولا كم ولكن — باسرار تعالت معنويه
ولم يحجبهمُ كون ووهم — عن الأنوار فافهم يا اخيَّه
هموا الأنوار ناولهم فغابوا — به عن رؤية الدنيا الدنيه
قلوبهم بنور الله عمرت — فقاموا بالأوامر والوصيه
عبيد اخلصوا لله دينًا — وقاموا صادقين بحسن نيه
فلم تشغلهموا دنيا واخرى — عن الإخلاص للذات العليه
راوا مولاهمو احدًا تعالى — وانفسهم به صارت غنيه
عليه توكلوا واليه فروا — فواجههم بانوار سنيه
وكلٌ امورهم قد فوضوها — وانفسهم به صارت رضيه
بذكر الله عن دنيا واخرى — فآنسهم به بعد العطيه
ونجاهم وادناهم إليه — بمحض الفضل حسنى اوليه
رضوا عنه فرضى الله عنهم — على سنن الهداة محمديه
ومن عين الشريعة قد سقاهم — براح الحال خمرًا عيسويه

ومن يد سيد الرسل التهامى ... سقوا خمرًا بشائر احمديه
على مولاهمو عكفوا بصدق ... فرقاهم إلى روض المعيه
وخصهمو بمحض الحفظ حتى ... لقد فازوا بحسنى السابقيه
وجملهم باخلاق التهامى ... فحفظوا من صفات الجاهليه
عبيد ذلهم عز ومجد ... وفقرهم الغنى حلل جليه
إذا أوذوا فمولاهم قريب ... يغار عليهمو من ذى الحميه
ويكرمهم ويرفعهم مقامًا ... ويمنحهم به الرتب العليه
اداموا شكرهم فى كل حال ... وحمدوه على كل العطيه
على سنن القويم صراط طه ... بصدق والعزائم ماضويه
فخل الخلق خلفك ثم عامل ... بصدقٍ ذات مولاك العليه
وقم لله لا بالخلق واحفظ ... فؤادك من وساوسه الخفيه
فإن الله مولانا مجيب ... يلبى من دعاه بحسن نيه
صلاة الله مولانا تعالى ... على الفرد المراد به العطيه
واصحاب ووراث كرام ... وعترته الكرام الهاشميه

ويقول رضى الله عنه فى مقام الحب :

الحب اعلى مقامات المريدينا ... به الوصول إلى رتب المرادينا
الحب حبان حب عن مواجهة ... بالاجتلاء وهذا للأقلينا
او فهم اسرار آيات مسخرة ... بها الوصال إلى روضات عالينا
فالحب معراج مبتدئ له سبقت ... عناية فغدا بالحب مجنونا
والعارف الفرد محبوب لخالقه ... فات المقامات تحقيقًا وتيقينا
فى كل نفس له نور يواجهه ... من عالم القدس ترويحًا وتيقينا
قد فارق الكون والآيات فانبلجت ... أنواره فغدا فى الغيب مضنونا
لا يعرف الفرد إلا من له سبقت ... عناية الله إذ يراه مكنونا
معناه غيب ومبناه مشاهدة ... والفرد معنى وليس الفرد تكوينا
يمشى على الأرض فى ذل ومسكنة ... هام الملائك شوقًا فيه وحنينا

انفاسه النور فى الملكوت مشرقة ... لكل عالين فافهم دمت مامونا
لا يعرف الفرد إلا ذو مواجهة ... صفا فصوفى فاحيا النهج والدينا
فرد مراد لذات الله منزلة ... حظائر القدس فى اعلى وعالينا
شمس نعم مشرق ملكوت خالقه ... بنوره جل من مولاه بارينا
صل الإله على الفرد المراد وَمَنْ ... به ننال من المعطى امانينا

قال رضى الله عنه مبينًا أن الحب نور وسر ومعراج وبه القرب والإسعاد :

الحب فى الله نور يشرح الصدر ... والحب فى الله سر يرفع القدر
والحب فى الله معراج الوصول له ... من يعشق الله بالمحبوب قد ظفر
كم عاشق شاهد الوجه العلى بلا ... حجب ولما نمت اشواقه حضر
الحب قربنا والحب اسعدنا ... بشرى لنا فجمال الوجه قد ظهر
لما ذكرنا نمت اشواقنا فبدت ... شمس التجلى لنا قد تخجل القمر
فى الذكر ناولنا المذكور خمرته ... قد اسكرت انفسًا بشرى لمن سكر
خمر الجلالة قد دارت مقدسة ... والذكر حان لها طوبى لمن ذكر
صل على المصطفى المحبوب سيدنا ... تشهد ضياه بعين القلب إذ حضر

ومقصد الإمام فى مواجيده من الخمر أو الراح ، أى : الفيض الإلهى المقدس الذى يغيب به المحب المحبوب عن وجوده الكونى بالمكون جل جلاله .

قال رضى الله عنه مبينًا أن للحب ثمرته من العلم والمعرفة والنور الذى يواجه به وجه الله عز وجل :

خمر المحبة جذّاب إلى القرب ... والعلم بالله يمحو ظلمة القلب
والحب من بعده علمى ومعرفتى ... بالله تشهدنى نورًا من الرب
اسعى بعلمى لما يرضى الإله وما ... يرى القلوب الضيا من حضرة الغيب
فى طىّ معرفتى جذب مواجهة ... فيها اليقين بلا شك ولا ريب
والعارفون لهم حال به انجذبوا ... بالراح قد طهرت من وصمة الشوب
لاحت لهم حضرة الأوصاف مشرقة ... فروا إلى الله بالإخلاص فى جذب
الوجه واجههم والعشق ازعجهم ... شوقًا لمحبوبهم فى توبة الصب

تابوا انابوا إلى الله العلى إلى ... نيل الرضا مع كل الآل والصحب
هم فى معية خير الرسل انسهمو ... بالوجه اشرق نورًا ظاهرًا صوبى
الروح آنسة بالوصل راغبة ... فى الفضل من ربها يعطى بلا حجب
يا قلب يا بيته المعمور هل ظهرت ... انوار مجلاه بالزلفى لنا تنبى
فى الذكر يشرق نور الله يؤنسنا ... بما تجلى لنا من حضرة الرب
العلم اسكرنا والذكر هيمنا ... حتى راينا ضيا المذكور فى القرب
ارواحنا عشقت اجسامنا اهتزت ... فى الذكر دارت لنا الأقداح للشرب
الراح ربى سقاها فى محبته ... بشرى لمن ذكروا الرحمن بالحب
يا ظاهرًا لعيون الروح تشهده ... هبنا الرضا والعطا من عالم الغيب
هبنا الولاية والإحسان واجمعنا ... عليك ياسيدى فى المنزل الرحب
اكرم بنينا وهبهم منك عاطفة ... اعط الأحبة خير الفضل فى القرب

قال رضى الله عنه مبينًا ما للحب من أنوار الكشف والشهود والفناء والهيام :

هو الحب نور يكشف الحجب عن قلبى ... فاهتز حال الذكر شوقًا إلى ربى
اهيم بذكر الله والوجه مشرق ... فاشهد نور الوجه من غير ما حجب
فافنى عن الآثار شوقًا إلى اللقا ... فيمنحنى ربى الطهور من الشرب
سقانا رسول الله خمرة حبه ... فاسكرنا طه فهمنا إلى الرب
فبشرى لأهل الحب نالوا مرادهم ... إمامهم المختار كشفًا بلا حجب

قال رضى الله عنه مبينًا ما فى الحب من أنس وجمال ونور وسياحة تصله بحضرة القدوس :

فى صفا الوصل قد حلا لى انسى ... حيث حبّى قد لاح لى فى القدس
لاح نور الجميل صوبى جهارًا ... حَجَّبَ الكون بل ولوحًا وكرسى
يا سرورى والوجه واجه روحى ... شاهد النور عين قلبى وراسى
كنت قبل الشهود فى حجب رسمى ... صرت نورًا جسمى الدنئ وحسى
وى عجيب وكنت تربًا وماء ... جانست عالم الملائك نفسى

كنت فى الكون فوق ارض ولكن ساحت الروح شاهدت نور شمسى

اشرق الوجه جمل الكون نورًا فى صباحى وفى غدوى وامسى

هل حبيبى لما تجلى ارانى من جمال الآيات ما فوق نفسى

اين رسمى الدنى بل اين كونى هل انا الغيب لا بفكر ولبسى

صار كونى الواح آى لفرد بل انا صورة الجميل القدسى

اخفى وجه الجميل عنى كيانى كاختفاء النجوم من ضوء شمسى

بعد شعبى تُجلى لروحى شمسى بعد سقمى وفى اقتراب الرمسى

ياحبيبى يانور ربى الح لى روح قرآن ربى انسى

انت ياسيدى الوسيلة كن لى عند ربى الشفيع فى كل باسى

سله لى يغفر الذنوب جميعًا يمنح الخير لى واحباب نفسى

ويقول رضى الله عنه في مقام الأنس:

الأنس بعد سكون القلب بالله هو الرضا لأخى وَجْدٍ واوّاه

وهو العادة فى الدنيا وآجله والأنس بالدون للمبعود واللاهى

انسى به القرب للقدسى العلى على براق ود من الإقبال والجاه

يحيا سعيدًا به فى حصن خالقه مُنَعَّمًا بمعانى وصفه الباهى

الأنس بالله اغناه واسعده والحظُّ بالدون للمحجوب والساهى

دامت معيته بالحق واتصلت بالقدس همته بغير منتهاه

ثم يبين أنس كل حقيقة بما يناسبها فيخاطب ما فيه من الحقائق الظاهرة والباطنة حيث يقول:

انس عقلى فى آى تلك المظاهر بهجه الروح بالصفات الوافر

نفخة القدس انسها فى شهود مِنْ تَجلِّى هذا الجمال الباهر

يامبانى فيك المعانى اضاءت يامعانى يانور رب ظاهر

ايها النور فيك غيب التجلى فيك اسماؤه تراه السرائر

غيب اسمائه يلوح ضياها للفتى فانيًا باسرار قادر

آه منى ونفخة القدس اجلت لى غيوبًا برفع تلك الستائر

اين مبناى سترته شموسى ... بينت لى من بعد ماكنت حائر
بينت لى من حكمة الغيب الى ... صورة للجميل والخير وافر
فتحت لى كنزًا بذاتى خفيًا ... عن عقول فى حجبة بالمناظر
فىٌ كنز معنى الصفات إذا ما ... فك رمزى رايت ربا غافر
كنز معنى الصفات اثبت قدرى ... كن لاجلى وغيرها لى صائر
صرت عبدًا لله وهو غنىٌ ... عن جميع الشئون جَلّ القاهر
عن مبانٍ وعن معانٍ غنىٌ ... بل علىٌ عن كل خاف وظاهر
رب انت القدير انت معين ... هب لى الحب والعطاء الوافر
أشهدنى جمال وجهك ربى ... وامنحنىٌ مولاى خير المفاخر
واشفنى سيدى واكرم عيالى ... بعميم الإحسان من فضل قادر
واقبضن سيدى بيمناك روحى ... واجعلنى لوجه حبىَ ناظر

وحال سياحته مع الله أملى على تلميذه الخاص الشيخ مفتاح زيدان قائلًا له : يا مفتاح أكتب سر النجاح :

اسوح وفى العالمين مشهدى العالى ... سياحة مقتبس ضيا آمالى
فتشرق روحى فى سياحتها على ... مرابع انس بعد تفصيل إجمالى
يُفَكُّ لديها كنز هيكلى الذى ... تلوح معانى الوصف للأبدال
صفات المعانى فى اجتلائى بغيبها ... يجاذبنى اللاهوت فى إقبالى
فيلحظ سرى فتح بدئى واولى ... لدى كنت صورة قادر متعال
واشهد لى فوق التراب محيزًا ... بسور المبانى فى حضيض واعمال
فتلحظ روحى سر كينونتى التى ... بها ظهر الوهاب بالأفضال
ونفخة قدس تلحظ الغيب غامضًا ... عن العقل عن حسٍ وعن اقوال
لديها تفر الروح من هيكلى الدنى ... لتشهد غيبًا والصفات ظلالى
ارى الوجه ماوليت وجهى مواجهى ... بليلى نهارى بل وحِلِّىَ ترحالى
فاعجب اين الكون فى مثنويتى ... وهل جردت روحى فصح وصالى
كانى فى العالمين والكون فى الخفا ... وموتى حياتى فى امّحاء خيالى
فنائى البقا فى حظوة واحدية ... تَجَلَّى فاجلى لى علىٌ جمالى

فهمت لأنى قد فهمت معانيا ... تؤيدنى بالروح فى استقبال
وشيخوختى جذب إليه وشيبتى ... هل القرب قربى من ولىٍّ والى
أعدت إلى البدء الذى كنت اولا ... انا العبد عبد الذات صَحَّ وصالى
وصال به فى الاتحاد تَنَعُّمى ... تَفَرَّدْتُ فى سرى وفى احوالى
وغبت فلم تدرى العقول مكانتى ... انا طلبة الأفراد والأبدال
أُرى انسًا فى الاتحاد وبهجتى ... شهود جمال الوجه فى إقبال

وحال أنسه فى سياحته يبين رضى الله عنه أن الأنس لا يكون إلا بالله وأن من كان يأنس بالجنات فهو فى حجب عما فوقها من الدرجات السنية والمنازل العلية ، لأن المقصد أعظم وأجل فيقول :

من كان يانس بالجنات والحور ... فذاك فى حجب عن مشهد النور
والأنسون بوجه الله قد رفعوا ... عن المقامات والإحسان والسور
والأنس بالله بعد المحو ... لا نسبٌ فيه به هو فَضْلٌ سِرٌ تقديرى
انسوا به وهو واجههم وقَرَّبَهُمْ ... أُنسٌ بلا كَيْفَ لا يبديه تعبيرى
فى مقعد الصدق لا بل فى حظيرته ... وَمَعْ وعند بها فكرى وتصويرى
بها الخيال يُهَنّى بالمثال ولا ... انس بها فتدبر سر تقديرى
ما للخيال وما للأنس ان ظهرت ... شمس المجالى وصار الوجه منظورى
سجد الخيال ولا معنى يُمَثِّلُها ... إذ المجالى محت كونى وتحييرى
وصرت لا كون لى يخفى منازلتى ... والوجه حيطة منه ذات تنويرى

ويقول رضى الله عنه مستعطفًا مستجديًا عطف الحبيب المصطفى ﷺ :

ابا الزهراء ود الاتحاد ... وعطفًا من جمالك والوداد
ابا الزهراء انت حبيب قلبى ... ووصلك والرضا قصدى مرادى
ابا الزهراء انت انيس روحى ... وانت المرتجى غوثى عمادى
ابا الزهراء انت النور هادى ... ونورك ظاهر لى فى فؤادى
ابا الزهراء عطفًا انت اولى ... فاشهدنا الجمال به رشادى
ابا الزهراء ولهان مشوق ... فحقق منك قصدى واعتقادى

انلنى سيدى قربًا وخيرًا ... فانت شفيعنا يوم المعاد
واوصلنى بطه ياحبيبى ... انلنى القرب منك بلا بعاد
تشفع لى حبيبى عند ربى ... لاسمع منه بشرى ياعبادى

ويقول مصليًا ومسلمًا على النبى ﷺ مبينًا ما فى الصلاة عليه من الحلل العلية والمكاشفات الربانية التى تفتح للسالك باب الدخول على حضرة علام الغيوب فيقول :

يا رب صل وسلم ... على ضياء العيون
تاج البها البسونى ... وبالصفا اوعدونى
ومن رحيق المعانى ... والقرب قد اسكرونى
عاينت فى القلب نورًا ... يضئ لما سقونى
فهمت لهفان مما ... عاينته فاعذرونى
وبحت لما سكرت ... والسكر عين جنونى
حاولت خلع عذارى ... فى حب نور العيون
والموت فى الحب سهل ... يا سادتى فارحمونى
يا لائمى دع ملامى ... فالسكر فيه يقينى
هذا الجمال بدا لى ... عنه فلا تبعدونى
يا قوم إنى مُعَنًّى ... وحبه صار دينى
اواه يا لهف قلبى ... عيدوا ولا تمطلونى
منوا بكشف حجاب ... وفى الحمى ادخلونى
نوديت من كل واد ... قد فزتموا فاطلبونى

ويقول رضى الله عنه :

صلاة الله خالقنا ... على المحبوب سيدنا
نعم بشهوده فزنا ... وبالوادى لقد جزنا
خلعنا نعلّ النسب ... وأمّ بنا فقربنا
ابحنا السر للراجى ... واسقيناه خمرتنا
فمن رام الوصول له ... بنا تجلى له المعنى

فباب الوهب مفتوح | وعشق الذات شرفنا
فكن عبدًا لذات الله | لا تعدل إلى وثنا
ولا تعبد لجنته | فتلقى فى لظى الأدنى
فمن ذاق المدام صفا | وقال لمن يلم دعنا
وصاحب من به تحيا | وتدخل جنة المعنى
ولا تصحب أولى الأهوا | ومن مالوا عن السنن
وجنن من تراه صفا | ومال إليك بل ودنا
ولا تركن إلى اللاهى | فتحجب يا أخى عنا
متى عنا تغب وأنا | قريب واهب المنن
إلهى فامح عن قلبى | حجاب الرين واجمعنا
فنادانى وإخوانى | وفوق العرش أطلعنا
وعند صعودنا ظهرت | شموس القدس تنبؤنا
به ظهرت كواكبنا | وهذا الكون مظهرنا
فثبتنا وأمّ بنا | إلى المجلى وأيدنا
هو الشمس التى ظهرت | بنور القدس تشهدنا
بطه كل ذا فانهض | بعزمك كى تكن معنا

وقال رضى الله عنه مترجمًا عن حبه لرسول الله ﷺ الذى على يديه كان العلم المصون والنور المعين:

احب الحبيب المصطفى غاية الحب | لأنى به أوليت عاطفة الرب
عرفت به نفسى علمت حقائقًا | علت عن مقام العقل من حضرة الغيب
فداك رسول الله روحى وكيف لا | ولولاك روحى لم تنل نعمة القرب
أَلَحْتَ لها العلم المصون فجملت | بانوار توحيد الشهود بلا حجب
لقد كانت الأرواح فى سجن رسمها | بُعِثْتَ فناولت الطهور من الحب
فجملت ناسوتى بطاعة ربه | فصار لروحى مظهر الرب قد ينبى
بُعِثْتَ رسول الله والكون مظلم | فاشرقت شمس الحق فى الشرق والغرب

بعثت لكل الناس نورًا ورحمة ... تبين اسرار القران لذى لب

فتابعك الأفراد احباب ربنا ... وخالفك الكفار فى النار والخطب

مُتَابَعَةُ المختار إحسان ربنا ... وحب من الله القريب بلا ريب

احبك فوق الروح يا خير مرسل ... وقصدى رضاء الله فوزى بالحب

قال رضى الله عنه مبينًا أن حبه قديم وأنه اقترن بالروح منذ نشأتها قبل هذا الكون ثم هو يعاوده فى الكون فيقول :

هو الحب من قبل افتتاح وجودى ... لدى كنت نورًا فى علىّ شهودى

دعانى إليه نور مجلى كماله ... تالق قبل الكون والتجديد

تراءى لنا من قبل عهد وموثق ... لقد جذبتنى حضرة التفريد

لدى صاغ من نور الحبيب محمد ... نفوس اولى التخصيص والتاييد

وارواح كل الأنبياء ومن لهم ... من الصحب والأتباع بالتحديد

نعم صاغهم من نور اكمل مرسل ... وانهلهم من حوضه المورود

شممت عبير الطيب فى البدء اولا ... وفى الكون قولى شمس عهدتى عودى

تعاودنى فى الكون كالبرق لامعًا ... فتختطف الأرواح لا كالغيد

نعم يقشعر الجلد إن ذكرت لدى ... سماعى احاديثًا بسورة هود

وكم وجل القلب المُعَنىّ بحبها ... إذا ما تلا الحادى حديث ورودى

ايا نور ربى يا مثال جماله ... ورحمته والحب والتمجيد

عشقتك كشفًا لا سماع رواية ... بحجة فيكم[٥] فامنحن مقصودى

ومن فوق كشف العين اى « يحبهم »[٦] ... وحسبى اى الفتح للتوكيد

رؤوف رحيم آية فى براءة[٧] ... واولى بنا منا بلا ترديد

غرامى به اولى مثولى تمثلى ... ووجهك صوبى فى الصفا مشهودى

ولى حاجة مولاى انت وسيلتى ... الى الله فيها صح لى التوحيد

وتوبة إخلاص نصوحًا ورشفة ... من الحب إحسانًا بغير جهودى

---

(٥) يشير إلى قوله تعالى : ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾ سورة الحجرات آية ٧ .

(٦) يشير إلى قوله تعالى : ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه﴾ سورة المائدة آية ٥٤ .

(٧) يشير إلى قوله تعالى : ﴿حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ سورة التوبة آية ١٢٨ .

وخـيرًا لأولادى وواســع نـعـمـة — لآلى وإخــوانــى وكــل جــدودى
وارجو الشفا من كل داء وعلة — وفاة على الإيمان نور شهيد
وصحبته فى حال حِلى ورحلتى — بـإحـســان وهــاب وخـير ودود

وقال رضى الله عنه مخاطبًا رسول الله ﷺ الذى أذابه بحبه فغاب، وآنسه فطاب :

انا يا رسول الله يا اصل مجدنا — محمد ماضى قد غدا منك فى حبس
فادرك رسول الله وانجد مبادرًا — وخلص من الأهوال يا سيدى نفسى
فحبك يا مولاى منه تفتتت — عظامى وامست منه فى شدة الدرس
تجليت لى حتى صعقت واننى — إذا لم تثبتنى تبوح به نفسى
فَثَبِّت بحق الحق قلبى وانه — بحقك يا طه إمامًا لدى اللبس
وكن لى وللإخوان والأهل كلهم — مجيرًا من الهول العظيم ومن باسى
بجاه ابى بكر وفاروق ديننا — وعثمان ذى النورين من بك فى انس
وبالباب من احيا العلوم إمامنا — ونجليه اجدادى فنور به رمسى
وبالأهل والأصحاب والقدس والحمى — وبالكعبة العليا وطيبة ذى القدس
فَحَسِّن لى العقبى وبَلِّغ محمدا — زيارة قبر ضم نورك فى انسى
عليك من الله المهيمن دائمًا — صلاة تجلت من ضيا العرش والكرسى

وللإمام أبى العزائم مواجيده فى الذكر، فتارة تراه يتعجب من حاله فيتساءل عن هيامه وعشقه للمذكور مع أنه حاضر معه لا يغيب فيقول :

عجبًا ولم انس حبيب فؤادى — نَفَسًا إذا ذكروه طال سهادى
يا ذكر لم أكُ غافلًا عن بغيتى — فَلِمَ الهيام وفى الفؤاد مرادى
انا حاضر وحبيب قلبى لم يغب — نَفَسًا فما هذا الغرام البادى
فاجابنى لم تنسَ نَفَسًا إنما — ذكر الحبيب مدامة الأفراد
فالروح فى انس بوجه حبيبها — والجسم فى شوق إلى الإمداد
يهتز حال الذكر طَربًا شاهدًا — معنى الجميل المنعم الجوّادِ
فتكون روحى فى شهود حبيبها — والجسم فى طرب وفى إسعاد
هذا جوابك لا تلم ذا صبوة — واشرب رحيق الذكر بالإرشاد

فالذكر راح للنفوس مطهر   وبه انال سعادتى ووداى

وتارة يخاطب الروح حال ذكره فيقول :

يا روح هل تشهدين جمال من ذُكِرَ   يا روح من تذكرين جماله حضر
يا روح هيا فمحبوبى لقد ظهرت   انواره والمراد الفرد قد نظر
يا روح قد اشرقت شمس الهدى علنًا   تُجْلَى لأهل الصفا والوجه مستترا
شمسى لقد اشرقت بجمال طلعتها   من شام انوارها منها لقد سكر
قد اطلقت السنا بالعلم ناطقةً   قد جملت بالضيا قلبًا بها بشرى
يا روح راح الصفا دارت بلا قدح   كم هيمت انفسًا فى ليلة الإسرا
من حكمة من هيام من رضا وهدى   راح طهور على الأرواح قد نشر

وتارة يتكلم عما فى الذكر من السُبُلِ الموصلة إلى الله عز وجل فيقول :

نعم ذكره نور لعين البصيرة   وباب لنيل الوصل حال الشهادة
نعم ذكره راح طهور مقدس   وذكراه يرفعنى لأعلى مكانة
نعم ذكره معراج قرب شهوده   وذاكره المحبوب فى كل حضرة
به يطمئن القلب إن كان غافلًا   وتشرق انوار النبى بسرعة
فقم ذاكرًا لله يا طالب الرضا   فذكرك مفتاح لكل السعادة
ولا تركنن للغافلين فإنهم   اولو البعد والطغيان اهل الجهالة
فذكرى لربى انس قلبى ولذتى   ولسان انسى بل سرورى وبهجتى
إذا ما لسانى قال (الله) ذاكرًا   اشاهد انوارًا بعين بصيرتى
واشهد وجه الحق بالنور ظاهرًا   لديها ترى عيناى سر حقيقتى
ارونى فتىً ذكر الإله مصدقًا   ولم ير نور الحق فى كل وجهة
وقد قال رب العرش فى نص ذكره   بآيات قرآنٍ اضاءت منيرة
الا فاذكرونى إن ذكرتم فإننى   لديها لكم اذكر برضوان جنتى
هو الذكر من رُفعوا به لمحبة   يوفق اهل القرب للذكر سادتى
ومن لم يوفق يذكر الله مخلصًا   فذاك بعيد عن شهودى وجنتى
عليك بذكر الله إن كنت راغبًا   نوال الرضا منه بكل بشارة

فإنك إن تذكره يكشف لك الغطا		وتشهد انوار بسر المعية

وفى بيانه للذكر الذى لم يكن عن غفلة أو بعد أو حجاب وإنما هو ذكر الواله العاشق الذى يزداد بذكره ولها وعشقًا وكشفًا يقول :

ذكرتك لا انى غفلت عن المعنى		ولكننى الولها والعاشق المضنى
ذكرتك لا انى حجبت وانما		شهدتك يا مولاى فى ظاهر المبنى
ذكرتك لا انى بعدت وانما		رايت تجلى الوصف ينبئ بالمعنى
ذكرتك والذكر عين حقيقتى		وذكرى له معنىً يدق عن المغنى
يقول لسانى « هو » وقلبى مشاهد		وسرى لدى المجلى يرى وجه من اغنى
اذكره بالحق والحق ظاهر		ولكننى بالخلق ابدى لكم معنى
إذا ذكر المذكور فالروح جردت		وفرت إلى قدس النزاهة ما اهنى

ويتكلم عن فراره إلى الله من حيطة الأكوان حنينًا وشوقًا إليه سبحانه فيقول :

لدى الذكر تحنانى إلى المذكور		لانى غريق فى بحار النور
افر إلى المذكور من كل حيطتى		تَنَزَّهَ عن كيفٍ وعن تصوير
ومنى فرارى للعلىّ تنزهت		معانيه عن فكر وكشف ضمير
اراه به وهو القريب منزهًا		عن الرسم عن حدٍ وعن تقدير
(وما قدروا)[8] البرهانُ ذقها مسلما		ترى وجهه تحظى بكل حبور
وصلّ على ساقى الطهور محمد		وآل وصحب تعط كل سرور

وعن الحلل النورانية التى يتحلى بها العبد المطلوب المحبوب يقول :

نور القبول على المطلوب قد لاحا		من لحظةٍ فراى المشكاة مصباحا
نال المشوق بلهفة وحنانة		حنوا إليه فناولوه الراحا
لما تناول راحهم بجمالهم		قد رخص الأموال والأرواحا
منحوه روحًا قُدِّسَتْ فسمت به		وتبدلت اتراحه افراحا
لم يرض بالسفل الحضيض وحظه		يرقى يراه منعمًا فتاحا .

(٨) يشير إلى قوله : ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ سورة الزمر آية ٦٧ .

سكر المشاهد من جمالٍ ظاهرٍ لما علا وجه المشاهد صاحا
آوَّاهُ لو نَفَسًا يلوح للائمٍ لرأى الحقيقة بالشهود صراحا
لكنه فى سجن حظٍ مُبْعَدٍ عن كشف ما قد هَيَّمَ الأرواحا
انا غارق فى بحر نورٍ مطلقٍ لا بَرَّ يحصرنى ولا ملاحا
من رام يعرفنى تجرد عن سوى نصَّ الشريعة إن اراد فلاحا
النور محظور على اهل الهوى والحظ بادر نعطك الأقداحا

وفى قوله ﷺ : ﴿ الولى من إذا رؤى ذكر الله لرؤيته ﴾ يقول رضى الله عنه :

من يَشهدْ الوجه وجه الظاهر البارى منزهًا فى معاليمى واطوارى
يرى جمال التجلى مشرقًا ابدًا من غير كيفٍ ولا حدٍ ومقدار
وكيف يحجبُ من فى قلبه ظهرت شمس النزاهة من سرى وانوارى
شمس إذا اشرقت فى قلب طالبها يرى الجميل بلا حُجُبٍ واستار
وإن تجلت لمطلوب بها ولها يكون كعبة ارواح وابرار
فَرْدٌ هو الكل والمحبوب ظاهره والوارثون بآيات واسفار
وباطن الفرد نور لا يواجهه إلا مراد صفا من خير اخيار
سر خفىٌ فلا عقل يمثله نور جلىٌ لأحبابى وسُمَّارى
يايها النور روحى فيك آلهة واجه بوجهك روح المخلص السارى

وفى بيانه للأسماء الإلهية من حيث تجليها بمعانيها فى المظاهر والشئون والأكوان وبطونها فى غيب الغيب عن المدارك والعقول والأرواح يقول رضى الله عنه :

هى الأسماء تظهر مقتضاها ليشهد من دعى بدءًا ضياها
اضاءت بالتجلى فى ظهور وهذا الكون مظهرها علاها
الاحت للنفوس إذا تزكت شموسًا اظهرت معنى هداها
تراها الروح بالإشراق جهرًا بآثار وحقًا لا تراها
وكل الكون مرآةٌ لنور علىٌ اظهرت فيه بهاها
جلال مقتضى عظموت مجد جلال يقتضى فضلًا رضاها
هى الأسماء يشهدها مراد رأى بعيونها الحسنى صفاها

فابصرها بها غيبًا مصونًا ... وقد حجب النُّهى قهرًا سناها
هى الأسما تظلل من ارادت ... وتلبسه لباسًا من حلاها
وقد جُهِلَتْ وقد عُرِفَتْ وخَفِيَتْ ... وقد ظهرت وسترت فى حماها
علت قدرًا عن الأرواح مجدًا ... ولاحت بالتنزل فى عطاها
هى الأسماء غيب الغيب تُجلى ... لأهل الاصطفا فى مقتضاها
تَنَزُّلُها جمالٌ من جميل ... تفيض الخير يولى فى علاها
وكم قد اسكرت فردًا مرادًا ... تجنن فى هواها ما رآها
فتلبسه إذا ظهرت وتُجْلَى ... له ولدى الشهود صفا وتاها
وكم جذبت إليها من مراد ... تجرد فى هواها عن سواها
إذا نظرت إلى فرد بعين ... يفر بها إليها فى دعاها
هى الأسما ومن ازل لأبد ... تليح جمالها يبدى ضياها
هى الأسما لذات قد تعالت ... وروحى تبتغى منها رضاها

وعن الآيات البينات التى أشرقت على هيكل الإنسان وألواح الكيان مشيرة إلى معانى القدرة والإرادة والعلم يقول رضى الله عنه :

رَتِّلًا فى هيكلى آيا سطور ... فالمعانى قد تلوح به سفور
واتل فى لوح الكيان حقائقًا ... ترجمت عنها العوالم فى دهور
واقران حكمة احكام بدت ... تمحو ظل الحجب عن قلب الغيور
رتل القرآن مجلى ذاته ... واتل فرقان الحقائق فى حضور
رتلا بالروح واتل حاضرًا ... بالجنان إذا بدا لك فى ظهور
انت لوح الآى تُتلى فى الصفا ... رُتِّلَتْ فى البدء من قبل العصور
واشهدن ما فيك بالعين التى ... ابصرت بالحق فى محو السطور
واسبحن فى سدرة غشيت بما ... غاب عن عقل إلى يوم النشور
سدرة تنبى بصورتى التى ... جُمِّلَتْ بالاجتلا بعد العبور
صرت عبرانى وبدنى خاتمى ... كم عبرت البحر فى حال السجور
صرت بحرًا ليس يعبر لجتى ... غير فرد قد يصافيه الغفور
كنت فى سكرى ارانى فارقًا ... صرت فى فرقى تجاذبنى الأمور

فى بحورى فى عبورى فى انا — وَىْ انا العابر بل فىَّ العبور
هيكلى قافٌ وصادٌ رتبتى — باطنى هاءٌ وسينٌ لى سرور
آه والعين العلية نُزِّهت — حيرتى فيها وفى غيبى الشكور
واصطلامى فى التجلى جاذبى — والراسيات الشامخات به تمور
دكت الأطوار والأرواح قد — اصبحت بدء التجلى فى سفور
حيرتى فى نور مجلاه نمت — كيف تقوى الروح وهى به تدور
دولة الإيجاد تصعقها على — طور مبناه لتسعد بالحبور

وحول المعانى المشرقة فى الإنسان الذى جمله الله تعالى حتى صار لوحًا عليًا لجلى آياته يقول :

انت لوح مُجَمَّلٌ بالمعانى — فيك نطقت بالحسن والأسرار
فاقرانها بالفكر تشهد نورًا — لاتفكر فى حيرة النُّظَّارِ
جهلوا نفوسهمو وفيهم تجلت — مشرقاتٍ لم يهتدوا بالنهار
سَلِّمْ الأمر للولى وفكر — فى بديع الشئون والاعتبار
ودع العقل يعقل الكون والنفس — ليسعى الى جناب البارى
وتحصن بالشرع فهو امان — وتجمل بسنة المختار
واجعل العقل باحثًا عن إمام — عرف الحق ظاهر الأنوار
فاتبعه مُسَلِّمًا لتُهَنىَّ — بالتحلى بحلة الأخيار
وصلاة على الحبيب المُرَجَّى — قبضة النور مقصد الأبرار

وحال هيمانه واصطلامه وغيبته عن وجوده وحضوره مع محبوبه، وما تجلى له فى هيكله وعلى لسانه وقلبه من معانى الآيات يقول رضى الله عنه :

لدى الهيمان يحلو لى اصطلامى — فاخفى فيه عنى عن مقامى
اغيب وغيبتى جذبى اتحادًا — واحضر والحضور به سلامى
تظللنى معانى الوصف حتى — أُسَتَّرُ عن شئونى عن غرامى
كانى فى مقام القرب غيبٌ — عن المبنى ولست من الرغام
وهيكلى المُسَوَّرُ بالمبانى — يكون اللوح محفوظ الدوام

به الآيات انوار التجلى — معانى الوصف تتلى فى اصطلامى
تراه الروح مشكاة مضيئًا — بزيت البدء نورًا للظلام
تلوح به معانى الوصف جهرًا — لمن شربوا طهورًا من مدامى
لسانى عندها قلمٌ علىٌّ — يُسَطِّرُ آيه حال الهيام
على عرش استوا الرحمن قلبى — هو البيت المُعَمَّرُ بالكلام
وحان الراح ناسوتى اديرت — به الراح الطهور لدى اعتصامى
وكنز فيه انوار المعانى — لأملاك السما جِلًى حرامى
عجيب جمع ضدين اتحادًا — معانٍ فى مبانٍ فى رغام

وفى حوار بين الروح والجسم حيث تتكلم كل حقيقة عما يناسبها ، وتأتى نتائج الحوار وثماره أن كلاهما يكمل الآخر ، ويشهد كل منهم لصاحبه بالفضل فى بناء هذا الإنسان الذى صاغه الله على أحسن التقويم فيقول :

لى غرام من نشاتى الأوليه — حين واجهت وجه رب البريه
لاح لى الوجه فى صفا الروح احيا — ذا غرام الى المعانى العليه
كنت روحًا اشتاق والنور حولى — صرت جسمًا فى دار دنيا دنيه
كيف صبرى من بعد رؤية وجهٍ — فى صفاءٍ عن صورتى المثنويه
ظل كونى قد حَجَّبَ الروح ويحى — عن شهود الأسرار فى الصمديه
انت ياجسم قد سترت حبيبى — صرت ياجسم للقريب بليه
خَلِّ روحى تفر لله إنى — فى هيام للوصل للأحديه
قال لى الجسم صاغنى الله ربى — باليدين فاشهد جمال العطيه
كانت الروح قبل حين وجودى — فى حجابٍ عن مشهد الواحديه
فِىَّ قد شاهدت جمال جميل — فى مقام الأعلين فاشكر أُخَيَّه
سَخَّرَ العالمِين عُلْوًا وسُفْلًا — لىَ ياروحى كونى عنى رَضِيَّه
إننى الكنز فى غيب المعانى — صاغنى الله باليد الروحيه
صاغنى الله باليدين وانت — بِىَ نلت طهوره الأحمديه
قالت الروح انت ياجسم رَقٌّ — اشرقت فيك شمسه الأوليه

ويتكلم عن تنزلات الحق سبحانه بمعانيه فى قلب العارف المعمور بأنوار أسمائه وصفاته مبينًا أن المؤمن مَثَلٌ صادق لنور الحق جل جلاله حين يصفو هيكله من الحظوظ والأهواء فيصير كأنه مشكاة، وحين يصفو قلبه فيصير زجاجة تتراءى من صفائها الأنوار، وحين تصل الروح ما بينها وبين ربها فتكون مصباحًا تتجلى بها معانى الآيات فيقول:

نور التنزل قد ظهرت معانيه ... والقلب يشهد بالذكرى تجليه
تنزل الحق فى الأفق العلىِّ له ... والقلب يشهده بعيون تنزيه
قد واجه الروح نور لا تُكَيِّفُهُ ... مقدسٌ عن حدودٍ بل وتشبيه
ايا ظاهرًا لعيون السر قد وضحت ... للروح اسراره والفضل توليه
انت القريب بلا كيفٍ يحيزه ... انت العلىُّ فلا الأكوان تحويه
روحى تشاهد وجهًا مشرقًا ابدًا ... قد حَجَّبَ الوجه عن روحى مبانيه
تنزُّل الحق للأرواح يشهدها ... غيب التجلى وسرًا من معانيه
فشاهدته بلا كيفٍ ولا مثلٍ ... والعرش بل ما حواه ليس يخفيه
يا روحى انت شهدت نور طلعته ... وهيكلى فى هيام هل يحابيه
اهيكلى انت مشكاة لظاهره ... والعقل فى حيطة ماثَمَّ يدريه
انا الزجاجة مصباح لباطنه ... مُنَعَّمٌ بشهود الوجه ارويه
يا هيكلى انت معمور بآيته ... وصورة الفرد تبدى سر خافيه
دعنى أُنَعَّمُ بالوجه العلىِّ فلى ... حال التنزل فضل منه يوليه
نظرًا الىَّ ايا روحى بعاطفةٍ ... بعد الشهود لهذا الجسم تحييه
هذا التنزل فى الأفق المبين جلى ... فواجهنى هيكلى بجمال باريه
إن كنت يا هيكلى ترجو مواجهة ... فالطور لا يقوى ان يراى بتنزيه
هذا الكليم على طور النداء لقد ... لاح الجميل له بقيود تشبيه
يا هيكلى انت فى الملكوت تشهد من ... سر المعانى ونورًا من تجليه
والروح صورته مصباح طلعته ... فضلًا فواجه مُعَنًّى من مجاليه
يا هيكلى واجهن ملكوته ... فيه جماله وبه ما انت تبغيه

وسأله سائل يومًا عن قوله تعالى: ﴿الله نور السماوات والأرض﴾[٩] فقال: آتنى

---

(٩) سورة النور آية ٣٥.

بالقلم والقرطاس، ثم أملى على السائل :

فتحت كنوز مواهب الفتاح ... فاضاء زيت حقيقة المصباح
لاحت لنا (الله نور) فانجلت ... نور العلىّ بِسِرّهِ الوضّاح
لم يبق مشكاة ولا زيت لدى ... كَشْفِ الحجابِ بحضرة الفتاح
مَثَلٌ لمن حُجِبُوا يقرب وصفه ... والشاهدون بروضة الأفراح
ما شجرة الزيتون إن حققتموا ... إلا لمن حُجِبوا عن الإفصاح
والحاضرون الناظرون جماله ... قد واجهوه برحمة وسماح
ظهرت لهم انواره فى ذاتهم ... ولنا تجلى غدوة ورواحى
عين راته منزهًا ومقدسًا ... لم تكتف بمثاله الوضّاح
هو ظاهر ببطونه بل باطن ... بظهوره يا طالبَ إيضاح
دع عنك مثلًا بل مثالًا واشهدن ... وجه الجميل بحضرة الأشباح
العين تشهده بنور هباته ... وهو القريب فذق أُخَىّ لراحى
قرب بلا كيف اراه بمقلتى ... ما غاب من قد ذاق قطرة راح
قرب بذوق للمريد ومشهد ... لذوى المكانة من اولى الأرواح
راحٌ لإخوان الحبيب تخصصت ... من كان مشتاقًا لهم بصباح
إخوانه والناصرون لدينه ... والمرشدون لحضرة الفتاح
وصغيرهم وكبيرهم وصديقهم ... سر الأخوة من رضا وسماح
بشرى لنا اشتاق الحبيب لذاتنا ... وتمنى يرآنا بقول صراح
شوقًا لذاتك يا حبيبى دائمًا ... شوقًا وشوقًا زائدًا إيضاح
يا سيدى خصصتنا باخوة ... ناولتنا من حوضك الفياح
شكرًا وشكرًا سيدى متتابعًا ... قمنا بكم فى مشهد الفتاح

ويتكلم رضى الله عنه مبينًا أن ما فيه من قلب وروح وعين ونفس إنما تشتاق للحق جل جلاله الذى ظهر بمعانيه فيها من سر قوله تعالى : ﴿ وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(١٠) فيقول :

القلب فى بهجة بجمال رؤيته ... والروح سكرى بكشف جميل طلعته

---

(١٠) سورة الذاريات آية ٢١ .

والعين فى لهفةٍ تشتاق تشهد ما ... به فؤادى فى انس ببهجته

والنفس ما بين قلبى بل وباصرتى ... تالهت لمعانٍ من حقيقته

فيها اضاءت ولكن سُتِّرت بسنا ... انوار غيب بمعنى سر صورته

تُرى الزجاجة والمشكاة وهى على ... غرامها فى اصطلام فى معيته

إن شاهدت آى معناه منزهة ... تاقت إلى الغيب فى ولهٍ لحيطته

وإن محا نوره الأعلى معالمها ... حَنَّت إلى مظهر عن نون نسبته

وإن تجلت معانى سر وحدته ... تنبى بعظموته وعجيب حكمته

تيمت بشهود الآى واجدةً ... وَجْدَ المؤله من آيات قدرته

ما بين نفسى وروحى بل وباصرتى ... كالثلج والنار قد جمعا برحمته

للروح مجلى كمالٍ فى نزاهته ... والقلب كشف التجلى عين بغيته

وعين راسى سِرُّ الآى مطلبها ... والآى قد سُتِّرَت بجمال عزته

صرت المؤلَّه لا انفك من وَلَهٍ ... نفسى وروحى وعينى عند رؤيته

لا ينتهى ولهى ابدًا وقد جُمِعَت ... كما علمت معاليمى بحكمته

عناصرى هى اركان الوجود إذا ... فقهتها سكنت نفسى لحضرته

عجيب قدرته وغريب حكمته ... وجلى آياته وعميم نعمته

قد حيرت انفسًا طهرت لطائفها ... واوقفت كل عقل عند رتبته

وهذه قطرة من بحار مشاهداته التى أملاها فى مواجيده النظمية ، وهى لِعُلُوِّ معانيها وعمق أغوارها تحتاج فى سماعها إلى أرواح أُهِّلت ، فتغشاها أنوارها التى تحوم بها حول قدس المعرفة بالله عز وجل ، فإذا بها قد عادت بطرائف الفوائد وغرائب الزوائد ﴿ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾[11] .

---

(١١) سورة الجمعة آية ٤ .

انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى

قبل التعرض لموضوع انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى ، لا بد من وقفة نستعرض فيها حالته الصحية ، والأحداث التى سبقت ذلك وكان لها تأثير عليه ، إلى أن قضى الله أمرًا كان مفعولًا .

كانت حياة الإمام مملوءة بالأعمال التى تنوء عن حملها الجبال . لقد حمل مسئولية العالم الإسلامى كله على كاهله ، فما رأى مرضًا استشرى فى الأمة الإسلامية إلا وأوجد له العلاج من الكتاب والسنة ونصح الأمة واتجه بالكلية إلى حضرة رب البرية ، يتذلل إليه ويدعوه أن يكشف الغمة ويحفظ الأمة .

وكان لكثرة تفكيره فى أحوال المسلمين وشدة غَيْرَته على الإسلام وما نزل بالمسلمين أثر كبير فى إصابته بمرض الفالج[1] قبل عشر سنوات من انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وكان أحد تلاميذه قد زاره - وهو طبيب - قبل مرضه ، وأخبره أنه ينهك قواه العقلية كثيرًا ، وأنه معرض للإصابة بهذا المرض إذا لم يتحفظ منه ، فأجابه الإمام على الفور : وكيف التحفظ منه وأنت ترى حالة المسلمين فى الشرق والغرب تستدعى الكثير من التفكير ، وأنا أخشى أن يأتينى الحين[2] وأنا لم أضع دواءً ناجعًا لهذه الأمراض الاجتماعية التى توشك أن تودى بهذا المجتمع إلى التهلكة . أنت تحذرنى مما يجب علىَّ أداؤه ، ولقد قمتَ به أنت لى ، فكيف لا أقومُ به لغيرى ممن هو أحوجُ إليه منى ؟

ولم تمض بضعة أسابيع حتى أخبر الإمام وهو جالس يُلقى درسه أن الإيطاليين ألقوا بالمسلمين من الطائرات ولا سيما المجاهدين فى ليبيا ، فغضب الإمام غضبًا شديدًا وحزن حزنًا بالغًا وشرع يملى إحدى قصائده وقد غمره الانفعال بما أخبر به ، وبدت عليه فى الحال آثار ما نزل به من مرض ، وثقلت يده ورجله على أثر جلطة دموية ألمت به .

وقد صدر أول خبر عن حالة الإمام الصحية فى العدد السادس من السنة الأولى والصادر فى شهر المحرم ١٣٤٦ هـ من المدينة المنورة مجلة السعادة الأبدية ص ٤٤ تحت عنوان : عَجَّلَ اللهُ له الشفاء ، حيث يقول الخبر :

ألمَّ بفضيلة مولانا السيد محمد ماضى أبو العزائم مرض بسيط فى أوائل هذا الشهر ، وكان ذلك عقب إجهاد فكره واستغراق ليله ونهاره فى العمل لخير المسلمين فى هذا

---

(١) مرض الشلل .

(٢) الموت .

الظرف العصيب الذى تكالبت فيه عليهم أمم الغرب ، فنجم عن هذا الإجهاد الذى لا يقوى عليه الجسم فى مثل هذا السن ضغط دموى على القلب . ولما شعر فضيلة السيد بمبادئ المرض استقل سيارته إلى الدكتور الشهير محمود عبد الوهاب ، فأشار على فضيلته بالتماس الراحة التامة والكف عن التفكير والجهد . وفى اليوم الثانى عادَهُ من الأطباء الدكتور عبدالعزيز إسماعيل والدكتور إسكندر الجرجاوى والدكتور محمود معاذ والدكتور محمد بك النجار كدوائى والطبيب الفرنسى الشهير كاركولو ، وقد اتفقت آراؤهم جميعًا على التزام السكينة والراحة التامة والبعد عن كل المؤثرات . ومع ما أشار به علينا فضيلة السيد من تكتم الخبر لئلا تنزعج القلوب ، فقد انتشر الخبر ، وتقاطر على دار آل العزائم الوفود من سائر أنحاء القطر المصرى للاستفسار عن صحة هذا السيد المحبوب لما له فى قلوب من عرفوه من المكانة السامية والمحبة الخالصة . ونحن نبشر جميع إخواننا من حضر منهم ومن لم يحضر أن صحة مولانا السيد قد تحسنت كثيرًا والحمد لله ، وأنه يسير الآن نحو العافية بخطوات سريعة . عجل الله لفضيلته الشفاء وألبسه ثوب العافية القشيب .

وبالرغم من وجوده رضى الله عنه فى فراش المرض ، ورغم قرار الأطبار له بلزوم الراحة والسكون ، ورغم إلحاح كبار الأطباء وعظماء الزوار عليه ألا يشغل باله بأمر من الأمور خصوصًا ما فيه إجهاد الفكر والعقل ، فلم تمض أيام على مرضه إلا وقد أبت نفسه العالية وروحه الفياضة بالحكمة والعرفان وعزيمته القوية وقلبه المفعم بالآمال لخير الإسلام والمسلمين إلا أن يكون مجاهدًا فى كل نَفَس من أنفاسه ، أبى فضيلته إلا أن يقضى كل أوقاته فيما يعود على المجتمع الإسلامى بالخير العام ، فخرج يحمله بعض خواصه إلى الزاوية للاستمرار فى حلقاته المتوالية لتفسير القرآن الكريم .

وما أن جاء يوم الجمعة ٢١ صفر إلا وتشرف وفد لجنة الخلافة الإسلامية بالدقى بزيارة دار آل العزائم للاستفسار والسؤال عن صحة الإمام وهو رئيس جماعة الخلافة بوادى النيل . ونزل الإمام إلى الزاوية إلى أن انتهى إلى مجلسه الخاص ثم طلب المصحف الكريم ، فتلى مُقرئُهُ الخاص الشيخ مفتاح زيدان عليه قول الله تعالى : ﴿الۤمۤ * أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يُفتنون﴾[٣] ، فشرح الآية كعادته بأسلوب جميل على قدر ما يسمح المجلس ، وأحس خاصته بتعبه وإجهاده ، فالتمسوا منه رحمة به وشفقة عليه أن يعود إلى حجرته الخاصة ، فاستأذن الإمام من الحاضرين طلبًا للراحة .

وبعد ذلك بشهر تقريبًا ، وعملًا بنصيحة أطباءه فى طلب الراحة فى جو هادئ ،

---

(٣) سورة العنكبوت آية ١ ، ٢ .

وإجابة لملتمس تلاميذه بالواسطى ، توجه الإمام إليها بالقطار وسط حفاوة وتوديع الكل له . وكان بالقطار نخبة من الوجهاء وبعض رجال القضاء والموظفين ، ولم يكن بينهم بالطبع من يجهل فضيلة السيد ولا مكانته الدينية فى المجتمع ، وكانوا جميعًا ملتفين حوله وهو مقبل عليهم يحدثهم بأحاديثه الدينية العذبة . وأثناء الحديث سأله أحدهم عن رأى فضيلته فى الحالة الحاضرة فى مصر فأجاب بالآتى (٤) :

إن أملنا فى الله تعالى يملأ قلوبنا ويبعث فى نفوسنا قوة التفاؤل بما فى المستقبل من سعادة مصر وخيرها . إن الأمة الآن فى أشد الحاجة إلى التمسك بالدين والرجوع إلى ما كان عليه السلف رضوان الله عليهم ، ولا أقصد بالرجوع التأخر والانحطاط ، وإنما أعنى به إحياء ما كان لسلفنا من مجد وتمكين لم يصلوا إليه إلا باتحاد قلوبهم على نصرة الحق وإعلاء كلمة الله . إنهم لم ينشأوا ملوكًا ولا قادة ، بل كانوا قبل الإسلام وحوشًا غلاظًا ، فلما تلقوا الحرية من القرآن الكريم لم يروا فوقهم إلا الله تعالى ، فقاموا بقلوب تلتهب غيرة ، وصدور تفيض إيمانًا وعقيدة ، ففتحوا نصف العالم تقريبًا ، وتغلغلوا فى قلب أوروبا وآسيا بل ووصلوا إلى أمريكا الشمالية ، فقد اكتشفوا من آثارهم عند بوغاز بهرنج حجرًا مرسومًا عليه دائرة منطقة فلك البروج ، كل ذلك سببه التمسك بروح الدين الذى جعل الجهاد فى سبيل الحق من أقدس الواجبات ، لا تحسبوا أن ديننا الحنيف يدعو إلى الرجعية أو الجمود ، أو يقف بمعتنقيه عند حد الأحكام والعبادات وما يليهما .. إن الذى يحكم على الذين يمثلون هذا إنما هو جاهل بحكمته ناكب عن سبيله ومقصده .

إن القرآن الكريم مملوء بالحث على تعلم الصناعات والعلوم والفنون واستخراج كنوز السموات والأرض ، ولا أدل على ذلك من تاريخ أسلافنا المجيد ، فإنهم لما آخذوا بتعاليم القرآن وتفهموا روح الدين وحكمته قاموا فملأوا الأرض علمًا ونورًا وعدلًا ، فألفوا المجلدات الضخمة فى مختلف العلوم ، ونشروا الصناعات والفنون ، وعرفوا كيف يسوسون ممالكهم الواسعة بالقسط والمساواة . ولقد سرنى انتخاب مصطفى النحاس باشا لرئاسة الوفد فى عهد الوزارة الحاضرة التى يرأسها صاحب الدولة ثروت باشا ، وهو الرجل الذى عرف الحكمة والكفاءة مع ميله إلى الدين وأهله ، وتجمع وزارته رجال الغيرة والجهاد فى سبيل الدين والوطن أمثال محمد باشا محمود وأحمد باشا خشبه وعلى باشا الشمسى ونجيب باشا الغرابلى وغيرهم .

ثم استطرد فضيلته متكلمًا عن الحالة الاقتصادية ، ثم قال : إن أساس نهضة الأمة يقوم بالدين أولًا وبالذات ثم بالثروة . وثروة البلاد تنحصر فى حاصلاتها الزراعية التى من

---

(٤) مجلة السعادة الأبدية .

أهمها القطن . فوصيتى إليكم أن تحافظوا على هذه الثروة ، وأن تهتموا أعظم الاهتمام بتنميتها والعمل على إعلاء شأنها والاحتياط فى بيعها وتصريفها من دسائس التجار .

ثم ختم كلامه رضى الله عنه بالحث على التمسك بالسنة ونبذ البدع والعناية بتربية النشء وتغذيتهم بما يجعل منهم رجالًا صالحين للعمل لدينهم ووطنهم وأهلهم .

وكان القطار قد دنا من الواسطى ، فودعه الجالسون فى لهفة وأسف . وما أن وقف القطار حتى اندفعت جماهير المستقبلين كأنها السيل ، واستقل فضيلته السيارة وجماهير المستقبلين تتبعه حتى وصل الركب إلى سراى شاكر بك المهندس الواقعة على ضفاف النيل التى أعدها آل العزائم بالواسطى لنزول فضيلته . وقد أقيم تجاهها سرادق فخم لاستقبال زواره من نواحى الواسطى والفيوم وبنى سويف . وظل فضيلة السيد يستقبل كل تلك الوفود بما عرف عنه من رقة ووداعة يمتزجان دائمًا فى أحاديثه الدينية وعظاته العالية . والحق أن سيادته كريم بقدر ما هو حكيم ، إذ لم تثنه تعليمات الأطباء وتشديد خاصته بالتزام الراحة التامة عن أن يلقى على كل زائر ما يناسبه من حكمة وموعظة حسنة وقد انتقشت كلماته على قلوبهم ولهجت بالثناء ألسنتهم .

ومع اقتراب ذكرى الإسراء والمعراج ، زاره سمو سلطان حضرموت ومعه ولى عهده ووزير خارجيته الذى بقى لحضور الاحتفال . وأثناء لقاء الإمام بالسلطان ، ألقى سماحته درسًا فى أخلاق الملوك والسلاطين العاملين بكتاب الله وسنة رسوله وما أعد لهم فى جنات الخلد ، والفائدة التى تعود من تعارف الشعوب الشرقية ببعضها ، وما تنتجه الرابطة ، وذلك بأسلوب حكيم جذب هذا السلطان حتى إنه كان يقبل يدى السيد بين آونة وأخرى قائلًا : إن هذا هو الفرد الذى شاهدتُ فيه العمل بكتاب الله وسنة رسوله .

وقد ألقى نائبه خطبة فى الاحتفال بالذكرى عدَّدَ فيها صفات الإمام ، ومما قاله : لستُ بمبالغ إن قلتُ إن هذا هو وارث حضرة المصطفى صلوات الله عليه أخلاقًا وأعمالًا وأحوالًا ، ولو كان هذا فى بلادنا لكان فوق الملوك قدرًا ، ولن تنال الأمة خيرًا إذا لم تجتمع حول هذا القلب الرحمانى الذى إذا أقسم على الله لأبرّه ... إلى آخر حديثه .

ثم ألقى الإمام درسًا فى الإسراء والمعراج أنصت له الكل وكأن على رءوسهم الطير ، حيث طوَّفَ بأرواحهم فى بيان آية الإسراء والمعراج ، وقد نشر ذلك بالتفصيل فى جريدة الأهرام (١٩٢٨/١/٢١) تحت عنوان (ليلة المعراج) ، وجريدة السياسة (١٩٢٨/١/٢٤) تحت عنوان (سلطان حضرموت : تناوله طعام العشاء على مائدة حضرة الأستاذ الشيخ محمد ماضى أبو العزائم) ، وجريدة مصر (١٩٢٨/١/٢٥) تحت عنوان (سلطان

حضرموت) ، فارجع إليه إن شئت .

وبعد مضى عام على مرضه جاء موعد الاحتفال بذكرى مولد المصطفى ﷺ ، وكعادته فى كل عام تناول بالشرح سورة الكوثر مبينًا ما فيها من الأسرار ، ورذاذًا من مقامات رسول الله ﷺ لأهل القلوب المشرقة بأنوار علام الغيوب ، واستغرق فى بيانه حتى أصابه الإرهاق الشديد ، فخشى عليه خاصة تلاميذه وطلبوا منه أن يستريح .

ولما بلغه رضى الله عنه نبأ قتل الإيطاليين للمناضل الليبى الكبير عمر المختار ، وإن موسولينى يدعى أنه حامى حمى الإسلام ، وكان الإمام مريضًا لا يستطيع القيام ، طلب من مرافقيه أن يجلسوه فى سريره ، وألقى القصيدة التالية : وطلب أن ترسل إلى موسولينى :

يا وحش روما[5] تادب	فلستَ كسرى وقيصر
وطعنة القهر تاتى	وانت كالثوبِ تُنشَر[6]
كبير لندن[7] فاحذر	فالله ربك اكبر
وطعنة القهر تاتى	من حيث لا تتصور
الله ربى غيور	فاحذر يَغار فتُقهر
وكيف يرضى إلهى	بالظلم يعلو ويظهر؟
اغار ربى تعالى	على العباد وانذر
فسارعوا بمتابٍ	يا آل كسرى وقيصر
اولى بامر عصيب	والعبد[8] اوصى وحذر
وصيتى فاقبلوها	انا لا أرد المقدر
عيسى اتى بسلام	نعمة الله تُشكر
أُعطيتمو الملكَ فضلًا	وفضل ربى يُذكر
كفرتمو بالإلهِ	ذو العرش بالعدل يظهر
توبوا إليه انيبوا	فقهره ليس يُنكَر

---

(٥) إشارة إلى موسولينى .

(٦) وقد تم تعليق موسولينى وأعوانه من أرجلهم وأعدموا رميًا بالرصاص ، كما يعلق الثوب من أسفله .

(٧) إشارة إلى جورج الخامس ملك إنجلترا .

(٨) إشارة إلى الإمام .

وكـــم ازلّ ظـــلـــومًـــا لـــا طـــغـــى وتـــكـــبر

ومع شدة المرض وزيادة وطأته ، كان رضى الله عنه حريصًا على مجالسة إخوانه ، وكثيرًا ما كان ينتقل من مكان إلى مكان متكئًا على عصا أو محمولاً من خاصة تلاميذه ، وكان يفتتح مجالس الذكر جالسًا ، ثم يشتد به الحال فيذكر الله قائمًا فينسيه ذكر الله ما ألمّ به حيث ترجم عن ذلك مرّة منشدًا :

يا ذكرُ قد انسيتنى شيخوختى والحتّ لى يا ذكرُ اسرارَ العيان

وخلال سنوات مرضه تلك التى سبقت انتقاله إلى جوار ربه ، مرضت زوجته السيدة « منتهى طلبه » مرضًا أقعدها عن خدمته ، فاحتاج إلى زوجة أخرى تعينه وتخدمه ، فتزوج السيدة « لبيبة محمود سلامة » التى توفيت أثناء حملها ولذلك سماها الإمام أم الشفيع ، ثم تزوج رضى الله عنه بالسيدة « عزيزة السماحى » من البرلس وهى آخر زوجاته .

وفى عام ١٣٥٤ هجرية (١٩٣٥ ميلادية) استخرج الإمام تصريحًا رسميًا من وزارة الداخلية لبناء المدفن الخاص به فى نفس مقر سكنه وبالتحديد فى غرفته الكبيرة [٩] التى تطل على الزاوية ، وحُفرت بها الروضة التى سيدفن فيها ، وكان قد تم بنائها قبل ذلك (شهر رجب ١٣٤٨) فى نفس المكان ، وهى بطول ٣,٥ وعرض ٢,٨ مترًا وتسع لفردين .

وفى أواخر شهر المحرم من عام ١٣٥٤ هـ اشتد به المرض ، فلاذ به أهل محبته والخاصة من تلاميذه ، وانفض منْ حوله القليل ، وهم من طلاب الدنيا الجاهلون بقدره ، ولما أراد الجلوس حاول بعض من حوله إجلاسه ، ولكنه رفض وجلس رغم مرضه الشديد وبدون مساعدة أحد ، فأنشد رضى الله عنه يقول :

رجل بالفٍ كيف لا يقوى الجلوس وهو المُمِدُّ وقدره فوق النفوس
الجاهـلـون بـقـدره مـن حـولـه باعوه فى سقم بابخاس الفلوس
لـو انهم عـلـمـوا بـه فى سـقـمـه لراوه اعلى من دروس من شموس
بـاعـوه بـيـعـة زاهـدٍ جـهـلًا بـه لو قدروا وضعوه من فوق الرءوس
كنتُ الرحيمَ بطفلهم وكبيرهم حتى سقّيتهم الطهور بلا كنوس

(٩) وهى بطول ٩,٧ وعرض ٧,٥ مترًا . وهى تمثل الآن جزءًا من المسجد .

وبرغم اشتداد المرض عليه ، فقد كان يحضر الحضرة ويلقى قصيدة الذكر ثم يعطى الدرس للإخوان ويصعد إلى غرفته لراحة قليلة ، ومرة جاءه بعض الإخوان أثناء راحته فقرأوا الصلوات على الرسول ﷺ ، قبل بداية الذكر وإذا بالإمام يخرج عليهم كى لا يحرمهم من ذكره معهم وأنشد قائلًا :

بحالكمو جددتمو حالى القديم واشجانى	فرفقًا بحالِ سقيم فالسقم اضنانى
فإنى لا اقوى على الحال إخوتى	وحالى علىَّ فوق جسمى واركانى
تحملت حالكمو مع السقم والضنا	ومن يحملن حالى ؟ وحالى روحانى
اريحوا فتى فى ثورة السقم والضنا	يروح من الأذكار فى القرآن
سلام عليكم من حبيب مقربِ	سرى فدنا للواحد الديان[10]

وكان البعض منهم يظن أن الإمام نظرًا لمرضه قد قل إدراكه وذلك لعدم كلامه فترة ، فنادى الإمام أحد أتباعه - وكان ذلك فى البرلس - وقال له : يا بنى إن البرلس قد أخذت منى قسطًا وفيرًا ويجب عليه الشكر لله ، وقد أمليتُ هنا قصيدة تشير إلى معانى الشكر فهل تعرفها ؟ قال : نعم . وقالها :

إن كان شكرك فرضًا	فمن يقوم بشكرك ؟
انت الشكور إلهى	بالفضل وفق لذكرك
الشاكرون عباد	لن يدركوا سر قدرك
وشكرهم لك نُعْمَى	والنِيَّتهم من خيرك
قد يوجبُ الشكر فرضًا	عليهمو سر امرك
فاشكرْ إلهىَ عنا	نعماك فضلًا ببرك
إنا عجزنا جميعًا	عن أن نقوم بشكرك

فقال الإمام له أكمِلْ ، فقال : إن هذا آخرها وقد أمليتها علينا سبعة أبيات ، فقال له الإمام : اكتب :

والعجز حمدٌ وشكرٌ	والعبد قد صار يدرك

وفى عام ١٣٥٥ هجرية ، أى قبل الانتقال بسنة بالضبط ، وفى المناسبة السنوية

(١٠) قالها رضى الله عنه فى ٢٦ رجب ١٣٥٤ .

للاحتفال بذكرى الإسراء والمعراج ، وكما هو معتاد فقد كان من المقرر أن يلقى الإمام كلمتة في السرادق المعد ، ولكن لم يتمكن الإمام من ذلك لظروفه الصحية ، وظل فى غرفته ، وأناب عنه أحد أبنائه لإلقاء كلمته ، وكان هناك أخ سيلقى كلمة بمناسبة الاحتفال أمام الإمام ، فلما علم أن الإمام لن يستطيع الحضور لمرضه قرر أن لا يلقيها . وفجأة وجد أن الإمام يستدعيه فتوجه إلى غرفة نومه ، وطلب منه أن يلقى كلمته أمامه وهو فى سرير مرضه فى خلوته . وبعد الفراغ من إلقاء الكلمة قال له الإمام : لقد سمعتُها ، فلابد أن يَسمعُها الناس ، وأنا معكَ فى الصيوان كما أنا معك الآن ، هيا يا ولدى ولا تبخل بما آتاك الله من فضله . وهذا هو نص الخطاب[١١] :

سيدى ومولاى .. سادتى :

قف على الروض يا حمامُ وغرِّدْ	واشدُ باللحن فى سماكَ وردِّدْ
قل تعالى المُحيى المُعز تعالى	باعثُ الروح بالجمال المُخلدْ
مَظهَرُ اللهِ فى الشفاء عظيمٌ	يا مفيضَ الشفاء إياك نعبدْ
ذاك عيدُ الأفراح عيدُ التهانى[١٢]	إذ تجلى المُعيدُ احيا وجَدَّدْ
ايها القومُ عادَ ماض إلينا	عادَ بالروح والكيان مُحمدْ

وبعد أن قدَّم لحديثه .... قال :

إخوانى .. كثيرٌ علىَّ أن أقف الليلة مثل هذا الموقف الرهيب ، أقف أمام من عَلَّمَ وأتكلمُ !! ، واقف بين يديه وأنا موطنى تحت قدميه ، وأظهر حيث كنت أوثر أن أختفى ، ولكنها روح علية ونفخة قوية سرت فى دمى ولحمى وتفجرت من قلبى على فمى وقالت لى : هذه الليلة عيدنا فتقدم وقف وتكلم وسبح بحمد ربك الأكرم الذى علم الإنسان ما لم يعلم .

ما أجملَ نعمتك يا الله ، لقد كنتَ فى إبلائك عظيمًا بقدر ما تجليتَ فى عطائك كريمًا ، أبليتَ ثم أعطيتَ ، وأمرضتَ ثم شفيْتَ ، وأنت فى هذا وذاك أنت ، ولكن أبيْتَ

---

(١١) مجلة (المدينة المنورة) السنة ٩ العدد ١٠ (٧ شعبان ١٣٥٥ هـ الموافق ٢٣ أكتوبر ١٩٣٦ م) . المقالة بإمضاء ن . م . ويعتقد أنه الأخ نبيه مدكور .

(١٢) كان الإمام مريضًا لمدة ستة شهور ، ثم تقدمت صحته إلى الأحسن ، فجهز الأخ خطبته على أن الفرح فرحان : فرح الاحتفال بمناسبة الإسراء وفرحة شفاء الإمام وعودته إلى إخوانه ، ولكن الإمام أحس بالوعكة الصحية قبل إلقاء كلمته بساعات .

إلا أن تختفى وراء أسمائك وصفاتك، وتتنكر خلف أسبابك وآياتك، لتميز بين عبادك وتبلو قلوب أوليائك، ولتدعَ العقول حيرى تتخبط فى محيط الأسباب وتضل فى ظلمات الأوهام، حتى إذا طلعت عليها شمس قدرتك فأذابت الحجب وأشرقت من غير سبب، هتفت باسمك الأرواح وسجدت لعظمتك العقول، ونادى كلٌ: سبحانك إنى كنتُ من الظالمين.

سادتى وإخوانى: لقد كنتم تجتمعون فى مثل هذه الليلة من كل عام لتحتفلوا بذكرى الإسراء، ولتحيوا ليل هذا العيد الذى أسرى الله فيه بحبيبه صلوات الله وسلامه عليه إليه وأراه من آياته وأسمعه لذيذ مناجاته وكشف له الحجاب عن وجهه الجميل. أما الليلة فقد شاءت عناية الله أن تجمع لنا بين عيد سعيد وعيد جديد، بين عيد الإسراء وعيد الشفاء، بل بين عيدين للإسراء معًا، فلقد كانت الروح العلوية سارية فى ملكوت الشهود ما يقرب من نصف عام، ولو قد لبثت فى سبحها وجاءت هذه الليلة لحرمنا شهود عيد الإسراء، ولاحتبس عنا غيث السماء، فشروق هذه الطلعة فينا شروق لشمس الإسراء، واحتفالنا بشفاء هذا الجالس بيننا هو احتفال بليلة الذكرى، إذ لولاه لما اجتمعنا هذه الليلة، ولولاه ما شهدنا جمالها ولا ذقنا خمر شرابها ولا سعدنا بها.

من أجل هذا ترون ما أضفاه الله على تلك الليلة من حلل السرور وألوية النور، وتحسون أن الفرح بها فرح مزدوج، والابتهاج فيها شامل كامل، وكيف لا وقد امتزجت نشوة الذكر بلذة الشكر، ولئن كان الشكر موعودًا من الله بالمزيد فليس بعجيب أن يهبط علينا عيد الإسراء ومعه عيد.

سيدى ومولاى: لقد كان لى شرف الحظوة بمعيتك الذاتية خمسة عشر عامًا أو يزيد، شهدتُ فيها من آيات معرفتك ومن كمال عبوديتك لله ما هذب نفسى وأذهلنى عن وجودى وحسى. ولقد صحبتك فى السفر والحضر وفى الخلوة والمجتمع، وكنتُ تحت أقدامك فى ميدان السياسة وحلبة الدين، وبيدى هذه لقد كتبت عنك ما كنتَ تثيره فى صحف العالم من حرب على طغاة المستعمرين، وشَهِدْتُ الدنيا بمالها وزخرفها وجاهها تحبو إليك وأنت تركلها بقدميك، وأشهد أنك كنت فى كل طور من أطوارك مثلًا أعلى للعبودية الكاملة وعنوانًا صادقًا على التضحية والفناء فى محبة الله. ولكن هذا الطور الأخير كان شيئًا آخر يختلف عن كل ما شهدتُ ويسمو على كل ما عرفتُ، لقد كنتَ تناجى الله فى جوف الليل مناجاة تنخلع لها الصدور وينفجر من ثناياها النور، وكنتَ المثل الأعلى للصبر والرضا والاحتمال. تعلمنا - حتى فى هذا الموطن الذى ينسى المرء فيه كل شئ - كيف يكون الرضا عن القضاء والأنس بالله فى البلاء، كنتَ تسبح

وتقدس وتشكر على ألم الداء ومرارة الدواء .

انظروا كيف كان وهو فى سقمه أطال الله حياته ، يتملَّكُهُ هَمُّ المسلمين فيعلو فى همه بنفسه ويشغله عن التفكير فى صحته ، كأنما قد تحلل العالم الإسلامى بأسره فى شخصه ، وأصبحت أمم المسلمين أعضاء فى جسده لا تُشاكَ منها أمة بشوكة إلا وجد ألمها وشاركها همها وقام يناضل عنها ويدعو الله من أجلها .

هذه حالة إخواننا المسلمين فى سوريا وفلسطين وغيرهما ، هل شَغَلَهُ عنها سقمه أو أغفله عن الجهاد ألمه ؟ لا والله .. وإنى لموقن أن هذا الانتصار الذى أحرزه المجاهدون من المسلمين فى صد غارات المستعمرين إنما هو قبس من نور هذا القلب الذى يبيت يناجى ربه فى ظلمات الليل : يا رب أهلك الظالمين بالظالمين وأخرج المسلمين من بينهم سالمين غانمين .

وإليكم بضعة أبيات رقيقة من مقطوعة جفرية أملاها علىَّ رضى الله عنه قبل أن تعلن الحرب فى الحبشة يتوجه إلى الله ضارعًا أن يمحق الظلم وأهله ، ويتميز غيرة وألمًا لتحكم هؤلاء الطغاة فى الأرض بغير الحق . ولو سألتمونى رأيى لقلتُ أن تلك الثورات المشتعلة فى كل مكان قد انفجرت من بين هذه الأبيات :

يا وحشَ روما تأدب ... فلستَ كسرى وقيصر
وطعنة القهر تأتى ... وانت كالثوب تنشر
كبير لندن فاحذر ... فالله ربك اكبر

أيها السادة : ولقد أرانى هذا الطور الأخير ما لم أكن رأيت ، وعلمنى من تلك الذات ما لم أكن أعلم . وكنت أود أن أطيل فى هذا الصدد ، ولكن جمال هذا العيد قد طغى على جلال العلم والشهود . وقد أذهلتنى نشوة الفرح عن كل ما شهدت وعلمت .

سيدى ومولاى : لم يبق إلا شئ واحد هو الذى يحز فى صدرى ويملأ قلبى ألمًا ونفسى ندمًا : ذلك أنك وفيت لنا كل الوفاء ونحن لم نستطع أن نوفى لك بعض فضلك ولا أن نقوم بذرة من شكرك أو شكر الله على نعمته علينا بك ، بل ليس فينا من يستطيع أن يرفع وجهه ليطيل النظر إلى وجهك المتلألئ الجميل دون أن تصبغه حمرة الخجل وتحتبس فى عينه دموع الندم ، لقد كان هذا الطور الأخير محنة لنا وفتنة . ولقد سنحت لنا فرصة كنا نستطيع فيها لو وفقنا الله أن نقيم الحجة على صدق الدعوى وحسن الاتباع ، ولقد كان أدنى ما تستحق منا أن نبذل فى سبيلك النفس والنفيس وأن نوصل

على أعتابك الليل بالنهار، ولكن عجزنا عن الوفاء لك هو شفيعنا اليوم إليك، ولا زلتَ يا سيدى أهلًا للإحسان ولا زلنا أهلًا للإساءة، لئن كانت شيمتنا الذنوب فإن شيمتك ستر العيوب والأخذ بيد العاثر القاصر، وإن فرحتنا بشفائك هى عزاء حسرتنا على التقصير معك، فتجاوز يا سيدى عن جهد المقل فأنت للعفو والحنانة أهل. واللهَ نسألُ أن يعيد علينا هذا العيد السعيد ومثله معه ونحن فى ظل هذه الدوحة الوريف من ثمارها ونسبح فى أنوارها، وأن يجعلنا يا سيدى من أهل معيتك يوم يظهر الله بك دينه على الدين كله.. إنه سميع مجيب.

وقبل الوفاة بحوالى ثلاثة شهور، توجه الإمام إلى مسجد سيدى زغلول برشيد (يوم الأحد ١٩ ربيع الآخر ١٣٥٦ هـ) وصلى كثيرًا، ثم زار المقام، ووقف فى المكان الذى ولد فيه منذ حوالى سبعين عامًا قمريًا عندما زارت المقام أمه وهى حامل فيه ثم فاجأها المخاض وولدته. لقد اشتاق الإمام إلى مكان ولادته ليشاهد معانى وجوده وفضل الله عليه طوال سبعين عامًا، ثم سلم على أبيه وسلم على أمه من هذا المكان اعترافًا بفضل الله عليهما فى إبرازه للحياة، وألقى هذه القصيدة فى مقام المواجهة والحضور فقال:

هنا استحضرى روحى افتتاح وجودى ... لدى ولدتنى الأم.. بدء ورودى

بمسجد زغلول وُلِدْتُ وهاانا ... وبعد مشيبى جئتُ للتجديد

ازور مكان ولادتى بعد شيبتى ... واسال ربى مُبدِئِى ومُعيدى

جمال العطايا فى مشيبى ولاية ... انال بها الزلفى لدى تفريدى

بمسجد زغلول حضرت لأجتلى ... معانى وجودى حال فك قيودى

سلام على امى، سلام على ابى ... انلنى إلهى الكشف حال شهودى

ايا رب فاحفظنى لدى شيخوختى ... وهب لى إلهى الخير فضل مزيد

وكن لى فى حلى وفى كل رحلتى ... بفضلك والإحسان غير جهود

ايا رب اشهدنى وكل احبتى ... جمالك ياوهاب جود ودود

بارض رشيد عند زغلول لاح لى ... جمال افتتاح البدء حال ورودى

تذكرت بدئى بعد سبعين حجة ... فشاهدت اطوارى وصح وجودى

كانى طفلٌ بعد سبعين قد مضت ... من العمر هب لى ياولى قصودى

انلنا العطايا واسعاتٍ إلهنا ... ادر لى الصفا من حوضك المورود

جوار رسول الله اكمل مرسل ... واهلى واحبابى وكل مريد

وسيلتنا طه الشفيع محمد ادار علينا خمرة التوحيد

وكان الإمام رضى الله عنه قد أملى فى جموع الإخوان جملة من الوصايا ، أحس الجميع منها بقرب مفارقته للدنيا ، وقد تأثر إخوانه أيما تأثر عندما خاطبهم متمثلًا قول الإمام الغزالى[١٣] رضى الله عنه :

قل لإخوان يرونى ميتًا ليس والله بالميت انا
انا عصفور وهذا قفصى طرت منه الى دار الهنا
لاتظنوا الموت موتًا إنه لحياة وهو غايات المنى
لاتَرُعْكُمْ هجمة الموت فما هو إلا نقلة من ها هنا

ثم أخذ يلاطفهم برحمته المعهودة ويواليهم بعظاته ويسرِّى عنهم ما ألمَّ بهم .

وأثناء تواجده بمنزل الأخ محمد عبد ربه بالاسكندرية قبل الوفاة بشهر ، أملى رضى الله عنه :

مولاى اسرع بى الى الوجه إنى فنيت عن الأولاد والأهل
إنى فَنَيتُ عن الدنيا ولازمها وعن بنيها ، عن الأولاد ، عن اهلى
مولاى انت ولىّ والوكيلُ فكن عونًا لهم ، يسرن لى سيدى سؤلى
مولاى فاغفر لى ذنبى واكرمن بالعفو وارحم عُبيْدًا جاء بالذل
منى سلامٌ على اهلى على ولدى استودع الله من ابقيت بالفعل
كذاك من مرضونى ابتغى لهمو خيرًا عميمًا وحُسنىَ واهب الطول
وزج بى فى رياض القدس مشرقة انوار وجهك بالغفران والوصل
منى عليهم سلام الله اسألُهُ يُعطيهمو خيره فى الفعل والقول
عقوا الأبوة فاغفر سيدى لهمو وخذ عُبَيْدك للجنات فى سهل
الدارُ دارُ غرور كلها ألَمٌ[١٤] قد تبتُ فاغفر لى يا واسع الفضل
مختار ريحانتى مهدية بنتى[١٥] ارجو لها وله من فضله الكلى

---

(١٣) وقيل إنه قول السهروردى عند وفاته .

(١٤) العارفون كانوا يقولون عن الدنيا إنها دار أمل ، ولكن الإمام أبو العزائم أخبر بأنها دار ألمٌ .

(١٥) أولاد الإمام من السيدة عزيزة السماحى زوجته الثالثة .

كونوا مع الله فى ادواركم فعسى ان تُمنحوا فضله بالحول والطول
يا رب صل على المختار سيدنا فى القبر وسّع لى واجعل به وَصْلى

وعندما استشعر رضى الله عنه شدة المرض ودنو الأجل وقرب ساعة الرحيل إلى الرفيق الأعلى ، أمر الإمام أن تفتح خزانته ، وأخرج كل ما فيها من نقود ، ووزعها على أولاده وأهله وذوى رحمه ولم يُبْقِ منها شئ لأنه لا يريد أن يخرج من الدنيا وفى بيته شئ منها تأسيًا بالنبى ﷺ فى إخراج ما فى بيته قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى عندما كان آخر عهده بالدنيا ، ثم نقل الإمام إلى « مستشفى بابا ينى » بالدقى صباح يوم الأحد الموافق ٢٦ رجب ١٣٥٦ هـ حيث أجريت جراحة لتوسيع مجرى البول وخرج الأطباء على إثرها مستبشرين ، وكان ولده الأكبر السيد أحمد ماضى أبو العزائم ملازمًا له .

وبعد فجر يوم الاثنين ٢٧ رجب ١٣٥٦ هـ كان الإمام نائمًا فى سريره ، فلما تحرك أسرع السيد أحمد ماضى أبو العزائم إليه وقبل يده ، فقال الإمام له : لا تنزعج يا ولدى .. أنا مع الأحبة ، يا ولدى : اعطى فلانًا كذا وفلانًا كذا .. واجعل مختار ومهدية فى عينيك .. ثم توجه لأعلى جهة اليمين رافعًا يديه قائلًا : مرحبًا برسول الله .. مرحبًا برسول الله .. مرحبًا بقضاء الله ، ثم همَّ ليقوم وكأنه يقبل شخصًا فتدلت يديه إلى جواره ، وهنا تحقق نجله من نزول القضاء ، وصعدت روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى بعد حياة امتلأت بالجهاد لم يهدأ له فيها بال نشر فيها العلم بلسانه وقلمه ونافح عن الإسلام وترك من ورائه تراثًا فكريًا ومدرسة رائدة فى الدعوة إلى الله لا يزال نورها يملأ الأفق .

وما أن ذاع الخبر حتى أقبل أبناؤه وتلاميذه وأحباؤه يهرعون من كل صوب ، ونظروا إلى الإمام نظرة أخيرة ، وفى الساعة الحادية عشرة صباحًا نقل الإمام إلى سراى آل العزائم بالحنفى مسجى على سريره فى حجرته الخاصة التى أعد فيها روضته من قبل .

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر نودى لصلاة الجنازة ، وتقدم نجل الإمام الأكبر السيد أحمد ماضى أبو العزائم لصلاة الجنازة ، وأُلْحِدَ الإمام فى روضته .

وهذا ما شاء الدائم الذى له الخلق والأمر ، دعا الإمام إليه بعد أن أدى الأمانة وقام بالتكليف وأرسى القواعد وشيد البنيان وترك الأبناء والأحباب والمريدين على الصفاء والوفاء والمحبة ، واستودعهم ذخيرة لا تنفد من العلوم النافعة والسيرة الزكية العطرة ، وتلك سنة الله فى خلقه ورسله ، قال تعالى : ﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله

قدرًا مقدورا ﴾[16] .

ثم أذن لصلاة العصر ، وبعد أداء الصلاة أقيمت الحضرة ، ووقف الشيخ عبد الباسط القاضى[17] وقال :

يا آل العزائم ، يا آل العزائم ، يا آل العزائم : إن آل العزائم جميعًا كانوا يخشون هذا اليوم وكانوا يعملون له ألف حساب ، وكان كل فرد من آل العزائم يحب من صميم فؤاده أن يسبق هذا اليوم إلى الدار الآخرة ويكون الإمام الوارث مشيعًا له إلى مقره لا مُشَيَّعًا ، ولكن الأجل المحتوم والقضاء السابق قضىٰ علينا أن نكتوى بناره وأن تستعر قلوبنا بجحيمه ، ووالله لولا سكينة من الله ألقاها وتَمكُّنُ الإمام فى مقام العبدية حيًا فى الدنيا وحيًا فى برزخ القرب الإلهى لصعقت أرواح الكثير منا وللحق به فى هذا اليوم العدد الوافر ، ولكن المواهب الحنانية والرحمة العزمية التى غمرنا بها الزمن الطويل لم تزل تواليـنا ، ولم يزل نور عطفه ولطفه ووده من حوضه يسقينا ، وشمسه أبدًا مشرقة علينا ، وأمثلته فى كل شعب ووادٍ وصوره التى صورها له الحق إكرامًا فى الكرة الأرضية لا حصر لها ، والنفوس التى زكاها بعلمه وعمله وحاله ظاهرة للعيان لا تخفى إلا على من أعماه الهوى وأبعده الحظ والحياة الدنيا ، وكيف لا يكون المثال محفوظ والإمام قد أدى الأمانة وبلغ ما والاه به مولاه . فها هو يا آل العزائم كوكب شمسه أمامكم ودرة كنزه صوبكم : نجله الأكبر ونائبه الذى اخترتموه فى حياة الوارث وأقركم على ذلك رضى الله عنه . فهيا اليوم فبايعوه وأجمعوا أمركم وسيروا فى طريق إمامكم واعلموا أن الله وليكم وناصركم والمدد واصل إليكم ، لأن العطايا الإلهية والمواهب الأحمدية التى كان منها يمدكم لم تزل أبد الآبدين ودهر الداهرين ، وقد بينها رضى الله عنه ووضحها حتى أصبحت تُحَسُّ وتجس وكتب عنها نظمًا ونثرًا إجمالاً وتفصيلاً قال : إذا زكت النفوس فهى كالشموس ، وإذا صفت القلوب واجهت علام الغيوب ، وقال واصفًا لنور المصطفى ومعرفًا :

لا يغيب النور عن اهل اليقين ... كيف ذا والنور فى الأفق المبين
نورنا شمس علت تدعو إلى ... ربنا المعبود مولانا المتين
لم تغب شمس الحبيب محمد ... وهى نور الروح فوقى عن يمين
من يقل غابت فذاك لحجبه ... كيف يخفى نور رب العالمين ؟
شمسنا طه الحبيب المصطفى ... لم تغب يا طالب الحق اليقين

---

(16) سورة الأحزاب آية ٣٨ .

(17) أحد تلاميذ الإمام .

نـورتـنـا الـشـمـس اصـبـح نـورهـا	مـشرقًـا فى كـل فـرد فى امـين
ربـنـا آنـس بـنـورك روحـنـا	كى نرى الـنور بـعين المستبين
فى حـضـور فى غيـاب لـم تـغـب	شمسنا والشمس غابت عن ضنين
ايـنـمـا كـانـت يـعـم ضـيـاؤهـا	تـشـهـدنها الـروح فى عـين الـيقـين

ولكن لابد للهيكل من رمز ومظهر. وقد أقام سيدى ومولاى السيد محمد ماضى أبو العزائم رمزه الجسمانى ومظهره فى الأمانة وفرعه الأكبر والجميع عنه راضون : السيد أحمد ماضى أبو العزائم.

وإنى أشهِدُ اللهَ ورسوله ومولاى السيد أبو العزائم أنى فى هذا اليوم بايعتُ من أقامه مولاى نائبًا وفاءً لولى نعمتى ومربى روحى ومنقذى من الضلالة إلى الهدى، إنى أبايعه على كتاب الله وسنة رسول الله التى بايعنا عليها وعلى القيام بأوامر الإمام وبتنفيذ تعاليمه، وإنى لا أملك إلا نفسى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، فمن شاء أن يوفى لمولانا وأستاذنا بالعهد ويحفظ له البيعة فليتقدم.

وهنا تزاحم الإخوان على تقبيل يد السيد أحمد ماضى أبى العزائم ومبايعته خليفة لوالده رضى الله عنهما بقلوب مفعمة من البكاء حزنًا وألمًا على هذا السيد الأكبر، وفرحًا وسرورًا فى الآونة على هذه التولية التى نالت من قلوب الجميع مكانًا ساميًا له قيمته عند الإمام العارف.

التجديد الدينى فى القرن الرابع عشر الهجرى
(عصر الإمام)

١ - الإمام وتفسير القرآن .

٢ - الإمام وتفسير الحديث .

٣ - الإمام وعلم التوحيد .

٤ - الإمام والنفس البشرية .

٥ - الإمام وحملات التبشير .

٦ - الإمام والإصلاح الاجتماعى .

٧ - الإمام والتصوف .

٨ - الإمام وعلم الفقه .

٩ - الإمام والسماع .

١٠ - الإمام والقصة .

١١ - منهج الإمام فى الدعاء .

إن الكون منذ بداية الخليقة كان يتأهل لظهور النبى والرسول الخاتم سيدنا محمد ﷺ ، ويمكن القول إنه بظهور البعثة المحمدية .. فقد فتحت جامعة خاتم الأنبياء والمرسلين بابها على مصرعيه لكل من على الأرض لأن الله قد أرسله للناس كافة بشيرًا ونذيرًا .

ويمكن القول أيضًا إن الكون من حيث التأهيل العقلى لبعثة الرسالة الخاتمة تدرَّج كما يأتى :

١ - من عهد سيدنا آدم إلى عهد سيدنا نوح كان كمدرسة ابتدائية .

٢ - ومن عهد سيدنا نوح إلى عهد سيدنا إبراهيم انتقل الكون إلى مدرسة إعدادية .

٣ - ومن عهد سيدنا إبراهيم إلى عهد سيدنا عيسى ارتقى الفكر الدينى عن ذلك ففتح الكون مدرسته الثانوية .

٤ - وبعد أن مهد الكل لظهور بعثته ﷺ ، فتحت الجامعة الكلية أبوابها بمختلف كلياتها وشعبها وتخصصاتها ، فوضع رسول الله ﷺ حجر الأساس للعقيدة الحقة والعبادة الخالصة والمعاملة الحسنة والأخلاق الفاضلة ، وظل رسول الله ﷺ يرتقى بالأمة الإسلامية حتى تمم لها مكارم الأخلاق مصداقًا لقوله ﷺ : (إنما بعثتُ لأتمم مكارم الأخلاق)[1] . وبعد أن اطمأن رسول الله ﷺ على الأمة وتطبيق المنهج قال : (إنما مثلى ومثل الدنيا كراكب استظل بظل شجرة ثم راح وتركها)[2] ، وبذلك تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، ثم قال : (إن عبدًا خُيِّرَ فيما عند الله وما عند الناس فاختار ما عند الله) واختار الرفيق الأعلى .

إن الله لم يطل فى عمر حبيبه ومصطفاه ﷺ بالرغم من أنه داعى الخير الأعظم ، وعلى جانب الشر فقد أعطى الله تعالى إبليس النظرة إلى يوم الوقت المعلوم بناء على طلبه ، ولذلك فقد طلب الرسول ﷺ من ربه أمرين وهما : القرآن ، ومن يقوم بالقرآن .. فأمَّنه ربه فيهما .

١ - لقد طلب رسول الله ﷺ من ربه ضمانًا للقرآن حتى لا يُحرّف ولا يُبَدَّل . إذ لاكتاب بعده ليصحح كما صحح القرآن ما قبله من التوراة والإنجيل ، فطمأنه ربه بقوله : ﴿ إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظون ﴾[3] ، وقال تعالى أيضًا له : ﴿ لا يأتيه

---

(١) البخارى ومسلم .

(٢) الطبرانى والحاكم والبيهقى وأحمد فى مسنده .

(٣) سورة الحجر آية ٩ .

الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾[٤] إلى آخر الآيات التى تدل على ذلك .

٢ – ولما اطمأن رسول الله ﷺ على الكتاب طلب من ربه من يقوم بالكتاب بيانًا وتبيانًا فقال له : ﴿إنما أنت منذر ولكل قوم هاد﴾[٥].

ولما نزلت هذه الآية وسُئل عنها رسول الله ﷺ قال : (يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة أمر دينها)[٦] ، وبناء على هذا الحديث فإنه يظهر فى الأمة من يجدد الله به ما اندرس من معالم الدين وما خفى من سبل أهل اليقين ، وقال ﷺ : (العلماء ورثة الأنبياء)[٧] وقال أيضًا : (علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل)[٨]. والعلماء لا يورثون درهمًا ولا دينارًا ولكنهم يورثون العلم والهدى والرحمة ، وهذا الميراث لا يفنى ولا يبلى ، وهو المعنى بقول المصطفى ﷺ : (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدًا : كتاب الله وسنتى)[٩] ، ودليل عدم الفصل بين الكتاب والسنة قوله : (به) وليس « بهما » ، فالكتاب والسنة منهج واحد ، والميراث واحد ، وهى التركة المشار إليها بـ : تركت فيكم .

إن الله قد حفظ رسول الله فى أمته بأمته وبورثته ، فقال لنا مبينًا ذلك : ﴿واعلموا أن فيكم رسول الله﴾[١٠] ، وقال : ﴿وفيكم رسوله﴾[١١] ، ولم يقل وفيكم محمد .. فلم يُناده باسمه فى القرآن أبدًا إظهارًا لعظمة مقامه ، بل بوظيفته الخالدة التى لن تموت أبدًا .

حفظ الله رسوله فى أمته بأمته وبورثته ، فأخبرنا ﷺ منبهًا عقولنا عن ذلك بقوله : (حسين منى وأنا من حسين)[١٢] ، وقال له ربه فى كتابه العزيز : ﴿وتقلبك فى الساجدين﴾[١٣] ، أى تقلب أنوارك وعلومك وحكمك وسنتك فى الساجدين ، فكم

---

(٤) سورة فصلت آية ٤٢ .

(٥) سورة الرعد آية ٧ .

(٦) الحاكم وأبو داود فى كتاب الملاحم والسيوطى فى الجامع الكبير وابن حجر فى فتح البارى .

(٧) أبو داود وابن ماجة وابن حبان والبيهقى والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

(٨) كشف الغطاء للعجلونى حديث رقم ١٧٤٤ ، والفخر الرازى ، وابن قدامة ، والأسنوى ، والبارزى ، واليافعى ، وأشار إلى الأخذ بمعناه : التفتازانى وفتح الدين الشهيد وأبو بكر الموصلى والسيوطى فى الخصائص .

(٩) الإمام مالك فى الموطأ بلفظ [كتاب الله وسنة نبيه] .

(١٠) سورة الحجرات آية ٧ .

(١١) سورة آل عمران آية ١٠١ .

(١٢) الترمذى وابن ماجة والبخارى فى الأدب المفرد .

(١٣) سورة الشعراء آية ٢١٩ .

من ساجد لا يتقبل الله صلاته، ولكن السجود هنا لمن سجد ظاهره وباطنه لله، والعبد إذا سجد بقلبه لله فلن يرفع أبدًا وإن تقلب فى دنيا الناس لكن حقيقته ساجدة لله، وهذا ما يعنيه ربنا فى قوله: ﴿والذين يبيتون لربهم سُجّدًا وقيامًا﴾[14]، أى قلوبهم ساجدة لله عند مبيتهم وحقائقهم قائمة بقيومية الله وقيامًا بحق العبودية له سبحانه وتعالى، ولذلك كان سيدنا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه يقول: (اللهم لا تخلو الأرض من قائم لك بحجة، إما ظاهرًا مشهورًا وإما باطنًا مغمورًا)[15].

وصدق الله العظيم فقد قال له: ﴿ولكل قوم هاد﴾؟ أى يهدون بأمر الله من بعدك وعلى نهجك وسننك، وهم الأئمة والورثة والعلماء العارفون بالله تعالى وبأيامه وبأحكامه وبحكمة أحكامه تبارك وتعالى.

والوراثة ألوان مع اختلاف المراتب والمنازل، ولكل عالم قسط من الميراث على قدر سعة قلبه وتزكية نفسه واتصال روحه بأصلها ﴿هم درجات عند الله﴾[16]، فالميراث موزع بين علماء الأمة، ولذلك وبإيجاز شديد تنقسم الوراثة إلى أربعة أصناف:

١ - ورثة الأقوال: وهم حملة الشريعة الأمناء الممنوحون الفهم.

٢ - ورثة الأعمال: وهم العمال الورعون.

٣ - ورثة الأحوال: وهم أهل المواجيد الروحانية الصادقة الذين يعيشون بيننا بأبدانهم وأرواحهم فى الملأ الأعلى.

٤ - الوارث الفرد الجامع: وكل صنف من الثلاثة السابق ذكرهم يتبعه مجاميع كثيرة، أما الصنف الرابع فهو فرد واحد على رأس كل مائة عام، ورث الأقوال والأعمال والأحوال وراثة كاملة ومنح الزيادة، وهو المعنى بقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ولكل قوم هاد﴾، أى أن الكل ورثة بقدر مراتبهم ومقاماتهم وبقدر ما أهلوا له روحيًا وعلى رأسهم فرد قمة.

وكان إمام العصر ينضم تحت لوائه أفراد يكرمهم الله بمعرفته، فكما يذكر الإمام الشعرانى فى كتاب الطبقات الكبرى فى باب الأولياء أن من أكبر الدلائل على إمامة الوارث الأكمل لعصر من العصور أن يسلك على يديه علماء ربانيون ورثة للأنبياء، وكم انضم تحت لواء الإمام أبى العزائم رجال أفراد كمل ليتجملوا على يديه ويمنحوا من ربهم

(١٤) سورة الفرقان آية ٦٤.

(١٥) كتاب نهج البلاغة لابن أبى الحديد.

(١٦) سورة آل عمران آية ١٦٣.

المزيد ، تركوا دنياهم ومناصبهم الدينية العالية ليدخلوا إلى حضرته تلاميذًا يتعلمون من جديد .

وقد ورد فى الأثر فى فضل العلماء أن دماء الشهداء يوزن ومداد العلماء يوزن ، فيرجح مداد العلماء ، لأن الشهيد . ضحى بدمه فى سبيل إرساء قواعد الدين ، والعلماء جاهدوا بألسنتهم وقلوبهم وتلك هى صفة الأنبياء كما أخبر ﷺ : (إنما بعثت معلمًا)[١٧]، ولذلك فقد ورد عن الإمام الشافعى رضى الله عنه وأرضاه أنه كان يطلب من تلميذه الربيع الجيزى أن يحتفظ بمخلفات برى أقلامه البوص حتى كوّم منها أكوامًا كثيرة وهو لا يدرى ما يريده الإمام من ذلك ، إلى أن جاء الوقت الذى أملى فيه الإمام وصيته ، فطلب منه أن يجعل من هذه المخلفات الوقود لتدفئة ماء غسله رضى الله عنه ، وهذا سر قول الله تعالى : ﴿ ونكتب ما قدموا وآثارهم ﴾[١٨].

والورثة هم الأئمة القائمون ، وفيهم يقول الإمام :

أئمة الهدى هم الروح السارية فى الجسد الإسلامى ليحيا حياة طيبة عاملًا لله ولرسوله ﷺ ، وهم خلفاء رسول الله ﷺ الذين يحفظ الله بهم شريعته ويعينهم فيسيرون فى الناس بسيرة رسول الله ﷺ محافظين على الأحكام من أن يغيرها أو يعمل بخلافها المفسدون . وهم على يقظة تامة بحراسة الشريعة المطهرة وتعظيم شعائر الله تعالى وإقامة حدوده سبحانه والمسارعة بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهم الذين يمنعون الجاهلين من أن يسيروا بغير سيرة رسول الله ﷺ خوفًا من ضياع الشريعة وفساد جماعة المسلمين بما يقوم به أهل الضلال بين العامة فيغيرون أحكام الله تعالى بالبدع والضلالات بآرائهم الفاسدة وعقائدهم الزائغة بالكيد والخديعة التى يخدعون بها قلوب العامة فيخرجونهم من حصن الشريعة المطهرة ويوقعونهم فى مساخط الله تعالى ومخالفة رسول الله ﷺ ، وهؤلاء الأئمة بهم قوام الدين وحياة الشريعة وحفظ أركانها ، قال سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه : (ما يزع السلطان أكثر مما يزع القرآن) .

إذا تهاون أئمة المسلمين فى القيام بواجبهم تمكن الخوارج المفسدون من الأمة فأفسدوا العامة وشغلوا الخاصة ، وإن الخارج على المسلمين بسيفه أخف ضررًا عن الخارج بعقيدته الزائغة ورأيه المفسد ، لأن القلوب تميل إليه فيتفرق المسلمون بعضهم على بعض ، لأن الأمة ما اتحدت على الحق فإن الله معها ورسول الله ﷺ معها ، ومتى اختلفت الأمة

---

(١٧) ابن ماجة والغزالى فى الإحياء .

(١٨) سورة يس آية ١٢ .

التفت الله بوجهه الجميل عنهم ووكلهم إلى أنفسهم - قال تعالى : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[١٩].

ويقول عنهم أيضًا : وورثة الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم هم الذين أثنى الله عليهم فى كتابه العزيز، وهم الراسخون فى العلم، آمنوا بكل الكتاب وسلموا لله متشابهه وعملوا بمحكمه وأقبلوا على الله تعالى بقلوبهم ملتفتين عن الدنيا بالكلية وعن الآخرة. ولولا أن الله تعالى رغبهم.. لما رغبوا فيها.. وهم نوعان : نوع تولاهم الله فجذبهم إليه به جل جلاله وملأ قلوبهم علمًا به وخشية منه وهم أصفياء الله السابحة قلوبهم فى ملكوت الله تعالى، تراهم على الأرض مع الناس وقلوبهم فى الرفيق الأعلى، انكسرت قلوبهم من خشية الله فصمتوا إقبالاً على الله بالقلوب والجوارح وغابوا عن الكون الأدنى بالكون الأعلى وعن الكون الأعلى بالعلى العظيم. صغرت الدنيا فى قلوبهم فنظروا إليها بعين ملؤها البغض فيها والزهد فى زينتها، سقاهم ربهم شرابًا طهورًا فغابوا عن أنفسهم بعد معرفتها غيبة ذكرتهم بنشأتهم الأولى والأخرى فكانوا إذا لحظوا أنفسهم لحظوا عدمًا وطينًا أو ماء مهينًا وشهدوا النعمة للمنعم والفضل للمتفضل والوجود بالله، والحياة بالحى والقيام بالقيوم، فكان الحق جل جلاله معالم بين أعينهم لا يغيبون إذا غاب الناس ولا يحجبون إذا حجب الناس، وهم أولياء الله حقًا وأصفياؤه صدقًا، وهم ورثة رسله وأبدال أنبيائه والصديقون من عباده رضى الله عنهم[٢٠].

ويقول عن وظائفهم : ووظيفة ورثة رسول الله ﷺ معالجة النفوس الجامحة إلى الغواية وتزكيتها من أدران الأخلاق الفاسدة وتطهيرها مما ألمَّ بها من فساد الوهم أو اختلال الخيال أو الهبوط إلى أفق البهيمية لعدم تناسب الأعضاء أو الإخلاد إلى الأرض بسبب ما اكتسبته النفوس من المجتمع الذى نشأت بينه فتراهم دائمًا يميلون إلى أهل المعاصى، ويألفون أهل الأخلاق التى ليست على الوسط بما وهب الله تعالى لهم من الحكمة والعلم بأمراض النفوس، ولذلك فقد قال سيدنا عيسى عليه السلام عندما أنكر عليه اليهود صحبة الأشرار له : إنما أنا طبيب، وإنما يميل الطبيب إلى المرضى، وكذلك العلماء بالله تعالى هم أطباء النفوس[٢١].

ومن وظائفهم أنهم يبينون للنفوس سبيل الله تعالى لأنهم سرج الدنيا ومصابيح الآخرة فهم النور الذى تستبين به محجة الله تعالى وتقوم به حجته سبحانه، وكما أن الشمس

---

(١٩) سورة آل عمران آية ١٠٣ .

(٢٠) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٣١ (٢٠ محرم ١٣٥٦ الموافق ٢ أبريل ١٩٣٧) .

(٢١) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٢٨ ص١١ (٢٩ ذى الحجة ١٣٥٥ الموافق ١٢/٣/١٩٣٧).

تبين محجة المنافع وطرق المواصلات لنيل الخيرات من زراعة وتجارة وإمارة وغير ذلك ، فكذلك أهل المعرفة بالله شموس تنبعث منها الأنوار التى تستبين بها طرق الله تعالى ويظهر بها الصراط المستقيم . وهم أنفع للمجتمع من شمس النهار المشرقة ضحوة ، لأن الشمس تبين طرق الأرض وهم يبينون طرق الله تعالى الموصلة إلى الخير الحقيقى والسعادة الدائمة ، وشتان بين الشمس التى توصل إلى المقصود التى نهايتها الموت وبين شمس توصل إلى المقصد الأعظم الذى هو رضوان الله تعالى والفوز بجواره فى مقعد صدق عند مليك مقتدر .

ولما كانت هذه الوظيفة هى أعظم وأجل وأنفع الوظائف للمجتمع ، كان لهؤلاء القوم فى القلوب محبة وهيبة .. ويخضع لهم ذو جلال ، يهابهم السلطان ويحبهم المؤمنون ويتوسل بهم العامة .. كل ذلك لما جملهم الله تعالى به من الأخلاق الجميلة والرحمة والرأفة ولين الجانب ، ولما أطلق به ألسنتهم من الحكمة والموعظة الحسنة ، ولأن النفوس لها ميل إلى القوة التى فوق الأسباب وقد فطرت على التقرب إلى الله تعالى بأهل التقوى ، فنرى جميع النفوس تحب المتقين وخصوصًا المبالغين للعزلة عن الناس المشغولين بذكر الله تعالى ، الزاهدين فيما فى أيدى الناس من أهل الصفاء والإقبال على الله بالكلية .

ولا يعترض علىّ معترض فيقول : إن رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عاداهم أهل الكفر بالله تعالى ، فأجيبه أن رسل الله صلوات الله عليهم تحدوا الناس بدين الله تعالى وأقاموا الحجة على الخلق بما جاءوا به من عند الله تعالى وعرضوا أنفسهم على العالم وبينوا للناس عاقبة ما هم عليه من الضلال والكفر بالله تعالى ، فكان ذلك موجبًا لمعاداتهم ، أما أهل الصفا من أولياء الله تعالى فإنهم لم يُكلفوا بالتحدى ولم يطالبوا بدعوة الناس إلى الحق لفرارهم من الخلق وإقبالهم على العبادة والتنسك ، ولكن الناس يألفونهم ويتقربون إليهم لافرق بين المسلم والكافر لا لطلب العلم فقط بل لأغراض أخرى ، يعتقدون أن الله تعالى ييسرها لهم ببركتهم ، وباجتماع الناس عليهم يشرح الله صدورهم لما يسمعونه من العلوم التى تزكى النفوس إلى الاستقامة أو إلى الإسلام ، وكم أسلم مشرك على أيديهم وكم استقام عاصى واهتدى فاسق . ولا عجب فإن الله تعالى يلقى محبة منه على من اجتباهم من عباده بقدر ما يوفقهم له من القربات ومن إقبالهم بظاهرهم وباطنهم على الله تعالى ، فإذا منحهم الله لسان البيان والحكمة وبلغ أحدهم من المقامات ما صار به وارثًا لرسول الله ﷺ ، كان من التمكين بحال به يحبه أهل الإيمان والتقوى ، وكان ممن قدر الله لهم السعادة ، فيبغضه أهل النفاق والكفر ، فيكون لهم قسط وافر من سر الأنبياء وسيرهم صلاة الله وسلامه على نبينا وعليهم وهم خلفاء رسول

الله ﷺ وأمناء الله تعالى على شريعته .

إننا نتكلم عن أئمة الهدى الذين يظهرهم الله بتجدد الأزمنة فيقومون كالأنجم المضيئة فى المجتمع الإسلامى ، إما بقول وعمل كالعلماء ، وإما بعمل وحال كالعباد الزهاد ، وإما بحال ومجاهدة جامعة وبيان كورثة رسول الله ﷺ ، وليس برجل من لم يكن منهم أو معهم .

ومعلوم أن الرسل صلوات الله عليهم لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ولا كنوزًا ولا عقارًا ، وإنما ورثوا هدى ونورًا وبيانًا وأخلاقًا طاهرة ومعاملة لله خالصة ورحمة على الخلق وحنانًا ولما كانت النفوس تتفاوت جواهرها استعدادًا وقبولاً ، وكان نيل هذا الفضل العظيم إنما هو بفضل الله تعالى ، وكان من أعظم الفضل ظهور وارث لرسول الله ﷺ ، ومتى تفضل الله تعالى على العالم بوارث دل ذلك على عميم إحسانه على أهل عصره ، ولكن لابد هنا من الميزان الذى يزن به السالك نفسه ويزن به غيره .

ومعلوم أن الاتصال بالوارث المحمدى سبب لفهم كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ ، وتزكية النفس ، وتعليم مالم يعلمه الإنسان بالدراية وطول الدرس والمذاكرة كما قال الله تعالى : ﴿ يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[٢٢] فما من سالك مع الوارث إلا ويهبه الله قسطًا من تلك المعانى ، وتلك العطية تمنح بفضل الله وتحفظ ويحصل النفع بها بأمرين عظيمين :

الأمر الأول : الأدب مع من جعله الله سببًا لهذا الخير .

الأمر الثانى : شكر الله على تلك النعمة الذى به المزيد مع مجاهدة النفس خوفًا من الغرور بنسيان المرشد .

العلماء الربانيون والراسخون فى العلم وهم النور المشرق المبين لمناهج القرآن وأحوال رسول الله ﷺ ، يكشف الله تعالى لهم غوامض أسرار القرآن ويمنحهم الحكمة والبيان ، ويلهمهم الصواب فى القول والعمل والحكم ، ويمدهم بروحانية رسول الله ﷺ ، وهم الذين اشتاق إليهم رسول الله ﷺ فى الحديث الطويل واشتاق إليهم سيدنا علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه فى حديث كميل فى قوله : واشوقاه إليه - وهم الذين أثنى الله عليهم وأخبر أنهم أولو الأمر من المسلمين بقوله : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[٢٣]. ولو كانوا مجهولين

---

(٢٢) سورة البقرة آية ١٥١ .

(٢٣) سورة النساء آية ٨٣ .

أخفياء لا يعرفهم أحد فإنهم معروفون لله، معروفون للملأ الأعلى. وكل واحد منهم شمس يضيء لأهل السماء كما تضيء الشمس لأهل الأرض، وهم العرائس ضنائن الله تعالى فى أرضه لا يوصل الله تعالى إليهم إلا من سبقت لهم الحسنى وقدر الله لهم الوصول إليه سبحانه وتعالى باتصاله بهؤلاء الأخيار. أولئك والله الأئمة الهداة يرحم الله بهم وينظر إلى من شاء من عباده فى قلوبهم، ذرة من أعمال قلوبهم خير من أعمال الجوارح الدهر كله.. وهم الذين أكرمهم الله تعالى.. فكان معهم وجعلهم معه سبحانه، أرضاهم عنه ورضى عنهم، لا تفى عباراتنا بأحوالهم ولا تكشف إشاراتنا مبادئ شهودهم فى وجودهم - قال تعالى: ﴿فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون﴾[٢٤].

ومن صفاتهم إخفاء حالهم وستر مقاماتهم، فلا يقهرهم ولا يشغلهم مقام ولا يغضبهم مؤلم، يغضبون لله ويرضون لله، تراهم منقبضين على بساط المؤانسة وخائفين وهم فى حصن ﴿أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾[٢٥] وفى خشية وهم على موائد إكرام الله تعالى لهم بالاستجابة - قال ﷺ: (رُب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره)[٢٦]. كمل والله توحيدهم شهودًا فأفردوا ربهم بالعزة والجلال والعظمة والكبرياء والعطاء والمنع والضر والنفع، فذلوا للحق ولأهل الحق ذلًا للحق، وعزوا على الباطل وعلى أهل الباطل كراهة لما كره الله وحبًا لما أحب الله. ذلوا للمؤمنين كما أمر الله تعالى وعزوا على الكافرين إعزازًا للحق، صغرت الدنيا فى أعينهم عن أن تشغلهم عن الآخرة نفسًا.. فكيف تشغلهم عن الله تعالى؟! إذا رُءُوا ذكر الله، مجالستهم تجذب النفوس إلى حضرة القدوس ومحبتهم تحبب فى الله، والقرب منهم تقريب من الله تعالى - قال ﷺ: (اللهم إنى أسألك حبك وحب من حبه يحببنى فيك) وكلام رسول الله ﷺ هنا يوقظ قلوب المؤمنين إلى محبة أهل المعرفة بالله تعالى المقبلين على الله تعالى بكليتهم، وهم الحياة لأهل عصرهم والنور لمن والاهم والنجاة لمن اقتدى بهم رضى الله عنهم[٢٧].

إن الذى أقنع الناس بإمامة أبى العزائم، وأنه الحجة وأنه الوارث الكامل لهذا العصر، وأنه الرجل الذى كان ينتظره الرجال ليتكلموا على يديه.. ما تخلق به من الأخلاق

---

(٢٤) سورة السجدة آية ١٧ .

(٢٥) سورة الأنعام آية ٨٢ .

(٢٦) مسلم والطبرانى والترمذى والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

(٢٧) مجلة المدينة المنورة : السنة ٩ العدد ٣٣ ص ٩ (صفر ١٣٥٦ الموافق أبريل ١٩٣٧) .

النبوية ، إنه نعمة كبرى أنعم الله بها على أهل هذا العصر ، ولذلك فإن الحديث عنه هو أيضًا حديث عن الدين ، به علمنا الأخلاق المحمدية ، وبقيت عندنا نغماته العذبة التى كان يشدو بها .

وقد التقى الشيخ خضير ، وهو شيخ طريقة صوفية من حضرموت ، وهو أيضًا من أهل البصيرة ، مع المرحوم فضيلة العارف بالله الشيخ طاهر محمد السيد مخاريطة كبير وعاظ آل العزائم آنذاك ، وكان ذلك فى الأراضى الحجازية . تفرس الرجل فى وجه الشيخ طاهر فوجد من سيما الصلاح والتقوى ما دعاه ليسأله قائلًا : أأنت تابع أم متبوع ؟ فقال : تابع ، فسأل لمن ؟ فأجابه الأستاذ طاهر قائلًا : لمولانا السيد محمد ماضى أبى العزائم . طلب الشيخ خضير - وكان يصحبه مجموعة من مريديه - أن يجلس معه قليلًا ، ثم سأله على الفور : هل السيد محمد ماضى أبو العزائم سليل النسبين ؟ فقال الشيخ طاهر : نعم حسينى من جهة والده وحسنى من جهة والدته ، فرفع الشيخ خضير يديه إلى السماء وقال : إذن هو ، فسأل وقال : أوُلِد بمسجد ؟ فكان الرد : نعم ولد بمسجد سيدى زغلول برشيد ، فقال الشيخ خضير : إذن هو ، ثم سأل أكان يملى أم يكتب ؟ فكان الرد : بل يملى ، فقال : إذن هو ، ثم سأل وقال : أكان ضرّابًا على فخذه إذا أبطأ الكلام ؟ فكان الرد : نعم . فقال : إذن هو ، ثم سأل فقال : ألَهُ خالٌ على وجهه ؟ فكان الرد : نعم ، فقال : إذن هو ، ثم سأل فقال : أأفلجُ الركبتين ؟ فكان الرد : نعم ، فقال : إذن هو ، ثم سأل فقال : أأول خليفة له اسمه أحمد ؟ فكان الرد : نعم ، فقال : إذن هو ، ثم سأل فقال : ألَهُ زوجة حتى الآن أولُ حرف من اسمها هو ع ؟ فكان الرد : نعم اسمها السيدة عزيزة السماحى ، فقال : إذن هو . فقام الرجل ووجه كلامه إلى أتباعه قائلًا : يا أبنائى إن لم ننل من حجنا هذا العام إلا معرفة الإمام الختم أبا العزائم لكفانا ، إنه تفوه بصلوات على رسول الله ﷺ لم يتفوه بها إمامٌ قبله (فأعطاه الشيخ طاهر نسخة من الصلوات كانت معه) ، إن حَمَلَة سر هذا الإمام فى الكون سبعة لو أعْطِيتُ سرًا من أسراره على ما تفضل الله به عليه مِتُّ لساعتى . وانفض الحديث عند هذا الحد وانصرف فورًا (٢٨) .

قال الإمام رضى الله عنه مبينًا أسرار الرجال : نعم للرجال أسرار حجبت عنها أهل العقول ، سبحان من يهب الحكمة من يشأ . إن الحق تقدست صفاته وتعالت آياته اختص من عباده قومًا اجتباهم للدار الآخرة فشغلهم بها ، فأجسامهم فى الدنيا عاملة على نوال تلك الحظوة التى تحققوا يقينًا بأنها ولا محالة كائنة ولا بد من الرجوع إليها ، وأنها لا تنال

---

(٢٨) رواها الأخ أحمد بيومى من المحلة الكبرى .

السعادة فيها إلا بنوال الوسيلة إليها فى تلك الدار الدنيا ، فوفق الموفق من أحب للجد والنشاط فى كل ما به نوال تلك السعادة الآجلة فى الظاهر العاجلة فى اليقين ، حتى بشدة صدقهم تحققوا أنهم يرون الجنة ويتمتعون بها عند العمل الصالح كما يتحقق التاجر بربح السلعة الرابحة ويجد فى طلبها منشرح الصدر مرتبًا ماليته وما يربحه حتى كأنه قبل البيع قد ملك الربح في خزينته ، فهؤلاء حدى بهم اليقين حتى ذاقوا لذة وقوع البشرى والوعد كما يذوق المحقق لذة حصول النتيجة ، ومنهم العاملون على نوال هذا الخير الباقى والنعيم المقيم واللذة الدائمة فى الدار التى لا فناء فيها بعد أن يناله أو زوال من ناله عنه لقصور مداركهم ووقوفهم عند أملهم وهواهم حتى حسَّن لهم الحظ والهوى تلك الحظوظ الفانية فطلبوها ، وقوى ذلك الرأى الناتج عن تلك الأميال ، وزين مدد الرب لهم ﴿ قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ﴾[٢٩] حتى رأوا حزبًا يحسن ما حسنوا أو يقبح ما قبحوا ، فسعى بهم ساعى المهلة إلى القول بالرأى والعمل بالهوى ، فعلاماتهم : ألسنة تنادى بتقويم أود الدين وقلوب ملؤها الحظ والشقاق والتفرقة ومساعدة أهل السؤدد الدنيوى ، وأبدان متعاصية على أعمال الدين ﴿ وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾[٣٠] الحج عندهم ساقط لأن الله أوجبه ولأنه بأرض بها آثار دينية مجردة عن الزينات والبهجة الدنيوية ، فترى أعلمهم يرى بلاد الكفر كعبة له والتجول فيها قربة لربه الذى يسعى فى نواله ، وأهل العقول القاصرة التى لا تمتد إلى كشف حقيقة السعادة إخوان لهم حتى حكموا أن الله ليس إلا كما يتخيلون محكوم عليه بعقولهم ، لا يختص بسر غامض عن الأعضاء الحسية عبدًا من عباده ، وكيف يمكنه أن يفعل ذلك وقد حكم عقلهم السخيف عليه سبحانه بحكم لا يتعداه وفهم هذا الوهم الكاسد كتابه العزيز برأى حكم أنه مراد الله حقًا حتى لو كان لله مراد سواه لخاف الحق سبحانه من هذا الشريك وغير مراده بمراده .

تعسًا لك أيها الغبى الغر ، إن للرجال أسرار أذاقهم حلاوتها بعد أن هذب نفوسهم بتوفيقه وألبسهم حلل الذل والتسليم والمجاهدة لذاته وفى ذاته ، منهم المجملة أبدانهم بالعمل الصالح والخشوع والتواضع والذل ، وقلوبهم بالثقة والتوكل واليقين والتسليم والتوجه إليه والرضا عنه والحب فيه والدعوة له بالحكمة والموعظة الحسنة ، للرجال سر أخفاه حتى عن الملائكة حتى كان العبد المصطفى له سبحانه يبتليه ، فاذا صبر اجتباه وإذا رضى اصطفاه بنص الحديث . لم يكن الدين أيها الغر كما تزعم عكوف على العمل

---

(٢٩) سورة مريم آية ٧٥ .

(٣٠) سورة النساء آية ١٤٢ .

الصرف للدنيا والغفلة عما أمر الله أن يعمل .. الدين عقيدة كما نص القرآن ، وخلق كما كان الأنبياء ، وعمل كما كان الصديقون ، ومعاملة كما كان الحلماء الرحماء والكرماء ، أكان الدين جدل ومعارضات ورأى وترجيح؟ قم فتريض وزك نفسك وقف موقف الجاهل بنفسك أمام الحق ليفيض عليك علم من أنت ، ولديها تذوق لذة أسرار الرجال[٣١].

(٣١) مجلة المدينة المنورة : السنة ٢١ العدد ٨ ص ١٦ (١٤ ربيع أول ١٣٦٨ الموافق ١٤ يناير ١٩٤٩) .

الإمام وتفسير القرآن

القرآن الكريم كلام الله تعالى الذى لا يبلى، وهو أجل من أن يحيط بكنهه وصف الواصفين، وهو كتاب توحيد وإيمان، وكتاب تشريع وسنن، وكتاب تأمل وعبادات وكتاب بلاغة وأدب، وقبل كل ذلك فهو كتاب جمع فأوعى، وفيه بيان كل شئ ﴿ وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين ﴾[1] ففيه أصول كل العلوم، وفيه الحكمة والموعظة الحسنة، وفيه كل ما يتطلب ويحتاج إليه الإنسان فى نشأتيه الدنيوية والأخروية، وهو الكتاب الذى قال فيه المولى جل وعلا ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾[2].

والمفسرون رضى الله عنهم يدلى كل منهم بدلوه ليستخرج من علوم القرآن الكريم ما يسره له الله جل شأنه وكلٌ يحصل من القرآن بقدر استعداده وتوفيق الله له، ومع ذلك تظل الآيات تفيض الخير والشفاء والرحمة للمؤمنين فى كل عصر، تحقيقًا لقول الله سبحانه : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[3] فجعل الشفاء والرحمة للمؤمنين تنزيلًا من القرآن وتتجدد المعانى القرآنية فى كل عصر بحسبه، قال تعالى : ﴿ ثم إنَّا علينا بيانه ﴾[4].

والتفسير فى اللغة : الاستبانة، وفى الاصطلاح : علم يبحث فيه عن معانى ألفاظ القرآن وخصائصه، فالنظر فى ألفاظ القرآن الكريم وحيث كونه كلامًا له دلالة ومعنى، ولله تعالى فيه هدف وقصد، ومن أجل بيان هذه الدلالة وشرح المعنى وإيضاح القصد والإفصاح عن الهدف نشأ علم التفسير الذى تكفل بتلك الغايات، ولابد لطالب هذا العلم من مؤهلات منها العلوم العربية بشتى أقسامها، وعلم الفقه وأصوله، ومنها علم الحديث، وعلم الكلام، ومنها علم التجويد والقراءات، ومنها أسباب النزول والناسخ والمنسوخ.

والإمام المجدد رضى الله عنه فى تفسيره للقرآن المسمى (أسرار القرآن) ينتهج منهجًا فريدًا من نوعه، يتميز بسلاسة عبارته، وعذوبة إشارته، وقوة حجته، ووضوح بيانه،

---

(١) سورة النحل آية ٨٩ .

(٢) سورة ص آية ٢٩ .

(٣) سورة الإسراء آية ٨٢ .

(٤) سورة القيامة آية ١٩ .

وتوضيح المبهم وإزالة المشكل فكأنك وأنت تقرأ له تفسيره كأنما أنت فى جنة عالية الجمال والمذاق دانية القطوف والبركات ينفذ بعبارته إلى عقلك وبأنوارها إلى قلبك.

ولسنا فى مقام المفاضلة بين مفسر ومفسر، لأن الله يهب من بيان القرآن وأسراره لمن اختصه بفضله ولا حجر على فضل الله، لكن الوسعة الالهية اقتضت أن تتفاوت المقامات والمنازل والدرجات، وأهل البشرى من الله هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

وفى صدر تفسير الإمام المجدد لسورة البقرة تطالعنا العبارات التالية التى تعطى صورة من آدابه وتوقيره لأهل العلم جميعًا مع تفاوت مقاماتهم، فعند تناوله لشرح قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ يقول رضى الله عنه:

معلوم أن العلماء بالتأويل تتفاوت مقاماتهم فى العلم، فمنهم الراسخون فيه، ومنهم ومنهم، ولكل فريق تأويل فى هذه الآية الشريفة وكلهم على حق لأنهم يجتهدون، والآيات الشريفة تحمل كل تلك المعانى، وقول بعضهم: الله أعلم بمراده، كلمة يقولها كل مؤمن ولو أطلعه الله على مكنون العلم، قال تعالى: ﴿ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء﴾(٥) فمن شاء الله أن يحيطه بشىء من العلم أحاطه به، وعندى أن الله تعالى كشف تلك الحقائق لمن شاء ممن اجتباهم فعلمهم ما لم يكونوا يعلمون.

ثم يبين رضى الله عنه العديد من معانى ﴿الم﴾ حيث يروى ظمأ المشتاق إلى معرفة أسرار كلام ربه جل شأنه، وتسرح الروح فى نور حد القرآن، وتتجلى حقائق اليقين للنفحة القدسية فى مطلع القرآن، وهذا فى معنى ما ورد عن رسول الله ﷺ أن: «لكل حرف من القرآن ظهرًا وبطنًا وحدًا ومطلعًا»(٦).

ويجرى تفسير الإمام مع الآية حيث تجرى، ويكشف معناها حيث تشير، ويوضح دلالتها حيث تدل، فهو تفسير حكيم حينما تشتمل الآية على الحكمة، وهو تفسير أخلاقى حيثما ترشد الآية إلى الأخلاق، وهو تفسير فقيه حين تتعرض الآية لفقه، وهو تفسير اجتماعى حين تبحث الآية فى الاجتماع، إذ أنه دائرة لمعارف القرآن ومحور جميع العلوم الإنسانية والكونية الإلهية التى جاء بها الإمام رضى الله عنه.

وكان للإمام المجدد رضى الله عنه مسلكان فى تفسير القرآن الكريم:

---

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٥.

(٦) الغزالى فى إحياء علوم الدين وابن حبان فى صحيحه.

أولهما : أن يفسره متسلسلًا وبالترتيب وقد ابتدأ ذلك بالسودان حيث خصص يومًا من كل أسبوع يجتمع فيه تلاميذه ويؤمه الناس من كل مكان لسماع تفسيره ، فإذا تناول الآيات بالشرح والتفسير استغرق فى بيان معانيها واستولى اهتمامه بها على كيانه كله ، ولا يكاد يفرغ من مجلسه هذا إلا وقد أجهد إجهادًا شديدًا وظل يتصبب عرقًا .

ثانيهما : أنه كان إذا سمع القارىء يقرأ قبل الدرس آيات قرآنية ، تناول الإمام تلك الآيات بالشرح والتفسير ، وربما تعرض لتفسير الآية الواحدة أكثر من مرة ، وفى كل مرة كان يجلى فيها معانٍ جديدة وألوان شتى من الدلالات والإشارات القرآنية العالية .

ومع تصفحنا لـ (أسرار القرآن)[٧] نطالع بعض المعانى التى تضمنها ذلك الأثر الإسلامى الجليل مثل :

حقيقة الأسماء التى تعلمها آدم عليه السلام :

أنزل الله تعالى القرآن عربيًا ليعين الخلق على تدبر معانيه ، ولقد استطاع الإمام بإبراز بعض الجوانب النحوية أن يعطى مفهومًا جديدًا على غير ما عهد الناس فى معنى قوله تعالى : ﴿ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾[٨]- حيث كان المفهوم السائد فى معنى ذلك أن الله تعالى علم آدم أسماء المسميات - فقال رضى الله عنه فى قول الحق سبحانه : ﴿ ثم عرضهم ﴾ إشارة عالية حيث أتى بالهاء والميم المنبئة بأن المعروض من العقلاء .. وفى قوله : ﴿ أنبئونى بأسماء هؤلاء ﴾ بالإشارة إليها دليل على أن المعروض على الملائكة أسماء ظهرت معانيها جلية فى آدم وهى معانى الصفات التى لم يتجمل بها نوع من المخلوقات إلا آدم مشيرًا إلى أنها معانى الصفات الإلهية التى جمّل الله بها آدم عليه السلام فصار مرآة تُظهر للملائكة أسرار وأنوار تلك الأسماء .

الحكمة فى أن الله أخَّر الدَّين مع أنه مقدم شرعًا على الفرائض والوصايا :

عند تناول الإمام لشرح قوله تعالى : ﴿ من بعد وصية يوصى بها أو دين ﴾[٩] بين الحكمة فى أن الله تعالى أخَّر الدَّين وقدم الوصية فى السياق القرآنى ، فقال رضى الله

---

(٧) أسرار القرآن : هو تفسير الإمام أبى العزائم الذى تصدره مشيخة الطريقة العزمية على أجزاء تباعًا .

(٨) سورة البقرة آية ٣١ .

(٩) سورة النساء آية ١١ .

عنه : أخّر الله الدّين هنا مع أنه مقدم شرعًا على الفرائض والوصايا لحكمة أرادها الله تعالى ، وهى أن الورثة لا يجدون مشاحة فى الدّين ، بل يدفعونه بصفاء من غير معارضه ، ولكنهم يجدون فى الوصية غضاضة فى أنفسهم ، فقدم الله الوصية حثًا لهمم الورثة ، وأخّر الدّين لأنه لا مانع من تنفيذه ، وعلى هذا فيكون الدّين مؤخرًا شرعًا وتكون الوصية نافذة ما دامت فى الثلث أو فى أقل من الثلث ، فإذا زادت الوصية عن الثلث كان للورثة الخيار فى تنفيذها .

معنى بياض الوجه أو سواده يوم القيامة :

فى سياق بيانه معنى قوله تعالى : ﴿ يوم تبيض وجوهٌ وتسود وجوهٌ ﴾[١٠] يقول : لما كان الهم حبس القلب ، وكان القلب إذا نزلت بالإنسان مصيبة يحبس بها فيختلط دم الوريد الأسود بدم الشريان الأبيض فتسود البشرة ، فيرى السواد فى وجه الإنسان عند همه ، وإذا بشر بخير عظيم انبسط القلب ، وظهر البياض واللمعان فى وجه الإنسان . وأعظم الهموم هَمُّ يوم القيامة ، خصوصًا إذا كُبَّ الكافر على وجهه فى النار ، فإن وجهه - أعاذنا الله منه - يعلوه السواد الفحمى .

وإذا أكرم المؤمن بالدخول فى الجنة ؛ انبسط من الفرح ، وعلاه نور الجنة فابيض وجهه ، أخبرنا الله تعالى بذلك بشرى للمؤمن ، وإزعاجًا للكافر ليرجع إلى الله تعالى ويُقبل على الإسلام .

ولك أن تقول : إنه مجاز عن سوء عاقبة الكافر وفوز المؤمن ، وهو سياق عربى . وكثيرًا ما نسمع من الناس تقول : فلان ابيض وجهه ، إذا ظفر بحاجته أو دُفِعَ عنه سوء . ويقولون : فلان أسود وجهه ، إذا أصابته مصيبة لا قبل له بها ، نعوذ بالله من سوء القضاء وقضاء السوء .

ولما كانت رحمة الله تعالى وسعت كل شئ وقد سبقت غضبَه ، افتتح الآية ببياض الوجه فقال : ﴿ يوم تبيض وجوهٌ ﴾ وجعل سواد الوجه فى وسط الجملة ، وبياضه فى أولها وآخرها ، ليطمئن قلوب المؤمنين ويفرحهم بالآية .

بيان الحكمة فى أن للمرأة نصف ما للرجل من الميراث :

يتناول الإمام المجدد رضى الله عنه فى الجزء الرابع ص ١٤٣ بيانًا للحكمة فى أن الله

---

(١٠) سورة آل عمران آية ١٠٦ .

تعالى جعل نصيب الأنثى من الميراث نصف نصيب الذكر فيقول :

« وتلك الحكمة هى أنه جل جلاله جعل الرجل يدفع صداقًا للمرأة ، وأوجب عليه نفقتها ونفقة أولادها منه ، ولذلك جعل لها نصف ماله .

فلو فرضنا أن رجلًا مات وترك ولدًا وبنتًا ، وترك ثلاثمائة دينار ، أخذ الولد مائتين ، وأخذت البنت مائة واحدة ، وبعد ذلك دفع الولد خمسين صداق زوجته ، وأخذت البنت خمسين صداقها من آخر ، فاستوى ذلك ، فصار عند الرجل مائة وخمسون ، وعند المرأة مائة وخمسون ، فاستويا » .

بيان حكمة الوضوء وحكمة التيمم :

يشير الإمام المجدد رضى الله عنه فى الجزء الخامس من (أسرار القرآن) ص ٤١ فيقول :

« وهنا حكمة غريبة ، وهى أن المراد من الوضوء طهارة الجوارح المجترحة مما لابسته من صغائر الذنوب التى لا يتنزه عنها الإنسان ، وهى فاتحة لطهارة القلب مما لابسه من الهمم واللمم والنوايا والقصود المكروهة ، ليعلم المتوضىء أن الله ما أمره بطهارة جوارحه لوجود نجاسة حسية عليها ، بل ليوقظ قلبه أن طهارته أولى من طهارة الجوارح ، لأن الجوارح مسخرة للقلوب ، فإذا أمر الله العبد بطهارة الآلات التى هى : العينان والأذنان والأنف والفم واليدان والرجلان ، وليس لها فى الحقيقة عمل ، وإنما العمل منسوب إلى القلب لأنه سلطان الجوارح ، فالواجب شرعًا أن يطهر القلب من باب أولى .

وما توضأ من غفل عن طهارة قلبه وطهَّر جوارحه ، لأنه طهَّر الجوارح التى يراها الناس وليس بها نجاسة حسية ، وترك القلب الذى هو محل نظر الرب ، ينظر الله تعالى فإذا هو نجس وهو مولٍّ وجهه إليه جل جلاله ، وينظر الناس إليه فيرونه طاهر الجسم ، متقنًا لطهارة الأعضاء ، عالمًا بشروطها ودقائقها ، جاهلًا بوضوء القلب ، فتضرب الملائكة بصلاته وجهه ويقولون : إن الله غنى عن عمل الغافلين .

ولما كانت هذه حكمة الوضوء التى هى طهارة الجوارح لطهارة القلب ، كان مسح الوجه واليدين بالصعيد الطاهر كسرًا للقلب ، لأنه يضع أثر التراب على وجهه ، ثم يضعه فى السجود على التراب ، وفى هذا العمل ذكرى أنه من التراب ، فيطهر من غرور نظره إلى نفسه أنه إنسان مستقيم القامة ، سميع بصير متكلم ، ويقف أمام ربه حافظًا لرتبته التى تجذبه إليه جل جلاله » .

معنى النفى من الأرض لمن حارب الله ورسوله وسعى فى الأرض فسادًا :

يتناول الإمام المجدد أبو العزائم رضى الله عنه فى (أسرار القرآن) الجزء السادس ص ٩٧ بيانًا لحكم الله تعالى فى الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا فيقول :

« ... ولكن قوله : ﴿أن يقتَّلوا أو يصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾[١١] (أو) هنا ليست للتخيير ، وإنما هى لبيان الحكم ، والذى يقتل هو من قتل النفس بغير حق ، والذى يُصلب هو من قطع الطريق وقتل النفس وسلب المال فى القرى أو فى الأمصار ، والذين تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف هم الذين يسرقون ولم يقتلوا ، ولم يقطعوا الطريق على المسلمين ، وقوله تعالى : ﴿من خلاف﴾ أن تقطع الرجل اليسرى واليد اليمنى أو بالعكس ، والذى ينفى من الأرض هو من قطع الطريق ولم يقتل نفسًا ولم يسرق .

والنفى من الأرض هنا لا يكون بإخراجه من بلد إلى آخر من بلاد المسلمين لأنه يُخشى منه على المسلمين ، ولا إلى أرض الكفار لأنه يُخشى عليه منهم أن يفسدوا عقيدته .. والنفى هو السجن الذى تدوم له فيه المراقبة » .

دليل قرآنى على نزول عيسى عليه السلام من السماء فى آخر الزمان :

يورد الإمام رضى الله عنه فى الجزء الثالث ص ١٥١ عند تعرضه لشرح قوله تعالى فى شأن سيدنا عيسى عليه السلام : ﴿ويكلم الناس فى المهد وكهلًا﴾[١٢] فيقول فى معنى كلمة ﴿وكهلًا﴾ :

« معنى هذه أنه يتكلم كهلًا بما لم يتكلم به طفلًا ، وبهذا المعنى يكون كلامه كهلًا معجزة ، ولكنا نفهم فى هذه الكلمة أن كلامه كهلًا من أكبر المعجزات ، وإن كان بعض العلماء عرّف الكهل من سن استواه إلى صباه الأعلى ، أى : من ثلاثين سنة إلى الأربعين ، إلا أنه بحسب العرف لا تطلق إلا على من تجاوز الستين ، والمسيح رفع إلى السماء وهو فى ريعان شبابه حيث كان سنه ثلاثًا وثلاثين سنة .

وإذا فهمت ما أورده عليك تتحقق أن كلامه كهلًا معجزة كبرى ، وذلك لأنه ينزل من السماء بعد رفعه فى آخر الزمان فيتكلم مع الناس ، فيكون كلامه فى ذلك الوقت من

---

(١١) سورة المائدة آية ٣٣ .

(١٢) سورة آل عمران آية ٤٦ .

المعجزات الباهرات ، ويصير عليه عندها أنه كهل بالنسبة لطول الزمن الذى أمضاه فى السماء الرابعة كما ورد .

بيان فى حقيقة إسناد الأفعال :

والآن ، تعال معًا لنطالع سرًا من أسرار القرآن من معنى قوله تعالى : ﴿وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثًا * ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولًا وكفى بالله شهيدا﴾[١٣] واستمع إلى بعض المعانى التى ذكرها الإمام المجدد فى الجزء الخامس من (أسرار القرآن) حيث يقول :

« هذه الآية الشريفة من معضلات آيات القرآن ، ومن لم يلهمه الله الفقه فيها زلت به القدم ، وإنى مبين لك ما علمته فيها وأحب منك التسليم : كان المشركون والمنافقون إذا نالوا خيرًا من نصرة أو غنيمة أو سلامة قالوا : هذا من عند الله ، وإن أصابهم بلاء من جراح أو أمراض أو هزيمة قالوا : هذا منك يا محمد ، نظرًا منهم إليه ﷺ بعين العناد ، فكذبهم الله تعالى وأثبت التوحيد الخالص بقوله تعالى : ﴿قل﴾ يا محمد ﴿كل من عند الله﴾ أى : أن العافية وتوالى الخيرات والنصر والتأييد والهداية والتوفيق من عند الله تعالى ، كما أن البلاء والشدة والمصائب هى كذلك من عند الله ، إذ هو الضار النافع ، والمعطى المانع ، والمحيى المميت ، والمعز المذل لا شريك له . ثم شنّع على المنافقين الذين يجعلون الخير من الله والشر من رسوله ظنًا منهم أن ذلك حصل بسوء تدبيره أو غلطه ، أعاذنا الله من الكفر بعد الإيمان ، ومن سلب العطا وحرمان الرضا وكفران النعمة .

وفى هذا التشنيع برهان على سوء طبعهم وخبث نفوسهم فقال تعالى : ﴿فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا﴾ .

وما أورده الإمام المجدد من المعانى التى سبق ذكرها لا غرابة فيه على العقل ، ولكن لما يقول عز من قائل بعد ذلك : ﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ هنا يحس العقل بغرابة الأمر ، وبالحاجة الماسة إلى مزيد بيان وتوضيح المبهم وإزالة المشكل .

إن الذين نسبوا الحسنة إلى الله ونسبوا السيئة إلى رسول الله ﷺ شنّع الله تعالى

---

(١٣) سورة النساء آية ٧٨ ، ٧٩ .

عليهم بقوله : ﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ وذلك بعد أن حسم المسألة وأظهر الحقيقة بقوله : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ .

ويحتار العقل متسائلًا : أبعد كل ذلك يقول الله تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ؟ ما سر ذلك ؟.

خاصة بعد قوله تعالى : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ ؟».

لكن الإمام المجدد لا يترك العقل فى حيرته ، بل يكشف السر عن ذلك المعنى فيقول :

« وهنا محذوف تجب رعايته وملاحظته وهى كلمة : يقولون . كأن سائلًا سأل الله تعالى : تذم هؤلاء وتشنع عليهم ؟!! فأجابه سبحانه بقوله إنهم يقولون ما تقدم من مقولهم الأول ، ويقولون : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ ولهذا التقدير تطمئن القلوب على فقه آيات القرآن ، ولا يكون هناك حيرة ولا تردد فى فهمه ، فإنه سبحانه بعد قوله : ﴿ قل كل من عند الله ﴾ لا يرجع فيقول : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله ﴾ الآية محكمة ، فقالوا : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ وهى تقدير الله والكل من الله ، ولكن الله جعل العبد سببًا فى الوقوع فى السيئات التى قدرها سبحانه ، وعلى هذا الوقوع يكون الحساب والعقاب » .

ثم يستطرد الإمام المجدد رضوان الله عليه مبينًا وجهًا آخر من وجوه معانى الآية القرآنية : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ فيقول :

« والذى أستحسنه ما بينته لك أولًا ، لأنه لا يحتاج إلى تكلف فى التأويل ، وإن كان فى تأويل الآية ما يقتضى الأدب مع الله . مع أن ينسب العبد السيئة لنفسه ، والحسنة إلى الله ، كما قال صاحب موسى عليه السلام عند قوله : ﴿ فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ﴾[١٤]. وقال : ﴿ فأردتُ أن أعيبها ﴾[١٥] فنسب الخير لله والشر لنفسه ، وكما قالت الجن : ﴿ وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا ﴾[١٦] فلما ذكروا الشر نسبوا الفعل إلى نائب الفاعل ، ولما ذكروا الخير أسندوه إلى فاعله الحقيقى . ولكن العلم يقتضى كشف الحقائق والبيان كل البيان ، والأدب شىء والعلم شىء آخر ، فإذا جلس العالم كشف الحقائق جلية لمن زكت نفوسهم بالأدب » .

---

(١٤) سورة الكهف آية ٨٢ .

(١٥) سورة الكهف آية ٧٩ .

(١٦) سورة الجن آية ١٠ .

القصاص قتل فكيف تكون فيه الحياة ؟ :

عند شرح قوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حَياة ﴾[١٧] يبين الإمام المجدد رضى الله عنه حكمة القصاص فيقول :

« يبين الله تعالى حكمة حكم القصاص بأقصر آية عجز فطاحل البلغاء من أصحاب المعلقات على الكعبة أن يأتوا بمثلها . وأفصح كلمة قالوها فى هذا المعنى : (القتل أنفى للقتل) وفى كلمتهم تكرار لفظ القتل ، وفيها نقص بيانى وهو أن القتل لا يكون أنفى للقتل . وكلمة الله هى العليا . وقوله تعالى : ﴿ ولكم فى القصاص حياة ﴾ كأنه يبين الحكمة فيقول : إنكم إن تركتم القصاص وهو قتل القاتل أحرق الغل القلوب فثارت ، فجرت الدماء أنهارًا بتعطيل حكم القصاص .

ولو قال لنا قائل : القصاص قتل ، وكيف تكون فيه الحياة ؟ والجواب : إن مراد الله سبحانه وتعالى الرحمة للمجتمع الإنسانى فإنك إذا حكمت بحكم الله فقتلت القاتل إن لم يعف أولياء المقتول أثلجت صدور من أحرقت قلوبهم نار الغل على من قتل قتيلهم وربما كان بسبب ذلك هرج ومرج يفسد القلوب ويفرق المجتمع ، وهذا معناه والله أعلم . يعنى أن القصاص بقتل القاتل حياة لفئة كثيرة ، بل وراحة لقلوب المجتمع المصاب بهذا البلاء ، بل وصفاء لهم من الهرج والمرج والفتن » .

الحكم بكفر من يعين اليهود :

أفتى الإمام المجدد رضى الله عنه بما يلى فى سياق تفسيره (أسرار القرآن) الجزء الأول ص ٤٤ حيث يقول :

« ولو تتبعنا سير اليهود وسيرتهم من حادثة يوسف عليه السلام ، وما عمله الأسباط مع يعقوب عليه السلام إلى زمننا هذا ، لعجزنا عن شكر الله بما تفضل به علينا برسالة سيدنا ومولانا محمد ﷺ ، ولا أبعد بك فإنا نرى تلك الفئة التى لعنت فى التوراة والإنجيل والقرآن لا تزال ينبوع تلك الخبائث والشرور والفتن فهم كما قال العربى : (فى كل واد أثر من ثعلبة) يسلط الله عليهم بختنصر قديمًا ودول أوربا فى هذا الزمن ، وقد أراد الله أن يجدد لهم البلاء فانقلبوا شياطين لإهراق الدماء والإفساد فى فلسطين ، فإنهم انتهزوا فرصة خوف الإنجليز من الترك ، وبذلوا أموالًا طائلة للإنجليز مساعدة لهم على حرب الترك ، وطلبوا منهم أن يبيحوا لهم الهجرة إلى فلسطين ، وأن تكون فلسطين وطنًا قوميًا

(١٧) سورة البقرة آية ١٧٩ .

لليهود، وقد رأى الإنجليز أن ذلك فى فلسطين قوة تدفع عنهم ثورة العرب وغيرهم، فمكنوا لهم فيها بقوة الحديد والنار.

وقد استفتانى علماء فلسطين فى حكم من يبيع لليهود عقارًا أو أطيانًا، فأفتيت بكفر من بعينهم بدليل الآية التى نزلت فى اليهود وهى قوله تعالى: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾[١٨]، وسبب نزول الآية هم اليهود، وإن كان خصوص السبب لا يقتضى خصوص الحكم والواجب على كل مسلم آمن بالله وبكتابه وبرسوله ﷺ، أن يعادى من حاد الله ورسوله، فإن تساهل مسلموا فلسطين مع اليهود أثار عليهم غضب الله فانتقم منهم بالعدو (اليهود والإنجليز)، حفظ الله إخوتنا المسلمين من موالاة غير المؤمنين».

اليهود أهبطوا قدرًا ومرتبة:

يكشف الإمام فى موطن آخر أن اليهود أهبطوا قدرًا ومرتبة حيث يقول فى سياق تفسيره لقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا﴾[١٩]:

«الذى أفهمه أن الهبوط ليس مكانيًا، ولكنه هبوط قدر ورتبة، كما قال لآدم وحواء: ﴿اهبطا منها﴾[٢٠] أى انزلا عن قدركما، وإن كان الهبوط المكانى تحقق، وفى قوله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا﴾ إشارة إلى أنه سبحانه وتعالى سلب منهم الصبر الذى يقوى النفس على تحمل أعباء القيام بأوامر الله تعالى، فقوله تعالى: ﴿اهبطوا مصرًا﴾ دليل على أنهم استحقوا من الله أن تضرب عليهم الذلة والمسكنة، لأن الأرض التى كانوا فيها متعهم الله فيها بما هو فوق ملك الأرض لكل واحد منهم، فليس عليهم آمر إلا الله تعالى ثم كليمه، وليس ثم منافس ولا منازع لحصول المساواة المطلقة بينهم وفقد المعاوضة التى تقتضى المفاوضة المقتضية للمعارضة، حيث لم يكن ما يوجب التنازع ولا الحسد، لأن طعامهم المن والسلوى وشرابهم الماء الذى تفجر من الحجر، وهى عيشة كعيشة أهل الجنة، ولكن أبت النفوس اللقسة إلا الخروج من الحق إلى الباطل».

---

(١٨) سورة المجادلة آية ٢٢ .

(١٩) سورة البقرة آية ٦١ .

(٢٠) سورة طه آية ١٢٣ .

الإمام يكشف فى تفسيره عن سبب أكثر أمراض الأطفال :

فى سياق تفسيره للآية ٢٢٦ من سورة البقرة ، يقول رضى الله عنه : « فإن نكاح الرجل زوجته سبب فى أمراض المولود إلا إذا احتاط لنفسه فأمرها بالامتناع عن رضاع الولد حتى تطهر ، لأن هذا النكاح يجعل الدم يسرى فى الثديين فإذا أرضع الولد عقب الجماع مباشرة تسمم ، وأكثر أمراض الأطفال من هذا العمل الجاهلى ».

أسرار القرآن والعلوم الكونية :

وقد تناول رضى الله عنه بيانًا لبعض العلوم الكونية حال تعرضه لتفسير قوله تعالى : ﴿ وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾(٢١) فقال : الرياح جمع ريح ، واسمه مأخوذ من الرّوح لأنه حياة العالم أجمع ، فهو كأنه روح الوجود المادى ، وقد ورد الريح فى القرآن المجيد بلفظ الجمع ولفظ الإفراد ، وبعض العلماء يرى أن لفظة بـ « ال » تكون فيه « ال » للجنس فيكون بمعنى الرياح ، وبعضهم يفهم أن لفظة الريح بالإفراد تدل على مخصوصة وهى الريح العقيم التى تضر ولا تنفع ،ولفظة الرياح تدل على الرياح النافعة للعالم ، قال تعالى : ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ﴾(٢٢) وقال تعالى : ﴿إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ﴾(٢٣) وقال ﷺ : (اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا)(٢٤) عندما كان يرى هبوب الريح . وفى قوله : ﴿وتصريف الرياح ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة ، وسبحان المعطى الوهاب الفتاح العليم القائل سبحانه : ﴿ وفوق كل ذى علم عليم ﴾(٢٥) والقائل جل جلاله : ﴿ ولدينا مزيد ﴾(٢٦).

قوله تعالى : ﴿ وتصريف الرياح ﴾ يقظة لأهل القلوب المطمئنة بذكر الله تعالى ، فإن تصريف الرياح وتغيرها تكون شمالية أو جنوبية أو صبا أو دبورا . وفى هذا التصريف ، المنافع العامة لمصالح العالم أجمع ، وهناك تيارات دورية وهو التيار الذى يأتى من جهة

---

(٢١) سورة البقرة آية ١٦٤ .

(٢٢) سورة الروم آية ٤٦ .

(٢٣) سورة الذاريات آية ٤١ .

(٢٤) الإمام الشافعى فى الأم بلفظ : [ما هبت الريح إلا جثا ﷺ على ركبتيه ، وقال : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابًا ، اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا].

(٢٥) سورة يوسف آية ٧٦ .

(٢٦) سورة ق آية ٣٥ .

القطب الشمالى فيمر على نصف الأرض الشمالى حتى يصل إلى خط الاستواء (المنطقة المحترقة) فيتبخر ويرتفع ملتهبًا جدًا متجهًا من خط الاستواء إلى القطب الشمالى حيث المنطقة الثلجية ، فيثقل وينزل إلى الأرض حارًا فيحيا به ما هنالك من الحيوانات والنباتات والأناسى فى هذا الأفق المتجمد ، ثم يأتى باردًا إلى البحر الأبيض المتوسط مارًا على البحر الأسود فبحر البلطيق ويمر على شمال أفريقيا محملًا بالبرودة التى اكتسبها من الشمال ، ويمر على خط الاستواء كما تقدم . وهذا التيار الدورى دائم المرور من خط الاستواء فيتبخر هناك بحرارته الشديدة ، ويرتفع إلى الأفق الأعلى ثم يميل إلى الجنوب لنفع العالم عند القطب الجنوبى ، وهكذا يفعل كما يفعل التيار الشمالى . وهناك رياح تسمى الرياح الموسمية ، وتلك الرياح تتولد من مصادمة تلك التيارات الدورية بالجبال الشاهقة فيتغير مجراها ، فقسم منها بانفعال المصادمة ينصرف إلى الغرب ، وقسم ينصرف إلى الشرق ، وقد تتغير تلك التيارات بتغيير الظواهر الجوية من حرارة شديدة إلى برودة شديدة فيثقل تيار من التيارين ، فيحصل اصطدام الهواء بعضه ببعض فتتولد منه الزوابع التى تقتلع النباتات وتغرق السفن وقد تهدم البيوت بشدة تصادمها وضغطها .

وتلك الرياح المختلفة هى التى تلقح النباتات فتأتى بذكور النباتات إلى إناثها كما قال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾[٢٧] ، وقد تنقل تلك الزوابع بذور نباتات إلى بلاد لم تكن فيها تلك النباتات . وفى كل ذلك من تطهير الهواء فى الآفاق ، ونقائه من الأوساخ والكائنات الصغيرة السامة كالذباب والناموس وما دونه من البعوض ، ولولا ذلك التصريف لفقد أكثر الناس صحتهم . وفى هذا التصريف حجة قاصمة لظهور الملحدين ، لأن هذا النظام والتركيب لا يكون عبثًا ولا لغير حكمة ، لكنه بقدرة وإرادة ومشيئة ، يريد فاعله سبحانه أن ينفع الناس جميعًا بهذا التصريف ، ولو نظر أهل القلوب العامرة بنور الله تعالى إلى تصريف الهواء فى يوم واحد لشهدوا بعظمة الله تعالى فى كل نفس من أنفاسهم ، ولعجزوا عن شكر الله لإنعامه عليهم ، فسبحان مصرف الرياح الذى جعل فيها فضله وإحسانه وإمداده لخلقه .

ولو أن الله أمسك الهواء أن يتصرف حتى فقد من أفق الآفاق لما وجد على ظهرها دابة ، بل ولا نبات ولو أنك حبست الهواء عن الحيوان لمات فورًا ، أو عن النبات لذبل وفقد حياته . قال تعالى : ﴿ وإن تعدوا نعمة الله ﴾[٢٨] ولو فى نوع واحد من أنواع العناصر من نعمه ﴿ لا تحصوها ﴾ فكيف يمكن بنى الإنسان أن يحصوا نعمه فى كل

---

(٢٧) سورة الحجر آية ٢٢ .

(٢٨) سورة إبراهيم آية ٣٤ .

خلقه من العرش إلى الفرش بالنسبة لنا؟ وإذا عجزنا عن حصر نعمه فى الهواء فكيف يمكننا أن نقدر الله سبحانه حق قدره أو نحيط به علمًا؟ فسبحان من أعجز العقول عن علم آياته فى مكوناته، وأعجز الأرواح عن علم حقيقة أسمائه وصفاته، وتنزه وتعالى عن أن تحوم الأرواح العاليات حوالى قدس عظمته وكبريائه، قال تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئًا وهو حسير﴾[٢٩].

من جوانب الإصلاح الاجتماعى فى تفسير الإمام رضى الله عنه:

حث الإمام رضى الله عنه الأمة على التوحد ونبذ الاختلاف، والعمل على عودة المجد الذى فقده المسلمون عند تناوله لتفسير قوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[٣٠] فقال: «الاعتصام: هو التحفظ والتحرز من فقد المقصود، والتمسك بما يوصل إلى نيل الخير الحقيقى. وهذا الحبل إما أن يكون كتاب الله تعالى عند هجر العمل به، أو يكون الجماعة عند التفرقة، أو يكون الإخلاص لله فى التوحيد عند الشكوك والريب، أو يكون المسارعة إلى التوحيد والإنابة عند ارتكاب الخطايا. فهو فى كل حال بحسبه، ونحن فى زماننا هذا فى حاجة إلى كل تلك المعانى، بعد أن هجرنا كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فأصبحنا عالة على من كانوا عالة علينا، فى حاجة إلى أن نتلقى الصناعات والفنون والحرف ممن عنا نقلوها، فى تفرقة تحتاج إلى أن يتدخل فى شئوننا من كنا سببًا فى خلاصهم ورقيهم. فإذا اشتقنا إلى مجد سلفنا الصالح وعزهم ومنعتهم، يجب علينا أن نعتصم بحبل الله تعالى، وهو القرآن والسنة المطهرة، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يمن علينا بما مَنَّ به على سلفنا، ويكون معنا كما كان معهم، ويعيد لنا مجدنا، ويجعل لنا التمكين فى الأرض، حتى يصلح بنا جميع خلقه، قال عبد الله بن مسعود: (عليكم بالطاعة والجماعة فإنهما حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون فى الجماعة والطاعة هو خير مما تحبون فى التفرقة)، وكيف يميل المؤمن بالله ورسوله إلى التفرقة للذة عاجلة تفنى، وجاه يورث ذل الأبد، ومال قد يعين على الخلود فى نار جهنم؟! ويرضى أن يذل بتفرقة المسلمين، فيكون مسئولًا عنهم جميعًا يوم القيامة؟!

أيها المؤمن المحب للخير العاجل: هذه النفس التى تحب الخير، ألا تذكرها أنها لو باعت هذا الخير العاجل المفسد للدين وللجماعة بالخير الدائم الباقى عند الله تعالى تكون رابحة؟ ما الذى يناله الجاهل المغرور بالميل إلى التفرقة إذا عاجلته المنية قبل أن ينال

---

(٢٩) سورة الملك آية ٣، ٤.

(٣٠) سورة آل عمران آية ١٠٣.

قصده؟ لعمرى إنه ليموت على أكبر الكبائر، فيحرم لذة أمله العاجل وبهجة النعيم الأبدى، ويخلد فى نار الشقاء والعذاب.

وإن النعمة مقوّلة على معنيين: عند العاقل نعمة الشرف والعز والفرح بالمجتمع الإسلامى، ونعمة لذة الحيوانات فى الشهوات والشهرة الكاذبة.

وإنى لأرى نعمة الشرف قد تستعلى فى البهائم على لذتهم البهيمية، فقد يجهد الفرس نفسه فى الجرى حتى يقع صريعًا ليفرح بسبق نظيره لذة بنعمة الشرف.

وقد يلقى الكلب بنفسه على السبع ليحفظ صاحبه حتى يقتل فرحًا بلذة الشرف.

وقد يترك الديك غذاءه وينادى الدجاج متلذذًا بلذة الشرف.

فوا عجبًا! تعظم نفوس الحيوانات، فتقدم لذة الشرف على اللذة البهيمية التى هى فطرتها!! وتصغر نفس المؤمن حتى يدنسها بالتعس والخيبة، ليسمع كلمة جميلة أفسد لأجلها دينه ودنيا إخوته المؤمنين!! بل أعجب من هذا أن أجهل إنسان يعلم أن عِزّ جماعته عِزٌ له، وذلّ قبيلته ذلّ له.

وترى الجاهل يهدم مجد المجتمع ليتلذذ بأنه قريب إلى عظيم من العظماء، أو محبب عند ذى منزلة، والله تعالى يقول: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا﴾[31] ما هى تلك النعمة التى ينالها من ترك الاعتصام بحبل الله واعتصم بحبل شهواته وحظه وحبه لذاته؟! لا أراها إلا أعظم نقمة، فإنه يمقته الله تعالى، ويمقته رسول الله ﷺ، ويمقته المؤمنون من أهل عصره.

وليس الاعتصام بحبل الله بأمر صعب عليك، تذكر أيها المؤمن أيام كانت القلوب مجتمعة معتصمة بحبل الله، والأبدان عاملة لله، ومن أنت وما كان حالك وشأنك؟ لعلك إذا ذكرت تبكى، وتحن إلى هذا المجد حنين الثكلى أو أعظم، لأن العبد المملوك المسلم يعزه الإيمان على كل من فى الأرض، كان أصغر مسلم يمنح الأمن، ويقبل فى ذمته من استجار به فينفذ له الخليفة، كان المسلم عنوان الكمال فى نشأته ومعاملاته ورحمته ورأفته بالعالم أجمع، ومسارعته إلى الخير، وكان العالم أجمع إذ ذاك فى ظلمات الجهالة والضلالة لم يهتد للخير إلا بسببك أيها المؤمن.

أيها المؤمن: استعمرت مشارق الأرض ومغاربها، ودان لك أصحاب تيجانها، ومكنك الله فى الأرض بالحق، حتى فصمت تلك العروة، وترك أهل الجهالة الاعتصام

(٣١) سورة آل عمران آية ١٠٣.

بحبل الله تعالى ، فتغير الحال ، وتبدل الشأن ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

قم أيها المؤمن فتنبه ، وبحبل الله فاعتصم ، وبسنة رسول الله فتمسك ، وجاهد نفسك أعظم الجهاد فى ذات الله تعالى ، وقد منحنا الله الإرادة والحرية والقوة ، فإذا نحن تمسكنا بأحكام شريعة الله تعالى ؛ وعملنا بوصايا رسول الله ﷺ ، جمَّلَنا الله تعالى بالرحمة ، فكنا رحماء بالعطف وبالأمانة والصدق والعفاف ، والغيرة له سبحانه وتعالى ، وتركنا ما يضرنا ، ونشطنا لما ينفعنا ، وتشجعنا على فعل المكاره والفضائل ، وأحب بعضنا بعضًا ، حتى نصبح كجسد واحد ، يشعر الرأس بألم الإصبع ، وتتلذذ الرأس براحة الإصبع ، ونكون - مع كثرتنا - كعائلة فاضلة يسعى كل فرد منها لخيرها ، ونستعين بنعم الله على ما يحبه ويرضاه ، ولديها تلذ الحياة ، ونفوز بمسراتها فى الدنيا والآخرة ، ونورثه أبناءنا ».

* ولقد أشرنا إلى قليل من كثير من « أسرار القرآن » وعلى طالب المزيد أن يطالع ما شاء من ذلك التفسير الذى بيّن الإمام المجدد فى بدايته سر قوله تعالى : ﴿ذلك الكتاب﴾(٣٢) فقال : أشار سبحانه وتعالى إلى الكتاب باسم الإشارة الدال على البعد مع أن الكتاب قريب من الذاكرة ، فأشار إليه بما يدل على البعد لعلو مكانته ، أو لعظمة منزله سبحانه .

ولقد منح اسم الإمام المجدد نوط الامتياز من الطبقة الأولى تقديرًا من الدولة لما قدمه فى « أسرار القرآن » وقام رئيس الجمهورية بتسليم هذا النوط لحفيد الإمام وخليفته الثانى سماحة السيد عز الدين ماضى أبى العزائم رضى الله عنه وذلك فى ليلة القدر من عام ١٣١١ هـ الموافق ١٩٩١ م .

---

(٣٢) سورة البقرة آية ٢ .

الإمام وتفسير الحديث

الحديث : كلام رسول الله ﷺ وهو امتداد لكلام الله سبحانه كما أخبر ﷺ بقوله : (ألا إنى أوتيت القرآن ومثله معه)[1] ، وقال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾[2] ، فكلامه ﷺ هو بيان للقرآن وقد قال الله تعالى فيه : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾[3] .

وقد اعتنى رضى الله عنه بالحديث الشريف ، فتعلمه منذ نشأته حيث حفظ صحيح البخارى والمختصر للإمام الزبيدى وهو فى صغره وقام بشرحه شرحًا وافيًا أثناء فترة تواجده بالسودان ، وقد شرح صحيح البخارى فى المسجد الكبير بالخرطوم . وقد التزم رضى الله عنه فى كتبه ومؤلفاته منهجًا خاصًا به وكان رضى الله عنه فى كتبه يترك ذكر السند وأسماء الكتب والرجال الذى أخذ منها ويوضح ذلك بقوله : « ربما أنكر بعض المطلعين على هذه الكتب لتركى ذكر أسانيد الحديث وذكر أسماء الكتب والرجال الذى أخذت منها ، ولكنى والحمد لله على يقين أن العلم أمانة وأن كل الأحاديث التى وضعتها كلها فى كتبى هذه هى مما أوردها الأئمة فى كتبهم ، وضعتها فى كتبى هذه لتكون لإخوانى أهل الطريق نورًا من نور السنة المحمدية وعونًا لهم بعد كتاب الله تعالى على ما يقرب إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ ، وكلها إما أن تكون مما أخرجه الشيخان سيدنا الإمام البخارى والإمام مسلم فى جامعيهما أو أحدهما ، أو أورده أبو داود والترمذى وغيرهما من الأئمة فى تصانيفهم رحمهم الله ، وهى صحاح على شرط البخارى لأنها بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ ، إلا أنها لم تبلغ غاية شرط الشيخين فى علو الدرجة ، وقد حذفت الأسانيد لعدم الإطالة حتى يسهل على المريد أخذ الأحكام الشرعية .

على أنى لا أبرئ نفسى من الزلل والخطأ : ﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى﴾[4]، فكل أخ ظهر له زلل فى كتبى هذه فإنما أنا إنسان مسكين تحريت بقدر ما فى وسعى كما قال الله تعالى : ﴿فأولئك تحروا رشدًا﴾[5] فما كان من الزلل والخطأ فإنى أعوذ بالله أن يكون عن قصد منى أو تغيير لسنة رسول الله ﷺ أو انتهاج على غير طريق

---

(١) القرطبى فى تفسيره ١/٣٧ .

(٢) سورة النحل آية ٤٤ .

(٣) سورة النجم آية ٣ .

(٤) سورة يوسف آية ٥٣ .

(٥) سورة الجن آية ١٤ .

المؤمنين ، أعوذ بالله من مخالفة رسول الله ﷺ . كيف يرضى المؤمن بأن يكون من أهل جهنم بأن يتبع غير سبيل المؤمنين؟! قال الله تعالى : ﴿ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرًا﴾(٦) .

اللهم إنى أعوذ بوجهك الكريم وباسمك العظيم وبكلماتك التامات من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن عمل لا يرفع ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ».

ومما تناوله رضى الله عنه من أحاديث رسول الله ﷺ نورد بعض الأمثلة :

١ - قوله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٧) .. وقوله : (اطلبوا العلم ولو بالصين)(٨) .

يقول رضى الله عنه فى كتاب أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ : أورد شرح أئمة السلف هداة الأمة ، وما بينوا به قوله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) وقوله ﷺ : (اطلبوا العلم ولو بالصين) وبإيراد أقوالهم يمكن لكل مطلع أن يعلم مجموع العلوم التى فرضها الله تعالى ورسوله ﷺ وإن تفاوتت بالنسبة لمعلومها ، فقد يكون العلم فرض عين وهو أول واجب على المسلم ، كعلم التوحيد ، وقد يكون فرض عين ولا يفرض عليك إلا بعد فرض عمله كعلم العبادات ، لأن عملها فرض وعلم تأدية العمل الفرض كاملًا فرض عين على من فرض عليه العمل .

أقوال الأئمة فى معنى هذين الحديثين :

* قال الإمام أبو محمد سهل رحمه الله : أراد بذلك علم حال ، يعنى علم حال العبد من مقامه الذى أقيم فيه ، بأن يعلم أحدكم حاله الذى بينه وبين الله عز وجل فى دنياه وآخرته خاصة ، فيقوم بأحكام الله تعالى فى ذلك .

* وقال بعض العارفين : معناه طلب علم المعرفة وقيام العبد بحكم ساعته وما يقتضى منه فى كل ساعة من نهاره .

---

(٦) سورة النساء آية ١١٥ .

(٧) ابن ماجة فى المقدمة والمنذرى والطبرانى .

(٨) ابن عدى والبيهقى فى المدخل والشعب والغزالى فى الإحياء .

* وقال بعض علماء الشام : إنما عنى به طلب علم الإخلاص ومعرفة آفات النفس ووساوسها ، ومعرفة مكايد العدو وخدعه وغروره ، وما يصلح الأعمال ويفسدها ، فريضة كله من حيث كان الإخلاص في الأعمال فريضة ، ومن حيث أعلم بعداوة إبليس ، ثم أمر بمناوأته ، وذهب إلى هذا القول عبد الرحيم بن يحيى الأرموى ومن تابعه .

* وقال بعض البصريين في معناه : طلب علم القلوب ومعرفة الخواطر وتفصيلها فريضة لأنها رسل الله تعالى إلى العبد ، ووسواس العدو والنفس ، فيستجيب العبد لله تعالى بتنفيذ ما منه إليه ، ومنها ابتلاء الله تعالى للعبد واختبار تقتضيه مجاهدة نفسه في نفيها ، ولأنها أول النية التي هي أول كل عمل ، وعنها تظهر الأفعال وعلى قدرها تضاعف الأعمال ، فيحتاج أن يفرق بين لمة الملك ولمة العدو ، وبين خاطر الروح ووسوسة النفس ، وبين علم اليقين وفوادح العقل ليميز بذلك الأحكام ، وهذا عند هؤلاء فريضة وهو مذهب مالك بن دينار ، وفرقد السنجى ، وعبد الواحد بن زيد ، وأتباعهم من النساك ، وقد كان أستاذهم الحسن البصرى يتكلم في ذلك وعنه حملوا علوم القلوب .

* وقال عباد أهل الشام : معناه طلب علم الحلال فريضة إذ قد أمر الله تعالى به ، وأجمع المسلمون على تفسيق آكل الحرام ، وقد جاء في خبر مفسر « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة »[9] ، ومال إلى هذا القول إبراهيم بن أدهم ويوسف بن أسباط ووهيب بن الورد وحبيب بن حرب .

* وقال بعض هذه الطائفة من أهل المعرفة : معناه طلب علم الباطن فريضة على أهله ، قالوا : وهذا مخصوص لأهل القلوب ممن اشتغل به واقتضى منه دون غيره من عوام المسلمين ، ولأنه جاء في لفظ الحديث : (تعلموا اليقين)[10] فمعناه : اطلبوا علم اليقين ، وعلم اليقين لا يوجد إلا عند الموقنين وهو من أعمال الموقنين المخصوص في قلوب العارفين ، وهو العلم النافع الذى هو حال العبد عند الله تعالى ومقامه من الله تعالى كما شهد له الخبر الآخر في قوله ﷺ : (وعلم باطن في القلب وهو العلم النافع)[11] فهذا تفسير ما أجمل في غيره ، وقال جندب : (كنا مع رسول الله ﷺ فيعلمنا الإيمان ثم يعلمنا القرآن فازددنا إيمانًا وسيأتى زمان قوم يتعلمون القرآن قبل الإيمان) ، يعنى تعلمنا علم الإيمان ، وهذا مذهب نساك أهل البصرة .

---

(٩) الطبرانى في الكبير ، والسيوطى في الجامع الصغير .

(١٠) أبو نعيم في حلية الأولياء ، وابن أبى الدنيا في اليقين .

(١١) ابن أبى شيبة في مسنده والخطيب البغدادى في تاريخه والسيوطى في الفتح الكبير .

* وقال بعض السلف : إنما معناه طلب علم ما لم يسع جهله من علم التوحيد ، وأصول الأمر والنهى ، والفرق بين الحلال والحرام ، إذ لا غاية لسائر العلوم بعد ذلك وكلها يقع عليه اسم علم من حيث هى معلومات ، ثم قد أجمعوا أن ليس تعليم ما زاد على ما ذكرناه فرضًا . وإنما فيه فضل أو ندب .

* وقال بعض فقهاء الكوفة : معناه طلب البيع والشراء ، والنكاح والطلاق ، وإذا أراد الدخول فيه افترض عليه مع دخوله فى ذلك طلب علمه ، لقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه : (لا يتجر فى سوقنا هذا إلا من تفقه ؛ وإلا أكل الربا شاء أم أبى) وكما قيل : تفقه ثم اتجر ، ومال إلى هذا سفيان الثورى وأبو حنيفة وأصحابهما .

* وقال بعض المتقدمين من علماء خراسان : هو أن يكون الرجل يريد أن يعمل شيئًا من أمر الدين ، أو يخطر على قلبه مسألة لله سبحانه وتعالى فيها حكم وتعبد وعلى العبد فى ذلك اعتقاد أو عمل فلا يسعه أن يسكت على ذلك ، ولا يجوز له أن يعمل فيه برأيه ولا يحكم بهواه ، فعليه أن يلبس نعليه ويخرج فيسأل عن أعلم أهل بلده فيسأله عن ذلك عند النازلة فهذا فريضة ، وحكى هذا القول عن ابن المبارك وبعض أصحاب الحديث .

* وقال آخرون : يعنى طلب علم التوحيد فرض ، وإنما اختلفوا فى كيفية الطلب وماهية الإصابة ، فمنهم من قال : من طريق الاستدلال والاعتبار ، ومنهم من قال : من طريق البحث والنظر ، ومنهم من قال : من طريق التوفيق والأثر ، وقالت طائفة من هؤلاء : إنما أراد طلب علم الشبهات والمشكلات إذا سمعها العبد وابتلى بها ، وقد كان يسعه ترك الطلب إذا كان غافلًا عنها على أصل التسليم ، ومعتقد جملة المسلمين لا يقع فى وهمه ولا يحيك فى صدره شئ من الشبهات فيسعه ترك البحث . فإذا وقع فى سمعه شئ من ذلك ووقر فى قلبه ولم يكن عنده تفصيل ذلك وقطعه ومعرفة تمييز حقه من باطله ، لم يحل له أن يسكت عليه لئلا يعتقد باطلًا أو ينفى حقًا ، فافترض عليه طلب ذلك من العلماء به فيستكشفه ، حتى يكون على اليقين من أمره ، فيعتقد من ذلك الحق وينفى الباطل ، ولا يقعد عن الطلب فيكون مقيمًا على شبهة فيتبع الهوى ، أو يكون شاكًا فى الدين فيعدل عن طريق المؤمنين ، أو يعتقد بدعة فيخرج بذلك عن السنة ومذهب الجماعة وهو لا يعلم . ولهذا المعنى كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول فى دعائه : (اللهم أرنا الحق حقًا فنتبعه ، وأرنا الباطل باطلًا فنجتنبه ، ولا تجعل ذلك متشابهًا علينا فنتبع الهوى) . وهذا مذهب أبى ثور إبراهيم بن خالد الكلبى وداود بن على والحسين الكرابيسى والحارث بن أسد المحاسبى ومن تابعهم من المتكلمين .

فهذه أقوال العلماء فى معنى هذا الخبر ، حكينا ذلك عن علمنا بمذاهبهم على معنى مذهب كل طائفة ، واحتججنا لكل قول ، فالألفاظ لنا والمعنى لهم ، وهذا كله حسن ومحتمل ، وهؤلاء كلهم وإن اختلفوا فى تفسير الحديث بألفاظ فإنهم متقاربون فى المعنى إلا أهل الظاهر منهم فإنهم حملوا على ما يعلمونه ، وأهل الباطن حملوه على علمهم ، هذا ما وصل إلينا من أقوال الأئمة فى شرح هذين الحديثين .

والرأى عندى

أن الظاهر والباطن علمان لا يستغنى أحدهما عن صاحبه ، بمنزلة الإسلام والإيمان ، مرتبط كل واحد بالآخر كالجسم والقلب لا ينفك أحدهما عن صاحبه . والأئمة رضى الله عنهم وإن اختلفوا فى الأقوال فإنهم مجمعون أنه ﷺ لم يُرد بذلك طلب علم الأقضية والفتاوى ، ولا علم الاختلاف والمذاهب ، ولا كتب الأحاديث مما لا يتعين فرضه ، وإن كان الله تعالى لا يخلى من ذلك من يقيمه بحفظه ، والذى عندنا فى حقيقة معنى هذا الخبر والله أعلم ، أن قوله ﷺ : (طلب العلم فريضة) يعنى علم هذه الفرائض الخمس التى بنى الإسلام عليها من حيث لم يفترض على المسلمين غيرها .

ثم إن العمل لا يصح إلا بعلمه ، فأول العمل العلم به ، فصار علم العمل فرضًا من حيث افترض العمل ، فلما لم يكن على المسلمين فرض من الأعمال إلا هذه الخمس ، فصار طلب علم هذه الخمس فرضًا ، لأنه فرض الفرض ، وعلم التوحيد داخل فيها لأنه فى أوله شهادة أن لا إله إلا الله ، بإثبات صفاته المتصلة بذاته ونفى صفات سواه المنفصلة عنه إياه ، كله داخل فى علم شهادة أن لا إله إلا الله ، وعلم الإخلاص داخل فى صحة الإسلام ، إذ لا يكون مسلمًا إلا بإخلاص العمل لقوله ﷺ : (ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله)[١٢] فبدأ به واشترطه للإسلام ، والأصل فى هذا أنه لم يرد ﷺ علم كل ما جاز أن يكون معلومًا بإجماع الأمة ، أنه لم يقصد بذلك علم الطب أو علم النجوم ولا علم النحو أو الشعر أو المغازى ، وهذه تسمى علومًا لأنها تكون معلومة وأربابها علماء بها ، إلا أن الشرع لم يرد بالأمر مقتضاها ، والأمة مجمعه أيضًا أنه لم يرد بذلك علم الفتيا والقضاء ، ولا علم افتراق المذاهب واختلاف الآراء ، وهذه تسمى علومًا عند أهلها ، وبعضها فرض على الكفاية وكلها ساقطة عن الأعيان ، والخبر جاء بلفظ العموم بذكر الكلية وبمعنى الاسم ، فقال : (طلب العلم فريضة) ثم قال : (على كل

---

(١٢) ابن حبان فى صحيحه بلفظ : [ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ، إخلاص العمل لله تعالى ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم] .

مسلم) بعد قوله : (طلب العلم) ، فكان هذا على الأعيان ، فكأنه على ما وقع عليه اسم العلم ، ومعناه المعهود المعروف بإدخال التعريف عليه ، فأشير بالألف واللام إليه .

علم ما بنى الإسلام عليه فريضة :

فإذا بطلت هذه الوجوه صح أن قوله ﷺ : (طلب العلم فريضة على كل مسلم) أى طلب علم ما بنى الإسلام عليه ، فافترض على المسلمين علمه فريضة بدليل قوله ﷺ للأعرابى حين سأله : (أخبرنى ماذا افترض الله على ؟ - وفى لفظ آخر - أخبرنا بالذى أرسلك الله تعالى إلينا به ، فأخبره بالشهادتين ، والصلوات الخمس ، والزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، فقال : هل علىّ غيرها ؟ فقال : لا إلا أن تطوع ، فقال : والله لا أزيد عليه شيئًا ولا أنقص منه شيئًا ، فقال : أفلح ودخل الجنة إن صدق)[١٣] ، فكان علم هذه الخمسة فريضة من حيث كان معلومه فريضة ، إذ لا عمل إلا بعلم ، وقد قال تعالى : ﴿إلا من شهد بالحق وهم يعلمون﴾[١٤] ، وقال فى مثله : ﴿حتى تعلموا ما تقولون﴾[١٥] ، وقال : ﴿هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن﴾[١٦] وقال : ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله﴾[١٧] وقال تعالى : ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾[١٨] وقال تعالى : ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئًا﴾[١٩] وقال سبحانه وتعالى : ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾[٢٠] وقال : ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾[٢١] .

فهذه الآيات افترض الله فيها طلب العلم ، وذلك الخبر الذى جاء فى أبنية الإسلام الخمسة افترض رسول الله ﷺ فيه هذه الأعمال ، ثم قال مجملًا : (طلب العلم فريضة) ثم وكده بقوله ﷺ : (على كل مسلم) فكان تفسير ذلك وتفصيله أن علم

---

(١٣) البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والدارمى ومالك فى الموطأ .

(١٤) سورة الزخرف آية ٨٦ .

(١٥) سورة النساء آية ٤٣ .

(١٦) سورة الأنعام آية ١٤٨ .

(١٧) سورة الروم آية ٢٩ .

(١٨) سورة الجاثية آية ٤٥ .

(١٩) سورة الجاثية آية ١٩ .

(٢٠) سورة هود آية ١٤ .

(٢١) سورة النحل آية ٤٣ .

هذه الخمس التى هى أبنية الإسلام فرض لأجل فرضها .

٢ – معنى قوله ﷺ : (لا عصبية فى الإسلام)[٢٢] :

ثم تناول رضى الله عنه فى كتابه (الإسلام نسب) بيان مراد رسول الله ﷺ من قوله : (لا عصبية فى الإسلام) شارحًا معنى التعصب للدين والفرق بين العصبية للإسلام والعصبية فى الإسلام فقال : بالتعصب للدين يقوى سلطان المسلمين فتكثر الفتوحات وتفتح الكنوز ويدخل الناس فى الدين عندما تظهر أنواره وتباشر بشاشته القلوب ، وترى العيون معاملة المسلمين التى هى حقيقة الرحمة والعدالة والمساواة والنصفة من النفس للغير ، ومن الوالد والولد للأجنبى ، فتنجذب قلوب العالم بعامل الرغبة والحب عندما تتضح لعقولهم أسرار الإسلام وتلوح لبصائرهم أنواره فيحيون الحياة الحقيقية فى الدنيا والآخرة ، والمسلم المتعصب يفوز بخير الخيرين أو بهما والمتساهل يعاقب بشر الشرين أو بهما ، والمسلم المتعصب يحبه الله ورسوله ﷺ ، والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمة المسلمين ، ويعز بين الناس ، ويحيا ذكره بعد موته ، ويؤسس لمن بعده من قومه مجدًا باقتداء المسلمين بعمله وقوله وحاله ، ويقوى به سلطان المسلمين ، فهو خير للمسلمين حيًا وميتًا ، وسعادة لأهله فى الدنيا والآخرة .

التساهل فى الدين وعواقبه :

المتساهل فى دينه يبغضه الله ورسوله ﷺ والملائكة والعلماء والأتقياء وأئمة المسلمين ، ويلحقه الذل والهوان بين الناس ، ويسوء ذكره بعد موته ، ويلبس من بعده من ذريته الخزى والخيبة ، ويضعف به سلطان المسلمين ، فهو شر حيًا وميتًا ، وشقاء لمن بعده من آله .

المتساهل بدينه مرض عضال بين جماعة المسلمين ، والأحرى بالمسلمين أن يطاردوه بأشد مما يطاردون به السيل الجارف والحريق المتلف والطاعون المهلك ، قال الله تعالى : ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادًا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾[٢٣] .

بالتساهل فى الدين زال سلطان المسلمين وتبدلت محاسن الحق بقبائح الباطل ، وذل

---

(٢٢) يؤيد ذلك الحديث الشريف الذى رواه أبو داود فى مسنده : [ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية] .

(٢٣) سورة المائدة آية ٣٣ .

أهل العزة وعز أهل الذل ، وأصبح من يدين بعبادة الأحجار أو من يعبدون إنسانًا أو يعتقدون أن جسمًا صنعوه بأيديهم إله يعبد ، أو أن صورة صورها إنسان هي رب خالق ، أو أن إنسانًا أكرمه الله بالمعجزة - كما أكرم من قبله ومن بعده من الرسل بأكمل وأعظم مما أكرمه به - إله أو ابن الإله ، ينظرون إلى الدين الحق بعين الازدراء ويقيمون الحجج الباطلة التي تلبس منتحلها الخزى وتحكم عليه أنه أقل من الجمادات ، لتجرده عن العقل الحيوانى فضلًا عن الإنسانى .

كل ذلك من نتائج تساهل أدعياء الإسلام الكاذبين فى دعواهم الإسلام ، لقولهم إن التعصب للدين جمود وتقهقر ، فجرّوا على المجتمع فساد العقول بالخمر ، وفساد النسل بالزنا ، وفساد الأخلاق الفاضلة بالربا ، والفشل بترك التوكل على الله ، والتفرقة بالاعتماد على أنفسهم ، وحب الخير لها ، والحرص على المال والجاه .

المتساهل فى الدين هو أشد أعداء المسلمين وألد خصومهم قبل الكفار المحاربين والأعداء المناوئين ، والله يحفظ الإسلام والمسلمين من كل كافر بقلبه مؤمن بلسانه ينطق بالكلمة ويعمل لإطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ، قال الله تعالى : ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾[٢٤] .

الفرق بين العصبية للإسلام والعصبية فى الإسلام :

لعل جاهلًا بمراد رسول الله ﷺ يعترض عليّ قائلًا : إن رسول الله ﷺ قال : (لا عصبية فى الإسلام) فاهمًا لضعف عقله أن مدلول كلامه ﷺ نفى التعصب مطلقًا ، وهذا ما لايقول به طفل من أطفال المسلمين ، فإن صريح لفظ الحديث الشريف بين لا يحتاج إلى توضيح ، وذلك لأن مدلول (لا عصبية فى الإسلام) معناه أن العصبية يجب أن تكون للإسلام لا فى الإسلام ، فإن العصبية فى الإسلام تفرقة لجماعة المسلمين ، دليل ذلك قوله ﷺ لرجل فارسى من الصحابة ، فى غزوة من الغزوات عندما قال للمشرك خذها وأنا الفتى الفارسى ، فغضب رسول الله ﷺ وقال له : (هلا قلتَ وأنا الفتى الأنصارى) . قال له ذلك عليه الصلاة والسلام ؛ وقد رئى الغضب الشديد فى وجهه الكريم مما جرى على لسان ذلك القائل بكلمته التى هى عين التفرقة ، وما ينبغى لمسلم إلا أن تكون دعواه للإسلام ، وكل ما يدعو إلى الاتحاد والوئام .

---

(٢٤) سورة المائدة آية ٥٤ .

وهذا الحديث الشريف المتقدم أساس من أسس الدين القويم يجلى لنا الحقيقة، وهى قوله ﷺ : (المسلم أخو المسلم)[٢٥] أى أن الأنساب والأحساب والعصبية للآباء والقبائل محيت بالإسلام، وصار التعصب للإسلام، والشرف بالإسلام، والإسلام هو النسب والحسب بدليل قوله ﷺ : (كل نسب منقطع إلا نسبى)[٢٦]، فهذا الحديث الشريف الذى يظنه سخيف العقل حجة علي ترك التعصب للدين، نعم هو حجة ولكن عليه، وبرهان ولكن على بطلان دعواه، لأنه نص ظاهر فى وجوب التعصب بقوله: (إلا نسبى) فهو الذى يتعصب له تعصبًا تقوى به كلمة الله، وتحيى به سنن رسول الله، ولا يحسن التعصب للنسب الجسمانى إلا إذا كان شرف هذا النسب بسبب الدين، كتعصب المسلم لنسب مولانا الحسن أو الحسين، أو تعصبه للأنصار أو الخلفاء الفاتحين فيكون تعصبًا للدين.

اللهم فاشهد أنى أشكرك على أن وفقتنى وأعنتنى على التعصب للدين، وأسألك أن تمنَّ على بالصدق فى التعصب للدين.

٣ - قال رسول الله ﷺ : (إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة فلا يحل لأحدهما أن يفشى على أخيه ما يكره)[٢٧].

قال رضوان الله عليه فى كتاب (الإسلام وطن): أما حسن المجالسة فآدابها:

١ - أن لا يعين ظالمًا على ظلمه، ولا يفتح باب شر على أحد من الناس أمام من يمكنه أن يؤذيه، ولا يذكر غائبًا بسوء إلا أن كان متفضحًا وسئل عنه على سبيل نصيحة أو مشورة.

٢ - ويلزم أن يغض بصره فى المجلس عن عورات المجلس خصوصًا إذا جلس مع رجال ونساء فيجب عليه أن لا يحدق ببصره إلى النساء ولا أن يصغى بأذنيه إلى اثنين يتكلمان فى المجلس إلا إذا دعواه إلى سماع الكلام.

٣ - ومن آداب المجالسة أن لا يتكلم سرًا مع جليسه إذا كان معهما ثالث فإن ذلك يحزنه ولا يتكلم معه بلغة لا يفهما الثالث، وليجتنب اللمز والهمز والإشارة باليد أو العين

---

(٢٥) البخارى ومسلم والترمذى.

(٢٦) أحمد فى مسنده والحاكم فى المستدرك بلفظ: [كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا ما كان من سببى ونسبى].

(٢٧) أبو بكر بن لال فى مكارم الأخلاق، وابن المبارك فى الزهد، والحاكم وصححه: [إنكم تجالسون بينكم بالأمانة] وذكره الغزالى فى الإحياء.

أو اللسان ، قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرًا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاثم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾(٢٨) .

٤ - وعلى المسلم أن يكون باشًا طلق الوجه لمجالسيه ما داموا فى خير ، فإذا تكلموا فى غير الخير فالواجب عليه أن يذكرهم بحكمة ويبين لهم شر التكلم فيما يضر ولا ينفع أو يصمت إن خاف عنادهم أو يفارق المجلس إن كان ذلك لا ضرر فيه عليه .

٥ - ومن آداب المجالسة أن يجتهد المسلم في إدخال السرور على جليسه بقدر استطاعته فلا يذكر عورة من عوراته يريد بها احتقاره ولا ينتقد عليه فى عمل مباح عمله ، قال ﷺ : (إن الرجل ليقول الكلمة في المجلس لا يلقى لها بالًا يضحك بها الناس يهوى بها فى النار سبعين خريفًا)(٢٩) .

الآداب التي يراعيها المسلم مع جلسائه :

وجلساء الرجل إما أن يكون مضطرًا أن يجالسهم أو غير مضطر ، أما جلساؤه الذين لابد له من مجالستهم فكمن معه فى مزرعة أو صناعة أو شركاؤه فى تجارته أو معه فى بيت واحد .

١ - فإخوانك الذين معك فى الصناعة أو المزرعة أو التجارة يلزمك أن تجتهد فى استجلاب مودتهم لك وحبهم بما يمكنك مما لا يغضب الله ولا يخالف السنة .

٢ - ويجب عليك أن تحفظ لسانك عن ذكر عوراتهم وهفواتهم أمامهم أو خلفهم ، فإن كل إنسان لا يخلو من عيوب يجتهد أن يخفيها عن الناس ولكنها تظهر قهرًا عنه ، وإنما المعصوم رسول الله ﷺ .

٣ - وكما أنك يا أخى تحب أن تخفى صغائرك وهفواتك عن الناس فالواجب عليك أن تخفى هفوات أخيك وصغائره وعيوبه عن الناس وعنه فى حضوره ما دامت ليست مما تضره دينًا ولا دنيا ، فإن كانت تلك الأعمال مما يضره دينًا أو دنيا فالواجب عليك أن تختلى به وتنصحه بطريقة يقبلها لا تريد بذلك احتقاره ولا تهديده والتنديد به .

٤ - ومن أكمل صفات أهل الأدب أن يحفظوا سر المجالس ، ومن أقبح صفات أهل

(٢٨) سورة الحجرات آية ١١ .

(٢٩) الترمذى وابن ماجة والحاكم وأبو داود .

النقائص أن الرجل يجلس فى المجلس ثم يقوم منه فينشر أخباره لكل من لقيه ، وقد يبلغ الجهل ببعض الحمقى أنهم ينشرون معاصيهم ورذائلهم حتى خلوتهم بنسائهم يقول ﷺ : (المجالس بالأمانات)[٣٠]. وورد أن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة رجل أسبل الله عليه ستره فكشف عنه ستر الله ، ومعنى ذلك أن الرجل يعمل المعصية ليلًا أو فى خفاء عن الناس ثم يخرج فيذكر عمله للناس .

٥ - ومن محاسن الآداب فى المجالسة أن لا يتجسس المؤمن ولا يتحسس وأن يجتهد المؤمن أن يجعل فى كل مجلس جلس فيه عملًا صالحًا يرفع له من ذكر الله أو نصيحة أخ أو رد غيبة عن أخ صالح أو توبة عن ذنب عمله فى المجلس .

٦ - ومن آداب المجالسة أن يتباعد الرجل عن الجلوس بجوار زوجة غيره ، ولا يسارع إلى قضاء حوائجها ما دام معها محرم ، ولا يلامس جسمها لمعاونتها فى شئ أو ركوب أو نزول إلا إذا كان محرمًا لها ، وإذا دعت الضرورة أن يتكلم معها يجب أن يجعلها خلفه على يمينه أو يساره إذا كان واقفًا وإن كان جالسًا أن يجلسها إن استطاع فى الجهة التى لا تكون مواجهة له ، بل يجعل محل نظره الجهة التى لا يراها فيها وإن دعت الضرورة أن يواجهها بوجهه فعليه أن يغض بصره أو يطأطئ رأسه أو يلفت عنقه ، فإن عمله هذا مرضاة لله مَحْمَدَةٌ عند الناس موجبًا لمحبة الخلق وثقتهم ، وموجبًا لكمال حياء المرأة ، فإن الأصل فى المرأة الحياء ، وإنما يقوى عندها إذا تجمل الرجل به أمامها ، ولا يجوز لك يا أخى أن تختلى بامرأة أجنبية منك مهما وثقت من نفسك ، فإنك أعلم بنفسك من غيرك ، فإذا كنت واثقًا من نفسك أن خلوتك بها لا تشغل قلبك ولا تنقض وضوءك لما تراقبه من الخوف من الله ومن عقوبته سبحانه .. فهل تثق أن المرأة بلغت ذلك ؟ فإن لم تخف على نفسك يا أخى فخف عليها أن توقعها فى المعاصى .

٧ - ومن آداب المجالسة أن يجلس الصبيان وراء الظهور وأن يترك الرجل البسط مع الصبيان مطلقًا إلا مع ابنه أو ابن أخيه أو من له به نسب من سن السنة الخامسة حفظًا لآداب الصبى وبعدًا عن الشُبه .

٨ - ومن آداب المجالسة أن يجتهد المسلم فى حفظ لسانه مما يخجل من ذكر العورات ، وإذا كان لابد من ذكر شئ من العورات فليعبر عنه بكناية أو إشارة .

٩ - ومن الآداب التى يراعيها المسلم أن لا يطمع فيما فى يد أخيه ويجتهد أن لا يخسره شيئًا من ماله ، والأولى أن يكون متفضلًا مسارعًا إلى فعل الخير مساعدًا أخاه بماله

---

(٣٠) أبو داود والترمذى بلفظ : [المجالس بالأمانة] .

ونفسه ، فإن ذلك من أخلاق المؤمنين الذين يمنحهم الله فضله ورحمته ورضوانه .

١٠ - ومن آداب المجالسة أن الجليس يفسح لأخيه عند احتياجه لذلك قبل أن يلتمس أخوه منه ، كما أن الجالس ينزل القادم منزلته من التكرمة خصوصًا إذا كان ذا شيبة أو عالمًا أو صاحب المنزل أو ذا سلطان ، فيتنحى له عن المجلس المناسب له مع غض البصر وعدم إظهار التفضل عليه .

١١ - كما أن من آداب المجالسة أن لا يجلس على محل تكرمة الرجل فى منزله إلا بعد إذنه له ، ولا ينصرف من المجلس حتى يستأذن ، لأن تلك الآداب تقوى روابط المحبة وبها نيل رضاء الله تعالى ورسوله والمؤمنين . وعلى الجالس توقى الغضب ولو حصل له ما يغضب ، فإنه ربما غضب بما يغضب فأدى غضبه إلى ما لا يرضى الله ورسوله ، وليدفع بالتى هى أحسن ، وعلى الجالسين أن يجتهد كل واحد منهم فى أن يدخل السرور على قلوب جميع جلسائه ، وليكن أصغر الناس فى المجلس أعظمهم ما دام على الحق ، وأعظمهم أصغرهم إن وقع فى باطل مع كمال آدابهم . ومن مدح منهم فى المجلس شكر الله تعالى الذى أظهر الجميل وستر القبيح ، وإذا ذم رجل رجلًا فالأولى أن يقل : اللهم إن كان صادقًا فاغفر لى وإن كان كاذبًا فاغفر له تشبهًا بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإن أساس المجالسة التسامح وأن الرجل المتسامح الكريم الأخلاق إذا سمع كلمة من مجالس يكدره أو رأى عملًا يكيده حمله من أخيه على أجمل محامله ليدوم بذلك الصفاء . ومعلوم أن أكثر الخصومات والمنازعات قد تنتج من كلمه يقولها الجليس لجليسه بسلامة نية فيردها عليه بحماقة ويتأولها شر تأويل فتوقد نار البغضاء ، ومعظم النار من مستصغر الشرر ، فقد يقول الأخ الكلمة الثقيلة على أذن أخيه لا يقصد بها إلا خيرًا ولو حمل الأخ كلمة أخيه على أجمل المحامل لدام الصفاء والوفاء ولكان المسلمون كالجسد الواحد كما شبههم رسول الله ﷺ . وإن اللسان شر أبواب جهنم وخير أبواب الجنة ، يقول ﷺ : « وهل يكب الناس على مناخرهم فى النار إلا حصائد ألسنتهم »[٣١] وقال الله تعالى : ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾[٣٢] .

---

(٣١) رواه الترمذى بلفظ : [وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم] .

(٣٢) سورة إبراهيم آية ٢٤ - ٢٧ .

١٢ – وللمجالسة آداب تتفاوت بحسب مراتب الجالسين، ومجملها أنك إذا جلست مع العالم فأمسك لسانك واصغ، وإذا جلست مع الولى فأمسك قلبك لترد عليك واردات الحق، وإذا جمع الله الولاية والعلم فى رجل فأمسك قلبك ولسانك، وإذا جلست مع ذى سلطان فجمل له ظاهرك وأكتم سره ولن له الكلام فى النصيحة وغض بصرك عن حرمه، وإذا جالست العامة فتجنب المزح والمنافسة فى شئ يسارعون إليه، واستخدمهم بما يشرح صدورهم منك إن استطعت، وإذا جلست مع من ليسوا على مذهبك فسلم لهم مذهبهم ولا تعارضهم بمذهبك فإن مذهبًا لا يعارض مذهبًا، وإذا سُئِلت فأجب على قدر السؤال.

قال بعض الحكماء: كل إنسان مع شكله كما أن كل طير مع جنسه، والناس كالشجر: منهم من له ظل ليس فيه ثمر، وهذا الذى فيه نفع فى الدنيا ولا ثمر له فى العقبى ويحتاج إليه فى وقت، ومنهم من فيه ثمر وليس له ظل، وهذا يصلح للآخرة ولا يصلح للدنيا، ومنهم من فيه ظل وثمر، فهذا الذى يصلح للدين والدنيا وهو أعزها، ومنهم من لا ظل له ولا ثمر، وهذا هو الذى لا يحتاج إليه فمثله فى الشجر مثل شجر الغضا وهو شوك البرية التى تسميه العامة أم غيلان يمزق الثياب لا طعام فيه ولا شراب فهو فى الناس يضر ولا ينفع ومثله كما قال الله تعالى: ﴿ يدعو لمن ضره أقرب من نفعه لبئس المولى ولبئس العشير﴾(٣٣). وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحًا أنه ليس إلى السلامة من الناس سبيل فانظر ما يصلحك فافعله، وقال الثورى رضى الله عنه: رضاء الناس غاية لا تدرك فأحمق الناس من طلب من لا يدرك نسأل الله العفو والعافية.

المجالس التى ابتدعها الناس:

وقد ابتدع الناس مجالس يقتلون فيها أوقاتهم ويسودون فيها صحفهم: أما إنهم يقتلون فيها أوقاتهم، فإنها ليست لعمل فى الدين ولا فى الدنيا، وكفى الإنسان العاقل المطالب فى كل نفس بواجبه أن يأتى يوم القيامة وقد ترك القيام بواجب أوقاته.. وأما كون تلك المجالس تسود الصحف فلأنهم يجلسون فيها إما لشرب المحرم أو للتعاون على الإثم والعدوان أو لكشف عورات الناس أو للفخر والرياء، وقد عظمت البلية حتى كثرت تلك الأماكن المعدة لتلك المجالس وصارت مفسدة للأخلاق، فإن شياطين الإنس جعلوا لها أماكن فى المواضع العامة وأعدوا فيها كل منكر من طعام وشراب ونساء

(٣٣) سورة الحج آية ١٣.

متبرجات وغلمان ، كل ذلك مصائد لإلقاء المسلمين فى مهاوى غضب الله تعالى حتى صار سخيف العقل يخرج من بيته الطلق الهواء ، الجميل الفراش والرياش ، وهو فيه آمر مطاع ، فإذا سُئِل إلى أين ؟ يقول : استنشق الهواء ، فيذهب إلى بؤرة فساد فى وسط شارع تنبعث منه روائح القاذورات وأنفاس المارة وتعلو به الضوضاء بأصوات السوقة ، فيجلس وعلى يمينه مواقف السيارات وعلى يساره روث الحيوانات ، فيستنشق هواء ممزوجًا بأخبث الروائح بين قوم يكون معهم محتقرًا منتقدًا ، فيخسر ماله ودينه وجاهه ويشرب فى أقداح تنفس فيها المرضى بالأمراض القتالة ، وربما جلس بجواره مريض بمرض يجب شرعًا الاحتراز منه فيجلس المسلم بهذا الحال فى هذه المجالس فيسمع الظهر والعصر والمغرب والعشاء ينادى لها المؤذن وكأنه أصم لا يسمع وبهيم لا يعقل . وعندى أن المساجد الآن أنقى هواء من الملاهى وأدعى لانشراح الصدر ولترويح النفس فإن المسلم إذا توجه إلى المسجد يستنشق هواء جيدًا نقيًا ، لأن المساجد غالبًا تكون فى الأماكن البعيدة عن القاذورات وتكون كثيرة النوافذ ، ويجد فيها المسلم من يجالسه فيها دينًا وخلقًا وأدبًا ، ويجد فيها من يثنى عليه ويحبه لقيامه بما فرض الله عليه ويتعرف فيه بإخوان الصدق الذين يكونون جمالاً له فى غناه ومالاً له فى فقره ، يسألون عنه إن غاب ، ويثنون عليه ويسرون به إن حضر ويخلصون له .

فيا أيها الأخ التارك لقصرك الذى جمع أنواع مسراتك ، التارك لبيت ربك الذى به نيل سعادتك فى الدنيا والآخرة المسارع إلى الملاهى ما الذى اكتسبته من العلم أو الجاه أو الصحة ؟ ومن هم الإخوان الذين تكتسبهم فى الملاهى ؟ وهم إخوانك ما دمت غنيًا قادرًا على مساعدتهم فإذا دعت الضرورة - لا يخلو إنسان من الضرورة - كانوا عليه لا له .

كل هذا فى الدنيا ، وفى الآخرة عذاب شديد وخصومة بينك وبينهم وعداوة شديدة .

إذا أردت يا أخى أن تؤاخى إخوان صفاء وخلان وفاء فاجتهد أن تصطفى لك إخوانًا من المساجد ومن مجالس العلم النافع ومن أهل التقوى والصلاح وكل أخ غير هؤلاء فهو عليك لا لك ، وكل جليس لا تدعوك الضرورة إلى مجالسته غير هؤلاء فهو مرض ينبغى أن يفارقه الإنسان بحكمة حكيم خصوصًا شياطين الإنس الذين يعينون على معصية الله ومخالفة سنة رسول الله ﷺ ، فإنهم ألد الأعداء وأسوأ الجلساء . وقد أمرنا الدين بالاجتماع وعين لنا مكان الاجتماع وزمانه لتدوم صحتنا وتجدد بهجتنا وتقوى أمتنا ، والله أسأل أن يشرح صدرنا للعمل بالكتاب والسنة ، ويصرفنا عن العمل لحظنا وهوانا .. إنه مجيب الدعاء آمين .

من المأثور عن آداب المجالسة :

جاء فى الأثر : « ثلاثة من المروءة فى الحضر تلاوة كتاب الله عز وجل ، وعمارة مساجده ، واتخاذ الإخوان فى الله تعالى » وكان سعيد بن العاص يقول لجليسى علىّ ثلاثة إذا دنا رحبت به ، وإذا حدث أقبلت عليه ، وإذا جلس أوسعت له ، وعن ابن عباس قيل له : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسى . وكان يقول : ما اختلف رجل إلى مجلسى ثلاثًا من غير حاجة تكون له إلى فعلمت مكافأته من الدنيا .

ومن علم أن أعماله وأقواله وأحواله محصية عليه وأنه سيسأل عنها أمام الله عز وجل بخل بأنفاسه أن يصرفها إلا فى طاعة الله تعالى والمؤمن يظهر كمال إيمانه فى ثلاث مواطن فى البر والصلة بأقاربه وفى المسارعة إلى عمل ما أوجبه الله وفى حسن مجالسته ومعاشرته ومن لم يستطع أن يقهر نفسه لتتجمل بتلك الآداب فالأولى له أن يخدم الدواب سنين حتى يكتسب منها الصبر والتواضع والطاعة ودفع المضرة وجلب المنفعة والله يوفقنا لخير العمل وعمل الخير وجميل الآداب .

٤ - قال رسول الله ﷺ : (كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف . قال الله تعالى : إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يدع شهوته وطعامه من أجلى للصائم فرحتان فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك)[٣٤] .

وفى رواية : (الصيام جنة فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فإن شاتمه أحد أو قاتله فليقل إنى صائم)[٣٥] . وقال ﷺ : « إن فى الجنة بابًا يقال له الريان ، لا يدخله إلا الصائمون ، فإذا دخلوا أغلق فلا يدخل منه أحد »[٣٦] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من فطر صائمًا كان له مثل أجره غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيئًا »[٣٧] . وقال ﷺ : « إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وسلسلت الشياطين »[٣٨] . وقال ﷺ : « لا تصوموا حتى تروا الهلال ولا تفطروا حتى تروه ، فإن غم عليكم فاقدروا - ورواية

(٣٤) البخارى ومسلم والترمذى وابن خزيمة والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

(٣٥) البخارى ومسلم .

(٣٦) البخارى ومسلم وابن خزيمة والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

(٣٧) الترمذى وابن ماجة وابن حبان وابن خزيمة والحافظ الدمياطى .

(٣٨) مسلم والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

فأكملوا - العدة ثلاثين »[٣٩] .

وعن حفصة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من لم يجمع الصيام قبل الفجر فلا صيام له »[٤٠] .

فرض الله على المسلمين صيام شهر رمضان ليتم نعمته سبحانه على خير أمة أخرجت للناس ، فنوع سبحانه وتعالى العبادات ليشهد المسلمين المشاهد العلية وليقيمهم سبحانه وتعالى فى مقامات ملائكته المقربين الحافين حول العرش ، فيجمع لنا بين الصلاة الجامعة للركوع والسجود والتسبيح والتحميد ومناجاته سبحانه بكلامه وبين الصيام الذى نكون به سائحين فى فسيح ملكوته الأعلى متشبهين بالأرواح النورانية المجردة الهائمة فى جلال الله .

والصيام هو ترك ما أباحه الله تعالى للمسلم من شهوتى البطن والفرج الذى يقتضى ترك ما أباحه الله تعالى لجميع الجوارح المجترحة مما لا تدعوا إليه ضرورة شرعية كالسعى على المعاش وقضاء ما لابد منه من الحوائج والشئون . والصائم فى الحقيقة هو من حفظ عينيه وأذنيه ولسانه ويديه ورجليه وعقله وروحه بالعكوف على صرف أنفاسه فى رمضان فى العمل بمحاب الله ومراضيه حتى يقوى تشبهه بالملأ الأعلى فيمنّ الله تعالى عليه بأن يصغى سره إلى كلام الله من الله تعالى فإن الله سبحانه منَّ علينا جماعة المسلمين بما منَّ به على أنبيائه الأطهار فقال تعالى : ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾[٤١] وقال سبحانه : ﴿فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾[٤٢] وقال سبحانه وتعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله﴾[٤٣] وكل تلك المقامات العالية موروثة من الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وقال تعالى : ﴿وواعدنا موسى ثلاثين ليلة﴾[٤٤] ليتفضل عليه سبحانه بالكلام ففرض علينا شهر رمضان إحسانًا منه إشارة إلى أن الله تعالى يتفضل علينا بقسط من وراثة كليمه عليه الصلاة والسلام .

والصيام عبادة جسمانية روحانية ، ومتى صام المسلم بجوارحه وعقله وروحه فاز

(٣٩) أخرجه الستة إلا الترمذى .

(٤٠) أخرجه الإمام أحمد والسيوطى فى الجامع الصغير .

(٤١) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٤٢) سورة هود آية ١٤ .

(٤٣) سورة الفتح آية ١٠ .

(٤٤) سورة الأعراف آية ١٤٢ .

بالوصال وتفجرت ينابيع الحكمة فى قلبه وتجرد من دواعى الإبليسية ولوازم الحيوانية وصار أشبه بأهل الرفيق الأعلى.

وليس من ترك الأكل والشرب والنكاح بياض النهار وأفطر ببقية الجوارح بصائم، بل الصائم من حفظ عينيه مما يكره الله فنظر بها معتبرًا، وحفظ لسانه عن اللغو وسكت عن الكلام مفكرًا أو نطق ذاكرًا، وحفظ بقية الجوارح وقلل النوم نهارًا حتى يعمر أوقات النهار بالشعور بآلام الصيام وبالعمل النافع لأهله وإخوانه وبالقربات من مؤاساة الفقراء ومساعدة أهل الحاجة والصلح والإصلاح. لأن خير القربات عند الله تعالى بذل الفضل من المال والعلم والجاه فى رمضان.

ومن آداب الصيام أن يشكر الصائم ربه على أن أعانه على هذا العمل، وأن يرى نعمة الله عليه من أعظم النعم، وأن يحفظ صيامه من أن يغتر به أو يرى نفسه متضررًا منه. وليحذر الصائم من الغضب وسوء الخلق، فإن الصيام يهذب الأخلاق ويجمل الصائم بأخلاق الله تعالى. ومن تعود الغضب والحماقة فى الصيام أو ترك المباح فى غير رمضان من أكل وشرب ونكاح وعمل ما حرمه الله عليه فى غير رمضان من الغيبة والنميمة والحسد وظلم العباد والربا والفخر وعقوق الوالدين وقطيعة الرحم والإفطار على الحرام والجلوس فى المجالس التى يكرهها الله تعالى، فقد ظلم نفسه وجاع من غير فائدة وسهر من غير أجر. ومن ذاق حكمة الصيام يعلم أن الله تعالى أراد أن يرفعنا من طور الحيوانات إلى عالم الملكوت لنكون من أهل الحضور والشهود.

وقد اتفق الأئمة السابقون على تقسيم الصيام إلى ثلاثة مراتب هى: صوم العامة وصوم الخاصة وصوم خاصة الخاصة، والأول صوم البطن والفرج والثانى صوم الجوارح والثالث صوم القلب، وجاء الإمام رضى الله عنه وفصّل هذا المجمل من القول بصورة غير مسبوقة فى كتابه «صيام أهل المدينة المنورة» حيث وظّف الأحاديث النبوية الشريفة الخاصة بالصيام لكل مرتبة على حدة حيث يقول تحت عنوان مراتب الصيام:

أولًا: صوم العامة

ترك الأكل والشرب وملامسة النساء من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

ثانيًا: صوم العلماء

ترك شهوتى البطن والفرج، مع حفظ الجوارح من الاستطالة، فإن الصوم إذا أطلق

أريد منه الترك مطلقًا .

ولكل عضو صيام بحسبه ، فصيام اللسان ترك الكلام إلا فى ذكر الله أو ما لابد منه ، وصيام الأذن ترك الإصغاء إلا إلى العلم أو ما لابد منه .. قال سبحانه : ﴿إنى نذرت للرحمن صومًا فلن أكلم اليوم إنسيا﴾(٤٥).

والعلماء يمتازون عن العامة بصيام كل جوارحهم ، ولكن العامة يصومون بترك شهوتى البطن والفرج ، وشتان بين الصيامين .

ثالثًا : صوم العارفين بالله

وصيام العارفين بالله عمارة الأنفاس فى اليقظة بمراقبة الله تعالى ، وعمارتها فى النوم بسياحة الروح فى ملكوت الله الأعلى ، لتقتبس لطائف العوارف من عالم الطهر والصفاء ، وتعود إلى الهيكل الإنسانى بتحف الروحانيين من حملة العرش والحافين حوله ، لأنهم تركوا لوازم الحيوانية نهارًا ، فتشبهوا بالملائكة الكرام ، وقاموا بين يدى مولاهم ركعًا سجدًا يبتغون فضله ورضوانه ، فتشبهوا بعالم الطهر من عليين وأعلى عليين ، فإذا ناموا ليلًا سرت أرواحهم الطاهرة إلى فضاء هذا العالم لأنها مجانسة له ، هذا مقام فوق العبارة ، بل فوق الإشارة وقد ألمعت إلى غوامض هذا المقام فى كتاب « معارج المقربين » و « النور المبين » وكتاب « الإسلام دين الله » .

رابعًا : صوم المقربين

أما صيام المقربين ممن أخلصهم الله لذاته ، فهو تنزيه سر الصائم عن خطور ما سوى الله عليه ، لأنهم شغلوا بالمعروف عن المعرفة ، وبالمعلوم عن العلم بعد تحصيل العلم والمعرفة ، وأهل هذا المقام عمرهم كله رمضان ، إلا أنهم فى هذا الشهر المبارك يتركون ما أباحه الله لهم نهارًا ، قيامًا بالفرض والسنة ورعاية لواجب الوقت ، الذى لا يشغلهم عنه أعظم شأن من شئون المشاهدة ، فإن القيام بفرائض الله تعالى فوق كل مقام ، ومن ظن أن الشهود يسقط الفرائض التى فرضها الله وقام بها رسول الله ﷺ ، أوقع نفسه فى مهاوى الهلكة ، قال عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى الطويل « وما تقرب إلىَّ عبدى بشئ أحب إلىَّ من أداء ما افترضته عليه »(٤٦).

---

(٤٥) سورة مريم آية ٢٦ .

(٤٦) رواه البخارى .

وأهل هذا المقام فى صيام طول عمرهم ولو أكلوا وشربوا فى غير رمضان نهارًا ، لأنهم صاموا بست جوارح في غير رمضان ، وصاموا فى رمضان بثماني جوارح ، وغيرهم يصوم في رمضان بجارحتين ، وربما يفطر بالجوارح الباقية ، فيكون صائمًا عند نفسه فقط ، وإن أسقط بعمله ما فرضه الله عليه ، وطلب العلم فريضة على كل مسلم ، وأول ما يسأل عنه المسلم يوم القيامة « هل تعلمت أم لا ؟ » .

خامسًا : صوم المحبوبين

وهؤلاء يعلمون أن رمضان شهر الله تعالى ، ونسبة هذا الشهر إليه سبحانه دليل على أنه يقرب من أوليائه فيؤنسهم فيه كما نسب إليه الكعبة فسميت بيت الله ، فسارعوا إلى أن يعمروا الأنفاس بالحضور مع مولاهم ، فحرصوا عليه كل الحرص ، ونظروا إلى أمر الله فى رمضان ، فظهر لهم أنه حرم عليهم المباح فى نهاره ، ورغبهم في إحياء ليله بالقيام ، فظهرت لهم حكمة عناية الله بهذا الشهر من التشبه بالعالم الأعلى ، عالم الأرواح النورانية المجردة من العناصر السفلية ، عالم اللطائف الروحانية الذين لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون ، فساحوا بأرواحهم فى فسيح الملكوت حضورًا أو استحضارًا وفكرًا وتجردوا عن وجودهم الباطل بالوجود الحق ، وتخلقوا بأخلاق الله حلمًا ورحمة ورأفة وعطفًا وكرمًا وإحسانًا وفضلًا ، أحسنوا إلى من أساء إليهم ووصلوا من قطعهم ، واستحضروا عظمة الله وجلاله ، فانكسرت قلوبهم بين يديه ، فكان سبحانه عندهم بما هو أهله من جمال وقرب وحب وولاية وعناية ، أوحشهم أنسه عن كل أنس من سواه ، وآنسهم بجماله ففروا ممن سواه وما سواه ، وأقبلوا بكليتهم به سبحانه عليه ، فكانوا كأنهم فى ضيافة الله على بسائط مؤانسته وموائد كرامته ، أرواحهم سائحة في ملكوته ، وسرهم مشرف على قدس عزته وجبروته ، فهم بين الناس بأجسامهم ومع الله بأرواحهم ، اجتباهم لحضرته فأفردهم له ، وواجههم به بجمال وجهه العلى ، ففروا به إليه سبحانه ، تلذذوا بما يتألم به أهل الجهالة وفرحوا بما يحزن منه أهل الغرور ، تصعد أنفاسهم إلى الملكوت فتضئ عوالم عليين ، يناجون الله تعالى بكلامه حتي كأنهم يسمعونه منه سبحانه ، ويضعون وجههم ليلًا على تراب الذل ، تملقًا بين يدى مولاهم ، أمنيتهم أن يكون الدهر كله رمضان ، وحزنهم أن يمضى نفس منهم فى غير الحضور مع الملك الديان ، انكشفت لهم حقيقة الدنيا والآخرة ، ففارقوا ما يزول بقلوبهم وزهدته أجسامهم ، وسارعوا إلى ما يبقى طمعًا فى شهود الوجه العلى الكريم فى النعيم المقيم .

سادسًا : صوم الصوفية

الصيام لغة الصمت ، والصيام عند الصوفية صوله الروح على الجوارح ، صولة تجعلها تجانسها مجانسة ما ، فتجاهد فى سبيل الاتحاد بها من حيث ما تقتضيه الروح فى حقيقتها ، وبكمال تلك الحقيقة تمنح الجوارح قبسًا من الملكوت الأعلى تنال به الرفعة عند ردها إلى أسفل سافلين ، وبتلك الرفعة تتلقى من ربها كلمات الإنابة الموصلة إلى المقام الذى أكرمها ربها به فى المرتبة الآدمية ، إلا أن آدم أسكن فى مقام الزوجية النفسانية الجنة متمتعًا بنعيمها ، وهذا الصائم يكرم بدخول جنة الرضا متنعمًا بأسرارها لتجرده عن مقتضيات الجوارح المجترحة بترك ما أبيح له مما لابد منه ، والإقامة فى محاب الله ومراضيه ، فيكون صائمًا بكل جوارحه مع وجود المقتضى لا فقده ، وهو الجهاد الأكبر جهاد الحس والنفس والعقل والجسم ، معنى قوله ﷺ : (الصيام جُنة)[47]. وليس بصائم من ترك ما أبيح له ووقع فيما حرمه عليه ، وعلامة قبول الصيام تخلق الصائم بأخلاق الله أو على الأقل بأخلاق عالم الطهر الروحانى من عوالم الملكوت .

والصيام سياحة عظمى ، قال تعالى : ﴿ السائحون ﴾[48] بمعنى الصائمين ، والصيام صبر على خرق العادة من طبعه ، وهو الذى بشره الله بمعيته قال تعالى : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾[49] ، والصابرون من معناها الصائمون . فجاهد نفسك فى الصيام أن تتخلق بتلك الأخلاق مهما ضحيت بكل غال ورخيص فى سبيل ذلك ، لتفوز بمعية الله لك . وبقدر نزوع النفس إلى ما يخالف تلك الآداب وقهرها عليها تكون رفعتك وقربك ونيلك وحظك ، ولعلك فهمت إشاراتى وأنت فى فاتحة الشهر فاستعن بالله وقل لا حول ولا قوة إلا بالله .

٥ – قال رضى الله عنه مبينًا لغوامض أسرار الحديث النبوى الشريف : (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام ، فإذا تهاون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك)[50].

إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان حرًا مريدًا ، ومنحه سبحانه وتعالى العقل ، وبيَّن له سبيل نجاته وهاوية هلاكه ، وأمره ونهاه ، وقدّر فى أزله سبحانه وتعالى لو قهرهم على

---

(٤٧) البخارى ومسلم .

(٤٨) سورة التوبة آية ١١٢ .

(٤٩) سورة البقرة آية ١٥٣ .

(٥٠) أبو داود وابن ماجة والدارمى ومالك فى الموطأ .

توحيده وقدر عذاب بعضهم لكان ظلمًا ، ولو قهرهم على الكفر به سبحانه وقد نعمهم لخالف ذلك الحكمة والعدل .. وهو الحكم العدل ذو الفضل العظيم ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾(٥١).

فاختلاف الخلق لحكمة علية هى ظهور الفضل والعدل لذلك سلط سبحانه أهل الباطل على أهل الحق ، وأمر جل جلاله أهل الحق بالتحفظ من أهل الباطل ومجاهدتهم ابتلاء منه سبحانه للفريقين حتى يتجلى فضله على عباده الذين وفقهم وأعانهم ، وعدله فيمن خالف وأبى .

ولما كانت الحقائق التى ركب منها الإنسان لا تقتضى بذاتها الإقبال على الحق والإسراع إلى ما عنده لميولها إلى الفطر الحيوانية والمفاسد الإبليسية بطبيعتها ، لذلك كان إقباله على الله وقبوله للهدى والنور بعناية من الله زائدة على حقيقته . وليس العجب أن ترى الإنسان مسارعًا إلى ما يوبقه فى نار جهنم ويلبسه الخزى والعار فى الدنيا من الشرك بالله ومخالفة وصايا رسول الله ﷺ والتهاون بأحكام الله تعالى والتدنس بالرذائل الأخلاقية من ضعف الهمة ، حتى يبلغ منزلة الذل من خوف الذل ، ودرجة الموت من خوف الموت ، وحالة الفقر من خوف الفقر ، فيعيش أضل من الحيوان وأخبث من الشيطان فرحًا بما ناله من لذة أو جاه أو مال لعمى عيون بصيرته عن الخير الحقيقى الذى يناله أهل الهمم العلية فى الدنيا والفوز العظيم فى الآخرة . ولو فكر الإنسان لاستبان له الخير وطريقه فسار إليه ، ويظهر له الشر ومدارجه فيتباعد عنه ، ولو كان فى بعده عنه جوع بطنه وعرى جسده وآلام جوارحه ، لأن بهجته باللذة الروحانية وأنس ضميره نصيره على المجاهدة فى سبيل الخير الحقيقى ينسيانه كل ألم وشدة .. كيف لا ، وإن صاحب الدمل ليتلذذ بتمزيق جلده بالمشرط ويلتمس من الطبيب أن يستأصل الأجسام الغريبة من جسمه مع فادح الألم لاعتقاده نيل الراحة والحياة الطيبة بعد تلك المجاهدات الشاقة .

ولما كان كلام رسول الله ﷺ يجب أن يُتلقى بآذان القلوب حتى تفقه من أسراره ما هى مؤهلة له بقدرها ، لزم أن نتلقاه بتسليم ، ونستمد من روحانيته ﷺ أنوار بيانه وفقهه ، ويظهر والله أعلم أن الإسلام هنا مُقَوَّل على حقائق كثيرة منها أحكامه ، ومنها جماعة المسلمين ، ومنها كل أرض تقل المسلمين ، وأهل ذمة الله ورسوله ﷺ ، ثم خص ﷺ المسلمين لأنهم مكلفون بأحكام الله تعالى ، ثم خاطب كل فرد منهم ليبين ﷺ أن

(٥١) سورة هود آية ١١٩ .

الرجل الواحد من المسلمين هو كأمة عظيمة ، وأنه ما خلق إنسانًا وهداه الله للحق إلا وأقامه سبحانه وتعالى عاملًا مخلصًا ممثلًا لرسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .

فإذا فسرنا الإسلام بالأحكام.. كانت ثغوره : أولًا : حفظ كلام الله تعالى . ثانيًا : تفسير آياته المقدسة ، ثالثًا : الأحكام الشرعية ، رابعًا : الجهاد فى سبيل الله ، خامسًا : تنفيذ الأحكام الشرعية ، سادسًا : الدعوة والإرشاد ، سابعًا : الإمامة العظمى ، ثامنًا : الإمامة الخاصة فى المساجد والخطب فى الجمعة وغيرها ، تاسعًا : التمسك بعلوم اليقين ، عاشرًا : الإقبال على الله فرارًا مما يشغل عنه بالشوق والتنسك والزهد .

هذه هى الثغور ، وعلى كل ثغر واحد أو جماعة من المسلمين يحافظون على هذا الثغر بالنفس والنفائس ابتغاء وجه الله الكريم ورغبة فى نيل رضوانه الأكبر فى جوار أولياء الله الأطهار .

وإن فسرنا الإسلام بالمجتمع الإسلامى : كانت ثغوره : رحمة الكبير الصغير ، وتعظيم الصغير الكبير ، أو حب كل مسلم لكل مسلم ما يحبه لنفسه ، ومعاملة أهل ذمة الله تعالى وذمة رسوله ﷺ بما يعامل به نفسه ، ونصرة الأخ ظالمًا أو مظلومًا فيمنع عنه الظلم بالقوة ويمنعه عن الظلم بالنصيحة ، وجلب الخير ودفع الضر ابتغاء مرضاة الله تعالى وإحياءً لشعائر الإسلام ، والنصيحة لله ولرسوله ﷺ ولخاصة المسلمين وعامتهم وأهل ذمة الله ورسوله ، وبذل المجهود فى اختراع ما به راحة المجتمع حتى تكون الأمة مهيبة آمنة ، وجلب ما لابد منه وأكمل مما هو غير ميسور لدى الأمة راحة للمجتمع ، وتصريف ما لا حاجة إليه من محصولات الأمة لتنمو الخيرات ويحصل للأمة الغنى ، والعمل بالإخلاص بعد الراحة من عناء الشغل بالضروريات لتوفير ما لا بد منه ، والمسارعة إلى فتح كنوز الأرض حتى تنتفع الأمة بما خزنه الله لها من الخيرات فى الأرض ، وقيام رجال منحهم الله الرحمة والشفقة بتحصيل ما به حفظ الصحة على أهلها وإعادتها عند فقدها حتى تكون الأمة هى من أعظم القصود الدنيوية ، وهناك ثغور أخرى تعلم ولا تجهل ، وثغور أخرى تتلقى من أفواه أهل العلم بالله تعالى لآذان الراغبين فى نيل الكمال . وتلك الثغور يجب أن يكون على كل ثغر منها واحد أو جماعة من المسلمين.

وإن فسرنا الإسلام بالبلاد الإسلامية : فهذا هو الأمر المهم الجامع المانع الذى به نيل السعادة والمجد والعزة فى الدنيا والآخرة . وثغوره لا تخفى على ذى بصيرة ، وهى حسية ومعنوية .

فثغوره الحسية : فرضه أو أبوابه المقابلة للأعداء وعوراته التى يتمكن الأعداء منه بسببها ، وتلك الثغور الحسية فرض الله تعالى المرابطة عليها فرض كفاية متى قام بها البعض سقطت عن البقية وتتعين على كل مسلم إذا أهملت ، وإذا فاجأ العدو أرض المسلمين تعينت المدافعة عنها ، وتجب بتعيين الإمام الأعظم ، وبإهمالها ضياع خير الدين والدنيا والآخرة .

أما خير الدين : فبالتهاون بأحكامه والعمل بغيره ، وأما خير الدنيا : فلانتقال الفنون والصناعات والحرف والأعمال والرياسات والتجارات لغير أفراد الأمة وهى موارد الثروة والترف ، فتصبح الأمة وقد أفسدت الحاجة أخلاقها والذلة آدابها والمخاوف عوائدها وتقليد المسلطين دينها ، فتبوء الأمة بخسران الخيرات والآداب والأخلاق والثروة والعزة والحرية والإرادة بسبب إهمال فرد من أفرادها لثغرها الذى هو عليه إما لجهالته أو لشرهه وطمعه ، فيضيّع مجدًا عظيمًا وخيرًا عامًا لمال يقتنيه أو لسيادة يتغيها أو لأمل كاذب يدعوه ، ومثل هذا يبوء بالخزى والعار والشنار وسوء الأحدوثة فى الدنيا ، والنار بعد موته ، ولو تدبر هذا الغِر فيما يجره من الخيبة والوبال على نفسه وقومه لتمنى أن يحترق بالنار ولا يعمل هذا العمل أو يتمزق جسمه بالمقذوفات ولا يهمل فى ثغره .

تلك الثغور هى التى يجب أن توصد « تسد » في وجه كل مناوئ وتُحصن بأمنع الحصون وأقوى الرجال أهل التقوى والغيرة ، ويجب أن يكون القائمون بها من العالمين بمقدار ما ينالونه من الشرف والمجد والرفعة فى الدنيا ومجاورة الأطهار فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ، فإنهم أمناء الله على خيرها الدنيوى والدينى والأخروى ، بل وعلى حياتها السعيدة فى ظل الحرية والأمن والإرادة .

جعل ﷺ كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام ليبين لكل فرد مقداره المعنوى فى تلك الدار الدنيا لتعظيم الهمم ولتكبر النفوس ، وليعلم كل مسلم أنه قائم مقام رسول من رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم ، وأنه عامل من عمال الله ، عملًا لا يقوم به المقربون من ملائكة الله ، فيكون لكل مسلم عند الله تعالى مقام فوق ملائكة الله تعالى ، فيحصل لكل مسلم نشوة من تناول هذا الطهور المقدس تجعله مسارعًا إلى الخير بكله ، نشيطًا شجاعًا كريمًا متمثلًا مقدار منزلته عند الله تعالى بإقامته فى حفظ ثغور المسلمين ، فكل مسلم مطالب أن يجعل له وقتًا يفكر فيه فى دوام حفظ هذه الثغور فى إبداء فكرة أو إحداث مخترعات أو بذل أو تنبيه إلى ذلك حتى يكون من عمال الله تعالى فى أرض الله تعالى وممن جعلهم الله أبدال رسله .

أما الثغور المعنوية :

١ - فيقظة القلب لإقامة حدود الله .

٢ - الغلظة فى دفع المظالم وكبح جماح الظالم .

٣ - السهر فى مراقبة شئون المجتمع لئلا يدخل عدو عليهم فيفرق جامعتهم ويفسد آراءهم ويحقر أمامهم فضائلهم .

٤ - الجد ببذل ما فى الوسع فى رعاية أحوال المجتمع خوفًا من مخادع يدس بين المسلمين فيفسد بين العامة والخاصة لفك عروة الإخاء وتعكير الصفاء .

٥ - المسارعة إلى رعاية العدل بالإحسان إلى المحسنين والإساءة إلى المسيئين مع الاحتياط إلى قوم والعفو عن بعضهم .

٦ - تقبيح كل عمل أو عادة أو هيئة ما لم يستحسنه الدين أو تؤدى إلى إسراف أو ضياع لفضائل الأمة وأخلاقها حتى يتنبه الغافل ويستيقظ النائم ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر .

٧ - تعضيد كل من قام بعمل خير أو بقول خير أو دل على خير مهما كانت منزلته فى الأمة لتنافس الأمة فى الفضائل ويقتدى بعضها ببعض فى الخيرات .

٨ - تغذية الأبناء بلبان الشجاعة الأدبية والآداب الشرعية والأخلاق المرضية ، ومجازاتهم على الحسن من الأعمال بالمدح والثناء حتى سارعوا إليه ، وتأديبهم على القبيح منها بأسلوب الحكيم ببيان مضرته وسوء عاقبته حتى يكرهوه ، فيشبون على أحسن الأحوال رحمة وعزة نفس ومسارعة إلى النافع وعملًا للخير لأنهم الأمة المستقبلة .

وهذه نماذج الثغور المعنوية كل ثغر منها عليه رجل من المسلمين أو امرأة أو رجال ونساء كل بقدر قسطه .

وأهم الثغور المعنوية العناية الكبرى بتربية النشء حتى يسروا سلفهم الصالح بحفظ آثارهم ، ووالديهم بتيسير الخير لهم ، وحفظ شرفهم والمجتمع أجمع بالقيام بحفظه وجلب الخير له ودفع الضر عنه ، ورجال المستقبل بما يبقونه لهم من جميل الآثار وجليل الأعمال فيقتدون بهم وينافسونهم فى فضائلهم ، وإهمال تربية النشء بتسليمهم إلى من لا يحسن التربية علمًا وعملًا وأدبًا وأخلاقًا ومعاملة ، أو إلى من يسره بقاؤهم فى الحضيض الأسفل خوفًا من مزاحمته فيما اغتصبه منهم أو مساواته فيما امتاز به عنهم .. فقد سعى فى هلاك الأمة ومحو آثارها الجميلة دينًا ودنيا ، وكيف يأمن الرجل على ابنه الذى هو حقيقته فى حياته وصورته الباقية بعد مماته وخليفته على أقاربه وذكره الخالد له

فيسلمه بيده ليعلمه أعداء نعمته وحساد مجده، والساعون في سلب سيادته وعزه، ويعتقد بعد ذلك أن ينال خيرًا .. اللهم رحماك بأمة باعت مجدًا يدوم وخيرًا يبقى بأبخس الأثمان، ومن تساهل فأضاع يجب أن يُنبّه ليسارع إلى رد ما أضاع أو يفتح الباب لغيره، والله ولي المتقين.

الإمام وعلم التوحيد

معرفة علم التوحيد واجبة على كل مسلم ومسلمة وذلك لما يترتب عليه من صحة العقيدة وسلامة الإيمان وما ينتج عن تركه والجهل به من الوقوع فى الشك والالتباس والانحراف والزيغ والضلال .

ولما كان علم التوحيد هو أول العلوم الواجبة على المكلف ، قال تعالى : ﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله ﴾[1] وقوله تعالى : ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ﴾[3] .

لأجل ذلك شرع الإمام أبو العزائم رضى الله عنه فى بيان عقيدة التوحيد فى كثير من كتبه بيانًا مرتبًا ترتيبًا على قدر قوة السالك ، متدرجًا حسب تمكنه فى المقامات التى هى الإسلام والإيمان والإحسان والإيقان ، فجاء ذلك كما يلى :

أولًا : تناول الإمام رضى الله عنه عقيدة السلف متمثلة فيما قاله الشيخ أبو طالب المكى فى كتاب « قوت القلوب » ، وعقيدة العامة كما ذكرها الشيخ عماد الدين الأموى فى كتاب « حياة القلوب » ..

فقال رضى الله عنه فى كتاب « عقيدة النجاة » :

١ - عقيدة السلف الصالح :

فرض التوحيد هو اعتقاد القلب أن الله تعالى واحد لا من عدد ، أول لا ثانى له ، موجود لاشك فيه ، حاضر لا يغيب ، عالم لا يجهل ، قادر لا يعجز ، حى لا يموت ، قيوم لا يغفل ، حليم لا يسفه ، ملك لا يزول ملكه ، قديم بغير وقت ، آخر بغير حد ، كائن لم يزل ولا تزال الكينونة صفته لم يحدثها لنفسه ، دائم أبد الأبد ، لا نهاية لدوامه ، والديمومة وصفه لم يحدثها لنفسه ، لابداية لكينونته لقدمه ، ولا غاية لأبديته ، آخر فى أوليته ، أول فى آخريته ، وأن أسماءه وصفاته وأنواره غير مخلوقة له ولا منفصلة عنه ، وأنه أمام كل شىء ، ووراء كل شىء ، وفوق كل شىء ، ومع كل شىء ، وأقرب إلى كل

---

(١) سورة محمد آية ١٩ .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨ .

(٣) سورة البقرة آية ١٦٣ .

شيء من نفس الشيء ، وأنه مع ذلك غير محل للأشياء ، وأن الأشياء ليست محلًا له ، وأن الله جل شأنه هو ذات منفرد بنفسه ، متوحد بأوصافه ، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شيء ، بائن من جميع خلقه ، لا يحل الأجسام ولا تحله الأعراض ، ليس في ذاته سواه ، ولا في سواه من ذاته شيء ، ليس في الخلق إلا الخلق .

وأنه تعالى ذو أسماء وصفات ، وقدرة وعظمة ، وكلام ومشيئة وأنوار ، كلها غير مخلوقة ولا محدثة ، بل لم يزل قائمًا موجودًا بها جميعًا ، له الخلق والأمر والسلطان والقهر ، يحكم بأمره في خلقه وملكه ما شاء كيف شاء ، لا معقب لحكمه ، ولا مشيئة لعبد دون مشيئته ، لا حول لعبد عن معصيته إلا برحمته ، ولا قوة لعبد على طاعته إلا بمحبته ، ولا يجب عليه في الأحكام ما أجرى علينا ، لا يختبر بالأفعال ، ولا يشار إليه بالمقال ، عادل بحكمه وعدل هما صفته ، لا تشبه حكمته بحكمة خلقه ، ولا يقاس عدله بعدل عباده ، قد جاوز العقول وفات الأفهام ، وهو كما وصف نفسه ، وفوق ما وصفه خلقه ، نَصِفُهُ بما ثبتت به الرواية وصحت عن رسول الله ﷺ .

وأنه ليس كمثله شيء في كل شيء بإثبات الأسماء والصفات ونفي التمثيل والأدوات ، وأن ما سوى أسمائه وصفاته وأنواره وكلامه من الملك والملكوت محدث كله ومظهر ، كان بعد أن لم يكن ولم يكن قديما ولا أولا ، بل كان بأوقات محدثة وأزمان مؤقتة ، والله تعالى هو الأزلي الذي لم يزل ، الأبدي الذي لم يحل ، أحد صمد ، لم يلد وبمعناه لم يولد ، ولم يخلق من ذاته شيء ، كما لم تخلق ذاته من شيء ، سبحانه وتعالى عما يقول الملحدون من ذلك علوا كبيرا .

٢ - عقيدة العامة التي لا بأس بها :

يعتقدون أن الله تعالى واحد فرد صمد ، قديم أزلي ، باق أبدي ، وأن ما سواه فهو صنعه وخلقه ، لا شريك له ، ولا ضد ولا ند ولا شبيه ، موصوف بكل ما وصف به نفسه من الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، مسمى بكل ما سمى به نفسه ، ليس بجسم فإن الجسم ما كان مؤلفًا والمؤلف يحتاج إلى مؤلِّف ، ولا هو بجوهر فإن الجوهر ما كان متحيزًا وهو سبحانه خالق كل متحيز ، ولا هو بعرض لأن العرض لا يبقى ويحتاج إلى جوهر .

سبحانه لا يكيفه العقل ولا يمثله الفكر ، ولا تلحقه الإشارة ولا تعنيه العبارة ، العقول محجوبة عن درك حقيقته إذ العقول للعبودية لا للإشراف على الربوبية .

ويعتقدون فى الاستواء ما قاله مالك بن أنس حين سئل عنه فقال : « الاستواء معلوم ، والكيف غير معقول ،والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة » . ويؤمنون بجملة ما ورد فى الكتاب العزيز وجاءت به الروايات الصحيحة عن النبى ﷺ من أحوال المعاد ويوم القيامة وما فيه وما بعده ، وأجمعوا أن الله خالق أفعال العباد ، وأن الخلق يموتون بأجلهم ، وأن الشرك والمعاصى كلها بقضاء الله وقدره من غير أن يكون لأحد من الخلق على الله حجة فلله الحجة البالغة ، ولا يرضى لعباده الكفر والمعاصى ، والرضا غير الإرادة . ويتبرأون من المعتزلة والقدرية والجهمية والمشبهة والمعطلة والخوارج والروافض وسائر أهل البدع .

وأجمعوا على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد ، فمن ترك الإقرار فهو كافر ، ومن ترك التصديق فهو منافق ، ومن ترك العمل فهو فاسق .

٣ – مآخذ الإمام فى عقيدة التوحيد :

بيَّن الإمام رضى الله عنه أنه عند الكلام فى عقيدة التوحيد فإن مآخذه هى : كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ، وأقوال وأعمال الصوفية الكُمَّل . والعمل بإخلاص بما علمته فيعلمنى الله تعالى علم ما لم أعلم ، والاجتهاد فى الأمور إذا لم أجد لها صريح حكم فى كتاب الله وكتاب رسوله وأقوال السلف بكل احتياط .

٤ – عقيدة العلماء الربانيين :

وهنا ينبه الإمام رضى الله عنه إلى الأصول التى أخذ بها العلماء الربانيون فى العقيدة التى لا نجاة لمسلم إلا بها لانحصارها فى الكتاب العزيز والحديث الشريف فيقول : تنحصر هذه الأصول عندهم فى مسألتين هامتين :

أولًا : الإمداد ، ويسمونه العناية .

ثانيًا : الإيجاد ، ويسمونه الإبداع .

وإنما اخترنا الإمداد والإيجاد لأنهما لفظان قريبان لعقول الجمهور ، ولإن كانت هذه الدلائل مما يعسر فهمه على العامة إلا أننا نطمع أن يسطع نور ما فيها من أسرار القرآن وحكمة الشريعة على تلك العقول فتنتفع منه بحسب القوة القابلة فيها .

ومن أراد مزيدًا من تفصيل هذه الأصول ، فعليه بمطالعتها فى كتاب « عقيدة النجاة » ص ٢٢ وما بعدها .

ثانيًا : تناول الإمام أبو العزائم رضى الله عنه بيان التوحيد من ناحية تعريفه وحقائقه وأنواعه وكيفية تلقى التوحيد والدروس التى يجب على المسلم أن يتعلمها فى كتاب «دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك» فقال :

١ - تعريف التوحيد :

هو تمييز الحادث من القديم حتى يذوق - أى المريد - حلاوة التوحيد . ومن حكم عليه خياله ووهمه نظر إلى المادة وأعراضها فنسى الله تعالى فأنساه الله نفسه - قال تعالى : ﴿ نسوا الله فأنساهم أنفسهم ﴾[٤] ، ومن نسى نفسه بدءًا ونهاية تمنى يوم القيامة أن يكون ترابًا .

الحادث والقديم : إذا نظر القلب إلى الحادث الجديد صار محجوبًا بعيدًا - قال تعالى : ﴿ بل هم فى لبس من خلق جديد ﴾[٥] وإنما الجديد ليشير للقلب إلى ما فيه من سر الحى القيوم ونور القادر الخلّاق العليم ، فإذا تجرد القلب من نظره إلى الجديد ، أشرقت أنوار الآيات وصار للغيب شهيدًا ، وإذا تجرد من شهوده ظهرت غرائب القدرة وعجائب الحكمة فجذبته إلى القادر الحكيم ، وأظهر الجديد كله ليُعرف جل جلاله بقدرته الباهرة ، ويلحظ القلب أنواره الظاهرة ، فيشكره العبد ويذكره ولا يكفره ، ويطيعه ويعبده ولا يجحده . ومن شغله الجديد الفانى عن القديم الباقى طال اغترابه ودام عذابه .

٢ - حقائق التوحيد :

بيّن الإمام رضى الله عنه أن حقائق التوحيد ثلاثة فقال :

أولًا : توحيد الله نفسه بنفسه :

وهو التوحيد الذى لا يطيقه مخلوق مقهور. وفى الأثر (كلكم حمقى فى ذات الله) ، قال الصديق الأكبر : (العجز عن درك الإدراك إدراك).

ثانيًا : توحيد من اصطفاهم :

توحيد الله الذى يتفضل الله به على من اصطفاهم من أولى العزم ، وعلى من اجتباهم من رسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، من اختطفتهم يد العناية من ورثة رسول الله وأبدال الرسل عليهم الصلاة والسلام ممن أظهر أرواحهم بدءًا على بديع جماله العلى

---

(٤) سورة الحشر آية ١٩ .

(٥) سورة ق آية ١٥ .

وذكرهم في الكون بألسنة الرسل والورثة بما أظهرهم عليه بدءًا وأعانهم فقبلوا وأقبلوا قال تعالى : ﴿ الله نزّل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾(٦).

ثالثًا : توحيد الخلق ربهم بالنظر والاستدلال :

ولكل حقيقة من تلك الحقائق شواهد قائمة ودلائل واضحة ، وظهور يدار على أهل الصفا من الأخيار ، فالتوحيد الذى وهبه الله لعباده مأخذه ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾(٧) ، والتوحيد الذى يحصله الخلق مأخذه من قوله سبحانه : ﴿قل انظروا ماذا فى السموات والأرض ﴾(٨).

يقول رضى الله عنه :

كل شئ دلائل التوحيد	ينبئ العقل فى مبادى الشهود
فى الكيان المحدود آيات ربى	فيه غيب الغيوب فى التجريد
سر هذا التجريد كشف المعانى	وهو آى دلت على المعبود
انظرن فى النبات تشهد غيبًا	يجذب الروح للولى الحميد
حيرتنى آى النبات لأنى	قد شهدت الوجود سر معيد
حيرتنى آثار قدرة ربى	طمان القلب قول رب رشيد
يا إلهى ادر طهور المعانى	كى ارى الغيب فى غصون الجديد
يا إلهى وافتح كنوز العطايا	وفقنى انى بكل العهود
واشفنى من سقام جسمى وقلبى	هب لكل الأولاد خير المزيد
اعط خير العطا لآلى وصحبى	فى حصون المختار فاجعل شهودى

٣ - كيفية تلقى علوم التوحيد :

الدرس الأول : وأول درس من دروس التوحيد تلقته الأرواح من ربها عيانًا وسماعًا منه سبحانه في يوم ﴿ ألست بربكم ﴾(٩)، وهذا أول خمر أديرت علي الأرواح فأسكرتها . عاهد الله الأرواح ألا تغفل ولا تنسى ولكن الأشباح حجبت الأرواح فنسيت .

---

(٦) سورة الزمر آية ٢٣ .

(٧) سورة الذاريات آية ٥٥ .

(٨) سورة يونس آية ١٠١ .

(٩) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ﴾ سورة الأعراف آية ١٧٢

الدرس الثاني : يتلقاه المسلم من والديه بالتقليد والتسليم ، وبهما يسعد إن كانا مؤمنين أو يشقى إن كانا كافرين ، قال ﷺ فى الحديث الطويل : (.. وأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[١٠].

الدرس الثالث : يتلقاه المسلم بعد البلوغ من العلماء الربانيين والأمناء العارفين الذين حصلوا هذا العلم من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ومن صحبة صفوة الله من خلقه وخيرته من عباده ، وهم أهل التمكين وحق اليقين بعد عين اليقين .

ومن تلقى هذا العلم من علماء الكلام أو من الفرق المتفرقة أهل الرأى والجدل والبحث والدلائل العقلية ، لم يفز بالتوحيد ، بل ارتد بالشكوك فى لبس من خلق جديد ، أعاذنى الله وإخوانى من أن نتلقى هذا العلم بموازين أهل الكفر من اليونان والرومان والفرس ونترك ما جاءنا به رسول الله ﷺ من عند الله .

الدرس الرابع : يتلقاه المسلم من القرآن والسنة ذوقًا وإلهامًا حتى يبلغ درجة يقرأ القرآن فيسمعه من رسول الله ﷺ ، ويرقى إلى مقام يسمع فيه من رسول الله ﷺ فى حالة استحضار ، ولديها يتفضل الله تعالى عليه فيقربه قربًا ينال به حالة روحانية يستظهر منها القرآن من الله تعالى ، وهنا نطوى بساط دروس التوحيد فى مقامات التمكين غيرة للأسرار العلية ورحمة بالعقول الإنسانية ، ومن طلب المزيد لزم أعتاب المرشد الكامل .

٤ - أنواع التوحيد :

١ - توحيد الإقرار : ومأخذه قوله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله)[١١] ، وهذا الإيمان يحفظ الله به العبد من ذل الكفر ، ويحفظ الله به ماله ودمه ولو لم يكن معتقدًا . ومن أقر دخل الجنة مهما كانت ذنوبه ، فالإقرار بالتوحيد نجاة فى الدنيا من كل شدة ، وفوز بالجنة يوم القيامة إن غفر الله له ذنوبه ، أو رجوعه إلى الجنة إن حاسبه الله عليها ، ومن أقر بالتوحيد معتقدًا ، وعمل بشرائع الإسلام : دخل الجنة مع الذين يقولون : ﴿ هاؤم اقرأوا كتابيه ﴾[١٢].

٢ - توحيد العلم : ومأخذه قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله

(١٠) البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد ومالك فى الموطأ والسيوطى فى الجامع الصغير .

(١١) البخارى ومسلم وابن ماجة وأحمد وابن خزيمة .

(١٢) سورة الحاقة آية ١٩ .

إلا هو﴾[١٣]. وهذا التوحيد ينتج الإيمان بعد وضوح الدلائل المشرقة فى الكائنات وشهود الآيات البينات، وصاحب هذا التوحيد مؤهل للفقه فى دين الله وذوق أسرار القرآن المجيد وصحبة أبدال رسل الله، بل وصحبة الوارث الفرد الجامع. وإذا عمل هذا الموحد العالم بعلمه، ذاق حلاوة الوحدة فى الكثرة.

٣ - توحيد الشهود: مأخذه قوله سبحانه: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائمًا بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾[١٤]. وهذا التوحيد الشهودى ثمرته الاستقامة، وصاحبه يتمكن فى مقام الإحسان، قال تعالى: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة﴾[١٥]، وهو الواصل المتصل، بل هو نجم لآله وخلانه، يُسقى الماء واللبن، ويُمنح الفضل والمنن.

٤ - توحيد وجود التوحيد: مأخذه من قوله سبحانه وتعالى: ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾[١٦]. ووجود التوحيد يدار فيه خمرة المحبة بالعناية، وتمنح فيه حلل الولاية، وصاحبه جذب جذبة الخلة طمست بقية آثار بشريته الباطلة، فإذا حفظ السر وقهر الحال اتحد بالمتعال، لأنه رام فهام، وكان فبان، غار الحق عليه فأمسكه لديه، قال تعالى: ﴿إن الذين عند ربك﴾[١٧]، وقال سبحانه: ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾[١٨]، وهم القائمون لله بالحجة، الموضحون للمحجة، تجاوزوا الرسوم والجسوم والعلم والعرفان إلى مقام قاب قوسين اتباعًا للحبيب الأكبر ﷺ، وفى الأثر [أوليائى تحت قبائى لا يعلمهم غيرى]، إن صالت عليه صولة الاتحاد أو غمرته أنوار القدر غشته العزة بصفة البشر سر قوله تعالى: [مرضت فلم تعدنى وجعت فلم تطعمنى وعريت فلم تكسنى][١٩]، وإن فاجأه متكبر بحرب أسرع إليه الرب معنى قوله فى الحديث القدسي: [من آذى لى وليًا فقد آذنته بالحرب][٢٠]، جمّله بحلة الخلافة، وتوّجه بتاج أبدال أكمل مرسل ﷺ وقوله تعالى: ﴿فلم

---

(١٣) سورة هود آية ١٤ .

(١٤) سورة آل عمران آية ١٨ .

(١٥) سورة فصلت آية ٣٠ .

(١٦) سورة الأنعام آية ٩١ .

(١٧) سورة الأعراف آية ٢٠٦ .

(١٨) سورة الشورى آية ٢٢ .

(١٩) مسلم والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

(٢٠) البخارى بلفظ: [من عادى لى وليًا] وأحمد فى مسنده .

تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[٢١] وقوله تعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ﴾[٢٢]. وصاحب هذا المقام عشق فاحترق ، وجذب فاصطفى وصوفى ، اضمحلت فى وصفه العلوم واندثرت فى آثاره الرسوم .

٥ - محو التفريد بالتوحيد : وهو النوع الخامس : لا يُسطر على صفحات الأوراق ، ولا يباح للعقول والأفهام ، لأنه محو التفريد بالتوحيد سر قوله تعالى : ﴿ وما قدروا الله حق قدره ﴾[٢٣]، ولكنه يشم شميمًا من إشارات أهل التمكين فى حال اصطلام صولة الاصطناع ، وهى نتف من الإشارات لا تعقل ولا تذاق للنفوس ، قال تعالى : ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾[٢٤]. ومن نظر إلى الجديد لا يذوق حلاوة التوحيد ، والموحدون نظروا بعين المحبة الأزل أنه على ما هو عليه لم يزل ، ولكنهم ميزوا بين الحادث والقديم فلم يلتبس عليهم الأمر بخلق جديد .

٥ - وقال الإمام عن التوحيد[٢٥] :

التوحيد هو الشراب الطهور الذى سقاه الله بيد عنايته من سلسبيل محبته إحسانًا منه سبحانه بسابقة الحسنى أزلًا .

وهذا العلم يتلقى من : القرآن والسنة ، ومن أفواه أهل الخشية من الله الذين واجههم بجماله العلى مواجهة منحتهم اليقين الحق فرأوا ملكوت السموات والأرض . وليس للعقول - وإن كملت - قوة تستبين بها حقيقة هذا العلم لأن المطلوب علىّ عظيم . غيبٌ عن الأرواح والدليل عليه خفى ، وإنما هو الحس يحكم على الأجسام والأغراض ، وفى هذا العلم لا يقاس الغائب بالحاضر ، لأنه منزه عن النظير والشبيه ، ومن طلب هذا بالبحث والنظر ارتد خاسئًا وحسيرًا ، ولكن لابد من رياضة النفس بالنظر إلى الكائنات لتنبلج الآيات .

وإذا ظهرت الآيات انشرح الصدر واطمأن القلب ، فأقبل العبد سميعًا مطيعًا مؤمنًا بما يتلى عليه من آيات التوحيد فى القرآن والسنة وعبارات وإشارات السلف الصالح . والعقل مقهور مخلوق ، منحه الله القوة التى يدرك بها المصالح ، وليس له أن يحكم على القهار

(٢١) سورة الأنفال آية ١٧ .

(٢٢) سورة الفتح آية ١٠ .

(٢٣) سورة الزمر آية ٦٧ .

(٢٤) سورة العنكبوت آية ٤٣ .

(٢٥) فى كتاب : «شراب الأرواح من فضل الفتاح» .

القوى ولا أن يحوم حوالى سواطع أنوار العزة والعظمة والكبرياء ، قال تعالى : ﴿لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير﴾(٢٦).

والذى دعا علماء الخلف إلى هذه الحرب الطاحنة بينهم إثباتًا وسلبًا وتشبيهًا وتعطيلًا ، أمران عظيمان :

الأمر الأول : إقامة الحجة على أعداء الإسلام من المجسمين كالنصارى واليهود والمجوس والصابئة والمشبهين كالغلاة من الزنادقة والفلاسفة والشاطحين من الممرورين الذين ارتاضوا على أيدى الجهلاء وتركوا مجالسة أهل العلم بالله تعالى العارفين واعتزلوا الناس اشتغالًا بالذكر والخلوة قبل أن يتعلموا العلم النافع فمثلوا الحق بأوهامهم وشبهوه بخيالاتهم ، ومن دخل الخلوة للرياضة قبل أن يتلقى العلم النافع والفرق بين التشبيه والتنزيه ، هلك بوهمه وخياله ، وكان السلف الصالح لا يدخلون السالك للخلوة وله وهم أو خيال فى هذا الجانب .

الأمر الثانى : إنهم وقفوا عند عقولهم فخافوا على الله تعالى فنزهوه سبحانه تنزيهًا اقتضى التعطيل فوقعوا فيما وقع فيه المشبهون ، حفظنا الله وإخواننا المؤمنين من الخلط فى هذا المقام ومنحنا التسليم لله ولرسول الله ﷺ والاقتداء بسلفنا الصالح .

ولا ينبغى للسالك فى طريق الله أن يلتفت إلى أى شئ قبله إلا ما لا يتحصل على هذا العلم إلا به من الضرورى كالغذاء والنوم وقضاء حاجة الإنسان والسعى فى تحصيل ذلك . ولا أعنى به أن يتلقاه الإنسان بالطريقة التى يلقنها أدعياء العلم بالأقيسة المنطقية التى أخذوها عن اليونان ، فإن ذلك والعياذ بالله من البدع المضلة ، ولم يكن فى عصر رسول الله ﷺ ولا فى عصر الصحابة رضوان الله عليهم ولا التابعين وتابعيهم بإحسان ، وإنما تتلقى العقيدة بطريقة السنة كما بيّن ذلك رسول الله ﷺ وبالمآخذ القرآنية ، فإن الله تعالى بينها فى كتابه العزيز بطريقة البرهان الذى لا يفهمه إلا من تركت نفسه وصفا خياله واطمأن قلبه للحق بما جعله الله فيه من النور والهدى .

٦ - وفرّق الإمام بين علم التوحيد والعلوم الظاهرة(٢٧) :

قال رضى الله عنه : واعلم أن علم التوحيد ومعرفة الصفات مباين لسائر العلوم ، فالاختلاف فى سائر العلوم الظاهرة رحمة ، والاختلاف فى علم التوحيد ضلال وبدعة والخطأ فى العلم الظاهر مغفور ، وربما كانت حسنة إذا اجتهد ، والخطأ فى علم التوحيد

(٢٦) سورة الأنعام آية ١٠٣ .

(٢٧) كتاب (أصول الوصول) ص ١٤٨ .

وشهادة اليقين كفر من قبل أن العباد لم يكلفوا حقيقة العلم عند الله تعالى فى طلب العلم الظاهر، وعليهم واجب طلب موافقة الحقيقة عند الله فى التوحيد، ومن ابتدع شيئًا ردت عليه بدعته، وكان مسئولًا عنه، ولم يكن حجة لله تعالى على عباده، ولا غيثًا نافعًا فى بلاده، بل كان موصوفًا بالدنيا وفيها من الراغبين، ولم يكن دليلًا على الله عز وجل ولا من دعاة الدين ولا إمامًا للمتقين.

٧ - قصيدة فى حقائق التوحيد :

يبين الإمام مقام اليقين بدرجاته وهى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين.. وهى التى تمثل علم التوحيد وعين التوحيد وحق التوحيد وكلها جواذب للحق لا تذاق إلا بالمرشد الرجل فرد وقته وزمانه.. كل هذا فى قصيدة احتوت كل علوم ومشاهد ومعارف ولطائف ودقائق التوحيد:

فوق علم التوحيد عين اليقين ... فوقها الحق حظوة التمكين
نور علم التوحيد يخفى المبانى ... حيرتى فيه مبدا التلوين
فيه صح التعبير سر بيانى ... ثم عين التوحيد فى المضمون
فوق فحوى إشارتى وبيانى ... فى خفاء من الكتاب المبين
ثم حق التوحيد فى غيب غيب ... فوق إدراكنا بكنز مصون
كل مالاح فهو علم بيان ... من إشارات عالم بالدين
ثم عين التوحيد للروح تجلى ... فى مقام اصطفاء اهل اليمين
ثم حق التوحيد غيب خفى ... غامض قد يلوح فى التعيين
لم تسعه الأوراق بل ولسانى ... لم يبحه من مبدا التكوين
فوق ذوقى وفوق حالى وكشفى ... وهو فضل من منعم ومعين
راس مال المريد علم يقين ... قصد اهل الوصال عين اليقين
جذبة القرب بعد علمى وحبى ... وهى عين اليقين فى التمكين
جذبه الاتحاد عين يقين ... فى مقام الصفا لكل امين
مشهد الانفراد حق يقين ... افرد الله باختفاء الشئون
جذب عبدية لأحد قريب ... سلب كل الظلال والتكوين
بعدها العبد وهو كنز المعانى ... صورة جملت بغيب مبين

نسخة الأصل بل وام الكتاب   لوح محفوظه إليه حنينى

شمس حق تضئ طرق اقترابى   فوق شمس النهار فى التبيين

نور انفاسه اضاءت قلوبًا   هيمت كل مخلص ومكين

إن يشر للعلوم احيا نفوسًا   او ادار الطهور صح جنونى

حضرة العبد حظوة للتدانى   سدرة الاجتلا ترى للعيون

هيكل فيه نفخة القدس لاحت   للمرادين من ودود مبين

من رآه يفز بعلم يقين   يمنح الحب بالصفا المامون

الإمام والنفس البشرية وأمراضها

النفس تمرض كما يمرض البدن ، وكما جعل الله للأبدان أطباء تسارع إليها عند المرض محافظة على صحتها الجسمانية ، جعل للنفوس أطباء وهم العلماء العاملون والأئمة المجددون فى كل زمان لكيلا تبطل حجج الله وبيناته .

والإمام أبو العزائم يبين أن الوصول إلى الله تعالى مبنى على أصلين عظيمين وهما :

١ - صفاء جوهر النفس .

٢ - استقامة الطريق .

ولما كان صفاء جوهر النفس لا يتحقق إلا بمعرفة النفس وأمراضها وكيفية علاجها ، تحدث الإمام رضى الله عنه فى عدة مؤلفات منها (دستور السالكين طريق رب العالمين) فوضع فى هذا الكتاب رسالة الشفاء من بعض أمراض النفوس ، وكتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) الذى تناول فيه طرق تزكية النفس فبين أمراض النفوس وعلاجها وعلامات هذه الأمراض وأنواعها ، كما دعا إلى حفظ الصحة على النفس وبين أسباب مفسدات النفس ، وفى كتاب (معارج المقربين) تناول الحديث عن النفس من حيث تعريفها ومعنى صفاء جوهرها وفضائل النفس ورذائلها ، كما أشار رضى الله عنه إلى لذة النفوس الطاهرة وأقسام تزكية النفس وأنواع النفوس ، وفى كتاب (شراب الأرواح) تحدث عن مداراة النفوس والمشاهدات والمنح الربانية التى تفاض على السالك .

تعريف النفس :

عرف رضى الله عنه النفس بتعاريف متعددة منها :

- النفس جوهرة روحانية ، حية علاَّمة ، فعَّالة بإذن الله .
- النفس هى اللطيفة النورانية ، بل هى الجوهرة الربانية ، بل هى الحقيقة التى هى أمانة الله المشرقة أنوارها فى هيكل الإنسان .
- النفس ليست عرضًا ولا جوهرًا ، لأنها لو كانت كذلك لحيزها المكان ، ولأدركها الصبيان ، ولم يختلف فيها اثنان .

والنفوس المعروفة سبعة أنواع : جمادية فنباتية فحيوانية فإبليسية فملكوتية فقدسية فالنفس الملكية .

ومما قاله رضى الله عنه نظمًا فى بيان حقيقة النفس[1] :

نفسى هى الكنز فيها سر معناه ... بغير كيف وفيها نور مجلاه
جهلى بها الحجب عن علمى بمبدعها ... وعلمها كشف حجبى فهم معناه
نفسى مثال تراءى لى به وضحت ... آياته وبه اعطيت جدواه
نفسى له صورة تنبى مشاهدها ... إذا تحقق ان المبدع الله
جهلى بها اللبس والتشكيك اجمعه ... وعلمها الكشف عن غيب واخفاه
جهلى بها التيه بل والبعد عن نسب ... بها يلوح جمال الوجه اجلاه
لو انها اشرقت نفسًا لعالمها ... فكت طلاسمه ورقى لعلياه
يا نفس ما انت ؟ نور انت ام عرض ؟ ... ام كوكب مشرق بضياء مبناه
وهل بكِ الجسمُ قد قامت معالمه ؟ ... او قمتِ فيه فهذا السر اهواه
حيرتِ افكار اهل العقل لم يصلوا ... إلى يقين وفيكِ ضل اهداه
العقل يعقل محسوسًا ونسبته ... لا يدركن رتبتى والمنعم الله
سرّى خفىٌ عن الألباب يحجبها ... عنه نظائره فيه واشباه
من امر ربى ومن يطلبه يعرفنى ... فيعرف الله رب العرش مولاه
ونفخة منه تجلى للمراد له ... فتشهد الوجه بالتنزيه عيناه
من كان يعرفنى بالفضل يعرفه ... انا المثال له افق لمرآه

الإمام وأمراض العصر :

لم ينفصل الإمام رضى الله عنه عن الحياة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، بل كان العصر وما يزخر به من أمراض النفوس المختلفة هو شغله الشاغل الذى جعله لا يعرف للراحة سبيلًا . نظر رضى الله عنه إلى أهل عصره وما اعتراهم من ضعف ووهن واستكانة وخذلان ومن سيطرة للمستعمر على كل المقدرات وانتشار للرذائل وتقلص أثر الفضائل وتفشى الخنا واللهو والمخدرات والفجور بين الناس ، تكلم رضى الله عنه عن أمراض العلماء والأمراء ، والزراع ، والتجار ، والدعاة إلى الحق ، وأمراض العامة .. فحدد الداء ووصف الدواء .

---

(١) راجع كتاب (مذكرة المرشدين والمسترشدين) ص ١٢٢ .

وقبل أن يتناول رضى الله عنه الحديث عن أمراض النفوس يقول فى إحدى مقالاته :

إذا عرف الإنسان ما جبلت عليه النفس ومعانى ما هى مفطورة عليه ، ظهر جليًا أنها لا تقبل مواجيد أهل اليقين إلا بالجهاد الأكبر ، ويكون المجاهد عالمًا بما به يكون جهاده فى ذات الله تعالى أو فى سبيله ، وبذلك تزكو نفسه ويتحلى بأحوال أهل المقامات وبمواجيد العارفين .

إذا تقرر ذلك فاعلم أن النقصان يبدو من الغفلة ، والغفلة تنشأ عن آفات النفس ، والنفس مجبولة على الحركة وقد أمرت بالسكون وهو اجتلاؤها لتفتقر إلى مولاها وتبرأ من حولها وقوتها – ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾[٢] لتفزعوا إليه وتقولوا : ﴿ ربنا أفرغ علينا صبرًا وتوفنا مسلمين ﴾[٣] وكما قال : ﴿ وكان الإنسان عجولا ﴾[٤] ﴿ خلق الإنسان من عجل ﴾ ثم قال : ﴿ سأريكم آياتى فلا تستعجلون ﴾[٥] وقال : ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه ﴾[٦] ، فأخبر عن وصفه بالعجلة ثم أمره بتركها للبلوى ، فإن نزلت السكينة وهى مزيد الإيمان سكنت النفس عن الهوى بإذن منفسها ، وإن حجب القلب بالغفلة وهى علامة على الافتقار والتضرع تحركت النفس بطبعها فإن سكنت عن حركتها فبالمنة والفضل وإن تحركت بوصفها فللإبتلاء والعدل ، فأول الابتلاء وأول اختلافها خلافها ، ومقدمته الهمة ، وبابه السمع وهو طريق إلى الكلام ، والنظر والقول طريق إلى الشهوة ، والشهوة مفتاح الخطيئة ، والخطيئة مقام إلى النار حتى يزحزح غيها الجبار بالتوبة فى الدنيا والعفو فى العقبى .

وقد تكون المخالفة على المحب العارف أشد من النار كما حدثت عن بعضهم قال : لإن أبتلى بدخول النار أحب إلىَّ من أن أبتلى بمعصية . قيل : ولم ؟ قال : لأن فى المعصية خلاف ربى وسخطه ، وفى النار إظهار قدرته وانتقامه لنفسه . قال : فسخطه أعز إلىَّ وأعظم من تعذيب نفسى . وكذلك حدثونا فى معناه عن بعض المؤمنين من العمال أنه قال : وركعتان تتقبل منى أحب إلىَّ من دخول الجنة . قيل : وكيف ؟ قال : لأن الركعتين رضا ربى عز وجل ومحبته ، وفى الجنة رضاى وشهوتى ، فرضا ربى عز وجل أحب إلىَّ من محبتى . وقد قال مهيب بن الورد المكى فى لبن سُئِلَ أن يشربه فلم يفعل لأنه سأل

(٢) سورة آل عمران آية ١٠٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ١٢٦ .

(٤) سورة الإسراء آية ١١ .

(٥) سورة الأنبياء آية ٣٧ .

(٦) سورة النحل آية ١ .

عن أصله فلم يستطبه فقالت له أمه : اشربه فإني أرجو إن شربته أن يغفر الله لك فقال : ما أحب أني شربته وأن الله غفر لي . قالت : ولم؟ قال : لا أحب أن أنال مغفرته بمعصية .

وصف النفس :

لوصف النفس معنيان : الطيش والشره ، فالطيش عن الجهل ، والشره عن الحرص ، وهما فطرة النفس ، فمثلها في الطيش كمثل كرة أو جوزة في مكان أملس منحدرة فإن أثرت إليها أو حركتها أدنى حركة تحركت بوضعها ، وهي في صفتها وصورتها في الشره متولدة من الحرص أنها على صورة الفراشة أنها تقع في النار جاهلة شرهه تطلب بجهلها الضوء وفيه هلاكها ، فإذا وصلت إلى شئ منه لم تقتنع بيسيره لشرهها فتحرص على الغاية منه وتطلب عين الضوء وجملته وهو نفس المصباح فتحترق ، ولو قنعت بقليل الضوء عن بُعدٍ سلمت .. فكذلك النفس في طيشها الذي يتولد من العجلة ، وفي شرهها الذي ينتج من الحرص والطمع هما اللذان كانا سبب إخراج آدم عليه السلام من الجنة لأنه طمع في الخلود فحرص على الأكل . وقد مثل بعضهم النفس في شرهها بمثل ذباب مر على رغيف عليه عسل فوقع فيه يطلب الكلية فعلق بجناحه فقتله ، وآخر مر به فدنا من بعضه فنال حاجته فرجع إلى ورائه سالمًا . وقد مثَّل بعض الحكماء ابن آدم مثل دود القز لا يزال ينسج على نفسه لجهله حتى يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه إذا فرغ من نسجه لأن القز يلتف عليه فيروم الخروج منه فلا يجده وربما غمزوه بالأيدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز صحيحًا ، فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي أهلكه أهله وماله فتنعم ورثته بما شقي به ، فإن أطاعوا الله به كان أجره لهم وحسابه عليه وإن عصوا به كان شريكهم في المعصية لأنه أكسبهم إياها فلا تدري أي الحسرتين عليه أعظم : إذهابُهُ عمره لغيره ، أو نظره إلى ماله في ميزان غيره .

جبلات النفس :

جبلات النفس الأربعة هي أصول ما تفرع من هواها ، وهي مقتضى ما فطرها عليه مولاها :

١ - الضعف وهو مقتضى فطرة التراب .

٢ - ثم البخل وهو مقتضى جبلة الطين .

٣ - ثم الشهوة وموجبها الحمإ المسنون .

٤ - ثم الجهل ومقتضاه الصلصال .

وهذه الصفات هى معانى تلك الجبلات للابتلاء بالأمشاج ، ففيه بدأ الأمن . قال تعالى : ﴿ ذلك تقدير العزيز العليم ﴾(٧) .

ابتلاءات النفس الأربعة :

ثم أن النفس مبتلاة بأوصاف أربعةٍ متفاوتة :

أولها : معانى صفات الربوبية نحو الكبر والجبروت وحب المدح والعز والغنى .

ثانيًا : بأخلاق الشياطين مثل الخداع والحيلة والحسد والظنة .

ثالثًا : بطبائع البهائم وهو حب الأكل والشرب والنكاح .

رابعًا : وهى مع ذلك كله مطالبة بأوصاف العبودية مثل : الخوف والتواضع والذلة بمعنى ما قلناه قبل أنها خلقت متحركة وأمرت بالسكون وأنىّ لها ذلك إن لم يتداركها المالك ، وكيف تسكن للأمر إن لم يسكنها محركها بالخير ، فلا يكون العبد عبدًا مخلصًا حتى يكون للمعانى الثلاث محصلًا ، فإذا تحقق بأوصاف العبودية كان خالصًا من المعانى التى هى بلاؤه من صفات الربوبية ، فإخلاص العبودية للوحدانية عند العلماء الموحدين أشد من الإخلاص فى المعاملة عند العالمين ، وبذلك رفعوا إلى مقامات القرب ، وذلك أنه لا يكون عندهم عبدًا حتى يكون مما سوى الله عز وجل حرًا ، فكيف يكون عبد رب وهو عبد عبد ؟ لأن ما قاده إليه فهو إلهه ، وما ترتب عليه فهو ربه ، وهذا شرك فى الإلهية عند المتألهين ومزج بالربوبية عند الربانيين ومهلك منقوص منكوس بدعاء رسول الله ﷺ إذ يقول : (تعس عبد الدنيا تعس عبد الدرهم تعس عبد الزوجة تعس عبد الحلة)(٨) ، فهؤلاء عبيد العدو الذين قال مولاهم : ﴿ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدًا لقد أحصاهم وعدهم عدا ﴾(٩) أصحاب النفوس الأمارة بالسوء المسئولة الموافقة للهوى المخالفة للمولى ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ﴾(١٠) إلى آخر وصفهم ، أولو النفس المرحومة المطمئنة المرضية هم عباد الرحمن أهل العلم والحكمة ، علمهم من لدنه واختارهم لنفسه . ولا يكون المريد بدلًا حتى يبدل بمعانى صفات الربوبية

---

(٧) سورة الأنعام آية ٩٦ .

(٨) كشف الخفاء للعجلونى ج ١ ص ٣٦٦ .

(٩) سورة مريم آية ١٩ .

(١٠) سورة الفرقان آية ٦٣ .

صفات العبودية ، وبأخلاق الشياطين أوصاف المؤمنين ، وبطبائع البهائم أوصاف الروحانيين من الأذكار والعلوم .. فعندها يكون بدلًا مقربًا . والطريق إلى هذا بأن يملك نفسه فيملكها فتسخر له فيسلط عليها ، فإن أردت أن تملك نفسك فلا تملكها وضيّق عليها ولا توسع لها ، فإن ملكتها ملكتك وإن لم تضيق عليها اتسعت عليك ، فإن أردت الظفر بها فلا تعرضها لهواها واحتبسها عن معتاد بلاها ، فإن لم تمسكها انطلقت بك ، وإن أردت أن تقوى عليها فأضعفها بقطع أسباب هواها وحبس مواد شهواتها وإلا قويت عليك فصرعتك ، فأل الملكة لها أن تحاسبها فى كل ساعة وتراقب حسبتها فى كل وقت وتقف عند همة من خواطرها فإن كانت الهمة لله عز وجل سابقت الموت فى إمضائها[11] .

مجاهدة النفس بالرفق والتدريج[12] :

ولعلم أنه يجب أن تكون المجاهدة والرياضة بالتنقل والتدريج والرفق بالنفس شيئًا فشيئًا ، ولا يهجم عليها بما يشق عليها من الأعمال فتنفر منه نفورًا شديدًا يخشى منه الترك والخروج بالكلية ، فيستحب الرفق بها إلى أن تتعود ذلك ، وهذا هو الذى نبه عليه ﷺ بقوله : (إن المُنبتَّ لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى)[13]، فإذا أراد المجاهدة نقل نفسه عن عوائدها المذمومة إلى المحمودة ، فليمنعها من الفعل المذموم ، وليذكرها ما ورد فيه الوعيد على فعل المذموم والوعد على فعل المحمود ، فإن ثقل عليه ذلك قطع عنها لذاتها الناجزة وداوى نفسه بترك الشهوات العاجلة ، ومن عزم على تحصيل مقام السخاء مثلًا فطريقه إلزام نفسه القيام بإخراج الواجب من الزكاة والنذور والكفارات ونفقة الأب والأولاد الصغار والزوجة وغيرهم من العيال ، فإذا قام بذلك بسهولة عود نفسه الإنفاق فى المندوب ، وإذا وصل إلى ذلك آثر على نفسه ذوى الحاجات ، ثم ينتقل إلى الزهد فى حظوظ نفسه فى الترفه والراحات ، فهذه طريق المجاهدة والرياضة يدرج العبد نفسه فى سلوك الطريق إلى مولاه مع الرفق بنفسه .

والانقطاع إلى الأعمال دفعة وإخراج ما فى اليد دفعة واحدة منهى عنه ، فإن قيل إن الصديق رضى الله عنه أتى بجميع ماله إلى النبى ﷺ ليخرجه فى سبيل الله قلنا : ذلك لأن الحاجة كانت إليه متأكدة إذ كان ذلك وقت فاقة وضرورة وبالمسلمين حاجة إليه ،

---

(١١) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ١٩ ص ٩ (٥ذى القعدة ١٣٥٦ الموافق ٧ يناير ١٩٣٨) .

(١٢) كتاب : (النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم .

(١٣) البزار والبيهقى فى السنن .

وأيضًا فإن الصديق كان عنده من الوثوق والصبر واليقين بالله تعالى ما ليس عند غيره. ولا بأس أيضًا أن يرقع المجاهدة لنفسه بالعبادة بشئ من المباحات ليقوى بذلك على الطاعات وينتفى عنه الملل ويزول عنه السأم، قال سيدنا على رضى الله عنه (روحوا النفوس فإنها إذا كرهت عميت)، والشريعة جاءت بمداواة النفوس المريضة وتطبيب القلوب المعلولة.

ويستعرض الإمام أمراض النفس البشرية وعلاماتها وأنواعها وما يفسد مزاجها، وكيف لمريد الحق أن يحتاط ليحافظ على صحته النفسية وذلك فى كتاب «مذكرة المرشدين والمسترشدين» فيقول رضى الله عنه:

كل مريد سلك الطريق لابد وأن يكون على علم من الأخلاق الجميلة والأخلاق السيئة ما لايعلمه غيره ممن لم يسلك الطريق. ومن آمن بيوم القيامة الإيمان الكامل كان أهم شئ أمامه: فوزه بنعيم الآخرة ونجاته من عذاب النار.

ولذلك فإنك ترى المريد المخلص أشغل الناس بعيوب نفسه، وأحرص الناس على المحافظة عليها من الوقوع فى الأمراض أشد من حرص أهل الدنيا على صحة أبدانهم وعلى حفظ أموالهم وحريمهم، بحيث أن المريد الصادق لو سقط سقطة أو زل زلة أو هفا هفوة أو غضب أو احتد أو بخل بما لا يبقي أو أسرف فيما ينفع أو تهاون فى واجب أو تساهل فى عمل فضيلة.. تحقق أنه كاد أن يهلك، فأخذ يداوى نفسه إن عَلِمَ الدواءَ بندم واستغفار أو توبة وإنابة وعمل قربات وخروج من مال للفقراء، حتى يتحقق أنه عالج نفسه مما ألم بها من مرض المعاصى والرذائل.

وإن كان حصل منه أمر دعاه إليه مرض فى النفس من أمل أو طمع أو حرص أو حب علو فى الأرض أو تكاثر فى الدنيا، أو لسبب من أسباب المعاصى كمجاورة من يفسد عليه حاله أو نيل رزقه على يد قوم يسببون له أمراض النفس.. أسرع إلى الطبيب الحاذق بأمراض النفس، وهو المرشد الحقيقى، فرفع إليه الأمر بدون أن يستحى أو يخجل كما يكشف الرجل والمرأة العورة على الطبيب ليعرف المرض ويعالجه، ويُفهمُ المرشدَ أنه يريد النجاة بأى دواء، فإذا كاشفه حقيقة الأمر وظهر له أسباب المرض أمره بالعلاج النافع والدواء الناجع، فقبله منه فرحًا لأنه وجد لمرضه دواء، وأسرع إلى استعمال الدواء مبادرًا بدون تأن ولا تأويل، هذا هو الواجب على المريد.

ومن كان هكذا فى بدايته فاز بأمرين عظيمين:

<u>الأمر الأول:</u> أن يكون طبيبًا حاذقًا.

الأمر الثاني: أن يكون وارثًا من ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، متصفًا بصفات التوابين المتطهرين، منعمًا عليه بمحبة الله تعالى.

علامات أمراض النفس:

أما المريد الذى تمرض نفسه فيستر مرضه ويخفيه، حتى إذا ظهرت علاماته وكلمه فيه صديق له أو محب، نفر منه وعاداه وأنكر عليه ذلك واشتغل بعيوب غيره، فذلك ليس بمريد، إنما ذلك جاهل بنفسه عدو لها، سالك بها سبل الهلاك.

قلتُ: ظهرت علامات أمراض النفس.. هل لأمراض النفس علامات؟ نعم.. لها علامات كما أن لأمراض الجسم علامات، فإنك ترى الجسم إذا مرض فإنه قد يتغير عقل المريض، ولا تكون آراؤه صحيحة، وقد يعتريه النسيان والذهول وإنكار نفسه وأقاربه وأهله، وتلك من مرض الجسم. وكذلك إذا مرضت النفس بعشق شهوانى أو بعمل معاص شهوانية، أو بغل وحسد، أو مرضت النفس بمرض الغضب والحماقة، أو بالحزن، أو بغير ذلك.. فإن الجسم يصفر ويرتعد ويضعف، وتنقص قوته وتقل شهواته، كما قدمنا من أن قوة العقل والفكر تضعف بضعف البدن، كذلك يضعف الجسم بمرض النفس، وأمراض النفس لا تخفى على المتوسمين.

أسباب أمراض النفس وأنواعها:

تمرض النفس لأمرين عظيمين:

(١) اختلاف تركيب الجسم أو فساد المزاج.

(٢) سوء الاعتقاد والعياذ بالله تعالى.

أولًا: أنواع الأمراض الناتجة عن اختلاف التركيب وسوء المزاج

١ - فساد الرأى.

٢ - البلـه.

٣ - الحيرة فى الأمر البسيط.

٤ - ضعف الذاكرة.

٥ - عدم الفكر فى غد.

٦ - التهيج مما لا يتهيج منه.

٧ - الغلو فى كل شئ حبًا أو بغضًا، مدحًا أو ذمًا.

٨ - الشـــره.

٩ - فساد التخيل، وهى أهمها.

ثانيًا : أنواع أمراض النفس من جهة فساد العقيدة :

١ - الجدل .

٢ - إنكار غير المحسوس .

٣ - الشك فى يوم القيامة .

٤ - حصر الملاذ فى تلك الحياة الدنيا .

٥ - الحرص على الدنيا .

٦ - حب المرء ذاته حبًا يجعله يعق والديه ، يقطع الرحم ، يسىء إلى المحسن ، يتمنى زوال نعم غيره ونوالها لنفسه .

٧ - البخل بالمال حتى على النفس .

٨ - بذل الفضائل لاكتساب شهواتها .

٩ - التجرد من الحياء .

١٠- التهكم بالعلماء العاملين والعباد الزاهدين .

١١- تقبيح مجاهدة النفس وحبسها عن الشهوات والرذائل .

١٢- غلوه فى الحب لذاته غلوًا يجعله يرى كل ما هو عليه فضائل وكمالات وإن كانت من أرذل الرذائل .

١٣- التلذذ بفعل الفواحش والمنكرات .

١٤- الفرح بالانتقام والأبية .

١٥- الجبن لخوفه على نفسه من الموت لاعتقاده أنه يموت ويفارق الملاذ والكرامات .

١٦- اليأس عند أقل مؤلم .

١٧- القنوط عند فقد الأسباب لجهله بالله تعالى .

١٨- التملق والتذلل عند الاحتياج ، والغرور والطيش والكبر عند عدم الاحتياج لجهله بالمستقبل .

١٩- الكذب تخلصًا من المؤلم أو انتقامًا من عدو جهلًا بيوم الحساب .

٢٠- الغيبة والنميمة للإفساد بين الناس لينال خيرًا لنفسه .

٢١- التجمل للخلق ، والغفلة عن تجمل السريرة للحق ، لأنه لم يؤمن بيوم القيامة .

٢٢- الذل والتملق لمن يظن أنه ينفعه أو يضره فى دنيا ، والمسارعة إلى رضاه ولو فى

معصية الله لسوء ظنه بالرزاق المقدر، حتى قد يبلغ به أن يستعمله من له عليه نعمة أو رياسة فى عمل أكبر الكبائر: كأذية الخلق، أو شهادة الزور، أو التجسس والتحسس، أو الاشتراك معه فى عمل الفواحش وارتكاب الرذائل. ويفرح بذلك المسكين ويرى فى نفسه أنه وثق برزقه وضمن سعادته وأذل عدوه ونفع حبيبه، وينسى أنه سقط إلى مكان سحيق وانحط عن الرتبة الإنسانية إلى أقل من رتبة الحيوانات الداجنة، واستحق مقت الله وغضبه وأليم العذاب يوم القيامة.

أولًا : علاج أمراض النفس الناتجة عن اختلاف التركيب

فأهم علاج لاختلاف التركيب أن يُعتنى بالطفل من صغره بما يلى:

(١) يعلم ما يستطيع تعلمه من الحرف النافعة لمعاشه التى تستغرق وقته نهارًا فى شغل.

(٢) يلقن أركان الإيمان وأركان الإسلام، ثم تفصل له - من أركان الإيمان - الآخرة بمثل تنقش فى نفسه من صغره تجعله يشتاق إلى النعيم فيعمل لنواله ويخاف من العذاب فيتباعد عما يوقعه فيه.

(٣) يُلاحظ أن يُمَرَّنَ على الأعمال الواجبة شرعًا من الصلاة وغيرها من أول ما تندب عليه.

(٤) يحافظ عليه من صحبة الأشرار والفجار ليكون أبعد عن موجبات أمراض نفسه المفطور عليها.

ومثل هذا لا دواء له إلا الرضا منه بما أهل له وعدم مطالبته بما لا طاقة له عليه من أعمال الفكر والتدبير والتبحر فى العلم، وخير له أن يعيش بين نظرائه فى العلم والفكر بشرط أن يكونوا أتقياء، وأن يكلف بكثرة الأذكار والأعمال البدنية ليشتغل بها عما يوقعه فى المرض، كما يتحفظ على الأطفال والصبيان من الوقوع فيما يضر أبدانهم.

علاج أمراض النفس الناتجة عن انحراف المزاج:

تقدم بعض أنواع تلك الأمراض، وأهم علاج لها العناية باعتدال الأمزجة ورد الصحة على الجسم، وهذا منوط بفن الطب الجسمانى.

ثانيًا : علاج أمراض النفس الناتجة عن فساد الاعتقاد

اختلف العلماء فى هذا الموضوع فمنهم:

(١) من رأى أن الإنسان يتخذ له صاحبًا يسأله عن علوم نفسه ، وليست هذه بالطريقة المهيئة للشفاء .

(٢) استحسن بعضهم أن يعلم عيوبه من عدوه ، وإنى أرى أن هذا الدواء لا ينفع إلا للأخيار ، لأنه لا ينتفع من عدوه إلا الرجل التقى الورع . وأرى أكثر الناس يتغالى كل واحد فى إذلال عدوه ونسبة عيوب له ليست فيه لمهانته وعداوة الناس له ، ولذلك فليس هو الدواء الوحيد إلا للكامل العالم الذى إذا سمع عدوه ينسب إليه عيبًا من العيوب بادر بمحوه واستبداله بفضيلة ومكرمة ، كما إذا رأى فى عينيه قذىً أو على وجهه أوساخًا بنظره فى المرآة بادر إلى نظافة وجهه . وإنى إذا تكلمت فى هذا الموضوع فإنما أتكلم عن تجربة فى نفسى ، ومعرفة بآداب أهل التقوى والصلاح من السلف وممن عاصرتهم ، وعن خبرةٍ ومزاولةٍ لأمراض النفوس وأخذٍ فى علاجها .

لما كان علم الطب الجسمانى يراد منه أمران : أ - حفظ الصحة . ب - ردها إذا فقدت .. وكان حفظ الصحة على الجسم يقتضى التوسط فيما لابد منه للجسم والمحافظة عليه مما لا يتحمله ، والعناية بمواد الأغذية من جهة النظافة والجودة والسهولة والمقدار ، ومراعاة الوقت المناسب ، والبعد عن المؤثرات الشديدة ، كل تلك لازمة لحفظ الصحة الجسمانية ، فكذلك ينبغى لصحيح النفس أن يجتهد فى حفظ صحتها عليها باستعمال ما أوجبه عليه الشرع بنسبه ومقاديره فى أوقاته ومن عبادات وأخلاق واعتقادات ومعاملات ، بحيث لا يتهاون فيسبب مرض النفاق والقطيعة والبعد ، ولا يتغالى فيقع فى الفتن والضلال ﴿ وكان بين ذلك قواما ﴾[١٤] ، وأن يتباعد بكل ما فى وسعه عن المبتلين بالأمراض النفسانية ، كأهل الجدل والإنكار والفساد وغيرها ، وعن أهل الشغف بالملاذ الحيوانية وعن مطالعة سيرهم وأخبارهم ، ويتباعد عن أهل الخبث المفسدين وأهل الشر المضلين ، فإنه قد يقع فى أمراضهم من حيث لا يشعر بمجرد مجالستهم ، وذلك لأنه لصحة نفسه أول ما يقع نظره عليهم يرى فيهم علامات الأمراض والسقم ، كما يحس الإنسان من الآخر بمرض الجسم بعلامات المرض ، فكذلك صحيح النفس إذا جلس مع مريضها أنكر عليه ، ومريض النفس يرى أن الصحيح الحقيقى مريض ، فيحصل الإنكار من كل على الآخر ، فيكون بمجرد جلوسه معه مرض بمرضه . فعلى صحيح النفس أن يتباعد عن مرضى النفوس إلا إذا جاءه مريض النفس فشكى إليه مرضه وطلب منه دواءه .

---

(١٤) سورة الفرقان آية ٦٧ .

العناية بحفظ الصحة على النفس :

من العجب أن الرجل الصحيح النفس يهمل صحته حتى يقع فى الأمراض ، لأن أمراض الأجسام يشعر صاحبها بألم يدعوه إلى الطبيب ، وأما أمراض النفوس فقد يحصل منها اللذة للنفس والأنس لها ، لأن غالب أمراض النفوس مما يلائم النفوس ، فينسى الرجل قبائحه ويغفل عن دواء نفسه ، وإذا ذكره أخوه بعيوب نفسه قذفه وعاداه وهو يظن - المسكين - أنه على أكمل الفضائل وأجمل الأخلاق ، ناسيًا أمراض نفسه لحبه لنفسه ، فتجب العناية بحفظ الصحة على النفس خشية من الوقوع فى المرض .

العلاج عند حصول المرض :

فإذا حصل للنفس مرض من الأمراض السابقة ، فعلاج ذلك محصور فى أمرين أساسهما العلم :

الأمر الأول :

(١) أن يبادر من حصلت منه المخالفة للمرشد - إن كان مسترشدًا - فيعرض عليه أمره ، ثم يعمل ما يكلفه به مما هو شفاء لنفسه وتوبة من ذنبه ، غير خجل ولا مستتر ، فإن أصحاب رسول الله ﷺ كان الرجل منهم إذا نسى أو أخطأ رفع الأمر إلى رسول الله ﷺ ، وقام فنجز ما يكلفه به ، فمنهم من يقول زنيتُ يا رسول الله ، وغير ذلك مما قل أو كثر . فإذا خجل المخالف أو رأى أن رفع الأمر للمرشد فضيحة ، تهاون بيوم القيامة وجهل الفضيحة فيه ، ودعاه التساهل بصغير المخالفة إلى الوقوع فى كبيرها ، حتى قد تبلغ به الحالة إلى أن يترك عمل الواجبات .

(٢) أما إذا كان ليس له مرشد بأن كان من العلماء أو كان من القائمين بالدعوة إلى الله ، فالواجب عليه إذا رأى نفسه أوقعته فى الحماقة والغضب والعداوة ين الناس أن يبادر بأن يتعرض إلى سفيه أحمق يسبه أمام الناس ويتحمل ذلك ويفرح ، ليعالج نفسه ويرد عليها صحتها ، أو يبادر بأن يذل نفسه لمن كان يعظمه ويقبل يده ويخدمه ، ويتوب مجاهدًا نفسه بترك تلك الصفة القبيحة ، وإن شعر منها بحب الشهرة والسمعة بادر بأن يعرض عليها مبدأها ونهايتها وحقارة الدنيا وزوالها .

الأمر الثانى :

وأكمل دواء للنفس المبادرة بتلقى علوم الدين من أهل اليقين ، الذين يعلمون الناس

بالحكمة والموعظة الحسنة ويدعونهم إلى الله على بصيرة ، ويجعلون أساس دعوتهم كشف عناية الله بهم وإظهار آياته فى الآفاق وفى أنفسهم بطريق مقنع ، ويبينون أسرار الصورة الإنسانية وما احتوت عليه من غرائب الحكمة وعجائب القدرة ، وكيف كان مبدؤها من آيات القرآن بقوله تعالى : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾[١٥] ، ويتباعد فى الدعوة عن غير ذلك بذكر عناية الله تعالى وإبداعه للعالم كله ، وهو الأمر الجامع ، حتى إذا اطمأنت القلوب وانشرحت ، دعاهم بعد ذلك إلى التصديق بالآخرة ويبين لهم حقارة الدنيا وزوالها ، ودعاهم لمعرفة أنفسهم وما به تكميلها وسعادتها .. وهذه هى طريق القرآن فى الدعوة ، وسبل رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم فى الدلالة والبيان .

القرآن الكريم :

فاقرأ أيها الأخ البار كتاب الله متدبرًا ، وتأمل قصصه متفكرًا ، واعتبر بتكرار أخبار الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وأساليب البيان ، وحكم التبيان الجلية لكل ذى بصيرة فى كل مكرر القرآن ، يظهر لنور سرك ساطع حجج القرآن الكريم ، وجلى نور براهينه ، وما حث فكرك عليه وما نبه قلبك إليه ، وما دعاك إلى تدبره والنظر فيه من الآيات الدالة على كمال عنايته ، والحجج المؤيدة أنه هو المبدع الخلاق .

فإذا زكت نفسك أيها الأخ المؤمن ، وتناولت من سلسبيل القرآن الشريف ، ومن كافور كلام رسول الله ﷺ ، سكنت نفسك واطمأن قلبك وانشرح صدرك ، ودعاك سرك دعوة الحق إلى الحق ، وانكشفت لك سيما الناس ، فعلمت بسيماهم مقادير استعدادهم وفطر نفوسهم ، فدعوتَ عباد الله إلى الله بالحكمة والموعظة على قدر النفوس ومناسبات العقول ، ناهجًا على الطريق المستقيم ، لا تميز بين المسلم وغيره مادمتَ تجعل أساسَ دعوتك طريق القرآن العظيم .

واحذر يا أخى - أيدنى الله وإياك بما أيد به الصديقين والشهداء من عباده الصالحين - أن تتجاوز هذا الطريق فى الدعوة والإرشاد بأن تسلك مسالك النظار بعقولهم فتفتح أبواب الجدل والشكوك والريب ، فتكون من الفتانين التائهين فى بيداء الغفلة ، وتحقق أن كل من أراد أن يجادل أو يعارض فهو عدو لأخوّةِ المؤمنين ، محروم من التصديق واليقين ، والأولى الإعراض عنه وعدم العناية به ، فإنك إن أعرضت عنه هلك وحده ، وإن جاريته فى الجدل والمعارضة ربما هلك وأهلك معه كثيرين .. والله أسألُ أن يهدينا

---

(١٥) سورة المؤمنون آية ١٢ .

بالقرآن ، ويعصمنا بسنة رسول الله ﷺ آمين .

أسباب مفسدات النفس :

اعلم أيها الأخ - روَّحنى الله وإياك بروح العناية والولاية وريحان الإحسان والرضوان - إن أمهات الخطايا التى بها لُعِنَ إبليس وأخرج أبونا آدم من الجنة وقتل قابيل أخاه هابيل ترجع إلى أصول الكبائر وهى :

(١) الكبر : الذى أوقع إبليس فى القطيعة واللعنة .

(٢) الطمع : الذى هو سبب المعصية لأبينا آدم وأهبط بسببه من الجنة لأنه طمع فى الخلود فيها .

(٣) الحسد : الذى دعا قابيل أن يقتل هابيل حسدًا له على النعمة عليه بأخت قابيل .

وما من رذيلة من الرذائل إلا وهى ترجع إلى أصل من تلك الأصول ، فإذا حفظ الله العبد من تلك البليات الثلاث وفروعها ، كان وهو فى الدنيا من أهل الآخرة . وقد بين لنا رسول الله ﷺ تلك المعانى بكلمة هى الحصن الحقيقى للسلامة بقوله ﷺ : (حب الدنيا رأس كل خطيئة)[١٦] .

قد أفلح من تزكى :

فإذا جاهدت نفسك حتى تزكت فقد أفلحت ، فامش فى الناس عاملًا عمل أهل الدنيا غير خائف فإنك فى الآخرة ، دليل ذلك كتاب الله تعالى : ﴿أو من كان ميتًا فأحييناه وجعلنا له نورًا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها﴾[١٧] . فالميت من زكى نفسه حتى صار من أهل الملكوت الأعلى ، فجعل الله له نورًا من اليقين والعلم والفقه يمشى به فى الناس آمنًا لانكشاف الحق له وبيانه ، فلا يضره مشيه فى الناس وعمله معهم لأنه ينفعهم النفع الحقيقى وينفع نفسه[١٨].

الشفاء من أسقام النفس :

وقد أسهب الإمام فى ذكر وبيان أمراض كل قسم وكذا طرق العلاج ، مما لا تتسع الأوراق هنا لذكره ، ولكننا نشير إلى اهتمامه الأكبر بأمراض العلماء وأمراض الدعاة إلى

---

(١٦) البيهقى فى شعب الإيمان .

(١٧) سورة الأنعام آية ١٢٢ .

(١٨) من كتاب «مذكرة المرشدين والمسترشدين» للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم .

الحق .. فقال :

العلماء الذين أعنيهم فى كلامى هذا هم الذين منحهم الله تعالى الفقه فى دينه ووهب لهم سبحانه وتعالى علم الرعاية فى أحكامه حتى علموا حكمته فى كل حكم فسارعوا إلى المراد له جل جلاله فيما حكم لا الحكم كما يفعل أهل التقليد الذين لا هم لهم إلا تأدية المأمور به بحركات وسكنات وألفاظ مجردة عن الرعاية التى بملاحظتها يصير العالم كأنه يرى الله أو تحصل له الخشية من رعاية أن الله يراه فيكون إما فى مقام الإحسان لاستغراقه فى شهود آيات الله وحكمته معاينة آثار وأنوار عجائب قدرته فيكون روحانيًا وهو جسمانى ، وملكوتيًا وهو إنسان حيوانى ، جامع بين الضدين ، غلبت عليه أنوار الروح فأخفت ظلال جسمه ففارق لوزام البشرية استحضارًا أو مقتضيات الآدمية حضورًا فقام عاملًا مخلصًا لله بالله كأنه يرى الله أمامه أو مخلصًا لله محجوبًا عن شهود أنه بالله فيكون موقنًا أن الله يراه فى عمله ، وهؤلاء هم العلماء الذين أعنيهم بكلامى .

ثم ذكر أمراضهم فقال :

١ - وأمراضهم خفية عن العقول غامضة عن النفوس ، لأنهم مع كمال الإخلاص يشوب توحيدهم شوب بواعث الهمة على العمل ، فيحجبون عن خالص مشاهد التوحيد إما للعلة الباعثة أو لعدم تصفية مشهد التوحيد من شوب نسبة العمل لأنفسهم بشهود المجاهدات منهم ، وهو أمراض الأخفى التى تظهر أنها قربات إلى الله وشوق إليه وحب فيه . وقد يقوى هذا المرض حتى يدعو إلى شهود الإلهية فى العامل من حيث لا يشعر فيأنس بالعمل ويطمئن بالعرفان . والأنس بالعمل والطمأنينة بالعرفان شرك أخفى فى طريقنا هذا ، ومن شغله العرفان عن المعروف والعمل عمن هو مولى وجهه شطره واحتجب بنسبة العمل لنفسه .. فهو مشرك فى طريقنا وإن كان من أهل الفردوس الأعلى .

٢ - ومرض الإلهية أعظم مرض عضال يصاب به الربانيون . وقد جعل الله له من أنواع العلاجات أمرّها ومن العقاقير أحدّها . قال تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[١٩] . ومن دواء هذا المرض قوله تعالى : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾[٢٠]، وقوله : ﴿ ولقد علمتم النشأة الأولى ﴾[٢١]، وقوله

(١٩) سورة الإسراء آية ٨٢ .

(٢٠) سورة المؤمنون آية ١٢ .

(٢١) سورة الواقعة آية ٦٢ .

تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا ﴾[٢٢]. وأهل العلم يعلمون أن الغواية غير الضلال ، فإن المؤمن قد يغوى ولا يضل لأن الضلال هو الكفر بالله تعالى ، وأما الغواية فهى معصية الله تعالى شهودًا أو ذوقًا أو وجدًا أو علمًا أو بالجوارح . وإن من حجبه العلم والعمل والمعرفة والتقوى عن كمال التوحيد الذى هو الجوهر المقصود بالذات لله تعالى غوى . والغواية قد تحصل من الإنسان بالتأويل أو لقصد نيل الخير الذى يظنه – قال تعالى : ﴿ وعصى آدم ربه فغوى ﴾[٢٣].

٣ – الفرح بإقبال الناس سكونًا إليهم من غير ملاحظة ، وقد جعل الله سبحانه لهذا المرض علاجًا للمؤمنين – قال تعالى : ﴿ زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث ﴾[٢٤]. وقد خاطب الله رسوله ﷺ وأراد بخطابه المؤمنين ، وهم من أعلم الناس مراقبة لله وخشية منه ، فقال تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾[٢٥] . تناول من هذا الطهور واسكن بكلك إلى ربك وافرح بفضل الله وبرحمته وسبحه واستغفره عند إقبال الخلق ، ولا تفرح بحالك وعملك لأن العصمة من الزلل لله تعالى .

٤ – وهنا مرض آخر فوق هذه الأمراض كلها ينتج عن الشوق إلى المفارق فيخفى على العالم واجب وقته فى مرتبة الوجود الذى أقامه الله فيها فيأنس بالمفارق أنسًا بنسبة لازم رتبته الكونية فيحصل له الشوق الشديد الذى يخرجه عن الوسط فيفارق مكانته الإنسانية التكلف بما لاح له من أنوار الملكوت فى نفسه وفى الآفاق وفى السموات وفي الأرض فقد يقع في الفتنة المضلة أو الضراء المضرة ، ودواء هذا المرض قوله تعالى : ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطًا لتكونوا شهداء على الناس ﴾[٢٦]، وقوله ﷺ : (اللهم إنى أسألك الشوق إليك بغير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة)[٢٧].

٥ – وهناك مرض فوق هذا كله : وهو أن ينكشف له نور قوله تعالى : ﴿ وسخر لكم

---

(٢٢) سورة الإنسان آية ١ ، ٢ .

(٢٣) سورة طه آية ١٢١ .

(٢٤) سورة آل عمران آية ١٤ .

(٢٥) سورة النصر آية ١ .

(٢٦) سورة البقرة آية ١٤٣ .

(٢٧) النسائى والحاكم والسيوطى فى الجامع الصغير .

ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه﴾[28] فتسخر له الكائنات كلها طوعًا لأمره ومسارعة إلى هواه لأنه بجواذب العواطف الإلهية يتفضل الله عليه فيصير عند ربه ويمن عليه بأن يجعل له ما يشاء سر قوله تعالى: ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾[29]، فيلتفت لفتة تدعو إليها الرحمة التى جمله الله بها لعباد الله تعالى فيتجاوز حدها إلى حال الغيرة التى لا يكون إلا لله تعالى عند انتهاك حرماته تنفيذًا على تعدى حدوده بسيف أو بسوط الشريعة لا بنار الحال وشرار الابتهال فيسرع بعامل الغيرة للغضب وليس بيده سوط ولا سيف الشريعة فيكون نظر بعين التقييد فى الإطلاق، مع أن هذا الناظر بعين التقييد فى الإطلاق قد ينظر بعين الإطلاق فى التقييد فيما يلائمه فيكون انحط عن الرتبة العلية. وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى: ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[30].

ومن أمراض الدعاة إلى الحق:

١ - النظر إلى أهل المعصية بعين ملؤها المقت والغضب: وقد جعل الله لهذا المرض دواء قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولًا ممن دعا إلى الله وعمل صالحًا﴾[31]، وقوله تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾[32] وقوله تعالى: ﴿رحماء بينهم﴾[33].

٢ - الأنس بما يشاهدونه وإن خالف ما عليه الجماعة: وقد جعل الله تعالى لهذا الداء دواء وهو قوله تعالى: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾[34]، وقوله تعالى: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾[35].

٣ - استعجال النقمة لمن خالفهم والكرامة لمن وافقهم: جهلًا بسر القدر، فقد يتوب المخالف فيكون من أكمل أولياء الله، وقد يكون الموافق لهم عدواً لله وحفظنا الله

(٢٨) سورة الجاثية آية ١٣ .

(٢٩) سورة الزمر آية ٣٤ .

(٣٠) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

(٣١) سورة فصلت آية ٣٣ .

(٣٢) سورة النحل آية ١٢٥ .

(٣٣) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٣٤) سورة النور آية ٦٣ .

(٣٥) سورة الحجرات آية ٢ .

من المعاصى . وقد شفى الله هذا المرض بقوله : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم﴾(٣٦)، وقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرًا منهم﴾(٣٧) وكم سارع إلى الكفر رجال أظهروا الإيمان ولم يحصل لهم الأنس بالإيمان ولم ينالوا مآربهم فارتدوا على أعقابهم - قال تعالى : ﴿ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر﴾(٣٨). وسر القدر غيب على النفوس الزكية .

٤ - الغضب على من لم يقم بالواجب عليه لهم : وذلك مما يدسه عليهم عدوهم من أن المقصر فى حقهم مقصر فى حق رسول الله ﷺ ، والحقيقة غير ذلك فإن ذلك مرض خفى لأن المريد قد يقوم بالواجب عليه لله ولرسوله غير ملاحظ الواجب عليه للعالم لأنه إنما حجبه ليسارع إلى مرضاة الله ومرضاة رسوله باتباعه ، وشفاء تلك الأمراض قوله تعالى : ﴿والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾(٣٩).

٥ - الغرور بما يهب الله لهم من الفقه والفهم : حتى قد ينظروا إلى من سبقهم بعين المساواة ، أو يظنون فيهم التسامح والتساهل أو عدم الضبط ، وقد يرمونهم بما لا يليق أن يكون بين المؤمنين . ودواء المرض قوله تعالى : ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلًا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم﴾(٤٠). أقول قولى هذا وأعتقد أنه لا عصمة إلا لرسول الله ﷺ الذى عصمه الله بقوله تعالى : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾(٤١) وعصمه من الناس بقوله : ﴿والله يعصمك من الناس﴾(٤٢) . وأعتقد أن الحكمة الإلهية يهبها الله لمن يشاء وأن خبر من سلفنا قد يكون بعصمة من الله وإلهام منه وكمال إخلاص من العالم لله تعالى بالله ويكون فهمنا عن عجلة وحظ خفى علينا وشهوة دعا إليها أمل أو

---

(٣٦) سورة البقرة آية ٢١٦ .

(٣٧) سورة الحجرات آية ١١ .

(٣٨) سورة آل عمران ١٧٦ .

(٣٩) سورة الحشر آية ٩ .

(٤٠) سورة الحشر آية ١٠ .

(٤١) سورة النجم آية ٣ .

(٤٢) سورة المائدة آية ٦٧ .

طمع .. والله يغفر لمن يشاء وهو الغفور الرحيم .

٦ - ميل نفوسهم إلى مجالسة الأمراء وزيارتهم لدسيسة خفية عليهم : هى أن يكونوا أعوانًا للحق فيعظم الداء ، ومن جالس جانس ، وقد عد الله لهذا المرض أنفع الأدوية وهى قوله : ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار﴾(٤٣). وهذه إن لم تكن كل الأمراض فهى أصولها التى تتفرع منها كل الأمراض ، وقد يكون مرض واحد يتفرع منه عدة أمراض فيجهل الطبيب أصل المرض فيعالج الفروع ويترك الأصل فيزداد المرض ، ولو أن الطبيب اعتنى بالمرض الأصلى لزالت كل الأمراض الأخرى وشفاه الله .

٧ - ومن أمراضهم : أن الرجل منهم إذا أخطأ فى حكم وفشى بين الناس وعورض فيه كره أن يخضع للحق وقام مجادلًا بالباطل ينصر نفسه على الحق غير مبالٍ بسخط الله وغضبه إذا أقام الحجة على خصمه أنه محق ورضى الخلق عنه فيكون أبطل الحق وأحق الباطل خوفًا على نفسه من الفضيحة بين الناس ، ولو أنه عالم كما يدَّعى لأعلن خطأه وغلطه بين العالم ليرضى الله تعالى ورسوله ﷺ غير مبالٍ بالخلق ، فإن الإنسان محل النسيان . ومن كبرت نفسه أن يرجع للحق بعد الخطأ أقام الحجة أنه من أهل جهنم ، أعاذنا الله من سوء الأدب مع الله تعالى ومن تعظيم الخلق فى جانب الحق حتى يكره أن يُحتقر أمامهم فيتمادى على الباطل ، وقد داوى الله هذا المرض بقوله تعالى : ﴿الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدًا إلا الله﴾(٤٤) . ومعلوم أننا مكلفون باتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، وقال تعالى مداويًا هذا المرض العضال : ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى إلى الإسلام﴾(٤٥)، وقال تعالى فى أنفع دواء لهذا الداء : ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾(٤٦)، وقال الله تعالى مثنيًا على أهل مقام الخوف : ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾(٤٧)، فالعالم الذى يخطئ فى الحكم ثم يذكر بالحق فيأبى أن يخشع للحق خوفًا من أن يشاع عنه الخطأ بين الناس فيستحقر كان من الذين شنع الله عليهم بقوله تعالى : ﴿يستخفون من الناس ولا يستخفون

---

(٤٣) سورة هود آية ١١٣ .

(٤٤) سورة الأحزاب آية ٣٩ .

(٤٥) سورة الصف آية ٧ .

(٤٦) سورة المائدة آية ٩٥ .

(٤٧) سورة الرحمن آية ٤٦ .

من الله وهو معهم﴾[٤٨]. ومثل هذا عند العلماء بالله تعالى أدنى من الجهلاء لأن هذا من أكبر أمراض المنافقين. ولو أن مدعى العلم صدق الله تعالى فيما أخبرنا به من يوم القيامة ومن الوقوف بين يديه سبحانه وتعالى وأن الإنسان إما إلى جنة وإما إلى نار لذاب قلبه خشية من الله تعالى أن يرضى الناس ويغضبه وأن يخشى الناس ولا يخشاه، وأن يحب المنزلة عند الناس بسقوطه من عين الله تعالى .. أعوذ بالله من الذنوب التى توجب النقم، وأعوذ بالله من الذنوب التى تغير النعم، ومن الذنوب التى تهتك الحرم، ومن الذنوب التى تديل الأعداء، ومن الذنوب التى تحبس غيث السماء.

٨ - تأويل الأحكام بما يناسب هوى الخلق والعمل بالرخص لجلب الأموال وميل القلوب إليهم خصوصًا فيما يتعلق بالطلاق والميراث والمعاملات، فترى الرجل منهم يفتي بغير ما أنزل الله تعالى اجتراء على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ ليكسب مالًا أو شهرة أو منزلة في قلوب الأمراء. وقد ضُرب مالك بن أنس وأهين ليفتي أن طلاق المكره يقع عليه فأبى، وضرب أبو حنيفة رحمه الله تعالى لتولى القضاء فأبى، وكان الرجل يسأل أحد الصحابة عن المسألة المعلومة لأقل صحابى فيرده إلى غيره حتى يرجع إلى المسئول الأول لأنهم رضى الله عنهم يعلمون الناس بقول: لا أدرى حتى يُقتدى بهم من بعدهم، وكان إذا سئل أحدهم عن الفتيا يرد السائل إلى الأمير ليكون خاملًا بين الناس. وإنما يتعلم العلم ليعمل الإنسان به فى نفسه حتى يكمل نفسه بالعلم والعمل، وهذا المرض داواه الله تعالى بقوله: ﴿يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به﴾[٤٩]، وهؤلاء هم الذين يكذبون على الله تعالى وعلى رسوله متعمدين الكذب - قال ﷺ: (من كذب علىّ متعمدًا فليتبوء مقعده من النار)[٥٠]. ومن أفتى بحكم عالمًا أنه برأيه وحظه ليس له مأخذ من كتاب الله ولا من سنة رسول الله ﷺ ولا من سنة الهداة المهتدين فهو من المتعمدين الكذب على رسول الله ﷺ.

٩ - إهمال الغاية بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ وبأئمة الهدى وضياع الأنفاس النفيسة والأعمار الطويلة فى خدمة كتب أهل الجدل والمناظرة والفرق المختلفة من المتكلمين مما يثير ثائرة الأخلاق ويفسد العقائد ويمزق الجماعة ويكثر الخلاف بين

---

(٤٨) سورة النساء آية ١٠٨ .

(٤٩) سورة المائدة آية ١٣ .

(٥٠) البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجة والدارمى فى مسنده .

المسلمين، هذا الداء عضال جدًا لأنه أذهب نور الإيمان من القلوب ومحى لين الأعضاء لعبادة الله، فتراهم هم وتلاميذهم يمضون سواد الليل وبياض النهار فى فهم الأقيسة والنفى والإثبات والسلب والإيجاد، وجعلوا المواضيع التى يمرنون عليها نفوسهم صفات الله تعالى كما يتمرن المتعلمون بحفظ أراجيز الجاهلية وقصائدهم ليطبقوا عليها القواعد النحوية والصرفية تقوية لاستقامة ألسنتهم حتى صارت العقائد الدينية كالمسائل الحسابية والهندسية التى تعطى للتلاميذ ليشحذوا بها قواهم الفكرية ضبطًا للقواعد، أدى هذا المرض والعياذ بالله تعالى إلى سوء الأدب، فصار من السهل عندهم أن يوردوا الاعتراضات على الصفات الإلهية وعلى الكلام الإلهى وعلى عمل القدرة الإلهية، ولا يصدر هذا الاعتراض والانتقاد من قلب فيه خشية لله تعالى، وتراهم مع هذا كله يجعلون هذا الجهل علمًا وتلك البدع المضلة عملًا ويقررونه فى المجتمعات أمام النشء من طلبة العلم حتى يملأ قلوبهم استهانة بكلام الله وكلام رسول الله ﷺ وإنكارًا على آيات الله تعالى التى أجراها على أيدى رسله وأوليائه حتى بلغ منهم سوء الأدب أن أحدهم إذا قال له خصمه: قال الله أو قال رسول الله أو قال فلان الفلانى.. قال له تكلم معى بالعقل. ومن أراد أن يظهر التقوى خوفًا على نفسه من تشنيع العامة أوّل الآية أو الحديث إلى ما يلائم حظه وهواه غير هيّاب من الله تعالى ولا وجل من لقاء الله، وقد انتشر هذا المرض حتى عم أكثر طلبة العلم إلا من عصمهم الله، وقليل ما هم، وصارت تلك البدع المضلة هى السنة عندهم، وإن اختبار العلماء لرفعة شأنهم بين الأمة لا يكون إلا بإتقان تلك البدع حتى كأن السنن الماضية للإسلام والمآخذ الحقة لأحكامه نسخت بأفكارهم والله تعالى يقول: ﴿وخاتم النبيين﴾[٥١]، ومعنى ذلك أن شريعته لا تنسخ أبدًا، فمن ابتدع بدعة سيئة فى دين الله كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة. وقد داوى الله هذا المرض العضال بقوله تعالى: ﴿وقال الرسول يا رب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾[٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورًا﴾[٥٣].

---

(٥١) سورة الأحزاب آية ٤٠ .

(٥٢) سورة الفرقان آية ٣٠ .

(٥٣) سورة الإسراء آية ٤٥ ، ٤٦ .

كل مؤمن يعلم أن الرسول ﷺ معه ولو كان فى القرن العشرين أو أكثر، لأن المراد من الرسول الكتاب والسنة، ومن استظهر على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فتلك الآيات تجره بذيلها إليها، فإن من خالف رسول الله فى حياته المحمدية ومن خالفه بعد عشرين قرنًا سواء عند الله تعالى، وإنما هى نفوس شريرة أعدت للضلال والإضلال، أعاذنا الله من هذا الشر، وقد شنع الله بقوله: ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[٥٤]*.

ومن أمراضهم الأخرى :

الأولى بالمؤمن أن يجتهد فى عمارة قلبه باليقين الحق، ومجاهدة نفسه فى ذات الله مخلصًا فى عمله فانيًا عن إثبات عمله لنفسه كذا فانيًا عن العمل بعد إتقانه. هذا المرض جعل الله لنا منه وقاية وهى قوله تعالى: ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[٥٥]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾[٥٦]وقوله ﷺ: (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق)[٥٧]. لعل بعض من يجهل حكمة الأحكام يظن أنى أحب التساهل فى الأعمال البدنية، لا، ولكنى أحب أن تكون العناية العظمى بالقلوب، فإن الأعمال البدنية سهلة ميسرة ليس هناك ما يعارض فيها أو يعرض عنها، بخلاف أعمال القلوب فإن القلوب ميدان الجيش الحق والباطل وليس القلب تحت سلطان الإنسان ولكن الجوارح تحت سلطانه بكل ما فى وسعه خوفًا من أن يتسلط عليه العدو من الحظ والشهوة والطمع والأمل والشيطان الرجيم فيفسده على العامل، وهؤلاء العلماء إما أن يكونوا جهلوا حكمة الأحكام أو عملوا بغير العلم.

ولا يخفاك فى ذلك من النقص، فإن كانوا جهلوا الحكمة فالواجب أن يسارعوا إلى البحث عن العارفين بالله فيتلقون علوم اليقين وطرق تزكية النفوس وعلاجها من أمراضها الأخلاقية، ومتى أسعدهم الله بعارف بالله وسلموا له أنفسهم عمّر قلوبهم باليقين وأشهدهم آيات الله الظاهرة فى الآفاق وفى أنفسهم، فاشتغلوا بالله تعالى مقبلين عليه

---

(٥٤) سورة المنافقون آية ٤، * مجلة المدينة المنورة: السنة ٩ العدد ٤١ - ٤٣ (٩، ١٦، ٢٣ ربيع الآخر ١٣٥٦ هـ الموافق ١٤، ٢٥ يوليو، ٢ يوليو ١٩٣٧).

(٥٥) سورة الناس آية ١.

(٥٦) سورة الحج آية ٧٨.

(٥٧) البزار والبيهقى فى شعب الإيمان.

بالكلية متشبهين برسول الله ﷺ ، فداه روحى وأبى وأمى .

ولعل من ألمّ به هذا المرض يعتقد أنه أكمل النساك لاعتماده على التشديد على نفسه ، والحقيقة أنه ظلم نفسه وتعنّى في العبادة ، والعبادة ليست تعنيًا ولا تمنيًا وإنما هى قيام لله بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه بقدر استطاعة العامل ابتغاء مرضاة الله مع رعاية مشاهد التوحيد فى أن الموفق المعين الهادى هو الله ، وعلاج هذا المرض الأدب مع رسول الله ﷺ وترك الاستظهار عليه ﷺ حتى لا يعمل إلا بعد أن يتبين له أنه على ما يحبه الله ورسوله ، فإن المراد القبول من الله ، ولا يتحقق إلا باتباع رسول الله ﷺ ، ومن أقبل على الله تعالى مستظهرًا على رسول الله ﷺ متعنيًا كأنه هو والمتساهل المتمنى سواء ، وكيف يقبل العبد المؤمن على الله تعالى بمخالفة رسوله ﷺ بالقول أو بالعمل ، وما جاءنا به رسول الله ﷺ إنما جاءنا به من عند الله تعالى ، وقد فرض الله تعالى علينا طاعته ﷺ وجعل التولى عن طاعته ﷺ كفرًا - قال الله تعالى : ﴿ قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين ﴾(٥٨) . فإذا كانت طاعة رسول الله ﷺ هى طاعة الله تعالى فمخالفته ﷺ هى مخالفة الله تعالى ، وهذا العامل لو أشرقت عليه أنوار حكمة الأحكام لذاق حلاوة الإيمان ولذة التقوى ولكنه وقف عند نفسه فأفسد عليه الشيطان عمله ، والأولى له أن يتوب إلى الله تعالى من مخالفة رسول الله ﷺ بما ابتدعه فى العبادة ، وإنما نعبد الله تعالى بما أمرنا به وبينه رسول الله ﷺ بالقول والعمل والحال حتى نفوز بمحبة الله لنا لقوله تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ﴾(٥٩)، وكيف يقبل الله عملًا يخالف العامل فيه رسول الله ﷺ وقد كره ﷺ لأصحابه التعنى فيما هو خير من مواصلة الصيام ومواصلة قيام الليل والزهد فى بعض المباح ، كما كره للإمام الجليل سيدنا عبد الله بن عمر بقوله له : (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى) . وكما كره لغيره من المستظهرين عليه ممن عزموا أن يتركوا الكلام مع الناس فمر رسول الله ﷺ فحياهم فلم يردوا عليه فقال ﷺ : (من رغب عن سنتى فليس منى)(٦٠) أما معاملات القلوب والأحوال التى تنتج عنها فإن كان يحبه ﷺ وكان أصحابه رضى الله عنهم ونفعنا الله بهم على أكمل الأحوال النبوية وأجمل المعاملات فكان الرجل منهم يبذل ماله لأخيه ويبذل دمه ويؤثر على نفسه مع الخصاصة وينافس فيما يرضى الله تعالى ورسوله ﷺ مما عجز العقل عن تصويره وتقف الأفكار أن تحوم

---

(٥٨) سورة آل عمران آية ٣٢ .

(٥٩) سورة آل عمران آية ٣١ .

(٦٠) البخارى ومسلم ومالك فى الموطأ .

حواليه لأنه فوق الطاقة البشرية وبه أثنى الله تعالى عليهم وبه نشر الدين فى أنحاء الأرض ، وبتلك الأحوال بعينها صارت كلمة الله تعالى هى العليا وجاء الحق وزهق الباطل ، ولكن هذا العامل يشدد على نفسه فى الطهارة جسمًا وبدنًا ومحلًا ويترك قلبه ميدانًا للوساوس والمفاسد ، ولو اعتنى بقلبه لشهد جمال ربه .

* ومن أمراضهم الدعوة إلى الحق بالفظاظة والغلظة والجفوة ، مع أن الدعوة إلى الله يجب أن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة مع رعاية قوله تعالى : ﴿رحماء بينهم﴾[61] حتى يقهر المؤمن الشيطان فينجيه الله منه . وقد قص الله علينا أخبار الرسل صلوات الله على نبينا وعليهم فى الكتاب العزيز لتستبين لنا أحوالهم من الصبر والرضا والعفو والرأفة والرحمة والحب فى الله والبغض فى الله وتحمل الأذى فى الله ومعاداة الوالدين والأولاد فى الله تعالى ، والتبرئة من الخليل و الرفيق والصاحب والصاحبة والولد لله تعالى حتى يكون البعيد البغيض أحب إليهم من الوالدين والأقربين إذا آمن بالله ورسوله ، ويكون الشقيق الرفيق أبغض إليهم من النار إذا كفر بالله تعالى أو عصاه سبحانه وتعالى ، شرح الله لنا ما كان عليه رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وكرر أخبارهم وقصصهم فى القرآن لتستبين المحجة وتتضح الحجة فتكون الحجة البالغة لله ، ولم يكن تكرار أخبار رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم عبثًا ، فإن كل قصة كررت مزيد بيان لحال أو مقام أو خلق جميل أو صبر من الله تعالى أو شكر منه جل جلاله أو كشف خفى لطفه بعباده ، كيف صبر الله تعالى على من خالفوا رسله وأمدهم بالمال والبنين حتى طغوا وضلوا وأضلوا ، ومن لم يتلق بالأسرار الحكمة من العقيدة والأخلاق والمعاملة والأحوال والمقامات من أخبار رسل الله تعالى غوى .. أسأل الله تعالى أن يحصنى وإخوانى جميعًا بحفظه من مخالفة رسوله ﷺ من البدع المضلة والأهواء المضرة إنه مجيب الدعاء .

* ومن أمراضهم النظر إلى أنفسهم بأنهم لا يخطئون ، ودليل ذلك أن الرجل منهم إذا قيل له أخطأت فى رأى أو قول أو عمل ، كبرت عليه نفسه أن يُرى مخطئًا فيثور ثورة الليث مشنعًا على من نبهه لخطئه متعصبًا لنفسه مفارقًا للحق ، ويبلغ به العنا وأن يكتب فيه الرسائل ويشيع القبيح فيمن نبهه للحق ، أنا لا أنزه العلماء من الحدة والانفعال النفسانى عند الصولة لله ، ولكن هذه الصولة تكون من العالم غيرة لله على من تعدوا حدوده أو خالفوا صريح البيان أو الإجماع ، ولا تلبث تلك الصولة إلا ريثما يظهر للعالم الحق إما برجوع المخالف وتوبته ، وإما ببيان الحجة أنه على الحق فيرجع إلى الله

(٦١) سورة الفتح آية ٢٩ .

إما مستغفرًا لذنبه وإما شاكرًا له على حسن عنايته بأخيه المؤمن ومثنيًا على أخيه المؤمن التى من أعظمها الرجوع إلى الحق . أما الصولة على من لاحظ عليك وأنكر عليك والثناء على من تملق لك ووالاك فهما الأمران المنكران وذلك أن إبليس لعنة الله عليه علم أن الباب الذى يدخل منه على قلوب العلماء هو باب الحسد ، فإنه لعنة الله عليه يدخل على النساء من طريق الكيد ، وعلى التجار من طريق الخيانة ، وعلى قلوب الحكام من طريق الظلم ، وعلى قلوب الشبان من طريق النساء ، حفظنا الله من مكره وكيده إنه مجيب الدعاء .

وشفاء هذا المرض أن يعتقد فى نفسه أن العصمة لرسول الله ، فلا عصمة لأحد بعد رسول الله ﷺ ، ومن أنزل نفسه منزلة الرسل – صلاة الله وسلامه عليهم – فاعتقد أنه لا يخطئ فقد أقام الحجة على أنه مخطئ وظالم لنفسه ، وإنما هو رأى يراه الإنسان فإن كان حقًا فمن الله بحسن توفيقه وعنايته وإن كان باطلًا فمن الإنسان العجول قال تعالى : ﴿ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزمًا﴾[٦٢] وقال تعالى : ﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾[٦٣]، وقال تعالى : ﴿وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين﴾[٦٤]. وكل مؤمن بالله تعالى وبرسوله ﷺ ضالته المنشودة الذكرى ، فإن المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن لا يرى عينيه اللتين يكشف بهما الأشياء إلا بمرآة ، فكيف لا يقبل من أخيه المؤمن ما بيّنه له من عيوب نفسه التى لا يراها بنفسه اللهم إلا إذا تمكن الشيطان من قلبه فأنساه ذكر ربه . هذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – رضى الله عنه وفداه أبى وأمى – أمر الكاتب أن يكتب لرجل من الولاة فى شأن من الشئون بينه له فكتب الكاتب ، هذا ما أراه الله أمير المؤمنين ، فلما أسمعه الكتاب غضب غضبًا شديدًا وقال : من أعلمك أن هذا رأى أرنيه الله تعالى ؟ هذا رأى عمر إن كان حقًا فمن الله تعالى وإن كان باطلًا فمنى بعجلتى وأسأل الله أن يغفر لى ، وهو من أمرنا ﷺ أن نقتدى به رضى الله عنه بقوله : « اقتدوا بالذين من بعدى أبى بكر وعمر »[٦٥]، وبشر ﷺ بأن عمر رضى الله عنه من المحدثين بقوله ﷺ : « إن كان منكم محدَّثون فعمر »[٦٦] وسماه ﷺ (الفاروق) . ومع تلك المقامات العلية تراه كما أخبرك

---

(٦٢) سورة طه آية ١١٥ .

(٦٣) سورة الأعراف آية ٢٠١ .

(٦٤) سورة الذاريات آية ٥٥ .

(٦٥) أحمد وابن ماجة والحاكم والطبرانى .

(٦٦) البخارى ومسلم وأحمد والنسائى والترمذى .

أدبًا مع الله ورسوله ومجاهدة لنفسه ، فكيف يدعى غيره العصمة لنفسه ويغضب إذا نُبِّهَ للخير ويرى أنه أكبر من الحق .

الشفاء من هذا المرض : ذق حلاوة قوله تعالى : ﴿إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم فى شئ﴾(٦٧) وقوله سبحانه : ﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه﴾(٦٨) وقوله سبحانه : ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون﴾(٦٩) وقوله سبحانه : ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق﴾(٧٠) وقوله ﷺ : «المؤمن يكفيه قليل الحكمة»(٧١) . إذا ذاق المؤمن حلاوة تلك الآيات والأحاديث الشريفة علم حق العلم أنه ذو قلب يتقلب وذو جوارح مجترحة وذو نفس تنزع إلى مقتضيات فطرها ولوازم طبعها وأنها فى حاجة إلى التزكية والتهذيب وأنها لا تصلح إلا بالتزكية كما قال سبحانه : ﴿قد أفلح من زكاها﴾(٧٢) . وبعد أن يجاهد نفسه حق الجهاد ، ولتزكيتها يجب أن يجاهدها مجاهدة أخرى ليفنى عن شهود تزكيته إياها حتى يتحقق بمشهد التوحيد بقوله تعالى : ﴿ولكن الله يزكى من يشاء﴾(٧٣) . وعالم يجهل تربية نفسه منفردًا ، والمسارعة إلى علاجها عندما يلم بها نقص فى العقيدة ، أو عيب فى الأخلاق ، أو نزوع إلى حظ أو ميل إلى معصية ، فيسارع إلى معالجتها بما بينه الله ورسوله ﷺ ، وبما أخذ به أهل المعرفة بالله أنفسهم من فادح الرياضات وشديد المجاهدات حتى تلين للحق وتنقاد مسالمة فليس بعالم ، لأن العلماء كما قال ﷺ : «سرج الدنيا ومصابيح الآخرة»(٧٤) والسراج يضىء نفسه وما حوله - فكيف يكون السراج مظلمًا ويشهد غيره منه نورًا ؟! فإن كان العالم مفسود الأخلاق كيف ينفع غيره بعلمه وعمله وخلقه ؟ والعالم مسئول عن العمل بعلمه . وقد ورد : (أعوذ بالله من قلب

---

(٦٧) سورة الأنعام آية ١٥٩ .

(٦٨) سورة الجاثية آية ٢٣ .

(٦٩) سورة الأنفال آية ٢ .

(٧٠) سورة المائدة آية ٨٣ .

(٧١) الترمذى فى كتاب العلم وابن ماجة فى الزهد بلفظ : [الحكمة ضالة المؤمن يلتقطها حيث وجدها] .

(٧٢) سورة الشمس آية ٩ .

(٧٣) سورة النور آية ٢١ .

(٧٤) كشف الخفاء للعجلونى حديث ١٧٥١ بلفظ : [العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتى وورثة الأنبياء] ورواه ابن عدى عن الإمام علىّ وهو حديث صحيح كما قال المناوى ، وهو موجود فى جامع الأحاديث للسيوطى بنفس نص كشف الخفاء .

لا يخشع ومن علم لا ينفع ومن عمل لا يرفع) . وأدعياء العلم الذين هم أضر على المسلمين من أعدائهم لأنهم ينظرون إلى الخلق بعيون الانتقاد فيحتقرون عباد الله تعالى ، وينظرون إلى أنفسهم بعين الإعظام والإجلال فيغفلون عن نقائصهم وعيوبهم وأمراضهم ، فترى الرجل منهم يبذل ما فى وسعه للتقرب من الأمير أو من المتكبرين فى الأرض بغير الحق لينال دنيا أو جاهًا ويتقرب إلى الأمير بما أحب مما حل أو حرم ، وإذا رأى مسلمًا سها عن مندوب قام فشنع عليه وسبه ، وينسى عظائم الأنام من نفسه حتى كأنه عميت عينه عن تطهير نفسه أو كأنه لم يطالب بآداب الشريعة [٧٥] .

---

(٧٥) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ٢ ، ٣ (٢٠ ، ٢٧ جماد الآخر ١٣٥٦ هـ الموافق ٢٧ أغسطس ، ٣ سبتمبر ١٩٣٧ م) .

جهاد الإمام ضد حملات التبشير والتنصير

قام الاستعمار بتدريب دعاة التبشير والاستشراق ووجههم نحو العالم الإسلامى وقسمهم إلى مجموعتين:

أولا: مجموعة المباحث الفكرية:

وتعتبر من أقوى وسائل الاستشراق. ونظرًا لأهميتها، فقد اعتمد عليها المستشرقون. ولها أوجه متعددة:

١ - الأبحاث التى تشوه حقيقة الإسلام فى صورة تأليف كتب أو إلقاء محاضرات ودروس.

٢ - تحريفهم معانى ألفاظ القرآن لإنكار المقومات التاريخية والثقافية والروحية لماضى الأمة الإسلامية والازدراء بهذه الشعوب فى المجالات الدولية العالمية.

٣ - التعليم الإرسالى، لبيان أن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة، واستبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية، والإعلام عن طريق الصحافة ودور النشر لمقاومة الأزهر الشريف وإضعاف تأثيره، وإذاعة الدعوات المشبوهة كالتسامح، والدعوة إلى الحوار والجدل.

٤ - إحياء القوميات التى أزالها الإسلام، كالفرعونية فى مصر، والأشورية فى العراق، والبربرية فى شمال أفريقيا والأندلس، والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان، والفارسية فى إيران.. وذلك لتخريب العالم الإسلامى وتقطيع أوصاله بغية تمزيق الوحدة الإسلامية التى كان من آثارها إلغاء الخلافة الإسلامية فى الدولة العثمانية وإثارة الفتن الداخلية فى الأمة العربية.

ثانيًا: مجموعة العمل الخيرى:

وهى من أخطر وسائل التبشير. ونظرًا لأهميتها وخطورتها فقد اعتمد عليها المبشرون فى أساليبهم التى منها:

(١) العلاج الطبى فى المستوصفات والمستشفيات، فالطبيب فى هذه الإرساليات هو مبشر أولًا ثم طبيب ثانيًا.

(٢) الملاجىء التى تضم الأطفال، والجمعيات والنوادى والمعونات لاستغلال حالات

الفقر والحاجة .

وقد حاول التبشير والاستشراق أن يحقق أهدافه بكل هذه الوسائل ، وسلكوا كل مسلك ظنوه محققًا لأهدافهم ، غير أن علماء المسلمين كانوا يعتبرون وسائل المستشرقين هذه فقاقيع لا تلبث أن تتلاشى أو كلامًا فارغًا تصده العقيدة الإسلامية الموروثة وحدها .

ولكن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبا العزائم لا يهون من شأن وسائل المستشرقين ، فلا يقول كما قال علماء المسلمين : (إن كتب المستشرقين كلام فارغ) ، ولم يُلق هذه الكتب بعيدًا مرددًا ما قاله هؤلاء العلماء : (إن ما بها كذب وتضليل وحقد عميق) ، بل شمَّر عن ساعده وكتب مجادلًا هؤلاء المستشرقين بالتى هى أحسن ، ودفع المطاعن التى وجهت للإسلام والمسلمين ، من واقع مسئوليته كإمام مجدد لهذا القرن الذى نعيش فيه .

ويعتمد ما أثاره المستشرقون فى كتبهم قديمًا وحديثًا على مصدرين أساسيين يردد فحواهما كل جيل من هؤلاء المستشرقين :

المصدر الأول : كتاب « ميزان الحق » للمستشرق د . فندر .

المصدر الثانى : كتاب « تذييل مقال فى الإسلام » للمستشرق هاشما العربى .

وقد تعرض للرد على كتاب « ميزان الحق » المرحوم الشيخ رحمة الله الهندى فى كتابه « إظهار الحق » ولكن المستشرق د . تسدل حاول جاهدًا أن يرد على الشيخ رحمة الله الهندى .

فمن أجل ذلك كله ، رأى الإمام المجدد أن يتضمن كتابه (وسائل إظهار الحق) الرد على المستشرق د . فندر والمستشرق هاشما العربى والمستشرق د . تسدل . والقارىء لهذا الكتاب يعجب كل العجب من آراء هؤلاء المستشرقين الذين تدفعهم دراساتهم التى تمليها عليهم العصبية الحمقاء ومظاهر الحياة الدنيا ومتاعها ، أن يحاولوا الكتابة بالباطل وهم يعلمون أنها باطل . كما سيجد القارىء لهذا الكتاب البراهين القاطعة التى تمليها قوانين العقل والمنطق ، والتى تناولها الإمام رضوان الله عليه ليبين الصحيح من الفاسد . ولعل هذا هو الكتاب الوحيد الذى قام بالرد على دعاة التبشير والاستشراق فى ذلك الوقت ، والذى كان الاستعمار للشعوب الإسلامية هو البوابة التى دخل منها التبشير بحرية كاملة داخل هذه البلاد ، ولذلك كان هذا الكتاب عرضة لأن يمنع تداوله من السلطات البريطانية فى مصر أكثر من مرة .

وقد أخذت أساليب التنصير والتبشير أسلوبًا إضافيًا حديثًا له تأثير عميق وسريع

الانتشار وهو إقامة محطات تغطى جميع أنحاء العالم سواء للبث المسموع أو المسموع والمرئى متخصصة فى التبشير للدين المسيحى ومحاولات التنصير وهى تعتمد على نوعين من الدعوة :

١ - تقوية وتعميق المستوى الدينى عند المستمعين والمشاهدين المسيحيين .

٢ - توجيه هذه البرامج المسموعة والمرئية إلى كل بلاد المسلمين فى العالم فى محاولات للتبشير والتنصير .

٣ - تصدير كم هائل من المعلومات والمقالات وكل ما يعتقدون أن له تأثير فى هدم الدين الإسلامى على شبكات الإنترنت Inter net المتاحة لكل من يمتلك جهاز الكمبيوتر وطبعها على الورق وتوزيعها على ضعاف النفوس ، حيث أن حرية بث المعلومات على هذه الشبكة مكفولة للجميع .

من مواقف الإمام للرد على النصارى والمستشرقين :

(١) أخبر الإمام أبو العزائم فى كتاب «أسرار القرآن» : سألنى رجل من كبار علماء النصارى أمريكى الأصل وأنا بالخرطوم فقال : إنكم تتهمون ربنا بالظلم فى العقاب يوم القيامة ، يعيش الرجل منكم سبعين سنة فيعصى الله ويتوب فيدخله الجنة أبديًا ، وكان العدل أن يدخله الجنة سبعين سنة ، ويعيش الرجل النصرانى أو اليهودى أو المجوسى سبعين سنة فيدخله النار أبديًا ، وكان العدل أن يقيم فى النار سبعين سنة مدة كفره بالله ومعصيته .

وكنتُ فى مجتمع من أهل السودان والهند واليمن ، فخشيتُ أن تقوى هذه الشبهة فى نفوسهم فقلتُ : يا أخى ، إن الخلاق العظيم خلق حقائق الأناسى من جواهر معلومة لديه ، فمنها جواهر نورانية ، وجواهر نورانية وظلمانية ، ثم جواهر ظلمانية من أسفل سافلين . ولو أنه ترك مَنْ نفوسُهم من النور مخلدين فى الدنيا لداموا على عبادته وطاعته أبدًا ، ولو ترك النفوس المخلوقة من سجين لداموا على كفره وعصيانه أبدًا ، فهو ينظر إلى ما قدَّرَه على تلك النفوس أزلًا ويعاملهم بما يعلم فيهم .

وقد سألنى سؤالًا آخر فقال : إن القسس والرهبان والأحبار يمضون عشرات السنين فى عبادة وتسبيح وترتيل وأنتم تقولون إنهم مخلدون فى جهنم ، وأنتم المسلمون أكثركم عصاة تخالفون الله وتعصون أحكامه وتدخلون الجنة .

فأجبته على الفور بعد أن ظهر لى أنه مبشر يريد إحداث الفتنة فى الدين : إنَّا كما

تقول ، جوارحنا تعصى الله ، فإذا تكاثفت الظلمات عليها ، ظهر نور توحيد الله وتفريده بالألوهية الذى انعقدت عليه قلوبنا فطهَّر تلك الجوارح . وأنتم تعبدون الله ليلًا ونهارًا ، فإذا أنزلت أنوار الرحمة عليكم من السماء ظهرت ظلمات الشرك واعتقاد أن لله ولدًا فمحت تلك الأنوار ، فكبَّر المسلمون ، وما كنتُ مستعدًا أن أجيبه على هذه الأسئلة .

وسألنى أحد المستشرقين كيف يعذَّب إبليس بالنار وقد خلق منها ؟ وكيف يكون بالقبر رجلان أحدهما يعذَّب والآخر فى نعيم ولا يشعر أحدهما بالآخر ؟

فأخذت حفنة تراب وقذفتها فى عينه فصرخ ، ثم احتضنته .. وقلت له : إن الذى عذبك بالتراب وقد خلقك منه قادر أن يعذب إبليس بالنار وقد خلق منها ، وها أنا احتضنك وأنت تعذب وأنا فى نعيم ولا أشعر بعذابك ولا تشعر بنعيمى .

(٢) كان ثلاثة من المستشرقين البلجيك يبحثون فى شىء يطعنون به الإسلام . وأثناء بحثهم فى الحديث النبوى الشريف وجدوا بغيتهم فى قول النبى ﷺ : « علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل »[(١)] ، وتوصلوا إلى أن أنبياء بنى إسرائيل كانت لهم تنبؤات بالغيب ، فإذا كان علماء الأمة المحمدية كأنبياء بنى إسرائيل فليأتونا بعالم ينبئنا عن الغيب . نزلوا إلى مصر ودارت المناظرات ولم يصلوا إلى حل ، وأسلوب التعجيز هذا هو ما يريدون الوصول إليه . وكان قد مر عليهم فى نهاية الوقت مدرس بالأزهر اسمه الشيخ محمد المدنى ، وأخبرهم أن العلماء الذين ناظرهم لا يتكلمون إلا فى حدود اختصاصاتهم فى الفقه والفتوى وما إلى ذلك ، ولكن هناك علماء ليس علمهم قاصرًا على علم الدراسة وإنما منحهم الله بعد علم الدراسة علم الفراسة ، وهم العلماء الربانيون الذين قال فيهم الحق سبحانه وتعالى : ﴿ كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾[(٢)] وقال فيهم رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[(٣)] ، ومن هؤلاء العلماء الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم .

ولما اصطحب الشيخ محمد المدنى هؤلاء المستشرقين إلى منزل الإمام وجده فى زيارة لخشبه باشا فى أسيوط ، فاصطحبهم إليها . ولما دخلوا على الإمام خلعوا قبعاتهم تحية للإمام ، فما كان منه رضى الله عنه إلا أن ضرب كل واحد على خده ، فتعجب الشيخ

(١) سبق تخريجه ص ٢٩٧ .

(٢) سورة آل عمران آية ٧٩ .

(٣) البخارى فى التاريخ والترمذى فى التفسير .

محمد المدنى من أن يكون رد تحيتهم له قلم على الخد، هذا مع ثقته البالغة بفعل الإمام.

ثم أخبرهم الإمام عما أسروه فى صدورهم ولم يُطلعوا عليه أحدًا فقال: لقد اجتمعتم فى بلجيكا وأردتم أن تطعنوا الإسلام، فبحثتم عن آية فى كتاب الله فلم تجدوا، فبحثتم فى الحديث فوقع نظركم على حديث (علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل)، ونزلتم إلى الجامع الأزهر وأردتم أن تقيموا علينا حجة، وناظرتم العلماء، ولكن قومًا اختبرناهم فى دينهم فسقطوا (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر) لا ينبغى أن يختبرونا فى ديننا. وهنا علم المستشرقون أن هناك من الأمة المحمدية من كاشفهم الله بالغيب، فقاموا واغتسلوا وتابوا وبايعوا الإمام على الإسلام.

(٣) سأل أحد المستشرقين الإمام رضوان الله عليه فقال: الحى أفضل أم الميت ؟! فأجابه الإمام بسؤال: مريم أفضل أم إبليس؟؟ فبُهت هذا المستشرق الخبيث وانصرف فورًا. وتعجب تلاميذ الإمام لما حدث فقال لهم: إن السائل كان يود أن أجيبه بأن الحى أفضل من الميت، فيصل إلى أن عيسى وهو فى نظرنا حى.. أفضل من سيدنا محمد، فأجبته بأن إبليس حى ومريم قد ماتت.

(٤) ولما تكلم الإمام وأملى كثيرًا عما يزعمون أنه نظرية «النشوء والارتقاء» وفند أيضًا مزاعم «دارون» فى أن الإنسان أصله خلية تطورت حتى وصلت إلى قرد ثم تطور القرد إلى إنسان، جاء إلى الإمام وفد من أوربا، إلا أن الإمام كلف أحد تلاميذه فى مناقشة الوفد وهو مُطرق يستمع ولا يتكلم. ولما وصل الحديث بين الطرفين إلى طريق مسدود، رفع الإمام رأسه وقال لكبير الوفد: أريد أن أسألك سؤالاً: هل الفرع أحسن أم الأصل؟. وقع هذا السؤال عليهم وقع الصاعقة، وأخبر من شاهد هذه الواقعة (٤) أن وجوههم قد تغير لونها وغادروا المكان فجأة عندما سمعوا هذا السؤال.

وقد شرح الإمام بالتفصيل أصل الإنسان كما جاء فى القرآن الكريم بأسلوب واضح ودقيق مع الإشارة إلى الأدلة النقلية والعقلية، وأجلى الرد بالأدلة العلمية القاطعة التى قوضت دعائم نظرية دارون فى النشوء والارتقاء فى كتابه: «إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين».

(٥) يرد الإمام على شبهات منكرى البعث ويفند مزاعم أعداء الدين، ولا يتكلم عن منكرى البعث إذ أنهم ليسوا أهلاً لأن يخاطبهم ولكنه يقول:

---

(٤) روى هذه القصة السيدة فاطمة عبد الباسط القاضى حيث شهدت هذه القصة عندما كانت تخدم الإمام فى ذلك الوقت.

« ولكن نخاطب من أثبت بعث الأرواح دون الأجساد ، ونعلم أن الذى حدا بهم إلى هذا الحكم وقوفهم عند الحواس ، ولأنهم يقولون إذا أكل إنسان إنسانًا بحيث صار المأكول جزءًا من الآكل فإذا أعاد الله تعالى هذين الإنسانين بعينهما فتلك الأجزاء التى كانت للمأكول ثم صارت للآكل إما أن تعاد فى كل واحد منهما وهو محال لاستحالة أن يكون جزء واحد بعينه فى آن فى شخصين متباينين ، أو يعاد فى أحدهما وحده فلا يكون الآخر معادًا بعينه والمقرر خلافه وهذا فى مذهب الفلاسفة .

وقد تسرب هذا المذهب إلى بعض من لم تزك نفوسهم تزكية تجعل النفس تسوح سياحة ملكوتية فتقتبس من مجانسة عالم الطهر أسرار الجنة وما فيها من نعيم الجسم ومسراته ، وبهجة النفوس وملاذها وما فى النار من عذاب يذيب الأشباح وحجاب يحزن الأرواح ، حتى ترجع إلى هذا الجسم فتمثل له ما هناك تمثيلًا يجعله يطيعها فيما تطلبه منه .

والحقيقة أن الجسم يعاد كما كان فى تلك الدار الدنيا ، وإلى العقل بيان كل نوع من الأنواع تتسلط عليه المؤثرات الكونية كالذهب بالنسبة للمعادن فإن النار وغيرها من المؤثرات لا تنقصه شيئًا ولا تغيره عن كماله الذى بلغه ، فلو ألقى فى الأرض السبخة أعوامًا ما تغير ، بخلاف بقية المعادن فإنها تتنوع إلى غيرها فتكون ترابًا أو ينقلب النحاس إلى توتيا خضراء ، فكذلك الإنسان هو أكمل الأنواع الموجودة ولكماله النوعى لا تؤثر عليه المؤثرات الكونية ، فلا يتغذى النبات بشىء من حقائقه الأصلية ولا تهضمه تلك الحقائق فى معدة حيوان ، فلو اندثرت المقابر وصارت أرضها مزرعة تتغذى النباتات بالفضلات الزائدة على الحقائق ، وتحفظ أجزاء الحقائق فى الأرض كما تحفظ أجزاء الذهب .

وإذا أكل الإنسان أو الحيوان إنسانًا فإن الذى يتغذى به هو المواد الغريبة والفضلات الزائدة على الحقائق ، وتلك المواد الغريبة والفضلات الزائدة ليست هى الإنسان ، وإنما هى لتعويض ما فقد منها بالعمل حفظًا للحقيقة الإنسانية .

إذن فكل الحقائق التى هى العظام والأوردة والشرايين والأعضاء الرئيسية كالقلب والرئتين والكبد والطحال والكليتين والمعدة والمعى وحقيقة العينين والأذنين واللسان وغيرهما مما يكون به الهيكل الإنسانى هيكلًا مجردًا عن الحياة لاسلطان عليه للأرض ولا لما عليها .

إذا تقرر ذلك فالجسم يعاد يوم القيامة كما كان فى الدنيا مع روحه ، والقول بأن

الروح هى التى تعاد باطل ، وإن فهم ذلك بعض من لم يعقل عن الله ولا عن رسوله من النصارى الذين يظنون أن سيدنا عيسى يقول بإعادة الأراوح ، فإن هؤلاء القوم ما فهموا شيئًا من كلام سيدنا عيسى عليه السلام ، ومن أنكر البعث وهو أمر معلوم من الدين بالضرورة ارتد عن الإسلام ومن أنكر بعث الأشباح جهل صريح الدين .

(٦) شبهة أفضلية الغرب على الشرق : وقد ردد المستشرقون – وتابعهم فيها المستغربون – أكذوبة حيث قالوا : إن الغرب أفضل من الشرق وأنه مهد الحضارة والتقدم ، وأن الشرق مهبط الظلم والجهالة والتخلف .. لكن الإمام المجدد رد عليهم مدافعًا عن الشرق بمقولته الحاسمة والخالدة التى قال فيها : (كفى الشرق فخرًا أنه أولد مولودًا صار للغرب معبودًا) .. فأوربا التي تستعلى على الشرق تعبد المسيح الذى هو ابن الشرق !! ثم يزيد الإمام المجدد الأمر بيانًا فى كتابه « وسائل نيل المجد الإسلامى » قائلًا : (إن الغرب عبارة عن أوربا وأمريكا وهما القارتان اللتان لم ينظر الله إليهما نظرة إحسان وحب فيبعث فيهما رسولًا أو يجعل لهما نورًا فى قلوبهم تتضح به أنوار التوحيد) .

ويتساءل الإمام فى عجب ؟!!

يتساءل الإمام رضوان الله عليه فى كتاب (وسائل إظهار الحق) فيقول :

* ما الذى يرمون به الإسلام ؟ ءأوردوا برهانًا على فساد عقيدته ؟ لا والله ، وإنهم ليعتقدون أنها العقيدة الحقة مع أنهم أعداء .
* أم ظهر لهم فساد فى أحكامه ؟ لا والله ، وإنهم ليعملون بأحكامه ويسيرون على سيرة الأئمة الفاتحين من المسلمين .
* أو أقاموا الدليل على أن الإسلام لم يأت بالأخلاق الفاضلة ؟ لا ، ولم يعتنق الدين الإسلامى جميع من اعتنقه إلا حبًا فى فضائل الأخلاق التى يأمر بها وتصديقًا للعقيدة الحقة التى يدين بها .

فما الذى ينكرونه عليه إذا كانوا لم ينكروا على عقيدة الإسلام ؟ وكل عقيدة غير عقيدة الإسلام منكرة عقلًا وحسًا لا يقبلها عقل عاقل ولو كان طفلًا .

١ – ينكرون على الإسلام أن أصله تنزيه الخالق المبدع عن الحلول والولد والوالد وعلوه سبحانه عن الاحتياج إلى المكان .

٢ - ينكرون عليه أن خالق الكائنات قادر لا يعجزه شئ .
٣ - ينكرون على الإسلام أنه ينزه الجناب الإلهى عن أن يقدس عبدًا من عباده يجعله يحل ويحرم .
٤ - ينكرون على الإسلام أنه جاء بالعدل الصحيح والمساواة الكاملة .
٥ - ينكرون على الدين الإسلامى أنه لم يأت بالرهبانية وترك العمل للدنيا مرة واحدة .
٦ - ينكرون على الإسلام أنه وضع الحدود لمرتكبى الجرائم والمعاصى ولم يجعل أحدًا يغفر الذنوب إلا الله تعالى .
٧ - ينكرون على الإسلام أمره بالرحمة وحسن الظن حتى بغير المسلمين والتجمل بالفضائل حتى مع غير المسلمين .
٨ - ينكرون على الإسلام أنه حظر حتى على التقى الورع الزاهد أن يخلو بامرأة أجنبية أو أن يعترف له مذنب بذنب إلا إذا توجه إلى الإمام المنفذ للأحكام واعترف له ليقيم عليه الحد .
٩ - يشنعون على الإسلام أنه انتشر بحد السيف .
١٠- يتهمون الحج بأنه عمل صنمى .
١١- يتخذون من حديث الإفك مادة للتشنيع .
١٢- ينكرون على الإسلام تعدد الزوجات .
١٣- يتهمون رسول الله ﷺ فى تزويجه زينب بنت جحش لزيد بن حارثة .

ونورد هنا بعض الموضوعات التى رد بها الإمام على مطاعنهم حيث يقول رضى الله عنه :

١ - أسرار النواميس الإلهية عند الجاهل أعمال صنمية :

ما هو التابوت الذى كان يحمله موسى عند الجهاد وعند الشدائد وعند الاستغاثة والنجدة ؟ وذاك موسى كليم الله ! لم يكن التابوت إلا صندوقًا من الخشب فيه قطع بالية من سفينة نوح عليه الصلاة والسلام ، وماذا قال اليهود فيه وقد أمر الرب كليمه أن يحمله أمامهم وهو كليم الله ؟ ويستنصر به ويستسقى به ويستفتح به ، قالوا : إنه أنزل مع آدم من الجنة . أنا لا أنكر عليهم قولهم ولا أسلمه لهم ، فإن الرب الذى أنزل الناموس بمشيئته يقدس ما ينزله من الجنة ، وبمشيئته يقدس ما شاء من الأرض من طين أو ماء أو شجر أو

مدر . فحمل التابوت هذا عند من لا يعقل أسرار النواميس عمل صنمى ، وعند من يعقل النواميس يقول : الرب يحكم على خلقه بما شاء ويأمرهم بما شاء ويختبرهم بما شاء . هذا التابوت بعد موسى رُفع إلى السماء كما بُيِّنٌ فى التوراة . خصوصًا عندما فشى الزنا والفسوق فى بنى إسرائيل . ولما قام العمالقة لهلاك شعب إسرائيل ، بشرهم الرب فى التوراة أن التابوت ينزل مع الملائكة . هذه أسرار الناموس وغرائب آياته تحجب العقل المكسوف نوره عن أن يدرك حقائق الحكمة وغرائب الآيات .

نزل التابوت تحمله الملائكة . ما الذى كان فيه ؟ كان فيه : نعلا موسى وثيابه وعمامة هارون وعصى موسى . سبحان الله !! نعلان لرسول من رسل الله يبلغ بهما التعظيم إلى درجة أن يكونا فى التابوت ؟؟ ويكون هذا التابوت به النصرة وبه الفتح وعود المجد لشعب إسرائيل ؟؟ وتنزل به الملائكة ؟؟ تلك مرموزات الناموس لا تُكشف إلا لمن جاهد نفسه مجاهدة يطهر بها من خبث الضلالة وظلمة الجهالة ودخان العناد ونار العصبية للآباء ويخرجها من هوة الطمع فيما يفنى .

انتقل بنا إلى عصا موسى عليه السلام ما هى عصا موسى ؟ غصن من شجرة ربما زرعها كافر ، وسقاها كافر ، وقطعها من الشجرة كافر . وإذا أراد الله أن يظهر الآية يظهرها كيف شاء وبما شاء وفيما شاء . كانت العصا عند شعيب عليه الصلاة والسلام ، ثم أعطيت لموسى ، فقدسها الله وبارك فيها حتى صارت كأنها كلمة الله ، وصار موسى – كليم الله – بدونها إنسانًا لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا . فالقادر على أن يجعل العصا كلمة كن فى يد موسى قادر أن يجعل هذا كله بكلمة من موسى وبحركة يده وبأى عصا من العصى ، ولكنه سبحانه يقدس ما شاء ويظهر ما شاء ويضع سره فيما شاء وفيمن شاء ، وهذا أيضًا رمز من مرموزات الناموس الأعظم .

انتقل بنا إلى الخليل أصل الرسل عليهم الصلاة والسلام ووالدهم الأوسط ومبدأ الفيض الأقدس . ثبت بالتواتر وبالأثر أنه عليه الصلاة والسلام هو وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام رفعا قواعد البيت ووضعا الحجر الأسود بيديهما عليهما السلام وأخبرا أنه كان مع أبيهما آدم أنزله معه من الجنة .

فما للإنسان ينحنى رأسه إذا ذكر التابوت ويصدق أن صندوقًا من الخشب نزل من الجنة ولا ينكر على موسى الكليم أن يحمله عند الشدائد ، ثم إذا سمع أن التابوت نزلت به الملائكة تحمله إلى طالوت عند قتال العمالقة وأن التابوت كان فيه نعلا موسى عليه السلام .. ينحنى تعظيمًا للتابوت وما فيه ويعترف أن التابوت باركه الله وجعل فيه سر

الفتح والنصر !! ولا يخطر على قلبه أنه كالصنم لبنى إسرائيل !! ومن موسى عليه السلام فى جانب الخليل عليه الصلاة والسلام فى جانب آثاره العلية وآياته الجلية ، وهو عليه السلام عند خروجه من مصر لبنى إسرائيل أمسك عليه مسالك الخروج حتى حمل معه الصندوق الذى به جثة يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام ، فهل كانت تلك الجثة صنمًا لموسى عليه الصلاة والسلام ، ما للإنسان ينسى عيوبه وينظر الحسن فى أخيه قبيحًا ؟ كان التابوت صندوقًا من الخشب فيه رضاض من سفينة نوح عليه السلام باركه الرب حتى أمر كليمه أن يحمله وجعله وجهة للأجسام حتى لا تقع الأعين عليه إلا اطمأنت ولا تمسه الأيدى إلا سرت فى القلوب روح يقين وإقدام ، ولا يُفتح إلا حصل النصر وانشرحت الصدور . سبحان الله .. ألأنه صندوق خشب داخله نعلان ؟ .. لا ، ولكن الرب يبارك فيما شاء ويبارك فيمن يشاء .

فكذلك الكعبة التى هى حجرة بناها الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، وهذا الحجر الأسود هو الحجر الذى وضعه إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، ورفعا هذا البيت بأمر الرب جلت قدرته وبشرهم الرب بأن هذا البيت مبارك ، وبشر إبراهيم بأنه سيكون من ولد إسماعيل أمة مباركة يظهر فيها خير رسول .

فكان هذا البيت هو الذى بناه الخليل وابنه وباركه الرب كما بارك فى التابوت ، وبارك فى عصى موسى ، وبارك فى الحجر الذى كانت تتفجر منه الأنهار ، وبارك فى الطينة التى خلق منها آدم وأسجد له الملائكة بنص التوراة ، وهذا الحجر هو الحجر الذى لمسته يد الخليل ويد ابنه وأخبرا أنه نزل مع آدم عليه الصلاة والسلام ، وإنى لمصدق أن الرب باركه ولو لم يكن من الجنة ، فإن الرب كما تقدم يبارك فيما شاء وفيمن شاء ، والعرش والأرض سواء فى نظر الرب لا فرق بين الأرض السفلى والعرش الأعلى بالنسبة للرب ، ولكنه سبحانه يرفع ما شاء على ما شاء .

والرب علىّ عظيم عن القرب المكانى من العرش أو الأرض ، والعرش والأرض فى قبضته سبحانه ، وفى حيطة علمه وفى تدبير قدرته ومشيئته ، ولو شاء أن يجعل قطعة من طين الأرض ترتفع حتى تكون فوق العرش لفعل سبحانه ، وقد فعل .. فإن الإنسان من طين ، وبعض أفراده من الرسل الكرام والصديقين والشهداء يكونون فى جوار الرب يوم القيامة فوق عرشه ، فمنزل الناموس سبحانه وتعالى بارك فى هذا البيت وبارك فى هذا الحجر وجعله رمزًا من مرموزات الناموس .

لا يسعنى أن أكشف تلك الأسرار العلية الغامضة عن العقول المحجوبة بالحظ والهوى

فى مقام أدعو فيه أخى فى النوع إلى نجاته من هاوية العذاب إلا بقدر معلوم .

إن المسلم يقبل الحجر مستحضرًا اليد التى وضعته ، وكأنه يبايع تلك اليد على اتباع الإسلام الذى هو ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأن الله تعالى أكرم خليله عليه الصلاة والسلام وجعل من ولده إسحاق أمة إسرائيل وأكرمها بالرسل والأنبياء حتى أنجز ما قدر سبحانه وأراده ، وأكرمه عليه الصلاة والسلام فجعل من ولده إسماعيل عليه السلام الأمة العربية ، وأكمل نعمه على جميع خلقه وأتم فضله عليهم بأن جعل من الأمة العربية خاتم رسله الذى بعثه لكافة الناس بشيرًا ونذيرًا ، واستجاب لخليله دعوته التى دعاها لإسماعيل وبنيه بأن يجعل منه أمة عظيمة بقوله : ﴿ربنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك﴾(٥) إلى آخر الدعاء الذى دعاه وهو معنى قول موسى عليه السلام : يكون من بنى عمنا .. إلى آخر البشرى . وبنو عمهم بنو إسماعيل ، فكان الإسلام هو ملة إبراهيم الحقيقية التى كان عليها هو وأولاده عليهم السلام ، وبرهان ذلك : جعل بيته كعبة للمسلمين .

إن الله فرض حجه على المسلمين بشروطه المخصوصة ، ولم يكن عملًا صنميًا وإنما هو عمل للتقرب إلى الله تعالى وللقيام بحقوق عباد الله ولإطاعة أمر الله والاقتداء بسنن رسل الله . وكأن المسلم بلمس الحجر الأسود(٦) وأداء فريضة الحج :

١ - عاهد الخليل عليه السلام على العمل بإخلاص ، معتقدًا أنه نفذ أمر الله تعالى وقلد رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم .

٢ - تقرب إلى الله تعالى بأكمل العبادات التى بذل فيها ماله ، فوسَّع على خلق الله فى السفر إلى مكة .

٣ - بذل فيها نفسه بمفارقة الأهل والمال والوطن .

٤ - شهد من عجائب قدرة الله وغرائب حكمته سبحانه وآثار رحمته ما جعل قلبه يطمئن بالقدرة وصدره ينشرح بالحكمة .

٥ - جعل الإيمان ينمو فى قلبه حتى يبلغ درجة اليقين .

٦ - قابل إخوته المؤمنين فانتفع بعلم العالم وحكمة الحكيم وحلم الحليم وأخلاق الكريم وعمل الموفقين .

---

(٥) سورة البقرة آية ١٢٩ .

(٦) يخاطب الإمام أهل العقول المعاندة على قدرهم ، لكن أسرار الحج والعبادات الأخرى موجودة فى كتب الإمام ومواجيده ومقالاته بالمجلات ، فارجع إليها إن شئت .

٧ - شهد من أنواع العادات واختلاف الألوان والأشكال واللغات ما جعله يحب الله سبحانه وتعالى ويعظم جنابه العلى.

٨ - تتجدد العافية بالحج بعد فقدها والصحة بعد زوالها، ويتعلم التدبير والحكمة والمداراة والترتيب، وينشط بعد الكسل ويشجع بعد الجبن ويسخو بعد البخل.

٩ - يمكنه أن يجمع بين الحج والتجارة فيتجر تجارتين للدين والدنيا، فيأخذ ما يحتاج إليه أهل الحجاز ويجلب ما يحتاج إليه أهل مصره.

حكمة لا تنكشف إلا لمن فهم أسرار الكتب السماوية وذاق حلاوة الإيمان بها والتسليم لها.

أسألك أيها المنكر حكمة الحج وأسراره على جهل منك بفوائدها الجلية وخيراته المحسوسة: ما هو هيكل الرب؟ وما هو المذبح الذى كانت تذبح عليه الأنفس أمام هيكل الرب؟ وما هو القربان الذى كانت تأكله النار؟ أكوشفت بأسراره أم ظهر لقلبك خفيه؟ مالك والإنكار على الحج ونوره ساطع وسره باهر وخيره وافر وبركاته مفاضة؟ وما هو الدهن المقدس الذى كان لا يدهن به إلا نبى؟ أمن الجنة نزل؟ أم ذلك دهن لبن النعجة التى كانت نعجة الخروف المذكور فى رؤيا يوحنا الذى له قرون من ذهب ونعال من ذهب وأنه هو الرب وأنه ذبح؟ أنا معتقد أن يوحنا نفسه لو سمع أنه نسب إليه هذا لصعق فضلًا عن أن يقوله بنفسه. وليس جعل خروف له قرون من ذهب ونعال من ذهب إلهًا يتنزل به الناموس. فإن كل مرموزات الناموس نزهت الجناب العلى عن التشبيه والتحديد وعن المثيل والنظير والولد والوالدة، وكل مرموزات الكتب السماوية لإظهار آيات دالة على أنه واحد مريد فاعل لما يشاء يأمر بما شاء وينهى عما شاء، له الخلق والأمر وهو على كل شئ قدير.

فالتابوت، وعصا موسى، وحجره الذى تفجرت منه ينابيع الماء، وصنع السفينة قبل الطوفان، وناقة صالح عيه السلام، وحمل سارة بإسحاق بعد اليأس، وبناء بيت للرب، وعمل مذبح يُذبح عليه أمام الرب، وماء المعمودية .. كل تلك إشارات من إشارات الكتب السماوية تنكشف غوامضها للمقربين المحبوبين، وكذلك الأرض المقدسة والصخرة المقدسة. فالله سبحانه وتعالى بارك فى النار التى ألقى فيها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام وأبقى فيها الإشراق وأبطل منها الإحراق، وبارك فى ناقة صالح فكانت وجهة أمته، وبارك فى حمار العزير فكان آية كبرى، وبارك فى كلب أهل الكهف فكان عجيبة للعقول، وبارك فى عصا موسى عليه الصلاة والسلام فكانت ككلمة كن، وكم

بارك لأنبيائه ورسله : فمنهم من جعله يقبض الحديد محميًا بيده ، ومنهم من جعل له بساطه يحمله ويمشي به في الهواء ، ومنهم من بارك له في يده فكان لا يمس بها ميتًا إلا أحياه الله ولا مريضًا إلا شفاه الله ، وكل تلك آثار رسله عليهم الصلاة والسلام .

وقد رفع الله تعالى خاتم رسله وأمته عن كل تلك البركات الحسية التي هي قاصرة على الأجسام وربما أطفأت نور العقول السليمة ، لأن العقل إذا شهد آية يجهل سببها يعجز عن التصرف فيها ويقوم الوهم والخيال يقضيان بلا ميزان ، ولكن الله تعالى جعل معجزة خاتم رسله وبرهان خير خلقه المبشر به كل رسله السابقين ، نور حكمة وبيان وأسرار موعظة وفصل خطاب ، فثبتت العقول على الحق وقبلته بتسليم فكمل التوحيد بكمال التنزيه عن التشبيه والتحديد والإدارك . وصار المسلم عندما يتوجه إلى الكعبة يعلم أنه إنما يسعى قيامًا بأمر ربه وزيارة لبيت رفع قواعده الخليل وابنه ، لأن الله تعالى بارك موضعه وأمر خليله أن يرفع قواعده ، ثم يقرب من الحجر معتقدًا أنه لا ينفع ولا يضر ، وضعه خليل الله بيده وبارك الله تعالى فيه ، فيقبله اقتداء برسل الله واتباعًا لسننهم عليهم الصلاة والسلام .

ذلك الإنكار إنما جاء من دين أسس على أن رجلًا حل فيه الرب ، أو أن الرب حل في فرج امرأة وتجسم إنسانًا ، أو أن الرب مجهول في ثلاث ، ثم أسسوا دينهم بعد ذلك على أن الذي يترك أكل اللحم والسمن ويترك الزواج يحل فيه الرب !! والحقيقة أن الذي يترك أكل اللحم والسمن يكون حمارًا يأكل النباتات أو فرسًا أو جملًا ، والذي يترك الزواج يكون نباتًا يتغذى وينمو ، والحقيقة أن النبات له عضو ذكورة وأنوثة ، فإذا كان الإنسان ينحط عن رتبة الإنسانية إلى رتبة البهيمية إلى الرتبة النباتية يحل فيه الرب ويكون منزهًا مقدسًا يخلو بالنساء الجميلات ويغفر السيئات ويعفو عن الخطايا ويبيع الملكوت ويحل ويحرم .. من كانت هذه عقيدته لاشك أن أعماله جميعها تكون صنمية .

والرسول الذي بعثه الله بالتوحيد للناس جاء بالمعجزات التي سجدت العقول لها وعجز الخيال عن تمثيل كمالاتها : كشف للعقل الحجاب حتى أشهده أنه عبد الله ورسوله ، وأنه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا إلا أن يشاء الله ، وأنه لا يعلم الغيب ، وأنه إنما هو بشر مثلنا أوحى الله إليه أنه لا إله إلا الله ، وأنزل عليه الوصايا والتعاليم التي استقبلها العقل بتسليم وإخلاص وتصديق .. لاشك أن أعماله تكون مؤسسة على تنزيه الحق جلت قدرته عن النظير والضد والمثيل .. كل أعماله تكون موجهة للواحد الأحد المنزه عن أن يكون محلًا للأشياء وعن أن تكون الأشياء محلًا له ، سبحانه هو المنفرد بنفسه المتوحد بأوصافه ، لا يمتزج ولا يزدوج إلى شئ ، بائن من جميع خلقه ، لا يحل بالأجسام ولا

تحله الأعراض، ليس فى ذاته سواه، ولا فى سواه من ذاته شئ، ليس فى الخلق إلا الخلق ولا في ذات الله إلا الخالق .. فتبارك الله أحسن الخالقين .. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

هذه العقيدة التى يجب أن يعقد عليها قلبه الصبى المسلم من فطامه وتنمو معه فى كل يوم جديد عندما يبتدئ فى حفظ كلام الله القديم، وعندما يسمع قوله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم﴾[7] وقوله سبحانه وتعالى له: ﴿قل لا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًا﴾[8]وقوله تعالى: ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾[9] وقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾[10]، فلا يحفظ آية من القرآن المجيد إلا وتنمو العزة فى نفسه وتعظيم الله وحده فى قلبه، أفمن كان هذا أصل أصول دينه يقال إنه يعمل عملًا صنميًا؟ إنما الذى يعمل عملًا صنميًا من اتخذ إنسانًا يأكل ويشرب ويبول ويتغوط وينام ويجوع ويمرض ويفرح ويحزن ويخاف من الهوام ومن الوحوش ومن إنسان يعاديه، وبعد تلك النقائص التى يتنزه عنها الرب - وينزه جنابه العلى عنها عقل الأطفال - إذا نظر ما حوله من الآيات وما فوقه ثم يقول بعد تلك الخسة والنقائص هو الله الذى خلق السموات والأرض.

والله لو أن إنسانًا وقف أمامى فقال لتكن السماء أرضًا والأرض سماء فكانا كما يقول وشهدت ذلك بالحس وقال إنى لست إنسانًا ولكنى ملك من السماء لكذبته فى دعواه أنه من الملائكة وحكمت أنه إنسان له تأثير نفسانى على الخيال الإنسانى، فكيف بإنسان أتى بمعجزة لم تخرج عن القدر الذى أهل الله الإنسان لنيله من الطب، فإن كثيرًا من الأطباء برعوا فى علم الرمد حتى يمكنهم أن يزيلوا ما على العين من الغشاوة والماء الذى حجب نورها، ومن الحكماء من يعلم أن يعالج من حصلت له السكتة بطريق التنفس الصناعى، ويعالج من أصابته النقطة بالاستفراغات والدلك. تلك الأمور التى فى العالم الطبيعى لها نظائر تجعل أهل العقول السخيفة يجعلون من اتصف بها إلهًا يُعبد من دون الله أو ابن الله أو حل فيه الإله. وتنسى تلك الأعمال الموجبة للفضائح أمام العقول وتنكر الحق الصريح البين على أهله، ما لك وللجولان فى ميدان وقف العقل دونه خاشعًا؟؟

الشمس مشرقة أيها الحيوانات الليلية، لم يخل الأفق من الشمس العلية. وإنى أسأل

(٧) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٨) سورة الأعراف آية ١٨٨ .

(٩) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(١٠) سورة الأنبياء آية ٢٢ .

الله أن يحفظ بنى الإنسان من شر أكابر المجرمين الذين أفسدت عليهم السيادة والرياسة الدين والدنيا وأنستهم يوم الحساب وشديد عذاب الهاوية ، وأن يمن عليّ وعليهم بنور يبين لنا الحق والباطل ، فنتبع الحق ولو لم يكن عليه آباؤنا ، ونتجنب الباطل ولو كان عليه آباؤنا ، ويمنحنا السعادة الحقيقية والخير إنه مجيب الدعاء ، ويعيذنا من الضلال والضُّلال لنعمل بالكتاب والسنة ، وأن يحفظنى بحفظه من الشر وأهله ، ويكرمنى وأهلى وأولادى وإخوانى والمسلمين .

الحج من مرموزات الكتب السماوية ، وقد بينت لك ما ظهر لأصغر مسلم يعتقد أن الله فرض عليه الحج . ولو أنك أسلمت لله رب العالمين وتوجهت إلى الحج تأدية لما أوجبه الله عليك .. لانكشفت لك أسرار تلك المرموزات بما يجعل عقلك يعقلها عن قلبك الذى جعل الله له نورًا يفقه به أحكامه ويقوى به يقينك .. والسلام على من اتبع الهدى .

٢ - حكمة زواج النبى ﷺ من السيدة زينب بنت جحش :

يقول الإمام المجدد فى كتابه « وسائل إظهار الحق » : لا تعجب أيها المسلم إذا رأيت الخفاش - أى الوطواط - يسكن نهارًا ويتعيش ليلًا ، فإن الله خلق خلقًا يبغضون النور ويحبون الظلمة ، يسارعون فى الفتنة والضلالة والغواية وهم يعلمون أنهم على الباطل عنادًا وعلوًا بغير الحق ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا جهلًا بالحق وعمى عن الهدى . وكيف لا ؟ وقد صارت الفضائل العمرانية والخيرات الاجتماعية والمنافع العامة للمجتمع الإنسانى رذائل وظلمات فى أعين من هم أعمى من الخفاش بصرًا ، وكيف لا ؟ وهم ينكرون على رسول الله ﷺ الذى بشر به المسيح فى أناجيله ، وموسى فى توراته ، وإبراهيم فى أسفاره ، وداود فى مزاميره ، وذكر اسمه فى النبوات بأوصافه ، ما الذى ينكرونه على رسول الله ﷺ ؟ ينكرون عليه ﷺ تزويجه بالسيدة زينب بنت جحش ، ولو أنهم قرأوا آية القرآن وكانت لهم عقول تعقل حكم هذه الحادثة ، ولكن صدق الله العظيم فى قوله سبحانه : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾(١١).

يقولون : إن النبى ﷺ عشق زينب بنت جحش حتى أخذت من قلبه مأخذًا - تنزه قلبه ﷺ عن أن يشتغل بغير ربه - حتى طلقها زيد فتزوجها ﷺ . سبحان الله !! لو كنت أيها المنكر راغبًا فى البيان لبين لك طفل صغير من أطفال المسلمين أسرار تلك الحادثة !! أو كنت باحثًا عن الحق لتجلت لك الحقيقة بمجرد سماع آيات القرآن

---

(١١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

الشريف !! أكتب لك الآية ثم أشرح لك ما فيها صريحًا من الحكم، ومما يؤخذ منها بطريق الالتزام أو التضمن من الحكم، يقول الله تعالى: ﴿وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرًا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا وكان أمر الله مفعولًا﴾[١٢]. هذه الآية الشريفة ليس على أنوارها العلية ستائر تحجبها عن العقل، ولا حجب تمنع أشعتها من أن تنفذ إلى القلب، ولكن لعن الله الضلال وقبح الله العناد.

أشرح ما يمكن أن أبينه لعدو منتقد، وأخفى من أسرار الحكمة العالية وأنوار الأسرار الغالية ما لا يمكن أن أبيحه إلا لمسلم كامل:

أنت تعلم أن زيدًا مملوك من موالى رسول الله ﷺ، وأن زينب بنت جحش من أشرف بيوتات قريش. وقد بلغت من المجد والشرف أن لها نسبًا مع رسول الله ﷺ، فزوجها زيدًا ليمحى ظلمات الجهالة عن نفوس المسلمين فيعلموا حق العلم أن العبد المملوك فى مستوى واحد مع الهاشمى المالك وأنه كفء لأشرف امرأة من قريش حتى يكون الفخر بالتقوى لا بالأنساب، وبالنفوس الزكية الطاهرة لا بالعصبية والأموال.

ولو أنك أيها المنتقد أدركت سر زواج زيد لزينب وما أنتجه فى المجتمع الإسلامى من المساواة بين أفراد المسلمين حتى صار العبد المسلم مع الشريف القرشى المسلم لذقت من رحيق الكمالات الإسلامية شرابًا طهورًا يجعل قلبك يدرك حكم الأحكام الإسلامية، فتنبه من نومة الغفلة ورقدة الجهالة، ويوحى إليك أن المراد النجاة بأى دين وعلى أى طريق وباتباع أى نبى يكون دينه مطابقًا للعقل والحق، وليس المراد التعصب للآباء الضالين والاقتداء بالرؤساء المضلين، تعصبًا يبلغ بالإنسان مبلغ البغض للحق الصريح والعناد لإحياء الباطل القبيح. هذا سر جلى من أسرار زواج زيد بزينب رضى الله عنهما، قال الله تعالى: ﴿حرِّمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم﴾ إلى أن قال سبحانه وتعالى: ﴿وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم﴾[١٣]. هذه الآية تحرم على الرجل أن يتزوج زوجة ابنه الذى من صلبه، وكان العرب قبل الإسلام ينسب الرجل الولد لنفسه فيقول ابنى ثم ينزله منه منزلة ولد الصلب، وأحكام الله تعالى تغاير أحكام الجاهلية. ولما كان رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم يجب أن يبدأوا بتنفيذ الأحكام

---

(١٢) سورة الأحزاب آية ٣٧ .

(١٣) سورة النساء آية ٢٣ .

على أنفسهم قبل كل أحد .. ليكونوا قدوة وأئمة للأمة ويكون للأمة أسوة حسنة فيهم ، أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمر زيد بطلاق زينب وأن يتزوجها لنفسه ليهدم أحكام الجاهلية ، وكانت عوائد العرب مستحكمة فى أنفسهم استحكامًا يجعلهم ينقصون من يخالف العادة ، ورسول الله ﷺ حريص على تأليفهم كما وصفه الله ، فشق هذا الأمر عليه ﷺ خوفًا على قلوب الناس من الانزعاج وعلى نفوسهم من الرعونات والنزوع إلى ما لا يحمد . وابتهل إلى الله تعالى أن يجعل هذا الحكم علمًا لا عملًا ، حتى كان ﷺ كلما وقع نظره على زينب وعلم الآية التى يأمره الله بتنفيذها على نفسه فى نفسه ليمحو الله الباطل ويحق الحق بكلماته ، يصعب عليه الأمر خوفًا على الخلق ، ويخشى أن يكون هذا الأمر مفسدًا لعقائد بعض الصحابة ، وكانت زينب كلما نظرت إلى زيد عزّت عليها نفسها أن تكون زوجًا لمولى ، وهى الشريفة النسب الكبيرة النفس ، وكان زيد يلتمس من رسول الله ﷺ أن يأمره بطلاقها تخلصًا من أذيتها له ، ورسول الله ﷺ يمنعه ، حتى طلقها زيد رضى الله عنه ، ورسول الله ﷺ يخشى على قلوب الناس وعقائدهم حتى عاتبه الله عتابًا شديدًا بقوله تعالى : ﴿وتخفى فى نفسك﴾ ما أمرك الله به من زواج زينب بعد طلاقها من زيد لمحو تلك الضلالة التى كان عليها أهل الجاهلية من أن الرجل إذا تبنى ولدًا لا يتزوج زوجة الولد ولا الولد يتزوج زوجة من انتسب إليه ، وهى أحكام جاهلية لم ينزل الله بها من سلطان ، وهذا الأمر حكم من أحكام الله تعالى لابد أن يبديه الله فى ذات رسوله ﷺ ليتقرر علمًا وعملًا ، فلا يشك مسلم بعد ذلك فى صريحه ، ثم بيّنه صريحًا فقال سبحانه : ﴿فلما قضى زيد منها وطرًا﴾ أى : طلقها ﴿زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرًا﴾ أى : زوجناك زينب بنت جحش مطلقة زيد الذى تبنيته ليرتفع الحرج عن المؤمنين ويجوز لكل مؤمن أن يتزوج زوجة من يتبناه إذا طلقت منه وهو حكم الله سبحانه وتعالى ، وإنما التحريم بالنسب الحقيقى لا بالانتساب القولى ، وهذه سنة الله تعالى فى رسله ، فإنه سبحانه إذا أمر بأمر وجب على الرسول أن يسارع فى تنفيذه عملًا أو تركًا . انظر إلى قوله ﷺ : (كل دم فى الجاهلية تحت قدمى هذا ، وأول دم أضعه دم الحارث بن عبد المطلب ، وكل ربا فى الجاهلية تحت قدمى هذا ، وأول ربا أضعه ربا العباس بن عبد المطلب)[١٤] فبدأ بتنفيذ أحكام الله فى نفسه بنفسه ليقرر الأحكام علمًا وعملًا ، ثم نفذ أحكام الله فى أقرب الناس له لأن الحارث بن عبد المطلب عمه والعباس بن عبد المطلب عمه .

إذا سلمت أيها المعاند وفقهت تلك الحكم الجليلة ، يمكن أن تباح لك من أسرار الحكم

(١٤) ابن جرير الطبرى فى تاريخ الأمم والملوك ٢/٢٠٥ .

التى تنتقش كمالاتها فى نفسك وتشرق أنوارها على قلبك ، فتكون بها رجلًا كاملًا مؤهلًا لدخول ملكوت الرب سبحانه رحمة بك أيها المعاند لأنك إنسان مثلى قادك هواك وحظك إلى الهاوية ، والأخوة الإنسانية تقضى علىّ أن أسعى فى نجاتك منها بقدر استطاعتى بالموعظة الحسنة والرفق لأنى أدعوك إلى الحق وإلى السعادة ، لا كما تفعل أنت من فحشك وقذفك وجعل الحسن قبيحًا وأنت تدعو إلى الضلال بالجهل عن الحق . فعساك أيها الإنسان أن تحفظ رتبتك من الوجود وتعلم أن التعصب للآباء والغرور بالملك والسيادة من مهاوى الهلاك عاجلًا وآجلًا . وكفى بالإنسان تعسًا أن يترك الحق الجلى ويسعى فى إخفائه وينصر الباطل الوبىء ويسعى فى إظهاره .

وأكتفى بما أشرت إليه فى معنى الآية لأن مريد الحق يميل إليه متى ظهرت بوادره ، ومريد الباطل يفر من الحق ولو لمسه بيديه . أ هـ .

* وفى عام ١٣٣١ هـ جاء وفد كبير من دول أوربا إلى مصر ، يضم قساوسة وكتابًا وصحفيين يصطحب أحدهم معه زوجته ، يجادلون علماء المسلمين فى محاولة لبث سموم التشكيك فى الدين الإسلامى . وبعد مناظرات عدة بينهم وبين عدد من العلماء ظنوا أنهم قد حققوا أغراضهم إلى أن دلهم البعض على الإمام أبى العزائم لمناظرته ، فتوجهوا إليه ظانين أنه كغيره ممن سبق لهم مناظرتهم ومجادلتهم .

جلسوا مع الإمام فى بيته ، وجلس المترجمون ، وبدأ الإمام الحديث مع رئيس الوفد قائلًا : كيف حالك ؟ قال : بخير : فقال الإمام : أتأكل وتشرب جيدًا ؟ قال : نعم ، فقال : يعنى صحتك على خير ما يرام ؟ فتعجب لهذه الأسئلة وأجاب بهذا اللفظ : زى البمب ، وهنا قال له الإمام : وكيف حال أولادك ؟ فضحك الرجل باستهزاء ناظرًا إلى الوفود وهو يقول لهم : إنه يسألنى عن أولادى .. فتضحك الوفود . وفى النهاية قال للإمام : لقد جئنا إلى هنا على صيتك الذائع المشهور ، ولكن للأسف وجدناك تجهل أبسط قواعد المسيحية ، فقال الإمام : وما هى أبسط قواعد المسيحية ؟ فرد قائلًا : إننى لا أتزوج وبالتالى فلا يكون لى أولاد . وهنا انبرى الإمام قائلًا : تنزهون أنفسكم عن الولد وتزعمون أن لله ولدًا ؟ وهنا وقعت الواقعة وبدأ رئيسهم يتصبب عرقًا .. فقال الإمام : ألم أسألك أولاً أتأكل وتشرب ؟ فقلت : نعم ، إذن أنت أسير نعمته سبحانه ، ولو منع عنك نعمته لهلكت فقل لى بالله عليك لواحتبس البول فيك أو الغائط ماذا يكون مصيرك ؟ إذن أنت أسير بولة وأسير غائط ، تنسب لنفسك النزاهة عن الصاحبة والولد وتنسب لله المنزه القادر الصاحبة والولد .

وأشار إلى السيدة الموجودة وسأل عنها ، فقالت : حضرت مرافقة لزوجى هذا ، فقال

لها : تزوجت على سنة من؟ السيد المسيح لم يترك سُنة للزواج والمسيح لم يتزوج ، وبذلك فإن سنة المسيح تقتضى انقراضكم من الحياة ، وما نحن نعيش فيه الآن هو على سنة رسول الله سيدنا محمد ﷺ الذى سن لنا الزواج .

وهنا طلب الوفد الانصراف لأنهم علموا أن الإمام سيدخل فى الموضوع الذى حضروا من أجله وهو زواج السيدة زينب بنت جحش وسيدنا زيد بن حارثة وكذلك موضوع تعدد الزوجات ، وأنه سوف يفند آراءهم بالحق ، ويكشف نواياهم الخبيثة التى حضروا من أجلها إلى مصر ، وصدق الإمام حينما قال منذ اللحظة الأولى للقائهم : إذن استوى الماء والخشبة . وغادروا المنزل فورًا إلى الإسكندرية ولم يطيقوا البقاء فيها فذهبوا إلى الميناء وأمضوا وقتهم وليلهم بها حتى إقلاعهم إلى بلادهم . وقد كتبت إحدى الصحف الإيطالية بعد وصول الوفد تقول : إن فى القاهرة رجلٌ يُدعَى محمد ماضى أبو العزائم لن يكون للاستعمار بقاءٌ وهذا الرجل موجود فى هذا الشرق (١٥) .

٣ - حكمة تعدد الزوجات لرسول الله ﷺ :

الإنسان فى حاجة للتعاون ، وأكمل من يعينه أقاربه وأصحابه . فقد يتزوج الرجل من العائلة ليكون أولاده أهل شرف وعصبة ، وقد يتزوج ليكون أولاده أصحاء أقوياء البنية ، وقد يتزوج لتكون الزوجة معينة له على دينه ودنياه ، وقد يتزوج لتكون الزوجة مدبرة لمنزله مربية لأولاده ، والمعانى المعقولة التى ترجح تعدد الزوجات محسوسة راجحة . والحقيقة أن الإنسان إذا تزوج امرأة أخرى هى كالأولى لا تتفاوت عنها ، لم ينصف .

ولما كان الدين الإسلامى يوجب العمل والنشاط على كل مسلم ويجعل أول واجب التعليم ، كان ولا شك كلما كثر النسل انتشرت الفضائل وعمت الخيرات . ولما كان الدين المسيحى أوجب على الناس ترك الدنيا وكرههم فى العمل لها فيها ، وأخبر أن الغنى لا يدخل الملكوت ، ولم يتزوج المسيح ولم يأمر أحدًا من تلاميذه بالزواج ، وكان يتناول طعامه من أيدى الناس بلا عمل .. كان ولابد أن يأمر بترك الزواج مرة واحدة أو بتزويج واحدة فقط ، وإلا مات الناس جوعًا ، لأنه لم يأمر بتعليم الصناعة والحرف ولا بالزراعة ولا بالعمل مطلقًا للدنيا فيها .

فكأن دين المسيح دين الكسل والبطالة والرهبانية وسكنى الغابات والكهوف ، ولذلك ترى أن أهل أوروبا لما أشرقت عليهم أنوار العلوم الإسلامية والعمل فى الدنيا ، وقام أهل

---

(١٥) روى هذه القصة الأخ أحمد بيومى من المحلة الكبرى سماعًا من المغفور له فضيلة الأستاذ الشيخ إبراهيم الخطيب كبير وعاظ آل العزائم الذى حضر وقائع هذه الجلسة .

الأفكار منهم وطالعوا التعاليم المسيحية التى تحتم على بنى الإنسان أن يترك الحضارة والمدنية والتمتع بنعم الله من الائتلاف والتعاون ، حكم أن أصل الإنسان قرد وأنه لابد وأن يؤمر بالرجوع إلى ما كان عليه من العيشة فى الكهوف والغابات وترك استكشاف أسرار الكائنات وخواصها للانتفاع بها .. وإلا ما الذى دعا دارون أن يقول : إن الإنسان أصله قرد ويقوم مبرهنًا بالبراهين التى تنبئ عن فساد قواه العقلية واختلال تركيب أمزجته وضعف المجموع العصبى .

لا تعجب .. فأكثر أهل أوروبا تلاميذ دارون ، وقد كادت تلك الحقيقة تكون مقررة فى أذهان نصارى الشرق ، لأن تعاليم الدين المسيحى ترغب فى العيشة الحيوانية ، وهم يعتقدون أنه ابن الله ، فلم يرغبهم فى العيشة الحيوانية إلا ليرجعهم إلى أصولهم . أستغفرك الله من حكاية أقوال من لا يعقلون ، وأعوذ بوجهك الكريم من أن أقصد الشر لأحد من بنى الإنسان . اللهم وأنت سبحانك تعلم لا غيرك أنى لا أريد إلا الخير ، فأنزل يا إلهى بيانى هذا من قلوب الذين ينتقدون علينا منزلته من قلبى من القبول ، واحفظنى يا إلهى بحفظك من شرهم وكيدهم ومكرهم إن قدَّرتَ سبحانك عدم هدايتهم .

إذا تقرر هذا الأمر ، أبين لك أيها المنكر ما يمكنك أن تفهمه من حكمة تعدد زوجات رسول الله ﷺ :

اعتقد معى أنه رسول لجميع الخلق ، وأنه خاتم الأنبياء ، وأنه أرسله الله على فترة من الرسل بين جاهلية عمياء وأمم ظلمة ومدن فاسقة وملوك جبابرة ، وهو الذى يضع الحرب كما بشر به المسيح الذى قال : (ما جئت لأضع حربًا ولكنى جئتُ لأضعَ سلامًا ، والذى يأتى من بعدى يحصدهم بالسيف) أو كقوله عليه السلام . وكان الرسل قبل رسول الله ﷺ يبعثون لأممهم فقط ، وأرسله الله تعالى للناس كافة ، فلابد أن يكون له ﷺ حزبٌ قوىٌ متماسك متحدٌ اتحادًا بكل معنى الكلمة من أوجه الاتحاد كلها : من جهة الدين ومن جهة الألفة ومن جهة القرابة ومن جهة النسب . فحقق الله تلك الرابطة القوية بالدين وباللغة ، فكان يتكلم مع كل قبيلةٍ بلغتها ، ثم أكمل الله تلك الرابطة بما أباحه له ﷺ من تعدد الزوجات بوسعة : فتزوج ابنة أبى بكر الصديق وابنة عمر بن الخطاب رضى الله عنهما وزينب بنت جحش للحكمة التى سبقت وابنة أبى سفيان وغيرهنَّ ممن كنَّ سببًا فى تقوية الروابط الدينية بسبب النسب واتصاله . ومن نظرَ بعين المفكر العالم الحكيم يتحقق أن تعدد الزوجات للنبى ﷺ من علامات النبوة وأكمل دليل على أنه خاتم الرسل وأنه المبعوث للناس كافة بشيرًا ونذيرًا ، وكيف يخفى على إنسان

يعقل البديهى حِكَمَ هذا الحكم ؟

وقد مكث ﷺ راضيًا بزوجةٍ واحدةٍ مدة عشرين سنة تقريبًا وهو فى ريعان الشباب وراحة البدن وصفاء الوقت . ولم يتزوج السيدة عائشة والسيدة حفصة رضى الله عنهما وغيرهما إلا بعد بضع وخمسين سنة من عمره الشريف وهو فى أعظم أوقات العمل وأصعب آنات الصعوبة ، وهو بين جهاد بالسيف أو باليد أو باللسان ، وبين تقرير أصول الدين وبيان فروعه وبين تنظيم الجيوش وتزكية النفوس ، حيث أن أنفاسه ﷺ كانت أنفس من النفائس . ومن قرأ تاريخه ﷺ بعد الهجرة يتحقق أنه صلوات الله وسلامه عليه لم يتزوج واحدة من أمهات المؤمنين بعد الهجرة لشهوة أو رغبة فى لذة ، ولم يتزوج قبل الهجرة على التحقيق إلا السيدة خديجة عليها السلام قبل البعثة ، ومكثت معه ﷺ راضيًا بها وراضية به عليه الصلاة والسلام منذ كان عمره الشريف سبعة وعشرين سنة إلى بضع وأربعين . فهل القائم بعظائم الأمور الذى يدعو الخلق أجمعين إلى نجاتهم بالرحمة والرأفة الحريص عليهم ، المنكب بكليته على الحق ، المجاهد بنفسه منفردًا فى سبيل الله إظهارًا لدين الله ومحوًا للضلال والكفر يتلذذ بغير الحق أو يشتغل نفسًا بغيره ؟ حاشا أن يخطر على قلب رسول من غير أولى العزم هذا الخاطر ، فكيف يخطر على قلب أفضل أولى العزم ؟ . إنما هى أعمال لحكمة عالية هى من أكمل الجهاد فى الله سبحانه وتعالى . والعاقل يكتفى بأقل إشارة ، فكيف لا يكتفى بالعبارة ؟! .

٤ - سيف الإسلام سيف الرحمة :

ليس تاريخ العرب بالتاريخ الذى كان منقوشًا على الأحجار فمُحِىَ مِنْ عليها ، أو مرموزًا باللغة العجمية وليس من يقرأه ، ولكنه تاريخ جلىّ يعلم كل عاقل ما كانوا عليه وما آلوا إليه .

عجبًا عجبًا !! يخرج العربى من جوف مكة فى زمن لم تكن هناك معدات سفر ولا عوارف حضر ولا آلات للنقل ، فيخرج والقرآن فى يمينه ، وحب الخير لعامة بنى الإنسان فى ضميره ، وقليل من القوت والماء على ظهره ، والسيف الذى هو رحمة الله فى يساره . أقول رحمة الله لأنه : فى يد من سُل ؟ وعلى من سُلِّط ؟ فى يد إنسان ملأ الله قلبه رحمة ليسوى بين أفراد الإنسان ، وجعل فى قلبه نورًا لينشر العدل بين بنى جنسه ، لا يقصد بذلك أن يقهرهم على اعتناق دينه ولا أن يخرجهم من الملك الذى هم فيه ما داموا على مبادئه الشريفة الفاضلة من العدل والمساواة والرحمة والشفقة والتعاون والصلة والبر ، لا فرق عنده بين النصرانى واليهودى والصابئ ، وها هم أهل الذمة فى كل

بلد إسلامية برهان ساطع على أن الأمر كما أقول .

على من سلِّط هذا السيف ؟

سلط على جبار عنيد يستعبد عباد الله ، وطاغية فاجر عامل لمحو الحق وإظهار الباطل . سبحان الله .. ما للعيون عميت عن الحقائق وهى مجلوة !! وما للقلوب انصرفت عن الآيات وهى مضيئة !! اللهم رحماك . فكأن الإنسان ليس بإنسان لأنه أهمل عقله إهمالاً جعله يجعل الباطل حقًا ويؤيده بأباطيل ، ويجعل الشمس الجلية ضحوة مظلمة .

قلتُ إن المسلم لم يجعل سيفه فى قهر الناس على اعتناق الدين ، لأن الجمال الإسلامى تجلى للعقول الكاملة وللقلوب السليمة تجليًا جذبها إليه . ومن رأى الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن وخدمة الأحاديث النبوية واستنباط الأحكام من الكتاب يتحقق أن أكثر مؤلفيها من غير العرب ، وأنهم من عقلاء الأمم وعلمائهم الذين جذبهم الحق إليه وقربهم منه ، الذين تجلت لهم أنوار الإسلام فاهتدوا بها إليه وظهرت لهم حقائقه فأقبلوا بها عليه ، فلما أن باشرت بشاشته قلوبهم تفجرت ينابيع الحكمة منها فترجمت بها ألسنتهم . ومن قرأ تلك الكتب يعلم حق العلم أن الذى دعا العالم إلى الإسلام جماله الحقيقى ونوره الجلى . وإنما كان السيف الإسلامى لمحو الظلم والفسوق والجهالة والرذائل ، وإلا فما لنا نرى أكثر من أسلم من غير العرب هم الذين خدموا الدين بعلومهم وأفكارهم !! وبينوا أسراره وأنواره وكشفوا للعقول عن حكمه وآدابه !! ونرى من بقى منهم على دينه ممتعين بأملاكهم وأموالهم وخدمهم وهم أقل ممن أسلم عقلًا وأدنى منهم فكرًا وأبعد منهم معرفة بأسرار الحكمة .

خرج هذا العربى بعد أن تلقى عن سيد رسل الله صلوات الله وسلامه عليه من مكة مخترقًا تلك البوادى القاحلة والصحارى الماحلة والجبال الشامخة والبحار المحيطة ، حتى رمى بنفسه إلى الأقطار النائية . فما مر على مجتمع جاهلى إلا جمَّله بفضائل الإسلام ، ولا على أمة ضالة إلا هداها إلى الحق ، ولا على مدينة فاسقة إلا أرجعها إلى الهداية .. فكان كأشعة الشمس التى تسرى فى الدقيقة الواحدة بسرعة تحير عقل العاقل فى سرعة سريانها وفيما تفيضه من الخير ومن النور والهدى والبيان ، فكان رسول الله ﷺ هو الشمس ، وكان أصحابه هم الأنوار المنبعثة من تلك الشمس العلية .

خرج العربى من مكة حتى خاض لجة المحيط ، محيط الظلمات (المحيط الأطلنطيقى) غربًا ، وخرج من مكة حتى سبح فى لجة المحيط الهادى شرقًا ، ونشر النور فى أقطار الهند والصين حتى جبال القوقاز ، ولم تقف به عزيمته حتى أبقى له فى كل وادٍ أثرًا لا يزال

لسان صدق ناطقًا بما للإسلام من الفضل العميم ، ونورًا مبينًا شاهدًا بأن الإسلام هو الدين الحق الذى يجب على كل عاقل أن يعتنقه .

قام هذا الرسول الكريم ﷺ بين أصحابه ، فنور قلوبهم بالحكمة النظرية بما أنزله الله عليه من كتابه المجيد ، وما أوحاه الله إليه من الحكمة والبيان ، ثم قام ﷺ بأكمل أحوال الحكمة العملية ، فعمل الأعمال الروحانية والبدنية خالصة للدار الآخرة ، والأعمال البدنية للدنيا والآخرة ، والأعمال الروحانية والبدنية لخير بنى الإنسان ، فبث ﷺ روح تلك الأعمال فى أرواح سلمت له ﷺ ، وقلوب تخلت من سواه ﷺ ، وآمال تعلقت به ﷺ ، فكانوا صورة كاملة لجنابه صلوات الله وسلامه عليه ، وآية كبرى دالة على أنه خاتم رسل الله وسيدهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين . وليس بنقص فى الشمس أن يراها الخفاش مظلمة وأنكر فضلها البوم والعقارب والأفاعى وأشكالها من الحيوانات المؤذية التى لا تهتدى فى النور المشرق . وكم من حيوانات تتطيب بالقاذورات وتتغذى منها ، وتموت إذا شمت الطيب ، وكذلك الحيوان الذى هو على صورة الإنسان يرى الحق باطلًا والباطل حقًا ، كما يرى الخفاش نور الشمس ظلمة وظلمة الليل نورًا .. نعوذ بالله من هوىً يعمى عن الحق وحظ تنقلب به الحقائق ، وأسأل الله سبحانه وتعالى أن يجعل لنا نورًا فى قلوبنا نهتدى به إلى الحق ، ويحفظنى وأهلى وإخوانى والمسلمين .

لعل المنكر يجهل ما مَنَّ الله به على جميع الخلق من الرحمة برسول الله ﷺ فيقول قام والسيف صلت - أى مسلول - فى يده ، ونعم .. ولكنه سيف رحمة وحنانة ورأفة وشفقة ، وإلا فالذى كان فى يده السيف للنقمة لِمَ أبقاكَ أيها المنكر حيًا وكان من السهل عليه أن يقول كلمة صغيرة فى وصاياه تكفى أن تكون الكرة الأرضية كلها ليس على وجهها غير مسلم ؟ .

لعلك لا تُسلِّمُ بحكمى هذا ، لكنى أبين لك بالبرهان الحسى أنه لم يشهر السيف إلا على الظلم ولم يضرب به إلا هامة الجور . انظر إلى المدن التى أسسها الإسلام والبلاد التى ملكها المسلمون ، تر النصرانى واليهودى والمسلم سواءً فى كل الحقوق المدنية . فلو كان السيف سيف النقمة لغير المسلم لما أبقى نصرانيًا ولا يهوديًا .. أقول على وجه الأرض ، لأن المسلمين إذا كانوا متمسكين بالدين تمسكًا حقيقيًا مكنَّهم الله فى الأرض بالحق تمكينًا حتى جعل لهم من القوة ما يمكنهم به أن يقهروا الخلق أجمعين على الإسلام أو القتل - ولم نسمع بهذا أبدًا - وإنما كانوا يقهرون الظلمة الذين كانوا يستعبدون خلق الله من الملوك والرؤساء ، ليجعلوا عباد الله يتنعمون بنعمه سبحانه فى مستوى واحد ، ويكون لليهودى وللنصرانى ما للمسلم من الحقوق كلها ، ويمتاز النصرانى واليهودى عن

المسلم بأنه لا يُكلَّفُ بحماية الثغور ولا بمدافعة الأعداء فى الجهاد ولا بحراسة المدن ليلًا ، بل يكونون فى أمن وأمان يعملون فى أعمالهم الخاصة ويستريحون متى شاءوا .

وكان المسلم يُكلف بدفع زكاة ماله فى كل سنة والذمى يكلف بنظيرها من ماله ، وزكاة المال من المسلم لا تجعل له امتيازًا . وما يُؤخَذُ من الذمى من المال يجعله فى رياض الأنس وحصون الأمن ، تُسفكُ دماء المسلمين وهو آنسٌ بزوجته وأولاده فرحًا مسرورًا ، ويفارق المسلمون أولادهم وأهلهم وبيوتهم وهم كأنهم ملوكٌ فى منازلهم ومزارعهم ومصانعهم . هذا هو الذى سُلَّ لأجله سيف الإسلام ، فهو رحمة لا نقمة ، ونور لا ظلمة ، وحياة لا موت ، وسعادة فى الدنيا لأهل الذمة ، وسعادة فى الدنيا والآخرة لمن انكشفت له أسرار الدين ممن أسعدهم الله بالعقل .

إن العرب الجاهلية الأذلاء ، الجائعى البطون ، العراة الظهور ، المتفرقى الكلمة ، الجبارين ، كيف سادوا وملكوا الأرض شرقًا وغربًا وأسسوا المدينة الفاضلة على أكمل أسس؟ لم يكن ذلك إلا بالإسلام . نعم .. ولم يكن قبل الإسلام مدينة فاضلة بمعنى الكلمة ، لا ، ولا فى عصر رسل الله السابقين ، فإن شاهد الحق لدينا أقاصيص التوراة وما جاء فى الكتب المقدسة من الحوادث المهمة . أى مدينة من المدن القديمة كانت مؤسسة على الفضائل الكاملة ؟ الأمر جلى كالشمس فى السماء الصحو ، وإنما صار المجتمع الإنسانى مجتمعًا فاضلًا بعد الإسلام لا قبل الإسلام . كان الحق للسيف والسوط والقوة قبل الإسلام ، فما ظهر الإسلام إلا وظهرت الفضائل الكاملة بأجلى مظاهرها ، والمساواة الحقيقية بأجلى معانيها . لا تجعل أعمال بعض أهل الجهالة من المسلمين حجة على الإسلام ، وإنما هى وصايا محفوظة لم تغيرها السنون والدهور ، ولم يحرفها أهل المطامع والجهالة والغرور ، لأنها تنزيل من حكيم حميد .

٥ - يتخذون من حديث الإفك مادة للتشنيع :

أنكروا على الإسلام أمورًا خارجة عن نواميس الدين بعيدة عن أصوله . يقولون إن زوجة النبى ﷺ وهى فى سفر خرجت لتقضى حاجة فى مكان البراز ليلًا ، لأن قضاء الحاجة لا يتحمل الصبر عليه الإنسان وابتعدت عن الناس بحاجتها حياءً ، فقام الجيش . فلما أقبلت جلست فى مكانها الأول حزينة باكية مسلمة أمرها لله ، حتى جاء الراكب الذى يكون بعيدًا عن الركب ولا يقوم إلا بعد قيامه ليتمكن من حمل المتأخر وحفظ ما يضيع منه . فلما أقبل وجد امرأة نائمة ، وكان من أتقياء الصحابة رضوان الله عليه ، فنزل من على ناقته ثم وقف وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون ، فاستيقظت عند استرجاعه

وركبت على الناقة وانصرفت بها وهو يعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ . فلما أن قدموا المدينة قام يهود المدينة فقالوا : تأخرت زوجة نبيهم .

وما الذى كان لو تأخرت ؟ إن الرجل ليرسل زوجته وأخته مع رجل آخر صديقه فيسافر بها اليومين والثلاثة والأربعة لمجرد الصداقة . واليهود معذورون إذا قالوا : إن عيسى ابن زنا ، وإذا رموا أمه بالفسوق ، لأنها بنتٌ بكرٌ راهبة حملت وولدت ورؤى ابنها ، الأمر الذى لا يرتاب فيه عاقل حتى برأها الله تعالى ، ولكن ما وجه الشبه فى هذا ؟ . سبحان الله . أهذه من الأمور التى تنقص مقام الأنبياء ؟ إنْ كان هذا مما ينقص مقام الأنبياء فمسألة المسيح ليست شبهة ولكنها حقائق . فمن كان يصدق أن بنتًا بكرًا تحمل وتلد ويقول : إنها بريئة طاهرة ؟ كيف ينكر أن زوجة نبى كريم تكون فى سفر وتمنعها الحاجة ثم يأتى حارس الركب بها محمولة على ناقته وهو من أكرم الصحابة وأعلمهم بمقام رسول الله ﷺ ويظن به السوء من له عقل ؟ أخرج الخشبة من عينيك ، فإن عينى أخيك ليس فيها قذى - هذا أكبر ما يرمون به هذا النبى الكريم .

وقد علمت أن أسفار التوراة دالة على أن الرسل عليهم الصلاة والسلام يحفظ الله أهلهم ويبعد عنهم من ليس منهم . إن كانت مريم التى حملت وولدت برأها الرب ، فتلك السيدة التى لا يخطر على قلب عاقل خاطر بسوء فى حادثتها هذه إلا من لعنهم الله من اليهود والمنافقين وممن قام يظن السوء فى أمهات المؤمنين .. قد حفظ الله شرفها ودافع عنها سبحانه فى محكم القرآن بصريح العبارة . فمن أنكر براءة الله لأم المؤمنين وهى البعيدة عن الشبهة ، المصونة عن الريبة .. قال : إن المسيح ابن زنا . ولعل من عنده قابلية للفهم أن يتوب إلى الله ويرجع ، وإلا فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين .

٦ - ليست الآية فى خلق عيسى توجب تأليهه :

وليس حمل مريم بولدها عيسى عليه الصلاة والسلام بأعجب من حمل الأرض بولدها آدم . والذى يعتقد أن الأرض التى ولدت رجلًا هو آدم ، وأن رجلًا ولد امرأة هى حواء لأن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر ، لا يتعجب إذا رأى فتاة بالغة خلق الله منها ولدًا . ولو أرجعت الأمر إلى الأمور العقلية الطبيعية وجردت نفسك من وساوس الخيال ومن فساد الأوهام لحكمت أن الأمر ليس فوق العقل ولا يحتاج أن يكون الذى يولد بهذه الصفة هو ابن الله ولا أخاه ولا أنه الله حل وتجسم فصار ولدًا ، لأن العناصر الأربعة فى المرأة إذا توازنت توازنًا حقيقيًا مؤديًا إلى كمال الرتبة الحيوانية الإنسانية يجوز أن يتحلل

من المجموع المنوى منى صالح لأن يتطور فى الرحم أطوار منى الرجال ، فيكون منه إنسان ينقصه قوة الشهوة الإنسانية ، وثقل الطينة الآدمية ، كما حصل كثير مما يقول عنه غير المتدينين أنه من فلتات الطبيعة ، ويقول أهل الدين قدرة الله صالحة لكل شئ والله قادر على كل شئ .. نعم .. خفاء السبب يوجب العجب ، ولكن لم يخف السبب .

إذًا .. القدرة التى خلقت إنسانًا من الطين ، وإنسانة من إنسان ، وجعلت غصنًا - الذى هو عصا سيدنا موسى عليه السلام - من شجرة حيوانًا يسعى يلقف كل شئ يمر به ، وجعل الريح تصير كبساط يجلس عليه الإنسان (سيدنا سليمان) ثم تحمله وتطير به ، وجعل تلك الآيات العجيبة المشرقة جلية فى المجموعة الشمسية وفيما بين السماء والأرض وفى الأرض .

كل تلك الآيات لم تكن عجيبة عند العاقل لظهور سببها جليًا ، وهو قدرة القادر الحكيم . ولكن الجاهل بقدرة الله تعالى وبكمال تنزيهه سبحانه وبعلى جلاله وعظيم كبريائه وعزته إذا رأى آية مما لا يعجب منها العقلاء يظن أنها هى الله أو جزء من الله ، وكفى بالجهل شرًا . أكرم الله عبده ورسوله عيسى بن مريم ﷺ بما يلفت إليه الخلق ، وخصوصًا بما كان يتنافس فيه أهل زمانه من الطب والسحر ، وكان ﷺ يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيى الموتى بإذن الله ، الأمور التى أعجزت أئمة الأطباء فى عصره كما فعل سيدنا موسى عليه السلام حين ألقى العصا فصارت تلقف ما صنعوا . وإن العجب من عصا سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام عند العاقل أولى من العجب بآيات سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام ، لأن المرض من شأنه أن يزول لأنه عارض ، والموت سبقته الحياة ، فإرجاع الأصل سهل على القدرة ، ولكن تفجير اثنى عشر نهرًا من حجر صغير يُحمل فى الكم أعجب وأغرب ، وشق البحر حتى يصير الماء كجبل انفلق فكوَّن واديًا بين جزأيه وجمد الماء كأنه جبل وييس ما بين الفرقين بحيث صار الماء لا يسيل حتى مر سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ومن معه من بنى إسرائيل ثم انضم بعد ذلك فصار متلاطمًا بالأمواج . تلك الآية أعجب وأغرب من كل آية أتى بها سيدنا ومولانا عيسى عليه الصلاة والسلام .

فالجاهل ربما يظن أن العصا هى الله ، وأن الله حل فى العصا ، كما ظن بعض بنى إسرائيل أن عزيرًا الذى أماته الله مائة عام وأحياه بقدرة وحكمة هو ابن الله لجهلهم السبب ، ولكن إذا ظهر السبب بطل العجب .

فأى عجب فى أن امرأة ولدت بدون زوج - وقدرة الله صالحة لأكثر من ذلك ؟!! -

وأى عجب فى أن إنسانًا يقول فى الإنجيل : (لست المعلم الصالح ، المعلم الصالح هو الله) ويقول : (اعبدوا أبى وأباكم الذى فى السماء) ويقول : (من يؤمن كإيمانى يعمل كأعمالي وأكثر) ، ثم يقيم الحجة على أنه عبد الله ورسوله بما يعجز أهل زمانه فيعتقد الجاهل أنه ابن الله أو أنه هو الله أو أنه جسم حل فيه الله .

لا تعجب إذا اعتقد الجاهل عقيدة من تلك العقائد ، فليس بعد الجهل ذنب . وكفى ذمًا للإنسان المؤهل لتلقى العلوم المفيدة ونيل كمالات النفس أن يكون جاهلًا يلقى نفسه بجهله فى هاوية العذاب .

إن يحيى بن زكريا عليهما السلام المذكور فى التوراة باسم (ملاخى) وهو رسول كريم على الله تعالى جاء بمعجزة فى حمله ووضعه لا تقل عن معجزة المسيح فى حمله ووضعه ، لأن زكريا عليه السلام كانت عنده امرأة عاقر كما هو صريح التوراة وطال عمره حتى بلغ سن اليأس من أن يكون له ولد ، ذلك لأن امرأته عاقر وأنه حرم القوة التى بها نيل هذا الأمر حتى أن الله بشره على لسان جبريل عليه السلام فعجب من بشارة الله له لأن حاله هو وزوجته لا يقبل العقل أن يكون لهما ولد ، ولكن الله قادر على أن يوجد الشئ من لا شئ ، فكيف لا يوجِدُ ولدًا من امرأة عاقر ورجل يائس بلغ به ارتخاء مفاصله وييس المادة الغريزية مبلغًا جعله كالميت وامرأته كأنها ميتة لأنها عجوز بلغت سن اليأس .

إن المعجزة التى ظهرت لعيسى ظهرت بأجلى مظهرها فى يحيى (يوحنا) . لم يكن عيسى أولى من يوحنا فى هذا المجد ، لأن يحيى رسول الله وعيسى رسول الله عليهما السلام ، والله أعطى يحيى الرسالة صبيًا ، وبلغ من الثقة به عند قومه أن جعلوه رئيس المعمودية وهى وظيفة كُمَّل الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وأجمع كل شعب إسرائيل على أن المعجزة التى أظهرها الله ليحيى من أكمل المعجزات ، لأن حمل بنت شابة ليس بعجيب كحمل امرأة عاقر - يئست من الحيض - من رجل ارتخت مفاصله وييست مادته وأكله الهرم حتى صار بالنسبة لهذا كالميت .

أقول : لم يكن المسيح عليه السلام أولى من يوحنا (يحيى) فى هذا المجد ، لأن يحيى عمَّد المسيح عليهما السلام ، فكان ذلك برهانًا على منزلة يحيى من المسيح عليهما السلام .

الإمام والإصلاح الاجتماعى

من أهم القضايا التى شغلت فكر الإمام أبى العزائم رضى الله عنه قضية الإصلاح الاجتماعى للفرد خاصة وللمسلمين عامة .

عاش الإمام فى عصر تجرع العالم الإسلامى فيه مرارة الاستعمار الغربى الذى سيطر على مقدرات الشعوب وسلب الأمة حريتها وأفقدها هويتها الإسلامية وطمس حضارتها التى أخرجت أوربا من ظلمات الجهالة ورق الاستعباد إلى نور الحرية وآفاق الفكر والعقل السليم . كان هذا الحال يعن للإمام رضى الله عنه . وهو يتوق إلى المجد الذى فقده المسلمون ، ويبحث جاهدًا ومنقبًا عن أسباب وطرق علاجه ووسائل عودته . فيرى أن البداية الصحيحة والأساس القوى أن يبدأ الإصلاح من الفرد ثم المجتمع الإسلامى العام فتناول ذلك من خلال خطبه ورسائله ووصاياه ، وعالج قضية الإصلاح الاجتماعى للفرد بأسلوب عصرى شيق وروائى على هيئة مسرحية (محكمة الصلح الكبرى) عرض فيها مطالب النفس والروح ورغائب الجسد وكيف يمكن للإنسان تحقيق التوافق والانسجام مما يحقق له التوازن النفسى والاجتماعى ويقضى على الصراعات الداخلية التى تتنازعه . وقد تجعل منه إنسانًا قد يقتل من بنى جنسه من أجل رغائب الجسد أو يهيم فى البوادى والقفار من أجل مطالب الزواج ، وكل ذلك من ألوان التطرف التى تميل بالإنسان إلى هاوية سحيقة من التردى والتخلف وتجعله أسيرًا لشهوته أو رغبته ، فكان بذلك رضى الله عنه قد وضع بميزان الحكمة وقسطاس الحكيم الدواء الناجع لإصلاح الفرد داخليًا وتهيئته لأن يكون عضوًا صالحًا فى المجتمع الإسلامى العام يبنى ولا يهدم ويشيد ولا يبدد .

ثورته رضى الله عنه على الواقع الاجتماعى للفرد المسلم :

أراد رضى الله عنه أن يلهب روح الحماس ويوقظ الحمية فى قلب الفرد المسلم حتى يتعهد نفسه بالإصلاح ، فيقول مخاطبًا كل فرد فى المجتمع مذكرًا إياه بمجد أجداده المسلمين الذى فُقد ويجب أن تحن إليه نفسه : « يحق للنفس الإنسانية أن تحن إلى المجد ، حنين الظمآن إلى الماء فى اليوم الصائف فى الصحراء ، وكيف لا والمجد حياة النفوس ؟ كيف يرضى الإنسان بالحياة البهيمية التى بهجتها الأكل والشرب والنكاح ؟ بل هى أدنى من حياة البهائم ، فإن بعض الحيوانات يشعر بالحياة الحقيقية التى تشبه الحياة الإنسانية ، فترى الكلب يفضل المدافعة عن أصحابه وهو جائع ، فينسى شهوة الأكل ، والديك يفضل المدافعة عن الدجاج إذا رأى ديكًا آخر حتى يسيل دمه ولا يحس بالألم ولا بالجوع

وهى أدنى الحيوانات ، ومن أنواع الحيوانات ما يشعر باللذه المعنوية كالخيل فى المسابقة ويلتحق بها الحمير والبغال ، إذا كانت تلك الأنواع الدنيئة تستعلى فيها على ملاذ الحس فالإنسان أولى » .

ثم يلهب الثورة داخل الإنسان حتى يهبّ لأجل نيل حريته وفكاك أسره وقيده فيقول : « الإنسان في الحقيقة خلقه الله حرًا ، مريدًا ، وتلك الحقيقة مهما أخفتها العوامل القوية بعامل السحر أو الخويصة أو الشعوذة أو القوة القاهرة بالظلم ، والعلو بغير الحق ، فإنها لا تلبث إلا ريثما تتنبه تلك الحقيقة - بسبب تلك العوامل - إلى أمنيتها التى سلبها منها العاملون لنفعهم الخاص ، فتأبى تلك النفوس إلا نيل المجد ولو ببذل الرؤوس ، وإن لتلك الغاية خمرة تجعل الجبان شجاعًا والبخيل كريمًا والخامل نابهًا ، حتى تكون عظائم الأمور صغيرة فى نظره ، والرجل المهيب محتقرًا أمامه .

لابد لرئيس العائلة - ولو كان والدها - أن يسارع إلى محو الظلم والتظالم والعمل بالإنصاف والتناصف معتقدًا أن هذا يحفظ له سيادته ، ومجدًا لعائلته - ولو ناله فى سبيل ذلك الآلام والشدائد - وإن العائلة تمثل الأمة المستقلة تمام الاستقلال : يكون الوالد ملكًا ، والأبناء وزراء وعمال وأعوان وفعلة ، كل فرد منهم يسعى لخير جميع العائلة بذلك يدوم لهم المجد » .

الإمام يكشف الفساد الاجتماعى :

ينظر الإمام رضى الله عنه إلى واقع المسلمين فى مجتمعاتهم فيجدهم قد تعدوا الحدود وخالفوا الوصايا الشرعية ، وصار كل فرد منهم يعمل لنفسه دون مراعاة لأحكام الله ولا رحمة بإخوانه ولا خوف من يوم الحساب ، ففتحوا بذلك على أنفسهم أبواب الشرور وارتكبوا الآثام وتحاسدوا وتباغضوا وتدابروا وتقاطعوا وسلطهم الله على بعضهم وتفرقوا وصاروا شيعًا وأحزابًا وتركوا الحق فتركهم ووكلهم إلى أنفسهم وطمع فيهم من كان يهابهم ومكن منهم وكانوا عبيدًا لهم ، وانتشرت الأمراض فى الجسد المسلم وظهر أهل الباطل على أهل الحق وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر فيقول رضى الله عنه :

« قام خطباء الفتنة وعلماء الدنيا يحسّنون للأمراء والأغنياء ما قبحه الله تعالى ، ويحقرون أهل التقوى ، حتى نشروا على صفحات الجرائد المنتشرة ما يغضب الله ورسوله ، من أعمال الأمم الأجنبية ، وجعلوها فلسفة وحكمة وحضارة ورقيًا ، وأنساهم الشيطان أنوار القرآن ، وحكمة رسول الله ﷺ وآثار سلفنا الصالح ، فقتلوا الشعور الإسلامى ، وستروا عن العقول كمالاته ، وأخفوا فضائله ، حتى أصبح أكثر المسلمين

لا هم لهم إلا تحصيل زخرف الدنيا ، والتجمل بتلك الرذائل ، فاستبدلوا العفة بالتهتك ، والاقتصاد بالإسراف ، والاستقامة بالضلال ، أباحوا الخمور ، وانتشرت علنًا فى الأسواق ، وشربت فى نهار رمضان ، وانتشرت العهارة أكثر مما كانت فى الجاهلية وظهرت حتى خصص لها أماكن معلومة ، يقصدها المسلمون للزنا فى المسلمات ، فيدخل المسلم على المسلمة فى دار مشهورة ، يشرب الخمر ويزنى وجندى يحرسه !! وقد ألف القوم هذا المنظر المحزن ، بل يتوجة المسلم إلى الحانة فيرى المسلمة ترقص أمامه وأمام غيره من الأجانب فيسر ويعينها بالمال ، وكأن العيون الإسلامية بدلت بعيون بهيمية ، بل البهيم أعلى شرفًا ، فإن ديك الدجاج وذكر الحمام ، بل والحمار تأبى نفسه الحمارية أن يرى حمارًا ذكرًا فى مثل هذا الموطن ، فعجبًا !! كيف ينحط الإنسان إلى أن صار أقل من البهيم ؟ .

انتشر الربا حتى صار خير ما يعامل المسلم به أخاه ، فترى المسلم يقف أمام القاضى لا يستحى من الله ولا من الناس ، فيسلب مال أخيه ، ويتركة جائعًا بما تراكم عليه من الربا ، كأن القلوب الإسلامية صارت شيطانية .

فشا الميسر حتى صار المسلم يغتصب مال أخيه حرامًا ، فيتركه فقيرًا لا يملك قطميرًا ، فلا يرحمه فأين الفضيلة الإسلامية ؟ وأين الرحمة الإيمانية ؟ إن بعض تلك الأعمال يجازى بها الإنسان بالمسخ أو بالخسف ، فسبحان الحليم الذى لا يعجل بالعقوبة على من عصاه !! » .

ويقف الإمام رضى الله عنه ثائرًا وناصحًا الأمة الإسلامية والمجتمع المسلم بأسره فيقول : « يا قوم : التفرقة هى الجيش الذى جنده أرسطو لتمكين الاسكندر المقدونى من قهر الملوك لسلب الملك . كتب اسكندر إلى أرسطو بما معناه : إنى باتباع وصاياك تمكنت من قهر ملك الفرس ، واستوليت على مملكته ، ولكنك تعلم قلة جندى وبعد الشقة ، وهم رجال طوال الأجسام كبار الرؤوس أهل جرأة وشجاعة ، فزودنى برأيك فيهم ، فكتب إليه : ألبس كل كبير مدينة تاجًا وسمه ملكًا ، وأمره بما شئت وأسرع بالسفر وارجع إليهم تجد ما يسرك ، فنفذ اسكندر وصية معلمه ، فاستوت شرارة الحسد فى جمر الطمع ، ودارت رحى الحرب بينهم جميعًا فأهلك بعضهم بعضا ، وبقى أذناب كالبهائم السائمة يكفيهم من الدنيا ملء بطونهم ، وستر عوراتهم ، وهذا هو السلاح الذى يضرب به الغرب الشرق » .

التنازع مرض يفرق الأمة وعلاجه الرجوع إلى الحق :

شغل رضى الله عنه بحال الأمة وتنازعها وعدم استيعابها لقوله تعالى : ﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾[1] والتنازع مُذْهِبٌ للقوة . ولذلك يقول رضى الله عنه : « التنازع فطرة الوحوش الكاسرة ، وصفة الشياطين ، وعمل الجاحدين بالله ، لكنا نحب التنافس فى الفضائل ونكره التنازع فى الرذائل ، ولكننا قد نهمل تحصيل العلم النافع حتى نجهل الفرق بين التنازع والتنافس ، فتنقلب الحقائق فى أعيننا ، فنرى الشر خيرًا ، والخير شرًا ، ولا أدل على ذلك مما نحن فيه .

قال العربى :

يقضى على المرء فى أيام محنته ... حتى يرى حسنًا ماليس بالحسن

والواجب علينا أن نتدارك الأمر بالرجوع إلى الحق ، فإن الحق فوق الخلق وخصوصًا فى وقت الشدائد الفادحة التى يتعين علينا فيها التعاون على البر والتقوى ، لأن مقصد الأمة واحد ، وهو أن تعيش حرة مريدة مستقلة » .

أثر الإمام المجدد أبى العزائم على الحياة الاجتماعية فى عصره :

فى مجال المال والاستثمار كان الإمام رضى الله عنه يدعو المصريين فى عصره إلى العمل الجاد المثمر ، فكان يدعوهم إلى تكوين الشركات الزراعية والتجارية والصناعية قائلًا : « يجب ألا يترك المسلمون الأغنياء غيرهم يستثمر أموالهم ، ويثرى على حسابهم ، ويستخدمهم كطاقة بشرية واقتصادية فتستغنى شعوبهم بقدر ما تفتقر شعوبنا » .

ولقد كان « طلعت حرب » مؤسس بنك مصر فى كل خطواته قبل وبعد إنشاء البنك يتوجه إلى الإمام أبى العزائم فى ذهبيته بالعجوزة يطلب منه الدعاء الخالص والتأييد الروحى من قلبه الكبير ، وكان الإمام أبو العزائم يطمئنة فى ذلك ويشرح صدره . فانتشرت شركات بنك مصر وازدهرت مصانع الغزل والنسيج والملاحة وغيرها . وكان سرور الإمام أبى العزائم عظيمًا عندما ارتدى الملابس التى صنعت فى مصر لأول مرة واقتدى به عدد كبير من أتباعه ومريديه[2] .

---

(١) سورة الأنفال آية ٤٦ .

(٢) راجع (أثار الإمام أبى العزائم الشعرية) رسالة ماجستير للأستاذ/ سرى محمد حسن ، ص ٤٠ .

لقد ألف الإمام أبى العزائم سلسلة من الكتب تعكس مدى اهتمامه رضى الله عنه بالمجتمع فى أطواره المختلفة . محليًا وعربيًا وإسلاميًا وإنسانيًا وهى كتب « الإسلام دين الله ، والإسلام وطن ، والإسلام نسب » .

والإمام أبو العزائم يرى أن الصوفى الحق يعلم أن واجباته متعددة ومتفرقة ويحاول أن يوزعها نحو نفسه ، ونحو ربه وأولاده ، وإخوانه ، وأقاربه بدقة لا يهمل فى أداء واجب منها لشغله بواجب منها عن غيره . وهو رضى الله عنه يهتم بالوقت وتنظيمه ومعرفة أوجه إنفاقه حسب أولويات الفروض والواجبات التى يطالب بها الفرد المسلم فيقول : « لا يعد المريد سالكًا على الطريق إلا إذا علم بواجب كل وقت ، وعرف المبدأ والمرجع والمقدم والمؤخر ، وتمكن من معرفة نفسه ونوع أمراضها ودوائها ، وكيفية تزكيتها وما هية وسائل كمالها ، حتى لا يقع فى صغائر الأمور التى تشتبه عليه لشدة خفائها . كما يحصل من بعض المريدين الذين يسارعون إلى عمل النوافل ، ويتساهلون فى عمل الواجبات ، من بر الوالدين أو صلة الرحم ، أو نجدة ملهوف ، أو عيادة مريض ، أو جهاد فى سبيل الله ، أو اكتساب رزقه ورزق من يعولهم ، فقد يكون شىء من هذا واجبًا يقتضيه الوقت فيتركه ويقبل على الأوراد ، ويكثر من الصيام والقيام والتعبد فى خلوة عن الناس حتى يصير وليس عنده وقت لعمل المطلوب منه فى الحياة ، فتتحول تلك النوافل إلى معاصى على المريد من حيث لا يعلم »[٣] .

جهاد الإمام أبى العزائم من أجل جمع الكلمة :

استخدم الإمام أبو العزائم رضى الله عنه كل ما يملك من وسائل من أجل جمع كلمة الأمة ووحدة صفها ، وما ترك منبرًا من منابر الدعوة إلا نصح ووعظ ، ومؤلفاته ودروسه مملوءة بالعديد من الوصايا والنصائح التى تزخر بزاد قوى من أساليب الدعوة إلى الاجتماع ونبذ التفرقة ، وكتب فى المجلات والجرائد التى كانت تصدر وقتذاك . ومما كتبه رضى الله عنه ينصح الأمة بأسرها :

« خير وسيلة لنيل الخير أن يثق كل فرد من الأمة بنفسه معتقدًا أنه جندى من جنود الوطن فيضع نفسه حيث يكون الخير للأمة ، فإن كان من أهل الشورى فمعهم ، وإن كان من أهل التنفيذ فمعهم ، وإن كان من العمال الذين يجب عليهم ملازمة أعمالهم الضرورية للأمة لزم أعماله من زراعة أو صناعة أو حرفة أو تجارة ، والفساد إنما يحصل بقيام كل واحد بعمل مالا يحسن وترك مالا بد منه . وأهم ما يجب علينا الآن عمله

(٣) راجع كتاب « دستور السالكين طريق رب العالمين » للإمام أبى العزائم رضى الله عنه .

تكوين الأمة حتى تكون جسدًا واحدًا ويكون كل فرد ككل عضو فى الجسد، وبذلك تقهر الأمة أعداءها ولو اجتمع عليها كل من بأقطار الأرض».

وفى جريدة الأخبار نشر للإمام رضى الله عنه مقال بعنوان: (حول الحالة الحاضرة - الدين النصيحة) ينصح فيه الحكام والعلماء والتجار والصناع ورجال الأحزاب.

ومما قاله لرجال الحكومة:

«إنكم أفراد من الأمة، وما تمتعتم به من نفوذ الكلمة ومن واسع النعمة، ومن الجاه والعزة، إنما هو بالأمة ومنها، فإذا عاديتم الأمة وهى مصدر الخير لكم، وأرهبتموها بالحديد والنار قتلتم نفوسًا أنتم فى حاجة إليها، وأضعتم ثقة من القلوب لا غنى لكم عنها، وفتحتم على الأمة أبواب الشرور من الجبن، والعمل على نيل السلامة بالمكر والخديعة، فيهملوا الواجب عليهم من التعليم والتجارة والصناعة والزراعة ويخرج بعضهم على بعض فيتفرقوا شيعًا وأحزابًا».

وخاطب رجال الأحزاب فقال:

«انظروا إلى ماآلت إليه حالكم. لقد أصبحتم أحزابًا تتطاحنون، مع أن القصد واحد، وإنما الاختلاف لا سبب له إلا الطمع، أوربا كثرت فيها الأحزاب ولكن لكل حزب مقصدًا خاصًا به، والأحزاب أحزان فى أمة تجاهد لدفع العدو الغاصب، والتفرقة فى أمة لا قوة لها على دفع عدوها الرابض فى عقر دارها هى موت أبدى، فليُضحِ كل فرد من الأمة بكل رخيص وغال لنيل الخير العام، وليحقر كل رجل ما يناله من الجاه والسلطان الذى يكون فيه ذله وذل أمته».

ولم يكتف الإمام رضى الله عنه بتشخيص الأمراض فى مجتمعه فقط بل قدم برنامجًا شاملًا للإصلاح والنهوض بالمجتمع ويرى رضى الله عنه أن الأسباب التى وقفت عثرة فى طريق تقدم الأمة الإسلامية ورقيها وتحضرها تنحصر فيما يلى:

١ - تهاون الحكام بأحكام الدين.

٢ - ترك الحكام إقامة الحدود.

٣ - رغبة العامة فيما يفنى وإيثاره على ما يبقى.

ولكى يعود للمجتمع الإسلامى حضارته لابد من:

١ - أن تكون اللغة العربية هى لغة التفاهم بين جميع المسلمين أو مع غيرهم.

٢ - أن يجتمع المسلمون على إمام واحد يكون هو خليفة رسول الله ﷺ سواء كان

عربيًا أو أعجميًا .

٣ - أن تقام حدود الله ، وأن يعمل بالكتاب والسنة .

٤ - أن تكون تربية المسلمين مؤسسة على التربية الدينية بحيث يكون التعليم أولًا قاصرًا على تعليم الإيمان ، ثم القرآن ، ثم يكون تعليم الصناعة والزراعة والتجارة ، أو تعليم فنون الجهاد وتدبير المدن ، أو سياسة المجتمعات .

وهكذا نجد أنه رضى الله عنه كرَّس حياته لخدمة المسلمين والنهوض بالمجتمع المسلم بكل الوسائل . حتى كان المسلمون هم شغله الذى يشغله عن نفسه ويقدمه على كل شئ فى حياته . وتلك هى صفات الرجال الذين يعملون بإخلاص لربهم ، سيرًا على سنة نبيهم ﷺ .

الإمام والتصوف

تميز العصر الذى نشأ فيه الإمام بانتكاسة لعلم التصوف ، حيث تعرض كسائر العلوم الأخرى إلى ظهور أفكار منحرفة وظواهر غريبة كالدجل والشعوذة والتواكل وترك التسبب ، وتصدُّرَ للمشيخة من ليس لها أهلًا من علم وتقوى وعرفان ، الأمر الذى دعا الإمام أبا العزائم إلى الغيرة والتنبيه على هذه الأخطاء والانحرافات .

ويمكن تلخيص ذلك فيما يلي :

١ - غياب دور المرشد أو القدوة .

٢ - ندرة معاهد التربية الصوفية الصحيحة . فلم تعد الطرق الصوفية إلا مأوى للعاطلين أو الشاطحين .

٣ - اقتصار الطرق الصوفية على الاهتمام بالأزياء (المرقعات) والرايات والغلو والتقديس المفرط للمشايخ .

٤ - التفريط فى التكاليف الشرعية باسم التصوف ، والتحلل من الأخلاق باسم الصوفية ، حتى أصبح علم التصوف عند الناس منكرًا واسم الصوفية مرذولًا .

٥ - ندرة الكتاب الصوفى النقى والمحقق على أساس من الكتاب والسنة وعقيدة السلف والجماعة ومذاهبهم الفقهية ، فنجد الكتب إما مملوءة بالمغالاة أو الإفراط أو الشطح أو الألغاز التى لا يرتاح لها مطلع فضلًا عن فقيه .

٦ - ميل الكثير ممن كتبوا عن التصوف أن يجعلوه فى حيز ضيق تحت مسمى (علم الخاصة) مع أن موضوعاته وبحوثه لا غنى عنهما لكل مسلم ، بل هى مطلوبة من كل إنسان لارتباطها به ارتباطًا قويًا كتزكية النفس وعلم أمراضها وعلاجها ، والعناية بصحة القلب ، وتصريف النية وأحوال العباد وغيرها ، وكلها أمور تكليفية فى حق كل مسلم .

٧ - إن أكثر القائمين على هذا العلم والمتصدرين للمشيخة فيه أصبحت تصوراتهم قاصرة ، ومفاهيمهم ضيقة ، ويعيشون بعيدًا عن عصرهم ، وعن بديهيات إسلامية لا يصح أن تغيب عن أصغر مسلم ، منها إبقاء المريدين فى الزوايا والخلوات وحبسهم عن العمل العام والمشاركة الاجتماعية ، ومنها إغفال الجهاد الذى كان هو السمة المميزة للتصوف فى عصوره الأولى أمثال : أبى الحسن الشاذلى وأحمد البدوى والعز ابن عبد السلام ، وثورة سعيد الكردى النقشبندى فى تركستان وجهاد

المجددى فى الهند .

كانت هذه العوامل مجتمعة كافية لتهيئة مناخ للعمل ودافعًا قويًا استنهض الإمام أبا العزائم إلى دخول هذا الميدان الذى يجمع الغالبية العظمى من طبقات المجتمع ليصحح المفاهيم ويأخذ بيد الحيارى ويرشد الراغبين ويقيم الحجة على المنكرين عملًا بقوله ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يغرهم من ناوأهم إلى قيام الساعة)[1] .

بذل الإمام أقصى ما يستطيع لنشر الثقافة بين الجماهير ، وذلك لعلمه أنها خير أداة لتربية الشخصية الإنسانية على نمط إسلامى حق ، وحمايتها من الانحراف عن صراط الله القويم بالوعى المدرك وبالكمال المستدرك . ومن خلال هذه التجربة الطويلة والنشطة استبان له رضى الله عنه أن تنقية الجو الروحى من نوازع الهوى وشوائب ومطامع النفس وضراوة الأنانية ، فكان جنوح الإمام إلى إضافة التصوف فى منهاجه التربوى ، الذى غطى كل مجالات المعرفة واستوعب كل مناهج التربية تحت علم « جماعة آل العزائم » التى أسسها عام ١٣١١ هـ ١٨٩٣ م ، فلم تترك مجالًا إلا وتكلمت فيه .

وقام رضى الله عنه يربى تلاميذه على منهج كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، واهتم بتربية المريدين من كافة الجوانب ، وخصوصًا تزكية النفس التى حرص عليها الإمام أشد الحرص وخطط لها أساليبها التطبيقية من أقصر طريق موصل ، فإن رسول الله ﷺ الذى أخذ عنه أئمة الصوفية رضى الله عنهم وأرضاهم كان قوامًا على تزكية النفس والجسم معًا وإحاطة النفس علمًا بما أودعه الله فيها من أسرار غامضة وحكم عجيبة تحيرت فيها العقول .

بين الإمام رسالة التصوف الروحية والأخلاقية ، وبين أن التصوف أخلاق نبيلة ، وتخل وتحل وتجل ، وكما أنه تفوق فى العبادة فإنه أيضًا تفوق فى العمل ، وهو جهاد إلى أن يصل الإنسان إلى طور المعاد ، وأن واجب رجال الطرق الصوفية أن يكونوا قدوة ليهدى الله بهم بالحق والخير لأنفسهم والناس كافة ، فتصح العقيدة والعبادة والمعاملة والأخلاق ، ويكونون من أهل المزيد فيتبعون من القول أحسنه .

كان التصوف مزدهرًا فى عصوره الأولى ، ثم بدأت عوامل الضعف تسرى إليه حتى وصل إلى ما هو عليه كما أسلفنا فى عصر الإمام ، أما الناس فقد انقسموا بالنسبة إلى التصوف والصوفية إلى عدة أقسام يمكن اختصارها فيما يلى :

---

(١) رواه مسلم والترمذى وأحمد بألفاظ مختلفة والمعنى واحد .

١ - طائفة تنكر على التصوف والصوفية : وهؤلاء ؛

أ - إما أن يكونوا على غير تجربة صوفية أو اطلاع على علوم القوم ومشاربهم وأذواقهم ، فهم ينكرون العلم وأهله ، ولا يتكلفون مؤنة النظر والبحث قبل رفض الأصل جملة واحدة .

ب - وإما أن يكون لهم سابق اطلاع على كتب القوم التى لم تسلم إما من الشطح والتفريط ، أو المغالاة والتحريف .

جـ - وإما أن يكونوا قد نظروا إلى حال معاصريهم وما هم عليه من منكرات فأنكروا ، وهم معذورون فى حكمهم .

٢ - طائفة بين المؤيدين والمعارضين للتصوف :

وهؤلاء هم الذين نظروا إلى التصوف كعلم فوجدوه لا غنى عنه للإنسان لما يحتويه من مباحث وأصول قائمة على الكتاب والسنة ، ونظروا إلى أهله والمنتسبين له والمتزيين بزيه فوجدوهم على غير ما طالعوه فى كتب أشياخهم ، فهم لا يجدون سبيلًا أو دافعًا للإنكار على التصوف من حيث كونه علم لازم وضرورى ، ويعترضون على الصوفية لخروجهم عن حد الالتزام بما قيدهم به التصوف المحرر على ضوء من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

٣ - المتمصوفة (أدعياء التصوف) :

وهؤلاء هم الذين اتخذوا التصوف حرفة ، والصوفية ستارًا يجمعون من ورائه الدنيا ويسعون لنيل حظوظهم وأهوائهم وشهواتهم ، فجعلوها تقاليد وطقوس ، وجعلوها كرامات ، وكم تاجروا وارتزقوا باسم التصوف المظلوم والصوفية البريئة ، وهؤلاء هم أس الداء والبلاء ، جعلوا التصوف من حياة كلها جهاد وعمل إلى حياة كلها تواكل وعزلة وبطالة وتكفف ومسألة ، ومن حياة التجريد إلى حياة الثريد ، ومن حياة العلم والمعرفة إلى الجهالة والخرافة ، ومن حياة النور إلى الظلمة .. مما جعل التصوف يزدرى ويحتقر ، والصوفية منكرة مرذولة عزف الناس عنها .

٤ - الصوفية المقلدين :

وهؤلاء قد يكونون أحسن حالًا إن كان التقليد فى الأعمال الصالحة رغبة فى التشبه بالصالحين والسير على دربهم :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم   إن التشبه بالرجال فلاح

هذا إن كانت القدوة كاملة فى الاتباع لرسول الله ﷺ .

أما أن يكون التقليد ناتجًا عن حب التمسك بما كان عليه شيخه بتسليم كامل ليس مع نظر ثاقب وبغير علم ولا حجة ولا تحقق من موافقة العمل لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، فهذا ضرره على أهل الطريق أكثر من نفعه ، وضرره على نفسه أقوى من ذلك . أو يكون مقلدًا لشيخ جاهل الشريعة على غير دراية بالأحكام جاهل بطرق تسليك المريدين ، فهذا أكثر ضررًا لنفسه ، وهذا يعيش طول عمره ساكنًا لا يتحرك من مكانه قدمًا واحدًا وهو يظن لجهله أنه مع المقربين .

٥ - صوفية الأذواق :

وهؤلاء هم المغمورون فى الخلق ، وهم أهل الله الذين انجذبت أرواحهم إلى معرفة ربهم ، سلكوا الطريق الصحيح فزكت نفوسهم ، وتنزل الله عليهم بفضله ، وعلمهم من لدنه علمًا أشرقت به بصائرهم ، واستنارت به قلوبهم ، وهوت إليه أفئدتهم ، فهم بمناجاة ربهم يتلذذون ، ومن رحيق شرابه يتناولون ، بحسب مقاماتهم تعرف أذواقهم ، يحفظ الله بهم سننه وآدابه ، وهؤلاء كالكبريت الأحمر عزيزٌ وجودُه ، وإن وُجدوا لا يُلتفتُ إليهم أو يُهتم بهم وبشأنهم .

بدأ رضى الله عنه بتعريف التصوف بطريقة سهلة تتناسب مع كل مقام حتى ينكشف لأهل الطريق أنه لا يفارق السالك فى سيره وسلوكه إلى الله تعالى ، فقال :

التصـــــوف (٢) :

* الأخذ بالأصول ، والترك للفضول ، والتشمر للوصول .
* ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .
* جمّل النفس على الشدائد .. للرى من أشرف الموارد .
* مفارقة الأشرار ، ومصادقة الأخيار ، ومتابعة الآثار والأخبار .
* أوله علم ، وأوسطه عمل ، وآخره موهبة . فالعلم يكشف المراد ، والعمل يعين على المطلوب ، والموهبة تبلغ غاية الأمل .

---

(٢) كتاب (جوامع الكلم) للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ص ٩٨ .

الصـــوفى :

ثم يعرف رضى الله عنه الصوفى الذى نهج نهج التصوف علمًا ومسلكًا فيقول: «الصوفى عمل بكتاب الله مجاهدًا، وبسنة رسول الله ﷺ مشاهدًا، الصوفى جاهد نفسه فى الله حتى أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار[٣]. ويقول رضى الله عنه الصوفى من جاهد نفسه فى ذات الله بتوفيق الله حتى صفا قلبه ووقته وحاله، فصافاه الله، فسمى صوفيًا، وهو فعل ماض مبنى للمجهول، بشرى له، وهى كلمة ينشرح لها صدر الموصوف بها لما دلت عليه. وهو مذهب قديم ومنهج سابق وفق الله له المقربين، وقد تجمل بهذا المذهب كثيرون من الصحابة فى عصر رسول الله ﷺ، وهم أهل الصُّفَّة من أئمة الصحابة كأبى ذر الغفارى وصهيب وسلمان وسعيد بن خذيمة والعبادلة وبلال وأبو رافع مولى رسول الله ﷺ ورضى الله عنهم أجمعين.

ولولا أن اللفظ مضبوط بالرواية لقلت إن صُفِّى نسبة إلى أهل الصفة الذين أقبلوا بكليتهم على الله ورسوله ﷺ مجاهدين أنفسهم فى ذات الله»[٤].

الصـــوفـيـــة :

عرّف الإمام الصوفية فقال: «هم الذين صفت قلوبهم من شوائب الكون، وتطهرت نفوسهم من رجس الشهوات، وتعلقت هممهم بالله تعالى، ففنوا عما سواه، ووجهوا وجوههم شطره، لم تحجبهم الكائنات عن شهود مبدعها، ولم تشغلهم الآيات الجلية عن فهم إشاراتها وذوق معانيها، هم عبيد الله السائرون على منهج نبيه ﷺ، وهم الذين تلقوا أسرار التوحيد وأنوار الحكمة بقلوب واعية ونفوس صافية عن العلماء العارفين بالله ورثة رسول الله ﷺ. وسموا صوفية إما: لأن أئمتهم أهل الصفة، أو لأن كل واحد منهم «صوفى» فعل ماض مبنى للمجهول أى صافاه الله، أو لأنهم كانوا يلبسون الخشن من الصوف تزهدًا».

سئل الإمام يومًا أثناء درس من دروسه عن الصوفية مبدءًا وقصودًا، فأجاب رضوان الله عليه على البديهة والكتبة يكتبون:

إن هذا اللفظ لا دليل لغويًا يدل على أنه مشتق من الاستصفاء ولا من الاصطفاء ولا من الصف ولا من الصفة نسبة لأهل الصفة ولا من الصوف، والظاهر أن مدلوله فعل

(٣) كتاب «جوامع الكلم» للإمام أبى العزائم ص ٩٧.

(٤) كتاب «أصول الوصول» للإمام أبى العزائم ص ٨٨.

ماض مبنى للمجهول خبرًا عن صفاء قلب من سمّى به .

والصوفية إمامهم الأول بعد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه سيدنا أبو ذر الغفارى وسيدنا سلمان الفارسى رضى الله عنهما .

معلوم أن الأشياء كلها لها ظاهر، وباطن وهو لبها، فكذلك الدنيا والآخرة . وللدنيا أبناء، وللآخرة أبناء :

١ - فأبناء الدنيا شغلوا بما تقتضيه حظوظهم وشهواتهم وأهواؤهم وما يدعوهم إليه الحس والجسم، فرضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها ﴿وما الحياة الدنيا فى الآخرة إلا متاع﴾(٥) . فاستخدموا جوهر النفس النورانى ونور العقل الروحانى لتحصيل كمالات الجسد الفانى جهلًا بالآخرة أو تجاهلًا .

٢ - والصوفى عرف قدر الدنيا بالتعليم، وتحقق زوالها بالتفكير، أيقن أن بعدها دار هى الدار حقًا لا يسعد فيها إلا من تخلى عن دنس الأجسام، وخبث الشياطين، ودناءة البهائم، وبلادة النباتات، وثقل الجمادات، حتى يتشبه بعالم الملكوت الأعلى .

الصوفى علم قدر الدنيا والآخرة فقدم ما يبقى على ما يفنى، وباع ما يزول بما يدوم، ورأى فى نفسه عوائق تعوقه عن بلوغ كماله الحقيقى... تلك العوائق راسخة فى فطرته، راسبة فى حقيقته، جواذبها إلى الرذائل قوية، ودافعها عن نيل الخير شديدة، ومقتضياتها التى توبق فى الدرك الأسفل من النار ملازمة، ولكنه سطعت على جوهر نفسه أنوار تلك الكمالات من جانب الروح وناداه الحق من قبله .. [إنى أنا ربك .. خلقتك لذاتى وخلقت لك كل شئ، ومنحتك الحرية والإرادة، وبيّنت لك الشر، وأعددت لك النظر إلى وجهى فى دار كرامتى وجوار الأطهار المقربين من اصطفيتهم من خلقى]. فسمع ولبّى، وحن واشتاق، ثم دعته فطرته الحيوانية فى دار البلية، فنظر وفكر وتأمل وتدبر، فرأى الدنيا قد آذنته بزوالها وأشهدته عملها فى أبنائها، فرآهم بين راحل إلى القبور وبين غافل عن الآخرة مغرور، فجاهد نفسه فى الله حتى أطاعته، وانسلخ من مقتضيات نقائصه كما ينسلخ الليل من النهار، صغرت والله الدنيا فى عينه حتى كره المقام فيها بين أهله لولا رحمته ببنى جنسه ليدعوهم إلى الخير، واستوحش والله حتى من نفسه، وتمنى أن يكون نفسه الثانى فى رمسه شوقًا إلى جوار حبيبه المختار، والأنس بالصفوة الأطهار فى مقعد صدق عندمليك مقتدر، رجع بكليته إلى الماضى مسارعًا إلى ماكان عليه أصحاب رسول الله ﷺ من العقيدة والعبادة والأحوال النبوية والأخلاق الربانية

(٥) سورة الرعد آية ٢٦ .

ومعاملتهم الله تعالى فى خلقه ، رجع إلى الماضى من السنة السمحاء والطريقة المستقيمة فكان غريبًا بين أهله لجهلهم بالسنة وتساهلهم بالملة ، ولو ظهر بينهم رجل من الصحابة لأنكروا حاله وجهلوا أعماله ، ولكن الصوفى قوى فى دين الله ، لا تأخذه لومة لائم فى الله ، شهد الحق حقًا فاتبعه مسارعًا ، والباطل باطلًا فاجتنبه فازعًا ، يغار لله ولسنة رسول الله ﷺ .

عمل بكتاب الله مجاهدًا ، وبسنة رسول الله ﷺ مشاهدًا ، فسبحت نفسه الطاهرة فى ملكوت الله بين صفوف ملائكة الله ، فرفعه الله قدرًا ، لأن الصوفى مجاهد والملائكة غير مجاهدين ، ينازع بالمجاهدة فطرته والملائكة على الخير مفطورون ، قال تعالى : ﴿ وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا ﴾(٦).

لم تقف همة الصوفى على السياحة فى ملكوت الله الأعلى ، بل فرت إلى لوامع وميض أنوار قدس العزة والجبروت ، فألهت إلى الإشراف على القدس الأعلى ، فجذبتها العناية الأزلية واختطفتها يد الحسنى بالسابقية ، فأشرف على قدس العزة والجبروت ، فأشرقت عليه أنوار مشاهد التوحيد العلية ، فاتحد بالحق مفارقًا للخلق وهو فى الخلق محفوظ الظاهر والباطن ، فألهمه الله تعالى نور البيان فى فهم القرآن ، ومنحه المنة بذوق السنة ، فكان أمة وحده .

جعل الله له نورًا منه سبحانه حفظه به من دواعى الفطر ، ولوازم الطبع ، ومقتضيات رتبته من مراتب الوجود . وجعله نورًا لأهل عصره ، يجمل بأعماله الأشباح ، وبعلومه الأرواح ، ويجذب القلوب إلى علّام الغيوب ، ألقى الله عليه محبة منه فأحبه كل شيء إلا شياطين الإنس والجن الذين جعلهم الله قطاعًا لطريقه .

الصوفية لا خلاف بينهم فى كل زمان ومكان ، وبدايتهم تزكية النفوس من أدرانها ، وتطهير الأجسام من نجاستها المعنوية ، والاتصال بالمرشد الكامل الذين يتلقون عنه العقيدة الحقة ، ويتشبهون به فى الأعمال السنية ، والأخلاق المرضية ، والمعاملات المقربة إلى الله تعالى . لأن المرشد وارث رسول الله ﷺ ، ورسول الله ﷺ لم يورث درهمًا ولا دينارًا ولا أطيانًا وعقارًا ولكنه ﷺ ورّث نورًا وهدى وحكمة وبيانًا ، قال تعالى : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولًا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾(٧)، فهذه الخيرات هى ميراث رسول الله ﷺ التى ورّثها الله

---

(٦) سورة النساء آية ٩٥ .

(٧) سورة البقرة آية ١٥١ .

بفضله من شاء من عباده .

الصوفية هم أنصار الله وأنصار رسوله ﷺ فى كل زمان ومكان ، سترهم الله عن أعين الجهلاء وأخفاهم عن أهل الظلم والطغيان ، ولكنهم هم النجدة عند الشدة والقوة عند الضعف والحصون عند الخوف . ذلوا ولانوا وخشعوا واختفوا وتستروا .. نعم ، ولكنهم إذا غضبوا لله غضب الله لهم ، وإذا دعاهم الحق لَبُّوهُ رخيصة دماؤهم عليهم حنينًا إلى الموت فى سبيله والقتل فى إعلاء كلمته ، متى تحركوا لله لا يسكنون حتى يظهر الحق أو يتصلوا بدار الحق ، كم لهم صولة لله بالله أزالوا بها باطلًا تعسر زواله على الجيوش الجرارة ، فهم الأنوار التى تسطع فى حالك الظلمات فتمحوها .

وقد أثبت التاريخ ما أظهره الله تعالى بهم ، منهم آل بدر أنصار الله المهاجرون استضعفوا فى أوطانهم ففروا إلى الله تعالى ، والفقراء من الأنصار الذين خرجوا ليقابلوا تجارًا من الشام فقابلوا صناديد العرب وجمراتها ، فكان كل رجل منهم كأنه جيش جرار .. غضبوا لله تعالى غضبة محت الكفر وأهله ، وفى كل عصر وزمان قام فيه أهل الطغيان ليطفئوا نور الله بأفواههم ، أشرقت أنوار الصوفية فمحت الظلمات ، هم الذين نشروا تلك الأنوار فى سائر الأقطار بالقرآن والسنان شوقًا إلى لقاء ربهم وحبًا فى إعلاء كلمة الحق .

وأهل الصفة رضى الله عنهم هم الذين بثوا تلك الروح العالية فى كل الحوادث . أقبل جيش الروم عندما قام الصحابة لفتح القسطنطينية ، وكانوا رضى الله عنهم قليلين وجيش الروم يناهز الستمائة ألف مقاتل ، فهجم رجل من التابعين على قلب الجيش منفردًا فناداه آخر قائلًا : (ارجع فإن الله يقول : ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾[8]) ، فصاح سيدنا أبو أيوب الأنصارى - وهو من كبار أئمة الصوفية قائلًا : (ويحك .. لقد نزلت الآية فينا وأنا أعلم سبب نزولها ، ليست التهلكة الإقدام على هذا الجيش وإنما التهلكة الإحجام ، فإن المؤمن إذا أقبل فاستشهد لأحياه الله الحياة الحقة وإذا أحجم هلك).. ثم كبّر رضى الله عنه وهجم على الجيش كله منفردًا فاخترق صفوفه وأقبل المسلمون بعزيمة ماضية وراءه ، فهزم الله جيش الروم وكادت تفتح القسطنطينية لولا موت أمير المؤمنين معاوية ورجوع أمير الجيش وقواده لهذا الحادث العظيم ، فكان الصوفى فى وقت الغيرة لله يجعل من معه مشاهدًا فردوس الله ، ليس بينه وبينها إلا أن يُطعن بسنان أو يُضرب بسيف ، فهم رضى الله عنهم زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة ، ولكنهم عند المقتضيات يقومون لله رغبة لإعلاء كلمته سبحانه .

---

(٨) سورة البقرة آية ١٩٥ .

وهم الذين إذا أقدموا لم يحجموا ، يعملون ولا يقولون ، كثرت أعمالهم وقلت أقوالهم ، خافوا مقام ربهم ونهوا النفس عن الهوى ، لهم جانب مع الله تعالى إذا سألوه استجاب لهم ، ولهم أعمال خالصة لذات الله إذا قاموا بها كان الله معهم ولهم.

لم تقم دولة من دول الإسلام إلا وهم مؤسسوها ، ولم تقم فتنة من أعداء المسلمين إلا وهم مطفئوها ، أول الخلفاء بعد رسول الله ﷺ إمامهم ، ودام الأمر فيهم إلى سيدنا الحسن السبط عليه السلام ، ومُدتهم عُمر الخلافة حتى انتقلت إلى الملك العضود ، وهم الذين قلبوا دولة بنى أمية وأعادوا الدولة لبنى هاشم ، وهم الذين أيدوا دولة آل عثمان حتى شيدت المساجد فى بودابست وفى بولونيا ، ولم يبق إلا أن تصير أوربا إسلامية كما كان أولًا ، والتفت الصوفية إلى خلواتهم وتجريدهم عندما رأوا أنه لا حاجة لهم لقوة سلطان المسلمين ، وهم الذين ردوا الصليبيين عن الثغور الإسلامية فى زمان صلاح الدين الأيوبى عندما غاروا لله غيرة سلبت عقول الإفرنج حتى أصبح الحليم سفيهًا . ولا غرابة : فإن درويشًا لم يبلغ خدمة المرشد غار لله هو ودراويشه غيرة قهرت ملك الحبشة وجيوش الطليان وجنود فرنسا والجيش المصرى والإنجليزى ، حتى مات منصورًا ظافرًا وجيشه على أبواب مصر ، ولكن غادرته المنية وقام بالأمر غير الدراويش فاختلفت القلوب وتغيرت .

وللصوفية أسرار فوق كل قوة لأنهم تابوا إلى الله فعملوا بالأسباب ، حتى إذا قاموا بقدر طاقاتهم رجعوا بالكلية إلى مسبب الأسباب فكان معهم ولهم .

وناهيك بقوم يعملون بما أمرهم الله ويجاهدون بأنفسهم أكبر المجاهدة فى ذات الله ثم يسارعون غيرة لله فى محو ما يكره وإظهار ما يحب ، فإذا لم تساعدهم الأسباب التجأوا إلى القوة التى هى فوق الأسباب وهى قوة الله تعالى(٩).

وهكذا نجده رضى الله عنه **قد كشف النقاب عن الصوفى وحقيقة الصوفية بما يجعلك تفرق بين صوفية الأحوال والأعمال والجهاد والمجاهدة ، وصوفية الأقوال والأوراق والارتزاق بعين المنصف للحق المبين للحقيقة الرافع للوهم والخيال . وفى سبيل ذلك قام بما يلى :**

١ - قدم علم التصوف فى قالب خال من التعقيد والتراكيب الرمزية التى تجعل الأمر غيبًا عن المدارك والعقول .

٢ - جمع بين طريقى السابقين فى الوصول وهى :

---

(٩) مجلة السعادة الأبدية : السنة ٧ العدد ٦ ص ١٥٢ (١٥ ربيع الآخر ١٣٣٨) .

أ - طريق الإشراق : أو ما يسمونه الجلاء والتصفية . لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر بتخليتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل .. أو ما يقولون عنه : إذا زكت النفوس من الأغيار والأكدار أشرقت عليها شموس المعارف والأسرار ، وفى ذلك قال الإمام : جاهد تشاهد ، وقال : من حاسب نفسه عُوفى من العقاب .

ب - طريقة البرهان : التى اشترطت إصلاح الظاهر أولًا وعلاجه قبل علاج الباطن لقوله ﷺ : (تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة .. وهو إمام العمل والعمل تابعه ، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء)[١٠] .

والجمع بينهما يكون الكمال للسالك ، فيكون قد أتقن الشريعة والطريقة ، وسار على الحقيقة .

٣ - بيّن أن التصوف علم وذوق متلازمان ، وعلم مجرد لا ينتج ، وذوق بغير علم لا يكون .

٤ - نبّه على عدم الدخول فى الجدل مع المنكرين ، وأكد ضرورة صرف أنفاس المريد فى مرضاة الله سبحانه وتعالى .

٥ - اهتم بتزكية النفس فهى الجهاد الأكبر ، وتصفية القلب فهو الطهارة الكبرى ، وكان دائمًا يقول : (زك نفسك قبل السماع لتشرق عليك أنوار المعرفة ، فإن النفس كالبدن إن لم يكن صحيحًا كلما غذيته ازداد مرضًا) .

ومن هنا ندرك أن الإمام رضى الله عنه اهتم بالوعاء الذى يوضع فيه العطاء الربانى ، ولإظهار هذا المعنى كان يقول :

لا تمنعن ماعون شراب الراح	طهره يشهد حضرة الفتاح
لا تمنعنه ترى جميلًا ظاهرًا	قد لاح بالتنزيه للأرواح

٦ - عمل رضى الله عنه على إحياء ما اندرس من أحوال الأئمة السابقين ومقاماتهم وأذواقهم ، فكان متممًا لما أرسوه من قواعد للتصوف ، مشيرًا إلى ما تطاولت إليه يد العابثين أو حرّفته يد الغالين حتى أجلى صورة التصوف الحقى ، وقدّم صورة كاملة للصوفى الكامل الذى يكون فى الأمة طبيبًا لأمراضهم حكيمًا فى مداواة أحوالهم .

وأمام الواقع الجاثم على صدر التصوف من البدع والانحرافات ، كان لابد للإمام من موقف صريح وصوت قوى يصحح هذه المسيرة ، وهذا ما نراه فيما يلى :

---

(١٠) المنذرى فى الترغيب والترهيب وابن عبد البر فى مسنده .

١ - موقف الإمام فى خروج أدعياء التصوف عن الشرع[١١] :

أساس طريقنا هذا محبة الله تعالى إعظامًا وإجلالًا ومحبة رسول الله ﷺ تسليمًا وانقيادًا ، وإيثار كل مسلم على نفسه بأن يحب له ما يحبه لها ويؤثره عليها فى الخير ، لأن الله تعالى أوجدنا وشرح صدورنا بنور رحمته وضياء المعرفة لنجدد ما خفى من معالم سنة رسول الله ﷺ علمًا وعملًا وحالًا ، ولنحيى ما اندرس من أنوار كتاب الله تعالى علمًا وشهودًا وتسليمًا ورضاءً ، ونعيد الماضى بما كان عليه سلفنا الصالح نفعنا الله بهم ليكون الله تعالى معنا وعندنا ، ونكون مع الله تعالى .

هذا وإن كان كل أخ من أحبابى فى الله يجب عليه أولًا أن يحصل ما لابد له منه من علوم الشريعة ، ليصل بما أمره الله ، وليكون قدوة حسنة فى أحبابه فى الله دالًا على الحق بعمله أولًا ، وبقوله ثانيًا ، وبحاله ثالثًا ، فمن ترك العمل الذى يكون به عبدًا لله تعالى عابدًا حرم السعادتين ، ومن بين لغيره بيانًا يخالف بيان رسول الله ﷺ ، أو عمل عملًا يخالف رسول الله ﷺ ، أو تحلى بحال ينكره العارفون بالله تعالى كان ضالًا مضلًا مظهرًا لإبليس عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ومن بين الحق بلسانه ولم يعمل بجوارحه ونفسه كان فتنة للمسلمين كالسراج الذى يحرق نفسه ويضىء لغيره لأن الناس أسرع تقليدًا للعمل منه للعلم .

وإنما أفسد العقائد وفرّق المجتمع الإسلامى عالم اللسان جهول القلب يأمر الناس بالخير ولا يعمله فيقتدى به الناس ولا ينتفعون بعلمه . وليس هؤلاء بأئمة المسلمين لأنهم أعوان الشياطين وعبيد الدنيا وخدمة الملوك ولو كانوا كفارًا .

إخوانى .. إن كثيرًا من الناس من أعماهم الحظ وأضلهم الهوى وقادهم الشيطان الرجيم ، فنسبوا أنفسهم إلى المعرفة مع جهلهم ، وإلى الكشف مع بعدهم ، فأضلوا كثيرًا من الإخوان بزخرف القول غرورًا فتركوا الصلاة والصيام ووقعوا فى شر من ذلك وهو القول بالحلول ، كما قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله﴾[١٢]، وقال تعالى : ﴿وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنّى يؤفكون﴾[١٣]، وقال تعالى : ﴿من الناس من

---

(١١) مجلة السعادة الأبدية : السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٥ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ) .

(١٢) سورة التوبة آية ٣٤ .

(١٣) سورة المنافقون آية ٤ .

يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألدُّ الخصام وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾(١٤). وكلنا نعلم أن كل آية نزلت فى بنى إسرائيل جرت بذيلها أهل الغواية ، قال رسول الله ﷺ : (افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى)(١٥).

وتمسكوا يا أحبابى فى الله تعالى بالسنة وعضوا عليها بالنواجذ وفروا من كل متساهل . واعلموا حق اليقين أن الله ما أمرنا بعمل على لسان رسول ونهانا عنه على لسان ولى .. ومن تأول القرآن والسنة تأويلًا يؤدى إلى مخالفة الشرع فهو شيطان مارد . فاحفظوه واتقوا الله حق تقاته بأن تطيعوه فلا تعصوه ، وتذكروه فلا تنسوه ، وتشكروه ولا تكفروه .

هو الشرع حصن الأمن سر وصولى	به كشف إجمالى .. به تفصيلى
صراط عليه المفردون تفردوا	ومعراج اهل الحب والتاويل
هو الحبل حبل الله مُدَّ لأهله	به يرتقى المحبوب للمامول
من جاوز الشرع الشريف هوى به	إلى السفل من غاو وكل جهول
فشاهد بحصن الشرع آيا علية	تلوح لأهل الأنوار فى التنزيل
تحصن بحصن الشرع تشهد مشاهدًا	تنال بها الزلفى بخير وصول
ومن راحه الصافى الطهور تناولن	يواليك وهاب بنور سبيل
تلوح لك الأسرار فيها تنزلًا	تحاط بوجه ظاهر وجميل

ويخاطب رضى الله عنه مريديه وطلاب الحقيقة فيقول :

وادخل حصون الشرع قلبًا وقالبًا	تحيا سعيدًا فى شهود المتقين
تلك النفوس قوية فى فعلها	قد تحجب الأفراد كم اردت سجين
الشرع عصمة سالك يهدى إلى	دار الصفا رضوان رب العالمين

---

(١٤) سورة البقرة آية ٢٠٤ - ٢٠٦ .

(١٥) الترمذى والسيوطى فى الجامع الصغير .

٢ - موقف الإمام من دعاة الاتحاد والحلول :

يرى الإمام رضوان الله عليه أن دعاة القول بالاتحاد أو الحلول أو المجسمة هم الذين تلقوا الحكمة من شيوخهم وكانت نفس الواحد منهم خبيثة ، ففهمها على قدر نفسه وتعصب لفهمه ، فقال بالجسمية والحلول . ولذا فإن الإمام أطلق على أصحاب هذه النظرية بأنهم مجوس هذه الأمة ، كما حذر أتباعه من مصاحبتهم أو الاقتداء بهم[١٦].

ويتكلم الإمام شارحًا بعض مقامات السير والسلوك إلى ملك الملوك فيقول[١٧]:

فناء الصادقين وفناء الكاذبين :

لا تزول البشرية - وزوالها حصول البلية لأن بها الجهاد فى سبيل الله - ولولاها لما امتاز الإنسان عن عوالم الروحانيين ، قال الله تعالى : ﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضّل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلًا وعد الله الحسنى وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا﴾[١٨].

فناء الكاذبين مخالفة أمر الحاكم سبحانه مع قيام البشرية مقتضى ولازمًا ، وإمامهم فى هذا إبليس فنى كاذبًا فترك الأمر جانبًا ، أما فناء الصادقين فالقيام بالأمر مسارعة إلى السمع والطاعة والفناء عنه بنسبته إلى الموفق المعين الموجد الممد سبحانه حتى لا تشهد المنة من العامل فيستكثر عمله ، قال الله تعالى : ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم﴾[١٩]، فأفناهم عن شهود نسبة العمل إليهم بعد أن تفضل سبحانه عليهم بالإحسان بالقيام به ، فهم العاملون كما أمر عن نسبته إليهم كما أحب منهم وطلب ، وإمامهم رسول الله ﷺ كان يستغفر الله صلوات الله وسلامه عليه ليستر عنه العمل بعد قيامه به ليفنى عنه ﷺ لكمال تحققه بحقيقة التوحيد ، قال تعالى : ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[٢٠]، وهو الفناء عن نسبة العمل إلى العامل بعد القيام بالعمل كما أمر سبحانه .

---

(١٦) من رسالة ماجستير بعنوان : « الإمام محمد ماضى أبو العزائم وأثره فى التصوف الإسلامى » للأستاذ/ محمد السيد المليجى . كلية دار العلوم جامعة القاهرة .

(١٧) كتاب « قبس من المضنون » للإمام أبى العزائم تحت الطبع .

(١٨) سورة النساء آية ٩٥ .

(١٩) سورة الأنفال آية ١٧ .

(٢٠) سورة فاطر آية ١٠ .

ومن ترك الأمور وظن أنه فانٍ بترك الأمر وشعر بألم الجوع والعطش فهو شيطان الإنس اقتدى بشيطان الجن ، وأهل الفناء هم أهل الكهف الذين مكثوا بضعًا وثلاثمائة سنة فانين عن البشرية ولوازمها مستغرقين في شهود التوحيد بالتوحيد .

ومن ادعى الفناء فترك الأمر والنهى كان ممن شنّع الله عليهم بقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[٢١]، رزقنا الله السمع والطاعة لأمره جل جلاله والفناء عن نسبة الأعمال لنا بعد القيام بها مخلصين له الدين يا رب العالمين . ونعيم الفناء طريق المخلصين من أولياء الله الموقنين ، ولكنه ترك ليس للسالك أن ينزل فيه إلا بعد معرفة طريقين : الخبرة به ، والسير فيه .. والله الموفق للصواب .

ثم ميز الإمام رضوان الله عليه بين الفناء والبقاء ، والغيبة والحضور ، والغيبة والصحو ، والجمع والفرق فقال :

الغيبة والحضور :

اغمض عينيك عن نفسك وعن كل غير لله تعالى ، فإنك في هذا المقام تحترق صفات آدميتك بنار القرب من الله ، وهذا هو مقام حال الغيبة الذى أخرجك به الله من ظهر آدم : ﴿ وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ﴾[٢٢]، وأهّلك لسماع خطابه المقدس ، وخصك بلباس التوحيد وحلة المشاهدة ، وكلما كنت غائبًا عن نفسك كنت حاضرًا مع ربك وجهًا لوجه ، لكن إذا حضرت مع صفاتك كنت غائبًا عن معية الله تعالى . وحيث كان ذلك كذلك فحضورك هلاكك ، وهذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ﴾[٢٣].

والمتمكن يرى أن الغيبة والحضور اصطلاح لمقامين ، وإن اختلفا لفظًا إلا أنهما اتحدا معنى من كل الوجوه ، فالحضور هو حضور القلب ليكون علامة على اليقين حتى يكون ما هو غيب محض عنه فى قوة ما هو مشاهد له . والغيبة هى غيبة القلب عن كل ما سوى الله تعالى حتى يكون غائبًا عن نفسه وغائبًا عن غيبته ، وبذلك لا يعتبر نفسه ، وعلامة ذلك حال صادق لا يخرجه عن حكم الرسوم ، فهى فطرته ، وهى كالعصمة

---

(٢١) سورة الأعراف آية ٢٨ .

(٢٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٢٣) سورة الأنعام آية ٩٤ .

للأنبياء من كل ما يخالف الشرع . لذلك كانت غيبة الإنسان عن نفسه حضورًا مع الله والعكس بالعكس ، والله تعالى هو المسيطر على قلوب بنى آدم ، فإذا قهرت الجذبة الإلهية قلب طالب كانت غيبة قلبه متساوية بالحضور مع الله تعالى ، وانمحت الشركة والقسمة وانتهى النسب الذى يدلى لنفسه .

الغيبة والصحو :

إذا جذبتك به العناية حتى أجلستك على مستوى الوراثة أو زجت بك فى أفق البيان بعامل الانتقال فبين فى الغيبة جلى البيان ، فإذا صحوت فاحذر أن تبين إلا ما يناسب المسامع والقلوب ، فإنك فى حال غيبتك عنك محمول على رفارف العناية ، وإنما تمد موائد الكرامة لأهل العناية ، فإذا بسط بساط الإيناس فأطلق عنان الأنفاس ، فإنك فى ذا المقام مأذون وعلى ما تبديه مأمون ، وليس هذا الشأن عادة وإنما هى صولة الحق على من يتجمل بالحب لنفع الخلق .

الجمع والفرق :

حقيقة سر الجمع هى معرفة إرادة الله ، أما الفرق فهو إثبات ما أمر به أو نهى عنه ، مثال ذلك : أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل عليه السلام ولكنه أراد ألا يفعل ذلك ، وأمر إبليس أن يسجد لآدم وأراد غير ذلك ، وأمر آدم ألا يأكل من الشجرة وأراد أن يأكل منها . فالجمع : هو ما اتصل بصفاته ، والفرق : هو ما فرقه بأحكامه ، وكل ذلك يحتوى سر الإرادة الإلهية وإثبات المشيئة الإلهية حتى تفنى المقاصد الشخصية . والجمع بلا فرق زندقة ، وكل فرق بلا جمع تعطيل ، والجمع تجريد التوحيد والفرق تجريد الاكتساب عن العبد ، وفلان عين الجمع يعنى استولت مراقبة الحق على باطنه فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى الفرق . فصحة الجمع بالفرق وصحة الفرق بالجمع ، وهذا يرجع إلى أن الجمع من العلم بالله وأن الفرق من العلم بأمر الله ، ولابد منهما جميعًا . فالجمع حكم الروح ، والفرق حكم القلب ، فما دام هذا التركيب باقيًا فلابد من الجمع والفرق ، فإذا نظرت إلى نفسك فرقت ، وإذا نظرت إلى ربك جمعت .

٣ - موقف الإمام من فساد القدوة فى الطريق :

لاحظ الإمام أن بعض الناس - مما لا علم لهم - اقتدوا ببعض أدعياء الطريق ، فأدخلوا فى قلوبهم أن التسليم للشيخ مهما كان وعلى أى حال كان ، فيه خير لهم ، ولا يصل

السالك إلى الله إلا بالتسليم للشيخ، ثم يعملون أمام المريدين صريح الحرام، أو يقولون صريح الكفر، أو يأمرون بترك الفرض والسنة، أو ينهون عن الأعمال الشرعية، فيسلم لهم أهل الجهالة تسليم الأعمى لاعتقاد أنهم أهل الحقيقة وأنهم ارتقوا عن الشريعة، ولعل فساد القدوة في الطريق الآن من الدوافع الأساسية التي زادت من انتشار البدع وتهاون المريدين والأتباع في أداء الفروض والشرائع، ومما يؤسف له أن هناك العديد من رجال الطرق الصوفية لا يؤدون الصلاة ولا يأمرون بالمعروف أو ينهون عن المنكر، وذلك لجهلهم بالدين وجهل شيوخهم أيضًا(٢٤).

ولذلك أوصى الإمام بما يلى(٢٥):

أوصيكم يا إخوانى أن تكونوا على بصيرة من أمركم، فإنكم إنما صحبتمونى فى الله لنجدد السنن ونسارع إلى محاب الله ومراضيه، والعهد بينى وبينكم. وأنى عبد لست معصومًا، فإذا خالفت السنة وجب عليكم قهرى على العمل بها شفقة علىّ ورحمة بى، فإن أبيت أن أرجع إلى الحق وجب عليكم معاداتى ومحاربتى، ومخالفتكم لى نجاة لأنفسكم من الاقتداء بمضل.

وإنى أسألكم الدعاء لى عقب أعمالكم الصالحات، وإكرام إخوانكم فى الله بنصيحتهم ومساعدتهم وخصوصًا من طالت صحبتهم لى من أهل الخشية من الله والأدب مع رسول الله ﷺ، وأن تعينوا أولادى على الخير ما استقاموا وتذكروهم بالحق إذا نسوا، وترجعوهم إليه إذا عقلوا، حتى تكونوا أنجمًا فى سماء الدلالة على الله تعالى، فإن أكثر الناس يقتدون بهم ولو كانوا على غير السنة ظنًا منهم أن هذا إكرام لى والحقيقة غير ذلك، وإنما إكرامى حقيقته مساعدتهم إذا استقاموا، وتكليفهم بالاستقامة إذا تساهلوا، وقهرهم على تحصيل العلوم النافعة والعمل الرافع الذى كان عليه سلفنا الصالح. وهذا هو إكرامى حقًا لأنه يسرنى أن يكونوا دعاة إلى الحق بالحق وأن يكونوا نجاة للعالم أجمع، والله وليى عليكم ووليكم علىّ.

٤ – موقف الإمام من قضية الوراثة فى الطريق :

لاحظ الإمام أنه جرى العرف عند وفاة شيخ الطريقة تعيين أحد أولاده أو أقاربه خلفًا لذلك الشيخ، ويرى الإمام أن هذا أمر حسن لو أن من سلموا له يكون على شئ من

(٢٤) كتاب « بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد أبى العزائم، ص ٣٣٨، ٣٣٩ .

(٢٥) مجلة السعادة الأبدية : السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٨ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ) .

العلم والعمل والحال واجتهد فى تحصيل ما به كمال نفسه ونفع غيره وحافظ على الاقتداء بالمرشد محافظة حقيقية فى القول والعمل والحال.

ثم يقول رضى الله عنه: أما إذا سلموا لابن المرشد أو لأحد أقاربه وكان صبيًا لم يبلغ الحلم، أو كبيرًا على غير استقامة بعيدًا عن معرفة الطريق وأهله، فإنهم بذلك يكونون عرضوا من اقتدوا به للهلاك، ولا يزيده الإقبال عليه إلا غرورًا وبعدًا عن الله، وكأنهم بذلك أساءوا إلى مرشدهم لأنه جملهم بالعلم والعمل والحال وهم لم يحسنوا إليه فى أولاده وأهله[٢٦].

ويقول الإمام رضوان الله عليه فى ذلك[٢٧]: واعلموا يا أبنائى أن النسب نسبان: نسب روحانى، ونسب طينى، فاحذروا أن تكرمونى فى أقاربى بالتسليم والتعصب والانقياد إلا إذا كانوا عاملين بما كان عليه سلفنا الصالح للسنة عاملين بها. ولكنى أحب أن تكرمونى فيهم بالنصيحة والموعظة ليكونوا أنجمًا مشرقة لبيان السنن والعمل بها. واعتبروا بخبر الله عن خليله فى قوله سبحانه: ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾[٢٨]، وبخبر الله عن نوح عليه السلام: ﴿ قال رب إنى أعوذ بك أن أسألك ما ليس لى به علم وإلا تغفر لي وترحمنى أكن من الخاسرين ﴾[٢٩]، ويقول رسول الله ﷺ: (إن بنى فلان ليسوا لى بأولياء - يعنى جماعة من بنى هاشم - إنما وليى الله ورسوله وصالح المؤمنين ولكن لهم نسب أبله ببلاله ..)[٣٠]. وإنى أبرأ إلى الله من كل قريب وصاحب ورفيق يخالف السنة والكتاب ويعين على مخالفتهما، وقد حذرنا الله تعالى بقوله لنا: ﴿ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين ﴾[٣١]. فاحذروا أهل الفتنة الجاهلين الشاطحين ولو استدرجهم الله تعالى فأظهر على يدهم العجائب، واحذروا علماء الدنيا المفتونين بحب المال والجاه والرياسة، وقد ورد فى الخبر: (إذا رأيتم العالم على أبواب

---

(٢٦) «بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم» ص ٣٣٩، ٣٤٠.

(٢٧) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٩ العدد ١٠ ص ٢٥٧ (غرة شوال ١٣٤٠ هـ).

(٢٨) سورة التوبة آية ١١٤.

(٢٩) سورة هود آية ٤٧.

(٣٠) البخارى ومسلم.

(٣١) سورة التوبة آية ٢٤.

السلاطين فاحذروه فإنه لص)[٣٢].

٥ – موقف الإمام من الذكر عند الصوفية :

الذكر من الواجبات على كل مؤمن ومؤمنة لأمر الله عز وجل به، وتكرار ذلك فى كتابه المجيد. قال تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا﴾[٣٣]، وقال تعالى : ﴿واذكروه كما هداكم﴾[٣٤]، وقال تعالى : ﴿فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكرًا﴾[٣٥]، وقال سبحانه : ﴿فاذكرونى أذكركم﴾[٣٦]، وقال جلت قدرته : ﴿فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم﴾[٣٧]، وقال عز وجل : ﴿والذاكرين الله كثيرًا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾[٣٨] وفى الحديث القدسى : [أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه][٣٩]، وقول رسول الله ﷺ : (سبق المفردون، قالوا: وما المفردون يا رسول الله؟ قال: الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات)[٤٠]، وفى رواية الترمذى قالوا يا رسول الله وما المفرودن؟ قال: (المستهترون، بذكر الله يضع الذكر عنهم أوزارهم فيأتون يوم القيامة خفافًا).

وقد أنكر البعض على الصوفية الذكر جملة واحدة، والبعض الآخر أقرهم على الذكر ولكن أنكر الهيئة التى يذكرون بها، ويمكن باختصار تقسيم المنكرين على الصوفية إلى نوعين :

أ – نوع يرى من الصوفية ما يخالف الشريعة عنده بحسب إدراكه، ولم ير صحة ما يفعلونه فى الكتب التى قرأها وتداولها ولم يسمع دليل على جوازه فينكرهم وينكر ما يفعلونه، وإذا رأى دليل صحة على ما يفعلونه يزول إنكاره.

---

(٣٢) الديلمى فى مسند الفردوس.

(٣٣) سورة الأحزاب آية ٤١.

(٣٤) سورة البقرة آية ١٩٨.

(٣٥) سورة البقرة آية ٢٠٠.

(٣٦) سورة البقرة آية ١٥٢.

(٣٧) سورة النساء آية ١٠٣.

(٣٨) سورة الأحزاب آية ٣٥.

(٣٩) أخرجه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه.

(٤٠) أخرجه مسسم عن أبى هريرة رضى الله عنه.

ب - ونوع ينكرهم وينكر أفعالهم ، وإن رأى دليل صحة ما يفعلونه لا يزول إنكاره ، لأن الحسد أعمى عين قلبه وطمس على بصيرته ، وخباثة باطنه أصمّت أذن فؤاده ، فيزداد مرضًا على مرضه ويصير مقارنًا لمن قال الله فى حقه : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها﴾[٤١].

ولما نظر الإمام رضى الله عنه إلى حال الصوفية فى عصره ، والمنتسبين إلى التصوف والمنكرين على الصوفية والتصوف وجعلهم من الذكر قضية لا يسأمون الحديث عنها ولا يملون الكتابة فيها بين التأييد من جانب والإنكار والاعتراض من جانب آخر .. أدلى رضى الله عنه بدلوه فى هذا المضمار مبينًا وجه الحق والصواب وما يجب أن يعرفه كل مسلم عن الذكر منصفًا لكل ما هو معروف منكر ، داحضًا بالحجة كل ما ليس له سند شرعى ، فقال :

أنواع الذكر :

الذكر إما أن يكون بالقلب واللسان أو بالقلب فقط أو باللسان فقط . فالذكر بالقلب واللسان هو أن يشرق على القلب نور معنى من معانى الحق يتحقق بها القلب بحال من أحوال الحضور مع الرغبة أو الرهبة أو الفرح أو البهجة أو الخوف والقبض أو البسط والجمال أو الطمع والرجاء . وقد يقوى الحال حتى يستغرق القلب فى أسرار تلك المعانى المجلوة له حتى يترجم بلسانه عن حقيقة وجده ، فإذا نطق بلسانه باللفظ الدال على نور المعنى المشرق فى القلب كان ذاكرًا بقلبه ولسانه . وفى هذا المقام ينبغى للذاكر ولمن معه أن يكونوا فى خلوة خاصة ، ويجب عليهم أن يخفوا أسرار هذا المجلس ويطووا بساطه حتى كأنه لم يكن ، خصوصًا إذا علا الذاكر الوجد حتى انحلت عقدة اللسان فأباح بمكنون وجده عن مشاهد سريرته ، فإن السامع له إذا نقل عبارته أفسد وخان أمانة أخيه كما قال ﷺ : (المجالس بالأمانات)[٤٢]، فإن للبصيرة عيونًا تشهد إذا صفا القلب ما لا تشهده الأبصار .

ومن الآداب فى ذكر القلب أن المريد يلزمه أن يقف عند ما أمر به ، وأن يحافظ على الاقتداء بإمامه بحيث لو لاح له مشهد من المشاهد التى تخالف ما ورد فى السنة أو ما عليه المرشد ، فيلزمه أن يخالف كشفه وشهوده ويسىء الظن بنفسه لأن ذلك ربما كان من رعوناتها أومن وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس .

---

(٤١) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٤٢) سبق تخريجه ص ٣٣٢ .

وليعلم المريد أن ذكر القلب هو الذكر حقيقة ، لأنه تفكر فى آيات الله واعتبار بما فى الآثار من أسرار الحكمة وعجائب القدرة حتى يبلغ به الفكر والاعتبار والتدبر إلى حال يكون فيها كأنه حاضر مع ربه ، ويبلغ به الحضور إلى حال لا يقع نظره على شيء إلا ويلحظ أنوار البديع الحكيم القادر المريد الحى القيوم ، بل ولا يسمع ولا يحس ولا يمس إلا يلحظ معانى القدس كأنها جلية أمام سره .

ومن وصايا الإمام فى الذكر :

إخوانى : منحنى الله وإياكم حسن الاقتداء برسوله ﷺ وحقيقة الاتباع له ﷺ حتى نفوز بمحبة الله تعالى لنا ، اعلموا منحنى الله وإياكم العلم والفقه والعمل أن مجالس الذكر فى الأماكن العامة كالمساجد والزوايا وفى الأماكن المشهورة إنما قررها العارفون لغرضين رئيسيين :

الغرض الأول : صرف الوقت فى ذكر الله تعالى ابتغاء فضله سبحانه ورضوانه بإخلاص .

الغرض الثانى : أن يلاحظ الإخوان - ودَّنى الله وإياهم - أن الناظرين لهم والسامعين لذكرهم :

أ - إما أن يميلوا بقلوبهم ويقبلوا على الله لما رأوه من الخشوع والآداب وحسن الحال والزى ، وما سمعوه من صحة اللفظ وتوسط الصوت ، فيكون الذكر فى الأماكن العامة إعلانًا بما عليه أهل الطريق من اتباع الشرع الشريف ، ومن التجمل بصفات العلماء التى هى الخشية والخوف ودوام الذكر والخشوع والتواضع والانكسار والألفة فى الله والتعاون على طاعة الله والاجتماع للخير ، فيكونون بذكرهم جمعوا الخلق على الله ، وكأنهم بذكرهم دعاة إلى الخير .

ب - إما أن يكون السامعون لهم والناظرون إليهم ألسن تقبيح وذم وأيدى أذية وشر :

١ - إذا رأوا ما لا يألفونه من حركات الأجسام .
٢ - وما ينكرونه من المزاحمة بين الإخوان .
٣ - وما يكرهونه من تحريف الأسماء الحسنى والنطق بها على غير ضوابطها الشرعية وما تكرهه أسماعهم .
٤ - وما يكرره بعض الذاكرين من عبارات المدح لشيخهم أو من الإشارات القدسية العالية التى لا يفهمونها .

فيسبب ذلك نفورهم وتنفير غيرهم وفتح باب المعارضة على الطريق وأهله ويكونون بذكرهم قد خالفوا الطريق وفتحوا على أنفسهم باب شر وفتحوا على المسلمين باب فتنة .

إخواني : جمّلني الله وإياكم بجميل الأخلاق والأحوال . أوصيكم :

١ - بأن تجعلوا مجالس الذكر العامة قاصرة على من لا يغلبهم الحال .

٢ - أن تكون العبارات التي يقولها القوّال قاصرة على فضائل الذكر والصلاة والصيام والحج وعلى التشويق إلى الجنة والتخويف من النار وعلى الاستعداد للموت وترك الظلم والحث على التوبة .. فإذا خلوتم في مجالسكم الخاصة يطيب لكم الحضور ويحسن الذكر والحال وسماع أسرار الحكمة .

إخواني : ليس كل من اتصل بكم وذكر معكم يؤمن على مجالس الخلوة ولا يقبل في الخلوة ، بل يلازم الرواتب والأذكار العامة ومجالس المذاكرات في الأحكام الشرعية حتى تتهذب نفسه وتطهر أخلاقه ويؤمن على أسرار الشريعة وأنوار علومها ، ولديها يُتخذ أخًا فصاحبًا فرفيقًا فصديقًا فبدلاً .

هيئة الذكر :

إخواني : معلوم أنه ورد كثيرًا كلمة حِلق الذكر وصفوف الصلاة ، فيظهر أن الأكمل أن يكون الذاكرون حِلقًا ، ومعلوم أنه ورد أن الأولى للمصلين أن يتقاربوا حتى يتماسوا ، وورد أن ذلك أصفى لقلوبهم وأبعد لعدوهم الشيطان ، من ذلك رأى بعض أئمة الصوفية أن يكون الذاكرون حلقة ، وأن يضع الذاكر يده في يد أخيه واضعًا أصابعه بين أصابعه برفق إظهارًا لصفاء القلوب ، وتحصنًا من وسوسة الشيطان الرجيم ، وقد روى أبو طالب المكي في كتابه « قوت القلوب » أن سيدنا عبد الله بن عمر بعد أن صلى صلاة العيد في مصلاة جلس يذكر الله هو ومن معه من الصحابة ، فجاء مصعب بن الزبير فقال : يا عبد الله خالفت كلام الله ، يقول الله تعالى : ﴿ فاذكروا الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم ﴾[٤٣] وأنت تذكر قاعدًا ، فقام عبد الله بن عمر هو ومن معه فذكروا قيامًا بعد أن ذكروا قعودًا .. هذا ما ورد عن الصحابة في الذكر قيامًا وقعودًا في مصلى العيد خارج المدينة ، وقد صح أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجلسون في المسجد حلقًا : حلقة يذكرون الله ، وحلقة يتدارسون القرآن ، وحلقة يتعلمون . وكان يدخل رسول الله ﷺ المسجد فيراهم فيتوجه إلى حلقة العلم ويجلس معهم ويقول : (إنما بُعثت معلمًا)[٤٤]، ويقر الذاكرين .

أما حركات الجسم في الذكر ، معلوم أن الركوع والرفع من الركوع ركنان في

---

(٤٣) سورة النساء آية ١٠٣ .

(٤٤) سبق تخريجه ص ٢٩٩ .

الصلاة ، ولذلك فإن بعض أئمة الصوفية استحسنوا أن تكون حركات الجسم فى الذكر من قيام وقعود كركوع ورفع ، والأولى المحافظة عليها ما لم يقو وجد الذاكر ، فإنه يباح له ما لا يباح لغيره .

أعمال الأخ الذى يتقدم مجلس الذكر :

من المقرر أنه لابد أن يكون لكل جماعة فى بلد أو قرية أومدينة أخ مُقدم عليهم ، ويلاحظ أن يكون :

١ - عالمًا بالسنة حتى يردهم إذا سهوا أو خالفوا .

٢ - عالمًا بأحوال وأقوال أئمة الصوفية ليبين لهم : مقامات السير والسلوك ، وطرق تزكية النفوس وحقيقة الآداب ، وهما الأصلان العظيمان اللذان بهما يقدم الأخ السالك طريق الله .

وأعمال هذا الأخ هى : المحافظة على الرواتب المأثورة من الصلوات والأدعية والأذكار ، ويفتتح مجالس الذكر أولًا بقراءة بعض سور القرآن الكريم مما يحفظه الجماعة ولو الفاتحة والصمدية والمعوذتين ، ثم يقرأ قوله تعالى : ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾[٤٥]، ملاحظًا النطق بها حسب رواية القرآن الشريف حتى يكون تاليًا للقرآن ذاكرًا الله تعالى ، ويلزمه أن يبين للإخوان تلك الملاحظة فيكونوا مرتلين للقرآن ذاكرين الله تعالى ، ويشرح لهم معنى لا إله إلا الله إجمالًا ، بأن يفهمهم أن الإله هو الغنى عما سواه المفتقر إليه كل ما عداه ، وأن الإله الحق المتصف بتلك الصفات هو الله سبحانه وتعالى الذى لا شريك له ، وأنه هو المعبود بحق دون غيره ، ثم إذا علم أن القلوب أشرقت عليها أنوار التوحيد وأنست بالواحد وتركت الأغيار يرفع صوته بالتهليل ويقرأ : ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾[٤٦] مستحضرًا الأمر من الله تعالى لرسوله ﷺ ووجوب الاقتداء به صلوات الله عليه ، ويكون قد ذكّر الإخوان بتلك المعانى ، ويقول الله بالتفخيم ويقول معه الجماعة ، ويلاحظ ما يرد على قلبه من أنوار الأسماء الحسنى فقد يقولون بألسنتهم الله ولقلوبهم مشاهد تتم بها الجملة ، فالقلوب تشهد بعد نطق الله : ربى - شافى - معافى - ولِيى - بديع - عزيز - رءوف - غفار - تواب ... مما يرد من الغيوب على القلوب .

وقد يقوى الوجد على الذاكر حتى ربما غلبه ، فيجب على المسئول عن الذكر فى هذا

(٤٥) سورة محمد آية ١٩ .

(٤٦) سورة الأنعام آية ٩١ .

الحال أن يروحه بذكر اسم من أسماء التفصيل ، فإن اسم الذات حيطة الأسماء كلها ، فالأولى أن يرفع صوته بالاسم الشريف وينبههم للإصغاء ثم يقرأ : ﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو ﴾(٤٧) وينطق بالاسم « هو » مضموم الهاء ساكن الواو ملاحظًا فى قلبه عظمة الهوية مستحضرًا أن يتم الجملة بمعنى اسم من الأسماء مثل « هو » باللسان .. وبالقلب « الأول أو الآخر أو الحى أو القيوم ».

فإذا حصل الوجد وغلب الحال نقلهم إلى اسم آخر مثل « الحق » بأن يقرأ قوله تعالى : ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾(٤٨) ويذكر الاسم أو يذكر (حى قيوم) بشرط أن يلاحظ معنى هذين الاسمين ويستحضر بقلبه الاسم الشريف ، بأن يكون قلبه يذكر (الله) ولسانه يذكر (حى قيوم) لتتم الجملة إلا إذا استغرق القلب فى معنى الاسم المفرد وأشرق على السر نور معناه ، ففى هذا الحال يكون اللسان ناطقًا بلفظ الاسم المقدس والقلب ذاكرًا معناه والسر آنسًا بوميض الأنوار ، وهذا حال تطيب فيه النفس بعد تزكيتها وتصفو فتصافى بقبس الأنوار القدسية ، فلا يكون هذا الحال إلا لأهل خاصة الخاصة فى خلوتهم.

فإذا ختم الذكر فينبغى أن تلاحظ تلك الآداب :

أولًا : يتحفظ الإخوان بملابسهم تحصنًا من الهواء ، لأنه إذا مر بأجسامهم وثيابهم مبلولة بماء العرق ربما حصل منه ضرر.

ثانيًا : يترك الإخوان شرب الماء البارد عقب الذكر مباشرة حتى تستريح أبدانهم ، فإنه مضر عقب الذكر.

ثالثًا : يغمض الإخوان عيونهم توجهًا إلى الله تعالى لترد على قلوبهم منح الملكوت وأنوار الذكر.

رابعًا : يقرأ أحدهم ما تيسر من القرآن الكريم ، والأفضل أن يقرأ الآيات الدالة على التوحيد أو الذكر أو الفكر أو البشائر ليتدبر الإخوان معانيها وتنشرح صدورهم.

خامسًا : إن شرح الله صدره لشيء من المذاكرة ذاكر ، أو عرض على الإخوان إن أحب أحدهم أن يتكلم بوارد ورد له أو فهم فهمه أو حكمة نقلها أو سيرة من سير السلف رواها فليتفضل بإلقائها ، وإن أحب أن يروحهم بسماع الحكمة المنظومة من أخ حسن الصوت أمر بذلك بشرط أن يقول ما يناسب الأكثرية من الحكم والعلوم ، ثم

---

(٤٧) سورة البقرة آية ١٦٣ .

(٤٨) سورة فصلت آية ٥٣ .

ذكر التهليل ثلاثًا أو خمسًا أو سبعًا ورفع يده، وصلى على رسول الله ﷺ، وترضّى عن الصحابة وعن جميع إخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ودعا بالمغفرة للذين سبقونا بالإيمان، وسأل الله لإخواننا المعاصرين الحاضرين والغائبين، ثم يأذن بالانصراف.

٦ - موقف الإمام من تعدد الطرق الصوفية :

روى أن الإمام دعا يومًا مشايخ الطرق الصوفية على مائدة الغذاء، وكان الإمام قد عقد العزم من هذه الدعوة على أن يكلمهم عن اتحاد هذه الطرق الصوفية كلها فى طريق واحد ﴿وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾[٤٩]، وقد قال الإمام عن الطريق المستقيم[٥٠]: إن الطريق المستقيم يا إخوانى واحد لا يتعدد وإن تعددت أنواع السير عليه، سرعة وبطئًا، وتأنيًا وإقبالًا، والسالكون عليه وإن تفاوتت هممهم وتنوعت عزائمهم إلا أنهم لا خلاف بينهم، لأنهم كلهم على اعتقاد واحد ورأى واحد ومذهب واحد، سارعوا إلى وجهة واحدة، وتعاونوا على مقصد واحد، وتنافسوا فى مراد واحد. إنما الخلاف بينهم أن هذا على الطريق الحق إلا أنه توَسَّط وعمل بالقلب والجسم بحالة وسط، وأخوه معه على الطريق الحق إلا أنه عمل بالواجب البدنى ووقف عنده وزاد فى عمل القلوب على الواجب القلبى، والآخر على الطريق الحق إلا أنه جاهد نفسه ليتخلى وأخوه معه إلا أنه ينافس ليتحلى، والكل فى حيطة واحدة وهى المدينة التى أشار إليها ﷺ بقوله: (المدينة خير لهم لو كانوا يعملون)[٥١].

وبعد تناول الغذاء على مائدة الإمام والترحيب بهم، بدأ الإمام الحديث بقوله:

يا إخوانى: ليس الطريق لنكون فِرقًا مختلفين وعُصبًا متنافرين وشِيَعًا متباغضين، قلوب على الحظ والهوى عُقِدَتْ، وبالدنيا وما فيها اطمأنت، وللشهرة والسمعة طلبت، حتى أصبح المسلمون وهم كثيرون قليلًا، قال تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا﴾[٥٢].

ثم أفاض رضى الله عنه فى شرح آية الاعتصام وعدم التفرقة. وبعد ذلك طلب منهم أن

---

(٤٩) سورة الأنعام آية ١٥٣.

(٥٠) كتاب «مذكرة المرشدين والمسترشدين» للإمام أبى العزائم ص ٥٨ - ٥٩.

(٥١) متفق عليه من حديث سفيان بن أبى زهير وقد أورده الغزالى فى الإحياء ج ١ ص ١٧.

(٥٢) سورة آل عمران آية ١٠٣.

يختاروا واحدًا منهم ينصبونه إمامًا للطريق ويُسَلِّمُ له الجميع ويساعدوه على أداء رسالته ، وقال لهم : الرجل الذى تختارونه أنا أول من يحمل حذائه ، وحتى لا تظنوا أنى جمعتكم فى بيتى لتختارونى ، فسأتركِكم لمدة ساعتين تختارون من بينكم من شئتم .

تركهم الإمام وصعد إلى خلوته . ولما عاد إليهم عرف أنهم اتفقوا على أن يظلوا على ما هم فيه !! . وجلس الإمام وضرب على فخذه قائلًا : الله بالمد الطويل ، فأخرج الكتبة الحاضرون أقلامهم وأوراقهم ليكتبوا ، قال الإمام رضوان الله عليه :

ما اختلاف الطريق والقصدُ واحد … والصراط السوىُّ للمُتواجد

ذا لأن النفوسَ مختلفاتٍ … كلُّ نفس لها سبيلٌ وشاهد

والرجالُ الأفرادِ فوقَ صراطٍ … بدؤهُ الكشفُ للمُرادِ الواجد

من الستُّ شربوا طهورًا مُدارًا … اسكرتهم لم يلفتنهم مُعاند

افردوا الله باليقين وفرُّوا … مِنْ سواه إليه والفضلُ وارد

من لدى البدء وُوجهوا بجمال … يجذبُ الروحَ للولى الماجد

واختلافُ الطريق فى السير يُنبى … باختلافِ النفوس بل والموارد

والمرادُ المحبوبُ افردَ بالقصدِ … عليًا وهو الإلهُ الواحد

والنفوسُ المَرضَى تسيرُ الهُوينا … للأيادى او للعطا والموائد

او لأجر تسعى ونيل حظوظٍ … فى جنان النعيم بين الولائد

بينَ باكٍ من خوفِ نار وراج … جنة الخلدِ فى عناءٍ يُجاهد

بين زهد فيما يزولُ لقصدٍ … فوزُهُ بالقبول تجده عابد

ذاكَ سرُّ التفريق والوجهُ قصدى … من الستُّ وطالبُ الغير جاحد

افردَ المُجتبونَ وجهًا عليا … باليقين القوى محو العوائد

شاهدوا باليقين فى الكون نورًا … كان بدءًا يراهُ كلُّ مُشاهد

لم تعقهم عناصرُ وحدودٌ … كلُّ فردٍ لله بالله عائد

ظللتهم انوارُ شمس التجلى … سترتهُمْ عنهم فبشرى لصاعد

ناولتهم يدُ العناية راحًا … اسعدتهم بنيل كل المقاصد

قصدُهم واحدٌ إليه انابوا … بل له اسلموا بقلبٍ واجد

٧ - رد الإمام على من يفرق بين الشريعة والطريقة[٥٣]:

سبق لى فى غير هذا الموضوع أنى بينت أن مدلول (شريعة - طريقة - منهاج - صراط - سبيل) واحد، وكلها ألفاظ مترادفة دالة على المسافة التى يلزم العبد أن يتجاوزها من الدنيا إلى الآخرة ومن الآخرة إلى المكون سبحانه، وهى المسافة التى لا نجاة لعبدٍ إلا بتجاوزها على الصراط المستقيم. وتلك المسافة شاسعة طويلة الشقة صعبة المشقة إلا على من يسر الله لهم السلوك وسهل عليهم مراحلها، وأنعم عليهم بالمرشد الكامل الذى يبين لهم سبل الله ويبين لهم حكمة أحكام الله ويشهدهم فى أنفسهم وفى الآفاق آيات الله، ويعالج أمراض نفوسهم وأسقام قلوبهم بما أمر الله به من قوله سبحانه: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن﴾[٥٤]:

١ - فالحكمة: لأهل الاستعداد الذين سبقت لهم الحسنى وحصلت منهم الرغبة فى الحق والشوق إلى ما عنده سبحانه، وهى بيان أسراره وكشف غوامض آياته وشرح مكنون حكمه سبحانه وتعالى.

٢ - والموعظة: للمؤهل الذى سبقت له الحسنى ولكنه ملتفت ببصره إلى غير ما يجب أن يواجهه، والموعظة هى التلبية إلى ما يجب على العبد، وهى الذكرى، لأن من شهد شيئًا وتصوره والتفت عنه يذكره، ولذلك فإن الله تعالى قال: ﴿والموعظة الحسنة﴾ ولم يقل بالحكمة الحسنى، لأن الحكمة حسنة والموعظة تذكير من شهد مشهدًا وشغله غيره ليلتفت إلى مشهده الأول.

٣ - وأما المجادلة: لمن لم يكن فيه أهلية ولا استعداد، فتقام عليه الحجة بالتى هى أحسن حتى لا يحصل له النفور. وأشار الله تعالى بقوله: ﴿بالتى هى أحسن﴾ لتكون الحجة قائمة عليه، فإن وفقه الله تعالى أقبل مطمئنًا، وإن لم يقدر له توفيقه أدبر وقد قامت عليه حجة الله تعالى، قال تعالى: ﴿فلله الحجة البالغة﴾[٥٥]. فمن أسعده الله تعالى بمرشد عالم بطريق الوصول ورزقه الله التسليم له كان ذلك أكبر دليل على سعادته فى الدنيا والآخرة.

ولما كانت تلك الألفاظ كلها مترادفة، كان قولنا شريعة وطريقة بمعنى واحد، ولكن اصطلح السلف الصالح على أن يضعوا لفظ (طريقة) علمًا على تلاميذهم الذين تفرغوا

---

(٥٣) مجلة المدينة المنورة: السنة ١٠ العدد ٧ ص ٩ (٢٥ رجب ١٣٥٦ هـ الموافق أول أكتوبر ١٩٣٧).

(٥٤) سورة النحل آية ١٢٥.

(٥٥) سورة الأنعام آية ١٤٩.

لتلقى العلوم والعمل بها وأقبلوا بكليتهم على مجاهدة أنفسهم ليتجاوزوا تلك المسافات الشاسعة ، وصار لفظ (الطريق) علمًا على طائفة مخصوصة من تلاميذ العلماء الربانيين الذين يتلقون عنهم أسرارهم ويتشبهون بهم فى أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم وأحوالهم ويسارعون فى العمل بما يعلمونه منهم . ومن انتسب إلى الطريق ولم يكن مسترشدًا على يد مرشد عالم ربانى عامل بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فليس من أهل الطريق ولكنه دَعِيّ . فالطريق إذن عمل بالعزائم فى الشريعة المطهرة لأن الشريعة تجمع الرخص والعزائم .

ولفظ (الطريق) صار خاصًا بأهل العزائم ، وهذا شىء معلوم من عهد رسول الله ﷺ ، فإن كثيرًا من أصحابه ﷺ عكفوا فى مسجده ﷺ آخذين بالعزائم متفرغين لتلقى الأسرار المحمدية والأنوار القرآنية ، وبهم رضى الله تبارك وتعالى عنهم اقتدى الخلف بعد السلف ، فهم أئمة أهل الطريق وقادتهم .

ودام الأمر على هذا حتى كان الرجل إذا رغب فيما عند الله خرج سائحًا على وجهه يفتش على المرشد ، فلا يقر له قراره إلا بعد أن يصل إليه ، فإذا وصل إليه عكف عليه . ومن أحب أن يعلم سيرتهم فليقرأ تراجمهم رضى الله عنهم ، فإنهم هجروا الأوطان وفارقوا الأهل والأولاد سعيًا فى طلب الرجل الدال على الله بقوله وعمله وحاله . ولا يخلو زمان من الرجال المجددين لسنن رسول الله ﷺ القائمين بحجة الله .

ولا خلاف بين الشريعة والطريقة لأن أهل الطريق اهتموا بعمل القلوب ، لأن أساس الخير كله عمل القلوب . ولعلك تعلم أن النفاق قد يخفى على كثير من العلماء ، فقد يكون الرجل منافقًا وهو يحسب نفسه من أكمل الموقنين وذلك لعدم عنايته بعمل القلوب واهتمامه بظاهره . وجلىّ أن القلب محل نظر الرب جل جلاله ، ولذلك سارع رجال الطريق إلى صفاء قلوبهم وتخليتها من النجاسات لتخلص لهم الإرادة ويكمل لهم القصد وتصح العزيمة حتى يبلغوا درجة فقه القلب . وكم من فقيه اللسان جهول القلب ، وإنما هى مراقبة الله جل جلاله بالقلوب تكسبها خشية وخوفًا ورهبة وحبًا وثقة به جل جلاله وصبرًا على مر قضائه وقدره أو رضا عنه فى كل شئونه سبحانه .

لعلك تسألنى قائلًا : إنك تقول لا خلاف بين الشريعة والطريقة مع أنّا نرى الخلاف بين كثير من الناس ، فترى أهل الطريق ينكرون على غيرهم ، وغير أهل الطريق ينكرون على أهل الطريق إنكارًا مرًا حتى يرمونهم بالبدعة والضلالة والخروج عن الشرع .. فأقول لك يا أخى :

لا يلزم من حصول الإنكار وجود ما ينكر عليه أو الاختلاف بين الشريعة والطريقة ، ولكن ما نراه من الخلاف بين الناس فى مثل هذا فهو الجهل بأصول الطريق ومآخذها ، أما الإنكار من أهل الطريق على غيرهم فلم يكن ذلك من علمائهم ولكنه من بعض من يؤذيهم إنكار المنكرين ، وإن كان ثم إنكار فهو على الشخص المنسوب للطريق الذى يخالف أحكام الشريعة مدعيًا أن ذلك من الطريق وهو كاذب ، لأن الطريق هو روح الشريعة والأخذ بعزائمها ، وليس من أهل الطريق من خالف صريح السنة . ولجهل الناس صاروا ينكرون على الطريق إذا شاهدوا رجلًا من أهلها يعمل ما يخالف الشريعة ، وكذلك إنكار أهل الطريق على العلماء لأنهم رأوا من يدعى العلم يعمل بغير علمه فالإنكار على عمل الأشخاص لا على الطريق .

والطريقة منهاج المخلصين ، والحقيقة أن الشريعة اسم جامع للعزائم والرخص - قال تعالى : ﴿من اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾[٥٦] وقال تعالى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾[٥٧] . فمن اعتدى على من اعتدى عليه عمل بالشريعة ، ومن عفا وأصلح عمل بالشريعة ، - ولكن من عفا وأصلح تميز عن غيره لأخذه بالعزائم .

٨ - رد الإمام على الإدعاء بأن أهل الطريق يحكمون الذوق والحال والوجد ولو خالفوا فى ذلك الشريعة[٥٨]:

جهل بعض الناس ممن لا علم لهم بالطريق فظنوا أن أهل الطريق يحكمون الذوق والحال والوجد ولو خالفوا في ذلك الشريعة ، ومن يعتقد ذلك فى أهل الطريق فقد جهل مبادئهم ، ومن جهل شيئًا عاداه ، فإن الذوق : قبس من نور اليقين الذى فوق العلم ، والحال : ظهور أنوار اليقين على السالك المخلص حتى يكون متجملًا بجمال أهل الخشية والخوف من الله تعالى والرغبة فيما عنده سبحانه ، والوجد : حضور بالقلب والسر مع الرب جل جلاله .

ولا يمن الله بتلك المعانى على من خالفوا حكمه سبحانه ، ومن حكم الذوق والحال والوجد وخضع لحكمها فقد عبد غير الله ، وما عند الله لا يُنالُ بمعصيته ، فإذا انقاد أهل الطريق للحكم بذوقهم وحالهم ووجدهم فليس ذلك انقيادًا لها وإنما هو انقياد لواجب

(٥٦) سورة البقرة آية ١٩٤ .

(٥٧) سورة الشورى آية ٤٠ .

(٥٨) مجلة المدينة المنورة : السنة ١٠ العدد ٨ ص ٩ (٢ شعبان ١٣٥٦ هـ الموافق ٨ أكتوبر ١٩٣٧ م) .

الوقت الذى أوجبه الله على السالك مسارعة إلى تنفيذ حكم الله تعالى الذى تلقاه عن الله إما صريحًا من كتابه العزيز، أو من عمل وكلام رسول الله ﷺ وعمل أئمة الهدى من الصحابة والتابعين، أو استنباطًا من الكتاب والسنة، فإذا اضطر إلى الحكم على أمر ولم يستبن له رفعه إلى أعلم منه، فإن خفى عليه نظر بعين المخافة من الله وفكر فيه بقلب ملؤه الخشية من الله، فإن ظهر فيه مصلحة وخير، حكم بإباحته، وإن ظهر له فيه مفسدة ومضرة، حكم بكراهته، فإن روح الشريعة تقضى أن كل ما هو خير مباح، فهم فى ذوقهم وحالهم ووجدهم مقهورون بحكم الله تعالى، وكل ذوق أو وجدٍ أو حال يخالف حكم الله تعالى يفرون منه ويتبرأون منه.

ولعلك تنكر قولى: «واجب الوقت».. فأبين لك هذا الأمر: أخرّ رسول الله ﷺ صلاة العصر إلى الغروب فى غزوة من الغزوات وقال: (حبسونا عن الصلاة الوسطى ملأ الله قبورهم نارًا)[٥٩]. وجلس أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى المسجد يذكر الصحابة بأمر فأخرّ صلاة العصر، فقال المؤذن: الصلاة يا أمير المؤمنين، فقال: نحن فى صلاة. فقد يقتضى واجب الوقت طهارة القلب فيسارعون إلى طهارة القلب، فإن كل عمل لم يكن صادرًا عن قلبٍ.. مردود. وإن الله سبحانه قد أكرم أهل الطريق بما هو كمعجزات أنبياء الله السابقين على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وكيف يستجيب الله تعالى لمن لم يستجب له؟ أو يكرم بآياته من خالف حكمه؟ فأساس طريقهم رضى الله عنهم العمل بحكم الله تعالى ومخالفة كل من خالفه، حتى أنهم يخالفون كشفهم الصريح ويَرجعون إلى حكم الله تعالى، وأئمتهم أصحاب رسول الله ﷺ. كان الرجل منهم رضى الله عنهم إذا حكم بحكم وظهر له حكم الله تعالى قال أخطأتُ ويرجع إلى الحق، وإنما أهل الطريق أتباع لأصحاب رسول الله ﷺ ومقتدون بهديهم رضى الله عنهم جميعًا. وكيف يتخيل متخيل أن قومًا أقبلوا على الله بالكلية يعتقدون أنهم غير معصومين يحكمون ذوقهم وحالهم ووجدهم ويتركون حكم الله تعالى؟ والحق فوق الخلق عند غيرهم.. فكيف عندهم؟ فهم مع الحق وإن شهدهم من جهل حالهم مخالفين، ولذلك فإنك تراهم يطيعون فقيرًا مسكينًا وتذل له نفوسهم الكبيرة وتخشاه قلوبهم، ويبذلون له نفوسهم ونفائسهم، يعادون لأجله الملوك والجبابرة ما ذلك إلا لأنهم أحبوا أهل الحق ولو كانوا أذلاء فقراء مهانين مرذولين فى أعين الناس، ولو أنهم لم يكن الحق مقصدهم الأول لما ذلوا أنفسهم العزيزة لفقير مسكين سمعوا منه الحكمة وفقهوا عنه العظة وعلموا منه الخشية من الله. وكم من سيد فى قومه عزيز فى سربه ذل لفقير مسكين اتخذه سيدًا

---

(٥٩) الإمام أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن جرير وابن كثير فى تفسيره.

وإمامًا يخدم نعليه ويذل بين يديه ويسمع له ويطيع، مع أن الملوك تسترضيه فلا يرضى عنهم، ما ذلك إلا للحق سبحانه، فأهل الطريق رضى الله عنهم صغر فى أعينهم ملوك الأرض ما داموا على غير الحق وعظم فى أعينهم الفقير الذليل ما دام على الحق.

ولو قرأتَ تراجم من سادوا فى عصورهم لرأيت أغلبهم من العبيد أو من الأذلاء والموالى أو من أهل المهن الدنيئة، بم عزوا وبم سادوا؟ بما أظهره الله على ألسنتهم من الحكمة، وبما وهبه لهم من الحب له وفيه سبحانه، وكيف لا؟ وقد ألقى الله عليهم محبة منه سبحانه بما وفقهم له من العمل بما علموا فصاروا عظماء حتى فى قلوب العصاة والفسقة لما أظهره الله عليهم من أنوار محبته، فترى الفاسق الفاجر الجبار العنيد إذا رآهم يخشع قلبه ويتذلل أمامهم ويسألهم الدعاء له وهم فى شظف العيش ورداءة الثياب وخشونة الظاهر، ولا ترى أحدًا يعاديهم إلا عليم اللسان جهول القلب أو معاند للحق خب لئيم لا يؤمن بيوم الحساب. وكفاه شرفًا أن الله تعالى ألقى عليهم محبة منه سبحانه فأحبهم الأميون والعامة والصبيان والنساء، وهى سنة الله فى أوليائه، ولعلك قرأت قوله تعالى مشنعًا على أعدائه: ﴿وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى﴾(٦٠)، ولعلك قرأتَ حديث البخارى فى باب الهجرة عندما أخرج كفار قريش سيدنا أبا بكر رضى الله عنه وجاء ابن الدغنة ليمنعهم من إخراجه فقالوا: إنا نخشى على نسائنا وصبياننا منه، واشترطوا عليه أن يمنعه عن قراءة القرآن بصوته خارج بيته لأن النساء كن يجتمعن عليه ويبكين ببكائه ويجتمع عليه الصبيان والبسطاء ويبكون معه عندما يرتل القرآن باكيًا، ذلك لسلامة قلوب العامة وصفائهم من درن الحظوظ والأهواء وحب الدنيا.

٩ - رد الإمام على من يقولون إن الشريعة والحقيقة ليست طريقًا واحدًا:

أدعياء الطريق وتأويلاتهم:

إن الأصول الشرعية يجب على السالك فى طريق الله أن يرعاها حق رعايتها فلا يحيد عنها قيد شعرة، والسلوك إلى الله تعالى لا يمكن أن يكون من غير الطريق الشرعى. ولما كانت هذه النقطة من أدق النقاط وأصعبها فهمًا على عقول العامة - خصوصًا فى هذا الزمان المظلم الذى تفشت فيه البدع واشتدت وطأة المضللين والجاهلين - فقد رأينا أن نعرض الكلام فيها ونفصل ما خفى منها حتى تستبين الحجة فيها وتتضح المحجة، وينجلى

---

(٦٠) سورة هود آية ٢٧.

ذلك الستار الموهوم الذى أسدله أدعياء المتصوفة وقاطعوا طريق الله تعالى على أنفسهم لتضليل البسطاء وإغواء الأبرياء والتحايل على العيش من وراء هذا الافتراء والبهتان .

يحاول أولئك القوم أن يُفهِموا السذج من الناس أن الشريعة والحقيقة مختلفتان متناقضتان فى لفظهما وجوهرهما ، وأنهما طريقان متباينان لكل طريق منهما أصول وقوانين ، وأن كلّا منهما انفردت بأهلها ومعتنقيها عن الأخرى ، ولذلك يحتمون على كل من سار فى طريق الحقيقة أن يترك كل ما يتعلق بالشريعة لأنه يسير بزعمهم فى طريق أعلى وأسمى من تلك الطريق ، ولا يجمل بمن رقى أن يتنزل ، ولا بمن تغلغل فى بطن الدار وجالس أهلها أن يعود للوقوف على بابها .

الرد على هذه التأويلات :

وجهل أولئك المغرورون أن الشريعة والحقيقة طريق واحد بدايته الأولى ونهايته الثانية ، وأن الحقيقة من الشريعة كالقصر المشيد العالى من الأساس المتمكن فى أعماق الأرض ، فلو لم يبق هذا الأساس ويحكم بناؤه لما قام ذلك القصر ولما دام بقاؤه . وإنه وإن كانت الحقيقة بيتًا والشريعة بابه ، فإن البيوت لا تؤتى من غير أبوابها ، وإن الذى يدخل البيت من غير الباب إنما هو لص مريب لا ينظر إليه بعين الثقة ولا الاحترام .

ولقد بين العلماء العارفون بالله وَهَنَ تلك الدعاوى الباطلة التى يضلل بها أولئك الأدعياء عقول الناس ، يقذفون بهم فى هوة مخالفة الشريعة والخروج على أوامرها ، حتى إذا ما انقضت تلك الحياة الدنيا - وسرعان ما تنقضى - وجاء يوم الحساب والعقاب : ﴿إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب * وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار﴾(٦١) .

مكائد أدعياء التصوف وحيلهم :

وإليك بعضًا من مكائدهم وحيلهم التى ينصبون شراكها لإيقاع البسطاء :

أول ما يبدو لك من أحوالهم : جرأة على الشريعة ، وسوء أدب مع الله تعالى وأمن واستهتار ينبئك بأن نفوسهم لقسة لم تتطهر من رجس الشهوات ولم يوجد فيها القابل الذى يقبل الحقائق ويرضخ لها ، وإذا ما أنكر عليهم منكر بعض أمورهم المخالفة للشرع

(٦١) سورة البقرة آية ١٦٦ ، ١٦٧ .

الشريف قالوا كذبًا إن حرمة ذلك فى العلم الظاهر، وإنا أصحاب العلم الباطن وهو فى علمنا حلال، وإن الناس يأخذون من الكتاب والسنة، أما نحن فنتلقى من صاحبهما محمد ﷺ، فإن أشكل علينا ما نتلقاه منه رجعنا إلى الله تعالى بالذات وإنا بالخلوة، وهمة شيخنا تصل إلى الله فتكشف لنا العلوم فلا نحتاج إلى كتاب وسنة، إن الوصول إلى الله تعالى لا يكون إلا برفض العلم الظاهر والشرعى، وإنا لو كنا على الباطل ما حصلت لنا تلك الكرامات العلية والأحوال السنية من مشاهدة الأنوار وكشف الأسرار.

الرد على هذه المكائد والحيل:

كل ذلك ونحوه أكاذيب وترهات بل هو إلحاد وضلال، إذ فيه إزدراء بالشريعة السمحاء وإبطال لحكمة تشريعها، وإن الشيطان لم ينل من المسلمين ما ناله الفساق من المدعين التصوف بالباطل، فإن الله تعالى يقول: ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾(٦٢)، والتقوى هى العمل بعلم الشريعة لأن الأخذ بالعزيمة من شأن الأتقياء، ومن خالف الشريعة صار غويًا لا تقيًا، ومثله يعلمه الشيطان الطمع فى الأموال وإباحة الأعراض والكيد لمخالفيه والمنكرين عليه.

الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به:

كما أن الذين يحصلون علم الشريعة ولا يعملون به هم شر الخلق، لأن العالم إذا استعان بعلمه على نيل الدنيا من الملوك والأمراء - بل ومن المتسلطين من غير المسلمين - بأن يواليهم ويودهم ويتردد عليهم، سلب الله منه بركة العلم وكان العلم حجة عليه يوم القيامة، روى الإمام أبو عمر يوسف بن عبد البر الأندلسى بسنده فى كتابه (جامع بيان العلم) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فى سبيل الله فأتى به ربه فعرفه نعمه فعرفها، فقال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدتُ، قال: كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: تعلمت فيك العلم وعلمته وقرأت القرآن، قال: كذبت ولكن ليقال هو قارىء وقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار. ورجل أوسع الله عليه وأعطاه

---

(٦٢) سورة البقرة آية ٢٨٢.

من أصناف المال، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما فعلت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن أنفق فيه إلا أنفقت فيه، قال: كذبت ولكن ليقال هو جواد فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار)[٦٣]. هذا الحديث فيمن لم يرد بعلمه ولا عمله وجه الله، وقد قيل فى الرياء أنه الشرك الأصغر[٦٤].

الشريعة والحقيقة:

يقول الإمام رضى الله عنه: «لا خلاف بين الشريعة والحقيقة، فإن الشريعة حقيقة والحقيقة شريعة. ولكن الشريعة فى الاصطلاح أمر بالقيام بواجب العبودية، والحقيقة شهود معانى الربوبية. ولا يكون المسلم مسلمًا كاملًا إلا إذا وفقه الله فالتزم بالعبودية وتفضل الله عليه فأشهده معانى الربوبية فشاهد فى الشريعة أسرار حكيم وفى الحقيقة أنوار قادر. ومن أحاط بالشريعة علمًا والتزم بالعبودية ولم يشاهد معانى صفات الربوبية فغير مقبول، وكل من شاهد معانى صفات الربوبية ولم يتقيد بالشريعة لم يفز بمحصول.

فالشريعة أنزلها الله تعالى للقيام بما أمر.. والحقيقة لشهود ما قضى وقدر وهى سر تصريف الحق لما أراد ودبر وأخفى وأظهر، والشريعة أن نعبده سبحانه.. والحقيقة أن نشهده جل جلاله، وفى ﴿إياك نعبد﴾ حفظ للشريعة وقوله: ﴿وإياك نستعين﴾ إقرار بالحقيقة.

قلت لك الشريعة حقيقة والحقيقة شريعة، لأن الشريعة وجبت بأمره سبحانه فهى حقيقة، والحقيقة أيضًا شريعة من حيث أن العلم به سبحانه وجب بأمره. ولم تكن السياحة فى السلف الصالح إلا لطلب العارفين بالله من أهل الحقيقة، لأن ما من بلد من بلاد المسلمين إلا وفيها علماء للشريعة لا يحتاج طالب الأحكام إلى غيرهم، وكان السائحون من كمل العلماء بالشريعة، قال رسول الله ﷺ: (الشريعة أقوالى والطريقة أعمالى والحقيقة أحوالى)[٦٥]. وإنما بينت لك تلك الألفاظ الثلاث ليتضح لك اصطلاح القوم فيها ولتعلم أنه لابد للسالك من العلم بالشريعة أولًا والعمل بما علم، ولديها يكون من السالكين على الطريق المستقيم. ثم يجتهد أن يطلب العارف الربانى حتى يبذل ما فى

---

(٦٣) رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة.

(٦٤) كتاب «الطريق إلى الله» للإمام أبى العزائم.

(٦٥) قال العجلونى فى كشف الخفاء: [الشريعة أقوالى والطريقة أفعالى والحقيقة حالى والمعرفة رأس مالى] لم أر من ذكره، فضلًا عن بيان حاله، وذكر بعضهم أنه رآه فى كتب بعض الصوفية فليراجع. «كشف الخفاء حديث ١٥٣٢».

وسعه ، فإن فاز به فهى السعادة وإلا جاهد نفسه على العمل بما علم حتى يورثه الله علم ما لم يعلم وهى الحقيقة التى تنبلج بها آيات الحق جلية فى نفسه وفى الآفاق ويشهده الله جل جلاله أنواره المضيئة فى الكائنات التى قام بها كل شئ ، وبذلك يكون مؤمنًا كاملًا فى مزيد من فضل الله ، يتجدد له الخير بتجدد أنفاسه .

وما من سالك أقامه الله فى مقام مشاهدة معانى صفات الربوبية إلا وخرق العادة من نفسه أو خرقت له العادة ، وهم أنواع :

(١) منهم ورثة الأنبياء وهم أصحاب الأحوال العالية والكرامات الظاهرة .

(٢) منهم وارث رسول الله ﷺ فى سر من أسراره صلوات الله وسلامه عليه إذ لا يمكن لأى مخلوق أن يرث المقام المحمدى إلا بقدر ما .

(٣) وارث رسول الله ﷺ خفى عن الخلق مجهول عندهم لا يعرفه إلا الأفراد المحبوبون لله لأنه يقهر حاله ووجده وذوقه ، وهو الإمام المقتدى به ، صورة رسول الله ﷺ ، صغرت فى عينه الكرامات واضمحلت الآيات ، وهو الختم المجمل بجمال الخلة المتحقق بميراث : ﴿إنى وجهتُ وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾(٦٦) ، وقوله سبحانه : ﴿فإنهم عدو لى إلا رب العالمين﴾(٦٧) ، فهو العبد المتكمل بحلل العبودة الخالصة ، وأما غيره ممن ورثوا أسرار الأنبياء السابقين صلوات الله على نبينا وعليهم ، فهم أصحاب الأحوال ، وبينهم وبين وارث رسول الله ﷺ كما بين الشمس ضحوة وبين كوكب من الكواكب ، وأن الله تعالى يجدد لهذه الأمة أمر دينها على لسان ويدى وارث رسول الله ﷺ فى كل زمان عند المقتضى .

وقد تغلب مشاهد صفات الربوبية السالك فتخرجه عن الاعتدال فيستغرق فى شهود قادر ويحتجب عن شهود حكيم فهى صولة لا تدوم إلا ريثما تتجلى الآيات ويتداركه الله تعالى بمرشد كامل عناية به من الله تعالى أو يسلب منه القوة التى بها التكليف فيكون هائمًا على وجهه روحانيًا لا يشعر بلوازم بشريته ، وهؤلاء ليسوا أئمة للمتقين ، ومن فضل الله تعالى عليهم أن يضع لهم فى قلوب عباده عاطفة ورحمة ، وهؤلاء لهم العذر ، فإن ما به التكليف فقد منهم ، وهم الذين ينزل الله بهم الأمطار ويوسع بهم الأرزاق لأنهم الفقراء إلى الله ، والإحسان إليهم يدفع الله به البلايا عن عباده ويهب به الخير لأنهم

---

(٦٦) سورة سورة الأنعام آية ٧٩ .

(٦٧) سورة الشعراء آية ٧٧ .

مستغرقون فى شهود صفات الربوبية فانون عن مقتضيات البشرية ، قال بعضهم :

تركت للناس دنياهم ودينهم   شغلًا بذكرك يا دينى ودنيائى

وفى الأثر : بفقرائكم ترزقون وترحمون .

ظهر لك الفرق بين الشريعة والحقيقة فى اصطلاحنا ، والأمر سهل عليك ، وما عليك إلا أن تسارع إلى تحصيل ما لابد لك منه من العلم بأحكام الله وأيام الله ، ثم تسارع إلى العمل به ، ولديها يورثك الله تعالى علم ما لم تعلم على لسان من يشاء من أحبابه ، أو بنور يجعله الله فى قلبك من قبس مشكاة الأنوار » .

١٠ - أخذ العهد أو البيعة :

قال الله تعالى : ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾(٦٨) وقال تعالى : ﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾(٦٩) وقال تعالى : ﴿إن العهد كان مسئولا﴾(٧٠) وقال تعالى : ﴿إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيما﴾(٧١) وقال ﷺ : (بايعونى على ألا تشركوا بالله شيئا ... الحديث)(٧٢) وقال تعالى : ﴿لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾(٧٣) .

فالعهد أولًا أخذه الله تعالى على رسله الكرام بأن يكونوا أمة لحبيبه ومصطفاه إن أدرك زمانه أحدهم ، وأخذت الرسل صلوات الله وسلامه عليهم العهد لله على أممهم ، وقام العلماء الربانيون ورثة الأنبياء بأخذ العهد لله تعالى بالنيابة عن رسول الله ﷺ على أهل عصرهم فى كل زمان بأن يبينوا لهم ما أوجبه الله تعالى عليهم وما رغبهم فيه وما كان عليه رسول الله ﷺ وأئمة الهدى ، ثم يأخذون عليهم العهد أن يأتمروا بما أمرهم الله ورسوله وينتهوا عما نهى الله ورسوله عنه ، قال الله تعالى : ﴿إن الله اشترى من المؤمنين

---

(٦٨) سورة المؤمنون آية ٨ .

(٦٩) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٧٠) سورة الإسراء آية ٣٤ .

(٧١) سورة الفتح آية ١٠ .

(٧٢) رواه البخارى .

(٧٣) سورة الفتح آية ١٨ .

أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾[٧٤] . وكما أن الله أخذ عليهم العهد أن يقوموا بالعمل بوصاياه سبحانه ، فقد ضمن لهم فضلًا منه وكرمًا أن يدخلهم الجنة ويبشرهم بأن يفى لهم بعهده سبحانه ، قال تعالى : ﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾[٧٥] .

وفى تلك الآية الشريفة سر غامض تلوح أنواره لمن انتُشِلَ من أوحال التوحيد إلى فضاء التنزيه والتفريد بعد التزكية والتجريد ، وأشرقت أنوار حضرة الرب العلى الكبير على حضرة العبد الذى واجه الرب جل جلاله فأشهده معانى ربوبيته فتحقق بالتمكين بالقيام بحقوق العبودية ، فكان الرب جل جلاله مع العبد والعبد المضطر مع الرب معية جعلت العبد متحدًا مع ربه جل جلاله فيما يريد بمحو مراد العبد فى مراد الرب وهَمُّ العبد فى استجلاب رضاء الرب جل جلاله ، وبذلك تقوى الرهبة والرغبة من عظمة العظيم وفى الفضل العظيم من الله تعالى . ويشتد الخوف من مقام الرب جل جلاله والطمع فى عفوه ومغفرته ، فتكون معانى الربوبية معالم بين عينى العبد فلا يرى شيئًا إلا ويرى أنوار الربوبية قبله وفيه وبعده ، وبذلك يكون ربانيًا يفقه عن الله ويتلقى بسره عن رسول الله ، ويكون له وجود عينى بالله تعالى ثابت بإثبات الله له ظاهر بإظهار الله له عامل فى محاب الله ومراضيه بتوفيق الله وهدايته ، فيكون له من الله الفضل العظيم وعليه الواجب المقدس الذى هو حكمة إيجاده له سبحانه وتعالى وسر إمداده منه سبحانه وتعالى ، ولذلك فإنه سبحانه بعد أن قال : ﴿ وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم ﴾ قال : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ ، لأن هذا الخطاب المقدس ربما أشهد السالك فى مقام فرقه بعد الجمع مشهدًا يجعل رغبته ورجاءه وطمعه وأنسه وشهوده سوابغ النعماء وجميل الآلاء وتسخير كل شئ هو فى الملك والملكوت يقوى فيستر عنه مشاهد المنة وبوارق العظمة والعزة والكبرياء ، فربما يأنس بمشهد دون مشهد ، فأشار سبحانه بقوله : ﴿ وإياى فارهبون ﴾ إلا أن مقام العبودة أرقى من مقامات العبادة والعبودية . وإنما الأحوال نتائج الشهود ، والشهود نتائج المقامات .. فمن غلب عليه مقامه قهر حاله ، ومقام الرهبة أعلى المقامات لأنه من علم آيات عظيم كبير متعال علىّ قادر منان . وكم من سالك وقف عند مشاهد الرغبة والرجاء والطمع ولم يتجاوزها إلى مقامات التمكين وحق اليقين ، فتاه شاطحًا ، فيتداركه الرب جل جلاله بنعمة منه والله أرحم بالسالكين من أنفسهم بأنفسهم ورسوله ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم . ولتلك الآية الشريفة من غوامض الأسرار مما تكاشف به النفوس الطاهرة قبس من مشكاة الأنوار تواجه به السرائر من أنوار الكوكب الدرى ، وذلك فضل الله يؤتيه من

---

(٧٤) سورة التوبة آية ١١١ .

(٧٥) سورة البقرة آية ٤٠ .

يشاء والله ذو الفضل العظيم .

كيفية أخذ العهد :

لما كان العلماء الربانيون ورثة الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وكان لابد من تجديد عرى الإيمان لأن الإيمان يخلق كما يخلق الثوب وتخفى معالمه ولكن الله سبحانه وتعالى يجدده على ألسنة العارفين به ، ولما كان المرشد خليفة رسول الله ﷺ فى بيان شعب الإيمان وتفصيل ما أجمل من السنن وتوضيح ما أبهم منها وبيان سبل الله وكان عليه بعد أن يعلم تلاميذه ما يجب عليهم أن يعاهدهم بالنيابة عن رسول الله ﷺ ويواثقهم له صلوات الله وسلامه عليه مبينًا لهم أن يده التى يضعها على أيديهم هى يد رسول الله ﷺ حتى يكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ .. فاصطلح أهل الطريق رضى الله عنهم أن يبتدئوا مع المريد بتعليم العلم الواجب على المريد فى الوقت من علوم المعرفة والأخلاق والعبادات والمعاملات وآداب رسول الله ﷺ ، ثم يواثقونه بعد ذلك على أن يعمل بما علم بقدر استطاعته ، وينتهى عما نهى عنه الله جملة واحدة إلا ما أكره عليه كما يبينونه له ، فيبايعونه البيعة الكاملة على أن لا يشرك بالله شيئًا وأن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم رمضان ويحج البيت إن استطاع إليه سبيلا ، وأن يجتنب الكبائر والفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن يجاهد نفسه وهواه فى ذات الله ، ويبينون له أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ... الآية ، هذا سر العهد عندهم .

ولا ينبغى أن يعاهد المريد إلا عارفًا ربانيًا يصح أن يكون صورة كاملة لرسول الله ﷺ بحسب زمانه لا بحسب المعانى المحمدية الكاملة (٧٦) .

وكانت البيعة أيام الإمام رضوان الله عليه تجرى فى خلوة لا يكون فيها غريب مستندًا فى ذلك إلى ما رُوىَ عن شداد بن أوْس وعبادة بن الصامت رضى الله عنهما وهما عند رسول الله ﷺ حين أمر بغلق الباب وقال : (ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله ، فرفعوا أيديهم ، ثم وضع رسول الله يده وقال : الحمد لله ، اللهم إنك بعثتنى بهذه الكلمة وأمرتنى بها ووعدتنى عليها الجنة إنك لا تخلف الميعاد ، ثم قال : أبشروا فإن الله قد غفر لكم)(٧٧) . وعن عبد الرحمن بن عوْف بن مالك الأذمعى رضى الله عنه قال : كنا عند رسول الله تسعة أو ثمانية فقال ألا تبايعون رسول الله – وكنا حديثى عهد ببيعته – فقلنا قد بايعناك يا رسول الله ، فبسطنا أيدينا وقلنا نبايعك يا رسول الله ، قال : (أن تعبدوا الله

---

(٧٦) مجلة المدينة المنورة : السنه ١٠ العدد ١٠ (٢٤ شعبان ١٣٥٦ هـ الموافق ٢٩ أكتوبر ١٩٣٧ م) .

(٧٧) الإمام أحمد فى مسنده والطبرانى .

ولا تشركوا به شيئًا وتقيموا الصلوات الخمس وتطيعوا الله ورسوله ولا تسألوا الناس إلحافا)[٧٨] .

١١ – الأخذ عليهم بكثرة الإشارات فى كلامهم :

مأخذ ذلك كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ :

١ – أما كتاب الله تعالى : فما ورد من الآيات المتشابهات كأوائل السور التى هى كلمات مركبة من حروف (حمعسق) (كهيعص) وغيرها . وفى كل كلمة من تلك الكلمات الكريمة علوم يشير إليها كل حرف من حروف الآية الكريمة يسجد العقل على أعتاب فنائها .

٢ – أما مأخذه من السنة : فما رُوىَ أن رسول الله ﷺ قال يومًا لأبى بكر : أتدرى يوم يوم ؟ فقال أبو بكر : نعم يا رسول الله ، لقد سألتنى عن يوم المقادير . وقال له يوما : يا أبا بكر أتدرى ما أريد ؟ فقال أبو بكر : نعم يا رسول الله هو ذاك ذاك[٧٩] .

ولذلك حكمتان : لفظية ومعنوية :

١ – أما الحكمة اللفظية : فلأن الألفاظ وضعت على محسوسات أو معقولات ، وسر الربوبية غيب عن الأرواح فضلًا عن العقول والحس ، ولم توضع ألفاظ تدل عليه ، فضاقت الألفاظ عنه ، ولابد من ضبط تلك العلوم الإلهية لأهلها ، فاصطلح كل واجد على إشارات خاصة يكشف غامضها لتلاميذه المخلصين .

٢ – أما الحكمة المعنوية : فلأن الحكمة العلية المشيرة إلى سر الربوبية أعز من أن تكون شريعة لكل وارد ، وإنما يتلقاها الفرد عن الفرد ، فإذا كتب أهل المقامات العلية والمواجيد الصادقة عن عين اليقين لنظرائهم وخواص تلاميذهم حجبوا الحكمة بالرموز كما تحجب النفائس المدفونة فى الأرض بالرموز فلا يعلم محلها إلا من فك رمزها .

وإفشاء سر الربوبية كفر ، جاء فى الأثر : (إن الله يكره أن تبينوا كل البيان) . ومن قرأ كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام لكميل عندما وصف الرجال وذكر قلتهم واشتاق إليهم يعلم أن أهل هذه الأسرار قليلون ، وأن من بلغ مقامات المشاهدة لمعانى الربوبية وبينها كل البيان يخشى عليه من غيرة الله على سره فإن الله غيور . وللقوم

---

(٧٨) رواه مسلم .

(٧٩) رواه الترمذى .

في إخفاء أسرارهم بالرمز رحمة بمن لم يفقه أسرارهم ، فإن سر الحكمة عليّ عن مَدرك العقل لأنه من عالم الأمر لا من عالم الخلق ، وليس للعقل وإن كمل أن يدرك نفسه التى هي بين جنبيه ، فكيف يكون له الإشراف على عوالم الملكوت الأعلى وحظائر القدس الأعلى.؟ فلو بينوا تلك الأسرار بالعبارة الجلية وأنكرها أهل العقول ، يكونون أنكروا على الحق .

التصوف عند الإمام أبى العزائم فى ميزان البحوث العلمية (٨٠) :

وفى رسالة للماجستير اهتمت بدراسة دور الإمام فى التصوف الإسلامى ، قال الباحث فى ختام رسالته :

يمكننا القول في ضوء ما سبق : إن الإمام أبا العزائم حاول إعادة الدور الذى قام به بعض أسلافه من أئمة الصوفية فى المجال الاجتماعى بالإضافة إلى المجال الدينى الذى يتمثل فى الدعوة إلى الله تعالى . وهو بذلك يخرج عن الإطار الذى ألفه الناس عن كثير من شيوخ الطرق الصوفية ، فقد عُرف عن شيوخ الطرق الصوفية فى القرون الأخيرة عزلتهم عن المجتمع وقضاياه ، والنظر إلى التصوف على أنه خرقة بالية يتدثر بها الشيخ أو المريد ليُعرَفَ عنه الزهد والورع ، أو الإقامة الدائمة فى المساجد أو الخروج إلى الصحراء دون الاهتمام بطلب الرزق أو المشاركة فى أحداث المجتمع .

نتائج البحث :

١ - تناول البحث موقف الإمام أبى العزائم من عصره ، وقد انتهى إلى وجود دور فعال مؤثر قام به فى المجالين السياسى والاجتماعى .

٢ - كشف البحث عن وجود دور علمى ونظرى للإمام أبى العزائم تجاه التصوف والطرق الصوفية . ويكمن الدور النظرى فى رصده لأهم البدع والانحرافات التى أخذها أدعياء التصوف والطرق الصوفية ، ويتمثل الدور العلمى فى وضعه منهجًا علميًا تربويًا استطاع من خلاله تربية جيل من الأتباع والمريدين على الأصول الصحيحة للتصوف .

٣ - دل البحث على وجود تجربة صوفية صادقة لدى الإمام أبى العزائم بعيدة كل البعد عن المغالاة فى القول والعمل ، وتأخذ بما يرشد إليه الشرع الشريف .

٤ - توصل البحث إلى تمتع الإمام أبى العزائم بثقافة دينية وعلمية واسعة كانت من وراء

(٨٠) كتاب (بحوث وسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم) .

نجاح دعوته إلى الله تعالى وتكوين أتباع ومريدين كانوا بعد ذلك الأسس والقواعد التى قامت عليها طريقته الصوفية الجديدة .

توصيات البحث :

وفى ضوء ما توصل إليه البحث من نتائج دلت على قيمة الدور الذى قام به الإمام أبو العزائم فى التصوف ، فإنه يجدر ذكر بعض التوصيات التى لاحظها البحث ويرى أنها جديرة بالذكر والإشادة ، ومنها :

١- يوصى البحث شيوخ الطرق الصوفية وأتباعهم الأخذ بآراء الإمام أبى العزائم النقدية . ليتسنى لهم تصحيح مسار التصوف المعاصر وتنقيته من البدع والانحرافات .

٢ - كما يوصى البحث بالأخذ بمنهج الإمام أبى العزائم فى الإصلاح عن طريق الاهتمام بشيوخ الطرق ، ومراعاة الشروط التى عليها لائحة الطرق الصوفية فى شيخ الطريقة العزمية ، حتى يمكن تربية الأتباع والمريدين على أيدى أمينة .

٣ - حث الإمام أبو العزائم أتباعه على طلب العلم وعدم اعتراضهم على علم من العلوم . وهذا ما يجب الأخذ به بين أبناء الطرق الصوفية اليوم لترتفع نسبة التعليم بين أبناء الطرق وشيوخها .

٤ - وجه الإمام أبو العزائم إخوانه إلى العمل بآداب الأُخُوَّة الإسلامية والحرص على نقاء القلوب وصفائها حتى يظل الحب والإخلاص فيما بينهم ، وهذا ما يفتقده كثير من أبناء الطرق الصوفية الآن ، ولذا يجب الأخذ بآداب الأخوة التى بينها الإمام أبو العزائم لإخوانه .

٥ - يوصى البحث المشيخة العامة للطرق الصوفية بمصر أن تنظر إلى المنهج الذى وضعه الإمام أبو العزائم لإصلاح أبناء الطرق الصوفية وشيوخها ، وأن تحاول تطبيقه وممارسته .

الإمام أبو العزائم وعلم الفقه

الفقه : فى اللغة هو الفهم والعلم ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ما نفقه كثيرًا مما تقول﴾[1]، وقوله : ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾[2]، وقوله : ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[3]، وقوله : ﴿لا يكادون يفقهون حديثا﴾[4]. وتطلق عند الفقهاء على ما يتناول الأحكام الدينية جميعها ، ويستوى فى ذلك أحكام العقائد والتوحيد والصفات ، والأحكام العملية أو أحكام الفروع .

وقد ندب الله إلى تعلمه ونشره بين الناس وذلك بقوله : ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون﴾[5]. فقد جعل الله عز وجل ولاية الإنذار والدعوة للفقهاء ، وهذه درجة الأنبياء تركوها ميراثًا للعلماء ، كما قال ﷺ : (العلماء ورثة الأنبياء)[6] ومشتملات الفقه الإسلامى تتناول حياة الفرد والجماعة والدولة ، دينية كانت أم دنيوية ، سواء أكانت من العقائد أم العبادات أم المعاملات أم الجنايات أم الأحوال الشخصية ، أو ما يتعلق بكل ذلك من القضاء والشهادة والمرافعات ، أم كانت متعلقة بالناحية الدستورية أو الاقتصادية أو الدولية ، وما يتعلق بذلك من حرب وسلم ومعاهدات .

وقد تناول الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم الفقه من جميع جوانبه وعرضه بأسلوب ميسر خال من التعقيد يسهل على السالك المبتدئ فهمه والعمل به ، لقناعته رضى الله عنه أن الفقه الإسلامى من العلوم التى يجب على المسلم تحصيلها لتستقيم أعماله مع الشريعة فجعل له كتابًا خاصًا سمّاه : «أصول الوصول لمعية الرسول ﷺ» وأفرد لعلم الفقه ثلاثة أبواب :

الباب الأول : عرّف فيه العقيدة ، وبيّن فقه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .. وفضائل النطق واليقين بها .

---

(١) سورة هود آية ٩١ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٩ .

(٣) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(٤) سورة النساء آية ٧٨ .

(٥) سورة التوبة آية ١٢٢ .

(٦) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والبيهقى والحافظ الدمياطى فى المتجر الرابح .

الباب الثاني : وتضمن فقه العبادات ، وهى النظم التى شرعها الله ليأخذ المسلم بها في نفسه فى علاقته بربه ، وسبيلها أداء الواجبات الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وقد جاءت فريضتا الصوم والحج فى كتاب مستقل لكل منهما فضلًا عن المختصر الفقهى لهما فى هذا الكتاب حيث جعل لفريضة الصيام كتابًا سمّاه « صيام أهل المدينة المنورة » وللحج كتابًا سمّاه « هداية السالك إلى علم المناسك فى الحج » .

والباب الثالث : فقد احتوى على فقه المعاملات ، وهى أحكام الدين الإسلامى فى المعاملات والأحوال الشخصية ، كى يعلم المسلم أحكام دينه ، فإنه إذا عرف أحكام دينه فى البيع والشراء والزواج والعقود والتأمينات وغيرها واستبانت له سماحة الإسلام – مع دقته فى التشريع وأحاطته بكل صغير وكبير مما يجرى فى المعاملات بين طوائف البشر ومما يتضاءل بإزائه تشريع المشرعين وتقنين المقننين من غربيين وشرقيين – دعته عظمته وحملته دقته وسماحته إلى الأخذ به والتعويل عليه .

أما ما يتعلق بالوضع الدستورى فى الفقه فقد وضع الإمام له بابًا فى كتابه « النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين» بيّن فيه علاقة الحاكم بالمحكوم ، وتكلم عن الشورى ، وتكلم عن الإمامة من الناحية الفقهية باعتبارها النظام السياسى فى الإسلام والتى يقوم على أساسها سائر التنظيمات الأخرى الاجتماعية والمالية والاقتصادية والعسكرية فبيّن رضى الله عنه وجوب تنصيب الإمام وصفته وطريقة اختياره والواجب عليه لكل فرد من أفراد المسلمين والواجب للإمام على كل فرد من أفراد المسلمين وعلى جماعتهم حتى يتضح للشباب المسلم – سواء من كان فى حقل الدعوة منهم ، أو فى التنظيمات السرية التى أشاعت الرعب فى البلاد أو فى جماعات قتل المسلمين – أنه وقع ضحية فكر الخوارج وفقههم المتطرف الذى يحمل بذوره لشبابنا دعاة لهم قوة تعبير وحرارة تأثير .

وبالنسبة لما يتعلق بالعلاقات الدولية فى الفقه الإسلامى فقد بينها الإمام فى كتاب « الجهاد » وكتاب « وسائل نيل المجد الإسلامى » وذلك فى السلم والحرب ، ونظام الأسرى والمعاهدات .

أما ما يتعلق بأحكام الجنايات ، كالسرقة والقذف وقطع الطريق والزنا والقتل العمد وشبه العمد والخطأ إلى غير ذلك ، وما يتعلق بأحكام العقوبات من حد وتعذير وديات وقصاص ، وما يتعلق بأحكام المرافعات ونظم الإجراءات القضائية ، ووضع قواعد الدعوى وجعل البينة على المدعى واليمين على من أنكر وما يشترط فى الشهود وسماعهم .. وما يتعلق بالوضع الاقتصادى والمالى فى الفقه الإسلامى ووضع قواعد العدالة الاجتماعية ،

والاحتكار والعقود التى تؤثر على الاقتصاديات ، ونظم الموارد المالية ، كأحكام الغنائم والزكاة والكنوز ، ونظام الخراج والعشر ونظام الفدية ، كل ذلك من الآثار التى مازالت مخطوطة أو قيد البحث عنها وتجميعها تمهيدًا لطبعها وإخراجها تباعًا بإذن الله تعالى .

نموذج لتبسيط الأمور الفقهية :

(١) « فرائض وسنن الصلاة » تناولها الإمام رضى الله عنه فى عبارة قصيرة وبيان محكم وجيز فقال : الأفعال كلها فرائض فى الصلاة إلا ثلاثة : رفع اليدين عند تكبيرة الإحرام والجلوس فى التشهد ولفتة السلام على الشمال . والأقوال كلها سنن إلا ثلاثة : تكبيرة الإحرام ، والفاتحة ، والسلام على اليمين .

(٢) الحضور بعرفة : تحت هذا العنوان يقول الإمام رضى الله عنه : قلت : الحضور بعرفة ، بدل : الوقوف بعرفة ، لأن المراد وجود الحاج فوق عرفة سواء أكان جالسًا أو مضطجعًا أو راكبًا أو مارًا ما دام أمكنة الوجود على عرفة جزءًا من النهار يوم عرفة وجزءًا من الليل ليلة الأضحى .. والذى يعنينا هنا أن الإمام رضى الله عنه رأى أن كلمة « الوقوف » تعنى حالة واحدة من الحالات عند الإنسان ووصف واحد من حركاته أما كلمة « الحضور » فهى أوسع فى المعنى وتشمل جميع أحوال الإنسان من وقوف وجلوس واضطجاع وغيره . فآثر استخدام اللفظ المطلق على اللفظ المقيد وهذه رحابة فى الفهم ورجاحة فى الفقه لا يصل إليها إلا من نور الله قلبه وزكى نفسه وألهمه الرشد والصواب .

والإمام أبو العزائم بعد تناوله للفقه الإسلامي من جميع أصوله وفروعه بين أن الفقه نوعان ، فقال رضى الله عنه[٧]:

١ - فقه اللسان : إنما يفقه اللسان من الأذن - أى عن طريق السماع بالتعليم فى دور العمل ومجالس الفقه - ولا يلزم من فقه اللسان فقه القلب فكم من فقيه اللسان جهول القلب أو كفوره وإنما كان ذلك لأن الجوارح خلقها الله وأودع فى كل عضو منها ما يقوم بما أعده له .. أهـ.

٢ - فقه القلب : إن أوعية الحق وخزن الفقه هى القلوب ، وتتلقى القلوب من علّام الغيوب ، وذلك لأن النفس الملكية شهدت الجمال ، وفقهت خطاب الجميل ، فإذا تعلقت بالجسم لم تغب عن مشهد التجلى الأول ، وحقائقه مشهودة لها مصورة فى ذاتها ، فإذا سمع الإنسان المتعلقة به النفس الملكية تعلقًا فعليًا حكمة من متكلم -

(٧) كتاب « معارج المقربين » للإمام أبى العزائم ص ٩٠ ، ٩١ .

ولو كان غير حكيم - أصغت إليه ، فطابقت الحكمة حقيقة ما فى ذات النفس فحنّ الإنسان إلى تلك الحقيقة وانفعلت قوى نفسه ، وتأثرت أعضاؤه واشتاق إلى الحق ، وخشع قلبه وامتلأ خشية ورهبة من ذات الله تعالى ورغبة فى مرضاته ، ولظهور أسرار الحق للنفس تتلقى الحكمة من الرب سبحانه مع أن المتكلم بها إنسان .

هذا ومتى حصل تعلق النفس الملكية فعلًا بالإنسان ، قوى عامل العبرة واشتد باعث الفكرة ، وحصل شهود المعية وأشرقت أنوار الشهود ، وتبدل الوجود المقيد بالإيجاد والإمداد الربانى ، ثم تلألأت تلك الأنوار عن مجلى الذات ، فحجب الإيجاد والإمداد بالوجود المطلق ، وكان الإنسان مع الله والله معه ، وبهذا يكون القلب بيت قدسى ، والجسم هيكل الرب ، كنز رموز بغاشية المبانى ، انطوت فيه أسرار المعانى ، ويكون الإنسان العالم الحقيقى الذى انطوى فيه العالم الأكبر ، شهد فيه أكمل مشاهد المقربين ، ومعانى تنزلات الصفات ، وأسرار ظهور الأسماء ، رفعت مكانته عن المقامات ، وعزت مشاهده عن العقول الكاملة ، وهو الإنسان الكامل صورة الرحمن الكاملة ، وكعبة الأرواح العاشقة ، وترجمان حقائق الآيات ، ومبعث أنوار الإشارات ، محل نظر الله من عباده ، والمحبوب لذاته العلية فى دور التجليات المقيدة بالزمان والمكان ، شمس تشرق فى الملكوت الأعلى ، كإشراق شمس السماء فى علىّ الملك الأدنى ، بلغ به الرضا عن الله مبلغًا جعله آنسًا فى كل حال ، والتوكل على الله جعله مشغولًا بذات الله فى كل حال ، لا تشغله زهرة الفانية عن البهجة الباقية ، ولا البهجة الباقية عن الولى المتعال ، شهد الآخرة وهو فى الدنيا فلم تخطر الدنيا له على قلب ، ووقعت عين بصيرته على وجه ربه العلى فلم تر باصرته أنوار الجنان ، فهو مع الله فى الكون الأول ، وعند مليك مقتدر فى الكون الثانى ، والله عنده بالفناء عنهما ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

الفقه فى القلب نور من لدى الرب	وليس فى صحف تتلى لذى حجب
فاستفت قلبك يا ذا القلب عن حكم	فى الكون ظاهرة للعين فى القلب
قلب عن الحق يتلقى معارفه	هو الإمام إمام الدين والقرب
الكون نور لذى قلب يشاهده	وراح صفو لمطلوب وذى حب

وهكذا يبين الإمام رضى الله عنه أن الفقيه هو من فقه قلبه عن الله ، وانتفى الحجاب عن عين بصيرته ، وجمع بين فقه اللسان وفقه القلب فأبصر الحكمة فى كل شئ ، والكون نور يشهده وراح يرتشف منها المسائل والدلائل فيصل المنفصل ، ويقرب البعيد ،

ويكشف المحجوب ، ويتحدث من صفحات الغيب سر قوله تعالى : ﴿ ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾[8] هذا هو الفقيه الذى يقوم به الدين ويحفظ به من تحريف الغالين وتأويل المبطلين .

---

(٨) سورة البقرة آية ١٥١ .

الإمام أبو العزائم والسماع

السماع معراج الأنبياء والأولياء، كما جاء فى الأثر: (معراج الروح السماع ومعراج القلب الصلاة) فالجهر والسماع آلات محركات لما فى قلوب العشاق والعارفين لأنهما طعام المحبين ومقوى الطالبين، حتى قال ﷺ: (من لم يتحرك عند السماع فليس منى)[1] وإن منكر السماع لا يخلو من أحد أمور ثلاثة: إما جاهل بالسنن، أو مفتر على ما أباح الله تعالى من الأعمال بالأخبار، وإما جامد الطبع لا ذوق له، وقوله تعالى: ﴿يزيد فى الخلق ما يشاء﴾[2] المراد بالزيادة الصوت الحسن، وفى «عوارف المعارف للسهرودى» أن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت: (كانت عندى جارية تسمعنى فدخل رسول الله ﷺ وهى على حالتها، ثم دخل عمر رضى الله عنه، ففرت فضحك رسول الله ﷺ، قال عمر: ما يضحكك يا رسول الله؟ فحدثه حديث الجارية، فقال: لا أبرح حتى أسمع ما سمع رسول الله ﷺ، فأمرها فأسمعته).

السماع على ثلاثة أقسام: محرم، ومباح، ومندوب.

* فمن غلبت عليه شهواته وتكدرت بواطنه وفسدت مقاصده فلا يحرك السماع إلا ما هو الغالب عليه من الصفات المذمومة، فالسماع فى حقه حرام.
* ومن تحرك فى قلبه بالسماع محبة زوجته، أو تذكر به غائبًا أو ميتًا فيثير به حزنه فيستريح بما يسمعه فالسماع له مباح.
* ومن غلب عليه حب الله والشوق إليه، فلا يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة، وتضاعف الأشواق إلى الله، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية والكرامات السنية والمواهب الإلهية فالسماع له وفى حقه مندوب بل واجب، فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب فى صحائف الأبرار، وسماع الصوفية من هذا القبيل وهو ممدوح ومحمود عند العالم النحرير[3].

والسماع عند الإمام المجدد أبى العزائم من النوع الثالث؛ الناتج عن إمعان النظر فى الآيات وشهود تجليات جمال الحق فى الخلق عند سماع آيات الحق تتلى سر قوله تعالى:

---

(١) روى الحافظ أبو نعيم عن الإمام علىّ كرّم الله وجهه أنه وصف أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «كانوا إذا ذكروا الله تعالى مادوا - تمايلوا - كما تميد الأشجار فى اليوم الشديد الريح».

(٢) سورة فاطر آية ١.

(٣) (حجة الذاكرين ورد المنكرين) تأليف الشيخ عبد القادر الإربلى، ص ١٦، ١٧.

﴿ فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾[٤] وقوله تعالى : ﴿ إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾[٥] وقوله سبحانه : ﴿ ورتّل القرآن ترتيلا ﴾[٦].

روى البخارى وأبو داود والترمذى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها : (كان النبى ﷺ يضع لحسان منبرًا فى المسجد يقوم عليه قائمًا يفاخر عن رسول الله أو ينافح - أى يرد عنه هجاء الكفار بالشعر ويباهيهم به - ويقول رسول الله ﷺ : إن الله يؤيد حسانًا بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله) ﷺ .

وعندما تحدث الإمام رضى الله عنه **عن السماع قال**[٧]:

« إن السماع من أكمل أنواع تزكية النفوس خصوصًا مواجيد أهل الصدق ممن وقع بهم العلم على عين اليقين وهجمت عليهم صولة الحق فأفنتهم عنهم فيترنمون بألحان شجية ، وتلك المواجيد خصوصًا لأهل النفوس الطاهرة الطيبة نوع من أنواع الرياضة والتزكية ، فإذا صغت الآذان إلى تلك المعانى القدسية بالألحان الشجية زكت النفس وأقبلت وأحبت من تتغنى به عن وجد وحال ، قال الله تعالى : ﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرًا لهم وأقوم ﴾[٨]، وقال تعالى : ﴿ واتقوا الله واسمعوا ﴾[٩]، وقال جل جلاله : ﴿ واسمعوا وأطيعوا ﴾[١٠]، وقال تعالى : ﴿ فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب ﴾[١١] وقال تعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا ﴾[١٢]، وقال عز وجل : ﴿ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾[١٣]، وفى الأثر : (الصوت الحسن نفس من نفس الرحمن) .

(٤) سورة الزمر آية ١٧ ، ١٨ .

(٥) سورة ق آية ٣٧ .

(٦) سورة المزمل آية ٤ .

(٧) كتاب « من علوم المضنون » للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم تحت الطبع .

(٨) سورة النساء آية ٤٦ .

(٩) سورة المائدة آية ١٠٨ .

(١٠) سورة التغابن آية ١٦ .

(١١) سورة الزمر آية ١٧ ، ١٨ .

(١٢) سورة الأعراف آية ٢٠٤ .

(١٣) سورة المائدة ٨٣ .

معلوم أن الأسرار الإلهية المتعلقة بكمالات الأسماء والصفات لا طريق لها إلا السماع ، قال الله تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[١٤]، فجعل الله تعالى الأبصار للإنسان ليشهد الكائنات وبها تظهر الآيات للأفئدة ، وخلق الله له السمع ليصغى إلى كلام الله تعالى وبيان رسله عليهم الصلاة والسلام فيوصل تلك الأنوار إلى الأفئدة فتفقه أسرار الله وتنعقد على الحق .

وقبل أن أتكلم على السماع عند القوم أبين الخلاف فيه ، وقد وضحت جملًا منه فى كتاب « معارج المقربين » ولما كانت النفوس قبل تزكيتها وتطهيرها من لقسها ينبغى أن يكون لسماعها رنين سياط الإنذار والتخويف حتى تطهر من طمع فى الدنيا وغرور بها ، ثم يترقى السماع إلى سماع البشائر بالملاذ الباقية والنعيم الأبدى حتى تزكو من الإخلاد إلى الأرض ، ثم يكون السماع بنغمات الرغبة والرهبة ليصفو جوهر النفس صفاء يجعله مستعدًا لتلقى العلوم النافعة ، ثم يكون السماع بسماع الحكمة الغالية لاستجلاء تلك الحقائق فى جوهر النفس فتنجذب بالكلية إلى عالمها الأعلى وتفارق مفارقها وترى الدنيا كما وصفها الله تعالى بقوله سبحانه : ﴿وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور﴾[١٥] والمتاع هو سقط البيت الذى لا ينتفع به ، وكفاها تعاسة أن الله سماها دنيا لأنها مأخوذة من الدون ، فإذا صفا جوهر العقل وقبل العلوم النافعة بطريق السماع واتصل بعالمه الأعلى بحسب الحقائق العلمية التى نقشت عليه ، انفتق رتق القلب فصغت أذن القلب إلى نغمات الكائنات وفقهت تسبيح كل شئ كما قال تعالى : ﴿وإن من شئ إلا يسبح بحمده﴾[١٦] وللكائنات نغمات تبتهج بها الأرواح متى صغى إليها القلب اطمأن بمقلبه سبحانه ، ومتى اتصلت النفس بعالمها الأعلى التى هى منه سكنت إلى منفسها سبحانه ، وإذا اطمأن القلب بمقلبه وسكنت النفس لمنفسها كان السماع معراجًا للوصول وبراقًا للقبول يحصل به للنفس سياحتها الروحانية فى ملكوت الله الأعلى ، وقد شرحت لك السياحة الروحانية فى كتاب « الفرقة الناجية » . ومتى ساحت النفس فى ملكوت الله الأعلى تجافت عن دار الغرور واتصلت بالنور فحصل لها الحضور، كل ذلك بسر السماع .

وقد يخطىء بعض الناس فيذمون السماع .. نعم ، ولكن يلزم أن يكون ذمه من الجهة

---

(١٤) سورة النحل آية ٧٨ .

(١٥) سورة آل عمران آية ١٨٥ .

(١٦) سورة الإسراء آية ٤٤ .

التى يذم منها ، فإن أهل النفوس النجسة التى لم تتزك ولم تخرج من مقتضيات عناصرها إذا سمعوا الحكمة جذبتهم حظوظهم إلى ما لا يحمد ، فمنهم من يعينه السماع على عمل المحرم كالزنا وشرب الخمر والقتل وبذل الأموال فى غير الوجهة الشرعية وإثارة العواطف وفساد الأخلاق ، وهذا السماع محرم شرعًا ويجب أن يحجر عليه ، ومن السماع ما هو أشد حرمة من هذا ، وذلك أن يجلس أهل النفوس النجسة فى مجالس أهل السماع مع العلماء الربانيين فى خلوتهم أو تؤخذ إشارات الرجال وأسرارهم فتنتشر بين العامة ممن لم يحصلوا العلوم الشرعية اللازمة لهم من التوحيد والفقه وعلم الوعد والوعيد والإنذار والتبشير والإيمان بيوم الحساب ومعرفة الأسباب التى وضعها الله لعمار الكون وربط بعضه ببعض ، وقد جعلها دلائل وحدانيته ببراهين على حكمته وقدرته ، فإن أمثال هؤلاء إذا جلسوا فى تلك المجالس أو سمعوا هذه الحكمة أخرجتهم عن الاعتدال فضلوا وأضلوا .. نسأل الله السلامة .

إن مثل هذا السماع من أكبر الكبائر شرعًا ، لأن الشرع ينظر إلى نتائج الأعمال ، وهذا السماع ربما أنتج القول بالحلول ، أو أنتج ترك الأعمال الشرعية ، أو أنتج محو الأحكام وعدم الأسباب ، وربما عمت البلية فادعى تلك المعانى أهل الجهالة ممن لم يعرفوا أنفسهم ، فضلًا عن معرفة الله تعالى وأيامه وأحكامه ، وجعلوا تلك الأسرار العلية مصائد للدنيا بالدين ، قال ﷺ : (ملعون ملعون .. قالوا : من يا رسول الله ؟ قال ﷺ : من طلب الدنيا بعمل الآخرة)[١٧] وقال ﷺ : (تعس عبد الدرهم والدنيا تعس وانتكس .. وإذا شيك فلا انتقش)[١٨] وقال تعالى : ﴿ولا تشتروا بآياتى ثمنًا قليلًا وإياى فاتقون ﴾[١٩].

وإنى لا أعذر رجلًا نشر الحكمة بين العامة فأفسد عقولهم وأعذر العامة ، ولا ألوم من بخل بالحكمة غيرة عليها أن يتناولها غير أهلها ، وكيف توضع الجواهر تحت أقدام الخنازير ؟.

وعلى ذلك فالعاقل لابد وأن ينظر قبل الحكم إلى نتائج العمل ، فإذا أنتج خيرًا فخير ، وإن أنتج شرًا فهو محرم لأنه أنتج شرًا .

وكيف يحرم السماع ، وإنما تأسست الأديان على السماع ، وما من نبى بعثه الله

---

(١٧) الطبرانى فى الكبير بلفظ [من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس وجهه ، ومحق ذكره ، وأثبت اسمه فى أهل النار] .

(١٨) البخارى وابن ماجة .

(١٩) سورة البقرة آية ٤١ .

تعالى إلا وأنزل عليه ما يتلوه على قومه ، وما من عالم بين قومه إلا وقام يبين للناس ما نزل على رسله عليهم الصلاة والسلام » .

وكعادته رضى الله عنه **يجعل الحديث عن موضوع واحد فى أكثر من كتاب وحسب ما يقتضيه مقام المخاطب ، فتراه** رضى الله عنه **فى كتاب « معارج المقربين » يتحدث أيضًا عن السماع من ناحية الحكمة الإلهية وأنواعها وكيفية تلقيها والعمل بها فيقول :**

الحكمة الإلهية إما روحانية أوجسمانية :

فالحكمة الجسمانية نوعان : أحكام شرعية علمية عملية ، وأحكام صحية تتعلق بدوام صحة الجسم ، وحفظ الصحة عليه ، وهى الحكمة التى يجب التقليد فيها للأئمة الصادقين وللمجربين العالمين ، ويجب تلقيها علمًا وشهودها عملًا ، والسماع فيها واجب شرعًا ، لأن تعليمها فرض عين فى أحكام الشرع فى أصول الدين وفروعه التى لابد منها عند وجوبها على العامل ، والتوسع فى جميع الأصول والفروع فرض كفاية على الأمة .

والحكمة الروحانية نوعان : الأول : عقائد لابد منها للمسلم إجمالًا ، وأخلاق لابد منها لحسن المعاملة الضرورية ، الثانى : تفصيل العقيدة ، وعلم ما يمكن أن يتلقاه المؤمن الكامل الإيمان من أسرار الحكمة الإلهية من الكمالات الذاتية ، والجمالات والجلالات ، وسر تصريف القدرة وعجائب تجليها وكشف غوامض الحكمة وشهود معانيها ، وعلم النفس وأنواعها وأمراضها ودوائها وتصفيتها من الحظوظ والأهواء ، وعلم أسرار الكائنات ومراتبها ، وذوق أسرار التجلى والتنزيه والتشبيه ، والتدلى والدنو والنزول والزهد، والتوكل والتفويض ، والرغبة والرهبة ، والخوف والخشية ، والطمع والرجاء ، والفناء والبقاء ، والجمع والفرق ، والعلم بالله والمعرفة ، والكشف والشهود ، وأسرار البرزخ والقيامة ، والمعية والعندية ، وما يلزم ذلك من أسرار الحكمة التى لا تتلقى بالعبارة ولا بالإشارة ، والتشبيه بالمعانى ، والتخلق بالأخلاق الإلهية .

كل ذلك من الحكمة الروحانية التى لا ينبغى التقليد فيها إلا بعد إشراق أنوارها على القلب المطمئن ، حتى تنبعث تلك الأنوار على جميع الأعضاء العاملة ، فيقوم كل عضو بكمال وظيفته ، ولديها يتلقى القلب عن الرب ، فينجذب إلى عوالم الروحانيين ويذوق من كل الموجودات ذوقًا روحانيًا بحسب مأخذ كل عضو .

[illegible] عانى الألوهية والكمالات الذاتية لا ظهور لها فى عالم الحس والخيال ، كانت الحكمة [illegible] السمع ، وكلما كانت إشارة صفّت الروح وتقوّت ، وكان

لها السلطان الأكبر على الإنسان فجذبته إليها ، وتطهر من كل مقتضيات رتبته ، وتسلى عن لوازم مكانته ، واشتاق إلى عوالم الملكوت ، حتى يتم الشبه ، ولديها يسكن إلى الله فيحركه الله ، وهو الساكن المحرك ، ويفنى فى الله فيبعثه الله ، وهو الميت الحى ، ويغيب عن نفسه بالله ، فيظهره الله مجملًا لخلقه ، ويعبد الله خالصًا ، فيسخر له الله جميع خلقه .

وفى هذا المقام يكون السماع فرض عين على هذا الواجد ، لأنه يسمع بسمع الروح ، ويفقه عن الله ، وذلك لأن الحكمة الإلهية لما كانت ألفاظًا مقربة للمعانى ، وكان مدلول الألفاظ محسوسًا أو متخيلًا ، ومعانى الربوبية فوق الحس والخيال ، كانت الألفاظ المسموعة للمتمكن دالة على حقائق المعانى المرادة للحكيم بسماعها مزيد من الله لمن زكت نفسه وتهذبت . ولذلك كان للوجود نغمات وللأوتار نغمات دالة على أسرار الحكمة ، تسكر بها الأرواح ، ألم تر قوله تعالى : ﴿وإن من شىء إلا يسبح بحمده﴾[٢٠]. إن كل شئ دال على معانى الظاهر ، مسبحًا جنابه العلى عن الإدراك بالتحديد .

وكثيرًا ما يتغنى الإمام أبو العزائم بمواجيده النظمية فتراه يجمع فيها بين مراتب السماع ودرجاته وأطواره المختلفة ومناسباته المتعددة التى لا يخلو منها زمان أو مكان ، ولا يفرغ منها حال السالكين طريق رب العالمين فتراه يذكر السماع الأول فى يوم ﴿ألست بربكم﴾[٢١] ويذكّر به دائمًا فيقول :

اهل المحبة من (الست) سكارى ... لما لهم قد اشهدَ الأنوارا
شهدوا جمال حبيبهم سمعوا الندا ... لبُّوا له متبتلين مرارا
انا من (الست) مهيم بجماله ... انتم معى إذ اظهر الأنوارا

ويقول أيضًا :

يا قلوبًا بالحب لاح ضياها ... فحباها المولى له واصطفاها
انسها ذكره ورؤيا المعانى ... فتجلى لها بها ودعاها
انبئينا بمبدا الحال حتى ... تتجلى شمس الهدى فنراها
ذاك سر قد كان قبل (الست) ... قد راينا جمالها وحلاها

---

(٢٠) سورة الإسراء آية ٤٤ .

(٢١) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

خصصتنا يد العناية قدما | لنرى وجهها بأفق علاها
اسمعتنا خطابها فاجبنا | بهيام ولوعة لدعاها
جملتنا بها فملنا إليها | بهيام لا نلتفت لسواها

وتراه رضى الله عنه حينًا آخر يتحدث عن الذكر وما فيه من شهود جمالات المذكور سبحانه ، وأول الذكر أن تعلم أنك تخاطبه ويقينك سماعه لك ، ثم تترقى حتى تذكره ذكرًا كثيرًا يذكرك به سر قوله تعالى : ﴿فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون﴾[٢٢] فتسمع لذيذ خطابه وجميل كلامه .. يقول رضى الله عنه :

ما لنا حال ذكرنا فى هيام | وانجذاب ولوعة وغرام
ذا لأنا إذا ذكرنا حضرنا | وشربنا فى القدس ما فى المدام
يتجلى المحبوب علنا فنرأى | وجهه ظاهرًا بغير لثام
ما ذكرنا إلا حضرنا وطبنا | وسمعنا منه جميل الكلام
ذاك ذكر لكنه خمر قدس | قد أديرت برافة وسلام
ما ذكرنا إلا سكرنا بخمر | من يد المصطفى سراج الظلام
يا عزولى لو ذقت من راح قدس | حال ذكرى لا تسمعن لملام
ذاك ذكر به القلوب اطمانت | وترقت إلى علىّ المقام

ثم يتساءل رضى الله عنه بأسلوب رقيق عذب فيقول :

وكيف وأهل العشق إن ذكروا | لهم حبيبهمو حنوا إليه وتاهوا
يحن فؤادى إن ذكرتم حبيبه | لأن سماع الذكر عين مناه
ايسمع قلبى اسم الحبيب مكررًا | ولا يشهدن اسراره وحلاه ؟

هكذا تراه رضى الله عنه يتغنى ولكن عن وجد ، ويتحدث ولكن عن شهود ، يجذب قلوب السامعين ، ويأخذ بأيدى الحيارى ويسلك بهم على طريق الهداية ، فتجده رضى الله عنه يحدد معنى كلمة الأغانى وتأثيرها ومتى يسمعها المريد ، فهو رضى الله عنه يحذر المريد فى بدايته من سماع أغانٍ تجلى الله بها على قلوب أهل الحق رحمة بهم ومحافظة على حالهم وصحتهم الروحانية فيقول :

---

(٢٢) سورة البقرة آية ١٥٢ .

ان الأغاني راح للمريدينا بها الوصولُ إلى أعلى وعالينا
تهز قلب مراد والهٍ فيرى نورًا فيحجب عنه الحور والعينا
يفنى به عنه حال الاتحاد به يغشاه نور فيخفى عنه تكوينا
تغشى المعانى سدرته فتنظره فردًا تجمل تحقيقًا وتمكينا
تلك الأغانى ارتلها لخلوتها لمن صفا بالصفا حبًا وتكوينا
لا يسمعنها مريد فى بدايته وهى الطهور وكان السر مكنونا
دارت بحانات تنزيهٍ وقد سبقت له به صار بعد الرشف مجنونا
تخفيه عنه وعن دنيا وآخرة فر المرادُ إلى مولاهُ مامونا
سر إذا لاح اخفى الآى اجمعها لا تظهرنه وافق السر مضنونا
اهل الصفا عن عيون الخلق قد ستروا اخفوا مشاهدهم رهبًا وتحنينا
لا يُسمعون سوى الأفراد نغمتهم ما زال سرى فى الآيات مكنونا
كيف الإباحة بالأسرار فى ملإ وهى الحقيقة تصريحًا وتيقينا
روحى قبيل بيانى قد اجود بها سمحًا بها وارى الأغيار تكوينا
اخشى على الدر ان يلقى بمزبلة فيزدرى.. واخون الحق والدينا
لى جلوة تخفى عن عالين ، ظاهرها نور تنزل ، فافهم دمت مامونا
كيف البطون؟ وهل ابدى مشاهدتى إلا لفرد تجرد؟ لا دنيا ولا دينا[٢٣]
قد فر لله فى سر وفى علن والوجه مقصده .. والله يهدينا

وعندما كانت ترى عين حسه آثار قدرة الله ، ويصغى سمع قلبه تسبيح الآيات فى الآثار سر قوله تعالى : ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾[٢٤] يقول :

نغمات تسبيح الكيان مدامى يصغى لها قلبى يزيد هيامى
يا أيها الآثار انت ستائر للآى اى دلائل الإعظام
قلبى إلى التسبيح يصغى واجدًا وجد المؤله من فصيح كلام

---

(٢٣) لا دنيا ولا دينا : أى فارغ القلب من هم الدنيا والآخرة ، ويوم الآخرة يوم الدين لقوله تعالى : ﴿مالك يوم الدين﴾ .

(٢٤) سورة الإسراء آية ٤٤ .

يـا ايها الآثـار انـت مـظـاهـر   للروح لا للعـقـل والأوهـام

والسماع عند الإمام دائمًا ما يرتبط بالراح والشراب وخمر الجلالة فيقول :

تغنوا معى بالحال إن دارت الراح   فكم عند شراب الراح تصعق اراوح
فداوودُ بالمزمار غنى فاوّبت   بالحانه الأشباح والأرواح
وها انا مخمور براح مقدس   لم تدره الأرواح والأقداح
تناولته من قبل مجلى حقيقتى   وناوله الوهاب والفتاح

ويقول عندما استمع مرة إلى نغمة الأوتار :

نغمة الأوتار والراح المدار   كشفا لى الستار عن غيب مصون
نغمة الألحان تنبى بالجمال الصرف قلبى   طاب لى فيه الجنون
صبوتى بعد المشيب فاشهد الحسن المهيب   اظهرت نور الحبيب لاح جهرًا للعيون

وعندما استمع إلى أوتار البيانو لأول مرة ، أنشد بعد السماع فقال :

اضربى نغمات اوتار القلوب   فالبيانو قد الاح لنا الغيوب
نغمة تشجى تذكرت الهوى   فترى سر الحقائق والغيوب
اسمعينى نفخة القدس التى   شاهدت فى البدء انوار الحبيب

وإذا سمع قيثارة ذكرته بحبيبه فقال :

نغمة الأوتار قد ازكت هيامى   وسقامى لا اطيق جوى الغرام

ويقول مخاطبًا (كامل) ضارب العود :

اكامل إن العقل يدرك حكمة   فى نغمة الأوتار والمزمار
والروح تدرك حكمة روحية   مما توقعه من الأسرار
ايا ايها الأوتار جددت الهوى   بشجى الحان من السمار

وإذا سمع قمريًا[٢٥] يشدو على الأغصان أخذت به هذه النغمات فتذكر هيامه

---

(٢٥) القمرى : منسوب إلى طير « قُمْر » بوزن حُمْر جمع « أقمر » وهو الأبيض أو جمع « قُمرىّ » مثل رومىّ وروم - « مختار الصحاح » .

بحبيبه ﷺ وحنينه إلى ربه تعالى فقال :

لمن الحنين ايا اولى الأشواق؟ هذا حنين الروح للخلاق

ثم يقول محدثًا القمرى :

حنينك يا قمرى جدد لوعتى واشهد روحى حسن وجه الباقى

وسمع رضى الله عنه من يغنى فيقول : يا ليل يا عين ، فأنشد يخاطب رمزهما فى الإنسان وهما الجسم والروح ، والظاهر والباطن ، فقال :

اهل المحبة فى شوق الى العين والعين فى غيهب التنزيه واللون
واللون سر تجليها لطالبها يمحو سواها بلا كون ولا اين
والعين واحدة والليل اظهرها يا عين يا ليل هيا وفيا دينى
ما الليل إلا ستار يحجب المعنى والليل كفر ولكنه حجبة الزين
زين الجمال تجلى العين ظاهرة للعاشقين بلا ظل ولا شين
يا عين يا ليل قلبى واله ، روحى قد شاهدت فيك اسرارًا من الحسن
يا ليل يا عين ما لى قد ابوح بما لم يستطعه فتى من حيطة الكون؟

الإمـــام والقصـــة

يرى الكثير من الباحثين والنقاد أن الشرق العربى هو مهد القصة ، فمصر القديمة فى نظرهم تعد المنبع الأول للقصة ، فبينما كان هذا الفن الأدبى مهملاً فى المجتمعات الأوربية والأجنبية ، كانت الشعوب المصرية والسامية فى عهود ما قبل التاريخ تتميز بوفرة الإنتاج القصصى .

ومما يؤيد ذلك الرأى قصة " إيزيس وأزوريس " التى تجسد الصراع بين الخير والشر وهى من الأساطير الفرعونية القديمة التى تجاوزت الآفاق وعرفها العالم .

فكان لقدامى المصرين قصب السبق فى تجسيد تلك المعانى فى أعمالهم الأدبية . كذلك عرف البابليون والأشوريون القصة حيث نقل عنهم بعض الأساطير مثل " برج بابل " .

أما العرب قبل الإسلام فقد كان لهم فنونهم القصصية النابعة من بيئتهم ، والمصورة لحياتهم ومغامراتهم وبطولاتهم مثل " سيرة عنترة "، التى تعد من أهم السير العربية وأشهرها .

القصة فى العصر الإسلامى :

ثم جاء الإسلام بالقرآن الكريم ، الذى قص علينا أحسن القصص . والحقيقة أنه قصص رائع ، أتقنت أحداثه وحبكته . ويشير المولى سبحانه وتعالى إلى ذلك فى سورة يوسف بقوله تعالى : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ [1] .

ولقد ذكر القرآن الكريم العديد من القصص مثل : قصة سيدنا يوسف، وأهل الكهف ، وسيدنا سليمان ، وسيدنا موسى ، وملكة سبأ ، وغيرها من القصص . ويرى الباحثون المتخصصون أن القرآن الكريم قد جمع المذاهب المختلفة فى الفن القصصى ، والتى يتشدق بها نقاد الغرب ، ويزعمون أنها تجارتهم التى صدروها إلى الأمم الأخرى ، وأخذها عنهم الأدباء فى العالم العربى .

فللقصص القرآنى قصب السبق فى تحديد معالم الكثير من المذاهب الأدبية .

---

(١) سورة يوسف آية ٣ .

ففى القصص القرآنى نلمس خصائص وسمات المدارس الكلاسيكية والرومانسية والواقعية والرمزية .

فالقصص القرآنى يتسم بفطامية الشخصيات ، فأبطاله من الأنبياء والرسل والملوك ، وهذه سمة المدرسة الكلاسيكية . والقصص القرآنى يتميز بتطور الشخصية ونموها ، وهذه خاصية من خصائص المدرسة الرومانسية . والقصص القرآنى يجمع بين أحداثه لونين من المستوى فى ، المعنى ، ونعنى بهما عالم الواقع الملموس ، ومستوى عالم ما وراء الواقع ، وازدواجية المعنى من سمات المدرسة الرمزية . والقصص القرآنى يهدف بالدرجة الأولى إلى الحياة الكريمة للشعوب ، وهذه خاصية من خصائص المدرسة الواقعية .

أما فى العصر الأموى فقد اشتهرت بعض القصص مثل روايات كتاب الأغانى للأصفهانى .. وكذلك تفجرت ينابيع أخرى فى العصر العباسى بعضها مترجم مثل " قصة كليلة ودمنة " التى ترجمها " ابن المقفع " عن اللغة البهلوية .

وفى ميدان التأليف ، كتب الجاحظ " البخلاء " بأسلوب يجمع بعض خصائص القصة ، ومن أهمها خاصية الحكاية .. وكذلك اشتهرت قصص " ألف ليلة وليلة "، التى تمثل سفراً عظيماً جمع العديد من فنون القصص .

فن القصة فى العصر الحديث :

قال بعض الباحثين : أن فن القصة فى العالم العربى فى العصر الحديث فن مستحدث ، نقلته إلينا الترجمة والاتصال بالآداب الغربية ، ويدللون على ذلك بأن معظم من كتبوا القصة العربية فى العصر الحديث كانوا متأثرين أو ناقلين مقتبسين للقصة الغربية . ورد عليهم باحثون آخرون ببيان أثر الأدب الغربى وخاصة أدب القصة على الآداب الغربية ، وعقد بعض الباحثين دراسة مقارنة لبعض الأعمال القصصية العربية وتأثيرها فى الآداب الأوربية مثل ألف ليلة وليلة والمقامات ، وقصة حى بنى يقظان وغيرها .

وتنقسم القصة إلى نوعين هما : القصة القصيرة والقصة الروائية .

١ - القصة القصيرة

قـرر بعـض الدارسـين علـى سـبيـل الجـزم أن القصـة القـصيرة بصـورتهـا الفنيـة فـى الأدب الـحـديـث ، قد أخـذت عن أدب الغـرب ، ولـم تـنحـدر

من التراث أو تتطور عن فن عربى مشابه . والذى دعاهم إلى ذلك الرأى هو أن كتاب القصة القصيرة فى عالمنا العربى كانوا من ذوى الثقافة الأدبية الأوربية وكان أوائلهم بصفة خاصة على صلة قوية بالأدب القصصي الفرنسى أمثال : " محمد تيمور - عيسى عبيد - شحاته عبيد - محمود تيمور ... إلخ " حيث استلهم هؤلاء أدب القصاص الفرنسيين أمثال : "موبا سان - بلزاك - زولا " وها هو محمود تيمور يعبر عن شغفه وفتنته بالقصاص الفرنسى " موبا سان " فيقول : " ما كدت أقرأ له حتى فتنت به ، ومازلت محتفظاً لموبا سان بالمكان الأول فى نفسي ، فهو عندى زعيم الأقصوصة الأكبر " ، حيث فتن به هو وشقيقه محمد تيمور اللذين اعتبرا أن مولد القصة القصيرة بصورتها الفنية كان على يديه حين أذاع قصته " فى القطار " سنة ١٩١٧ م .

وإن كان لنا رأى آخر سنبينه بعد قليل .

وذكر الباحثون أيضاً : أن هناك محاولات غير كاملة سبقت ذلك فى مجال القصة القصيرة على يد كل من " عبد الله النديم - خليل مطران - منصور فهمى - المويلحى - المنفلوطى .. إلخ " .

خصائص القصة القصيرة :

تتميز القصة القصيرة عن الرواية بأنها تنحصر فى موقف محدد ، أو تصور لحظة معينة ، ينفعل بها الكاتب ، ويعبر عنها فى حادث موحد . فالموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة ، بينما رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية . فحسب كاتب القصة القصيرة الناجحة أنه هو الذى يصور الفكرة الواحدة فى قصته ، لا مجموعة من الأفكار مهما يكن بينها من ارتباط كما هو الشأن فى القصة الطويلة ، فالقصة القصيرة تفضل أقل عدد ممكن من الشخصيات خلافاً للرواية حيث يكثر الأشخاص . ونستطيع أن نجمل خصائص القصة القصيرة فى كلمتين : الوحدة والتركيز ، فالوحدة : فى الحادث والغرض والموقف . والتركيز : يكون فى كل شيء ، وهو أهم مميز للقصة القصيرة .

الإمام المجدد أبو العزائم عميد الأدب الإسلامى :

لقد أثبتت الرسائل العلمية من " ماجستير - دكتوراة " التى أخذت فى أدب الإمام المجدد أبى العزائم رضى الله عنه ذلك ، وسوف تسهم الدراسات المتتالية فى أدبه فى تدعيم ذلك الرأى وتأكيده .

فالإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم له نظرياته الأدبية الجديدة ، وله إسهاماته الشاملة فى كل مجالات الأدب العربى الإسلامى ، والتى سبق بها جميع من عاصروه من الأدباء والمفكرين " من شعراء - قصاص - بلغاء - مسرحيين وغيرهم " .

وللإمام المجدد رضى الله عنه رأى خاص وجديد فى مفهوم الأدب والأديب يقول فيه : « لا أستطيع أن أقول أن ابنى أديب أو مؤدب لمجرد أنه حفظ المنظوم والمنثور والبلاغة من كلام الغرب ، فالقرآن الكريم قد تحدى بلاغتهم فشهدوا بأنه مغدق ، وأنه ليس بقول البشر . ولكن الأديب حقاً من تأدب بآداب القرآن وتخلق بأخلاقه ، واقتدى برسوله ، واهتدى بخلفائه ، وزكى نفسه ، وطهر قلبه ، وصدق رسول الله ﷺ حين قال : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)[٢] هذا هو الأدب وهذا هو الأديب بحق .

ولقد سرت هذه النظرية فى كل أدب الإمام المجدد أبى العزائم " نثراً ونظماً " وفى كافة الفنون الأدبية التى قدمها " من مسرح - قصة - مواجيد - شعر صوفى " . والإمام المجدد سبق غيره فى مجال المسرح والقصة والمواجيد النظمية..

ففى مجال المسرح .. أملى الإمام المجدد مسرحية محكمة الصلح الكبرى سنة ١٩١٩ م تلك المسرحية التى تناولتها رسالة دكتوارة قدمت لجامعة الأزهر بعنوان " النثر الصوفى عند كتاب مصر المحدثين من ١٩٠٠ - ١٩٤٠ " فذكرت أن هذه المسرحية أعظم ما كتب فى النثر الصوفى منذ كُتبت اللغة العربية إلى الآن .

والإمام المجدد أبو العزائم رائد القصة القصيرة فى عالمنا العربى الإسلامى بلا ريب وها هى مجموعة قصصه القصيرة تشهد بذلك .. فلقد سبق الإمام المجدد الآخرين من كتاب القصة القصيرة زمنياً حيث بدأ فى نشر هذه القصص بمجلة "السعادة الأبدية" التى كان يصدرها منذ عام " ١٩٠٠ إلى ١٩١٥ م " . ولو أن الباحثين والدارسين بذلو مزيداً من البحث والدراسة ، واطلعوا على قصص الإمام المجدد والتى نقدم نماذج منها بين دفتى هذا الكتاب لشهدوا بذلك . فهو رضى الله عنه قد سبق زمنياً كل من يسمى برواد أو كتاب القصة القصيرة الذين ذكرناهم آنفا .

ثم تميز الإمام المجدد أبو العزائم بشىء هام ، وهو عدم تأثره بالنهج الغربى فى القصة القصيرة ، كما تأثر غيره . لأنه المجدد .. والمجدد يؤثر ولا يتأثر .. يغير ولا يتغير فهو المنوط به أن يجدد للأمة أمر دينها كما جاء بنص الحديث الشريف ، وهو رضى الله عنه يؤكد

---

(٢) روى عن سيدنا على بن أبى طالب ، وجزم به ابن الأثير فى مقدمة النهاية ، وقال ابن حجر : إنه غريب ولكن معناه صحيح ، وذكره ابن السمعانى فى أدب الإملاء عن ابن مسعود ، والسيوطى فى الجامع الصغير .

ذلك المبدأ صراحة فى كتابه « النور المبين لعلوم اليقين ونيل السعادتين » ص ١٢٦ فيقول : (لقد رأيت أكثر أهل زمانى هذا قد تركوا آداب الدين وفضائله وراء ظهورهم ، وعلوم العلماء المدونة فى كتبهم هجروها ، والتفتوا إلى القشور التى وضعها الفرنج مما نسخوه أو مسخوه من كتب سلفنا الصالح ، ورأيت إعجاب أهل زمانى بآداب بنى الأصفر وشعرهم وعلومهم ، ولو أنهم اطلعوا على علوم آبائهم وآداب أسلافهم وحكمة أجدادهم ، والكنوز الخفية التى كنزها لنا إخواننا الذين سبقونا بالإيمان لميزوا بين الثرى والثريا ، وبين الحق والباطل .

فالإمام المجدد جامعة إسلامية شاملة وكاملة ووسطية وتجديدية وعالمية.. فدوره أن يستنبط من القرآن والسنة الدواء والعلاج المناسب لروح العصر .

ونقدم للقارىء المسلم ، بل نقدم للإنسان أينما كان ، مجموعة من القصص القصيرة التى تعالج الكثير من الأزمات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وغيرها بمنهج إسلامى راق ، وبفكر وذوق أدبى رائع ، جمع فيه كل المدارس الأدبية فى هذا المجال ، بل وسبق فيه .

وقد اتجه الإمام للأسلوب الرمزى للتعبير فى عرض هذه المشكلات والأزمات وحلولها من خلال هذه المجموعة من القصص القصيرة .. والإمام المجدد يعتبر هذه القصص دروس عامة لضرب الأمثلة للحقيقة ، تلك الأمثلة التى كانت تنفذ إلى سويداء القلوب ، ويحدب عليها الخيال فلا تغيب عن بال . مُثل كانت له رضى الله عنه فى قالب روائى لا تغيب عن الذهن ، ولا يعقبها النسيان ، ولا يتطرق إليها الوهن .

ونسوق مثالاً من هذه القصص القصيرة[٣]:

السياسى والحكيم والغشيم

السياسة : تدبير المنزل والمدن والمملكة ، مأخوذة من ساس يسوس سياسة ، أى أصلح إدارة المنزل أو المدينة أو المملكة ، لجلب المنافع ودفع المضرات ، مع رعاية الرحمة العامة بالمجتمع الإنسانى .

فإن خرجت السياسة عن أصلها ، كانت ظلما وجوراً وكيداً ، ومثال السياسة الحقة ما فعله الصديق يوسف عليه السلام مع إخوته ، من أخذ أخيه منهم لينالوا الخير العام فى المستقبل . وعمل تلك التدابير لنيل الخير مع الإخلاص سياسة ، وقد مدحه الله عليها

(٣) راجع كتاب « دروس فى قصص » للإمام أبى العزائم رضى الله عنه .

فقال : ﴿وفوق كل ذى علم عليم﴾[1] .

وأما ما يسميه الناس الآن سياسة فهو كسياسة القط مع الفأر، أعاذنا الله وإخواننا منها .

الحكمة : هى وضع الشيء فى محله، واستعمال كل شيء فيما وضع له، مع رعاية الشريعة المطهرة .

الغشم، التسليم من غير روية ولا نظر.

الغشيم، بين أبنائه وحفدته وأقاربه، فى مزارعه ومصانعه وأسواق تجارته، فى هناء وصفاء .

السياسى، نظر إلى نفسه وأبنائه وأقاربه نظرة إعجاب، فكره أن يعملوا عملًا نافعًا لغيرهم، وأحب أن يتسيطر بالقوة القاهرة على الغشيم ومن معه، وكان عند الغشيم رجل حكيم .

السياسى، جمع الجيش وهجم على الغشيم .

الحكيم، رأى الغشيم خرج من غير تدبير ليقابل السياسى فمنعه وقال: دعهم يدخلون البلاد واجمع قومك وأعد العدة حتى إذا فرحوا بالنصرة وملكوا بعض القرى أمكنك أن تحصن قومك وبلادك، وترسم طريقة حكيمة تستأصل بها هذا الجيش الظالم.

الغشيم، سلم له وأقامه إمامًا .

الحكيم، أمر بإخلاء القرى أمام العدو .

السياسى، تيقن النصرة وأمن جانب الغشيم .

الحكيم، أنزل قومه فى مكان محصن، ثم أمر بالسلاح فحمل وأقام أهل الرأى قوادًا، وأمرهم بالصبر حتى يصدر أمره، ورسم المناورة بروية، فأرسل قسمًا خلف جيش السياسى من طريق مجهول، وأبقى قسمًا داخل البلد، وجعل قسمًا جناحًا أيمن، وقسمًا جناحًا أيسر، ثم أرسل الطلائع وأمرهم بالهزيمة أمام الجيش.

السياسى، فرح جدًا وأمر الجيش بالتقدم من غير روية، معتقدًا أنه تمكن من عدوه، فأبعد فى داخل البلاد، معتقدًا تحصيل ضروريات الجيش من البلاد، فتفرّق جيشه من السرعة والبطء فرحًا بالغنائم .

الحكيم، انتهز تلك الفرصة، وأمر الجناحين والقسم الذى خلف العدو أن يلتقوا فى نقطة كذا .

---

(١) سورة يوسف آية ٧٦ .

السياسى، لم يشعر إلا وقد أحاطت به الجنود فلم يجد له نجاة إلا بالهزيمة أمامه، معتقدًا عدم القوة الاحتياطية، فهلك أكثر جيشه، ولما أن وصل إلى داخل البلاد، قابله الجيش الاحتياطى فأسر البقية، وبعد ذلك اصطلحوا على شروط مخصوصة.

الغشيم، علم أن هذا الفوز باتباع الحكيم، فأمر قومه أن يحافظوا على أوامر الحكيم ليدوم لهم الملك والمجد.

السياسى، رجع حزينا واعتقد أن الغشيم مادام مقتديًا بهذا الحكيم لا يمكن أن يتمكن منه، فجمع قومه وطلب أن يكيدوا معه للغشيم كيدًا يخرجونه عن اتباع الحكيم، ليتمكنوا منه، ويجعلوا الجميع عبيدًاله، فحضر معه إبليس فى صورة إنسان، وقال: الرأى عندى أن ترسلوا لهم ما يفسد عقولهم، ويضر صحتهم، ويضيع أموالهم، وبذلك يخالفون الحكيم فنملكهم. فسألوه: ماهى تلك الأشياء؟ وما الطريق فى انتشارها بينهم؟ فقال: أما مايزيل العقل فالخمر والحشيش والبنج.

وأما ما يفسد الصحة فالعاهرات خصوصا المريضات بالزهرى، وأما ما يضيع المال فانتشار الربا، ولهذه الأشياء رابع لابد منه، وهو التفرقة بينهم.

السياسى (سأله) من أنت ؟.

إبليس: أنا العدو اللدود للغشيم.

السياسى: لم عاديته ؟

إبليس: إنه أطاع عدوى الحكيم، فأمره بالمخالفة بعد أن كانوا جميعًا عبيدًا لى.

السياسى: كيف نتمكن من انتشار تلك المفاسد بينهم؟.

إبليس: ترسل أولًا تلك المفاسد إلى كبرائهم، فإذا تمكنوا من الكبراء قلدهم الأتباع، والأمير إذا فعل قبيحاً لا ينكر عليه، ولا يقدر أن يمنع من ارتكبه.

السياسى، أرسل تلك الأنواع المضرة فى طريق الخفاء، فأرسل نساء عاهرات بآلات الطرب ومعهن الخمر إلى الحكام، فانتشرت تلك المضار بسرعة حتى تناسى الناس وصايا الحكيم.

السياسى، أرسل رجالًا من أهل الخبث يحملون تلك الأشياء فى الأسواق لتباع علنًا، بعد أن يقدم كل واحد منهم هدية لحاكم المدينة التى يحل فيها، ويتردد عليه صباح مساء ليعلم أهل المدينة أنه محسوب الحاكم.

آثار الحكيم، كان فى المدينة تلاميذ للحكيم، فصاحوا صيحة النصيحة، فأصغى إليهم أهل التسليم وقالوا: هذا يخالف وصايا الحكيم فيجب مصادرته ورد الحاملين له.

وفود السياسى، الحاملون للشرور - أسرع كل واحد منهم إلى الحاكم فى مدينته، وقالوا له : كيف يصفو لك الملك وفى المدينة حزب يسعى فى سلب الملك ويعصب عليك قومك؟! فتدارك الأمر واقتلهم شر قتلة .

الغشيم، قبل منهم الكلام، وعظم عليه الأمر، فأرسل للحكام المشتركين معه فى حب تلك المضار، أن يسجنوا من تظاهر ضد الرؤساء، فقبضوا على تلاميذ الحكيم واعتقلوهم .

وفود السياسى، تمكنوا من القوم فأزالوا عقولهم، وأضروا أبدانهم، وأضاعوا أموالهم وعقاراتهم، حتى بلغ من جنونهم أنهم اعتقدوا أن السياسى ورجاله أرحم بهم من والديهم .

الغشيم وقومه، تفرقوا حتى صاروا يمدحون السياسى بما قام به لهم من المصالح والإصلاح، ويذم بعضهم بعضًا وهم فى هاوية الذل لا يشعرون بمكايد السياسة .

السياسى، لم يرض بإفساد العقول، ولا بضعف الأجسام، ولا بتحصيل الأموال، ولكنه سعى لمحو الدين والأخلاق، فجمع العقلاء لهذا الغرض، فجاء إبليس وجلس معه،فرجعوا إليه، فأمرهم بأن يبذلوا المال للغشماء الجهلاء من أعدائهم، ويخرجوهم من الدين، ويجعلوهم آلة فى ذم دينهم بين قومهم ومدح غيره، ويظهروا أن الذى يخرج من الدين ينال المال الكثير والجاه، ثم نشروا بين القوم زخارف الأباطيل، وأكاذيب الأضاليل، وأظهروا أنفسهم بأنهم رحماء بالحيوانات وبالمرضى، ليسلبوا عقول البسطاء بغرورهم، فتمكنوا من إضلال رجال من أهل دينهم، فادعوا أنهم من دين الأمة وأنهم ارتدوا عنه، ونشروا المفاسد والأكاذيب فلم يرق ذلك عند الأمة، ولكنهم لما أصابهم من ضرر المفاسد المنتشرة بينهم، لم يتمكنوا من دفع هذا الشر، لأن السياسى استولى على الأسلحة والأمتعة .

القوى القهار خالق السموات والأرض غضب على السياسى وقومه، لأنه لم يرضه أن يقهروا عباده، ويفسدوا بلاده، بل قاموا فكذبوه، وكذبوا رسوله ﷺ، فغار لدينه غيرة منتقم قهار، فأوقع نار الحرب الانتقامية بينهم، ونظر إلى عباده نظرة حنان، وأيقظ قلوبهم إلى وصايا الحكيم .

الغشيم، تذكر مجده وملكه، وبحث بروية كيف نال هذا الملك، وبأى شىء سلب منه ؟!. فتحقق أنه ماقهر السياسى قومه وتسلط عليه إلا بإهمال المحافظة على وصايا الحكيم، ومازال مجده وملكه وسلطانه إلا بترك وصايا الحكيم، فأطلق تلاميذ الحكيم من السجون، وجلس بين أيديهم ذليلا يبكى ويتوب إلى الله، وطلب منهم

أن يغيروا كل ما خالف وصايا الحكيم ، وأن يعيدوا الأمر إلى الماضى الذى وضعه الحكيم ، فعرضوا كل شيء فى المملكة على القرآن والسنة ، ومحوا أنواع الشرور كلها ، وقامت الأمة من نومة الغفلة ورقدة الجهالة .

السياسى ، جمع عقلاء جميع مملكته ليتدارك الأمر ، فجاء إبليس فقالوا: ماذا ترى؟ فقال: لا رأى لى ، أعداؤكم رجعوا إلى القوى القهار ، الحكم العدل ، الذى يهب الملك لمن يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، ولطم على وجهه ، ونتف لحيته ، وفر يدعو بالويل والثبور .

تلاميذ الحكيم انتشروا بين قومهم فقام فى كل بلد حكيم أو صورة للحكيم ، وكأن لسان حال الأمة ينادى:

إنا لنرخص يوم الروع انفسنا ... وإن نسام بها فى الأمن اغلينا
إن تبتدر غاية يوما لمكرمة ... تلق السوابق منا والمصلينا

وصار كل فرد منهم هو المعنى بقول الشاعر:

ويارب يوم ذوب الغش ناره ... فلم يبق إلا صارم أو ضارم
وقفت وما فى الموت شك لواقف ... كانك فى جفن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلمى هزيمة ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

وصار كل فرد منهم حكيمًا ؛ لأنه اتبع الحكيم الأكبر ﷺ ، فاستخلفهم اللّه فى الأرض ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، فساسوا العالم أجمع بالعدل والرحمة ، ومحا الله الظلم وأهله،والعاقبة للمتقين .

مواضع العبرة فى القصة :

يشخص الإمام رضى الله عنه أزمة الأمة الإسلامية تشخيصًا شاملًا دقيقًا وكاملًا ، فالسياسى رمز لأعداء الإسلام الصهاينة والصليبيين ، والحكيم رمز للعالم الربانى والعارف الروحانى والوارث المحمدى الذى يجدد للأمة أمر دينها ، والغشيم رمز لحكام السوء ، ويثبت الإمام أنه لا علاج لهذه الأمة إلا بالتلقى من الحكيم إن أرادت عودة مجدها ودوام عزها .

٢ - القصة الروائية

بمناسبة انتهاء الحرب العالمية الأولى التى قامت سنة ١٩١٤ م واستمرت مشتعلة ما يزيد على أربع سنوات بين إنجلترا وحلفائها فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية وإيطاليا وغيرها ، وبين ألمانيا والنمسا والمجر وبلغاريا وتركيا ، وانتهت بهزيمة ألمانيا وحلفائها ، واجتمعت الدول من جديد فى مؤتمر باريس سنة ١٩١٩م ، وانتهى المؤتمر بخمس معاهدات صلح فرضت على الدول الخمس المنهزمة ، وهى معاهدة فرساى مع ألمانيا فى ١٩١٩/٦/٢٨م ، ومعاهدة سان جرمان مع النمسا فى ١٩١٩/٩/١٠، ومعاهدة نويى مع بلغاريا فى ٢٨/٦/ ١٩١٩، ومعاهدة تريانون مع المجر فى ٦/٤/ ١٩٢٠، ومعاهدة سيفر مع تركيا فى أغسطس ١٩٢٠، وقد استبدلت هذه المعاهدة بمعاهدة لوزان فى ١٩٢٣/٧/٢٤.

وعقد العالم على مؤتمر الصلح هذا آمالًا كبارًا ، وخيل إليه أنه فاتحة عهد سلام ووئام دائم بين الشعوب ، ولكن الإمام أبا العزائم قال إن مؤتمر الصلح هذا ومعاهداته ، إنما أريد به تعديل خريطة أوربا والشرق العربى السياسية ، وذلك لأن روح التكالب على المصالح والمنافع وحب السيطرة والتوسع ، كان هو هدف هذه الدول ، وعليه فقد وزعت الممتلكات الألمانية على الدول الكبرى عن طريق نظام الانتداب ، الذى استحدثه مؤتمر الصلح ليطلى به الاستعمار بطلاء جديد ، يخفف من اصطدامه بالشعور الوطنى لشعوب هذه الممتلكات .

فالصلح لا يقوم إلا على دعائم من تخلى أطرافه عن الصفات المذمومة الشريرة ، وتحلى أطرافه بصفات محمودة خيّرة ، فياضة بمشاعر الصدق والإخلاص والمحبة .

ومن ثم أملى الإمام رضى الله عنه رواية « محكمة الصلح الكبرى » ليقول لهؤلاء المؤتمرين فى مؤتمر الصلح بباريس ، إن الدولة هى مجموعة من الأفراد يقيمون بصفة دائمة فى إقليم معين ، وتسيطر عليهم هيئة حاكمة ذات سيادة . فإذا كانت مجموعة الأفراد هذه تميل بفطرتها إلى الشر واتباع الهوى والشهوات والعدوان والكراهية ، والثورة والتمرد والرعونة والحمق والاندفاع ، وتسلطت هذه الآفات على الشخصية الإنسانية ، فقادتها إلى الانحراف ، واندفعت بها إلى طريق الغواية والضلال ، وبذلك تكون الدولة التى هى مجموعة من هؤلاء الأفراد ، دولة تخرق المواثيق والمعاهدات ، وتمزق النظم ، وتدمر القيم ، وتسحق الأنظمة التى تخالفها وتقضى على الدول الصغيرة .

وتبدأ رواية « محكمة الصلح الكبرى » بلقاء بين « الخيال » المتجرد من كثافة الظلال وهو مرآة المحسوسات ، وبين « الوهم » بلا محيطات وهو مرآة المعنويات ، وأخذ « الوهم » يبين « للخيال » عناءه مما شغله به الإنسان ، من هجر للشريعة وارتكاب ما يخالفها ، فإذا بالخيال يبادره نفس الشكوى ، ثم يتوجهان سويًا إلى « العقل » ويعرضان عليه الحال ليهتديا إلى حسن المآل ، فنصحهما « العقل » برفع هذه المظلمة إلى « محكمة الصلح الكبرى » .. وبدأ الإنسان المتجرد بإملاء صحيفة افتتاح الدعوى .

ونظرت الدعوى فعلًا أمام « محكمة الصلح الكبرى » التى شكلت هيئتها من رئيس المحكمة « العدل » وعضوية كل من « القسط والعلم والهدى والتوفيق » وكاتب الجلسة « أمين » .

ومَثُل أمام المحكمة المدعون وهم العقل والفكر والروية والعفة والشجاعة والكرم والعدالة والنور والعزة والرحمة والنطق والخشية والحكمة . كما مثل أمام المحكمة المتهمون وهم : النفس السبعية والنفس البهيمية والتهور والشهوة والجبن والبخل والغدر والحس والضيم والقسوة والجسم والتيه والحماقة .

وتقف كل نفس من هذه النفوس تبدى أوجه دفاعها بالحجج والبراهين ، وبعد ثلاث جلسات من الاستماع إلى المرافعة ومواجهة بين الخصوم كل منهم للآخر ، تصافحت النفوس المتصارعة فى الإنسان ، واصطلحت أمام هيئة المحكمة وجاء عقد الصلح يتضمن البنود الآتية :

أولًا : أن تسارع النفوس إلى القيام بما أمرها الله به سبحانه بقدر الاستطاعة ، وأن تترك ما نهاها الله عنه جملة واحدة .

ثانيًا : أن تجاهد النفوس ذواتها في الله حتى تطيع المنعم الجواد لتفوز برضاه .

ثالثًا : أن تحب النفوس الآخرة ، لأن الله مدحها ورغبنا فيها ، وتكره الدنيا لأن الله ذمها وكرهنا فيها .

رابعًا : أن تحب رسول الله ﷺ حبًا يجعلنا نتشبه به فنحيي سنته ونصونها من التغيير والتبديل .

وقد تأشر على عقد الصلح هذا من رئيس المحكمة وحكمت المحكمة بإلحاق عقد الصلح بمحضر الجلسة وإثبات محتواه فيه بما ينهى المنازعة .

وبذلك يبين من فصول هذه الرواية ، أن الشر والرذيلة ليست من فطر الإنسان ، وإنما ينشأ كل ذلك من اختلال التوازن بين غرائزه ، ومن العوامل الخارجية التى تنحرف بهذه

الغرائز عن أهدافها الفاضلة ، وذلك ما يدلنا عليه قوله تعالى : ﴿ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ﴾[٥] فالفطرة هى الدين القيم وذلك ما يدلنا عليه أيضًا قول الرسول ﷺ عن الله عز وجل فى الحديث اللقدسى : [كل عبادى خلق حنفاء فاجتالتهم الشياطين ، وأمروهم أن يشركوا بى غيرى] وقوله أيضًا : (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٦] .

وعليه فإنه من الممكن القضاء على انحراف النفوس وعودة الإنسان بعد عناء وطول مجاهدة إلى الصراط المستقيم والخلق الفاضل .

وفى رسالة الدكتوراه التى نوقشت بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر فرع الزقازيق ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م للدكتور أحمد يسرى العزباوى بعنوان « النثر الصوفى عند كتاب مصر المحدثين ١٩٠٠ - ١٩٤٠» يقول :

« وضع الإمام أبو العزائم لقصته الروائية التى سنعرض فيما بعد فكرتها عنوان : « محكمة الصلح الكبرى .. حوار روائى بين مطالب الروح ، ورغائب الجسد لتزكية النفوس ، وإصلاح المجتمع » ولقد حدد الإمام رضى الله عنه من خلال العنوان المصطلح الفنى الذى يمكن إطلاقه على هذا النمط من النثر ، كما حدد الهدف الذى دفعه إلى الكتابة فى هذا الموضوع بهذا الشكل الفنى .

وأنسب المصطلحات الفنية لهذا العمل القصصى أنه « قصة روائية » كما قصد إلى ذلك الإمام نفسه ، وكما أطلق عليها ذلك أيضًا أستاذى الدكتور « حسن جاد » فى تقديمه لهذا العمل ، وحوار هذه القصة الروائية طريف بارع شيق ، من شأنها أن تشد الجمهور إليها لو أخرجت للتمثيل ، ويتحقق ذلك من خلال الموضوع والأشخاص والحوار المدار ، كما أنها خالية من الاستطراد ، والتعليق على الأشخاص ، والأحداث ، فليس ذلك مجاله رواية تخرج للتمثيل ، لأنها تحتاج إلى وقت محدد .

أما عن المفاجآت والصراعات التى ينبغى أن تسود الحكاية التمثيلية فإنى أراها متمثلة فى قصة الإمام أبى العزائم فيما سادها من الموضوع الجديد ، والأفكار غير المطروقة ، كما أنه جعل من المعنويات والمحسوسات أشخاصًا تعقل وتفكر ، وتتكلم وتحاور ، وتعى ما تسمع ، وذلك مثل الوهم ، والخيال ، والفكر ، والعقل ، والتهور ، وغير ذلك .

---

(٥) سورة الروم آية ٣٠ .

(٦) البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى وأحمد ومالك فى الموطأ والسيوطى فى الجامع الصغير .

ثم صوّر الإمام فى براعة الصراع بين العقل والنفس الشهوانية ، وبين الفكر والتهور ، وبيّن مثل الخير ومثل الشر ، وما ساد حوارهم من أفكار وصلت فى اختلافها حد التناقض ، وتلك الأفكار كانت سببًا فى صراع الأشخاص ، لتضارب مصالحها ، وأهوائها وشهواتها ورغباتها ، وما يمثله ذلك من صراع بين الخير والشر .

على أن جودة العمل القصصى التمثيلى تأتى من قدرة الإمام رضى الله عنه على الكشف عن النفس الإنسانية ، ونوازعها وتصوير ما يدور فيها من صور الخير والشر وأسباب ذلك .. فهو يجعل من النفس الإنسانية ذاتها موضوعًا لعمله .. يحللها ويتعرف على قواها ، ويقف على طبيعة كل قوة ، وما تؤديه لصاحبها من خير أو شر ، وما يجب على الإنسان الصوفى من معرفة هذه القوى ، وخواصها حتى لا يجعل شيئًا يسيطر على أحاسيسه ، ومشاعره ، وجوارحه ، غير حبه لله سبحانه وتعالى وإخلاصه له ، والإقبال على ما يقربه منه تعالى .

الأشخاص فى محكمة الصلح الكبرى لأبى العزائم :

١ - الوهم : مرآة المعنويات .

٢ - الخيال : مرآة المحسوسات .

٣ - الملك : هو النفس الناطقة الملكية ، ووكيلها العقل ، وهو الوزير الأول فى المملكة - والخصم النفس السبعية .

٤ - الفكر : هو وزير داخلية الملك ، إذ تعرض عليه الشئون الداخلية للملك ، فيميز بين نافعها ، وضارها بالحجة الجلية ، ويعرضها على مولاه وخصمه النفس الشهوانية .

٥ - الروية : وخصمها التهور .

٦ -الشجاعة : وخصمها الجبن .

٧ - العفة : وخصمها الشهوة .

٨ - الكرم : وخصمها البخل .

٩ - العدالة : وخصمها الغدر والضيم .

١٠ - النور : وخصمه الحس .

١١ - هيئة المحكمة ويمثلها :

أ - العدل : رئيسًا ، وعن يمينه الهدى والعلم ، وعن يساره التوفيق والرحمة .

ب - كاتب الجلسة : أمين .

ج - رئيس الشرطة وجنده .

فكرة محكمة الصلح وتقويمها :

يبدو الوهم - وهو مرآة المعنويات - وقد ظهر عليه الألم ، حيث يدور حوار بينه وبين الخيال - مرآة المحسوسات - عما يورده الإنسان على كليهما من المفاسد ، وألوان الضلال ، والوساوس الشيطانية . وأشدها ما لا يليق بعظمة الله سبحانه ، وتلك مهمة لم يخلقا من أجلها ، ومن ثم تتفق وجهة نظرهما على التوجه إلى العقل ليعرضا عليه الحال باعتبار أنه ذو روية وفضل ، وأنه البرزخ الحاكم بين ملكاتهما وبين النفس ، وأنواعها .

ولا يلبث العقل هو الآخر أن يشكو من أن الحس ودواعيه قد استعبد الناس إلا قليلًا ممن اجتباه الله بسابق حسناه ، ولذلك فقد فارقهم منذ خيرهم .

وهذا ما لا يستطيع الوهم والخيال اللجوء إليه تخلصًا من شرور الإنسان ، وإساءته إليهما على نحو ما ورد فى شكاية كل من الوهم والخيال .

يرق العقل لحالهما ، ويلطف ، ويقول لهما : هلم بنا نرفع الأمر إلى الله تعالى ، ثم إلى أولى الأمر فى الإنسان ، وهنا يبرز الإنسان المتجرد من بشريته ، المتخلى عن حيوانيته - بعد أن سمع نجواهم ، وفهم معناهم - ليعلن أمام الثلاثة - الوهم والخيال والعقل - أنه محب لأن ينال أبناء جنسه الخير والفلاح ، ويؤيد رأى العقل برفع القضية إلى « العدل » .

ونص الدعوة المرفوعة هى :

[بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله . أما بعد : فمن الإنسان المتجرد عن بشريته ، المتخلى عن حيوانيته ، المستعيذ بالله من نار إبليسيته ، ثم من العقل والوهم والخيال إلى « العدل » عمم الله به النفع ، إنّا نتظلم إلى الله تعالى ، ثم إليك مما نحن فيه من ظلم الظالمين وهم إبليس والحس ، وجميع قوى النفس والسلام عليك وعلى من معك].

وفى هذا الموقف الدقيق فى عرض القضية ، وأخذها مسار الطريق الجاد إلى التنفيذ ، لا ينسى الإمام أبو العزائم أن يصور ما جبل عليه كل من الوهم والخيال من تردد ، ونفاق وملق ، حيث يرجوان العقل أن يستر الحال عن الخصوم لأنهما مقهوران ويخشيان الوبال ، فيأذن لهما العقل بالانصراف خوفًا عليهما من الإتلاف ثم يتلطف للإنسان المتجرد من بشريته - هو الآخر - للانصراف .

تفتتح الجلسة الأولى باسم الحكم « العدل » ، وكاتب الجلسة « أمين » الذى ينادى على العقل « المدعى » ، ويدور حوار بينه ، وبين الرئيس ، يعبر فيه العقل عن أنه كان فى مسرات حياته الروحانية ، وملاذ أفراحه العقلية ، يسبح فى فسيح العز والفخار حتى جذبته خصومته بمقتضيات كثافتها ، ودواعى ميولها إلى سجن الشهوة الحيوانية ، والخضوع لسلطان الحظوظ البهيمية ، وهؤلاء الخصوم هم النفس السبعية ، والنفس الشهوانية ، وأنصارها ، والجسم والحس . ولا يلبث القاضى أن يأمر بإحضار الخصوم .

ويحدد الإمام أبو العزائم فى محكمة الصلح الكبرى طرفى الخصومة فى القضية ، فالطرف الأول : يمثله العقل ، وتوابعه من الفكر والروية والمنطق والعفة والشجاعة والكرم والعدالة .. والطرف الثاني : تمثله النفس السبعية ، والنفس الشهوانية ، وتوابعها من التهور والجبن والافتخار والتيه والاستهزاء والغدر والضيم .

ومن خلال الحوار المضطرم بين مختلف القوى النفسية تظهر ذاتية الإمام أبى العزائم فى تعبير ممتع عن رأيه فى بعض القضايا الفكرية ، والاجتماعية ، من وجهة النظر الصوفية ، ولكنها ليست ذاتية خالصة تفرض ما تراه هى ، وتتجاهل الرأى الآخر ، ولكنه من خلال الحوار يعرض كلا الرأيين ليحافظ على سلاسة الحوار ، والحرص عليه أن يأتى مواتيًا لطبيعة الموقف فلا نحس فيه نبوًا أو قسرًا . أو محاولة تطويعه إلى غير اتجاهه .

ثم يحتدم الصراع بين قوى الخير والشر فى النفس الإنسانية ويتعاظم الحوار ، وتعلو الأصوات وتتقارع الحجج ، وتتصاعد حدة المواجهة إلى أن يصل الموقف إلى ما يشبه العقدة فى العمل القصصى .. بعدها يأخذ شكل الانحدار الهادئ البطئ إلى ما يشبه الحل ، إلى أن ينتهى الأمر إلى اتحاد القوى المتصارعة ، ويعقد مجلس الحكم الذى يتلو فيه الرئيس « العدل » حيثيات الحكم التى تتسم بالإقناع والوضوح ، وقوة التأثير ثم يصدر الحكم الذى يقابل من كل النفوس والقوى بالاستحسان ، والمصافحة ، والعناق ، والاتحاد ، والائتلاف .

وقد نجح الإمام أبو العزائم فى إدارة الحوار ، وترتيبه ، وفى تحديد الهدف ، وكيفية الوصول إليه ، واستطاع من خلال هذا العمل الروائى الجديد على الأدب الصوفى أن يشرح الأفكار والمعانى الصوفية ، التى تهدف إلى معرفة النفس ، وقد اختار هذا الفن الأدبى لأن النفس تميل إليه ، وتحبه ، وتتقبله ، ومن ثم سيكون ذا أثر حسن فيها .. وقد حقق الإمام رضى الله عنه هدفه الصوفى والأدبى معًا ، فمن يُرد معارف صوفية فعليه بمطالعتها ، ومن يُرد متعة أدبية فإنه واجد بغيته فى مطالعتها أيضًا ، ومن يُرد إسلامًا ، أو

أخلاقًا ، وتهذيبًا وحكمة ، فعليه بها ففيها جماع الخير كله للإنسان ومجتمعه ، وبنى جنسه .

لماذا اتجه الإمام أبو العزائم إلى النثر القصصى؟ وبم يقوم اتجاهه؟

يهدف الإمام أبو العزائم من وراء كتابة هذه القصة الروائية إلى أن يتوجه بها إلى الإنسان المؤمن ، لكى يتبين عن طريقها حقيقة نفسه ليصلحها . فمن المعلوم أن الإنسان مجمع العجائب والغرائب ، والمتناقضات كلها ، ففيه من ملكات الخير ما يستطيع بها - إذا أحسن استغلالها - أن يكون الإنسان الحق الذى كرّمه الله تعالى ، فخلق الكون وما فيه من أجله وسخره له ، وجعله خليفة عنه - سبحانه - فى الأرض ، وعلى النقيض من ذلك جعل الله فيه من قوى الخبث ، ونزعات الشر ما يمكن أن يكون بها - إذا لم يهذبها - من أخبث المخلوقات .

ولهذا يريد الإمام أبو العزائم أن ينبه الإنسان المؤمن إلى ما كمن فيه من هذه القوى ، وتلك .. حتى يعرف حقيقة نفسه ، ومن عرف نفسه فقد عرف ربه ، وهنا مكمن سعادة الإنسان فى دنياه وأخراه ، وسعادة أسرته ومجتمعه ، بل سعادة الإنسانية كلها .

ولهذا يصرح الإمام أبو العزائم بأنه ألّف كتبه المختلفة لتحقيق ذلك ، ثم تراءى له أن يسلك فى التعبير عن هذه المعانى والدعوة إليها أسلوبًا جديدًا ، ونمطًا حديثًا ، تتعلق به النفس ، ويرهف إليه الحس ، ويتأثر به الوجدان ، فيقول فى مقدمة عمله الروائى « محكمة الصلح الكبرى » الذى أتناوله بالدراسة الآن : (.. وبعد أن كتبت أكثر من أربعين كتابًا ورسالة فى بيان سبل الخير ، والحث على السير عليها ، تاقت نفسى أن أنوع الدواء ، بما يناسب نيل الصفاء ، وفى الإشارة ما يغنى اللبيب ، وييسر الحبيب).

ونستطيع القول بأن اتجاه الإمام أبى العزائم إلى أن يعبر عما يريده من فكر ومضمون فى إطار شكل فنى أدبى هو النثر القصصى الروائى الصوفى - كان اتجاهًا مقصودًا وهدفًا ساميًا ، سعى إليه لكى يحقق ما يصبو إليه من إبراز مشاعره وأحاسيسه نحو ما يعتمل فى صدره من فكر صوفى ، يؤدى به واجبه ، ويرضى ضميره ، إنه اختار الوعاء الغنى القادر على تحقيق ما يريد .

وفى ذلك تقدير منه للفن الأدبى عامة ، والنثر القصصى خاصة ، وكذلك نراه يمازج فى روايته بين النثر والمواجيد أحيانًا ، فلعل النفس تتأثر بهذه الممازجة أسرع وأعمق ، فهولاء الإمام أبى العزائم للتأثير النفسى والوصول إلى الإقناع وعمقه كان أسبق من غيره

عناية منه، ولذلك نلمح عناصر الجذب والتأثير والإقناع قد استوفت عناصرها.

وفى ذلك يتحقق الهدف الأدبى النبيل الذى يستحق به هذا النتاج الأدبى أن يحلل، ويدرس على أنه عمل مشترك بين الصوفية والأدب، استحقت به الصوفية الحديثة أن تتيه به على عصور الأدب الصوفى.

ويحق لى أن أقول – فى حدود علمى – أن الإمام أبا العزائم بهذا العمل يعد أول من أدخل هذا الفن الأدبى فى عالم الأدب الصوفى من أول نشأته فى لغتنا العربية حتى اليوم. وأن ذلك يعد مظهرًا من مظاهر التجديد فى الأدب الصوفى.

إن الإمام أبا العزائم بتأليفه هذه القصة إنما كان مرآة صافية صادقة لمجتمعه عكست قضاياه. ومشاكله، وطموحاته. ولم يكن ذلك مقصورًا على مجتمعه المحلى الذى يعيش فيه، وإنما تعداه إلى المجتمع العربى، والإسلامى، والإنسانى قاطبة.

وهكذا اتصل الإمام أبو العزائم بأمته، ومجتمعه، وهكذا استمد منها العون والقوة، وهكذا استلهمها آمالها، وآلامها، وأسباب سعادتها، وشقائها. وإن أى إصلاح سياسى، أو اجتماعى، أو اقتصادى، أو فكرى: فردى أو قومى، أو إسلامى، أو إنسانى لا يمكن أن يبدأ بداية صحيحة، ويتجه اتجاهًا سليمًا، مثمرًا نعيد ما بدأ به الإمام أبو العزائم، ولا يمكن أن يتم أو ينتهى نهاية ناجحة إلا إذا بدأ هذه البداية العزمية[7].

---

(٧) راجع أصل الرسالة ص ٢٦٧ وما بعدها.

منهج الإمام أبو العزائم فى الدعاء

الدعاء منهج الصالحين ودرب السالكين ، ونور اليقين ، وسلاح المؤمنين ، وسراج منير للمتقين ، وقرة عين القانتين ، وراح طهور للعاشقين ، يجد فيه أهل الإيمان لذتهم وانشراح صدرهم .

الدعاء هو لسان المناجاة للعارفين ، ونور الإيمان وبرهان الصدق على ذل العبودية للصادقين . فهو يعبر عن احتياج العبد وفقره وذله ومسكنته ودوام اتصاله بربه سبحانه القريب الذى يسمع كل دعاء ، العليم الذى لا تخفى عليه الأحوال . والله تعالى هو الجواد الواسع الذى بشر الداعين من أمة سيد المرسلين بإجابة دعاءهم فقال : ﴿وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾[1] وقال ﷺ : « ما من رجل يدعو بدعاء إلا استجيب له ، فإما أن يعجل له فى الدنيا وإما أن يؤخر له فى الآخرة ، وإما أن يكفر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا ، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم أو يستعجل ، يقول دعوت ربى فما استجاب لى »[2] ويقول ﷺ : « إن الله تعالى حَيِىٌّ كريم يستحى إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين »[3] .

ومما تميز به الإمام أبو العزائم رضى الله عنه وأثر عنه كثرة الأوراد والأدعية والابتهالات والاستغاثات والأحزاب وذلك عملًا منه رضى الله عنه بقوله تعالى : ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون﴾[4] وقوله تعالى : ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾[5] وليقينه رضى الله عنه أن الدعاء طريقه إلى رحمة الله ورضوانه ينفع مما نزل ومما لم ينزل يقول رضى الله عنه :

من يجيب المضطر إن ناداه ... ويلبى المحتاج حال دعاه
من انيس القلوب حال صفاها ... قال كل الوجود ذاك الله

وإذا كان البعض يكتفى فى الدعاء بالنطق بألفاظ الدعاء فى أوقات محددة ، أو يكتفى

(١) سورة البقرة آية ١٨٦ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه أحمد والترمذى وأبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم .

(٤) سورة السجدة آية ١٦ .

(٥) سورة الأعراف آية ٥٥ .

بالعلم أن الدعاء وسيلة لجلب الخير ودفع الشر عنه من ناحية ، وايقاع العذاب والغضب على الخصوم من جهة أخرى ، فهو لا يلجأ إلى الدعاء إلا عند الحاجة أو يعتبر الدعاء دواء يتناوله عند نزول الحاجة من ضيق أو شدة فلا يلجأ إليه إلا حين تعدم الوسائل أو يفتقر إلى الحيلة . فإن الإمام أبي العزائم رضى الله عنه يتخذ من الدعاء منهجًا ساميًا للتعلق بأستار الهيبة والجمال والجلال الإلهى وميزابًا لاستدرار فيض فضل الله مدرارًا . وسببًا للتحبب والتودد إلى الله والتملق إلى جنابه العلى هيمانًا بلذة الخطاب واستشرافًا لأنوار المناجاة الإلهية وفرحًا بلباس العبودية وتاج الذل لرب البرية سبحانه . فترجم عن هذا الحال فى دعاء يفيض بإحساس وجدانى عميق ، وانفعال نفسى ، وتعلق قلبى وثقة وإخلاص ويقين ، وفرح بإقامة الله له ضارعًا متبتلًا خاشًا ذليلًا بين يدية مسرورًا لسوابق الأقدار وعناية الله الذى ناداه من جانب طور قلبه الأيمن وقربه نجيًا يخاطبه ويتلذذ بتضرعه لا يمل ولا يكل .

نلمس ذلك كله من خلال منهجه فى الدعاء الذى يتمثل فيما يلى :

١ - كتاب إلهى إلهى إلهى : وقد جمع الإمام رضى الله عنه فى هذا الكتاب من روائع الأدعية والأوراد والأحزاب المعجز من آيات التنزيل والمأثور من أحاديث البشير النذير وأهل البيت الطيبين الطاهرين وما ألهمه الله سبحانه وتعالى به من الدعاء .

٢ - كتاب (ادعونى استجب لكم) « الجزء الأول » : وفيه فيض عميم وعطاء وافر من الله سبحانه وتعالى على الإمام رضى الله عنه من الدعاء الذى يتذوقه المؤمن الداعى نورًا وينشرح له صدره سرورًا ، شمل ما يقرب من ١٩٣ حزبًا تناولت مناسبات شتى وأوقات مختلفة وأيامًا فاضلة على مدار أيام العام كله وهو رضى الله عنه عند دعائه دائمًا يفتتح بالقرآن الكريم ويأتى الدعاء مبينًا ما شملته الآيات من معانى علية وهبات ربانية وكنوز للعطاء ، فيفتح بالدعاء قلوبًا تسقى طهورًا وتتناول الأرواح منه شرابًا كان مزاجه كافورًا ، وتتنعم الأسرار بذوق شراب كان مزاجه زنجبيلًا ..

فقد كان رضى الله عنه فريدًا فى دعائه وتضرعه إلى الله صفا قلبه وتعلقت روحه بالملأ الأعلى ، وانقدح نور الالتجاء إلى الله ونور العبودية فى قلبه ففاض اللسان بالعبارة العذبة التى تجذب النفوس وتهيم الأرواح ، ويظهر ذلك جليًا فى قوله رضى الله عنه فى أحد أحزابه بعنوان (استغاثة الأخيار) غرة محرم ١٣٣١ هـ :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها﴾(٦)

اللهم يا فتاح يا عليم ، يا معطٍ يا وهاب ، سبحانك اللهم وبحمدك أنت مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شئ قدير ، أسألك يا قريب يا مجيب يا سميع يا ولى يا حميد ، برحمتك التى وسعت كل شئ وفضلك العظيم الذى عمَّ كل شئ ، يا غافر الذنب وقابل التوب ، موجبات رضوانك وحقيقة محبتك وواسع إحسانك ، ولطيف عنايتك وجميل ولايتك ، وسريع إغاثتك ومنن عطاياك ، وجمال آلائك مما تفضلت به على خير أحبابك ، وأكرمت به خواص أوليائك ، وجملت به المرادين لحضرتك العلية ، وأسألك يا حنان يا منان ، يا بديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام منازل الأبرار ، ومشاهد الأخيار ، ومعية الذاكرين ، ومؤانسة الفاكرين ، ومواجهة المقربين ، وإخلاص الموقنين .

إلهى إلهى ، ناولنى بيمينك المقدسة طهور القبول وراح الإقبال ، وأنلنى يا إلهى جمال منازلتك يا معطٍ يا وهاب ، وجملنى يا إلهى بالمعانى التى أكون بها محبوبًا لذاتك المقدسة ، مطلوبًا بجمالك العلى ، فائزًا بحبك سبحانك لى وحبى لمولاى العلى المتعالى ، وحققنى يا إلهى بالإخلاص فى التوكل على حضرتك العلية ، حتى أرتشف من طهور شرابه ، ﴿وأفوّض أمرى إلى الله﴾(٧)، واجذبنى إليك بكل جذبة حبٍ وقربٍ ، حتى تسكن نفسى إليك ياذا الجلال والإكرام مجملًا بجمال يقين ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين﴾(٨) وامنحنى يا إلهى حلاوة الشوق إلى جناب القدس الأعلى ، حتى تنبلج على قلبى أنوار ﴿قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون﴾(٩) واجعل لى يا الله نورًا تنكشف لى به حقيقتى حتى أعلم حق العلم أنه لا إله إلا الله وروحنى يا إلهى بالروح والريحان ، وواسع الفضل والإحسان ، حتى يطمئن قلبى بكمال اليقين فلا يشتغل بهم الرزق ، ولا بخوف الخلق ، ويستريح بدنى من العذاب حتى

(٦) سورة فاطر آية ٢ .

(٧) سورة غافر آية ٤٤ .

(٨) سورة الأنعام آية ٧٩ .

(٩) سورة الأنعام آية ٩١ .

أفرّ ممن سواك وما سواك متحققًا بكشف سر ﴿فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب﴾[١٠] وأعنى يا قدير يا قوى على شكر نعماك حتى تجعلنى بالخصوصية خصوصية أهل العناية الربانية ، سر بشرى ﴿وقليلٌ من عبادى الشكور﴾[١١] .

إلهى واشرح صدرى ويسر أمرى ، وأعذنى وأهلى وأولادى وأحبابى من الشيطان الرجيم .

إلهى وضع عنى وزرى وارفع لى ذكرى ، حتى أكون ممن أكرمتهم بالبشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، وتفضلت عليهم بالفضل العظيم يالله .

إلهى جدد السنة واعل الكلمة ، واصلح حالنا ، وحسن مآلنا ، وانصرنا على القوم الكافرين .

اللهم واشفنا شفاءً لا يغادر سقمًا ، وافتح لنا أبواب فضلك ، وخزائن كرمك وكنوز جودك ، وأمدنى والمسلمين جميعًا بودك واهدنا صراطك المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين إنك مجيب الدعاء ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلم آمين يا رب العالمين .

دعاء التوكل

﴿وتوكل على الحى الذى لا يموت وسبح بحمده﴾[١٢]

أسألك اللهم كما أمرت بالتوكل على الحى الذى لا يموت ، أن تمنحنا يا إلهنا شهود حقيقة أنفسنا شهودًا يجعلنا نتوكل عليك حق التوكل ، يا حى يا قيوم ، أحينا حياة أهل اليقين الحق ، الآنسين بربهم ، الراضين عنه ، المؤيدين بروح منك سبحانك ، وامنحنا يا إلهنا حقيقة التسبيح بحمدك تسبيحًا نشهد به أنك سبحانك المنفرد بإسباغ الإحسان ، الموجب للحمد حيث لا يحمد سواك سبحانك ، المنزه فى ذاتك وأسمائك وصفاتك جمالًا يليق بك .

---

(١٠) سورة الشرح آية ٧ ، ٨ .

(١١) سورة سبأ آية ١٣ .

(١٢) سورة الفرقان آية ٥٨ .

رب جملنى بحسن التوكل عليك وبصحة الفرار إليك ، وامنحنا توبة نصوحًا تطهرنا بها من هم شهواتنا ، ولمم حظوظنا ، وخبث طبعنا ، وطغيان أمارتنا بالسوء .

رب هب لنا وسعة فى أرزاقنا ، ونسيئة فى أعمارنا ، وعصمة من الناس ، سخر لنا كل شئ هو فى ملكك وملكوتك ، وأذل لنا أعداءنا وأعداءك ، وخدِّم لنا أولياءك .

رب اجعلنى بكلى لحضرتك العلية يا رب العالمين .

﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين * فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾ .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

دعاء اسم الله الأعظم

يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين ، وأصلح لى شأنى كله يا رب العالمين ، وأحينى بك حياة طيبة أذوق بها حلاوة التلذذ بشهود جمالاتك ، واكشف لى عن أسرار آياتك حتى أعاين تجليات حيطة قيوميتك ،واحفظنى بروح القدس حتى أتحقق بعين اليقين ، وتولنى برعايتك ووقايتك فى ظاهرى وباطنى وحالى ومقالى ، وأطلق قيدى من شهود الغير ، وزج بى فى أنوار التجلى ، وارفعنى يا إلهى من حفيف الوهم إلى أعلى مقام التثبيت ، وأدخلنى فى حيز مجلى معانى أسماء الجلال حتى أتصرف التصرف التام بغير أن أكون بين خوف بشريتى ، وإقدام ملكيتى بما يتوالىَ علىَّ من تقلبات خواص الآثار الكونية ، ومتعنى بالكمال المطلق حتى أكون عبدًا لذاتك ، وأقمنى عاملًا لك سبحانك مخلصًا لك شاكرًا ذاكرًا فاكرًا.

وثبتنى كما ثبت أهل اليقين ، وحلنى بخواص الأسماء الظاهرة ، وبآثار محض الفضل ، لأكون منيع من جميع الشواغل الكونية ، حتى لا أهتم بما سبق لى فى أم كتابك لإسباغه علىّ ، مع فراغ قلبى لحضرتك سبحانك ، وراحة بدنى من العناء فى طلبه لتواليه علىّ من حيث لا أحتسب ، وتوجنى بتاج العزة العظيم الذى توجت به خواص عبادك ، وزهدنى بتوالى الأيادى علىّ فيمن سواك ، واجعلنى شاكرًا لأنعمك ، ذاكرًا لك سبحانك ، أدعوك رغبة ورهبة مخلصًا لك الدين يا رب العالمين ، ومل بى عن جميع مرادى برضائى بشريف مرادك ، ونور قلبى بالفقه فى دينك ، وأمدنى بروحانية حبيبك ومصطفاك ﷺ ، واجمعنى عليه جمع اتحاد أكون به من أهل معيته ﷺ ، الذين أثنيت

سبحانك عليهم ، وسر بى يا إلهى على صراطه متبعًا لهديه ، وامنحنى حبك الذى منحته من وفقتهم لاتباعه ﷺ بسر قولك سبحانك : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾(*) وهب لى كمال اتباعه وجميل محبته ، واجعلنى محبوبًا لك سبحانك به محبًا له بك ، يا حى يا قيوم يا على يا عظيم يا قريب يا مجيب .

يا الله ... يا الله ... يا الله .

﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك ننجى المؤمنين﴾.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

نموذج من أدعية الإمام ليلة النصف من شعبان

« إلهى إلهى إلهى ، هذه ليلة الإجابة ، ليلة التوبة ، ليلة الرجوع إليك ، ليلة إنزال القرآن ، ليلة بشرنا نبيك ﷺ أنك تجيب الدعاء ، فنسألك بقلوب منكسرة يا ذا الطول والحول والقوة أن تواجهنا بوجهك الجميل ، وتبدل سيئاتنا حسنات ، وتعمّر بحبك قلوبنا ، وتيسر بوسعتك أرزاقنا ، وتوفى ديوننا ، وتشفينا من السقم والمرض ، وتمنحنا الخير والنعمة والمال والولد ، يا سميع يا سميع ، يا من تتجلى لأحبابك بجمالك ، فتجذبهم إلى حضرتك ، تجلّ لنا بجمالك ، وقدِّر لنا الخير الذى أنت أهله .

إلهى إلهى ، إن كنت قدرت علينا السوء فتداركنا بالإحسان ، وأبدل هذا القدر بخير عامّ ، واكتبنا فى أم الكتاب من أمة نبيك المختار الذين لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة يا مجيب الدعاء .

إلهى إلهى . لنا حوائج عظيمة ، وإنما ينزل العظيم بالعظيم ، وأنت الرب العظيم فيسر حوائجنا .

إلهى إلهى ، لنا أولاد ولنا أهل وإخوان ، فنسألك الخير العام والرحمة الواسعة والشفاء من كل ألم ، والإخلاص فى كل عمل ، والولاية الحقة ، والحب منك ،والقرب منك ، والوفاة على الإسلام بسر قولك سبحانك : ﴿يس﴾ إلى قوله تعالى : ﴿بلى وهو الخلاق العليم﴾(١٤) .

إلهى إلهى ، أنت السميع الواسع القريب ، استجب لنا وأكرمنا وقربنا ، بسر

(*) سورة آل عمران آية ٣١ .

(١٤) سورة يس آية ٨١ .

قولك سبحانك : ﴿إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون * فسبحان الذى بيده ملكوت كل شئ وإليه ترجعون﴾[١٤].

٣ - الابتهالات : وهى كثيرة جدًا تعمها مواجيده رضى الله عنه مستغيثًا ضارعًا إلى الله منيبًا إليه متوسلًا إليه بأحب الأعمال إليه وبرسول الله ﷺ وأهله نبيه الطاهرين والأولياء والعالمين سواء أكان ذلك فى المناسبات الدينية ، أم فى غيرها من أيام السنة ومن ذلك قوله رضى الله عنه :

الهى انت بى بر رحيم ... معين رازق غوث كريم
وكم نجيتنى من كل هول ... وكم وافى بك الفضل العميم
وكم اوليتنى عزًا ومجدًا ... وكم عندى لك الخير المقيم
الهى انت تعلم بى وحسبى ... بانك سيدى انت العليم
الهى علم حالى عن سؤالى ... كفانى إن تحيرت الفهوم
الهى من تكن مولاه حاشا ... تزلزله عن الحق الغيوم
الهى من يكن بك فى سرور ... وعز كيف تغريه الهموم
الهى من ضمنت له غناه ... يميل إلى التشكك او يحوم
فحاشا ان اشك وانت ربى ... واخشى واليقين بكم سليم
وقد عودتنى فرجًا قريبًا ... فهىء لى بحقك ما اروم
الهى يامجيب لمن دعاه ... اجب يامن بحالنا عليم
توسلنا إليك بسر طه ... وبالكنز المطلسم ياحكيم
رفعت لك الأكف وانت حسبى ... وغوثى إذ بدا الخطب الأليم

وقوله رضى الله عنه :

الهى الهى ياولى تولنى ... ولاية محبوب ونور بصيرتى
الهى الهى ياحفيظ بحفظكم ... من الشر فاحفظنى وكل احبتى
الهى ايا وهاب هب لى عناية ... بها اك ملحوظًا بعين العناية
الهى الهى ياسلام فسلمن ... نفسى وبدنى من هوىً وضلالة

---

(١٤) سورة يس آية ٨٢ ، ٨٣ .

إلهى ايا معطى فهب لى كنوزكم   لأظهر كنزًا للهدى والسعادة
إلهى ايا فتاح فافتح قلوبنا   لتفتح ابواب السما بالإجابة

وقد نبه رضى الله عنه على أن الدعاء روحه الإخلاص وهو سر الإجابة فيه ، ولكن كيف يكون الإنسان مخلصًا فى دعائه؟ يقول رضى الله عنه :

« لا يكون المؤمن مخلصًا فى دعائه حقيقة الإخلاص ، ما دام له تدبير وحول وقوة فى رفع ما يدعو لكشفه ، حتى يتحقق بالعجز عن دفعه بحوله وقوته وماله وأهله والناس أجمعين ، مثال ذلك ما يحصل لأهل السفينة ، فإنهم يدعون الله تعالى مع اعتمادهم على الربان وعلى الملاحين ، فإذا علاهم موج كالظلل وجزع الربان والملاحون ودهشوا ، عند ذلك يخلص الكل الدعاء لله كما قال سبحانه وتعالى : ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾[١٥] .

وقد يحصل الإخلاص الحقيقى فى الدعاء للأفراد الذين كوشفوا بحقيقة التوحيد ، وتحققوا أن الضار والنافع هو الله فإنهم لخشيتهم من الله لا يتحققون بنفع الأشياء النافعة ، ولا بضرر الأشياء الضارة ، فهم يدعون الله مخلصين أن يدفع عنهم الضر ، ويمنحهم النفع .

ولا تخلو الأحوال التى تصيب بنى آدم فى أبدانهم وأموالهم وأهليهم من الحكم الربانية ، فيفزعون إلى الله تعالى ، ويسألون العارف أن يدعو الله لهم فيكشف الله عنهم ما ألمّ بهم ، فإن دعاء العارف يهدى النفوس إلى معرفته سبحانه ، فيعلمون أن لهم إلهًا جبارًا عالمًا قديرًا يسمع دعاءهم ويعلم ما هم فيه ، وهو قادر على نجاتهم . يراهم وإن كانوا لا يرونه ، ويسمع دعاءهم ونجواهم ، على هذا القياس كلما أصاب الناس من الجهد والبلاء فيضطرهم ذلك إلى الدعاء والتضرع إلى الله عز وجل ، ليذهب الغلاء والوباء ، وآلام الأطفال ومصائب الأخيار ، وما شاكلها من الأمور السماوية التى لا سبيل لأحد فى دفعها عنهم إلا الله تعالى ، فيكون ذلك دلالة لهم على الله عز وجل ، وهداية إليه كما قال سبحانه : ﴿ أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلًا ما تذكرون ﴾[١٦] » .

---

(١٥) سورة يونس آية ٢٢ .

(١٦) سورة النمل آية [illegible] .

وبعد الإخلاص فى الدعاء يجب على الداعى أن يكون على يقين أن الله مجيب دعاءه وحسن ظنه وثقته فى الله تدفعه إلى المناجاة والاستغاثة والتضرع والتملق له سبحانه والطمع فيه فيقول رضى الله عنه :

« إذا دعوتم فكونوا موقنين بالإجابة ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من موقن ، ومن دعا دعاء بيّنا من قلبه ، لأن من استعمله الله تعالى بالدعاء له فقد فتح له بابًا من العبادة ، وفى الخبر : (الدعاء نصف الإيمان) وروينا عن رسول الله ﷺ : « ما من داع يدعو موقنًا بالإجابة فى غير معصية ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله تعالى إحدى ثلاث : إما أن يجيب دعوته فيما سأل ، أو يصرف عنه من السوء مثله ، أو يدَّخر له فى الآخرة ما هو خير له »[١٧] وروينا عن نبينا ﷺ أنه قال للرجل الذى قال : أوصنى ، فقال : « لا تتهم الله تعالى فى شئ قضاه عليك »[١٨] وفى خبر آخر : أنه نظر إلى السماء وضحك ﷺ فسئل على ذلك فقال : « عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن فى كل قضائه له خير ، إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرًا له ، وإن قضى عليه بالضراء رضى وكان خيرًا له »[١٩] .

ومن حسن الظن بالله تعالى التملق له سبحانه ، وهو من قوة الطمع فيه ».

أما الاستجابة وسرعة الإغاثة من الله سبحانه وهى ما يتوقف عنده البعض وقد يدور بخاطره أن السائلين كثير ولكن من تجاب دعوتهم قليل فلماذا ؟ وهنا بيَّن الإمام أبو العزائم رضى الله عنه ذلك من ثلاثة وجوه فيقول رضى الله عنه :

الوجه الأول : وهو ما يتذوقه أهل المعرفة وهو أن لفظة (عباد) خاصة للمخصوصين ، فإنها ما وردت فى القرآن إلا لأهل الخصوصية العالية ، وعلى هذا فما من عبد من هؤلاء سأل الله تعالى إلا استجاب له ، قال تعالى : ﴿لهم ما يشاءون عند ربهم﴾[٢٠] وبهذا لا يرد السؤال .

الوجه الثانى : أن الدعاء هو العبادة والتضرع إلى الله تعالى والتملق شكرًا وخشوعًا بين

---

(١٧) رواه الترمذى .

(١٨) الطبرانى فى الصغير بلفظ : [من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلهًا غير الله] .

(١٩) رواه مسلم بلفظ : [عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له] .

(٢٠) سورة الزمر آية ٣٤ .

يديه ، فما قام عبد فى هذا المقام إلا واجهه الله تعالى بوجهه ويكون الدعاء من العبد دعوة الله تعالى أن يقبل عليه ويقبل منه .

الوجه الثالث : أن الدعاء مستجاب من الله تعالى يعجل ما شاء أن يعجله فى الدنيا ويؤجل ما شاء منه ، وقد ورد فى السنة أن المؤمن تعطى له خيرات جزاء قربات فيقول : رب إنى لم أعمل شيئًا من هذا ، فيقول الله تعالى : هذا دعاؤك الذى كنت تدعونى به فى الدنيا أجّلته لك ، فيقول : ليته أجل جميعه .

الجهاد السياسى والفكرى للإمام رضى الله عنه

- الإمام وثورة ١٩١٩ .
- موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية .
- تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية .
- الإمام والقضية الفلسطينية .
- الإمام والماسونية .
- الإمام والاشتراكية .
- الإمام ونظرية دارون .

الإمــــام وثـــورة ١٩١٩ [1]

لعل أهم ما عاصره الإمام من أحداث سياسية فى عصره هو الاحتلال البريطانى لمصر والسودان ، فكم كان الألم يعتصره بشدة لهذه الأحداث ، وكان دوره فعّال وإيجابى فى محاربة الاستعمار ومقاومة الفساد ، وعمل على نهضة الصحافة دينيًا وسياسيًا واجتماعيًا إلى غير ذلك مما كان يقوم به من أعمال لخدمة دينه ومجتمعه لا سبيل إلى حصرها .

لقد استشرى الفساد فى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل ، وما أن تولى الخديوى توفيق الحكم (١٨٧٩ - ١٨٩٢م) حتى كان الأمل نحو حكم أفضل استبشر به الجميع ، ولكن الأمر لم يختلف عن سابقه ، بل إن الخديوى توفيق كان حريصًا على الاستئثار بالحكم والسلطة ، بالإضافة إلى أنه لم يستطع تحمل مسئولية إنقاذ البلاد مما أصابها من ضعف سياسى واقتصادى .

ظل أبناء الشعب يفكرون فى طريقة حاسمة ترد إليهم حقوقهم المغتصبة وحرياتهم المفقودة ، فقامت الثورة العرابية سنة ١٨٨١م بزعامة أحمد عرابى ، وقد التف حوله كثير من أبناء الشعب المخلصين ، فالثورة العرابية هى أولى الثورات الوطنية التى عاصرها الإمام ، صحيح أنه كان صبيًا فى سن الثانية عشرة من عمره ، إلا أن مستوى فكره كان يسبق سنه بكثير وكل من حوله والعارفين به عن قرب قد شهدوا له بذلك ، وقد كان رأى الإمام أن الثورة العرابية فرّقت الشعب المصرى لصالح الإنجليز مما أدى إلى احتلالهم لمصر ١٨٨٢ م بعد معركة التل الكبير .

وقد انصهرت أحاسيس الإمام مع أحاسيس الشعب المصرى معاناة من الاستعمار البريطانى ، لما يلاقيه الشعب المصرى من إذلال وهوان .

وفى عام ١٩٠٦ (١٣٢٤هـ) أصدر الحاكم الإنجليزى لمصر وهو اللورد « كرومر » أمره الرهيب بشنق عدد من الفلاحين الذين قاوموا بعض الجنود البريطانيين فى قرية دنشواى ، وقد تحدى اللورد كرومر مشاعر الشعب الوطنية ، ولم يهنأ له بال حتى نفذ أحكام الإعدام فيهم شنقًا ، حتى أصبح مجرد سماع ذكر اسمه يثير شعورًا بالسخط والاشمئزاز ، لارتباطه بمفاسد وظلم وجرائم توّجها بحادثة دنشواى .

وكان لمصطفى باشا كامل دور كبير فى فضح أساليب بريطانيا وكرومر فى الصحف ،

---

(١) مفهوم الثورة عند الإمام : كلمة حق عند سلطان جائر .

وفى نفس الوقت كان الإمام رضوان الله عليه على اتصال دائم بالزعيم رغم وجود الإمام فى السودان ، وكذلك محمد بك فريد وعبد العزيز جاويش ، لا ليطمئن على الأحوال وسير الأحداث ولكن ليساهم بالرأى والمشورة فى اتخاذ القرار ، وكان للإمام نصيب وافر فى كشف وفضح أفعال الهلباوى الذى وقف موقف المدعى من هؤلاء الفلاحين الشرفاء لإصدار قرار الإعدام شنقًا .

إن حادث دنشواى كان النهاية لحكم الطاغية كرومر ، وكان الإمام يدعو الله كثيرًا أن ينتقم من هذا الطاغية ، ولما ازداد جبروته التجأ الإمام بكله إلى ربه طالبًا غارة الله لتخلص مصر منه ، ثم أملى قصيدة وطلب إرسالها إليه ، وقد تحققت دعوة الإمام رضوان الله عليه وفضح كرومر عميد الطغيان وأقصى عن مصر وذهب إلى غير رجعة .. وهذه أبيات الرسالة التى توجه بها الإمام إلى المولى عز وجل فى عام ١٣٢٤هـ (١٩٠٦م):

إليك امرى أيا مولاى أرفعه ... والعبد يسأل بالإخلاص مولاه

انت الغيور على الفقراء تنصرهم ... ومن أتى ضارعًا لله أغناه

يا سيدى غارة من سوط نقمتكم ... على من يرد ذلهم والناصر الله

طغى علينا بما قد نال من نعم ... من زينة العرض الفانى ومبناه

وليس للفقرا غوث يغيثهم ... إذا رموا غير قولى : حسبى الله

يا غارة الله إن الظالمين طغوا ... بغيا علينا وكيد القوم نخشاه

فاسرعى فى دمارهمو بكارثة ... ترمى عميدهمو[٢] فالبغى اعماه

وكان لابد من خلاص .. فجاءت ثورة ١٩١٩، ولسنا هنا بصدد الحديث عن هذه الثورة بملابساتها وأحداثها السياسية ونتائجها ، فقد سرد التاريخ عنها ما يكفى .

لكننا نتناول ثلاث نقاط محددة هى :

١ - كيف بدأت الفكرة وكيف أخذت دورها فى التنفيذ .

٢ - دور الإمام رضوان الله عليه فى النصح والإرشاد والتوجيه شعبًا وحكومة وقادة ، سواء دينيًا أو سياسيًا أو اجتماعيًا .

٣ - دور الإمام عندما أراد المستعمر أن يقصم ظهر الأمة والإسلام ويجعلها شيعًا وأحزابًا - وهو أسلوبه الدائم فى مثل هذه الظروف - حتى تكونت الأحزاب السياسية فى

---

(٢) يشير إلى اللورد كرومر .

مصر لتزداد الأمة تفرقًا وتطاحنًا وكراهية ونفورًا فيما بينها .

وسنعرض على القارىء هنا بعضًا من المقالات التى أتيح لنا العثور عليها من الصحف ومن المجلات المشهورة وقت ذاك ، وخطاباته إلى حكام وزعماء الأمة وزعماء ورجال الأحزاب ، وهى ترجمة حقيقية لما كانت عليه أوضاع الأمة حكامًا ومحكومين ، ويتضح منها أيضًا منهاج الإمام فى معالجة الأمور ، فهى مهمة رجل الدين الحقيقى الذى لا يخشى فى الله لومة لائم .

كانت الصفة البارزة للمقالات بالصحف والمجلات فى ذلك الوقت تعف الأعين عن قراءتها ، وفيها من المهاترات ونهش الأعراض ما يجد رواجًا وإقبالًا من السواد الأعظم من الشعب المصرى ، وخصوصًا بعد أن تغلغلت تلك الحزبية البغيضة فيه ، حتى كان للأسرة الواحدة اتجاهات حزبية متعددة ينابذ لها بعضهم بعضًا .

وكان الإمام يلتقى بالمفكرين والأدباء والزعماء السياسيين ومن بينهم سعد زغلول ، حيث دار الحديث بينهما يومًا عن تلك الأوضاع المتردية التى تعيشها مصر فى ظل الاحتلال والقصر والحكومة ، وسأل الإمام سعدًا فقال :

= يا سعد بكم تشترى العبد اليوم ؟

- يا مولانا لا يوجد عبيد تباع فى أيامنا هذه .

= لو افترضنا يا سعد أن العبيد تُشترى فى أيامنا هذه .. فبكم تشترى العبد ؟

- يا مولانا إن ثمنه لا يُقدَّر بمال .

= وهنا يقول الإمام : يا سعد .. إن العبد كما قلت لا يُقدَّر اليوم بمال ، فما بالك إذا كان حرًا ؟ يا سعد .. اتق الله فى اثنى عشر مليونًا من المصريين الأحرار[٣] ، إنهم أمانة فى عنقك يسألك الله عنها يوم القيامة .

* ثم قال : يا سعد .. إن أمامك غربة قصيرة .. بعدها تكون زعيمًا لهذه الأمة[٤] ، ثم تركه وانصرف ، بعد أن حثه ليبدأ المسيرة ، وبعد أن بشّره بما سيئول إليه حاله مع الأمة .

وتعددت لقاءات سعد ورجاله مع الإمام بعد ذلك مرات ومرات ، ولم يكونوا أيضًا بغرباء عنه ، فقدكانت تربطهم به الصلة أيام الشباب ، وكم دار الحديث بينهم وبينه ،

---

(٣) تعداد مصر فى ذلك الوقت .

(٤) الإمام أول من لقب سعد زغلول بلقب زعيم الأمة .

وكان الرجال يجتمعون مع الإمام بعيدًا عن الأضواء، ثم نقلوا اجتماعاتهم فى النادى الذى عُرف فيما بعد باسم «النادى السعدى»، كان من بينهم محمد محمود باشا، وعبد العزيز باشا فهمى، وإسماعيل باشا صدقى، وعلى باشا ماهر، ومحمود فهمى النقراشى باشا، والغرابلى باشا وغيرهم من رجالات ١٩١٩، وكان عدلى باشا يكن فى فرنسا فأرسل سعد مندوبين عنه لملاقاته والاتفاق معه.

وكان الإمام شديد التضرع إلى الله أن يبارك هذه الخطوة.

وأثناء لقاء لهذه المجموعة فى النادى، وبعد أن تعاهدوا على خطتهم وأثناء مرورهم من الردهة للخارج، وضع محمد محمود باشا عصاه بحيث لا يمر أحد وقال: لن نغادر هذا المكان إلا إذا تعاهدنا بصدق على تنفيذ ما اتفقنا عليه، فتعاهد الجميع ثم انصرفوا.

ولما ذهب سعد زغلول وصحبه إلى دار الحماية عقب مؤتمر الصلح فى باريس عام ١٩١٨ ليطالبوا بحقوق شعب مصر فى الحرية والاستقلال وطالبهم المندوب السامى بإبراز ما يثبت توكيلهم عن الأمة، عاد على باشا شعراوى وحمد باشا الباسل إلى مصر وطلبوا من الإمام أن يجمع لهم توقيعات أحبابه ومريديه، فاستمهلهم أسبوعًا ليكون عندهم عشرات الألوف من العرائض الموقع عليها من المواطنين بعناوينهم.

وفى مقالة من مقالاته رضوان الله عليه التى أراد بها أن يكشف النقاب تمامًا عن الدور الذى تقوم به بريطانيا، نختار هذه المقالة المنشورة فى جريدة الأخبار(٥):

الإنجليز ينازعون الربوبية (٦)
لكل حق حقيقة، وحق لا حقيقة له باطل،
ما حقيقة حق الإنجليز فى مصر؟

«اعجب معى أيها القارئ!! الإنجليز يحررون الرقيق السود ويستعبدون الإنسان الأبيض، هل هذا حق له حقيقة؟ الإنجليز يغرون الأمم بالخروج على حكوماتهم ويدخلون بين الهيئتين بصفتهم رجال الإصلاح كما نشروا أيام أثاروا العداوة بين الجيش والخديوى الأسبق وحشدوا جيوشهم وأساطيلهم لتأييد الخديوى وإصلاح الأمة، وما يعلم إلا الله ما كانوا يضمرون من السوء لأمة وادى النيل من منابعه إلى مصابّه.

(٥) جريدة الأخبار أسسها يوسف الخازن بالقاهرة سنة ١٨٩٦ م.

(٦) مجلة السعادة الأبدية: السنة ٢ العدد ١ ص ٣٣ (شوال ١٣٤٦هـ).

الإنجليز أثاروا ثائرة السودان على إخوانهم فى الدين والوطن « المصريين » ، ثم فصلوا السودان عن مصر وجعلوا السودان للسودان فى أيام غردون ومحمد أحمد ، فكانت ثائرة الفتنة مستعرة من الإنجليز فى زمن واحد فى مصر والسودان ، وهم الذين طالبوا الحكومة المصرية بإرجاع السودان لتفقد مصر خيرة شبابها وصفوة أموالها ، فكم قتل المصرى أخًا له سودانيًا يناديه : « أسألك بالدين والوطن » ، وكم قتل سودانيًا أخاه المصرى وهو يصيح بأعلى صوته : « بحق الدين والوطن » . ولكن الإنجليز يسعرون نار العداوة بما لديهم من قوة وبطش وخديعة .

لم تكن مصر والسودان خالية من عقلاء المفكرين الذين علموا آثار القوم فى الهند والنوير وكندا واستراليا ، ولكن كيد الإنجليز أعمى بصائر المغرورين بأمانيهم ، لم تنس مصر والسودان لذة الحرية والاستقلال والمساواة على أرض هى تراث آبائهم الكرام ، ونهر هو أبوهم وأمهم من قديم الزمان ، ولكن قاتل الله أهل الأطماع وقبّح الله أهل النفوس الدنيئة الذين صوروا أمة الإنجليز لأمة وادى النيل بصورة المصلحين ، وقد كنت طالبًا بالأزهر فى هذا الزمن ، فكنت لا أرى جريدة فى مصر إلا وعنوانات مقالاتها « مصر للمصريين والإنجليز رجال الإصلاح » ولا يزال من هؤلاء الدعاة رجال أحياء يرزقون ، ومنهم من يضرب على هذا الوتر غير هياب من غضب الأمة أو رضاها .

وإلى هنا أسأل النائب عن الإنجليز فى مصر : ما هو الحق الشرعى الذى لك سلبته الأمة المصرية حتى تنذرها بتلك الإنذارات التهديدية ؟ الجواب : لا حق لك . وإذا كان لا حق لك شرعًا ، فما السبب الذى جعلك تنذر وتهدد قومًا سلبت حقوقهم واغتصبت حريتهم ؟ مع ألأن الخلاق العظيم الملك المقتدر يأمر موسى وهارون عندما أرسلهما إلى فرعون قائلًا : ﴿فقولا له قولًا لينًا لعله يتذكر أو يخشى﴾[٧] ، وإذا كان ولابد أن تبطش بقوة دولتك وحولها ، فاعلن حربًا إنجليزية على مصر ، وارم بمطاراتك بيوت الحكومة واهدم بها كل بيوت الأمة جمعاء ، واجعل مصر استراليا الثانية ، وأرح المجتمع المصرى من هذا العناء .

المصريون يا عميد الإنجليز فى بلادهم آمنون لم تمد أيديهم إلى ما يملكه الإنجليز ، المصريون لم يحاربوكم فى بلادكم بل ولا فى مستعمراتكم ، فما الداعى لهذا الإنذار والتهديد ؟ أهل طلب مصرى منكم المعونة ، أو التجأ أجنبى إليكم من ظلم المصريين ؟ أم أن مصر من صحارى وسط أفريقيا كالنوير وغيره ؟ .

---

(٧) سورة طه آية ٤٤ .

صارحونا .. هل أمركم المسيح أن تبيدوا المصريين أو تدمروا بلادهم ؟ أنا أصارحكم : كل مصرى - لا فرق بين المسلم والنصرانى واليهودى - يأبى أن يكون مستعبدًا فى وطنه العزيز من المصريين ، فكيف يرضى أن يكون مستعبدًا للقوة القاهرة فى يد من لا يراعون عهدًا ولا ينشرون عدلاً ولا يحفظون ودًا ولا يساوون بأنفسهم أمة ذات قوة ومجد باذخ ؟ .

يا عميد الإنجليز : القلوب لا تُملك وإن ملكت الأجسام ، والنفوس التى فى المصريين لا تقهر وإن قهرت الأبدان ، فاحذر غائلة تلك الشدة فى الباطل ، واجمعوا القلوب والنفوس بالعدل والمساواة ، فأنتم المحتاجون إلى مصر ، والمصريون أغنياء عنكم ، فتداركوا الأمر قبل فواته فقد كاد البركان أن ينفجر ويتحقق المثل « المشادة تقطع الحبل ».

ويا فلذات أكبادنا « النشء »: أنتم أمة الغد ، والأعداء تعمل لقتلكم فى المستقبل بِمِذيٍ يضعونها فى أيدى صنائعهم ممن يقولون : اغننا اليوم وأفقرنا غدًا ، وإن يقظتكم قد هزت قلوب جميع المسلمين ، والمظاهرة يا أبنائى وإن دلت على أنكم محافظون على ثغور الوطن من أن يدخل عدو على أعناق من يخافون من القوة الغاشمة ويطمعون فيما يمنونهم به ، ولكننى مع استحسانى للمظاهرات السلمية أكره أن تتسلحوا بسلاح واحد ، وأدعو نفسى وإياكم إلى أن نحصن الوطن بسلاح أمضى من هذا وهو : سلاح المقاطعة التجارية والتعاونية لا الإضراب عن تحصيل ماينفعنا من العلوم والتجارات والصناعات ، وهذا السلاح الماضى يمكن كل مصرى من أن يطعن العدو فى أثمن عزيز لديه حتى يشترك الوزير على مكتبه والخفير فى دركه والجندى فى ميدانه ، أما المظاهرة يا أبنائى التى يصطدم فيها المصرى بالمصرى ، ونجدد للأعداء قوة بحجة تكون أجمل إذا شعرت الحكومة بما تشعر به الأمة ولم تصادر شباب الأمة الناهض إذا أظهر شعوره ، كفانا ما أريق من الدماء فى سبيل نجاة الوطن بسبب المظاهرات التى لم يقصد بها المصرى إظهار شعوره ، وبهذا يرجع إليكم الأعداء صاغرين ، ولا تظنوا يا أبنائى أن نار الغيرة هى شرف الحرية والمساواة والعدالة التى هى فوائد الاستقلال تطفأ من قلب كل مصرى مهما حاباه الأعداء ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم » .

وما أن بدأت المسيرة إلا وأملى الإمام مجموعة مقالات ظهرت فى الجرائد ، يحدد فيها الواجبات على كل فرد من أفراد الأمة سواء الزعماء أو الهيئات الحاكمة أو أفراد الأمة ، وهذه إحداها قال فيها رضى الله عنه فيما يختص بأفراد الأمة :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الواجب على كل فرد من أفراد الأمة[٨]

«قال عليه الصلاة والسلام: (كل واحد من المسلمين على ثغر من ثغور الإسلام، فإذا تهاون إخوانك فاشدد لئلا يدخل العدو من قبلك)[٩]. وهذا الحديث الشريف أوجب على كل مسلم كمال اليقظة بالشئون العامة بعد قيامه بالشئون الخاصة، فمن شغله شأنه الخاص عن شأنه العام أنزل نفسه فى الحضيض الأسفل حضيض البهائم السائمة وخرج من الإنسانية، فكيف يحكم على نفسه بالإسلام؟

سوّى الإسلام بين كل الأفراد، فالحاكم على عرشه لا حق له على أحقر محكوم إلا بالحق، وأذل محكوم لا يخاف إلا ذنبه ولا يرجو إلا ربه، وإنما الحاكم منفذ لأحكام الشريعة، فأعز المسلمين لديه أذلهم ما دام عليه حق، وأذلهم لديه أعزهم ما دام الحق له، والأمة بأفرادها لا بحكامها، وبقدر علم الأفراد بما لهم وما عليهم تكون سعادتهم وتمكينهم فى الأرض بالحق، والأمة هى التى تنوع الأحكام، فلو احتل أظلم الظلمة وطن أمة عالمة بحقوقها قهرته على التجمل بالعدالة والفضيلة، وإن احتل من تحلوا بأكمل الفضائل وطن أمة جاهلية أو متفرقة أو متصفة بالرذائل صيّرتهم بذلك ظلمة أشرارا.

فالواجب على كل فرد متفاوت بحسب حال الأمة أنه إذا تولى الأمة أهل الولاية العاملون لخيرها، تمتع كل فرد بالخير من الأمن، والوسعة فى الرزق، والعافية من البلايا، وخف الواجب على الأفراد، وإذا احتل العدو الوطن عظمت المسئولية على كل واحد من رجال الأمة، بحيث يتعين على كل فرد ما يناسبه من العمل، فإذا تهاون واحد منهم فوالى المحتلين أو سارع لخير شخصى أو كاد لأخيه الوطنى، فتح ثلمة فى حصن الأمة الحصين وثغرًا من ثغورها المنيعة يدخل منه العدو على الأمة وذلك بعمل واحد منهم.

وأمة يسعى رجل فيها لخير نفسه معتقدًا أن هذا الخير يضر الأمة، هو خائن لوطنه يجب أن يعاقب بحرمانه من الحقوق الوطنية ولو بلغ أرقى مقام فى الهيئة، لأن معظم النار من مستصغر الشرر، وهنا أضرب لك مثلًا يقرب الحقيقة:

ترى الغيور لوطنه المسارع لخلاصه من يد الغاصبين إذا لاحت له منفعة لنفسه

(٨) كتاب (الإمام محمد ماضى أبو العزائم) للأستاذ عبد المنعم محمد شقرف.

(٩) أبو داود وابن ماجة والدارمى ومالك فى الموطأ.

انقلب على الوطن فكان شرًا من الغاصبين عليه ، وترى الآخر يجتمع مع غيره فى أماكن الدعارة واللهو التى يديرها الأجانب فيجعلها ناديًا للآراء فيعين الأجنبى بمال الوطن ويكاشفه بالأسرار التى يريدها ، وترى غيره يحكم هواه وحظه فينفذ عملًا يضر الوطن بأجمعه ، ويزيد الطين بلة بعمل الانتقام ، وترى من يتشبه بالأجانب المشهورين بالغيرة لأوطانهم فيقوم ليعمل كعملهم جاهلًا أن دول أوروبا لديهم من الأسلحة والقوة ما به استقلوا واستعمروا واتحدوا علينا ، ونحن الآن فى حاجة إلى تكوين الأمة وإصلاح ذات بينها وبيان السبل الموصلة إلى نجاح المقصد فيضر من حيث يعتقد النفع .

فإلى كل واحد من أفراد الأمة أقدم نصيحتى : أنت أيها الأخ عضو من جسد الأمة عامل لنفسك ولها ، فالأمة فى حاجة إلى صحتك وعافيتك لتعينها ، وأنت فى حاجة إلى الأمة القوية المنيعة لتنال بها العزة ، فالواجب عليك أن تقدم خير الأمة على خيرك الخاص ، وألا تقدم على عمل من أعمال العامة إلا بعد أخذ رأى أهل المشورة والحكمة والتجارب ليكون عملك منتجًا للخير العام والخاص ، إذ ليس الشجاع من قهر أقرانه ، إنما الشجاع من قهر نفسه لتكون نفسًا فاضلة عاملة للخير ، وليس الوطنى من دفعته غيرته فعمل على ما يضر الأمة ويمكن الأعداء ، وإنما الوطنى من عمل الخير لأمته ودفع شر الأعداء بالحكمة .

وخير وسيلة لنيل الخير أن يثق كل فرد من الأمة بنفسه معتقدًا أنه جندى من جنود الوطن ، فيضع نفسه حيث يكون الخير للأمة ، فإن كان من أهل الشورى فمعهم ، وإن كان من أهل التنفيذ فمعهم ، وإن كان من العمال الذين يجب عليهم ملازمة أعمالهم الضرورية للأمة لزم أعماله من زراعة أو صناعة أو حرفة أو تجارة . والفساد إنما يحصل بقيام كل واحد بعمل ما لا يحسن وترك ما لابد منه .

وأهم ما يجب علينا الآن عمله : تكوين الأمة حتى تكون جسدًا واحدًا ، ويكون كل فرد منها ككل عضو فى الجسد ، وبذلك تقهر أعداءها ولو اجتمع عليها كل من بأقطار الأرض ، وأمة لم تعلمها الضرورة فلتتبوأ مقعدها من الذل ، ومتى سعت الأمة إلى إصلاح ذات البين وعلم كل واحد منها ما يجب عليه فعمله ، رقت وعزت .

وقد بينت بيانًا للزعماء ، وللأمة جمعاء ، وللهيئة الحاكمة .. وهذا بيان للأفراد ، ومتى صلح الأفراد صلح المجتمع ، والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا » .

وكان الكثير يسأل الإمام قائلًا : سل ربك أن ينجينا فى قضيتنا لننال الاستقلال التام متمتعين فى ظل الحرية والإرادة ، فكان الإمام يقول لهم : يقول الله تعالى : ﴿ ومن يتق

الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[١٠] ، وكان يقول لهم : اتقوا الله يا أبنائى وارجعوا إليه فإن الله تعالى يقول : ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾[١١] ؟

إن القضية بالنسبة للإمام هى قضية التقوى ، وعلى قدر ما يكتسبه المجتمع من تقوى على قدر ما يكشف الله به الغمة عن الأمة ، وها هى بعض النصائح الدينية التى تبين لنا حقيقة الدور الذى قام به فى وعظ الأمة وإرشادها .

حصِّنوا المجتمع بالفضائل الدينية [١٢]

« معلوم أن الحرب قائمة بين الحق والباطل من لدن خلق آدم . حارب إبليس آدم فى الجنة حتى أهبطه الله منها ، وقد وهب سبحانه وتعالى للإنسان عقلًا يعقل ، وجعل له حدًا محدودًا لا يتعداه ، وركب فى الإنسان من القوة الباعثة على الشرور الداعية للمفاسد ما لو ترك الإنسان وشأنه لألقته فى الدرك الأسفل من النار فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فيما يصيبه من الآلام والبلايا بسبب الحسد والطمع والحرص ، وأما فى الآخرة فبالعذاب الذى يستحقه لمخالفته للدين واتباعه لهواه .

والحكمة فى أن الله خلق للإنسان العقل أنه سبحانه أهله للسعادتين ، فالعقل يعقل بدائع إبداع صنع الله فى هذا الكون الجلى ، فإذا جاهد الإنسان النفوس بالعقل حتى صارت وسطًا مُتَّبعة للدين فاز بالسعادتين ونال الخيرين ، وإذا أهمل العقل وانقاد لحظوظ النفس باء بالعناء فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وكلنا نعلم أن الأمم قبل الإسلام كانت بين جاهلية عمياء أو أمم فاسقة أو أمم بدلت الفضائل بالرذائل وهى المبدّلة .

حتى ظهر الإسلام فعم السلام ، حفظت الدماء إلا دم أهرقه الشرع والعقل ، حفظت الأعراض غيرة للشرع وحفظًا للشرف وخوفًا من فضيحة الدنيا وعذاب الآخرة ، حفظت الأموال من أن تتطاول إليها الأيدى الأثيمة فيقطعها الشرع ، حفظت العافية من سلبها بالخمور والحشيش والأفيون خوفًا من سلب الحياة بالحدود الشرعية ، سجنت

(١٠) سورة الطلاق آية ٢ ، ٣ .

(١١) سورة آل عمران آية ١٢٦ .

(١٢) المقالة الافتتاحية لجريدة الجمهور ١٧ نوفمبر ١٩٢٣ الموافق ٨ ربيع الآخر ١٣٤٢ هـ .

النفوس الظلومة فى الأجسام خوفًا من سطوة الشرع وانتقامه برجال الغيرة المنفذين له .

عاشت الأمم فى ظل الإسلام فى سلام من سفك الدماء وسلب الأموال وهتك الأعراض ومن امتياز بعض الناس على بعض ، لا فرق بين المسلم وأهل ذمة الله ورسوله فى هذا الخير العام ، حتى أغضب المسلمون ربهم وخالفوا وصايا النبى ﷺ ، وترك العلماء والوعاظ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حتى عم الخطب وصار العالِمُ يقف على أبواب الأمراء والحكام ملتمسًا زيادة مرتبه أو مضرة نظيره أو الظهور فى الدنيا ، وصار الواعظ يتخذ الوعظ سبيلًا لجمع حطام الدنيا وللشهرة فيها ، مرض العلماء والوعاظ فصاروا أضر على الأمة من حمقاها ، وليس العلم ما به الوجاهة ورفعة المنزلة بين الناس ، إنما العلم ما به الخشية من الله والغيرة لدينه والمسارعة إلى محاب الله ومراضيه .

عجز العقل عن وضع الأنظمة التى يعيش بها العالم فى سلام وأمان فى الدنيا ويفوز بالمسرات الباقية يوم القيامة ، وتحقق أنه لا يكون إلا بدين سماوى يأتينا به رسول من عند الله تعالى يقبله العقل ويرضاه يُخرج الإنسان من الأخلاق الإبليسية والشهوات البهيمية والأطماع الإنسانية حتى يكون المجتمع كالجسد الواحد يعمل كل فرد للمجتمع ويعمل المجتمع لكل فرد ، ولا يكون هذا الخير إلا بوازع دينى يقهر القلوب خوفًا من علّام الغيوب ، ويقهر الأجسام بتنفيذ الحدود فى جلد وقتل ليستريح العالم من الظلم والتظالم والبغى ، وقد جمع الإسلام من الآيات التى خشعت لها القلوب وزكت بها النفوس ، ومن الأحكام ما علت بها الأجسام وضعفت الأوهام .

ولا سبيل إلى السلام والسعادة إلا بالرجوع لأحكام الإسلام ، فقد أنتج إهمال إقامة حدود الله ظهور الفساد فى البر والبحر ، فأصبح المجتمع الإنسانى كمجتمع وحوش فى غابة تعيش فيها الحيوانات ضعيفة ، فكيف تكون حالة تلك الحيوانات مع الوحوش الكاسرة ؟!! لا شك أنها ستكون شرًا من مجتمعات الجاهلية ، لأن الإنسان فى الجاهلية كان محافظًا على بعض الفضائل كالكرم والنجدة والإغاثة وحفظ الجوار ، وكان لتلك الفضائل رجال حمس .

وأصبح الناس وقد تركوا دينهم فتقهقروا إلى ذل الجهل وخزى الإباحة ، وابتلوا بالحسد ونسيان يوم القيامة ، فألفوا ما ينفر منه الحيوانات من فعل المنكر فانتشر الزنا بينهم علنًا وهو أرذل الرذائل فاعتادوا عليه ، وانتشر الخمر وهو أفسد المفاسد فسارعوا إليه ، وجعلوا الحانات وبيوت العهارة أندية للسمر ومجالس يفتخر بها من خسر الدين

والدنيا ، تركوا الدين فوكلهم الله إلى أنفسهم فصاروا عبيدًا لمن كانوا لهم تبعًا ، سُلب منهم المجد فرضوا بالخزى ، وسلبت السيادة فرضوا بالذل ، ثم سلب المال فوقفوا على أبواب من كانوا يقفون على أبوابهم .

أين هذا المجد أيام تمسكنا بديننا ؟ وأين هذا الشرف والعز أيام عملنا بسنة نبينا ؟ أين تلك الغيرة على الأعراض أيام كانت الأمم تضرب بنا الأمثال ؟ كيف يرضى المسلم أن يرى بيوت العهارة وفيها الفتيات المسلمات يدخل عليهن من يعلمهن وفيهن قريبته لأمه أو لأبيه أو لدينه ؟

لنفرض أن الحكومة جعلت عليها حرسًا ورخصت لهن فى هذا العمل ، فهل الحكومة أوجبت على المسلم أن يدنس دينه وعرضه وشرفه ويرجع بالجذام رغم أنفه ؟ الإنسان له بصيرة على نفسه ، فالحكومة رخَّصت للباغية والقرآن حرّم الزنا ، ورخصت لأصحاب الحانات والشريعة حرمت الخمر ، وجعلت حرسًا على بيوت الزنا والحانات ، فهل تطيع الحكومة وتخالف دينك ؟ يُغضب ربه الزانى والسكير والذى يتناول السموم من الخمر والحشيش والكوكايين ويغضب النبى ﷺ ، ويقتل نفسه بالزهرى والسيلان والسموم التى يتناولها وينشر أرذل الرذائل بعمله فى أقاربه ، لأن الفتيات إذا خدعهن الغربى وجيوشه فمن الذى خدعك أيها الشاب المسلم وخصوصًا المتربى ؟!! وأنت تعلم شرور هذا العمل أيها المخالف لدينك .

أما تتقى الله وتحفظ صحتك وتحصن شرفك بين قومك وتدفع المصائب عن أمتك وتغار لأقاربك ، أما الفضائل فهجرتها ، وأما الرذائل فعملتها وأيدتها ، وقد آن لك أن تنظر بعين البصيرة إلى مستقبلك ، فإن دوام الفجور يؤدى بالإنسان إلى الهوان والخزى فى الدنيا والعذاب فى الآخرة ، وقد قامت الحجة على تلك الحقيقة وظهرت لك الحجة التى بسيرك عليها تفوز بالخيرين وتسعد فى الدارين ، فارحم نفسك وارجع إلى العمل بالدين ولا تنظر إلى أوربا التى تركت الدين ، فإنهم تركوا دينهم وعملوا بحظهم فى الدنيا فظفروا بالعاجلة .

وما تركوا دينهم إلا لأن العقول أنكرته ، والمسلمون قلدوا أوربا فى ترك الدين والعمل بأحكامه من غير بصيرة ، فتركوا الحق الجلى الذى سجدت له العقول وبه مكّن الله لنا فى الأرض ، فذلوا واستعبدهم العدو ، ودين يتركه أهله فذلوا للأعداء حق عليهم بل يجب عليهم الرجوع إليه .

الصلاة طهارة ورياضة وعبادة ، والصيام تزكية للنفوس وطهرة للأخلاق وصحة

للأبدان وتشبه بالأطهار من عُمار السماوات وعبادة لله ، والزكاة رحمة بالفقراء وتبرئة من البخل وجمع للقلوب على مساعدتك - ولو بالدعاء - وحصون حفظ مالك ودمك وعرضك من الآفات وعبادة لله ، والعقيدة التى هى توحيد الله وتنزيهه عن النظير والند والوالد والولد تكسبك عزًا ومجدًا ومسرة فى الدنيا والآخرة وعلوًا حتى لا ترى فوقك إلا ربك ، وترى العالم أجمع عبيدًا مخلوقين لا فضل لأبيض على أسود إلا بالتقوى .

ارجع للعمل بدينك أيها المسلم تفز بما فاز به سلفك الصالح من التمكين فى الأرض بالحق ، ومن العزة بالحق ، ومن الحياة الطيبة فى سلام وأمان ونعمة وإحسان .. والله ولينا جميعًا » .

الدين النصيحة (١٣)
إلى الأمة المصرية الكريمة وزعمائها

« الحق واحد ولكنه خفى على من غلبه الحظ ، فإن العقل والشهوة ضدان ، فقد تتغلب الشهوة على العقل فتجعل الباطل حقًا والحق باطلًا ، حتى يكون العامل يضر نفسه وأمته وهو يعتقد أنه ينفع .

وللأمة حق وللزعماء حق

* وحق الأمة على الزعماء :

١ - أن يستمدوا منها القوة ، وأمة تمنح قوتها للزعماء يعملون ما يشاءون من غير مشورتها وإرادتها أمة لا يُعبأ بها ولا تنال مقصدها .

٢ - أن تراقب أعمالهم فيما يتعلق بقضيتها ، فلا تمنح ثقتها فى كل عمل إلا بعد أن يتبين لها أن الزعماء يعملون لخيرها بأسلوب منتج للخير المطلوب مع الشجاعة التى تجعلهم يؤثرون الأمة على أنفسهم .

٣ - الضرب على أيدى المفسدين الساعين فى التفرقة مهما كانت منزلتهم أدبًا لهم وإنذارًا لغيرهم من أمثالهم .

---

(١٣) جريدة الوطن ، العدد ٩٠٥٤، ١٣ شعبان ١٣٤٣ الموافق ١٨ مارس ١٩٢٥، ص ١ ع ٦ (أسسها ميخائيل عبد السيد بالقاهرة سنة ١٨٧٧) .

* وللزعماء حق على الأمة وهو :

١ – تشجيعهم بالقول والعمل إذا أخلصوا للأمة .

٢ – تنفيذ آرائهم إذا كانت لصالح الوطن .

٣ – دفع كل معتد عليهم مهما كانت منزلته .

٤ – ستر عوراتهم التى ليسوا معصومين عن الوقوع فيها لأنهم ليسوا أنبياء .

٥ – المسارعة إلى نصيحتهم بأسلوب الحكيم .

٦ – مصادرة كل من يشيع عنهم ما ينفرهم .

وهنا يجب البيان كل البيان : كلنا نعلم أننا إنما وثقنا بالزعماء لننال الخير لأنفسنا ولهم ، فإذا آثر الزعماء أنفسهم علينا وجب علينا أن نسلب الثقة منهم ونقوم للعمل لأنفسنا بأنفسنا ، فإن الأمة إذا اجتمعت قهرت كل عدو ولو اجتمع عليها من أقطارها .

وخير الزعماء من كان أول عمله إصلاح ذات البين ، وإعطاء كل ذى حق حقه حتى تكون الأمة كالجسد الواحد يحيط بالقلب ، والعقل هو صاحب العرش ، والأمة جمعاء هى أعضاء الجسد كل فرد منها ككل عضو من الجسد ، ولا تنال الأمة هذا المقام الذى يجعلها مهيبة عند أعدائها إلا بالتمسك بالدين والعمل به ليكون سلطان الدين قويًا على القلوب يدفعها إلى الخير ، ومتى اجتمعت قوة الدين على القلوب وعلى الأجسام ظفرت الأمة بالخير العاجل وبالسعادة فى جوار الأطهار من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .. والله ولى المؤمنين » .

وقد جاء فى خطاب أرسله الإمام رضى الله عنه **إلى سعد زغلول يناصره ويشحذ من همته وينفث فيه روح الإيمان طالبًا منه أن يلم شمل الأمة ويجمع كلمتها :**

« تعلم أيها المجاهد الكبير أن قدر الرجال بنتائج أعمالهم لا بآمالهم ، وبقدر تأثير النفوس لتزكو وتتعاون على الخير لا بقدر ما ينالون من العلو والحظ ، إنك يا أخى قد أظهرك الله فى وقت اقتضت أحداثه أن يكون كل مصرى جنديًا يمد يده إلى قائد قوى الإيمان يأتى بما يستوحش منه أهل الأهواء ، صغرت فى عينه المناصب وإن جلت ، واحتقر الحمد على من لم ينل ، وإنا لنعلم منك الإقبال فى وقت الفزع والتمسك بمعالى الأمور والغيرة للحق ، ونعلم أن الأمة تحققت ذلك عن يقين ، وإنك يا دولة الرئيس تعتقد أن كل مصرى حريص أن يعيش حرًا مستقلاً وقد ضحى فى سبيل ذلك بالنفس والمال والولد ، وإنما هى الأخلاق تجمع إن أحسنت وتفرق إذا ساءت ، وقد قال تعالى : ﴿ ادفع

بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولئ حميم﴾[١٤].

وإنى أشكر الله على ما أغاثنا به فى هذا الوقت الحرج من الصفاء بعد الجفاء والتناصر بعد التخاذل ، وأشكركم يا دولة الرئيس على الحجة التى أقمتموها لأنفسكم بالمسارعة إلى ما به صحة الجسد المصرى ، وأرجوكم بعد أن ظهرت لكم نتيجة جمع كلمة الأمة أن تداووا بقية أعضاء هذا الجسد المبارك حتى تعم المسرة كل بيت بوادى النيل ، بل يسرى السرور إلى كل أمة إسلامية وشرقية ، ويسرى إلى سلفنا الصالح فى روضاته كى ننال بهذا العمل المبرور رضوان ربنا جل جلاله وسعادتنا فى هذا الزمن وخيرات أبنائنا من بعدنا فى المستقبل ، والأمر سهل على رجل عظيم مثلك وجّه وجهه لإنقاذ وطنه وأمته من وحلة الاستعباد وظلمة الاستبداد .. والله داعيًا أن يطيل عمرك عاملًا للخير داعيًا إليه » .

الحالة الحزبية فى مصر

انتهت ثورة ١٩١٩ م ، وأفرجت بريطانيا عن سعد وصحبه ، وأصدرت تصريح فبراير ١٩٢٢م تمنح به مصر استقلالها الذاتي مع تحفظات أربعة ، وإقامة حكم نيابى ديمقراطى ومنح الملك شعبه دستور ١٩٢٣م . وأسرع السياسيون إلى إنشاء أحزاب سياسية كانت نكبة سياسية على البلاد حيث فتتت وحدتها وبددت كلمتها بعد اتحادها فى ١٩١٩م ووزعتها طوائف متنافرة مختلفة فيما بينها ، متفقة على إرضاء المستعمرين ولو على حساب الشعب ومصيره ومقدراته ، وظلت الأحزاب تتطاحن وتتناطح وتتنافر لمصلحة الاحتلال ، وسعدت بريطانيا بهذا وتركتهم بعضهم يموج فى بعض ، وتجاوزت الخصومات الحد فى التطاول على الأعراض والحرمات .

وهذه مقالة تبين مدى انفعاله رضى الله عنه **مع أحداث الوقت ، وفيها ينصح الأمة بالإدلاء بأصواتهم لمن يستحق تمثيلهم :**

انتخبوا أهل الغيرة والحكمة[١٥]

« الأمة محتلة بالأعداء يفعلون بها ما يشاءون ، والنفوس مجبولة على التأثر بالخوف

(١٤) سورة فصلت آية ٣٤ .

(١٥) المقالة الافتتاحية بجريدة الوطن : العدد ٩٠٠٢ (١٦ جمادى الآخر ١٣٤٣ هـ الموافق ١٩٢٥/١/١١ م) .

والرجاء ، والأعداء بيدهم كل شيء يطمعون ولا يخافون لأنهم تمكنوا من تفرقة الأمة حتى صار بعضها يحارب بعضًا شأن من يجهل مقتضى الوقت .

الأعداء يعلمون أن الأمة ليس بيد أفرادها أسلحة ، وليس لها إلا القوة المعنوية وهى اتحاد الأمة على العمل لنيل استقلالها وإجلاء عدوها ، ولو علم الإنجليز أن الأمة تتحد ما منحتها الحرية فى الانتخاب وتشكيل مجلس الشورى ، ولكن اليد التى منحت عملت عملًا جعلت تلك المنحة شرًا على الأمة .

وقد آن للأمة ، وأخاطب الهيئة المحكومة ، أن تعمل لنفسها بنفسها عمل من يأمل الحياة فى أمن وعافية ووسعة فى الرزق وكفاها تجارب ، قلت كثيرًا إن الحكومة الآن كالبرزخ بين الأمة وأعدائها ، لا يمكنها أن تقف موقف الشدة أمام عدو قوى عززته الأساطيل والجيوش ، فنزعت الرحمة من قلبه ، لا يرحم إنسانًا ولا يرضى إلا باستعباد غيره ، فالحكومة إن تمسكت بمداراة الأعداء فذلك لعلمها بواجب الوقت ، ولكن الأمة هى وحدها هى التى يمكنها أن توقف الأعداء عند حدهم بانتخابها أهل الغيرة والحكمة الذين يمثلونها وتكون من ورائهم منفذة لآرائهم لما علمته منهم من إيثارها على أنفسهم ومن التفانى فى نيلها الخير .

ونحن الآن فى غنى عن غيور لا حكمة عنده ، وعن حكيم لا غيرة له ، والطبيب إذا جرب دواء فلم يعد بالعافية عدل عنه إلى غيره ، والواجب علينا أن نخلص فى العمل ونترك العواطف وراء ظهورنا وننظر بعين ملؤها الحذر ، فلا نضع ثقتنا إلا فيمن تقوم له الحجة على أنه الرجل الحكيم الغيور الذى يرد الأعداء بحكمته ويقهرهم بغيرته ، فلا يجبن فى وقت الشجاعة ولا يشدد فى وقت اللين ، وفى مثل تلك الظروف يجب أن نقف عند الحق لأننا فى ميدان جهاد بالرأى ، وكم من موثوق به خارت عزيمته فى مثل هذا الميدان ، وإنما مجلس الشورى رجال قليلون بالنسبة للأمة ، فإذا انتخبنا بالعواطف وسعى كل فرد لنفعه الخاص كان ما لا تحبه الأمة .

أنا لا أشك أن الحكومة ضيقت دائرة الانتخاب بتقدير المائة والخمسين جنيهًا ، وحرمت الأمة من كثير من أهل الرأى والسداد والحكمة والغيرة ، إلا أن الأمة يمكنها أن تتحرى انتخاب أهل الإخلاص والتقوى الذين إن لم يمنعهم عن الدنيا نسبهم يمنعهم التقى والخشية من الله تعالى والحرص على خير الأمة ، يجب على الناخب أن ينتخب من تطهر من حب الانتقام ، ومن الطمع فى مال غيره ، ومن التساهل بدينه ووطنه ، ولم يثبت عليه ما يشينه حتى تطمئن الأمة بنوابها ويخشاهم العدو ولا يخشونه .. والعاقبة

للمتقين » .

وكان سعد زغلول شديدًا جدًا فى خصومته الحزبية ، فلم يترك الإمام نصحه ، وإنما أرسل رسالة خاصة تتناول هذا المعنى يقول له فيها :

« .... تذكر عند زيارتى لكم أنى طلبت منك أن تعفو عمن ظلمك ، وأن تحسن إلى من أساء إليك – وكان ذلك قبل سفرك إلى سيشل ببضعة أيام – فأجبتنى قائلًا : أنا لا أملك العقوبة فكيف أملك العفو؟ فأخبرتك أن الله سيقدر لك ملك العقوبة والعفو، فأجبتنى : لديها أفعل ما تحب ، وكان معك النقراشى فدعوت لكما وانصرفت .

والآن وقد أقامكم الله مقامًا ، يجب عليكم أن تشكروا من تفضل عليكم به ، بالعفو والإحسان إلى خلقه ، خصوصًا والشأن يهم الجميع والله تعالى يقول : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى﴾[١٦] ويقول : ﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾[١٧].. وإنى أسأل الله أن يشرح صدركم إلى ما به الظفر بقضيتنا ، وتقبل نصيحة من رجل يحب لك الخير فى الدنيا وحسن الأحدوثة ، بعدها والنعيم المقيم يوم القيامة » .

ثم قدّم الإمام النصح والإرشاد لكل الزعماء بدءًا من سعد زغلول فقال[١٨] :

«قال ﷺ : (لا تزال أمتى بخير ما وقّر صغيرهم كبيرهم ، ورحم كبيرهم صغيرهم)[١٩] هذا الحديث هو الأصل ، الذى بالعمل به تكون الأمة كالجسد الواحد الصحيح القوى ، ومتى احتقر الصغير الكبير وظلم الكبير الصغير ، تفرقت الأمة وضعفت وتمكن منها عدوها .

فإلى رجال الحكومة : إنكم أفراد من الأمة ، وإن ما تمتعتم به من نفوذ الكلمة ومن واسع النعمة ومن الجاه والعزة ، إنما بالأمة ومنها ، فإذا عاديتم الأمة وهى مصدر هذا الخير لكم وأرهبتموها بالحديد والنار قتلتم نفوسًا أنتم فى حاجة إليها ، وأضعتم ثقة من القلوب لا غنى لكم عنها ، وفتحتم على الأمة أبواب الشرور من الجبن والعمل على

---

(١٦) سورة المائدة آية ٢ .

(١٧) سورة الأعراف آية ١٩٩ .

(١٨) المقالة الافتتاحية بجريدة الأخبار فى نوفمبر ١٩٢٥م الموافق جمادى الأولى ١٣٤٤ هـ .

(١٩) رواه أحمد والحاكم بلفظ : [ليس منا من لم يجل كبيرنا ويرحم صغيرنا ويعرف لعالمنا حقه] ، ورواه الطبرانى فى الكبير بلفظ : [البركة فى أكابرنا ، فمن لم يرحم صغيرنا ويجل كبيرنا فليس منا] ، ورواه أبو داود بلفظ : [ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا] ، والترمذى بلفظ : [ويعرف شرف كبيرنا] .

نيل السلامة منكم بالمكر والخديعة، فيهملوا الواجب عليهم من التعليم والتجارة والصناعة والزراعة، ويخرج بعضهم على بعض فيتفرقوا شيعًا وأحزابًا، وهنا تحدث الطامة الكبرى وهى: إما غضب القهار المنتقم فيسلب الحكم من أهله، وإما تسليط العدو الغاصب على الحكومة أولًا وبالذات، فيصير الحكام بعد العزة أذلاء، وبعد القوة ضعفاء، وبعد الغنى فقراء، وتصبح الأمة مستعبدة بعد الحرية، مملوكة بالأعداء بعد أن كانت مالكة، وهذا هو نتيجة محاربة الحكومة للأمة، وليست الممالك التى انهارت والأمم التى اندرست إلا بسبب هذه المظالم.

وبعد أن خاطب العلماء، وخاطب طلبة العلم، والتجار، والعمال والصناع، خاطب رجال الأمة جميعًا فقال:

يا رجال الأمة جميعًا: إن تقليد أوربا فى النظم التى وصلت إليها بعد قرون طويلة قلدت فيها سلفنا الصالح رضى الله عنهم حتى نالت ما هى فيه الآن، تقليدنا إياهم هذا فى الاختلافات الحزبية سبب الانحطاط، لأننا فى حاجة إلى تكوين قوميتنا بالاتحاد وإلى حفظ ثروتنا بما ينميها لنا من رقى الصناعة وتقدم التجارة والعناية بالزراعة حتى تكون الأمة غنية بما لديها من أسباب السعادة لا تحتاج معها إلى الأجانب فى كل أمر من أمورها، انظروا إلى ما آل إليه حالكم، لقد أصبحتم أحزابًا تتطاحنون مع أن القصد واحد، وإنما الاختلاف لا سبب له إلا الطمع.

أوربا كثرت فيها الأحزاب، ولكن لكل حزب مقصدا خاصًا به كحزب أصحاب رءوس الأموال وحزب الصناع وحزب العمال، ولقد قلد الأتراك أوربا ولكن بعد أن فازوا بالحرية والاستقلال وإذلال أعدائهم.

الأحزاب أحزان فى أمة تجاهد لدفع العدو الغاصب، والتفرقة فى أمة لا قوة لها على دفع عدوها الرابض فى عقر دارها هى موت أبدى، فليُضحِ كل فرد من الأمة بكل رخيص وغال لنيل الخير العام، وليحقر كل رجل ما يناله منَ الجاه والسلطان الذى يكون فيه ذله وذل أمته».

وسبق أن أشار الإمام رضوان الله عليه إلى ثورة ١٩١٩ بأبيات نظمية ترجع إلى عام ١٩١٢م وقت أن كان بالخرطوم، ثم تصويره لأعقابها وإشاراته إلى من يأتى ليحمل مسئولية تحرير هذا الشعب، ليجعلنا نتمثل أنه يعيش الآن بين ظهرانينا ليشهد تحقق مقالاته التى تعد ترجمة صادقة عن غيب مصون كما كان يقول رضى الله عنه، وعندما

دعى الإمام رضى الله عنه سعدًا وصحبه إلى الائتلاف عام ١٩٢٧، وركز بالذات على سعد، وتحقق ذلك فى عام ١٩٣٦ بتوقيع معاهدة مع بريطانيا، سأله الشيخ أحمد السبكى المحامى عما إذا كان هذا الائتلاف هو ما دعا إليه الإمام فى أبياته فقال: إن هذا ليس ائتلافًا وإنما هو رضوخ لإرادة المحتل الغاصب وإذعان له وامتهان لكرامة الأمة وضياع لتضحياتها ودمائها الغالية واستسلام مهين من قادتها وزعمائها، وإنما الائتلاف سيكون بالقضاء نهائيًا على الحزبية البغيضة واندماج الأمة فى وحدة تحقق لها أهدافها.

ومات سعد[٢٠]، وظل الإمام فى نصحه وإرشاده للأمة وزعمائها:

إلى الأمة المصرية[٢١]

«قائد الجيش، وربان السفينة، والطبيب الاختصاصى ووصىّ الأيتام.. عليهم واجبات تتفاوت بقدر ما ينتج من عنايتهم أو إهمالهم، ولكن فوق تلك المسئولية مسئولية الزعيم الذى ملك القلوب فجعلها تقتدى به اقتداء الواثق المطمئن، فإن الزعيم يجب أن يكون قادرًا على توحيد الصفوف عند تحقق الخطر، وأن يكون يقظًا كل اليقظة نحو ما يصدع صفوف الأمة ويفرقها أيدى سبأ، وتكون المسئولية أعظم إذا كانت الأمة تواجه عدوها، وتشتد المسئولية إذا جاس العدو خلال ديارها وغمز قوة ارتباطها فطعن فى دينها، فإنه القوة الحساسة التى تدل على حياة الأمة أو موتها، فإذا كان العدو جاس خلال الديار وطعن فى الدين - لا أقول طعن فى الإسلام فقط بل طعن فى كل دين سماوى - فهنا يجب أن يكون الزعيم كيعسوب النحل، يحرص على جمع الكلمة، ولم الشعث، والمسارعة إلى إصلاح ذات البين، لا يخرجه غضبه عن التضحية بنفسه فى سبيل حياة الأمة التى اختارته، ولا يدفعه رضاه إلى الخنوع للعاطفة فيفسد القلوب ويجعل الأمة متفرقة.

نحن لا نشك أن كل زعيم يتمنى نيل الأمة الخير على يديه، فيبذل ما فى وسعه لذلك. لا أقول هذا القول جزافًا لأنى أعلم أن الزعماء الذين رفعت الأمة شأنهم بنفسها لم تكن الأمة لاعبة ولا هازلة، ولكن البلاء كل البلاء من خصال ثلاث:

أولها: شح الزعيم بما ناله من المجد أن يضيع منه، فيعادى من واجهه بالنصيحة

(٢٠) توفى سعد زغلول سنة ١٩٢٧، وخلفه مصطفى النحاس فى رئاسة حزب الوفد.

(٢١) المقالة الافتتاحية بجريدة السياسة الصادرة بتاريخ ١٩٢٨/٦/٣٠م الموافق ١٢ محرم ١٣٤٧ هـ.

ويحارب من طالبه بالقيام بما عاهد الأمة عليه.

والخصلة الثانية: إعجاب كل زعيم برأيه فيخاصم أهل الآراء المخالفة له ولو كانوا على الحق، ويهرع معه أنصاره فيصيحون ويصخبون من غير بصيرة فى الأمر ولا عبرة بالأحداث.

والخصلة الثالثة: اتباع الهوى، والهوى أخو العمى، ومن اتبع هواه فى هوة الخزى أرداه، ومن لم يضح بالمال والجاه ليدفع عن الأمة شر تمكين الأعداء كان ماله وجاهه عليه وبالًا.

إلى الأمة الكريمة: إنك تجاهدين، فإذا أنالك الله الخير بجهادك كان أوفر قسط منه للزعماء، وليس الزعماء معصومين، أو ممن ربتهم مصر فى معهد علمى خاص بتربية الزعماء، وإنما هم رجال ولدتهم الأحداث العظام، والأمة ضحت فى سبيل رفعتها بقناطير من الدماء الغالية والمهج العزيزة ليجمعوا الأمة على المطالبة بحقها والعمل بإشارات أولياء أمورها العاملين للخير العام، فإذا أخطأ رجل يجب أن تستر الأمة خطيئته محافظة منها على وحدتها حتى تتجاوز هذا الخندق الخطر، وإن أحسن رجل فيها يجب ألا تتغالى فى مدحه خوفًا عليه من أن يدفعه الزهو إلى الوقوع فى خطأ يوقع الأمة فيما لا ترضاه بل تنتظر عليه حتى يصفى الحساب.

والعاملون المخلصون للأمة هم الذين تضمحل فى أعينهم الأموال والرتب ليجعلوا الأمة كالجسد الواحد فيكونوا كالأطباء الرحماء الذين يعالجون أمراض الأخلاق وأدواء النفوس ويحصنون الأمة بحصون الحيطة، والتحفظ من انتشار الأمراض الممزقة لجسد الأمة كما يفعل رجال الصحة إذا علموا بانتشار مرض مُعْدٍ فى بلد ما. ورُب زعيم يسره قهر فئة من الأمة لمخالفتهم له، فهو كالأحمق الذى يقطع يده بيده الأخرى، خصوصًا أن الأمة المصرية الآن عزلاء، وقد أصبح أمضى سلاح لها أن تكون كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وبذلك ترسو سفينة الأمة على جُودى السلامة.

وعلى الأمة أن تعلم أن مصر ليس لها عدو أنكى بها من: مصرى يؤثر نفسه على مصلحتها فى وقت الفزع الأكبر، وهؤلاء هم الذين يمكنون الأعداء منا، فلنتدارك نحن أفراد الأمة، فنتحفظ من كل ما يسعى لتفرقتنا، قال حكيم: عدو عاقل خير من صديق جاهل. ولا يريد الحكيم بالصديق الجاهل كل من لم يتعلم أو من لم ينل شهادة عالية، ولكنه يريد بالحبيب الجاهل: الذى يقصد أن ينفع فيضر، وذلك واقع فى الأفراد. وقد يكون لك حبيب مخلص فى محبتك مغالٍ فى ودك فيضر من حيث يعتقد أنه ينفع لجهله

بالوسائل المنتجة للخير، وكم من عالم حصّل أمثال الجبال علمًا وهو يسارع فى إهلاك نفسه بمخالفة علمه حرصًا على ما يفنى زهدًا فى ما يبقى - قال تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[٢٢]».

النصيحة أغلى ما يباع ويوهب
(إلى الأمة المصرية الكريمة .. إلى الزعماء .. إلى الأحزاب)[٢٣]

«المقصود واحد، والوسيلة لنيله محصورة فى نوعين عظيمين بهما فاز المجاهدون من قبل، وكل مجتمع تعداهما فشل وذهب ريحه:

أولهما: تنوع أفكار الأمة بأحقية مطلبها حتى يحس كل فرد من أفرادها بما فقده من الخير العام الذى له فيه قسط وافر ولكل إخوته أفراد الأمة مثله من الخير، متحققًا أنه لا يناله حظ من ذلك الخير إلا بالتعاون والتعاضد وبإيثار جميع أفراد الأمة على نفسه حبًا فى الخير العام، معتقدًا أن كل خير ناله فى سبيل جهاده لم يشاركه فيه غيره يعد خيانة تؤدى إلى تفرقة المجتمع وخروج بعضه على بعض، وكل زعيم أو مجاهد آثر نفسه على نظرائه أو على الأمة فتح ثغر من ثغور الوطن لأعدائه أو للفتن - قال سبحانه يمدح الأنصار: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[٢٤]. وصحائف التاريخ مفعمة بآثار أفراد الرجال الذين نهضوا بالأمم ورفعوها إلى مستوى السعادة العظمى، ومن الخيانة الكبرى عدم معاونة من يؤثر على نفسه.

أما النوع الثانى: فهو قيام الأمة متحدة لتنفيذ الخطة الرشيدة التى وضعها أهل العقل والدراية والأناة والحلم الذين حلبوا الدهر أشطره وتجملوا بأحد الجمالين أو بهما معًا:

جمال التمسك بالدين.. وإيثار ما عند الله على ما فى الدنيا، وهو ركن النهضة المكين وحصنها الأمين، والحقيقة التى تضمحل أمامها الحظوظ والأهواء، وتتضاءل تجاهها كثرة العدة والعدد وقوة الحديد والنار.

ثم جمال شرف المحتد: أى كرامة النسب ومجد الأسرة، حتى إذا لم يمنع الدين عن الدنايا منع شرف الآباء الكرام، لأن أهل بيوت الشرف يخافون على ما لهم من تليد

(٢٢) سورة المائدة آية ٢ .

(٢٣) المقالة الافتتاحية بجريدة السياسة فى ١٩٢٨/٧/١٣ م الموافق ٩ صفر ١٣٤٧ هـ .

(٢٤) سورة الحشر آية ٩ .

المجد ويحرصون على طارئه.

أيها الزعماء: ليس للمصادفة دخل فيما بلغتموه من ثقة الأمة، ولكنكم وجدتم يقظة من الأمة ومطالبة منها بحقها المغصوب، فاندمجتم فى سلكها، وتفوقتم فى بيان الحق المسلوب، وأظهرتم حماسًا وغيرة وإقدامًا صادف هوى فى نفوس القائمين بالنهضة واعتقادًا بأن القائلين يعملون، باذلين ما لديهم من المواهب العلمية والعملية والمالية فى سبيل فوز الأمة بمطالبها العزيزة، فقامت من ورائكم ومن أمامكم تفديكم بالدماء الغالية والأموال العزيزة وتتلقى عنكم سعير المقذوفات وظلمات السجون حتى احترقت قلوب الأمهات على أبنائهن ونضبت خزائن المثرين من البذل، وبعضكم على ما هو عليه من حث الأمة وإغرائها، حتى بذلت ما لا يبذل إلا لمن نالوا أكثر المقصد وبقى بعضه، ثم ظهر أن كل ذلك كلام يرفع الزعماء على رؤوس الأمة، والأمة متدهورة فى أمورها الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والاجتماعية.

كيف لا؟.. وقد نسيت الأمة مقصدها الحقيقى وهو خلاصها من ربقة الاستعباد، ورق الاستبداد، والراحة من شرور الخلافات الحزبية، ومن المضار التى تقع على رؤوس الواثقين بالزعماء من غير أن ينالوا خيرًا أو يحفظوا ما لديهم من المال والصحة والراحة والأمن، ويزيد على ذلك ضياع نفائس الأنفاس فى الشحناء والبغضاء.

هلموا بنا نواجه الحقائق: قام سعد زغلول وعلى شعراوى وعبد العزيز فهمى يدفعهم إلى الإقدام همة الأمة المستعرة بنار الغيرة لنيل الحرية والاستقلال، فآثر سعد وطنه وأمته على نفسه فقدم أطيانه الواسعة قربانًا للوطن، ثم قام رجل الهمة التى شهدت الأمة حبه لأعماله وشرف نفسه محمد محمود فقدم بيته لمجتمعات الأمة، وبذل ماله ونفسه مهاجرًا إلى الدول الأجنبية النائية يدعوهم إلى تأييد الوفد، وقام الشيخ الوقور محمود باشا سليمان الذى أنفق ماله وجاهه ومكانته فى القلوب فجمع الأموال الطائلة للوفد وملأ قلوب المصريين ثقة بالأبطال المؤمنين، وكان إذ ذاك على رأس الحكومة المصرية حسين رشدى باشا الذى أثار ثائرة الأمة وأبطالها غائبون عنها فأجمعت على المقاطعة فى ظرف واحد، واحتج الأمراء وهيئة الحكومة وقضاتها ورجال إداراتها وفلاحوها وصناعها فى وقت كانت المقذوفات تحصد نفوس الثائرين حصدًا والأمة كتلة واحدة، حتى نزل الخصوم على حكمها وأعادوا من اختارتهم من المنفى واعتلى سعد باشا منصة رئاسة الحكومة [٢٥] رغم ما قدم له من نصائح عقلاء

---

(٢٥) تولى سعد زغلول رئاسة الحكومة عام ١٩٢٣ وعزل، ثم عاد مرة ثانية عام ١٩٢٦ .

الأمة لينتفع به الوطن خارجها .

وكنت ممن زاره فى بيته منفردًا وطلبت إليه أن يصل من قطعه ، وأن يحسن إلى من أساء إليه ، ويعطى من حرمه ، محافظة على ثغور الأمة من ثلمة تؤدى إلى ما لا يحمد عقباه ، فإن معظم النار من مستصغر الشرر ، حتى كشفت له الأحداث ستارها عما يجب أن يقوم به لحفظ وحدة الأمة ، فأعلن بعد عودته من المفاوضات أن سعادة الأمة متوقفة على العمل بجد فى تحسين حالتها الداخلية والاقتصادية والاجتماعية ، والأخلاقية وهو رأى حكيم خبر الأمور ، وتحقق أن اشتغال الأمة بالشئون السياسية والمنازعات الحزبية من غير أن تكون الأمة ذات قوة ومنعة واستعداد .. سقوط فى الهاوية .

ثم إنه – غفر الله له – نظر نظرة الرئيس الحكيم الراغب فى سعادة أمته وظفرها ، فتحقق أنه لا نجاة إلا بالائتلاف وباستغلال مواهب رجال الأحزاب الأخرى للأمة ، حتى تعود صفًا واحدًا كما كانت فى أول النهضة ، فدعا إلى الائتلاف ، وتنازل عن رئاسة الحكومة وولاها غيره بعد أن عاهده على الاتحاد معه على خير الشعب ، ومات رحمه الله بعد أن بذر بذور الائتلاف فى قلوب رجال حزبه ، وبيّن لهم منفعته فى الظرف العصيب التى كانت تجتازه البلاد .

وها نحن الآن وسعد قد مات ، والمؤسسون للوفد مات بعضهم ، والأمة بذلت دماء غالية وأموالاً طائلة لتنال باقة من آمالها فلم تظفر بها ، والعدو رابض قد جاس خلال الديار ، بل إنه تمكن أكثر مما كان ، لأننا نرى الزعماء كانوا كلما أقدموا على تنفيذ ما به مصلحة الأمة بغيرة وحماس وقف فى وجوههم من وراء ستار فتقهقروا وأنكروا ، لا أقول هذا إلا وأنا ذلك الرجل المصرى الحريص على شرف عامة الأمة فضلاً عن خاصتها .

وقد كنت مغتبطًا بمصطفى النحاس باشا وإقدامه وتنفيذه لمبادىء المغفور له سعد زغلول باشا فى شأن الائتلاف الذى به نيل مقاصد الأمة حين أقدم الرجل وأعلن أنه يحرص كل الحرص على أن لا يجعل لأى يد أجنبية تدخلاً فى الشئون التشريعية ، ولكن سرعان ما وثب المغتصب عليه فتوارى ذلك الشجاع أمامه ، وكانت الشجاعة أن يمضى فى شأنه ليحتفظ بثقة الأمة فيه وفى رجال الوفد الذين ضحوا فى سبيل الوطن بكل غال وعزيز .

وإنى لا يهمنى أن يظن أعداء أنفسهم ميلى لجهة مخصوصة ، فإن الحق فوق الخلق

وإن كرهه أهل الأغراض والعلل، فلم تكن الأمة إذا نهضت نهضتها تطلب أن تفقد فلذات أكبادها وغالي ذخائرها وترجع بخفي حنين، وإلا فأين السوادن؟ بل وأين النيل مستقبلنا؟ وأين تلك الثروة الطائلة التي كانت تجنيها مصر من محصولاتها؟ وأين ما هو أهم من ذلك كله وهو: صفاء الأمة وتعاضدها واتحادها؟ أوغرت الصدور، وفسدت الأخلاق، وأصبحت الصحف معول تفرقة ومسارح غفلة، ضاع الحياء، وفقدت الرحمة، وتنابز القوم حتى لا تكاد ترى من المتنافسين رجلًا تدعوه فضيلة نفسه وشرف محتده إلى أن يترفع بنفسه عن مستوى الهمج الرعاع.

أقام الحزب الوطني[٢٦] وحده الحجة على أنه هو الحزب الفاضل، الذي يكثر ويقدم عند الفزع، ويختفي عند السخرية والتنابذ، وقد أثبت الحزب الدستوري اليوم أنه أقرب إلى الفضيلة والبعد عن المثالب.

واختتم كلمتي هذه بإيجاز ما أريد: أريد من الأمة أن تواجه الحقائق وأن تزن الحاضر بها، وأن تقف موقف الاعتبار بالأحداث السالفة، وأن تهتم كل الاهتمام بتأييد كل عامل، والإنكار الشديد على كل داع للخروج عليه، فإننا لا نمكن الخصوم منا بأيدينا .. والله لا يضيع أجر من أحسن عملًا».

ويرسل الإمام رسالة إلى قادة الأحزاب صدقي باشا، ومصطفى النحاس باشا، ومحمد محمود باشا، في وقت بلغ التطاحن الحزبي مداه تنافسًا على كراسي الوزارة ورئاسة الحكومة ولو بإرضاء المحتل الإنجليزي محذرًا لهم من مغبة التفرقة، ويدعوهم لجمع كلمة الشعب وأن ينهضوا بالأمة، ويحذرهم بأنهم إن لم يفعلوا ذلك سينالون نقمة الجبار وستزول عنهم الكراسي وسيلقون المهانة والذل، قال محذرًا وناصحًا:

يا بني الإسلام طالت رقدة	في افتراق في اختلاف في كُرَب
كان أهل الغرب أتباعًا لنا	يحملون العلم عنا في رهب
فانهضوا بالدين خلوا فُرقة	فالصناعة كنزها فيه الطلب
طالت الرقدة قوموا قومة	باتباع الدين فالشرع كتب
طهروا الألباب من شحنائها	فاختلاف القوم داع للعطب

ثم يختتم تلك القصيدة العظيمة بتحذيره ونصحه لصدقي وللنحاس ومحمد محمود قائلًا:

---

(٢٦) الحزب الوطني أسسه الزعيم مصطفى كامل، وكان الإمام يعطف عليه ويدعو له.

انت يا صدقى ويا نحاس ويا   نجل محمود افيقوا من رغب
واجـهـوا الأمـة احـيـوهـا بـمـا   يـرفـع الأمـة فـالـوقـت اقـترب

وكان عند الإمام مطبعة فى قصره تطبع مجلاته وكتبه أسماها بمطبعة « المدينة المنورة » وفى أثناء ثورة ١٩١٩ وضعها تحت تصرف سعد زغلول ورفاقه وتطبع لهم المنشورات السرية ، وهى ما أسماها الثوار بمطابع « اليد السوداء » التى كان يتعقبها الإنجليز فى كل مكان ، وقد انكشف مصدر هذه المنشورات على يد بعض الخونة ، واعتقل الإمام وابنه الأكبر السيد أحمد ماضى أبو العزائم على إثر منشور طبعه ضد الاحتلال الإنجليزى ، وتلك التى يكتبها الثوار السياسيون وتندد بالاستعمار وتبعث فى نفوس الشعب الحمية والقدرة على المواجهة ، وكذلك طباعة الكتب التى يظهر فيها عداؤه للاستعمار ، فقد أصدر الإمام كتابين أحدثا دويًا هائلًا فى الأوساط السياسية والإسلامية وقتها ، فكتابه « الجهاد »[٢٧] يشير إلى النتائج الباهرة التى حققها المسلمون الأوائل والتى لو تمسك بها المسلمون فى العصر الحاضر أعاد الله إليهم مجدهم ، وكتابه « محكمة الصلح الكبرى » وهو يشير إلى أن الساسة المجتمعون حول مائدة الصلح بباريس وحوش وذئاب يجتمعون على الإيقاع بالفريسة حتى إذا وقعت تفرقوا طمعًا فى اقتسامها فيما بينهم كلٌ يبنى لنفسه أكبر نصيب منها ولذا فلا يرجى منهم خير ، ولا ينتظر منهم صلاح أو وفاء بوعد أو عهد ، لأنهم لا إيمان لهم ولا عهد لهم ولا ميثاق ، ولن ينصلح الحال إلا إذا أصلح كل فرد نفسه وتصالح مع حقائقه .

وكانت تحدث مضايقات كثيرة من الحكم البريطانى للإمام وخصوصًا أيام الاحتفالات ، وفى ذكرى لمولد رسول الله ﷺ جاءت أفواج المريدين متشوقة من البلاد ، ولما اجتمعوا حول دار الإمام وملأوا الشوارع أبلغت المخابرات أن الإمام يجهز لعمل ثورة ضد الإنجليز ، فجاءت القوات وفرّقت معظم الإخوان ، ثم أتى القائد إلى سماحة الإمام وكان جالسًا ، فنزل من على الفرس وجلس بجوار الإمام وقال له : يا ماضى أنت تحاربنا وتجمع الناس علينا ، فرد الإمام بهدوء : ما تقول لو أنك جالس تحتفل بمولد السيد المسيح ويأتى أناس ليعكروا صفو الاحتفال ؟ ألا تقول إن هؤلاء الناس ظالمون وأنهم جهلاء وأنهم معتدون ؟ نحن اليوم نحتفل بمولد رسول الله ﷺ وليس بأيدينا سلاح ، ألا تعلمون أنكم تكذبون فيما تقولون فى إذاعاتكم وجرائدكم أنكم وجدتم شعبًا ظالمًا وأنكم تقررون

(٢٧) ألقاه الإمام على هيئة محاضرات بالمسجد الجامع بالخرطوم أيام تواجده بالسودان ، ثم نشر على هيئة مقالات فى جريدة « السعادة الأبدية » بمصر وقام الخليفة الثانى للإمام سماحة السيد عز الدين ماضى أبو العزائم رضى الله عنه بطبعه ككتاب وأصدره عام ١٩٧٠ م .

مصيرهم لترجعوهم للحياة السليمة ؟ لقد حضرت الآن ونحن فى فرح برسول الله ﷺ لتعكر الصفو، وهنا اعتذر القائد العام علنًا أمام الناس .

وكانت داره رضى الله عنه بالقاهرة فى أعقاب عام ١٩١٨ أشبه بخلية نشطة يتجمع فيها شباب مؤمن بربه وبوطنه ، ينتشر فى النهار داعيًا إلى الثورة حاملًا منشورات تلهب حماس الشعب فتذكره بأمجاده وبطولاته ، فإذا جن الليل عادوا إلى السراى متخفين ، فيهجعون فى سراديبها ومخازنها ، متوارين عن أعين جواسيس الاحتلال ، فإذا قضيت صلاة الفجر استأنفوا جهادهم ، ودام هذا الجهاد ضد الاستعمار حتى استشعر الإنجليز به وأدركوا خطره فقبضوا عليه ، ولم يمنعه ذلك من القيام بدوره فى هذا الشأن أو التقليل منه ، وإنما زاده ذلك إيمانًا بهذا الدور وواجبًا يفرضه عليه دينه ووطنه .

إن الاستعمار يضيق بوطنية زعماء رجال الدين لأنه يعلم مدى تأثيرهم فى نفوس المسلمين ، وخصوصًا إذا كان الداعى على صدق فى دعوته ، وقد كانوا يعرفون من هو الإمام أبو العزائم عندما كانوا يسترجعون حياته بالسودان إلى أن اضطروا إلى إعادته لمصر ، ولقد حاول الاحتلال أن يسكت صوت الإمام بكل وسيلة ممكنة وخصوصًا أنهم يعرفونه ويعرفون مدى تأثيره الوطنى الحماسى ، فتدرج معه من الإغراء إلى الإرهاب ثم إلى العنف والقمع ، وكان أن ألقى القبض عليه مرتين فى عام واحد الأولى فى ١١ من ربيع الأول عام ١٣٣٨ هـ والثانية فى ١٧ رمضان من نفس العام ويوافق عام ١٩١٩ الميلادى .

وتحدث سماحة الإمام السيد أحمد ماضى أبو العزائم – النجل الأكبر للإمام وخليفته الأول – عن الاعتقال الثانى للإمام فيقول :

«كانت المنشورات مع بعض المجاهدين ممن تتلمذوا على يد السيد الوالد ، وكانوا يلجأون إلى السراى ابتعادًا عن أعين مخابرات الإنجليز وجواسيسهم ، وكانوا كثيرين ، وكانت مطبعة « المدينة المنورة » لا تكف عن طبع المنشورات السرية التى تحرض على الثورة ، وكنت مديرًا للمطبعة ورئيسًا لتحرير مجلتى السعادة الأبدية والمدينة المنورة ، وكان والدنا الإمام رضى الله عنه لا يكف عن إنزال اللعنات على المستعمرين سواء فى الدرس العام أو فى تجواله بالبلاد ، فى كتبه ومقالاته فى المجلات والصحف .

وقبيل منتصف ليلة السابع عشر من شهر رمضان المبارك عام ١٣٣٨ هـ سمعت وقع أقدام خيول وسيارات وجلبة صاخبة ، فأسرعت إلى المطبعة أخفى المنشورات وأعدم المسودات ، وأبلغت سيدى الوالد الذى كان يجلس فى غرفة نومه بالطابق الأول ،

وما هى إلا لحظات حتى أحاط بالبيت الجنود من كل جانب شاهرى أسلحتهم فى منظر رهيب أشبه بإعلان الحرب ، وسأل قائدهم عن الإمام فقلت له : إنه بغرفة نومه فأسرع إليها شاهرًا مسدسه وطلب تفتيش الدار جميعها بحثًا عن مكاتبات سرية بين الإمام وبعض الزعماء المسلمين وفى مقدمتهم كمال أتاتورك - وكان يحارب الخلفاء وقتذاك -، وكنت أعرف أن والدى يضع المكاتبات السرية فى صندوق كبير بغرفة نومه ، فأمسكت أنفاسى لأنى أيقنت أنهم سيعثرون عليه لا محالة إذ كيف السبيل إلى إخفائه ؟!. ولشد ما دهشت عندما رأيت والدى رضى الله عنه يجلس فوق الصندوق ويقول للقائد : فتش كما تريد فليس عند الشيخ شىء يخفيه ، وازدادت دهشتى عندما خرجوا جميعًا من الغرفة دون أن ينتبهوا إلى أن الإمام يجلس على صندوق وبجواره الكرسى الذى اعتاد الجلوس عليه . وذهب الوالد معهم ورافقناه إلى ثكنات قصر النيل » .

ولم يكد نبأ اعتقاله يشيع بين أنصاره وأتباعه حتى أبرقوا إلى المندوب السامى مهددين متوعدين إن لم يطلقوا سراحه ، وقد ذهب « رُسل باشا » ليتفقد الإمام فى معتقله فوجده يصلى ووراءه الموكلون بحراسته من الجند الذين كان يربو عددهم على ٨٠ جنديًا ، ولما أتم الإمام صلاته دعا فقال : اللهم أهلك الإنجليز ، اللهم اخرج هذه الفئة الطاغية من بلدنا ، اللهم أبطل كيدهم ، والجند من ورائه يقولون : آمين . فانزعج « رُسل باشا » وأمر بإطلاق سراحه فورًا لأنه فى سجنه أخطر عليهم من حريته .

وكان اعتقال الإمام فى بلوكات الخفر بشارع الخليج المصرى (٢٨) فى ميت أبو إصبع والتى تحولت حاليًا إلى مدرسة السعادة ، وفى يوم الخميس ١٦ رمضان ١٣٣٩ هـ (٢٩) الموافق لليلة بدر الكبرى ، قال الإمام وهو مُعْتَقَلٌ بعد صلاة عصر هذا اليوم إملاءً على ولده السيد أحمد ماضى أبو العزائم :

جمالكَ ياجميلُ به تجلى ... ليشهده عُبيدُك حيث ولّى
وآنسنى بوجهك وامحُ همى ... فإنى لا اطيقُ لذاك حملا
اغثنى بالإجابة اغلِ قدرى ... اعِزَّ العبدَ بالعلياء فضلا
دعاك رجالُ بدرٍ واستغاثوا ... اغث وارحم فانت الربُّ جلا
اغثنى واستجب لى انت حسبى ... فايدنى بروح منك طولا
انا المضطر ادعو مستغيثًا ... تفضل وانظُرن يانِعْمَ مَولى

---

(٢٨) شارع بورسعيد حاليًا .

(٢٩) الموافق ٢٦/٥/١٩٢١ م .

الهى عُمَّنا بعميم فضلٍ ... وإنْ كنتُ المسىءَ ولستُ اهلا
اغث عبدًا ينادى باضطرار ... مجيبًا قادرًا بالعبد اولى
اغثنى نجنى من كل هول ... اذل خصومنا يارب فعلا
تدارك ضارعًا يرجو مجيبًا ... قويًا قادرًا طولًا وحولا
فاظهر آية كبرى انتصارًا ... لعبدك وامحق الأعداء كُلا
لقد ظلموا عُبيدك فانتصر لى ... وقرِّبْ ضارعًا زلفًا ووصلا
بمن نادوا ببدر باضطرار ... اغثتهمو منحتَ الكل سُؤلا
سالتك عائذًا بك فاستجب لى ... واسعدنى بفضلٍ منك يُولى
وسيلتى الحبيبُ وآلُ بدر ... فنجِّحْ قصدَ من يدعوك فضلا
وجدد لى مسراتى وانسى ... فانت بعبدك المضطر اوْلَى
وامة سيد الكونين ربى ... اغثنا بالجمال لنا تجلى
بجاه المصطفى الهادى استجب لى ... عليهِ اللهُ فى القرآن صلّى

وقال فى هذا اليوم أيضًا :

اغثنا فقد عودتنا الفضل والخيرا ... اغث ضارعًا يدعوك يارب مضطرا
تداركتَ انصار النبى محمدٍ ... ببدرٍ وعند الخطب قد تنفع الذكرى
اغثنى فقد ناديتُ ربًا قادرًا ... يجيب دُعا المضطر يرفعه قدرًا
ايا رب مضطر غريبٌ وعائذ ... توسلتُ بالأمَناء من شهدوا بدرا
اغثنى ايا قيومُ ياحىُّ وادفعن ... شرور الأعادى اهلكن جمعهم قهرا
إغاثة حنَّان سريع وقادر ... حفيظٌ سلامٌ قد اعان بها برا
وفى يوم بدر استغيثك سيدى ... إلهى استجب لى وامنح الضارعَ النصرا
لك الحمد .. قلبى مطمئن ومُوقنٌ ... فقد نِلتُ منك الاستجابة والبشرى
فاظهر لعبدك آية الفضل والرضا ... كآية بدر فى نهار لها ذكرى
لك الحمد يامعطى لك المجد والثنا ... على نِعَمٍ لانستطيعُ لها شكرا
وصلِّ على الغوثِ الشفيع محمدٍ ... وآل واصحابٍ ومن شهدوا بدرا

فجاءه النصر من عند الله بعد إملاء هذه القصيدة مباشرة وتم الإفراج عن الإمام وخليفته السيد أحمد رضى الله عنهما .

موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية

إن الإمام كان ينظر إلى الخلافة الإسلامية بصفة عامة كرمز دينى له قداسته ، وهو أمر لا غنى عنه ، إذ المفروض فى الخلافة الإسلامية أنها مسألة دينية نصت عليها الشريعة المحمدية ، وقد عاش المسلمون على مر القرون منذ كانت الخلافة الراشدة حتى الخلافة العثمانية فى ظل خلافة - أيا كانت هذه الخلافة - يدينون لها بالولاء والطاعة ، وكان الملوك الأقوياء فى مصر أو غيرها يرون أنه لابد من قيام نظام الخلافة بجانبهم ليستمدوا منه قوة النفوذ على الشعب المسلم ، فسعوا بقوتهم ونفوذهم إلى أن يأخذوا موافقة الخليفة ضعيف السلطة على تنصيبهم ملوكًا حتى تكون لهم الصبغة الشرعية فى حكم المسلمين ، على أن هؤلاء لم تكن لهم أية سلطة زمنية وكانوا يعيشون فى حماية هؤلاء الملوك الأقوياء ، ولاشك فى أن سعى هؤلاء الملوك الأقوياء إلى استرضاء الخلفاء وإعلان حكمهم للشعب باسم الخليفة كان راجعًا لما لهؤلاء الخلفاء - على ضعفهم - من سلطة روحية على المسلمين ، وكانت السلطة الروحية لهؤلاء الخلفاء تمتد إلى قلب كل مسلم فى أى جهة كانت ، ولهذا كان للخلافة العثمانية نفوذ روحى على المسلمين سواء كانوا يعيشون فى ظل دولة الخلافة أم يعيشون فى دولة أخرى ، ولعل أبرز مثل لهذا فى عصرنا الحديث ما رأيناه من تعلق المسلمين فى مصر والهند وغيرها من البلدان الإسلامية بالخليفة العثمانى ودفاعهم عن هذه الخلافة بكل ما فى وسعهم .

ومن هنا كان الإمام ينظر إلى الخلافة العثمانية على أنها مركز لتجميع المسلمين ، وأنها فى ذلك الحين هى التى يمكنها صد التيار الغربى الزاحف عليهم وإنقاذ مجد الإسلام وتراثه من عبث الغرب به ، هذا إلى أن المسلمين كانوا يتطلعون إليه كحامية بعد أن فقدوا ملكهم فى أوطانهم ، وإلى أنهم كانوا يعتبرون تألب الغرب على الأتراك حركة صليبية حديثة ، ومن أجل ذلك رأينا المسلمين فى كل قطر يهبون لمساعدتها فى حربها مع الدول البلقانية ، وفى حربها مع روسيا ، وفى حربها مع إيطاليا فى طرابلس ، ويبعثون إليها بالمساعدات تلو المساعدات ، وكان للإمام رضى الله عنه أيادٍ كبيرةٍ فى تنظيم هذه المعونات وجمعها وتجميع المتطوعين لقتال أعداء الخلافة مما يذكر له بالفخار والشرف .

ولقد فزع الإمام فزعًا عظيمًا لدخول إنجلترا الحرب ضد تركيا ، فأعلن أنه يقف فى صف الأتراك ، وقد انتشرت هذه الدعوة فى العالم الإسلامى مما جعل الإنجليز يصانعون المسلمين ويلتمسون لأنفسهم المعاذير فى دخولهم الحرب ضد دولة الخلافة ، ووعدهم أنه سوف لا تمس دولة الخلافة بسوء .

وعندما هزمت تركيا وبدأت إنجلترا تنكث عهودها ثار الإمام، وثار لثورته مسلمو الهند وغيرها من البلاد الإسلامية خصوصًا العراق والشام والمغرب وجاوه، وعمت هذه البلاد ثورات جارفة سقط فيها بالهند خاصة مئات الضحايا.

لقد أضعف التعصب عاطفة العرب نحو تركيا حتى جعلهم أحيانًا يسعون للتخلص منها، عكس مصر خاصة، والهند التى لم يمسها هذا الظلم بل مسها ظلم الاستعمار الإنجليزى وطغيانه وعدوانه الآثم الشنيع، ولو أن المسلمين العرب نسوا أو تناسوا مؤقتًا ما كان لدولة الخلافة من مظالم ووقفوا بجانبها ضد الغرب لأمكنهم الاحتفاظ بوحدتهم الإسلامية الجامعة، ولما استطاع المستعمر أن يثبت قدمه فى بلادهم، ولا أمكن لليهود انتزاع فلسطين من أهلها وطردهم منها، ولكان من الممكن للمسلمين بعد ذلك أن يصفُّوا حسابهم مع دولة الخلافة ويأخذوا حقوقهم منها، كان ذلك هو رأى الإمام، ومع هذا فقد كان رضى الله عنه شديد الأسف مع كثير من المرارة لما أصاب المسلمين بسبب تفككهم وتخليهم عن دولة الخلافة.

واستمر الحال على ذلك حتى دهم المسلمين أمر الخلافة، فقد كان لإلغائها فى ٢مارس ١٩٢٤ م - وعلى غرة - دوى شديد فى مصر والعالم الإسلامى، وخصوصًا وأن المسلمين لم يعرفوا السبب الذى دعى إليه ولا الموجب له، وقد كانت الخلافة وإن كانت فى آخر أمرها مظهرًا من مظاهر التقليد، إلا أن عقلاء الأمة كانوا يحسبونها رمزًا يجمع حواليه شتات هذا الجسد الإسلامى بعد أن قطع الاستعمار أوصاله وسلب منه أكبر مزية: الاتحاد والرابطة بالخلافة العظمى والإفاقة الكبرى.

ولم يغمض للإمام جفن طوال الأيام الأولى من تلك الفتنة العمياء: خليفة المسلمين[1] يطرد من بلاد إسلامية وعلى يد فئة مسلمة، والناس مختلفون فى تكفير هؤلاء أو نسبتهم إلى الإلحاد والزندقة، وقد ألهمه سبحانه وتعالى فى هذا الموقف أن أبصر بها الداعى إلى هذا الأمر، والواجب على المسلمين تجاه هذا الخطر، فقام أول الأمر محذرًا المسلمين عن الخوض فى تكفير إخوانهم من بنى عثمان، ثم استعلم مستفسرًا.

الاتصالات التمهيدية:

لقد كان رد الفعل للسماع عن إلغاء منصب خليفة المسلمين بتركيا سريعًا جدًا على الإمام.. بل وفوريًا. وقد شهدت الساعات الأولى إنجازين على درجة كبيرة من الأهمية:

---

(١) السلطان عبد المجيد خان آخر خلفاء بنى عثمان، طرد من تركيا دولة الخلافة.

(١) تكوين جمعية (إحياء الأخلاق المحمدية) ومقرها المركز الرئيسى قصر الحنفى (سكن الإمام) وفروعها فى بلاد مصر، وإعلام الجميع عن استنكارها لقرار الإلغاء على المستوى الشعبى.

(٢) القيام باتصالات هاتفية وكتابة خطابات شخصية وإرسال برقيات لجميع رؤساء بلدان العالم الإسلامى لتكوين جماعات عمل لمؤتمر الخلافة الإسلامى وإخطار المقر الرئيسى بالقاهرة بذلك، وكان أول المستجيبين فى ذلك إخوة الهند وعلى رأسهم الأميران شوكت على ومحمد على، والدكتور أجمل خان والدكتور محمد إقبال والشيخ كفاية الله وغيرهم وإعلانهم الفورى عن تأسيس جماعة (الخلافة الإسلامية) بالهند مع إعلان اتحادها قلبًا وقالبًا مع الإمام، وكذلك بعض الزعماء الإسلاميين الآخرين.

وقد اتفق مع جماعة الهند منذ الساعات الأولى لسماع نبأ الإلغاء على إعلان الرأى التالى:

لقد أتفق الرأى على إبقاء الخلافة الإسلامية فى تركيا وتقويتها، وإن لم يمكن الإبقاء على أسرة آل عثمان فإنه يمكن انتخاب خليفة يقيم فى إحدى الدول الإسلامية التى لا تخضع للاحتلال أو النفوذ الأجنبى، مع إبعاد التفكير فى تنصيب فؤاد الأول(٢) ملك مصر خليفة على المسلمين، وإنه إلى أن يتم انتخاب خليفة للمسلمين، فإن خلافة عبد المجيد خان تظل قائمة لأن بيعته لازالت ملزمة للمسلمين.

وهذا الرأى هو ما أرسل به الإمام إلى سائر الجماعات فى البلاد الإسلامية، وقد وردت إليه الردود التى لا يتسع المقام هنا لذكرها منها:

رسالة من الأمير فيصل بن عبد العزيز بمكة، ورسالة من مشايخ إمارة الخليج العربى وهم: محمد بن عبد اللطيف، وسليمان سهمان، وعبد الله بن سالم، ورسالة من الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، ومن جمعية الشبان الفلسطينيين بحيفا، ومن جزيرة سنغافورة من السيد محمد عقيل بن يحيى، ومن ديوان المحكمة الشرعية بولاية البوسنة بيوغوسلافيا موقع عليه من كل من محمد موباغنيك، ومحمد جمال الدين ومحمد القاضى، وكتاب من الشيخ حافظ وهبه وزير المملكة السعودية، وكتاب من السيد أحمد الشريف السنوسى المقيم بالأستانة، ورسالة مطولة من الأمير شكيب أرسلان تتضمن رأيه فى انتخاب الخليفة والقطر الذى يقيم فيه واستبعاد أتاتورك، ورسالة من

---

(٢) تولى فؤاد الأول مُلك مصر خلفًا لفؤاد سلطان سنة ١٩٢٢ - ١٩٣٦ م.

السيد محمد البطاح قاضى عدن، وكتاب من لجنة العمل على إحياء الخلافة بمدينة الكاب بجنوب أفريقيا، ورسالة من رئيس جمعية حزب المرشدين الدينيين فى سومطرة، وكتاب من بولونيا من رئيس الجمعية الإسلامية، ورسالة من الاتحاد الصينى للجمعيات الإسلامية بشنغهاى، ورسائل عديدة من الشيخ كفاية الله والدكتور محمد إقبال ومحمد على جناح وشوكت على وأجمل خان والشيخ قرشى بالهند، وكتاب من أندونيسيا بتوقيع سوكارنو وآخرين، وكتاب من حميد الدين إمام اليمن ... إلخ.

وما أن انتهى الإمام من اتصالاته إلا وظهر أول رد فعل تنفيذى بعد أسبوعين من نبأ الإعلان، وبالتحديد يوم ١٥ مارس ١٩٢٤ م.. وهو خطاب موجه من الإمام إلى مصطفى كمال أتاتورك هذا جزء منه:

« ..... فإذا كان الخليفة هو رأس الجمهورية، سار على مقتضى قوانينها وزاد عليه مجلسًا محليًا للخلافة بجانب المجلس الوطنى الكبير منتخبًا من جميع الأمم الإسلامية يقوم بالأعمال الدينية والاجتماعية الخاصة بالأمم من تعيين القضاة وأئمة المساجد وعمارة معاهد العلوم الدينية وبعث الوعاظ والمرشدين لبث الدعوة الإسلامية، وتكون إدارة الأمم الإسلامية المستقلة بأمر الخليفة فى شئونها الدينية والاجتماعية بقدر ما تسع الشريعة، ويكون المجلس الوطنى الكبير عاملًا للجمهورية التركية، وقد يأتى الوقت الذى تكون فيه الجمهورية التركية جمهورية إسلامية كما كان عهد الخلفاء الراشدين، فإن الخليفة فى عهد السلف كان رئيسًا للجمهورية الإسلامية بمعناها الحقيقى.

وإنى بصفتى عاملًا على تشكيل المؤتمر الإسلامى ببلد حر مستقل كنت أحب أن يكون المؤتمر فى بلد من بلادكم لولا ما أشرتم إليه من الظروف [٣] التى انتهجها طمع المستعمر الأوربى، والإسلام وسّع لنا فى رعاية واجب الوقت، وقد استحسنت ما استحسن رجال جماعة الخلافة بالهند من اجتماع المؤتمر الإسلامى الكبير فى مكة المكرمة بعد قهر حسين بن على منعًا للفتن الأوربية التى أشرتم إليها إذا عقد بالبلاد التركية .....»

١٥ مارس ١٩٢٤ م   محمد ماضى أبو العزائم

(٣) كانت حجة مصطفى كمال أتاتورك - من يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام وأبطنوا اليهودية - أن تركيا حديثة [illegible] الربعية - يعنى الإسلام - وأن وجودها فى قلب أوروبا يجعل من العسير تنفيذ ما أشار إليه الإمام.

الاجتماع الأول بمنزل الإمام :

وقد تم أول اجتماع لجمعية (إحياء الأخلاق المحمدية) بمنزله رضى الله عنه فى ٢٣ مارس ١٩٢٤ م، وكان قد دعا رجال الصحف ووكالات الأنباء العالمية والمحلية لحضور هذا الاجتماع، وتم فيه جمع الأمة المصرية فى صعيد واحد فى يوم واحد بدعوة إلى عظمائها ونوابها وأهل الرأى فيها ليستشيرهم فى هذا الأمر، وقد كانت همة الجالس على العرش[٤] متحفزة إلى بلوغ هذا القصد والبلاد ما زالت فى ذلك الوقت مستعمرة إنجليزية لا أقل ولا أكثر لم تنعم بالاستقلال وإن كانت تداوم من أجله الجهاد والقتال، فرغب عن حضور هذا الاجتماع أهل النفوذ خيفة غضب الملك، وجاءه أهل الإخلاص الذين باعوا أنفسهم وأموالهم ابتغاء رضوان الله تعالى فشاورهم فى الأمر جميعًا، وخرج من هذا الاجتماع بفائدة هى تكوين قيادة لهذه الهيئة أسماها (اللجنة التنفيذية لجماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل) كان أحد أقطابها المرحوم على بك فهمى كامل شقيق فقيد مصر العظيم وزعيمها الفتى الكريم المرحوم مصطفى باشا كامل، فأصدرت فى ذلك عدة قرارات حكيمة كان أكثرها من بنات أفكار الإمام النيرة السليمة، وفيه قرر الأعضاء العمل على الدعوة لإقامة مؤتمر إسلامى عالمى يشارك فيه جميع زعماء وملوك الهيئات والدول الإسلامية.

بدأ هذا الاجتماع بكلمة ألقاها الإمام قال فيها:



الحمد لله حمدًا نستزيد به عناية الله بنا، حتى نعيد مجد سلفنا ونبقيه لأبنائنا ولأبنائهم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾[٥]، والصلاة والسلام على من قام يدعو إلى الحق منفردًا فى ظلمات الجهالة فأيده الله بنصره، وكذلك كل داع إلى الحق ينصره الله، أما بعد:

فيا أيها الشبان الناهضون المتفوقون على الشيوخ فى اقتحام العظائم: أخصكم بالذكر لأنكم الأيدى العاملة فى وقت الشدائد، أخصكم بالذكر لأننا جماعة الشيوخ مللنا الدهر

---

(٤) الملك فؤاد.

(٥) سورة المائدة آية ٢.

وملنا ، ولأننا نعمل لكم لا لنا ، إن كان لنا الآن فالمستقبل لكم ، وأى عاقل يرضى أن يهمل أمرًا يصبح الأخ بإهماله حربًا على أخيه ؟ .

أيها الشباب العامل : كنت كسلانًا فنشطنى الله بكم ، جبانًا فشجعنى الله بإقدامكم ، كنت أخاف أن أقول كلمة فأطلق سبحانه لسانى بقوة إيمانكم ، ذكرتمونى عهد سلفنا الصالح حين كان المسلم لا يرى فوقه إلا ربه ولا يخاف إلا ذنبه ، وى !! كأنى أعدت إلى أيام مجدنا حيث الحياة فى ظلال الحرية ، فأشكر الله على ما تفضل به علينا من غيرة لوطننا تغير كل شىء أتت عليه ، وحمية لديننا تمحو البدع المضلة والأهواء المذلة .

أنتم أيها النشء أقمتم الحجة بما قمتم به للأمة على أنكم شيوخ فى شبابكم ، وأنكم ستجددون ما كان لسلفكم ، فأديموا هذا الجهاد حتى نبلغ المراد .. أدام الله لنا عنايته .

أيها الشيوخ الذين أكسبتهم التجارب عقولًا تدرك غيب الحوادث وتكشف الستار عن أسباب الفتن ، أنتم الأنجم المضيئة للعمال ، والأئمة عند السعى لنيل الآمال ، قد آن لنا أن نتدارك الأمر فى أوله ، فقد كفانا ما توالى علينا من البلايا التى مكنت للأعداء فينا وجعلتنا مستعبدين لهم .

أيها السادة : الوقت يوجب علينا النظر فى أحداثه بعين البصيرة والمسارعة إلى معالجة المرضى منا بالحكمة لنكون جسدًا واحدًا قويًا ندفع بقوة الاتحاد شرًا أوجدته التفرقة وسوء ظن بعضنا ببعض ، قال ﷺ : « مثل المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »[٦] ، وفى رواية : « المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله وإذا اشتكى رأسه اشتكى كله »[٧] .

لابد لكل عامل غرض يدعو إليه وباعث يدفعه للعمل ، وبقدر المقصد يكون بذل الجهد ، والغرض من اجتماعنا هذا هو :

(أولًا) : إقامة الأمة المصرية الحجة على أنها تعنى بالأحداث التى تدعو إليها مقتضيات الوقت .

(ثانيًا) : النظر فى حادث الخلافة الإسلامية الذى أقام العالم وأقعده .

(ثالثًا) : أن تؤلف لجنة تحضيرية يوكل إليها العمل للدعوة إلى مؤتمر إسلامى عام يبحث هذا الموضوع بحثًا دينيًا اجتماعيًا ويصدر فيه القرارات المطابقة لروح الشرع

---

(٦) رواه البخارى ومسلم .

(٧) رواه مسلم .

والمطمئنة للعالم الإسلامى بأسره .

وبعد أن شرح فضيلته الحكم الشرعى والحكم الوجودى والخلافة والإمامة ووافق الجميع على كلماته القيمة بالارتياح والاستحسان ، ألقى الكثيرون من العلماء خطبًا تناسب المقام إلى فجر اليوم التالى ، ثم اختتم الاجتماع كما بدأ بتلاوة بعض آيات من القرآن الكريم .

انتخاب اللجنة التحضرية للمؤتمر :

وبعد الانتهاء من تلاوة آيات الذكر الحكيم ، انتخب هذا الجمع لجنة تحضيرية برئاسة حضرة صاحب الفضيلة الإمام السيد محمد ماضى أبى العزائم ، فاجتمعت فى الحال فى هيئة جلسة وقررت قرارًا هذا نصه :

قرار اللجنة التحضيرية

أولًا : السعى فى تكوين مؤتمر إسلامى عام تمثل فيه الشعوب الإسلامية كافة ، يعقد فى المكان والزمان اللذان يقرران بعد .

ثانيًا : السعى فى تشكيل لجان فرعية فى البلاد المصرية على أن يؤلف من مندوبى هذه اللجان جمعية عامة رئيسية تنظر فى جمع المؤتمر وإجراء كل ما يلزم لانعقاده .

ثالثًا : ترشح اللجنة مع الثقة العظمى « حضرة صاحب السمو الأمير الجليل » عمر باشا طوسون لرياسة اللجنة العامة .

رابعًا : انتخبت اللجنة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ السيد محمد ماضى أبا العزائم رئيسًا ، وحضرة صاحب السعادة على بك فهمى كامل نائب رئيس ، وحضرة الشيخ مفتاح زيدان سكرتيرًا ، أما الأعضاء الذين انتخبوا فهم حضرات الآتية أسماؤهم بعد : (يرجع لقرار اللجنة التحضيرية)[8] .

خامسًا : تبليغ قرارات اللجنة إلى حضرة صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون ، وإلى الصحف .

* ومنذ الساعات الأولى من تكوين هذه اللجنة التحضيرية ، قام الأعضاء بإخطار الهيئات الرسمية فى البلاد الإسلامية بتكوين [جماعة الخلافة الإسلامية] لتعمل على عودة الخلافة الإسلامية ، وقد خاطب الإمام القادة والزعماء ومن بينهم زعماء الهند

(٨) صورة منشورة فى كتاب (الإمام محمد ماضى أبو العزائم) للأستاذ عبد المنعم شقرف .

محمد على جناح ، وأبو المكارم آزاد ، والأخوان الأميران شوكت على ومحمد على ، كما اتصل بالشاعر محمد إقبال ، وتوثقت بينه وبينهم روابط الخدمة لإعلاء كلمة الدين وتوحيد صفوف المسلمين ، كما اتصل رضى الله عنه بكمال أتاتورك نفسه ، وأرسل الإمام نداءً إلى العالم الإسلامى ممثلًا فى دوله يبين فيه مقاصد المستعمرين فى الخلافة ، وموقف الدول الغربية من مسألة الخلافة وغرضهم من تعددها ، وسعيهم إلى تفرقة كلمة المسلمين ، لم يترك الإمام بلدًا أو قطرًا فيه مسلمون إلا واتصل بها مبينًا أهمية مقام الخلافة الإسلامية بالنسبة للإسلام والمسلمين ، ودعا إلى عقد المؤتمر الإسلامى العالمى لمناقشة هذا الغرض ، وظل التجهيز لانعقاده حتى تم ذلك فى مكة المكرمة بتاريخ ٩ يونيو ١٩٢٦ م برئاسة عبد العزيز آل سعود عاهل الحجاز .

* وكان الخلاف الذى قام عام ١٩٢٤ م فى المؤتمرين : مؤتمر الخلافة لجماعة الأزهر ، التى تكونت بأمر من الملك فؤاد بعد فترة صمت طويلة دامت ستة أشهر ، ومؤتمر جماعة الخلافة بوادى النيل رئاسة السيد أبى العزائم ، يحوم فقط حول إيجاد بلد مستقل لا سيطرة لأجنبى عليه ليكون مركزًا للخلافة ومقرًا للخليفة محفوظًا من الأهواء السياسية ومن سيطرة الأجنبى وعدوانه ، حتى تنفذ الأوامر الدينية والزمانية بغير تدخل الدولة المحتلة ، وقد كان لجماعة الأزهر فكرة مخصوصة فى الخلافة والخليفة ، ولم تترك للعالم الإسلامى اختيار من يختاره والبلد الصالحة لمقر الخلافة ، باعتبار أن لكل مسلم بيعة فى عنقه يجب أن يؤديها حسب اختياره ، وقد أقنعت جماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل الرأى العام الإسلامى بأن مصر وقتها لم تكن صالحة أن تكون مقرًا للخلافة ، وحبذ هذا الرأى سمو الأمير عمر باشا طوسون .

الملك فؤاد والخلافة الإسلامية :

فوجئت الحكومة بما نشرته الصحف فى اليوم التالى عن الاجتماع الذى تم فى دار الإمام ، وعما تمخض عنه من لجان تحضيرية وتنفيذية ، وسرعة تكوين لجان فرعية بالأقاليم بين عشية وضحاها ، فبدأت تولى الموضوع عناية خاصة ، وشرعت بعد ستة أشهر من تكوين جماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل ، فى تكوين مؤتمر من علماء الأزهر برئاسة الشيخ الأحمدى الظواهرى [٩] شيخ الجامع الأزهر ، ولم ينعقد هذا المؤتمر بادئ ذى بدء لأنه كان يعمل على تزكية الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، وكان يعتقد أن الأمر

(٩) (١٨٧٨ - ١٩٤٤ م) وهو الذى اقترح انفضاض مؤتمر الخلافة الإسلامية على غير قرار لأن الشيخ الظواهرى كان يعمل على تزكية الملك فؤاد خليفة على المسلمين ، وقويت صلته بملك مصر فعينه شيخًا للجامع الأزهر ١٩٢٩م ، واستقال ١٩٣٥ م ، حوّل الأزهر عن رسالته إلى جامعة على نظام حديث .

لا يستلزم عقد مؤتمرات أو ما يماثلها وأن تنصيب فؤاد خليفة لن يجد أدنى صعوبة، وما دامت إنجلترا راغبة فى ذلك فإنها ستحمل غيرها من الدول على الاعتراف بالأمر الواقع، ولذا فإن أول اجتماع عقد للتشاور فى هذا الموضوع كان بمنزل المندوب السامى البريطانى وفى ليلة القدر من رمضان عام ١٣٤٢ هـ وعلى مائدة الإفطار!! . وقد أملى الإمام قصيدة بهذه المناسبة جاء فيها :

اظلم الكون بالضلال احفظنى	افسد الطامعون كل مكان
زار اهل الضلال من لم يُزاروا	عظموا الكفر فى ليالى القران
ايقظِ المسلمين من نومة الجهل	اجمعنهم بالنور والتبيان
وانصر السنة العلية وارفع	دينك الحق بانمحا الطغيان
قد اضل الإفرنج قومًا لنامًا	فاستطابوا الضلال من شيطان

صار النضال قويًا بين الملك فؤاد والإمام رضى الله عنه، فالملك كان يطمع أن يكون خليفة للمسلمين، وجند جنوده لتحقيق هذه الرغبة فأنشأ جماعة أخرى للخلافة الإسلامية، وبذلك أصبحت هناك هيئتان للخلافة الإسلامية إحداهما رسمية يرعاها الملك فؤاد والأخرى شعبية برئاسة الإمام أبى العزائم، عندئذ جاهر الإمام بأن مصر دولة محتلة وحكامها قد تربوا فى أحضان الأجانب ودانوا بفكرهم فهم على آثارهم يهرعون وفى مرضاتهم يتنافسون، وكان طبيعيًا أن لا يكون لهذا البلد فى ظل الاستعمار وفى ظل هذه الشرذمة من الحكام أية قيمة وأى وجود.

وحاول الملك فؤاد استمالة الإمام فأرسل إليه رئيس الديوان الملكى «حسن باشا نشأت» ليقول له : إن الملك فؤاد يحب أن يراك، ولو حضرت إليه سيعطيك أكبر وظيفة دينية فى الدولة وأموالًا طائلة، فربت الإمام بيده على وجه حسن باشا نشأت لما بينهما من مودة وقال له : «أنت يا حسن تريد أن تغرر أباك الشيخ بالدنيا، وهل ملك مصر يتمنى أن يرانى ؟» قال حسن باشا : نعم. فقال الإمام : «يا حسن.. قل لفؤاد : إن أبا العزائم لا يحب أن يراك، ولو أحببتُ أن يأتى فؤاد إلى هنا لجاءنى حبوًا، إذا وقف رجل على باب السلطان حرم عطاء الحنَّان، ورجل الحق تخضع له التيجان، وخادم الحق له الخلق خدم أينما كان، والخير الإلهى لمن صدق وثبت، ثم قال له الإمام كلمته الخالدة عن فؤاد وأمثاله من أمراء السوء : إن قومًا فقدوا الإسلام فى أنفسهم وبيوتهم وشئونهم الخاصة والعامة لأعجز أن يفيضوه على غيرهم ودعوة سواهم إليه، وفاقد الشيء لا يعطيه».

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

* وأبلغه سعد زغلول يومًا أن الملك فؤاد يتهدد الإمام ويتوعده إن لم يساير الملك فى سياسته ، فأمسك الإمام بأذن سعد زغلول قائلًا له : « قل له : أبو العزائم يقول لك : دولة تدول وملك يزول ، وجانب الله يبقى ولا يزول » .

* وعندئذ بدأت الحكومة والسراى في محاربة الإمام بشتى الطرق العلنية والسرية ، فقبض على أعضاء اللجان الفرعية فى الأقاليم ، وصودرت محاضر الجلسات ، وأعدمت أعداد من مجلة (المدينة المنورة) وفتشت سراى آل العزائم مرارًا وتكرارًا ، واتخذت العداوة بين الملك والإمام مظهرًا علنيًا ، ومنع الإمام من السفر لتأدية الحج فى ذات العام ، وقدمه لمحكمة الجنايات بسبب كتاب للإمام بتهمة سب الذات الملكية ولكن برأته المحكمة ، وقدمه للمحاكمة متهمًا إياه بالكفر زورًا وافتراء وبرأته المحكمة أيضًا .

* ولما مات ملك إنجلترا قال الإمام أبو العزائم على الملأ : مِلكٌ أخذ عز قومه وولى ، ولما مات الملك فؤاد قال الإمام : مِلكٌ أخذ ذل قومه وولى .

الدرع الواقى بين جماعة الخلافة الإسلامية وبين الملك فؤاد والاستعمار :

كان الملك فؤاد لا يستطيع أن يقف فى وجه الأمير عمر طوسون [10] ، فقد كان يعمل له ألف حساب ، كما كانت إنجلترا نفسها تتحاشى الاصطدام به ، فسخَّره الله للإمام أبى العزائم ليكون درعًا واقيًا لجماعة الخلافة من بطش هاتين القوتين .

وقد أثارت الصحف ضجة مفتعلة ضد جماعة الخلافة التي يرأسها الإمام ، وهاجمه بعض الكتاب ، ولفتوا نظر الحكومة إلى أن موضوع الخلافة يعتبر من النظام العام للدولة فلا يجوز أن يتولى الاتصال فيه والعمل له شخص معين أو جماعة بعينها ، وحرضوا السلطات على الوقوف ضد جماعة الخلافة .

وقد نشرت جمعية « تضامن العلماء بمصر » مقالًا بجريدة الأهرام [11] بعددها الصادر فى ١٦ أبريل سنة ١٩٢٤ م يتضمن هذا المعنى الذى أشار إليه أحد كبار الكتاب من قبل تحت عنوان : « الدين والخلافة والسياسة » فما كان من الأمير عمر طوسون إلا أن بادر بالرد على مقال الجمعية وذلك بجريدة الأهرام ليوم ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ م وجاء فيه :

« إن مسألة الخلافة لا تخص بلدًا إسلاميًا دون بلد آخر ، ولا هيئة رسمية أو غير

(١٠) ١٨٧٢ - ١٩٤٤ م (١٢٨٩ - ١٣٦٣ هـ) . آزر الحركة الوطنية المصرية بقلمه وماله ، غير متقيد بتقاليد الأسرة ، ساعد أهل طرابلس الغرب حين أغارت عليهم إيطاليا ١٩١٠ م .

(١١) أسسها سليم وبشارة تقلا بالأسكندرية ثم القاهرة سنة ١٨٧٦ م .

رسمية ، وخصوصًا وأن جماعة الخلافة بوادى النيل أهابت منذ نشأتها بالحكومة أن تتولى هذا الموضوع الخطير على الصعيد الرسمى ، ولكنها تقاعست لحاجة فى نفسها لتعمل لها بطرق أخرى ، ولم تولى الموضوع أى اهتمام إلا عندما وجدت أن الدعوة على الصعيد الأهلى ستؤثر فى اتجاهاتها الخاصة ، ومن ثم فإن كل مسلم يعتبر واقفًا على ثغر من ثغور الإسلام ومسئول عنه » .

وإزاء هذا الحرج الذى وضع الأمير فيه جميع الهيئات الرسمية المسئولة ، بعثت جمعية تضامن العلماء مندوبها إلى الأمير للاعتذار .

وقد أرسلت هذه الجمعية هذا الرد الغامض إلى جريدة النظام بعددها رقم ١٣٢٥ الصادر بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٢٤ م تحت عنوان : مسألة الخلافة ورأى سمو الأمير طوسون :

« قرأت بأهرام يوم الاثنين ٢١ أبريل سنة ١٩٢٤ م خطابًا موجهًا إلى جمعية تضامن العلماء على لسان صاحب السمو الأمير الجليل عمر طوسون متضمنًا رأى سموه حول مقالنا الذى نشرناه بأهرام الأربعاء ١٦ أبريل ١٩٢٤ م بعنوان : (الدين والسياسة والخلافة) . وإذا كان سموه يرى أن الخلافة كما قال لا تخص بلدًا إسلاميًا دون بلد ، ولا هيئة رسمية أو غير رسمية ، فإنى مع سموه أرى هذا الرأى ، وهو لا يتنافى مع العرف والمألوف من أن الرسميات فى الأمم والحكومات قد أعتبرها من النظام العام حواجز وفوارق بين الفوضى وحرمة القانون لهذه الحرمة وذلك النظام ، ولو تريث سموه ووقف مستطلعًا رأى الحكومة فى عقد مؤتمر الخلافة . أما مشيخة الأزهر أصدرت قرارها فى شأن الخلافة منفردة عن العالم الإسلامى فلها فى ذلك شفيع من أنواع ثلاث :

أولًا : ما وجهه الناس على سكوتها من العتب والنقد .

ثانيًا : ما ورد على المشيخة من العالم الإسلامى طلبًا للاستفتاء .

ثالثًا : ما جرت عليه السنة فى جميع المناسبات » .

وفى حوار صحفى أجراه محرر جريدة الوطنية مع الإمام السيد محمد ماضى أبى العزائم رئيس لجنة الخلافة المركزية الكبرى فى مصر ، وذلك بعددها رقم ٢٤٦ الصادر فى يوم الاثنين ١٠ جمادى الآخرة ١٣٤٣ هـ الموافق ٥ يناير ١٩٢٥ م ، كان الحوار الذى يخص موضوع الخلافة الإسلامية من هذه المقالة ما يلى :

سؤال : هل لمولاى الأستاذ غرض خاص فى عمله للخلافة ؟

جواب : لابد لكل عامل غرض يبعثه على العمل وإلا كان عابثًا ، والغرض من تلك النهضة يقظة المجتمع الإسلامى لتشكيل لجان تمهد السبيل لتكوين مؤتمر إسلامى عام يكون له الكلمة فى اختيار الخليفة والقيام بما يلزم الخلافة ، لأن الخلافة منصب نبوى ، لا دين ولا دنيا إلا به ، وكل مسلم متعين عليه المسارعة إلى هذا العمل ، وحضرتكم تعلمون أن الأمة تنال بالخليفة الممثل لمقام النبوة مجدها الذى كان لسلفنا الصالح من التمكن فى الأرض بالحق ، ومن نيل الحرية والاستقلال ، والسلامة من التفرقة وإهراق الدم ، ومن تسليط العدو علينا .

سؤال : هل للأستاذ نظر خاص فى تعيين شخص معين ؟

جواب : إن العامل لله ولخير الأمة يجب أن تضمحل فى نظره أغراضه الشخصية ، وأن تتضاءل أمامه العواطف مهما اقتضته الشئون ، وينبغى أن يكون الحق أحب إليه من كل ما سواه ، والحق الذى لا مراء فيه أن تكون الكلمة العليا للمجتمع الإسلامى الذى يمثله المؤتمر. ومثلى بعد هذا السن وبعد تلك المصائب التى أصابت المجتمع الإسلامى ينبغى أن يكون فرحه بالحق ورغبته فى الخير العام ، على أنى لا أبرى نفسى من أن أتمنى أن يقيم الله للأمة خليفة مجملًا بجمال النبوة علمًا وخلقًا فى أمة حرة مستقلة ذات طول وحول يهابها الأعداء ويرجوها الأوداء .

سؤال : ما رأى الأستاذ فى نتيجة النهضة للخلافة ؟

جواب : (هنا سكت حتى ظننت أنه لا يتكلم ، ثم التفت إلىّ مبتسمًا وقال :) المسلمون لا غنىً لهم عن خليفة يلم شعثهم ، ويقيم لهم حدود دينهم ، وينفذ أحكام ربهم ، ويدفع عنهم ظلم المستعمرين وسلطة المستعبدين ، وإن ما ألمّ بالشرق وحلّ به أعراض مرض فقْد الخليفة بمعناه ، وإن ما أجده فى نفسى فى هذا الشأن يجده كل مسلم بل ويجده أهل الذمة فى الشرق ، والذى أعتقده أن إلغاء دولة الترك الخلافة خير عظيم للمسلمين ، فقد أيقظتهم تلك الحادثة خصوصًا وقد اشتد ظلم المستعمرين ، وقد أبى خيرة الصحابة أن يشتغلوا بتجهيز النبى ﷺ حتى يعينوا الخليفة . ويظهر لى أن الله تعالى يريد أن يعيد للمسلمين مجدهم بالخلافة لأنه انتقم من حسين بن على [١٢] بدعواه الخلافة وليس أهلًا لها ، وأعان سبحانه الترك على إلغائها ، وسيكون للخلافة شأن عظيم

(١٢) والى الحجاز .

إن شاء الله تعالى .

سؤال : ما حكم المسلمين الذين يبايعون الخليفة على الطاعة ويعجزون - لسبب وجود بلادهم تحت حكم دولة أجنبية - عن طاعته والإذعان لأمره ونهيه ، ويعجز هو عن إرغامهم على الطاعة أو على تحريرهم من السلطة الأجنبية المتغلبة عليهم ليكونوا تحت طاعته ؟ وما فائدة مبايعتهم له والحالة كما ترون حقيقتها ؟ .

جواب : إن الله تعالى يقول : ﴿ وما جعل عليكم فى الدين من حرج ﴾[13] ، وقد تفضل سبحانه فجعل فى كل زمان رجالًا يستنبطون الحكم من الشريعة على كل حدث لم يسبق له نظير فتقضى فيه أئمة السلف الصالح ، قال تعالى : ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾[14] ، وأولى الأمر هم العلماء ورثة النبى ﷺ ، وقد وسع الله لنا عند الضرورة .

وإنى قد بينت فى تقريرى الذى سيرفع للمؤتمر البيان الذى يلزم للأمم الإسلامية المحتلة بالأجانب من جهة ما يتعلق بشئونهم الدينية ، وإنى على يقين أن الدول المتسلطة لا تقوى على رد الفعل إذا هى صادمتنا فى ديننا ، وحرية الأديان مقدسة ، فإقامة شعائر الدين وتولية الأئمة والقضاة الشرعيين والتعليم الدينى فى المعاهد منوط بالخليفة أين كان .

وحضرتكم تعلمون أن دول أوربا لم تتدخل فى الشئون الدينية بصفة رسمية ، وإن كنا لا نجهل تدخلها بانتشار البعثات الدينية فى الشرق تحت ستار حرية الأديان ، والأمم المتسلط عليها الأجنبى لا تحتاج إلى قوة تقهرها على طاعة الخليفة لأن روح الدين والعقيدة يجعلان الأمة مطيعة للخليفة فيما ينفذه عليها من أحكام الدين بواسطة الأئمة والقضاة والعلماء ، والخليفة إنما ينفذ أحكام الدين فقط ، والأمم المتغلبة يسرها جدًا محو الفتن والهرج والمرج حتى تنال بغيتها من نشر تجاراتها وصناعاتها ، وإذا كان الخليفة المنتخب يعجز الآن عن تحرير الأمم الإسلامية من سلطة الأجانب والإنسان دينى بالطبع ، فقريبًا يصبح أهل أوروبا وأمريكا مسلمين لأن الإسلام دين العلم والعمل .

سؤال : إذا تعذر وجود الملك المسلم الذى يستطيع أن يبسط ظل سلطانه على كافة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها حتى يبايعه المسلمون وتجب عليهم طاعته ، ألا ترى أن يسعى مسلمو كل مملكة محكومة بدولة أجنبية للاستقلال بأوقافهم وقضائهم

---

(١٣) سورة الحج آية ٧٨ .

(١٤) سورة النساء آية ٨٣ .

الشرعى ومساجدهم وكل أمورهم الدينية وأن يجعلوها جميعها تحت سلطة الخليفة الذى يتولى تنصيب القضاة الشرعيين والمفتين وأئمة المساجد ونظار الأوقاف وإدارة المعاهد الدينية الإسلامية ، فيكون له على كافة المسلمين السلطة الروحية إذا تعذر عليه نيل السلطتين الدينية والدنيوية عليهم بسبب وجودهم تحت حكم دولة أجنبية ؟ .

جواب : الجواب على هذا السؤال يؤخذ ضمنًا من الإجابة السابقة ، ولما كان المؤتمر هم رجال منتخبون من جميع الدول الإسلامية فسيكون بحثه فى جميع الشئون المتعلقة بالأمم الإسلامية من جهة الخلافة التى تمثل النبوة وبها قوام الدنيا والدين ، وسيكون للحكم الوجودى قسط عظيم من قراراته .

واعتقادى أن المجتمع الإسلامى يحترم وينفذ قرار المؤتمر بكل الوسائل المشروعة ، وكل الدول المتغلبة على الدول الإسلامية تكره أن تقف أمام أربعمائة مليون مسلم [١٥] ومثلهم من الشرقيين يتحدون بإخوانهم المسلمين ، لأن الإسلام أنزل غير المسلم من أهل الذمة منزلة المسلمين احترامًا ومعاملة وحقوقًا ، فلا ترى شرقيًا فى أى أمة من الأمم الإسلامية إلا ويرى المسلم أخاه فى المعاملة والمساواة والحرية ، ويُرَى الأجنبى عن الشرق يحتقر الشرق وأهله ويسلب منه مرافق الحياة . والشرق كله تجمعه قومية واحدة والإسلام يؤيد تلك الجامعة ، ولولا ذلك لما وجد بين المسلمين أقلية من النصارى واليهود متمتعين بكل الحقوق : يقف اليهودى مع الخليفة الأعظم - سيدنا على بن أبى طالب - أمام القاضى ، وقد وقف هارون الرشيد أمام القاضى أبى يوسف يخاصمه يهودى فحكم بالعدل ، ووقف رجال من الأنصار يخاصمون يهوديًا أمام رسول الله ﷺ فبرأ القرآن اليهودى وحكم على المسلم الأنصارى ومعه عصبة من الأنصار ، وأمر أمير المؤمنين عمر رجلًا قبطيًا فقيرًا أن يلطم ابن أمير مصر وفاتحها - عمرو بن العاص - على وجهه يوم الحج الأكبر ، والحجة قائمة والحق أبلج والباطل لجلج .

أما تعيين مكان المؤتمر فإنه سيكون بقرار من جميع اللجان التى شكلت فى مصر والهند ونجد وتونس وغيرها من البلدان الإسلامية ، وهذا المكان الذى لم يعين بعد يجب أن يكون فى أرض حرة مستقلة تضمن حكومتها حفظ كرامة المؤتمر وإطلاق الحرية له فى تقرير ما لابد منه ، ولابد أن يكون فى المؤتمر ممثلون لكل أمة من الأمم الإسلامية ، لا فرق بين الأمم المستضعفة والمستقلة ، وقد ورد إلينا من أكثر اللجان قرارات استحسان عقد المؤتمر فى مكة إجابة لدعوة عبد العزيز آل سعود سلطان نجد وملحقاتها ، وكلفونى بأن

---

(١٥) عدد المسلمين وقتذاك .

أنوب عنهم فى عمل ما يلزم من إعداد الوفد الممثل لهم ووضع ما لابد من وضعه ليعرض على المؤتمر، فشكرًا لله على حسن ثقتهم بى، وسألت الله تعالى أن يعيننا جميعًا بعنايته الصمدانية على العمل بمحابه ومراضيه إنه مجيب الدعاء.

وأخبرنى صديق لى من أمراء الأسرة المالكة المحبوبين لجلالة الملك المقربين منه أن جلالة ملك مصر لا يرغب فى الخلافة ولا يسعى لها، وعدم رغبة جلالته فى الخلافة فى نظرى كعدم رغبة دولة الغازى رئيس الجمهورية التركية، وامتناعهما عن قبول الخلافة لا يمنع المؤتمر أن ينتخب من يراه أولى بالخلافة وينفذ قراره بالوسائل المشروعة.

ونشرت للإمام جريدة الوطن فى عددها رقم ٩٠٥٥ والصادر بتاريخ ٢٤ شعبان ١٣٤٣هـ الموافق ٩ مارس ١٩٢٥ م مقالة للإمام بعنوان:

الخلافة والحرمان الشريفان – ما يخص موضوع الخلافة ما يلى:

«مضى على المسلمين زمن احتجبت فيه عنهم أنوار الخلافة العظمى حتى كانت لا تذكر إلا على المنابر يوم الجمعة فيسمعها المصلون سماع معتاد لا يحس بقوة تأثيرها، وبلغ التساهل بهذا المنصب النبوى أن صار الخليفة يسمى سلطان آل عثمان تهاونًا بحقوقها وجهلًا بتفسيرها، أنتج هذا التهاون ضعفًا فى قوة الرابطة أدى إلى أن صار المسلمون يُعِينون الأجانب على الخليفة وأنصاره نسيانًا لحقوق هذا المقام النبوى أو تناسيًا، فلما أيد الله رجال الترك ونصرهم بنصره على أعدائهم، أدركوا أن هذا الاسم هو على غير مسمى ويتعين أن يعاد إلى ما كان عليه أو يُلغى، وإعادته إلى ما كان عليه لا يكون بأمة واحدة بل بالمجتمع الإسلامى، فألغوا الخلافة حكمًا منهم على أنفسهم، وخلعوا الخليفة من بينهم، وكأنهم يقولون للمجتمع الإسلامى هذه بضاعتكم رُدَّث إليكم فاعملوا إنا معكم عاملون.

قدر سبحانه هذا الأمر ليظهر شأنًا من شئونه هو إعادة الخلافة إلى ما كانت عليه، دليل ذلك يقظة المسلمين فى جميع أقطار الأرض وقيام أهل التقوى والعقل منهم للعمل فى شأن الخلافة والحرمين الشريفين، أما الخلافة فإن المسلمين جميعًا يرونها المثل الأعلى للنبوة وأنه لا دين ودنيا إلا بها خصوصًا فى هذا العصر الذى تفرقت فيه الأمة أيدى سبأ بفتن أوروبا وتدخلها فى الشئون الدينية، عرقلة لمساعى العاملين للخلافة ومساعدة للمبشرين، وذلك مقرر لدينا جميعًا، واعتقادنا أن ما نشره المقطم[١٦] عن منع

---

(١٦) جريدة المقطم أسسها يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس بالقاهرة سنة ١٨٨٩ م.

الإنجليز مؤتمر الخلافة ببنغال وملبار عن مواصلة العمل من هذا القبيل ، مع أن تعيين الخليفة بمعناه خير عام للشرق والغرب كما قررنا فى مقالاتنا السابقة ، والمسلمون جميعًا يرون أن تعيين الخليفة واجب دينى بالإجماع لإقامة الشعائر والحدود ودفع المتلصصة والمتغلبة والظلم عن الشرق بأجمعه » .

وكان الإمام قد أرسل خطابًا إلى الملك عبد العزيز آل سعود «١٩٢٥م - ١٣٤٣هـ» يشير إلى موضوع الخلافة الإسلامية وإلى أعمال الملك فؤاد لترشيح نفسه خليفة عن المسلمين وهذا جزء منه (١٧) :

« .... ولولا وجود المنافقين بيننا لما أصبح فى الشرق مستعمر ، هذا وإنى منذ ألغى الترك الخلافة وخلعوا الخليفة وأنا والحمد لله أعمل لتقوية روابط الإخاء بين الدول الإسلامية مع ما ألاقيه من حرب المنافقين ، وكنت أحب أن يكون المؤتمر الإسلامى فى أنقرة ، حتى أظهركم الله وأكرم بكم مكة وأعزها وطهرها من أهل الإلحاد والظلم فى الحرم ..

... وقد كان بعض العمال والموظفين فى مصر يعملون فى الخلافة لشخص معين حتى أفسدوا على الأمم عقائدها ، فاتحدت بهم جمعية الخلافة فى الهند ، فأسرعت وبينت لإخوانى فى الله : شوكت على والدكتور أجمل خان والأستاذ الأنصارى وكفاية الله وغيرهم حقيقة الأمر ، فرفضوا اتحادهم بعلماء الأزهر الذين توجهوا إلى الحجاز ، فكتبت لأخى الشيخ عبد الله بن سالم كبير علماء نجد ، فشرح الله صدره وكتب لى بما طمأن قلبى ، وإنى الآن مع أهل الإيمان والتقوى من المصريين والهنود وأنصار الحق بنجد وجاوا والبوسنة والهرسك وجنوب أفريقيا وسومطرة وغيرهم ، بل وجميع الأمم الإسلامية الذين حفظ الله قلوبهم من ظلمة البدع وحفظ أبدانهم من موالاة الأعداء ، يرون العمل معنا ليكون المؤتمر الإسلامى العام بمكة المكرمة » .

وقد تلقى الإمام الرد التالى من الملك عبد العزيز «١٩٢٥م - ١٣٤٣ هـ» هذا نصه :

من عبد العزيز عبد الرحمن الفيصل آل سعود إلى جناب الأجَلّ المُكرَّم فضيلة السيد محمد ماضى أبو العزائم سلّمه الله .

السلام عليكم ورحمة الله على الدوام ..

---

(١٧) جريدة العلم المصرى : العدد الصادر فى ٩ فبراير ١٩٢٥ م ، وأيضًا مجلة المدينة المنورة المجلد الخامس .

ثم ورد إلينا كتابكم المؤرخ فى ١٥ يناير الماضى ، وأسرّتنا أخباركم ، وما ذكرتم صار عندنا معلومًا خصوصًا ما ذكرتم من نصائحكم الثمينة الخالصة جعلناها على الخاطر كذلك دفاعًا عن الحق وأهله ، هذا أقل ما نؤمله من أمثال فضيلتكم لا زلتم موفقين لكل خير ، وإنى أحفظ لكم هذا العمل الطيب مع الشكر الخالص ، وستحفظ لكم عندنا أجمل ذكرى ، وبحول الله إن الأمور ستكون وفق ما يرضاه كل مخلص لله ورسوله ، ونسأل الله تعالى أن ينصر دينه وكتابه ويعلى كلمته ويجعلنا من أنصاره ، والأمل ألا تنقطع عنا كتبكم المفيدة والحاوية لهذه المعانى الطيبة .. هذا ما لزم بيانه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته [١٨].

انعقاد المؤتمر العام بمكة المكرمة :

ومنذ الإعلان عن إلغاء الخلافة الإسلامية ، وبعد ذلك بعامين من العمل المضنى ، أعلن الإمام عن موعد انعقاد مؤتمر الخلافة الإسلامية بمكة المكرمة فى موسم حج عام ١٣٤٤هـ وبالتحديد يوم ٩ يونيو ١٩٢٦م بمكة المكرمة برئاسة الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت جماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل قد أعلنت قبل السفر إلى مكة المكرمة - وكما ذكر ذلك مرارًا من قبل - عدم صلاحية مصر لانعقاد المؤتمر العام للخلافة بها للأسباب التى بينها سماحة السيد محمد ماضى أبو العزائم رئيس جماعة الخلافة الإسلامية بوادى النيل فى قرارات اللجنة التنفيذية ومقالاته المنشورة فى الصحف وأقره عليها العالم الإسلامى بأسره .

. وكان عبد العزيز آل سعود ممن فكر أن يكون خليفة للمسلمين فهو ملك مكة والمدينة والحجاز فهو فى نظر نفسه أولى بها ، ويؤيده فى ذلك بعض قادة العرب وكذلك بريطانيا ، والملك فؤاد يريدها أيضًا لنفسه فهو ملك أقوى دولة عربية إسلامية وفيها الأزهر الشريف وفيها العلماء وتؤيده فى ذلك بريطانيا أيضًا ، فهى تؤيد هذا وذاك كل على حدة ، تريد من ذلك الوقيعة بين الدول الإسلامية ، وكان هناك مرشحين من المغرب وسوريا والعراق وغيرهم كل منهم يريد أن يكون الخليفة .

وبمجرد صدور هذا الإعلان أعلن الملك فؤاد عن مقاطعته للمؤتمر منذ بدء انعقاده ، ظنًا منه أن هذا يعرقل سيره ويعرضه للفشل ، ولكن الصحافة المصرية بعثت بمندوبيها لحضور المؤتمر ، وخاصة جريدتى الأهرام والأخبار التى مثلها الأستاذ الكبير أمين الرافعى . حضر

(١٨) مجلة «المدينة المنورة» المجلد الخامس .

الإمام هذا المؤتمر بصفة شعبية لا بصفة رسمية ، فقد أقامه الإخوان فى البلاد وآلاف مؤلفة من الناس ، وكان معه توقيعات من العمد والمشايخ والأعيان والموظفين تفيد بتوكيل الإمام أبى العزائم أن يكون ممثلًا للشعب المصرى فى مؤتمر الخلافة الإسلامية ، وكانت هذه الخلافة مقامة فى مصر ولكن على المؤتمر العام وشعبية وليست رسمية .

خرج الإمام محرمًا بالحج من داره ، ومن ورائه خمسمائة من خاصة أتباعه ومن يتقلدون مناصب عليا فى مؤتمر الخلافة ، فقد كانت مهمة دينية وسياسية .

وفى يوم ٥ يونيو ١٩٢٦م تم الاجتماع لأعضاء الوفود بمقر إقامة الإمام بمكة المكرمة للتعارف ، وقد قام الإمام بذلك بنفسه ، وفى يوم ٦ يونيو كان الاجتماع أيضًا بدار الإمام بعد صلاة العصر حيث افتتحت الجلسة بآيات من الذكر الحكيم . بعدها فسر الإمام للحاضرين ما قرأه القارىء ، وكان المترجمون يترجمون إلى الإنجليزية هذا التفسير لعلماء الهند وجاوا ، ونترك المجال لما ذكره محرر جريدة الأهرام(١٩).

ثم انتقل الشيخ إلى التكلم فى مسألة المؤتمر ، وأدلى بآدابه الواجب اتباعها فى أداء هذه المهمة الإسلامية باتحاد وتضامن ، وأثنى كثيرًا على ملك الحجاز ، ثم تناقش الأعضاء اقتراحاته ، وكان رد الشيخ بأنه يجب التكاتف لرفعة كلمة الإسلام والمسلمين وحفظ شريعة رسول الله ﷺ ، وهذا هو الغرض الأسمى .

وفى يوم ٩ يونيو وهو يوم افتتاح أولى جلسات المؤتمر ، وبعد أن قرأ ملك الحجاز خطابه ، قال محرر الأهرام فى مقالته :

«وتم فى الحال انتخاب الرئيس ونائبين للرئيس ، فأسفر ذلك عن انتخاب شريف باشا عدنان ونائبيه سليمان العدوى الهندى ، وصفاء الدين أفندى من مسلمى روسيا ، وقد قرأ الشيخ حافظ وهبة أهم الأعمال المعروضة وأخذ الرأى عليها باسم الملك عبد العزيز آل سعود وغايته :

١ - تعارف المسلمين بعضهم مع بعض وتوحيد كلمتهم تحقيقًا لقوله تعالى : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾(٢٠) .

٢ - النظر والسعى فى ترقية شئون المسلمين اجتماعيًا وأدبيًا واقتصاديًا .

٣ - النظر والسعى فى توطيد الأمن فى الأراضى المقدسة والعمل على تعميم

---

(١٩) جريدة الأهرام : العدد الصادر فى ٦/٦/١٩٢٦ م .

(٢٠) سورة الحجرات آية ١٠ .

الوسائل الصحية وتسهيل المواصلات وتسهيل أمور الحج وإزالة كل عقبة فى سبيل أداء الفريضة وضمان سلامة الحجاز وحفظ حقوقه.

٤ - يكون انعقاد المؤتمر فى مكة كل عام فى موسم الحج، فإذا تعذر ذلك فيكون فى بلد مستقل، وإذا تعذر ذلك فيكون كما قال تعالى: ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾[٢١].

ولم يشر الملك عبد العزيز لا من قريب ولا من بعيد عن الهدف الذى انعقد من أجله هذا المؤتمر، كذلك الشيخ حافظ وهبة وزيره تلا النقاط الأربعة السابقة التى ليس فيها أى إشارة إلى موضوع البحث، ألا وهو إلغاء الخلافة الإسلامية وضرورة إعادتها !!

وبعد الاستراحة أحيط المجلس علمًا بأن مصر ليست ممثلة تمثيلًا رسميًا، ولكن المؤتمر اعتبر الشيخ محمد ماضى أبو العزائم رئيس جماعة الخلافة بوادى النيل حاضرًا عنها.

وقد قدّم الإمام للمؤتمر أربعة عشر اقتراحًا[٢٢] لصالح الإسلام والمسلمين، وانتهت جلسات المؤتمر بالفشل رغم الجهود التى بذلها الإمام لإحياء الخلافة وإعادة منصبها، لأن السياسة الاستعمارية كانت من وراء القصد.

والملاحظ أن المؤتمر الذى ظل المسلمون يعملون له لمدة عامين بهمة ونشاط لا تعرفان الكلل، ورغم ما تعرض له زعماؤهم وقادتهم من كيد المتجبرين وعسف المحتلين، والذى كان الغرض الأساسى من انعقاده النظر فى موضوع الخلافة وتعيين الخليفة .. قد انصرف منذ اللحظة الأولى التى ألقى فيها الملك عبد العزيز خطابه عن الهدف الأسمى إلى مسائل فرعية بحتة تاركة مسألة الخلافة !! وقد بدأ الانقسام فى صفوفه منذ الجلسة الأولى عندما تغيب رئيسه عن الحضور، ثم فترت جلساته شيئًا فشيئًا، وما هى إلا بفعل القوى المعادية لائتلاف الشعوب الإسلامية.

ولم يبت فى شأن الخلافة ومقرها ولا الخليفة والصفات الدينية والزمانية التى يجب أن تتوفر فيه، ولم يصدر أى قرار يتعلق بهذا الشأن حتى الآن.

وقد ذكر شهود العيان لهذا المؤتمر أنه قد قام كل إنسان يشيد بما يراه فى إمامه أو زعيمه الذى يرشحه لهذا المنصب، إلى أن جاء دور الإمام فقام رضى الله عنه ليشرح موقف الخلافة وصفات الخليفة وابتدأ خطبته بمقدمة، وكان رضى الله عنه إذا تكلم يجعل

---

(٢١) سورة التغابن آية ٦٤ .

(٢٢) راجع قانون الخلافة الإسلامية بوادى النيل .

بين المقدمة والخطبة لحظة سكون اقتداء برسول الله ﷺ الذى كان يجعل بين الآية والآية سكتة ، وفى هذه اللحظة قام السيد محمد رشيد رضا - صاحب تفسير المنار - وكان من المؤيدين للملك عبد العزيز وقال : بسم الله .. وتحدث عن الملك بدون أن يقدمه أحد ، يقول الشيخ أحمد سعد العقاد وكان من الملازمين للإمام : ما رفعت صوتى قط فى حضرة إمامى ولكن هذه هى المرة الأولى التى رفعت فيها صوتى فى حضرته ولكن فى الله ورسوله فقلت : يا سيد محمد رشيد رضا : إن الإمام لم يكمل كلمته وأنت الآن عارضته وأظن أن أى إنسان له كلمته والرجل لم يقل إلا المقدمة وتعتبر هذه مغالطة ، فأومأ الإمام للشيخ العقاد بالسكوت فأكمل السيد محمد رشيد رضا كلامه ، ثم بعد ذلك قام الإمام ، وبنظرته الثاقبة أكمل بكلمات معدودة فقال : « لا أريد خليفة للمسلمين يضع الجندى البريطانى حذاءه فوق رقبته » إشارة إلى أن أى بلد مستعمر أو يوالى المستعمرين لا يصح أن تكون الخلافة منها وفيها .

وجاء يوم عرفة واجتمعت الوفود فى مسجد نمرة واتفقوا على أن يلقى خطبة الجمعة الإمام أبو العزائم رضى الله عنه ، والتمسوا ذلك من الملك عبد العزيز فأجاب ملتمسهم ، فقال لهم الإمام : « هذا مقام لا ينبغى إلا لرسول الله ﷺ أو لخليفته » فارتفعت أصواتهم جميعًا بقولهم : « قد أقمناك ورضيناك خليفة عن رسول الله ﷺ » فخطب الإمام خطبة تفوق وصف الواصف ، وصلوا خلفه الظهر والعصر جمع تقديم كما هى السنة(٢٣).

ولقد كانت هناك بعض المضايقات والاستفزازات من الملك عبد العزيز آل سعود بسبب أفكاره الوهابية ، دعا الملك عبد العزيز الوفود والحاضرين إلى مأدبة الغذاء ، وكان الطباخ قد وضع الأرز على هيئة قباب كبيرة ، وكان الإمام يجلس قريبًا من الملك عبد العزيز ففهم هذه الإشارة ، فأراد الإمام أن يُلمّح للملك ، فضرب يده فى القبة وقال هذه القباب هى التى يجب أن تهدم وليست قباب سيدنا مالك والسيدة خديجة وأولاد الرسول ﷺ ، فغضب الملك عبد العزيز وقال : أعجب لكم أيها المصريون ، تقدسون الطين وتكفرون برب العالمين ، فكبّر من مع الملك تكبيرة ظنًا بأن ملكهم قد انتصر بكلمته هذه ، فقال الإمام فى هدوء : ألم تكن الصفا والمروة من شعائر الله وهى من الطين ؟ فألجم الرجل .

وحدث أن أرسل الملك عبد العزيز آل سعود إلى الإمام رضى الله عنه أحد كبار علمائه الموثوق بهم عنده - وكان اسمه مدثر - وقال له : اذهب إلى هذا الرجل وجدد له إيمانه لأنه صوفى ، وكان الإمام رضى الله عنه مضجعًا على أريكة فقرّب الشيخ العقاد الشيخ

(٢٣) كتاب « هداية السالك إلى علم المناسك » للإمام أبى العزائم رضى الله عنه .

مدثر من الإمام، فرّحب به وطلب له كرسيًا وقال له: مرحبًا بكبير العلماء مرحبًا بمفتى البلاد مرحبًا بالشيخ مدثر، إنى أشعر بألم فى قلبى فأرجو أن تضع يدك على قلبى وتقول لا إله إلا الله، لعل الله يخفف ألمى، فجلس الرجل ووضع يده فوق قلب الإمام وأراد النطق بالشهادة فلم يقل إلا: لا لا لا لا لا .. والتجم لسانه ولم ينطق بالكلمة، ثم بكى وقال: سامحنى أيها الشيخ، جئتك مغترًا، وأرجو يا إمام أن تدعو الله لى أن يثبت إيمانى وأن يثبتنى على هذه الكلمة، فدعا له الإمام وجدد له إيمانه، وجرى ونسى حذاءه وصار يتخبط فى مشيته وجعل يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

العمل على انعقاد مؤتمر آخر للخلافة الإسلامية بالقدس:

وبعد عودة الإمام من المؤتمر إلى مصر جدد الاتصال بزعماء وملوك البلاد الإسلامية وخصوصًا رجال الهند، كما جدد الدعوة إلى عقد مؤتمر إسلامى آخر بمدينة القدس وحددوا لذلك يوم ٣١ ديسمبر ١٩٣١م، وحاولت السلطات البريطانية إفساد هذا المؤتمر ومنعت الحكومة المصرية إعطاء تأشيرة خروج للإمام، كما رفضت سلطات الانتداب فى فلسطين السماح له بالدخول، وأراد أن يحصل على ترخيص بمقابلة زعماء الهند فى ميناء السويس بسبب وجودهم على الباخرة المتجهة إلى لندن لحضورهم مؤتمرًا مع الحكومة البريطانية ثم توجههم بعد ذلك إلى حيفا، فمنعت الحكومة الباخرة من الوقوف فى ميناء بور توفيق وجعلت تموين الباخرة بالفحم من ميناء بورسعيد، وإزاء ذلك لجأ إلى حيلة نجح من خلالها فى مقابلة الوفود المشاركة وكان على رأسها أمين الحسينى مفتى فلسطين والأمير شوكت على، والأمير محمد على، والدكتور محمد إقبال، فقد أوفد ولده السيد محمد الحسن بسيارة الإمام الخاصة فى اتجاه السويس تضليلًا للسلطات التى ظنت أن الإمام هو الذى بالسيارة، ثم استقل الإمام سيارة أجرة ذهبت به ليلًا إلى بورسعيد حيث قضى الليل فى ضيافة نقيب الأشراف الشيخ محمد الصياد متعهد تموين السفينة بالفحومات الذى عمل له ترتيبًا خاصًا تمكن الإمام به من دخول الميناء والصعود على السفينة والاجتماع بزعماء الهند والتشاور معهم فى شئون المسلمين وعقد مؤتمر القدس، ولم تعرف السلطات ذلك إلا بعد رجوع الإمام للقاهرة.

وانعقد المؤتمر الإسلامى بالقدس، ولم تمثل فيه كل الوفود التى سبق أن مثلت فى مؤتمر يونيو ١٩٢٦م، فكان على رأسه الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين والأميران شوكت على ومحمد على والدكتور محمد إقبال، وحددت أهدافه منذ اليوم الأول للانعقاد فكانت:

أولًا : التعاون الإسلامى فى مختلف ميادين التعاون .

ثانيًا : نشر الثقافة الإسلامية لتنوير المسلمين بما يجب عليهم نحو الأخذ بالعلوم الحديثة والمحافظة على تراثهم .

ثالثًا : الدفاع عن الأماكن المقدسة بما فيها القدس الشريف .

رابعًا : إنشاء جامعة إسلامية فى القدس .

ولم يكن نصيب مؤتمر القدس فى ديسمبر ١٩٣١م من النجاح أو الفشل بأقل من نصيب المؤتمر الإسلامى الأول بمكة المكرمة فى يونيو ١٩٢٦م ، فكلا المؤتمرين أثرت فيه عوامل ذاتية نابعة من واقع العالم الإسلامى وحاضره من جهة ، ومن ألاعيب وكيد الاستعمار والصهيونية العالمية من جهة أخرى ، فأصبحا بذلك حدثين تاريخيين من حيث أنهما أول المؤتمرات الإسلامية فى العصر الحديث .

ولنا أن نبلور نتائج هذين المؤتمرين فيما يلى :

١ - إن موضوع الخلافة كان من الأهمية بمكان ، ويتضح من ذلك اهتمام الرأى العام الإسلامى به فترة تزيد على نصف القرن .

٢ - إن جهودًا فردية من رجال مؤمنين بربهم مع قلة عَددهم وعُددهم استطاعت أن توقف أطماع ملك مصر وأن تشل حركة المؤتمر المأجور ومن ورائه الاستعمار والحكومة ، فلقد استطاع الإمام أن يكتل الزعماء المسلمين فى آسيا وأفريقيا ضد أطماع فؤاد ، وأن يكشف حقيقة نواياه ، وأن يشككهم فى مخططاته .

٣ - إن تفرق أمراء وقادة المسلمين كان السبب الأساسى فى تأثير المستعمرين عليهم وفى حملهم على عدم التعرض لمسألة الخلافة ، لأنهم يرون فيها القوة المعنوية لاتحاد الأمم الإسلامية ضد مصالحهم التى تتلخص فى إبقاء الشعوب الإسلامية فى حالة جهل وتخلف لضمان تبعيتهم ولكونهم قوة بشرية واقتصادية هامة لهم .

٤ - إنه لو كتب لهذه المؤتمرات النجاح لتغير وجه التاريخ ولكان للمسلمين اليوم قوة وتأثير فى الموازين الدولية وهم ثلث سكان العالم حتى منتصف هذا القرن .

٥ - على أن هذين المؤتمرين كان لهما دوى هائل وأهمية تاريخية إذا قيسا بأحوال العالم الإسلامى فى الربع الأول من القرن العشرين حيث كانت البلاد الإسلامية جميعها تحت الاحتلال الأوروبى .

وسوف يذكر التاريخ للإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم خطواته البناءة نحو جمع الأمة الإسلامية والعمل على اتحادها ووحدتها فى صعيد واحد .

تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية

لم يقف دور الإمام أبى العزائم ضد الاستعمار عند وطنه ومسقط رأسه، بل إنه قد حول إيمانه ورسوخ عقيدته فى أن الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ، وأن الإسلام وطن والمسلمون جميعًا أهله، وأن الإسلام دين الله وفطرته التى فطر الناس عليها، إلى عمل حقيقى أثر فى إثراء العزيمة والتيار الجارف فى مناهضة قوى الاستعمار عند شعوب وزعماء الدول الإسلامية، ونستعرض هنا تلك الثورات التى أثر فيها رأى الإمام المجدد وما استطاع أن يقدمه من فكر وعمل[1]:

ثورة الهند:

فى عام ١٩٠٨ م قامت ثورة عارمة فى الهند واتحدت نحو هدف واحد هو التخلص من سيطرة بريطانيا وحكم الهند نفسه بنفسه، وكان حزب المؤتمر الذى تأسس عام ١٨٨٧م والذى ضم عناصر المثقفين والقادة السياسيين يضم كثيرًا من رجالات الإسلام الهنود أمثال محمد على جناح[2] ومحمد إقبال[3] وشوكت على والشيخ قرشى وغيرهم، ولما كان المسلمون أقلية بالنسبة للملايين من الهندوسيين، فقد رؤى تكوين حزب لهم فكان «حزب الرابطة الإسلامية» عام ١٩٠٦م والذى يعتبر مولد الباكستان التى قامت باسم تسعين مليونًا من المسلمين على أساس العقيدة والحضارة الإسلامية والمثل الأخلاقية العليا ولم تقم على أساس من العنصر، وقد نص دستور الباكستان على أنها جمهورية إسلامية تعيش بحسب تعاليم الدين الإسلامى وعلى هديه، وتعمل فى الميدان الخارجى على ضوء صلتها بالدول الإسلامية، ولقد كان دور الإمام أبى العزائم فى إنشاء دولة الباكستان من أوضح الأدوار فيها، فقد شهدت داره منذ بداية الحرب العالمية الأولى اجتماع زعماء الحركة الباكستانية إلى آخر أيام حياته، وكان من بينهم من تولى الحكم بعد الاستقلال فى الهند عام ١٣٦٦ هـ «١٩٤٧ م» وعلى رأسهم ظفر الله خان وزير خارجية باكستان، وعبد الستار سيت سفير باكستان فى مصر، وقد ظلا على وفائهما بعد وفاته كما كانا له حال حياته، يزورون ضريحه ويجتمعون بأبنائه ويتدارسون تراثه.

(١) كتاب «الإمام محمد ماضى أبو العزائم» الأستاذ عبد المنعم شقرف «بتصرف».

(٢) ١٢٩٣ - ١٣٦٧ هـ «١٨٧٦ - ١٩٤٨ م» سياسى وأديب باكستانى ومؤسس دولة باكستان وأول رئيس لباكستان «١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م» ورئيس الحلف الإسلامى «١٣٢٤ هـ - ١٩٠٦ م».

(٣) ١٢٩٣ - ١٣٥٧ هـ «١٨٧٦ - ١٩٣٨ م» أشهر الشعراء والفلاسفة بالهند، دعا إلى إنشاء باكستان والاستقلال عن الهند.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثورة التركية :

فى عام ١٩٠٨م حدثت هوجة الاتحاديين فى تركيا وتكونت « جمعية الاتحاد والترقى » إلى جانب « جمعية تركيا الفتاة » ووحدتا جهودهما ضد السلطان عبد الحميد[٤]، فأعاد الدستور بعد أن ظل معطلًا ربع قرن، ولكنه كحركة مضادة كون جمعية باسم « الجمعية المحمدية » وأجبر علماء الدين فى مختلف الولايات على عضويتها وتزعم الجمعية الشيخ أبو الهدى الصيادى[٥] داهية السلطنة.

وظن أبو الهدى أنه يستطيع أن يضم إليه الإمام أبا العزائم فأرسل إليه أحد أتباعه متخفيًا فى زى الدراويش، ولما اطمأن بخلوته بالإمام سلمه رسالة أبى الهدى طالبًا منه الرد كتابة، ولكن الإمام استطاع أن يرده بكلمات شفوية لأنه لم يكن يرتاح لسياسة أبى الهدى القائمة على التفرقة وإثارة العناصر والتجسس، وكلها أمور على نقيض سياسة الإمام أبى العزائم التى تقوم أساسًا على قول الحق تبارك وتعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا ..﴾[٦].

وقد قام الإمام بإرسال الرسالة تلو الأخرى إلى كل من زعماء الاتحاديين وزعماء حزب تركيا الفتاة وإلى السلطان ورجال الحاشية بالأستانة محذرًا من التفرقة ومن تشتت الكلمة فى الوقت الذى تتربص فيه أوربا بدولة الخلافة وبالعالم الإسلامى والعربى وتنتظر الساعة التى تنقض فيها على الشرق انقضاض الوحوش، ويستثير حماسة السلطان عبد الحميد مذكرًا إياه بموقفه الصلب فى وجه الصهيونية العالمية ممثلة فى زعيمها هرتزل[٧] عندما أراد أن ينتزع من السلطان أمرًا بإيجاد وطن قومى لليهود فى فلسطين، وينبهه فى الوقت نفسه إلى أن الصهيونية لن تسكت على هذه الإهانة وأنها لابد مدبرة أمرًا والله عز وجل يقول: ﴿خذوا حذركم﴾[٨]، غير أن السلطان عبد الحميد لم يلبث إلا قليلًا حتى أقصى عن الخلافة عام ١٩٠٩م وكانت تلك بداية لنهاية الخلافة الإسلامية وما أعقبها من أحداث.

---

(٤) ١٨٤٢ - ١٩١٨ سلطان عثمانى عزل ١٩٠٩م (١٣٢٧هـ).

(٥) ١٨٥٩ - ١٩٠٩ أشهر علماء الدين الإسلامى فى عصره، قربه السلطان عبد الحميد.

(٦) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٧) ١٨٦٠ - ١٩٠٤ مجرى يهودى أسس الصهيونية.

(٨) النساء : ١٠٣.

الثورة التونسية :

وفي عام ١٩٠٨ م ثار الزعيم التونسى على باش حمية وزميله عبد العزيز الثعالبى[٩] ، وكانوا ممن حضروا على الشيخ محمد عبده فى مصر مجاورين بالأزهر مع الإمام أبى العزائم ، وكانت ثورتهم تتلخص فى تكوين حزب لتنوير الشعب وتعريفه بحقوقه وواجباته ، فتألف حزب تونس الفتاة ، وكان لهذا الحزب دوره مع الإمام حيث توحدت جهوده فى تكوين جماعة الخلافة الإسلامية فى تونس عام ١٩٢٤م ، وكان الثعالبى يؤمن باتجاهات الإمام أبى العزائم ، تلك الاتجاهات التى تعارض الاحتلال الأوربى وترى فيه عدوانًا صليبيًا ومظهرًا من مظاهر الاضطهادات الدينية التى شهدتها أوروبا فى القرون الوسطى ، وقد أزعجت حركة الحزب المستعمرين الفرنسيين وسببت لهم الكثير من الخسائر والمتاعب ، فلجأت إلى حل الحزب قبيل الحرب العالمية الأولى وشتتت شمل القائمين عليه بين معتقل ومنفى فلجأوا إلى مصر ، واستضاف الإمام أبو العزائم الثعالبى وباش حمية إلى ما بعد الحرب حيث كونوا الحزب الدستورى عام ١٩٢٠م وآزره الملك محمد الناصر إلى أن حله الفرنسيون عام ١٩٣٣م .

الثورة المغربية :

وفى مراكش حاولت فرنسا إخماد ثورة محمد بن الريسون[١٠] ضد السلطان عبد العزيز بن مولاى الحسن[١١] عام ١٩٠٨م ، فثار الشعب ، وتولى مكانه مولاى عبد الحفيظ[١٢]ففقد ولاية شعبه ، وهاجم الثوار العاصمة فاس فى مارس ١٩١١ م فاستنجد بالفرنسيين الذين احتلوا فاس بينما احتلت أسبانيا العرائس ، وقبل السلطان الحماية فى ٣٠ مارس ١٩١٢، وقامت الثورة فأجبرت فرنسا السلطان على التنازل عن عرشه لابنه يوسف الذى استسلم للفرنسين ، وفى نفس العام فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٢ اتفقت فرنسا وأسبانيا على تقسيم البلاد إلى مناطق ثلاث :

---

(٩) ١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ (١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) رئيس الحزب الدستورى (١٣٣٨ هـ - ١٩٢٠ م) حلّه الفرنسيون (١٣٥٢ هـ - ١٩٣٣ م)، اعتقل عدة مرات ، غادر تونس إلى البلاد العربية ١٩٢٣م وعاد سنة ١٩٣٧ ثم اعتزل السياسة .

(١٠) ١٨٥٤ - ١٩٢٥م (١٢٧٠ - ١٣٤٣ هـ) انتصر على الأسبان بقرب تطوان وعقد مؤتمر الصلح فى ١٩١٥م (١٣٣٣ هـ)، أسره عبد الكريم الخطابى لما امتنع عن مناصرته ووالى الأسبان ، مات فى تماسنت - الأعلام ٢٥٠/١ .

(١١) ١٨٨١ - ١٩٤٤ م سلطان المغرب خلفًا لأبيه ١٨٩٤م ، قوى فى عهده النفوذ الفرنسى ، خلع ١٩٠٨م ، توفى فى طنجة .

(١٢) ١٨٦٣ - ١٩٣٧ م ، سلطان المغرب ١٩٠٨م ، اعتزل ١٩١٢ م .

١ - منطقة النفوذ الفرنسي وعاصمتها الرباط .
٢ - منطقة النفوذ الأسبانى « الريف » وعاصمتها تطوان .
٣ - منطقة طنجا وتبقى دولية .

ولم يستسلم الشعب رغم الكوارث التى حلّت به ، وكان الإمام يوالى ثورة عبد الكريم الخطابى[١٣] ويوليها كل اهتمامه لمعرفته بما عليه قلب ذلك الزعيم الإسلامى من إخلاص وصدق وشجاعة وفضائل إسلامية قل أن توجد فى عصره ، وقد جعل الإمام من بيته مثابة للاجئين من الريف ، كما جعل من مجلاته والصحافة الموالية له ميدانًا ينشر فيه انتصارات الثورة ويدعو لتأييدها وتشجيعها ، وقد لاقت دعوته رواجًا وتأييدًا منقطعى النظير فسارت الثورة من نصر إلى نصر ، انتصر عبد الكريم فى الريف عام ١٩٢٠م (١٣٣٩هـ) انتصارًا أذهل العالم كله ، وألّف حكومة إسلامية وطنية ، وعاودت أسبانيا مهاجمته عام ١٩٢٣م (١٣٤١هـ) فكانت هزيمتها حديث العالم كله إلى أن تدخلت فرنسا إلى جوارها فصمد الأمير حتى عام ١٩٢٦م ، وتولى القيادة بعده أخوه الأمير محمد فقاتل قتال الأبطال ولفت إليه أنظار العالم بما أبداه من شجاعة وحسن بلاء ودماثة خلق تجلى فى معاملته للأسرى من الأعداء ، ثم اضطر بفعل الخيانة إلى الاستسلام ، ونفته فرنسا إلى جزيرة « رى يونيون » مع أسرته .

وأثناء الحرب الفرنسية الأسبانية المغربية ، أرسل الإمام عشرين احتجاجًا إلى كبريات الدول تنافح فيها عن المجاهد الكبير عبد الكريم ، هذا لإنجلترا لفرنسا ، وذاك لألمانيا وإيطاليا ، يحذرهم سوء المغبة وينذرهم عاقبة هذه الغضبة ، وما كان ينام فى تلك الأيام إلا كنائم على خرط القتاد[١٤] يناجى ربه ويسأل لأوليائه النصرة على أعدائه .. ولله فى ذلك شئون .

الثورة الليبية :

وفى عام ١٩١١م كانت الثورة فى طرابلس تقض مضاجع العالم الغربى ، فقد أمكن لمائة وخمسين من جنود طرابلس بقيادة الشريف السنوسى[١٥] من إبادة ثلاثة آلاف جندى إيطالى قبل أن تحصدهم مدافع الإيطاليين ، وانهال التأييد بالمال والسلاح

(١٣) ١٨٨٢ - ١٩٦٣م (١٢٩٩ - ١٣٨٢ هـ) زعيم قبائل الرينه بالمغرب ، ثار على الأسبان وهزمهم قرب مليلة ١٩٢١م، استسلم للفرنسيين ١٩٢٦م، توفى بالقاهرة - الأعلام ٢١٦/٦ .

(١٤) شجر له شوك .

(١٥) ١٨٦٧ - ١٩٣٣ (١٢٨٤ - ١٣٥٢ هـ) قاتل الإيطالين .

والمتطوعين على ليبيا ، وأكدت صحافة الإمام الناشئة أن دور المسلم مهما تضاءل فهو مؤيد بالحق ، وتوالت الهزائم على إيطاليا والكوارث على الثوار ، وبرزت حركة شعوبية بمصر مؤداها أن مصر للمصريين وأنه لا داعى لإسال الأموال والأنفس إلى ليبيا لأن تركيا تخلت عنها وإيطاليا تؤازرها الدول الأوربية القوية ، ومن ثم فلابد لإيطاليا من احتلال ليبيا ومن واجب العرب والمسلمين أن يوفروا أموالهم وأرواحهم ، وكان يتزعم هذه الحركة « .....» وحزب أبناء الأسر فى مصر وبعض المثقفين ، وقد تصدى لهم الإمام بمقالات كثيرة واستمرت حملته إلى ما بعد الحرب حيث استؤنف القتال بين الثوار وإيطاليا ، ولجأ السيد أحمد الشريف السنوسى إلى تركيا ثم إلى مصر وكان ملازمًا ومن معه من الثوار لدار الإمام ، حيث كانت تنشر مجلاته أنباء الثورة وترد على مزاعم المستعمرين وترسل الاحتجاجات إلى ملك إيطاليا والبابا وكبار الساسة الأجانب وقناصل الدول[١٦].

يقظة شباب أندونيسيا :

وفى عام ١٩١١م تنبه الشباب الوطنى فى أندونيسيا إلى حقوقه ورغب فى رفع مستوى الشعب ثقافيًا واجتماعيًا ودينيًا ، فتأسست جمعية « نودى أوتومو » أى النزعة إلى الفضيلة ، ثم خطوا خطوة اقتصادية هامة فى محاربة المستعمر فتأسست شركة « دامانج إسلام » أى الشركة التجارية الإسلامية التى تحولت فيها بعد إلى حزب إسلامى يستهدف غايات إسلامية فى إطار تعاليم الإسلام ، وفى عام ١٩١٢ تأسست الجمعية المحمدية بمدينة « جوجاكرتا » واتصل الزعماء وعلى رأسهم محمد حتى وشهرير عام ١٩١٢ م فى موسم الحج بالإمام ، وكان لهذا اللقاء أثره ، فما كادوا يعودون إلى بلادهم حتى كونوا جمعية دينية إسلامية باسم « جمعية نهضة العلماء » وقد قامت هذه الجمعية على الأسس التى وضعها الإمام أبو العزائم ليقظة الشعوب الإسلامية ووسائل استعادة مجدها[١٧]، ورأت الجمعية أن توسع نشاطها فأنشأت فروعًا فى جميع أنحاء البلاد وكادت تنجح فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فى القيام بحركة للاستقلال ، غير أن الدول الاستعمارية هبّت لنجدة هولندا ، وقد اشتركت الجمعية وزعماؤها مع الإمام أبى العزائم فى العمل على إحياء الخلافة الإسلامية ، وكان لوفودها فى المؤتمر الإسلامى بمكة شأن عظيم معه ، كما كان زعماء أندونيسيا .. أحمد سوكارنو[١٨] وزملاؤه من أعضاء الحزب الوطنى

---

(١٦) مجلات السعادة الأبدية والمدينة المنورة منذ عام ١٩٢٢ م .

(١٧) كتاب «الإسلام نسب» للإمام أبى العزائم طبعة عام ١٩١٤ .

(١٨) ١٩٠١ - ١٩٧٠ .. سياسى أندونيسى أعلن استقلال بلاده عن هولندا ١٩٤٥ ، وكان رئيس الجمهورية عن الفترة (١٩٤٥ - ١٩٦٧) .

على صلة شخصية دائمة معه .

الجزائر :

سافر الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائرى إلى مؤتمر الصلح بباريس عام ١٩١٨م ليعلن وجوب الإصلاح فى الجزائر والمساواة بالفرنسيين وإلغاء القوانين الاستثنائية ، فنفته الحكومة الفرنسية ، وفى باريس كوّن « مصالى الحاج » جمعية « نجم شمال أفريقيا » عام ١٩٢٤م ، وتكونت فى الجزائر جمعية باسم « نادى الترقى »، وكان السيد أحمد توفيق المدنى زميل الإمام أبى العزائم فى الأزهر الشريف ، من أبرز العلماء فيها وعلى اتصال وثيق به فى مصر ، فتكونت جمعية المسلمين الجزائريين التى قاومت البدع والضلالات وألاعيب المبشرين والمستعمرين ، وعملت على إحياء الثقافة الدينية الصحيحة ، وكان أثر هذه القوة الدينية واضحًا فى الأراضى الجزائرية ، ثم تقدمت الجمعية ببرنامج حافل مؤداه أن الجزائر بلادنا والعربية لغتنا والإسلام ديننا ، وطالبت بإعادة الأراضى المغتصبة وبانسحاب الجيوش المحتلة ، ولم تخمد هذه الصيحة حتى انتقال الإمام أبى العزائم عام ١٩٣٧م ، وكان يغذيها دائمًا بعلومه ومؤلفاته ، واتحدت « جماعة الخلافة الإسلامية » بمصر بجمعية « علماء الجزائر » فتوحدت جهودهما كهيئة واحدة حال انعقاد المؤتمر الإسلامى للخلافة فى يونيو ١٩٢٦ بمكة المكرمة .

الثورة السورية :

ولم يكن الشام ليسكت على الاحتلال ، فمنذ عام ١٩١٨م وبعد انضمام العرب إلى الإنجليز بقيادة الشريف حسين الذى دخل القدس بجيشه المهلهل فى ذيول خيل الجنرال اللنبى قائد جيوش الحلفاء ، ثار الشعب فى الشام ، فرفض « يوسف العظمة » الإنذار الذى وجهه إليه الجنرال الفرنسى غوردوا عام ١٩٢٠م ، وقاد يوسف العظمة وزير الحربية المعركة فاستشهد ، وانتهت المعركة بتثبيت أقدام الاحتلال وتمزيق سوريا إلى أقاليم ، وكانت بعض ثورات تنبعث لتنتهى ، إلى أن كانت ثورة ١٩٢٥م بقيادة سلطان باشا الأطرش ، فدوخ فيها جيوش فرنسا ونالت دمشق فيها تخريبًا لا مثيل له هز دويه العالم الإسلامى كله ، وخمدت الثورة إلى أن اندلعت من جديد عندما أعلن ثوار فلسطين ثورتهم الكبرى على الصهيونية عام ١٩٣٦م ، وكان الإمام أبو العزائم يبعث لثوار الشام ويقابلهم فى داره وفى مواسم الحج ، وينبههم إلى مواطن الضعف بينهم ، وإلى من يتجسسون عليهم ويتظاهرون بتأييدهم ، فكان كأنما هو معهم فى أرض المعركة .

نص خطاب احتجاج أرسله الإمام لمسيو بريان[19] فى ٣١ مايو ١٩٢٥م وإلى سفارات الغرب عامة[20] حول نفى سمو الأمير محمد بن عبد الكريم.

الشرق حيٌّ ينتهز - يا غرب أقصر

«حكمت أوربا على دولها بالانحطاط عن أدنى مراتب الإنسانية، وإن كان من يجهل الحقيقة الإنسانية وما ترقى إليه من الكمالات يتغنى ببراعتهم فى اختراع آلات الإبادة وأدوات التدمير، وأن أمثال هؤلاء لا نقيم لهم وزنًا، حكم الغربيون على أنفسهم بأنهم شر على الإنسان من الوحوش الكاسرة بألف دليل ودليل، لأنهم فى القرون الوسطى كانوا يعبدون أشياء مخلوقة، فلما انتشر نور العلم على أوروبا بالإسلام من الأندلس خصوصًا على فرنسا بواسطة الإمام ابن رشد الحفيد، أبت نفوسهم أن تقبل الحق وعقولهم أن تتضح لها الحجة، فتركوا دينهم لبيان ابن رشد وحرموا القابل فجحدوا وألحدوا وقابلوا نعمة الله كفرًا، فنشروا الإلحاد فى الشرق على ألسنة من علموهم من الشرقيين فى مدارس أوروبا، وكل من قبل منهم هذا الإلحاد حكم على نفسه بالانحطاط، وتلك حجة على أن نفوسهم وعقولهم غير قابلة للحق، سلبت الرحمة من قلوبهم، فهم أضر على بنى الإنسان من السيل الجارف بل ومن النار المسعرة فى يوم الزوابع، حصلوا الصناعات فاخترعوا ما يفسد الأخلاق ويهتك الأعراض من مسكرات ومخدرات ومن مجهزات البنج القاتلة، وأزياء تجعل الإنسان كالنمر جميل الملبس قبيح الخلق والعمل، ثم اخترعوا من الحديد والنار ما أبادوا به المجتمعات ودمروا به المدن العامرة، انتشروا فى الشرق لتفرقة أهله وخروج بعضهم على بعض، فهم شر من يأجوج ومأجوج، وكأن قناة السويس هى سد يأجوج ومأجوج خرقها المصريون بكيد فرنسا، فكانت خرقًا فى الشرق فتح على أهله باب الاستعباد والاستبداد وتمكن القوم من الشرق كما يتمكن الوحش الكاسر من غنم راع نام عنها، قال العربى:

ومن رعى غنمًا فى ارض ماسدة ... ونام عنها .. تولى رعيها الأسد

أيقظ الغرب رحمة المسلمين فشكر للمسلمين صنيعهم كما شكر الذئب لمن رباه، عدو دول الاستعباد رجال الشرق الناهضون بالأمم، ولكن جهلت أوروبا أن الشرق كله

(١٩) بريان أريستد (١٨٦٢ - ١٩٣٢) سياسى فرنسى وخطيب مشهور، تولى رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية عدة مرات، ودعا إلى سياسة التقارب مع ألمانيا، وحصل على جائزة نوبل للسلام ١٩٢٦.

(٢٠) مجلة المدينة المنورة السنة ١٩ العدد ٤٨ (٢٢) شعبان ١٣٦٦ الموافق ١٩٤٧/٧/١١.

رجال .. وإنما تعز الأمم بأعمالها متحدة وتذل بتفرقتها .

نفت فرنسا الأمير عبد القادر الجزائرى بعد أن قتلت عشرات الألوف من قادة القوم ، ولكن أمة الجزائر لم تطفأ نار حميتها وإن توارت عن أعين المغرورين ، ثم أعادت صفحة من تاريخها الأسود فى الحروب الصليبية فاتحدت مع أسبانيا لتطفئ نور الغيرة ونور الفضيلة فنفت خير رجل فى هذا العصر لا صبر لكل مسلم على تحمل نفيه إلى جنوب أفريقيا ، وهنا نتنبأ بما يأتى :

ستندم فرنسا على نفى هذا الأمير المحبوب أكثر من ندم الإنجليز على نفى زعيم الأمة المصرية فى سيشل ، فإن أعمال زعيم الريف التى هزم بها دولتى فرنسا وأسبانيا وأعز بها قومه نقشت على القلوب كالنقش فى الحجر ، وإن سمو الأمير المحبوب محمد بن عبد الكريم أبقى وراءه فى الريف نظراء ، وفى المجتمع الشرقى ألسنة وقلوبًا وأقلامًا ، وأبقى له صحيفة بيضاء ناصعة يحفظها له التاريخ ، كما أبقى لفرنسا وأسبانيا صفحة سوداء تنفر العالم الشرقى منهما وإن ذلك لقريب .

تنفى فرنسا زعيم الريف وتقف صفًا واحدًا مع أسبانيا أمام فئة قليلة فترمى القوم بالنار من فوق رؤوسهم ومن كل جهة ، ولكن الحق وعد بنصر المظلومين وإن قلوا ، ثم تقوم فرنسا فتبيد رجالاً أبوا الضيم ، وتدمر مدنًا حفظ لها التاريخ شرفًا ومجدًا فى سوريا وتدعى أنها أم الرحمة !!.

يا أمم الشرق : متى رضيتم بالحياة فى هذا الذل ؟ أنتم فى زمن رعمسيس الذى كان أول جيشه فى مصر وآخره فى وسط أوروبا ، أم فى زمن كسرى ؟ وقد أذل الروم وطهر الشرق منهم ، أم فى زمن عصر الإسلام أيام أمير المؤمنين عمر ومن بعده من الخلفاء ؟ أم فى زمان الترك أيام الفاتح والقانونى ؟ أم فى عصرنا هذا حيث مصطفى باشا كمال(٢١) والأمير محمد بن عبد الكريم وسلطان الأطرش ؟.

كفى يا شرق !! فإن القوم تمكنوا من الشرق لا بحديدهم ونارهم وإنما تمكنوا من الشرق بتفرقة الشرقيين وبخروج بعضهم على بعض ، وقد آن أن نعيد لنا مجد سلفنا ، وإنما نسعد يا قوم بما سعد به سلفنا الصالح بالرجوع إلى أصول ديننا والعمل بفروعه ، والله ولى المؤمنين » .

ولما انحرفت تركيا عن جادة الصواب ومالت إلى تقليد أوروبا فى مباذلها وهجرت

---

(٢١) مصطفى كمال أتاتورك الذى ألغى الخلافة الإسلامية .

الدين وعادت التقاليد الإسلامية واللغة العربية ، كتب رضى الله عنه هذا النداء ونشرته مجلاته والصحف المصرية .

الدين النصيحة

إلى الأمة التركية الكريمة { قد تبين الرشد من الغيّ }(٢٢)

إن المجتمع الشرقى عامة والمسلمين خاصة يعتقدون أنكم البقية الباقية للشرق ، يقتدون بأعمالكم وينتظرون الوقت الذى يعيد الله فيه المجد لهم على أيديكم ويجدد بكم ما كان للشرق من مجد وقوة فى الدين .

وقد جمع الله لنا فى ديننا ما به نيل الخيرين والفوز بالحسنيين ، قامت على ذلك الحجة ووضحت المحجة ، وليس الأمر بمجهول على من نظر نظرة فى التاريخ فعلم ما كانت عليه أوروبا قبل الإسلام ، وما آلت إليه فى عصور رفعة الإسلام وعزته ، وما بلغته من الرقى بسبب الأخذ بمبادئ الإسلام الاجتماعية التى من أهمها إعداد العدة ونشر الصناعات والفنون وتعميم التعليم وتقدم الزراعة والتجارة والتحفظ من الأعداء باليقظة .

أخذت أوروبا هذا القسط من الدين الإسلامى ، وأهملنا نحن ما أوجبه علينا ربنا من تلك الفضائل ، فكانت لهم الدولة علينا ، ولكنهم تركوا العقيدة الحقة التى تجعل المسلم ليس فوقه إلا الله تعالى ، تركوا العبادات التى تزكو بها النفوس فتكون نفوسًا فاضلة مجملة بالرحمة والفضيلة والعدالة وحب الخير لكل ذى كبد رطبة .

يا رجال الترك : الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، فنحن إذا أيقظنا ظلم أوربا وطغيانها فتسلطت علينا بما أخذته من ديننا من إعداد العدة ودوام الجهاد وقمنا لرد الظلم عن أنفسنا ، فإننا نجدد بعملنا هذا ما أمرنا به ديننا ، ولكن الواجب علينا أن لا نتخذ أوربا قدوة لنا فنحبذ عاداتها من الرذائل التى يحرمها الدين وتستقبحها العقول الكاملة .

نعم : يجب علينا أن ننهض بالأمة بما لابد لها منه من إعداد العدة وانتشار الصناعات التى بها لا نمكن العدو منا ، والمنافسة فى التجارات وتعميم التعليم مما هو فضيلة ومكرمة ، ونترك المفاسد والرذائل محافظة على أعراضنا وحرصًا على أموالنا وأنفاسنا الغالية ووقاية للأمة المستقبلة .

يا رجال الترك : كيف ترضى تلك النفوس العالية والرؤوس الكبيرة والقلوب

---

(٢٢) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

القوية والعقول السليمة أن تلقى بالشبيبة فى هاوية الخزى بإباحة ما يحرمه الدين وينكره العقل والذوق السليم؟ إن الرقص فى المجتمعات عادة همجية جاهلية اعتادها زنوج أواسط أفريقيا وسكان الغابات فى الحبشة، وقد أخذها عنهم الإفرنج، وهؤلاء قوم أسفل من الديكة وأدنى من الحمام، لأن الديك يغار على الدجاج من الديكة الأخرى، وإن الذكر من الحمام ليقتل الآخر إذا وجده قريبًا من أنثاه، بل وإن كل أنواع الحيوانات تبلغ بها الغيرة إلى التقاتل، فكيف تفتح بيوت العهارة فى عاصمة الأمة التى هى كعبة المسلمين الآن وينشر عنها أنها مكتب لتعليم الرقص ويؤيدها مدير البوليس؟ لم يحرّم الإسلام على المرأة أن تزاول ما لابد لها منه عند الضرورة من تضميد جروح المجاهدين وعمل اللازم لهم، وفى مساعدة الزوج فى مزرعته ومصنعه، ومزاولة البيع والشراء عند الضرورة، ومن صحبة الزوج فى السفر والحضر، ومشاركته فى أعماله، ومن مشاورة الرجل لزوجته فى كل مهامه، ومن قيام المرأة وصية على أولادها وغيرهم، ولكنه يحرم على المرأة أن تغشى أماكن اللهو والخلاعة، أو تجلس فى مجتمعات يمثل فيها ما لا يليق بالشرف وصون العرض، والأولى بالمرأة أن تلازم عقر دارها عند الاستغناء عنها لتزاول ما به نيل الخير لها وللأمة من تربية الأبناء وتعليمهم وعمل ما لابد منه للحياة الأسرية والمنزلية.

يا رجال الترك: أنا لا أنكر أننا فى حاجة شديدة إلى تقليد أوروبا لاستعادة ما فقدناه وما سلبوه منا من علوم وصناعات وفنون، ولكنا فى غنى عما هم فيه من الإباحة التى تجعلهم أحط من البهائم السائمة.

والإسلام وسع لنا فى أن نقوم بواجب الوقت عند المقتضى، لأن العقيدة الإسلامية والعبادة والأخلاق به نيل السعادة والسيادة فى الدنيا وبها الفوز بخيرات الحياة الباقية فى الآخرة، وما عدا ذلك مما لا يغير عقيدة ولا عبادة ولا أخلاقًا فأمر مباح.

يا رجال الترك: إن أخبار الإباحة عندكم يجعلها الأعداء سلمًا لنيل مطامعهم من الشرق وأهله، ولا يرضيكم أن تمكنوا الأعداء من إخوانكم المسلمين، والله جل جلاله غيور لدينه وعباده، فتداركوا الأمر بالضرب على أيدى الإباحيين فإنهم قليل، وأعمالهم وصمة عار عامة عليكم وعلى إخوانكم المسلمين.

والله أسأل أن يجمع لكم الكلمة، ويؤيدكم ويعيد بكم مجد سلفنا الصالح إنه مجيب الدعاء».

الإمام والقضية الفلسطينية

كان الإمام على يقين بما يحاك للعالم الإسلامى من مؤامرات وسوء نية لا تلبث أن تظهر فى أى وقت من الأوقات، وكان يعلم أن أعداء الإسلام والمسلمين لن ينسوا حروبهم مع المسلمين والدرس الشديد الذى تحملوه من جراء ذلك.

وإضافة إلى ذلك فإن الإمام كان يرى أن الصليبيين إذا كانوا قد أخفقوا منذ العصور الأولى للإسلام فى الاستيلاء على فلسطين محتجين ببيت المقدس كعلة، إلا أنهم قد أفادوا من الدروس ما يجعلهم يتفادون الهزيمة. إن واقع العالم الإسلامى عامة والعربى خاصة، وتحالف الصهيونية العالمية بأموالها الوفيرة إلى جانب القوى الصهيونية الحديثة، تهيئ لها الفوز والنجاح فى إخماد ما بقى من أنفاس المسلمين.

ولذلك فقد وجه الإمام كل ما أوتى من قوة فى الدعوة إلى الاتحاد فى مواجهة الفرقة والعزلة التى تردت فيها الأمة الإسلامية، وقد نبه الإمام منذ أواخر القرن الماضى وحتى انتقاله إلى جوار ربه، إلى أن خطر الاستعمار يكمن فى تحالفه مع الصهيونية العالمية، ولكن لم تكن هناك وحدة عربية وإسلامية تقف فى وجه هذا التحالف.

ومنذ فجر هذا القرن، وقبل أن تأخذ مشكلة فلسطين الشكل الذى اتخذته بعد وعد بلفور، بل قبل ذلك بكثير ومنذ بدايات استعمار الشعوب الإسلامية فى أواخر القرن التاسع عشر والإمام رضى الله عنه يحذر من هذه المشكلة.

يقول مستغيثًا برسول الله ﷺ:

يــا رســول الله ودا	عــمــمــن كــل الــوجــود
جــاس اهــل الــكــفــر دارا	بــل طــغــى اهــل الجحــود
انــت يــا مــولاى اولى	بــالجمــيــع مــن الجدود
قــد طــغــى الــكــفــار حــتــى	عــززوا كــل الــيــهــود
ادرك الأمــة اسرع	حــقــقــن كــل الــوعــود.

ولا شك أن الإمام كان يعلم بما يجرى فى أرض فلسطين، وإلا لما أشار إلى أن موسى شاريت اليهودى، يعمل ضابطا بالجيش العثمانى فى فلسطين ليمهد لدخول الجيوش الإنجليزية ومعها الكثير من مهاجرى اليهود، كما يشير إلى فيلق البغالة بحملة الجنرال اللنبى فى فلسطين وإلى أن قائده هو دافيد بن جوريون الصهيونى الخطير، وهذان إنما كانا

يعملان على إثارة الفتن والقلاقل وتدبير المؤامرات حتى يسهل دخول الجيوش منتصرة انتصارًا رخيصًا .

وكان رضى الله عنه يبعث بالبرقيات والرسائل إلى كبير روما وإلى قناصل الدول وإلى الصحافة المصرية ، ويبعث برسائل إلى الملوك والرؤساء العرب والمسلمين يحثهم فيها على الجهاد ويذكرهم بأعمال الاستعمار الاستيطانى فى أمريكا وأستراليا وجنوب أفريقيا ، ويكشف لهم عن نوايا الصهيونية في إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين من الفرات إلى النيل ، وكان يقول لهم : إن ما تتعرض له فلسطين اليوم ما هو إلا بداية لما يتعرض له الوطن الإسلامى والعربى كله .

ويقول :

فى فلسطين فتنة من راها ... قال صغرى لكنها نار واصب

ويقول :

وى فلسطين هى البركان ... بل فتنة عميا تدك الأخضران

ولما قامت ثورتان فى فلسطين عامى ١٩٢٠، ١٩٢١ م ، خاطب الإمام زعماء العرب وزعماء الدول الإسلامية أن يقفوا بجوار الشعب الفلسطينى ويساندوا قادته .

وعندما أعلن وعد بلفور عام ١٩١٧م واستولى الإنجليز على فلسطين ليعطوها لليهود لقمة سائغة ، يقول الإمام موجهًا الخطاب إلى الشريف حسين بن على :

«لعل الشريف حسين بن على لم يسمع بوعد بلفور بعد ، ولعل له العذر ، فقد لا يكون قد علم به !! لأن وزير خارجية بريطانيا صرّح به على بعد آلاف الأميال !! ولكن ألم يسمع الشريف بأذنيه(٢) ما قاله اللنبى عام ١٩١٨م مخاطبًا صلاح الدين ؟ لا أظن ذلك ، فقد كان يقف بجانبه إن لم يكن خلفه ، أفبعد هذا ما زلت يا حسين تثق بوعود وعهود هؤلاء ؟ وهل وفوا بعهودهم ووعودهم لأمثالهم من أمم وشعوب ودول أوربا

---

(٢) بعد أن قام جيش الحسين بن على العربى المسلم بقتل جنود الحامية التركية وسحل قوادهم فى ذيول الخيول وتسليم القائد البريطانى اللنبى مفاتيح بيت المقدس ، وقف اللنبى متكبرًا متجبرًا أمام قبر صلاح الدين - وخلفه صغيرًا ذليلًا الحسين بن على ويسمع بأذنيه اللنبى - يقول لصلاح الدين : اليوم واليوم فقط يا صلاح الدين انتهت الحروب الصليبية ، ولم يفهم الخائن المعنى لأنه كان فرحًا مسرورًا وفكره مشغولًا بالهدية التى فى انتظاره من اللنبى جزاء فعلته ، ولكنهم غدروا به ونفوه فى جزيرة قبرص حيث مات هناك .

المسيحية التى تدين بدينهم وتتشاكل معهم فى اللغة والآداب؟ ﴿فبأى حديث بعده يؤمنون﴾[٣]؟!!».

وفى أعقاب عام ١٩١٨ م نشرت الحركة الصهيونية صورًا لمشروع هيكل جديد يقام مقام الصخرة المباركة ومطالبين بشراء المنطقة المحيطة بحائط المبكى، وعندئذ بادر المسلمون بإنشاء جمعية «حراس المسجد الأقصى».

ولم تهدأ ثورة الإمام، فرغم الحصار الذى ضرب عليه فى القاهرة إلا أنه ألهب الشعوب العربية والإسلامية، فكان يبعث بالرسائل إلى الملوك والرؤساء العرب والمسلمين يحثم فيها على الجهاد ومنع اليهود من تنفيذ مخططهم لأنه سيكون بداية لسلسلة من المخططات الأخرى.

وعندما علم أن بعض أبناء الشعب الفلسطينى، أغرتهم الأسعار الخيالية التى يقدمها اليهود ثمنًا للأراضى الفلسطينية، أصدر فتواه الشهيرة ونشرها على صفحات الجرائد القومية والوطنية بالإضافة إلى مجلاته التى كان يصدرها، كما بعث بها إلى قادة الفكر والزعماء السياسيين، ومؤداها:

إن من باع شبرًا يملكه من أرض فلسطين فقد خرج بذلك عن دين الإسلام ودخل فى دين الكفار، مع ما يترتب على ذلك من آثار أسرية واجتماعية وقانونية.

وكان لهذه الفتوى دوى شديد فى الأوساط الشعبية والرسمية.

وقد نشرت جريدة الوطنية بعددها رقم ٢٦١ الصادر فى يوم الاثنين ٢ ذى القعدة ١٣٤٣ هـ الموافق ٢٥ مايو ١٩٢٥م مقالاً تحت عنوان:

فتوى شرعية بتكفير بائع الأرض والمتوسط ببيعها لليهود

على إثر زيارة وزير المستعمرات البريطانى لفلسطين بعد زيارة لورد بلفور، رأينا الصحف التى تصدر فى فلسطين مجمعة على وصف هول الخطر الذى يتهدد الفلسطينيين، من بيع أرضهم لليهود، وحملت ولا تزال تحمل على البائعين والوسطاء حملات شديدة، وإن لم تذكر الأسماء لسوء الحظ حتى أن جريدة مرآة الشرق دعت فى عددها الأخير إلى مقاطعة التجارة اليهودية والتجار فى فلسطين.

وبما أن كتابات الصحف والكتاب وقصائد الشعراء وخطب الخطباء وأقوال

(٣) سورة الأعراف آية ١٨٥.

الجمعيات والأحزاب والزعماء يعتقدها الجمهور بأنها سياسية وهى تتسلح بسلاح الوطنية ، وبما أن الوطنية والسياسية حديثتا عهد فى الشرق وليس لهما ما للدين من الحرمة والتأثير على القلوب والنفوس ، رأينا الاستعانة بسيف الدين الحنيف فخابرنا بعض أحبار المسلمين فى فلسطين كما خابرنا بعضهم فى مصر وسألناهم إذا كان الدين الإسلامى يحكم بكفر المسلمين البائعين لأرضهم أو المتوسطين فى بيع أرض غيرهم لليهود ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب فليتفضلوا بإصدار فتوى شرعية فى هذا الموضوع .

والحق يقال إننا لم نجد بين العلماء الذين سألناهم الفتوى من يملك الجرأة والغيرة على الإسلام والمسلمين غير إمام المسلمين وحجته فى هذا الزمان الحبر الفهامة والبحر العلامة مولانا حضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد ماضى أبو العزائم من كبار علماء الإسلام ، ورئيس مؤتمر الخلافة الإسلامية الكبرى العامة فى مصر ، الذى يخضع لسلطانه الروحى سبعون مليونًا من المسلمين فى سائر بقاع الأرض على اختلاف اللغات والأجناس والبلاد ، والذى وهب ماله ونفسه وأولاده فى سبيل الله وسبيل الإسلام والمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها شمالها وجنوبها ، وجاهد ولا يزال يجاهد فى هذا السبيل القويم ، ومقالاته فى أمهات صحف مصر والبلاد الإسلامية خير دليل على صدق ما نقوله عن إفناء ذاته الشريفة فى مصلحة الإسلام والمسلمين .

ولذلك لما قدمنا له الاستفتاء تفضل بوضع الفتوى الشرعية ، فجئنا بها إلى القراء الكرام وسنطبعها على حدة ونوزعها على من يطلبها مجانًا من مسلمى الأرض قاطبة ، وإلى القراء نص الاستفتاء والفتوى :

الاستفتاء الشرعى

حضرة صاحب الفضيلة مولانا الشيخ محمد ماضى أبو العزائم .. نفع الله الإسلام والمسلمين بعلمه وفضله : ما حكم الله ورسوله فى اليهود الصهيونيين الذين احتلوا أرض فلسطين بالقوة القاهرة وخدعوا أهلها فابتاعوا عقارهم منهم ليجلوهم عنها ويجعلوها وطنًا قوميًا لهم ؟ وما حكم من والاهم ووادّهم ببيع عقاره لهم ؟ وحكم من أعانهم على شراء هذا العقار بواسطة أو ترغيب أو ترهيب ؟ وحكم من يتودد إليهم بمعاملة أومجالسة أو مؤانسة ؟ وما الواجب على أهل فلسطين حيال هذا ؟ أفيدونا الجواب ولكم من الله الأجر والثواب .

أيوب صبرى

الفتوى الشرعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى لم يفرط فى الكتاب من شئ، سبحانه وتعالى أكمل لنا ديننا الذى ارتضاه لنا، والصلاة والسلام على من أرسله الله تعالى بشيرًا ونذيرًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا .. وآله وورثته وبعد.

فهذا جواب سؤالك أيها الأخ الغيور لدينه وإخوانه، أيدنى الله وإياك بروح منه، والله سبحانه وتعالى ولىّ التوفيق .. أسأله أن يلهمنا الصواب فى القول والعمل وأن يهدينا الصراط المستقيم:

إن حكم الله ورسوله على اليهود الذين وفدوا ويفدون على فلسطين لأجل إنشاء وطن قومى يهودى فيها، هو ما بينه العلماء من الحكم على قوم احتلوا محلة قوم مسلمين عنوة، والمتعين على المسلمين وأهل ذمتهم من نصارى العرب أن يعاملوهم معاملة المغتصبين، وقد بيّن العلماء تلك المعاملة بالتفصيل، وفلسطين وطن لنصارى العرب قبل الفتح الإسلامى، وكانت محتلة بالروم، فأجلاهم المسلمون عنها، وعاهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نصارى فلسطين عهدًا يحتم على النصارى أن لا يسكن معهم يهودى، وهذا نص العهد.

روى الإمام ابن جرير الطبرى بسنده فقال: حاصر أبو عبيدة بيت المقدس، فطلب من أهله أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولى للعهد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فقدم، وهذا ما عاهدهم عليه بنصه:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أعطى عبد الله: «عمر» أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر ملتها، أن لا تُسكن كنائسهم ولا تهدّم ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ولا من شئ من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما تعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا

منها الروم واللصوص ، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم ، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان فمن شاء منهم قعد وعليه مثل الذى على أهل إيلياء من الجزية ، ومن شاء سار مع الروم ، ومن شاء رجع مع أهله فإنهم لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم .. وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية .

شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبى سفيان وكتب وحضر سنة خمسة عشر .

وبصريح هذا العهد يكون كل نصرانى من عرب فلسطين بتودده لليهود أو موالاته لهم أو بيعه أرضًا لهم خائنًا للعهد خارجًا عن الذمة يجب على المسلمين عند التمكين أن يجلوه عن فلسطين لخيانته ، ويكون كل مسلم والى الصهيونيين أو تودد إليهم مرتدًا عن الإسلام ؛ وبذلك تحرم عليه زوجته لكفره ووجب علينا أن لا ندفنه فى قبور المسلمين ولا نصلى عليه ، وكل من يتوسط فى بيع العقار من المسلمين أو نصارى العرب لليهود يكون حكمه كحكم البائع .

الأدلة من القرآن

قال الله تعالى : ﴿ألم تر إلى الذين تولوا قومًا غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعد الله لهم عذابًا شديدًا إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جُنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئًا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾[٤]. بينّ الله لنا فى هذه الآية الكريمة الحكم على المسلمين الذين تولوا اليهود وناصحوهم فى عصر رسول الله ﷺ وكانوا مسلمين ظاهرًا فأخرجهم الله من الإسلام بقوله : ﴿ما هم منكم﴾ وبينّ لنا سبحانه وتعالى أنهم ليسوا من جنس اليهود بقوله : ﴿ولا منهم﴾ فلم يشدد القرآن الكريم على قوم كما شدد على من يوالى اليهود فى كل أرض .

فكيف يكون التشديد على من يواليهم ويبيع لهم عقاره فى أرض بيت المقدس حيث قبلة الإسلام الأولى التى حرّم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه على النصارى

---

(٤) سورة المجادلة آية ١٤ - ١٧ .

أن يسكن معهم فيها يهودى بنص العهد المتقدم، فبائع العقار لهم أو المتوسط فى بيعه أو الذى يجد فى قلبه ميلاً إلى رجل أو امرأة منهم بعد أن احتلوا فلسطين عنوة رضى بما يغضب الله تعالى، وخرج من الدين كما يخرج السهم من الرميّة، خصوصًا بعد علمه حكم الله فى هذا الحادث.

ومن حكم عليه طمعه أو شهوته فأباح لنفسه ما حرّمه الله عليه باء بما تعهد الله به الموالين لمن حاد الله ورسوله.

ومسلم يزوج ابنته للموالى من المسلمين لمن حاد الله ورسوله وهم اليهود بنص الآية الشريفة أو يصلى عليه إذا مات أو يدفنه فى مقابر المسلمين فهو مفارق لما عليه الإجماع، قال تعالى: ﴿أعد الله لهم عذابًا شديدًا إنهم ساء ما كانوا يعملون﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ ووجب علينا أن نعامله بما قررنا، والأمر دقيق جدًا بدليل قوله تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾(٥) وقوله سبحانه: ﴿لا تجد قومًا يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم﴾(٦) الآية، فنفى الله الإيمان عن كل متودد لمن حاد الله ورسوله مطلقًا وخصوصًا اليهود، فإن الآية الشريفة نزلت فيهم.

الأدلة من الفقه

معلوم أن العدو المناوئ للمسلمين المعلن الحرب عليهم إذا قارب الدروب وجب أن تطلب غرته، فكيف بمن احتل محلتهم طامعًا فى أموالهم؟ فإذا لم يقدروا فالواجب مقاطعة العدو، فإن الموالى له والمتودد إليه بنوع من أنواع البيع له أو الشراء منه أو مساعدته يبوء بما أوعده الله به من الخلود فى النار الذى لا يكون إلا لمن مات كافرًا أو من قتل مؤمنًا متعمدًا.

وفى الأثر عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: قال ﷺ: (لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر: يا مسلم هذا يهودى خلفى تعال فاقتله) أخرجه الشيخان والترمذى.

فحكم الله فيمن أتوا قومًا وسعوا فى إجلائهم من أرضهم ولا قوة لهم على دفعهم أن يحفظوا أنفسهم من الفتن التى تسلب الإيمان بموالاتهم أو التودد إليهم، فقد ورد فى حديث الفتنة أن الرجل يصبح مؤمنًا ويمسى كافرًا، ولا فتنة أعظم من تلك الفتنة، وقد

---

(٥) سورة آل عمران آية ٢٨ .

(٦) سورة المجادلة آية ٢٢ .

بيّن العلماء أحكام من احتل العدو بلدهم بالتفصيل، وهذا مأخوذ مما بيّنه إمام الأئمة مالك بن أنس فى مدونته الكبرى، والله سبحانه وتعالى أعلم.

محمد ماضى أبو العزائم

صدى الفتويين[٧] الشرعيتين فى فلسطين[٨]

[تلقينا من حضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد الله أفندى القلقيلى من كبار علماء المسلمين فى فلسطين وصاحب جريدة «الصراط المستقيم» كتابًا كريمًا ضمنه شكر فضيلته وإخوانه العلماء الأجلاء والزعماء وأهل فلسطين قاطبة لحضرة مولانا صاحب الفضيلة العلامة الجليل السيد محمد ماضى أبى العزائم لتفضله بالخدمة الدينية والوطنية التى أسداها للإسلام والعرب فى فلسطين بفتواه التى نشرناها، فجئنا بنص الكتاب حرفيًا، قال فضيلة الأستاذ القلقيلى:

إلى صاحب الفضيلة أبى العزائم..

«لقد كان السلف الصالح من العلماء يصدعون بالحق ويبينون للناس شرع الله لا يخشون فى الله لومة لائم، فإذا سألهم سائل عن علم أجابوه، وإذا استهداهم مستهد هدوه، أولئك نجوم الأنام ومصابيح الظلام وحاملو لواء العلم والقائمون بالحق، أولئك هم عماد الإسلام والعروة الوثقى التى ليس لها انفصام.

ثم خلف من بعدهم خلف وهنوا واستكانوا وجبنوا وهانوا اغترارًا بالدنيا واستماتة فى سبيلها وانقيادًا لشهواتها، فلم يستطيعوا أن يوضحوا للناس حكم الله فى النوازل ووجه الصواب فى المشاكل، فاختل نظام الدين واضطرب حبل اليقين، وغدت العامة كالمواشى السائمة هملًا بلا راع وضلالًا بغير داع.

لولا أن الله تكفل بألا يخلى الأرض من قائم بحجته ومبين لشريعته وهادٍ لخليقته ومقيم لدينه وموضح لسنته، فمنَّ عليهم فى كل أمة وكل زمن وكل شعب برجل أو رجلين يكونان منارًا كمنار الطريق، وأن من هؤلاء الأفذاذ الشيخ العالم الورع أبو العزائم، استفتاه صاحب الوطنية فيمن يبيعون أرضهم من أهل فلسطين من اليهود

(٧) الفتوى الأولى كان للإمام أبى العزائم رضى الله عنه، والثانية كانت للسيد محمد سعيد أفندى الحسينى مفتى لواء غزة.

(٨) جريدة الوطنية، العدد ٢٦٣، ج ٣.

أو يكونون وسطاء فى ذلك، فبادر الشيخ إلى إفتائه وبيان الحكم الشرعى فى ذلك مفصلًا مبينًا، مدعومًا بالحجة والبرهان من الآيات الكريمة والأحاديث النبوية والآثار التاريخية بفصاحة وبيان وجرأة، حتى ظهر الحق وتبين الحكم جليًا لا مرية فيه، فجزاه الله عن أهل فلسطين وعن المسلمين والإسلام بأفضل ما جازى عالمًا جليلًا يصدع بالحق لا يخاف فيه لومة لائم ولا عتو ظالم.

وإنى لأرفع إليه شكرى وشكر إخوانى العلماء خاصة وأهل فلسطين عامة، وأسأل الله ألا يحرم الإسلام من أمثاله، وألا يخلى الأرض من القائمين بحجة».

عبد الله القلقيلى

ويسرنا أن نقول أن صحف فلسطين وسوريا والعراق نقلت الفتويين فى أوجه مكان من صفحاتها، كما أن أئمة المساجد والخطباء والعلماء والمدرسين تكفلوا بتعميمهما، فإن الأولين كانوا يخطبون المصلين بعد أداء فريضة الجمعة بهما شارحين معانيهما، والآخرين ضمنوهما دروسهم الدينية التى يلقونها على الجماهير فى المساجد كما جعلوهما محورًا لأحاديثهم فى الأندية العامرة الخاصة والبيوت يحرضون العامة والخاصة على اتباعهما ويحذرونهم من مخالفتهما، والأحزاب السياسية والجمعيات على اختلاف أغراضها وأديانها ومذاهبها عملت ولا تزال تعمل على ترسيخهما فى الأذهان وتعميمهما فى كل مكان.

وقد تعلق الجميع بحب السيد محمد ماضى أبى العزائم صاحب الفتوى الأولى الكبرى وتمنوا ولا يزالون يرجون أن يشرفهم عن شكرهم العميق، وحبهم لمولانا صاحب السماحة الحسيب النسيب بحر الشريعة الفياض السيد الشريف الحاج محمد سعيد أفندى الحسينى مفتى لواء غزة وصاحب الفتوى الثانية وقد عظم مكبرين شجاعته وإقدامه وتضحيته لما يعرفونه عن حرج موقف علمائهم ولاسيما الموظفين منهم أمام حكومة اليهود بفلسطين إذا ساروا فى هذا السبيل.

ومع أن الكتب التى وردتنا لغاية هذه الساعة التى نكتب فيها هذه السطور كلها طافحة شكرًا للإمامين الجليلين الذين أفتيا، فإنها تصف كذلك عمق تأثير الفتويين فى النفوس، حتى أن الذين فى قلوبهم مرض عاهدوا الله على كتابه وأقسموا أيمان الطلاق بخشوع أن لا يبيعوا أرضهم ولا يتوسطوا فى بيع أرض غيرهم لليهود، ناهيك بالمترددين، فكيف بمن كانوا قبل الفتويين محجمين عن البيع والسمسرة لليهود.

وقد شرحنا هذا إلى مولانا السيد محمد ماضى أبى العزائم عند تشرفنا بزيارته مع حضرة العالم الفاضل الشيخ عبد الله أفندى القلقيلى فتأثر فرحًا وخر ساجدًا لله ، فسجد معه جميع الذين كانوا حاضرين مجلسه الوقور ، وارتفعت الدعوات بكل ورع من قلوب الأتقياء الصالحين إلى الله القدير أن ينفع المسلمين بالفتويين وأن يديم مولانا السيد محمد ماضى أبا العزائم إمامًا هاديًا وقمرًا مضيئًا وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا وهاجًا منيرًا ، وننتهز هذه الفرصة لنقول : إن مولانا السيد محمد ماضى أبا العزائم أقام مأدبة كبرى لفضيلة الشيخ عبد الله أفندى القلقيلى تكريمًا لشخصه الكريم ولقومه الكرام]..

وكان الإمام على اتصال مستمر بزعماء وقادة الشعب الفلسطينى ، فقد بارك المجاهد الوطنى الكبير « عز الدين القسام » الذى قاد أعظم ثورة فى تاريخ فلسطين والتى دوخت بريطانيا ، فحشدت لها ثمانين ألف جندى بالإضافة إلى جيش الصهاينة وجيش عرب شرق الأردن بقيادة لورانس ، ومع ذلك استطاعت هذه الثورة أن تصمد وأن تنتصر ، وظلت ١٧٣ يومًا تحاصر القدس ، وينادى الإمام الزعماء والملوك والرؤساء العرب الذين كانوا يثقون فى وعود الحليفة بريطانيا وأنها سائرة فى حل القضية بالعدل - مبينًا لهم وجهة نظره :

« إن مصلحة بريطانيا تقتضيها أن يكون لها جسم غريب فى الوطن الإسلامى ، ومصلحة اليهود أن يكون لهم وطن قومى فى فلسطين .. فالتقت المصلحتان ، فلا يجوز منكم أبدًا أن تحاولوا إخماد الثورة بما توجهوه لأبنائكم من نصائح هى ليست بنصائح وإنما هى إضرار بهم وإضرار بمصلحة المسلمين جميعًا ، والأولى أن تمدوهم بالمال والسلاح والرجال حتى يخلصوا هذا الوطن ويطهروا بيت المقدس من أرجاس الاستعمار والصهيونية على السواء ».

ويا ليتهم سمعوا النداء أو أخذوا بالنصيحة ، فإن النتائج - مهما عظمت فيها الخسائر - ستكون أشرف وأحق مما حدث مؤخرًا فى اتفاقية غزة - أريحا .. وما حدث بعد ذلك مما يراه المسلمون رأى العين .

الإمام والماسونية

ولقد جاهر الإمام برأيه فى الماسونية وهو طالب بكلية دار العلوم فى مقالة بجريدة المؤيد[1] ، ثم دوى صوته كثيرًا بعد تخرجه والتحاقه بسلك التدريس ، ومن المسجد العام ببلدة سواكن بالسودان ترفع صيحاته ويقرع الآذان صوته الحق منبهًا إلى خطر الماسونية وإلى مكامن الصهيونية من خلفها وما تريده للعالم من دمار وفساد وإلحاد ، وكانت رسائله إلى أبنائه وأتباعه وأصدقائه وزملائه فى مصر تشير دائمًا وأبدًا إلى خطورة تلك الدعوة .

وكان مريدوه فى السودان يكتبون عنه ما يقول ويدونون دروسه فى علوم الحكمة وأسرار القرآن الكريم ، وفى درس من دروسه مفسرًا بعض الآيات التى وردت فى بنى إسرائيل أيام داود وسليمان عليهما السلام .. فإن الإمام أرجع نشأة الماسونية إلى تمردهم على حكم نبيهم فيقول[2]:

إن سليمان عليه السلام لم يكن ملكًا محليًا على أورشليم ، بل امتد ملكه حتى شمل معظم المعمور من الأرض ، وكانت اليهود طائفة امتازت فقط بأنها أمة لها كتاب ولكنهم كانوا مصدر قلق وإثارة فى المملكة قديمًا كما هم فى كل عصر حتى يومنا هذا ، وقد اتخذوا من صور وصيدا فى فينيقيا مركزًا لهم وتعلموا فيه صناعة الأسلحة والذخائر وبناء السفن ، ثم نشروا الفساد وسيطروا على عقول العامة وأكلوا أموالهم بالباطل وعثوا فى الأرض فسادًا وأرادوا الاستقلال عن المملكة وقتلوا حامية البلاد ورجال الجباية عندما طالبوهم بما عليهم من ضرائب ، فجرد عليهم سليمان حملة بقيادته وحاصرهم أيامًا حتى استسلموا جميعًا ، فأسرهم وأحضرهم إلى القدس ووزعهم عبيدًا يحرثون ويزرعون أرض الدولة ، ووزع الفائض منهم على الأمراء والإقطاعيين والأثرياء كخدم وفعلة وبنائين ، والأدلة على ذلك من آيات الكتاب المبين فى قوله تعالى : ﴿رب اغفر لى وهب لى ملكًا لا ينبغى لأحد من بعدى إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب * والشياطين كل بنّاء وغواص﴾[3]، ومن المعروف أن للإنس شياطين كما للجن ، كذلك قوله تعالى فى داود : ﴿وألنا له الحديد أن

---

(١) أسسها الشيخ على يوسف بالقاهرة سنة ١٨٨٩ م ، وكان لها تأثير سياسى كبير .

(٢) كتاب «أسرار القرآن» ج ١ ص ٢١٧ للإمام أبى العزائم .

(٣) سورة ص آية ٣٥ - ٣٧ .

اعمل سابغات وقدّر فى السرد ﴾[٤]، وقوله سبحانه : ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات﴾[٥]، والحديد إذا ظهر فى الأرض ثارت فيها الثورة الصناعية فكانت كتلك الثورة التى شهدتها أوربا فى القرنين الماضيين ، وهذا يدل على أن عصر داوود وسليمان كان عصر تقدم حضارة ومدنية وعلوم .

ظل اليهود رقيقًا فى القصور وعبيدًا فى الأراضى إلى ما بعد موت سليمان عليه السلام ، وقبل موته عملوا سرًا على أن تكون لهم اجتماعات سرية يعقدونها فيما بينهم فى أمكنة متفق عليها ما لبثت أن تمخضت عنها أول جمعية سرية تبنت على جميع العصور جميع الحركات الهدّامة التى ظهرت فى العالم إلى العصر الحاضر ، وقد أطلقوا على هذه الجمعية اسم « جماعة البنائين الأحرار » أى « الماسون » ، ولما كان مؤسسوها بنائين ، فقد اتخذوا من آلة البناء رمزًا لها وهى « المسطارين » وبينما هم يدبرون للقيام بثورة مضادة ضد سليمان إذا بهم يكتشفون موته واقفًا على عصاه فى الوقت الذى كان يختاره لعبادته ، وما كاد نبأ موته يعلن حتى قاموا يعيثون فى الأرض الفساد ، فشتتهم ابنه من بعده ومن جاء من أحفاده قرونًا طويلة حتى أطلقوا على هذه القرون « عصور التشتت » .

هذه هى الماسونية القديمة ونشأتها خلال العصور كما يصورها الإمام ، أما الماسونية الحديثة فقد تطورت عنها لكنها تحمل نفس التعاليم وتعمل نفس الأعمال منذ القديم وإن زادت عنها من جهنميات العصر الحديث ، وإن من يبحث فى التاريخ ليجد لها يدًا فى جميع القلاقل والثورات والفرق والملل والنحل والمذاهب المنحرفة والآراء الهدامة ، فما وجد اليهود فى أرض إلا وكانت مرتعًا للفساد والشهوات والبغى والعدوان ، يوقعون بين الشعوب البغضاء والشحناء والفرقة ليستفيدوا خيراتهم ويمتصوا دماءهم ويتركوهم كمًا مهملًا لا حياة فيه ولا غناء عنده .

ولقد ثارت ثائرة الماسونية عندما أشار الإمام ذات مرة إلى مرجع لم يكن يعرفه آنذاك إلا نفر أقل من القليل ، لقد صدرت فى عام ١٩٠٦م بالولايات المتحدة الأمريكية دائرة المعارف الماسونية وجاء فيها بالحرف الواحد :

« أن يكون كل محفل ماسونى رمزًا لهيكل ، وأن يكون كل أستاذ على كرسيه ممثلًا لملك اليهود ، وأن يكون كل الماسونى تجسيدًا للعامل اليهودى » .

---

(٤) سورة سبأ آية ١٠ - ١١ .

(٥) سورة سبأ آية ١٣ .

فاستدعاه حاكم سواكن سير « جرانفيل » وطالبه بالمرجع فأشار الإمام بيده إلى صدره قائلًا : هذا هو المرجع ، فتعجب الحاضرون ، وزاد عجبهم عندما قال لهم : إنه ليس لديه نسخة من دائرة المعارف الماسونية ، وأن منزله تحت أمرهم ليتأكدوا من ذلك ، وقال : إن المؤمن يرى بنور الله عز وجل .

وبعد أن كان الإمام يُسأل أمام الحاكم صار الإمام هو الذى يسأل الحاكم فيقول له : أهذا المطبوع موجودًا أم لا ؟ ويرد الحاكم بالإيجاب . فيعقب الإمام بقوله : إذن ففيم الاستجواب ؟ إننى أتكلم معكم بما تقولون عن أنفسكم .

ويخرج الإمام منتصرًا بل ومرهوبًا من جانب الإنجليز ، ولم يكف عن تنديده بهم ، فكانت مجلاته ونشراته تصدر فى مصر والعالم الإسلامى كله وهى تندد بالماسونية وتكشف وسائلها ومخططاتها من واقع تصرفات أعضائها ومن أقوال زعمائها وأقطابها فى جميع أنحاء العالم .

فالماسونية فى نظر الإمام هى : أب للصهيونية وليس العكس كما يقول البعض – فالصهيونية هى الطفل الوليد والوحيد للماسونية – أما الصهيونية فهى الشاب الذى سيظهر فى فلسطين مقيمًا للدولة اليهودية على أشلاء أهلها من العرب .

وبالرغم من تنبيه وإنذار الإمام للزعماء المسلمين والعرب من أخطار الماسونية والصهيونية ، وما احتوته الصحف اليومية ومجلاته الأسبوعية فضلًا عن دروسه وخطبه فى جميع المناسبات ، فإن أحدًا لم يعر الموضوع اهتمامه وكأن فى آذانهم وقرًا ، حتى بعد أن أقام الاستعمار فرعًا للمنظمة الصهيونية العالمية إبان الحرب العالمية الأولى والثانية لتراقب عن قرب تنظيم الهجرة إلى فلسطين ، ولتبعث بالمساعدات المالية والحربية والبشرية إلى اليهود فى فلسطين .

ولا يسع القارئ المسلم وهو يطلع على ما كتب الإمام فى مجموعة مجلاته خلال أربعين عامًا عن هذا الموضوع بالذات إلا أن يشعر بأنه كان يعيش الأحداث قبل وقوعها بعشرات السنين ، وأنه كان يعلم عن الحركات والمذاهب والاتجاهات السياسية والمذهبية أكثر بكثير مما يعلمه كبار الساسة والمفكرين الذين يقودون ويحكمون والذين يتخيلون أنهم يؤثرون فى روح الشعب وكيانه ، وليت شعرى كيف حال من كانوا يسفهون رأيه بالأمس عندما رأوا الحق ناصعًا لا لبس فيه ، فعرفت حقيقة الماسونية واكتشفت جذور الصهيونية ، وهى لا شك مقضىٌ عليها طال الزمن أو قصر .

الإمام والاشتراكية

كان رضى الله عنه يوالي الاتصال بالمصريين والمسلمين المقيمين ببلاد أوربا ، يذكرهم بقضيتهم ، ويحثهم على أن يكونوا قدوة تجذب أهل الغرب إلى الإسلام . كما كان أسلافهم ، ومن رسالة له ردًا على ما بعث به إليه الأستاذ محمد سليمان من سويسرا ، حيث كونوا اتحادًا يضم المصريين المغتربين فى أنحاء أوربا يقول له :

« السلام عليك وعلى جميع أولادى عندكم ، ممن جذبهم حب الخير للمجتمع الإسلامى الكبير ليكونوا عمالاً مخلصين لله ولرسوله ، وللجامعة الإسلامية ، فأقبلوا بكليتهم إلى تحصيل الوسائل الفعالة للقيام بالأمة وسد الفراغ الذى مكن غيرنا منها . أكتب إليكم يا أولادى وأنا بين درسى ومحرابى ، أتمثلكم فأبتهل إلى الله تعالى أن يجعلكم أنجمًا مشرقة تضئ للمجتمع ، وأن يحفظكم من المعصية وأسبابها .. تعلمون يا أولادنا أن الجيل الماضى من سلفكم الصالح ، ينادونكم أن انهضوا يا أولادنا لتجديد مجدكم ، وهبوا لنيل مقصودكم وأن الحاضر من إخوتكم المسلمين ينظرون إليكم بعيون ملؤها الأمل ، ويلحظونكم بقلوب ملؤها الحنان والرجاء ، وينتظرون منكم باكورة تلك النهضة المباركة ، حتى تعودوا بذخائر العرفان وكنوز الصناعة والفنون . وأن الجيل المستقبل يسألكم أن تبقوا لهم آثارًا يعتدون بها ودعائم يشيدون عليها ..

أولادى ، تعلمون أن القلوب معكم ، والعقول تفكر فيكم ، وأن نفسًا من بعدكم عنا عزيز علينا ، لولا الآمال التى نعلقها بالله تعالى ، وتلك الحقيقة تجعل أنفاسكم أنفس من النفائس . فليقبل كل واحد منكم على ما تميل إليه نفسه من العلوم والفنون والصناعات . ليكون نابغة فيها ، وحسنوا نواياكم فى القصد . واعلموا يا أولادى أن تقوى الله أساس كل رقى . وكل خير فى الدنيا والآخرة ، وإنى أعلم أن فتن البلاد الأوربية بالنسبة للأمور المباحة فيها مما حرمه الله ، ربما يجعل الطالب ينسى ما عليه لله سبحانه ولرسوله ﷺ ، ولوالديه ولأمته ، فليتذكر كل طالب منكم أن الله تعالى معه ، وأنه غيور سبحانه . وليحافظ كل المحافظة ، أولاً بالذات على القيام بفرائض الله تعالى وبسنن رسول الله ﷺ ، وعلى الغرض الذى هاجر من أجله ، وثانيًا على أن يكون مثالاً حسنًا يمثل للقوم الذين هو بينهم ، جمال الإسلام عقيدة وعبادة وأخلاقًا ومعاملة ، كما كان يفعل أصحاب رسول الله ﷺ من السلف الصالح ، فإن القوم يرسمون صوركم على قلوبهم ويحكمون على الإسلام بما يتصورونه عليكم .

أولادى ، أنتم غرباء ، ولكن الأخلاق الإسلامية جعلت المسلم قريبًا حيث كان ، مألوفًا حيث حل » .

كان الكاتب الكبير حفنى ناصف من أقطاب الوطنيين، فأرضع أولاده لبانها منذ طفولتهم حتى إذا شبوا اشتركوا في ثورة عام ١٩١٩ اشتراك تضحية وفداء، وكان حفنى ناصف يحرص على سماع تفسير أسرار القرآن من الإمام أبى العزائم، وقد توثقت بينهما صلة روحية وزار الإمام حفنى ناصف فى داره وتنبأ لابنته الطفلة «ملك» بمستقبل باهر، فكانت شابة من كبريات أدباء مصر طار صيتها إلى الآفاق ..

وفى أعقاب ثورة ١٩١٩ شخص أبناء حفنى ناصف، عصام الدين ومجد الدين، إلى أوربا للدراسة. وهناك أسسا جمعية الطلبة المصريين فى أوربا، وكان عصام الدين سكرتيرًا لها فى برلين، فى حين كان مجد الدين سكرتيرًا للجمعية فى باريس، وقامت الجمعية بنشاط اجتماعى وسياسى فى خدمة القضية العربية المصرية. ولكنها اتجهت إلى اليسار الأوربى مبهورة بالمبادئ الاشتراكية المتطرفة، واعتبرت هذا اليسار هو السند الوحيد لحركة التحرير الوطنى فى مصر، وذلك بعد التأكد من خداع مبادئ ويلسون. ولما كان سعد زغلول مفاوضًا مصريًا معتدلاً، فإنه من الطبيعى أن تتصادم مبادئ الطلبة اليسارية مع مبادئ الوفد، وقد تزعم عصام الدين وأخوه، حملة ضد سعد ومبدأ المفاوضة، وعقدوا المؤتمرات الطلابية واتهموا الوفد فى باريس باتباع سياسة التهاون والتردد، وقابل الوفد هذا الإجراء بمنع مساعداته المادية، فاتجهوا لمصر وانهالت عليهم المساعدات وكونوا فرعًا لهم بالقاهرة، مما أزعج سعد زغلول.

واتصل عصام الدين بالإمام أبى العزائم، فى رسالة مطولة أشار فيها إلى موضوع بالغ الأهمية هو: «العلاقة بين الاشتراكية والإسلام» يختتمها بقوله: «وعلى ذلك فليس هناك أى تنافر بين الاشتراكية والإسلام، وإذن فقد كذب الذين يستندون إلى الآية الكريمة ﴿ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات﴾[1] لتثبيط همم الطبقة العاملة بحقوقها وتبرير حالة الذين يرثون المال، فيأخذون فى إنفاقه على العاهرات وبائعى الخمور متخذين من تركيز الثروة فى أيديهم قوة ووسيلة لإتلاف أخلاق الوسط الذى يعيشون فيه ..».

ويرد الإمام أبو العزائم على الثائر الشاب، الذى اختلط عليه أمر الإسلام كدين وعقيدة، بالاشتراكية كمذهب وفلسفة، فيقول فى رسالته التى تقع فى اثنتى عشرة صفحة:

«ليست الاشتراكية هى الإسلام، وليس الإسلام هو الاشتراكية. الاشتراكية فلسفة ومذهب إنسانى، من وضع الإنسان الذى لا يبرأ من الخطأ والغرض والطمع، مهما

---

(١) سورة الزخرف آية ٣٢.

حاول أن يكون قريبًا من الصواب ، فتلك طبيعته .

أما الإسلام فهو دين سماوى ونظام إلهى ، ووضع ربانى ، فهو أبقى على الدهر وأقرب للعدل ، لأنه يأمر بالمساواة وينهى عن البغى والعدوان ، لأنه يقوم على التوحيد ، ووحدة الألوهية تمحو الشرك ، وأن الشرك والطغيان متلازمان . وليس فى رسالة الإسلام أدنى عيب ، إنما العيب فى المسلمين أنفسهم . وما زال الإسلام على حق بتعاليمه محفوظًا فى كتاب الله وسنة نبيه ، وهو حاكم على المسلمين غير محكوم عليه بأعمالهم . الإسلام يا ولدى قوة الإيمان التى هى بمثابة الوقود ، وعمل يحرك الآلات نحو غايتها السامية المرسومة لها .

.. وحقيقة الأوضاع التى تراها الآن فى المجتمع الإسلامى الكبير أن الاستعمار فى شكله الحديث عمل فى أولى مراحله ، على تعميق هوة القديم الموجود أمامه من الشعوبية والعصبية فى المجتمعات الإسلامية المتفرقة ، حيث وجد مجتمعًا إسلاميًا ضعيفًا ، وعرف الاستعمار أن سر ضعفه يكمن فى حزبيته وشعوبيته . فلم يكتف بالقديم منها ، وإنما أثار نزعات جديدة بين الأمم الإسلامية ، لتتسع الهوة الفاصلة بينهم ، وتزيد شقة التباعد ، فتكون نتيجتها التحاسد والأحقاد ، فيحكم بينهم المستعمر بغير ما أنزل الله ، ومن أجل هذا المخطط الشيطانى ، حمل حملة شديدة على القيم الإسلامية ، وهجم على الدين الإسلامى هجومًا عنيفًا حتى يضعف الوازع الدينى لدى الناشئة ، ويشكك الأمة فى دينها . ثم كانت مرحلته الثانية بالإبقاء على المسلمين وقودًا بشريًا واستغلالًا اقتصاديًا ، واستعمارًا فكريًا ، يربطهم بدائرة التبعية الفكرية الغربية ، وهذه هى مرحلة توطين الاتجاه الفكرى العلمانى الغربى ، الذى يقضى بفصل الدين عن الدولة ، وهو ما طبقته أوربا الرأسمالية . وبدلًا من أن يعود المسلمون إلى دينهم الذى يضمن لهم العزة والمجد والرفعة ويدرسون سر تأخرهم وجمودهم ، راح فريق منهم ومن خيرة شبابهم ، يأخذون بالمذهب الماركسى ، وهو المذهب الذى ينكر الأديان صراحة ، ولا يقل عن الاتجاه العلمانى عنفًا فى محاربته للقيم الإسلامية ..

فمتى يا ولدى يفيق المسلمون ، فينظروا إلى ما داسوه بأقدامهم من جواهر التعاليم ، متطلعين إلى صخور ورمال لا تؤدى إلى شئ ولم تخلق لهم ، لأن الحق تعالى ما اختار المسلمين عبثًا ، وإنما اختارهم لرسالة الإنسانية جمعاء فوضع لهم النظام الذى ينفعهم وينفعها . إننى لم أفقد الأمل فيكم بعد ، فانهضوا يا بنى لرفعة الأمة على دعائم ثابتة وقوية من الأخلاق الفاضلة الإسلامية . والله معكم ....» .

الإمام ونظرية داروين

روّج اليهود لنظرية « تشارلز داروين » اليهودى والتى أدت إلى انهيار العقيدة الدينية فى الغرب، ونشر الإلحاد .. وأرادوا نشرها فى العالم الإسلامى.

والإنسان فى معتقد داروين متحول عن خلية هبطت من بعض الكواكب إلى الأرض ثم تمت فيها فكانت حيوانًا رديئًا فى أبسط شكل، ثم تغيرت الأرض بفعل بعض المؤثرات الطبيعية، فاضطر هذا الحيوان المخلوق لتغيير شكل معيشته، فتبع ذلك تغير فى صفاته، ثم استحال مع طول الزمن وكثرة المؤثرات المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول، ثم ارتقى إلى قرد على مبدأ « النشوء والارتقاء » الذى فتنوا به، ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقى إلى حيوان آخر هو بين القرد والإنسان بواسطة بينهما، ثم انقرض هذا الحيوان الواسطة بدليل عدم العثور عليه فى آثار الأحياء. ولعل انقراضه كان على مبدأ « الانتخاب الطبيعى »، والبقاء للأصلح كما يقولون، ومن ذلك الحيوان الواسطة المفقود ارتقى الإنسان إلى ما هو عليه الآن !!.

وبنوا معتقدهم هذا فى خلق الإنسان، بأنه متحول من القرد على أساس مجموعة نظريات هى الانتخاب الطبيعى، والبقاء للأصلح، والنشوء والارتقاء، والمطابقة، وعامل الوراثة.

الأدلة على بطلان الزعم القائل بأن الإنسان أصله قرد والتى رد بها الإمام المجدد على هذه النظرية الباطلة هى[1]:

١ - علم التشريح حجة على بطلان هذا المذهب وسخافة القائلين به :

إنك أيها المدعى لترى الفرع أنقص من الأصل بالحس، هذا البغل فرع الحمار والحصان وهو أنقص منه لأنه فقد المبيض (تجويف فى الرحم يكون به التوالد) وترى الحيوانات المتولدة من نوعين تفقد كثيرًا من حقائقها بالحس، ولكنك أيها الإنسان ترى الفرع الذى هو أنت أكمل فى الحقائق من الأصل الذى هو القرد، فإنا إذا شرّحنا منتصف رأس الإنسان ورأس القرد، نجد فى رأس القرد أربع غدد: غدة للسمع لو مسّت بمفرق لسلب السمع، وغدة للبصر، وغدة للشم، وغدة للذوق. ونرى فى رأس الإنسان خمس غدد: أربع منها للسمع، والبصر، والشم، والذوق، والخامسة

(١) كتاب « إنسان المؤمنين وإنسان الملحدين » للإمام أبى العزائم.

غدة هى خزانة نطق اللسان وهذه مفقودة فى القرد، فمن الذى أودع تلك الغدة فى رأس الفرع وهى لم تكن موجودة فى الأصل؟!! حتى أن تلك الغدة لو فسدت لخرس اللسان.

والإنسان كما يدعى هذا المضل فرع القرد، وفرع الشئ قد لا يبلغ كماله النوعى إلا بعناية فكيف يزيد عليه؟!!.

٢ - تنوع الحقيقة وصفًا وهيئة أكبر هدم لنظرية داروين :

فالإنسان حيوان إلا أنه :

أ - طويل القامة.

ب - عريض الأظافر.

ج - ضاحك بالطبع.

والقرد حيوان يفارق الإنسان فى الهيئة وبعض الصفات وهذا هو التنوع.

٣ - إن المجتمع الإنسانى غير عالم الحيوان :

إذًا فى المجتمع الإنسانى نظام وترق، فالإنسان جمَّله الله بمعانى العلم والحكمة، والعدالة والرحمة، وصاغ الله نفسه من أصفى الجواهر النورانية، وجعله وسطًا، وأيده بروح وقوة منه سبحانه ليدفع ظلم الظالمين، ويكبح جماح النفس الشهوانية والغضبية، ويحفظ الثغور، ويقيم الحدود، ويقطع شأفة ما يضر بالقوة النفسانية كالخمور والمخدرات وما يضر بالأموال كلعب الميسر، وما يضر بالأجسام ويمحو الخلافات الناتجة بسبب الغلو فى الدين وأهل الآراء الباطلة.

وليس فى عالم الحيوان شئ من ذلك...

فكيف يكون الفرع أعلى من أصله وهو القرد؟!!

٤ - جعل الله الإنسان جوهرة عقد المخلوقات :

خلق الله الإنسان بيديه فى أحسن تقويم مبناه ومعناه: أما مبناه فمن كل معادن الأرض، فجمع أركان الوجود الماء والتراب والهواء والنار ذلك هيكله، وأما معناه فقد جمع الله فيه حقائق الوجود سماءً وأرضًا، فالإنسان شيطان وأضل، ووحش وأضر، وملك وأفضل.

فسبحان من أظهر عجائب قدرته ، وغرائب حكمته ، فى مبدع بدأ خلقه من سلالة من طين ، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

وللعقول أن تحار فى الإنسان ، فبينما تراه وروحه فى ملكوت الله الأعلى سابحة ، مشرفة على قدس العزة والجبروت ، إذا بك تراه فى أسفل سافلين ، أضل من الأنعام ، بل فوق عالين ﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾[2] .

هذا هو الإنسان الذى خلقه الله ليعمر به ملكه وملكوته ، وجعل الأرض له مقرًا للإقامة ، ومستقرًا له بعد الموت ، ثم ينشئه النشأة الثانية فيمنحه الملك الكبير .

وقد سخر الله للإنسان كل ما فى الملك والملكوت ، وصرفه تصريف الربوبية فى الملك ، لذلك جعل الله الإنسان خليفة عنه فى هذا العالم ، ووعده عند الاستقامة أعظم الكرامة ﴿وإذا رأيت ثم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا﴾[3] .

وخلق الله لبنى آدم كل ما لابد لهم منه فى حالتى الضرورى والكمالى ، ولا مانع من أن الله وضع فى كل حقيقة كون منها الإنسان علمًا ضروريًا بكل الأشياء اللازمة لتلك الحقيقة ، فما من كائن فى الوجود إلا والإنسان محتاج إليه ، لا فرق بين ما فى السماوات من أفلاك وغيرها ، وما فى الأرجاء من المكونات ، وما فى الأرض من نبات وحيوان وجماد ، وما فوق ذلك من جمال الملكوت ، وما فى الجنات من نعيم مقيم ، لذلك كانت معرفة الإنسان وعلمه ، بينما الحيوان لا يعلم شيئًا من ذلك كله .

٥ - خلق الله تعالى حواء من ضلع آدم :

كانت حواء فرعًا ، وكان أصلًا لها ، وهذا هو السر الذى لأجله خلقت من ضلعه ليحصل منه السكون إليها ، والحب منها له ، فإن كل فرع يحب أصله ، وكل أصل يحب فرعه ، كما يحب الولد والده ، والوالد ولده فى أصل الفطرة .

فأين هذا من دعوى أن الإنسان أصله قرد ؟ .

---

(٢) سورة آل عمران آية ١٣٩ .

(٣) سورة الإنسان آية ٢٠ .

٦ - الإنسان دينى بفطرته :

قال رسول الله ﷺ : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)[٤] فكأن الإنسان يولد مؤمنًا كامل الإيمان لاستئناسه ﴿ بألست ﴾[٥] ومعلوم أن نور الحكمة حظر شهوده على الإنسان إلا بوحى ، وقد تفضل الحق سبحانه فأرسل رسله المؤيدين بالمعجزات ، فكأن المعجزات فى قوة قوله تعالى : « صدق عبدى هذا وهو رسولى إليكم فاتبعوه » .

أيكون فى الفرع ما ليس فى الأصل ؟!!

وأين دين القرود أو تدين الحيوان ؟!!

والإنسان هو المحجوب بالأدران النفسانية ، المبعود بالحظوظ الحيوانية ، لا يذوق لذة الإيمان ، ولا حلاوة الإحسان ، بل ويدعوه الغرور إلا الانشغال بالنعم عن المنعم ، فإذا أذاقه الله ألم الاحتياج يئس وباع دينه بدنياه ، حتى يزكى نفسه بنور التسليم والانقياد ودراسة العلم النافع .

فأين هذه المعانى فى الأصل المزعوم ؟!!

٧ - فى الإنسان قوى مفارقة :

منها العقل العلمى وهو الذى يستنبط ما يجب فعله من الأفعال الإنسانية ، ويقيس الأشباه والنظائر التى لم يرد بها نص .

ومن تلك القوى أيضًا العقل العلمى وهو الذى يتم به جوهر النفس ، وتصير نفسًا طاهرة زكية بالفعل ، وتتفاوت مراتبه فقد يكون بالوهب أو بالكسب .

تلك القوى التى تدرك المعقولات روح مجردة ليست بجسم ، وتلك الروح تبقى بعد موت البدن لأنها ليست قابلة للفساد ، وهى المعنية بقول الله تعالى : ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى ﴾[٦] . وقوله تعالى : ﴿ يأيتها النفس المطمئنة ارجعى إلى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى ﴾[٧] .

---

(٤) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والموطأ وأحمد .

(٥) سورة الأعراف آية ١٧٢ .

(٦) سورة الحجر آية ٢٩ .

(٧) سورة الفجر آية ٢٧ - ٣٠ .

وليس ذلك فى القرد أو غيره من الحيوان .

٨ - طرق العلم هى الخبر الصادق :

الحس الصحيح ، والعقل الكامل ، معنى قوله تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾(٨) . فجعل سبحانه الأسماع للخبر الصادق ، والأبصار لشهود الأكوان الدالة على مكونها سبحانه ، والقلوب لفقه الآيات الدالة على القادر الحكيم المصور البديع المنعم ، ومن تمام الفضل الإلهى إرسال الرسل معلمين للخير دالين عليه .

فأين ذلك فى الأصل المزعوم ، والجد الموهوم ، القرد وأشباهه ؟!!

٩ - فى النوع الإنسانى تظهر الصور :

وفى النوع الإنسانى تظهر الصور الكاملة والصور الأكمل أمثال الأنبياء والمرسلين ، وهم أعلى من الملائكة قدرًا ، حتى لقد سجدت الملائكة لآدم عليه السلام ، وتميزت رتب البشر من الأنبياء والرسل منهم من كلم الله ، ومنهم من أيده بروح القدس ، ومنهم من لا يعرفه إلا الله قدرًا ومكانة .

فهل هذا فى عالم القردة ؟!!

وفى النوع الإنسانى وجد عيسى عليه السلام بلا أب ، ووجد آدم عليه السلام بلا أب ولا أم ، ووجد الناس جميعًا من أب وأم .

فزعم الضالون أن كل مولود لابد له من والد ، وعلى هذا فإما أن يكون ابن زنا وذلك مستحيل عادة وعقلًا ؛ لما أتى به من المعجزات الباهرة .

فهل وجد فى عالم القردة الأجداد أمثال هؤلاء الأمجاد ؟!!

١٠ - أنتجت الضرورة العمل والتعاون :

لابد من قانون يحكم العلاقات ، وإلا خرب العمران من التقلب فى الرذائل والعدوان ، والإنسان يحكم على الأبدان ، أما تزكية النفوس فذلك لله ومن هنا جاءت الشرائع .

فهل فى عالم القردة شريعة ؟!!

---

(٨) سورة النحل آية ٧٨ .

كما جاءت الشرائع مواكبة لتطور بنى آدم عبر العصور مثلًا جاء سيدنا نوح لهدم عبادة الأوثان المتفشية فى زمنه ، ثم سيدنا لوط لينذرهم عاقبة الفاحشة المنتشرة فيهم ، ثم سيدنا صالح ليعلمهم العدل والمساواة وجعل له الناقة آية ، ثم سيدنا إبراهيم ليطهرهم من رجس الشرك ويوجههم إلى الله تعالى ، ثم سيدنا موسى عليه السلام ، فلما غالوا فى الماديات أرسل سيدنا عيسى عليه السلام ليمحى تلك البدع بما جاءهم به من الحكمة والبيان ، كما أرسل سيدنا شُعيبًا ليعلمهم خلق الوفاء فى الكيل والميزان ، حتى بعث الله خاتم رسله ﷺ بالقرآن تبيانًا لكل شئ من ضروريات وكماليات الإنسان ، بل وفضائلة النفسانية وكمالاته الروحانية لنيل سعادة الأبد .

فهل مرت مراحل أجيال القردة بمثل هذا التطور أيضًا ؟

كما تطور القرد حتى صار إنسانًا ؟!!

١١ - كل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضًا :

لكل الوجود مراتب يعلو بعضها بعضًا ، فالنبات وسط بين أنواع المعادن والحيوان ، فهى تزيد عن المعادن بالنمو وتنقص عن الحيوان بالحس والحركة ، ولأن النبات تصادمه الأجسام الصلبة ويقطع الإنسان منه فلو وهبه الله الحس لكان عذابًا له ، فتأمل مراتب الوجود يخدم بعضها بعضًا ، ويعلو بعضها بعضًا ، والإنسان وحده بحكمة القادر الحكيم هو سيد هذه الكائنات .

فكيف للقرد أن يصل إلى هذا الرقى ؟!!

ولِمَ لم يصل غيره من الحيوان لمرتبة أعلى أو أدنى ؟!!

١٢ - ارتقاء النفس فى الهيكل :

إن تطور الهيكل من قرد لإنسان ، فكيف ارتقت النفس التى فى هذا الهيكل بحيث أصبح الإنسان لو تعلقت همته بجهة مما أعَد لها فى أحسن تقويم أو أسفل سافلين نالها ؟!! فهو إما مَلَك هائم فى جلال ربه ، وإما غضوبًا كسبع ، أو كسولًا كبقر ، أو جزعًا ككلب ، أو حقودًا كجمل ، أو جامعًا لكل تلك الصفات فيكون شيطانًا مريدًا وهو فى صورة إنسان .

ومعلوم أن النفس هى اللطيفة النورانية ، بل هى أمانه الله المشرقة أنوارها فى هيكل الإنسان ، يعرفها من عرف نشأته الأولى ، وتحقق أن أسفل سافلين مفارق لأعلى عليين ،

وكيف جمع الله بينهما بقهر واقتدار، وجعل أسفل سافلين يرتقى حتى يخدم بالملائكة المقربين فى جوار رب العالمين.

وتلك المعانى فى الإنسان فقط فلا يدريها الحيوان.

فهل يدرك القرد ذلك؟!

١٣ - من أين جاءت القوى المتنوعة فى الإنسان وليس لها فى القرد وجود؟!!

انظر مثلًا: ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾[٩].

ثم انظر القوى الغاذية للطفل فى بطن أمه، ثم يوهب قوى الحس بأنواعها، ويجعل له قوة الميل فيشتاق قلبه إلى ما يحبه أو يكرهه، ثم يجعل له سبحانه القوة المتخيلة وهى تركب وتفصل، ثم قوة الميل لما تخيل أو الميل عنه، ثم القوة الناطقة وهى الحقيقة الخاصة للإنسان المميزة له عن بقية أنواع الحيوانات، وهى التى يمكن أن يعقل بها المعقولات، ويميز بين الجميل والقبيح، وبها يحوز الصناعات، ثم يمده الله بقوة فى قلبه يميل بها إلى ما يعقله، ويشتاق إلى أن يتجمل بالحكمة وأسرارها.

ومن المعلوم كذلك أن القوى: قوة الشهوة، وقوة الحمية، وقوة الفكر.

فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة، فيحترز بها من الشره، وإماتة الشهوة، ويتحرى المصلحة فى المأكول والمشروب.

وبإصلاح قوة الحمية تحصل الشجاعة، فيحترز من الجبن والتهور والحسد، ويتحرى الاقتصاد فى الخوف والغضب.

وبإصلاح قوة الفكر تحصل الحكمة، حتى يحترز من البله والخبث، وبتحرى إصلاح هذه القوى تحصل فى الإنسان قوة العدالة قال ﷺ: (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك)[١٠].

هل ارتقى القرد حتى نال هذه المنازل الرفيعة؟!!

---

(٩) سورة النحل آية ٧٨.

(١٠) رواه البيهقى فى الزهد وله شاهد من حيث أنس.

مراجع الكتاب

أولاً : الكتب :

١ - كتب الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم رضي الله عنه :

- أسرار القرآن .
- أصول الوصول لمعية الرسول .
- الإسلام نسب يوصل إلى رسول الله ﷺ .
- الإسلام وطن والمسلمون جميعًا أهله .
- الطريق إلى الله .
- تفصيل النشأة الثانية .
- دستور آداب السلوك إلى ملك الملوك .
- دستور السالكين طريق رب العالمين .
- شراب الأرواح من فضل الفتاح .
- صيام أهل المدينة المنورة .
- عقيدة النجاة .
- قبس من المضنون (تحت الطبع) .
- مذكرة المرشدين والمسترشدين .
- معارج المقربين .
- من جوامع الكلم .
- نيل الخيرات بملازمة الصلوات .
- وسائل إظهار الحق .

٢ - كتب أخرى :

- بحوث ورسائل علمية عن الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم ، لشيخ الطريقة العزمية السيد محمد علاء الدين ماضى أبى العزائم .
- المواهب الإلهية ، لفضيلة الشيخ أحمد سعد العقاد .
- الإمام محمد ماضى أبو العزائم ، حياته ، جهاده ، آثاره ، للأستاذ عبد المنعم محمد شقرف المحامى .
- السر الأعظم ، للدكتور مصطفى محمود .

ثانيا: المذكرات:

- مذكرات مخطوطة تحت عنوان «خاتم الورّاث المحمديين الإمام السيد محمد ماضى أبو العزائم» لسماحة السيد عز الدين ماضى أبى العزائم رضى الله عنه وأرضاه.
- مذكرات مخطوطة تحت عنوان (حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم) لفضيلة العارف بالله الشيخ طاهر محمد مخاريطه.
- مذكرات تحت عنوان (أشرف الغنائم فى شرح صلوات الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم) لفضيلة الشيخ أحمد سعد العقاد.
- مذكرات تحت عنوان (حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم فى السودان) تحت رعاية وإشراف فضيلة الشيخ سيف الدين محمد أحمد.
- مذكرات تحت عنوان (صفحات مشرقة من حياة الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم) للأستاذ عبد السلام شتا.
- مذكرات تحت عنوان (حياة أبى العزائم) للسيد محمود ابن شقيق الإمام السيد أحمد أبو العزم.
- مذكرات تحت عنوان (دور الإمام أبى العزائم الجهادى) لفضيلة الشيخ زاهر الزغبى.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

- رسالة الدكتوراه (منهج التربية عند الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبى العزائم) إعداد الدكتور محمد يوسف حموده، كلية أصول الدين، القاهرة (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).
- رسالة الدكتوراه (النثر الصوفى عند كُتّاب مصر المحدثين ١٩٠٠ - ١٩٤٠م) إعداد الدكتور أحمد يسرى عبد الونيس العزباوى، كلية اللغة العربية جامعة الأزهر، الزقازيق (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).
- رسالة الماجستير (آثار الإمام أبى العزائم الشعرية - دراسة فنية) إعداد الباحث سرى محمد حسن هاشم الشريف، كلية الآداب، سوهاج (١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م).
- رسالة الماجستير (الإمام محمد ماضى أبو العزائم ودوره فى التصوف الإسلامى) إعداد الباحث محمد السيد المليجى، كلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).

الفهرس

الموضوع	الصفحة
فاتحة الكتاب	١
تمهـــيد	٦
النسب الشريف للإمام	٩
الباب الأول : الإمام رضى الله عنه .. تاريخ ومعالم	١١
تنقلات الإمام خلال فترة عمله بالتدريس	١٧
سبب انتقال الإمام من السودان نهائيًا إلى مصر	٤٢
دور الإمام رضى الله عنه فى السودان	٥١
إقامة الإمام الدائمة بمصر	٥٦
يوم من حياة الإمام	٦٤
تلقيه رضى الله عنه عن مشايخ السادة الصوفية	٦٨
كنيته رضى الله عنه	٧٤
الباب الثانى : الدعوة الإسلامية للإمام رضى الله عنه	
الإذن ببدء الدعوة	٧٧
بداية إملاء الإمام لمواجيده	٨٠
تأسيس جماعة آل العزائم وانتشارها	٨٢
الأسس التى ربى عليها الإمام السالكين	٩٠
الدستور النظمى للطريق	١١٦
تأسيس الطريقة العزمية	١١٩
دستور فقراء آل العزائم	١٢٢
الباب الثالث : أخلاق الإمام وسيرته وتراثه رضى الله عنه	
مقدمة فى الأخلاق	١٢٥
ما منَّ به الله من نعم على الإمام	١٢٩
جملة من أخلاق الإمام	١٤٢
سيرة الإمام في مصيفه ببرج البرلس	١٧٥

الموضوع	الصفحة
الإمام وزياراته لأولياء الله الصالحين	١٨٢
الكرامة والاستقامة	٢٠٣
التراث العلمى للإمام (النثرى - النظمى)	٢١٣
انتقال الإمام إلى الرفيق الأعلى	٢٨٠
الباب الرابع : التجديد الدينى فى القرن الرابع عشر الهجرى	٢٩٦
الإمام وتفسير القرآن	٣٠٧
الإمام وتفسير الحديث	٣٢٢
الإمام وعلم التوحيد	٣٤٧
الإمام والنفس البشرية	٣٥٨
الإمام وحملات التبشير	٣٨٥
الإمام والإصلاح الاجتماعى	٤١٢
الإمام والتصوف	٤١٩
الإمام وعلم الفقه	٤٥٩
الإمام والسماع	٤٦٤
الإمام والقصة	٤٧٤
منهج الإمام فى الدعاء	٤٩١
الباب الخامس : الجهاد السياسى والفكرى للإمام رضى الله عنه	
الإمام وثورة ١٩١٩	٥٠٢
موقف الإمام من إلغاء الخلافة الإسلامية	٥٢٩
تأييد الإمام لثورات وحركات الشعوب الإسلامية	٥٥١
الإمام والقضية الفلسطينية	٥٦١
الإمام والماسونية	٥٧١
الإمام والاشتراكية	٥٧٤
الإمام ونظرية داروين	٥٧٧
المراجـــــــع	٥٨٤
الفهـــــــرس	٥٨٦

تم بحمد الله وتوفيقه

طبع بمطابع
دار المدينة المنورة
١١٤ ش مجلس الشعب - السيدة زينب
ت : ٣٩٠١٠٣٠ - فاكس : ٣٩٠٨٨٤٨



خاتم الوراث المحمديين الإمام المجدد السيد محمد ماضى أبو العزائم

هذا الكتاب الهام الذى اشتاقت إليه أرواح الكثيرين من تلاميذ الإمام ومحبيه وعارفى فضله لأنه :

أولًا : أول كتاب تصدره مشيخة الطريقة العزمية عن حياة الإمام أبى العزائم رضى الله عنه بعد انتقاله بحوالى ٦٠ سنة .

ثانيًا : يرفع المظلمة التاريخية عن الإمام أبى العزائم ، لأن وسائل الإعلام المختلفة تجاهلت -للأسف الشديد- تاريخه الحافل ودوره الكبير فى سبيل الدين والوطن ، لأن الإمام لم يكن محابيًا ولا مداهنًا لأى حاكم من الحكام وكان ينطق بكلمة الحق ولا يخشى فى الله لومة لائم .

وهذا الكتاب يحتوى علي فاتحة وتمهيد وخمسة أبواب :

الباب الأول : تاريخ ومعالم شخصية الإمام رضى الله عنه .

الباب الثانى : الدعوة الإسلامية للإمام رضى الله عنه .

الباب الثالث : أخلاق الإمام وسيرته وتراثه رضى الله عنه .

الباب الرابع : التجديد الدينى للإمام فى شتى جوانب العلوم الإسلامية .

الباب الخامس : الجهاد السياسى والفكرى للإمام رضى الله

ومشيخة الطريقة العزمية إذ تقدم هذا الكتاب الهام تدعو الله أن ينفع به المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .. وهو حسـ ونعم الوكيل .. نعم المولى ونعم النصير .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

